بسم الله الرحمن الرحيم

حين قدّم الكاتب والباحث المسيحي جورج جرداق كتابه الرائع (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية) لقرّائه، كان قد قام بتجربة علميّة فريدة وجادّة ذات دلالات عميقة تحمل في الوقت نفسه أبعاداً من الإثارة ونماذج من الإبداع الإنساني يقدّمه باحث غير مسلم عن رجل الإسلام الثاني فهو لم يتحيّز الى فئة ولم يتجاوز عناصر الموضوعية لأنه لا ينتمي ثقافياً ولا مذهبياً الى خطٍّ أو فرقة من فرق المسلمين، فلا تحكمه خلفيّات ثقافيّة و تعصّبات مذهبية لتملي عليه اتجاهاً معيناً في البحث والاستنتاج.

انّها تجربة فريدة ودعوة جادّة لدراسة تأريخ الإسلام بكل موضوعية و تجرّد من كل إطار مذهبي. فهو بذلك قد أتمّ الحجة على كل من يزعم أنّ حقائق التاريخ الإسلامي لا يمكن استكشافها من خلال كتب التاريخ التي طالما مسّتها يد الحكّام المتجبرين لتضيّع معالم الحق وآثاره خلال قرون مضت وأحقاب قد تصرّمت.

إنّ الاسم الذي اختاره جرداق لموسوعته ذو دلالة واضحة على محتوى محاولته والنتائج الباهرة التي انتهى اليها كباحث يريد اكتشاف حقيقة الصراع بين الخط الجاهلي الذي تلبّس برداء الإسلام والخط المحمّدي الذي تتابعت الأيدي الأثيمة لمسخه وتشويهه وتغييبه بفنون من الدجل والوضع والتزوير لطمس كل الحقيقة أو قسطٍ منها.

وهكذا يتجاوز جورج جرداق في كتابه هذا تأريخ شخص الإمام علي عليه السلام

الى تأريخ أُمة لمع فيها نجم الإمام وأشرق منها على الإنسانية جمعاء.

وإن محاولات إطفاء نور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ربيب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسيّد صحابته وأخيه وزوج ابنته وأبي سبطيه والإمام الحق من بعده، وتغييب دوره اللامع بسناه المشرق على الإنسانية لهي محاولات بائسة خاسرة، وهي أحقر ممّا يتصوّره الطغاة المتجبّرون وأصحاب المطامع الدنيوية الذين كانوا يلهثون وراء المال والسلطة بدافع من هيمنة المستعمرين القدامى الذين كادوا ويكيدون للإنسانية قبل أن يكيدوا للحقّ وأصحابه وقبل أن يكيدوا للإسلام أو المسيحية أو غيرهما من شرائع التوحيد الحق.. فإن الحق تعالى يقول في محكم كتابه المجيد وقرآنه الخالد:

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾(١).

والمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام يقدّم شكره الجزيل لفضيلة الأُستاذ الباحث حسن حميد السنيد الذي تولّى مهمّة تحقيق هذا الكتاب مع سائر الأُخوة الأفاضل الذين آزروه في إنجازه وهم: الشيخ لطيف فرج‌الله وعزيز العقابي وحسين رفعت الصالحي دام عزّهم جميعاً.

وقد تمّ تهذيب الكتاب وتقديمه لطلّاب الحقيقة اقتصاراً على تأريخ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ليتجاوز بذلك حصار الزمن الذي اُلف فيه الكتاب وليؤتي ثماره كل حين. والله من وراء القصد وهو الموفّق للصوابّ

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

المعاونية الثقافية ـ قم المقدسة

---

(١) الطور: ٤١.

مقدمة التحقيق

يُعدّ كتاب «الإمام علي صوت العدالة الإنسانية» لجورج جرداق من الكتب المثيرة في دائرة الاهتمام بشخصية الإمام علي عليه السلام.

ومن مؤشّرات ذلك أن منهج وضع الكتاب اعتمد أُسلوباً تحليلياً فنياً مقارناً بعيداً عن السرد التاريخي البحت وبعيداً عن اللّفظية الإيجابية المتكررة التي يقع البعض تحت طائلتها في إطار دراسة الشخصيات التأريخية الخطيرة.

إن الكاتب في هذه الموسوعة ينحىٰ منحىً نقدياً موضوعياً، توفّر على استيعاب المنعطفات الحادّة والمبهمة، التي تشكّل جزءً من تأريخنا الإسلامي، بكل أحداثه وشخوصه وحيثياته.

ولأن نصف القرن الأوّل الإسلامي يعدّ مرحلةً تأسيسية للواقع الإسلامي المستقبلي... فإن دراسة هذا المقطع بالتحليل الواعي والنقد المتوازن توفّر رؤيةً واضحةً تتحدّد من خلالها نقاط القوة والضعف، ومديات الفواصل بين النظرية والتطبيق.

إن جورج جرداق في موسوعته التأريخية الفنية النقدية، يضعنا أمام مقطع صاخب من المعاناة التي عاشتها الأُمة والإمام على سبيل تأصيل الحقائق التي حاولت كيانات الذات مسخها وتدميرها وإخفاء حتى معالم أنقاظها التي قد تشير الى الطريق.

وليس من المبالغة أن نقول: إنّ جرداق في عمله الإبداعي هذا لم يضع في

وجدانه مواقف مسبقة عن التاريخ ورجاله.. بل راح يتصفّح الوقائع ويـفتّش في وثائق التاريخ ليضع علامة استفهام تلاحق تلك الشخصية، أو ينقش علامة تعجّب وراء ذلك الحدث أو يترك الحكم الى قرّائه الذين طالما أشركهم في ما يكوّنه من رؤى وآراء.

وثمّة معادلة خفيّة تنتظم العلاقة بين موضوعات جورج جرداق في عمله الفني، وهي إلغاء عنصر الزمن بين الفكرة والإنسان... فقد يستدعي شخصاً تأريخياً فيجعل له حضوراً آنياً مؤثّراً في بناء فكرته.. وقد يرحّل شخصاً معاصراً الى أعماق التأريخ ليرى مدى إنسجامه مع حدث معينٍ دون أن يضع للزمن تأثيره سلباً أو إيجاباً في تكويناته وتصوراته.

فهل كان جورج جرداق تجريديّاً في انتخاب النموذج؟!

إنني أدّعي ـ وبثقة ـ إنه لم يكن تجريدياً بالمعنىٰ المنطقي لهذه الكلمة... إنّه كان تجريدياً من حيث المؤثّرات التي تتجاذب أطراف الفكرة لتخرجها عن حدّها... ولم يكن كذلك من حيث الموضوعات التي تفرض وجودها على تجربته... لأن عقليته لا تخرج عن كونها جزءً من تأريخ الاُمة لغة وأدباً وصيغاً وإن كان يتقاطع مع أبطاله في دائرة العقيدة التي كلما اتسعت كلما ضاقت الفجوة بينها وبين الآخر.

إنّ (صوت العدالة الإنسانية) محاولة موفّقة لإعادة قراءة الذات، بكل ما فيها من تناقضات وأنساق... وبكل ما فيها من انتصار وتراجع. إنها إعادة لقراءة اُمّة، استطاعت ـ كما يقول جرداق ـ أن تعبّر عن عبقريتها ووجودها برجل!

ورغم أن هذه القراءة الفريدة لأحداث التاريخ على صعيدي الإنسان والاُمة جاءت على سعتها مترابطة الوشائج... فإن اجتهادات جرداق في توجيه

الغامض والمبهم من أحداث التاريخ حال دون اتساع الهوّة في الكثير من سلاسل الأحداث وتتابع الوقائع بل وأعاد ترتيب بعض المألوفات التي اعتاد المؤرخون على نمطيتها الموروثة.

وكم راجعت نفسي وأنا أحاول اختصار هذا السفر الرائد وتساءلت مع ذاتي: لماذا أقدم على تقطيع أوصال هذا الكائن الجميل؟! ولماذا أتجاوز هذا الفصل الى ذاك؟! وهل تدعمني في عملي مبرّرات موضوعية؟ أم هي رغبة فوضوية ليس إلّا؟!

أقولها بصراحة: إن العمل الإبداعي أيّاً كان نمطه، لابدّ وأن يتجدد مع الزمن بكل ما يحمله من أبعاد متغيرة... فالفكرة التي كانت مثيرةً بالأمس لم تعد تحفل بالإنتباه اليوم.. والرأي الذي كان مدار جدل في الماضي لم يعد يجد مَن يتأمل فيه في الحاضر... إنها ضريبة الوقت الذي يعطي في كل ساعة نموذجاً جديداً وربما يعطي في كل لحظة نماذج جديدة!

وهذا ما دفعني إلى أن أُعبر على فصول من موسوعة جورج جرداق كانت وقت ولادتها تحمل كل معاني الإثارة التي تشدّ إليها عقل المتلقي وقلبه ووجدانه...

كانت محاولات جرداق مذهلةً وهو يحاول اكتشاف دواعي التقنين الأُوربي المعاصر في كلمات الإمام علي عليه السلام القصار وحِكَمِه الرائعة.. وكانت محاولة مدهشة وهو يبسط أوجه المقاربة بين سقراط والإمام علي عليه السلام... وكان موفقاً وهو يسبر أغوار وصايا علي عليه السلام ليخرج منها الى حقائق عانى رجال الفكر المعاصرين في اكتشافها أية معاناة. إلّا أن كل هذا النسيج الجميل بين الماضي والحاضر، لم يعد ليثير اليوم ما أثاره بالأمس؛ ذلك لأن الزمن الذي تجاوز بريق الثورة الفرنسية، وجرّ ذيوله على فلسفة سقراط وافلاطون... راح

يحقّق ذاته من جديد في الثورة الإسلامية في إيران.. ويقف مبهوراً أمام شعوب العالم المستضعفة التي لم تعد تلد فلاسفةً بقدر ما تعطي ثوّاراً بسطاء جسّدوا أفكارهم بصدق وعفوية بعيداً عن تعقيد الاشكاليات وجدليات الفراغ.

لذا رأيتني أعمد الى الشجرة التي ورف ظلالها أوائل الربيع...

فأقوم بتشذيبها أواخر الشتاء لتعطي ثمارها كل حين.

لقد اختصرت فصولاً مطوّلة من الكتاب.. واقتصرت على تأريخ الإمام عليه السلام ذلك لأن تجاوز الحدود، ومازال وسيبقى رمحاً نافراً عن حصار الزمن الصديء... يتحدّى... يعطي... يصرخ... ولن يهدأ !

اختصرت صفحات بعينها وإني اعتقد جازماً أنّ أي قارئ لو قرأ فصول الموسوعة اليوم لتجاوز بعضها الى ما بعدها ولتابع بلهفة خطوات علي عليه السلام وهو يصنع مسار الأُمة على غفلة من التاريخ الذي لم يمنحه إلّا بضع سنوات عجولة!

اختصرت الكتاب ليطرق عقل القارئ الجديد... وليواكب الزمن الجديد... وأتصور لو أن جرداق نفسه أراد اختصار موسوعته بالدواعي ذاتها التي دعتني لذلك، لم يتعدّ ما قمت به! وهذا ماكان يدور في ذهني وأنا أحاوره في ملتقى الشاعر سعدي الشيرازي في طهران.

وأخيراً لا يسعني إلّا أن استميح القارئ عذراً إن كانت هناك بعض هنات في ارتباط عناصر هذا المختصر.. ذلك لأني لم أشأ أن أُضيف فقرةً أو سطراً من لدنّي، إذعاناً لقيمة الكاتب والكتاب واعترافاً مني بالقصور والتقصير.

والحمدلله أولاً وآخراً

حسن حميد السنيد

١ / رمضان /١٤٢٣ هـ

كلمة المؤلف

للإنسانيةِ تاريخٌ طويلٌ غريبٌ واحد .

أمّا ما يؤلّف طولَه فعمرُ الإنسان القديم تمتدّ به يد الدهر حتّى تصله بأوّل أيّامِ الأرض، ثمّ هذا التطوّر المتثاقل البطيء من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ ومن حياةٍ إلى حياة.

وأمّا ما يؤلّف غرابته فأكثر من أن يُساق في مقدّمة أو يُبحث في كتاب . ولعلّ أبرز مظاهر هذه الغرابة ما نراه من فترات زمنية عاشتها هذه الجماعة أو تلك من البشر، أو هذا الفرد أو ذاك، في قمّة من قمم الصعود الإنساني بين منخَفضاتٍ سحيقةٍ رهيبةٍ من الانحدار، حتّى ليرتاب الناظر إلى هذه القمم وهي تُحاط بهاتيك المنحدرات، بأنّ للتاريخ نظاماً حسابياً قاصداً يسير عليه ! وإلّا فكيف يُفسّر ارتفاع الأغارقة في عصرٍ من عصورِ هذا التاريخ واقعٍ بين أعصرٍ شتّى من المهاوي المتلاحقة . فإذا هم يعبّرون عن حقيقتهم خلال هذا الشموخ بعباقرة تصنع أيديهم صُوَرَ الخير والجمال وتكشف عن وجه الحقّ، وتضع عقولُهم أُصولاً وقواعد فيالفن والعلم والأخلاق وما إليها من شؤون الفكر وشؤون الكيان الإنساني جميعاً . وإذا بمدينتهم العظمى أثينا تعلو في الأرض حتّى إذا طمحتْ إليها أبصار الغزاة ؛ تعالَوا إليها من كلّ وادٍ ووثبوا عليها من كلّ سهل ؛ فغالتها حرابُهم ونشرتْ

على جدرانها ظلال الفناء، ثمّ ما انكشفتْ لهم حقيقتها وما تنطوي عليه من معاني الكمال الإنساني، إلّا ركعوا بين خرائبها وقَبَعوا كالأطفال ينظرون ويسمعون ويطيعون ثمّ يقبّلون مواطئ أقدام الشعراء والمصوّرين والفلاسفة، ويخلّون الأرض التي قدّسها الفكر، وقد هانت عليهم مطامعهم في الغزو وصغرتْ حرابُهم، ولانت قسيّهم وانقلبوا من برابرةٍ جُفاة إلى بشرٍ يحملون إلى الدنيا ما قلّ أو ماكثر من معاني الجمال التي لُقّنوها بين أطلال المدينة العظمى ! وإذا بأيدي الأغارقة تمتدّ بنور الإنسانية إلى أقاصي الأرض، على رؤوس الأيام وهام الحُقب وأعظِمْ بما يصنعون !

أمّا ما يؤلف وحدةَ هذا التاريخ، فكوْن المراحل التي مرّت بها شعوب العالم متشابهةً جوهراً وإن اختلفت شكلاً بعض الأحايين، وكونُ السياط الموجعة التي ذاقتها مواكب البشر جميعاً تحملها الأيدي ذاتها يغيّر اسمَها الزمانُ ويُكسبها لونَها المكان، وكون الغاية التي استهدفتْها شعوب الأرض في سيرها الموعر الشاقّ خلال رحلة التاريخ واحدةً كذلك وإن اختلفت عليها الأسماء ! وفي تاريخ الإنسانية الواحد أمرٌ يجعل هذه الوحدة ضرورةً لازمةً قائمة بذاتها، وهو أنّ كل تقدم سجّله الإنسان، فرداً أو جماعة، هو نسيجٌ موحّد أسهمت الإنسانية بكاملها في حياكته، وبكل عصورها، منذ أن كان الإنسان حتى يومه هذا .

وإذاكانت هذه هي قصة التاريخ: قصة التطوّر الشامل ضمن خطوط عامّة كبرى ؛ فما هو دورنا إذاً نحن العرب في نسج حوادثه ؟ وما هو عملنا خلال مراحله في خدمة الإنسانية، بل في خدمة أنفسنا ؟

لقد أسهمنا، بحكم وجودنا على سطح الأرض في صنع تاريخ الإنسانية بما فيه من طولٍ وغرابةٍ ووحدة ! ولعلّ إسهامنا في غرابته أظهر وجه

في صفحات تاريخنا الخاص . هذه الغرابة التي يمثلها، في طورٍ من أطوار تاريخنا، شموخُ عليّ ابن أبي طالب وشموخُ أقرانٍ له، بين منحدَرات هبطت بُعَيدَ أيامه وتشقّقتْ بها الأرض حتّى ما يبين لها قعر. شموخٌ في الفكر والقلب والسلوك خليقٌ بنا أن ننظر إليه كما ننظر إلى كلّ قمةٍ في تاريخ الإنسانية الواحد .

وما ضيّق على الإنسان آفاقه في القديم إلّا ما ارتضاه لنفسه من حدودٍ شادها الضلال وركّزتْها العادة، وشمخ بها التاريخ جيلاً بعد جيل .

وما عطّل على بصيرة المرء رؤيةَ الرحاب الرحبة والمسافات البعيدة والقمم الشاهقة ؛ إلّا غيومٌ ثقيلات يتنفّس الجهلُ بين لواعجها فتتراكمُ وتزدحم وتطغى وتسود .

ولطالما ضاقت هذه الحدود في أكثر عهود التاريخ، فعطّلت مواهب الإنسان التي اُوتيها لاكتشاف ينابيع الخير وراء الحدود . ولطالما طغتْ هذه الغيوم وتجهّمت فمنعتْ عن الإنسان أن يسبح في اللجّ ليشتدّ جرياً في مناكب الأرض .

أمّا ينابيع الخير فهذه، وأمّا السماء واللجّ ومناكب الأرض وما تحوي، فما هي في كثيرها إلّا أكفّ العظماء الحقيقيين الذين مرّوا في هذه الأرض مرورَ الغمامات الخيّرة فوق الصحارى البيد ! غمامات تمرّ كالأمل المشرق في عتمة اليأس . وتهطلُ في جنباتِ الصحارى هطول الحياة في جفاف اليَبَس، ثمّ تمضي وهي تاركةٌ وراءها الخضرةَ والنضرةَ والرواء والسُقْيا لقومٍ جياعٍ عطاشىٰ !

لقد طُويت صفحات التاريخ السود وبكت على نفسها تلك الضلالات والغباواتُ التي حدّتِ الإنسان بصراً وبصيرة، وضيّقت على

العظماء فحصرتْ بعضهم في نطاقٍ من الناس لا يتخطّاه آخرون ولا يجوزه نظر . فإذا بالدائرة تتّسع حتّى تشمل الخلق جميعاً ! وإذا بالعظيم الحقّ لا يخصّ طائفة من البشر ولا قوماً دون قوم ! وإذا بسقراط للأغارقة والهنود والصينيين والعرب والناس أجمعين ! وإذا غيره من العظماء لكل العالمين . وإذا عليّ بن أبي طالب، عظيم طائفة العظماء في الشرق، لكلّ من تمشي به قدمٌ مَثَله في ذلك ـ ومَثل أقرانه من نوابغ الأرض ـ مَثَل الشمس إذ تغمر الأرضَ سهولها وجبالها، قمَمها ووديانها، برّها وبحرها، فما على الإنسان إلّا أن يَستنير بنورها ؛ فلا يُقيم دونه حدود وجدراناً، وأن يتدفّأ بنارها في برودة أيامه فلا يسعى في منع الدفء إلى زوايا الصقيع من حياته .

في تاريخ الشرق،كما هي الحال في تاريخ البشر جميعاً، غُزاة، ومجرمون، ولصوص محترفون، وأغبياء، وتافهون ؛ شاء منطقُ العصور القديمة والمتوسطة أن يجعل منهم في حياتهم ملوكاً وقادة وأصحاب قولٍ فصْل وأمر مُطاع، وأن يصنع منهم بعد هلاكهم أبطالاً وعظماء، فخلع عليهم في الحالتين الألقاب الضخمة بغير حساب ! وها نحن ما نزال تصفع وجوهنا، في الكتب التي يتنافس في تلفيقها بعض حملة الألقاب، صفحاتٌ باردة كأنّها الزمهرير من «بطولات» أولئك المجرمين، وفصولٌ من «عظمة» أولئك التافهين، حتّى ليوهم هذا النمطُ من المؤلّفين قرّاءهم بأن البطولة ليست إلّا نوعاً من تصرّف النخاسين، وبأنّ العظمة ليست إلّا شيئاً من البراعة في النهب والسلب والاغتصاب والتقتيل والتدمير واصطناع أسباب الإبادة، ثم التبجّح[1] بالجريمة والزهو بالتفاهة والاعتزاز بصناعة الترويعِ والتجويعِ وكل

(١) التبجّح : التباهي، التفاخر، أُنظر لسان العرب: ٤٠٦/٢، مادة «بجح».

أمرٍ فظيع !

لذلك جئنا بهذا الكتاب ـ بعد أن طلبنا العافية لأُولئك المؤلّفين ـ نلمّ فيه بشخصيّة بطل حقّ لأنه إنسان حقّ؛ لعلّنا نضيفه إلى سلسلة المؤلّفات الخيّرة التي تتكاثر في مكتبتنا العربية اليوم . وبذلك نستيقظ على أُمورٍ أهمّها :

إن تاريخنا هو أيضاً صفحاتٌ رائعة من الإشراق الإنساني العظيم تشرّفنا كعرب كما تضيف شرفاً إلى تاريخ الإنسان .

ومن الأُمور التي نستيقظ عليها في دراسة عليّ وعصره وما تلاه من عصور، ذلك المقدار العظيم من الإسهام في مقاومة الظالم ونصرة المظلوم ، ومن معاندة الاستعباد والاستغلال والعمل على تقويض أسبابهما بسنّ الأنظمة والدساتير في النطاق الذي تسمح به إمكانات الزمان والمكان، وبالتضحية في سبيل الكرامة الإنسانية بكلّ عزيز من الدم والحياة، فإذا بنا نعي أكثر فأكثر أنّ تاريخنا ليس كلّه ظلمةً وظلماً . ففي بقايا لياليه ومضاتٌ وبروق ! وفي دياجيره متألّقاتٌ وأهلّة ! وفي غياهب جَوره غُررٌ حسانٌ وأيامٌ بيضٌ وشموسٌ ضاحكات، ثم أمطارٌ هَتَنَتْ[١] بها السماء على صحاريه رذاذاً تارةً وطوراً عُباباً !

وإن مثل هذه الصفحات المشرقة في تاريخنا لتؤهّلنا إلى أن نعيد النظر في أنفسنا من جديد، تحطيماً لكثير من القيود التي كبّلتنا بها عصورُ الظلمات الطويلة، وتمجيداً للبطولة الحقيقية التي هي بطولة فرد من الأفراد أو جيلٍ من الأجيال في سبيل الإنسانية بأسرها، وتدعيماً لقومية عربية إنسانية تجعل خدمة الإنسان ـ في نطاقها وفي كل نطاق ـ غايتَها البعيدة وهدفَها

(١) هتنت : هتنت السماء : هطلت وتتابع مطرها . لسان العرب: ١٣/٤٣٠، مادة «هتن».

الأقصى . ذلك أنّ الشعب الذي أمكنه أن يعبّر عن عبقريته منذ أربعة عشر قرناً برجل كعلي بن أبي طالب، ثمّ بمجموعة من الناس كبعض تلاميذه وأنصاره يومذاك، هو شعب يستطيع اليوم ـ في عصر غزو الأفلاك ـ أن يمشي مع القافلة التي تسير وهي تنظر أبداً إلى الأمام، وهي إنْ نظرت إلى الوراء فلكي تستمد من وجودها الطويل عزيمةً وقوة، لا لكي تستريح حيث حطّ بها السير أو حيث جرفها تيّار التاريخ .

أضف إلى ذلك كله أمرين اثنين، أولهما : إنّ كلّ شعب من شعوب هذه الأرض الوسيعة قد نظر إلى الشوامخ في صفحاته الخاصّة من تاريخ الإنسانية الواحد، فدرَسها درساً كثيراً، وجلّى مكانة كلّ منها فوضعه في مقامه، مفيداً من ذلك عبرةً وقوّة . ثمّ راح بعد ذلك يبحث في أنصاف الشوامخ، وفي أنصاف هؤلاء كذلك، وهلمّ جرا، متمّماً ما يمكن له أن يفيد من حوادث التاريخ وسيَرِ أبطاله وعظمائه الحقيقيين، آخذاً منهم حافزاً[١] جديداً له على المسير . فلمَ لا نفعل مثلما يفعلون ؟ ولِمَ لا نضع شوامخنا إلى جانب شوامخهم بعد الموازنة والمقابلة، وقصّةُ تاريخنا واحدة، وعظماؤنا لنا أجمعين ؟

وثاني الأمرين إنّ عليّ بن أبي طالب من الأفذاذ النادرين الذين إذ عرفتَهم على حقيقتهم بعيداً عن الصعيد التقليديّ الذي درجنا على أساسه ؛ ندرس رجالنا وتاريخنا، عرفتَ أنَ محورَ عظمتهم إنما هو الإيمان المطلق بكرامة الإنسان وحقّه المقدّس في الحياة الحرّة الشريفة، وبأن هذا الإنسان متطوّر أبداً، وبأن الجمود والتقهقر والتوقّف عند حالٍ من أحوال الماضي أو

(١) حافزاً : دافعاً، مشجعاً . أُنظر الصحاح للجوهري: ٨٧٤/٣ مادة «حفز».

الحاضر ليست إلّا نذير الموت ودليل الفناء .

فقليلٌ جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين يبذرون في عقلك ويُلقون في نفسك مثل هذه القاعدة الأصل من قواعد التطور وكأن علياً ينزع بها عن لسان الطبيعة وقلب الحياة : **«لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم !»**(١).

وقليل جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين يبذرون في عقلك ويلقون في نفسك مثلَ هذه القاعدة العظيمة التي تطال المسلك الإنساني بكامله فتوجّه كل نشاط وتراقب كل عمل : **«من تساوىٰ يوماه فهو مغبون»**(٢) . وما يريد ابن أبي طالب بذلك إلّا التصريح بأن الغبن لا يلحق الجماعة من الناس إلّا إذا استوى حاضرهم وأمسهم، وبأنّ الغُنم هو أن يكون حاضرهم خيراً من يومهم . ولا يتم ذلك إلّا بالانسياق مع تيار الحياة الذي لا يهدأ .

وقليلٌ جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين يبذرون في عقلك ويُلقون في نفسك موازينَ العدالة الكونية تنبثق عن نفسها وبنفسها تقوم، متكشّفين بنور العبقرية أن : **«من أساء خلقَه عذّب نفسه !»**(٣).

وقليلٌ جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين أدركوا وعاشوا وقالوا : إنّ **«كل إنسان له نظير في الخلق»** و **«إنّ الناس سواسية !»** .

وقليل جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين وعَوا أنّ **«الاحتكار**

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢، باب الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين رقم ١٠٢. لا تقسروا أولادكم على آدابكم...

(٢) معاني الأخبار : ٣٤٢، شرح أصول الكافي: ١/ ٢٧٧، روضة الواعظين: ٤٤٤.

(٣) غرر الحكم : ٧٧٩٨.

جريمة»[١] وأنّه **«ما جاع فقير إلّا بما مُتّعَ به غنيّ»**[٢] وأنّ **«الذنب الذي لا يُغفر، هو ظلم العباد بعضهم لبعض»**[٣]. ثمّ راحوا يخلقون القوانين وينظّمون الدساتير على أساس هذا الوعي الكريم!

وقليلٌ جدّاً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين عاشوا هذه المبادئ الأُصول جميعاً، وجلّوها وأقاموا عليها مذاهب فكرية واجتماعية متماسكة، خرجوا بها من نطاق الأفكار المستقلّ بعضها عن بعض إلى إقامة البناء المنظّم الواحد ذي القواعد والأركان.

ثم إنّ لِما انبثق من وجود عليّ قصةً في تاريخنا ذات فصولٍ عجاب، قصة تناوَلت خطوطها الكبرى من شموخ علي ومن صموده، وراحت تنسج حوادثها أيدي الزمان، إنّها قصّة الثورة التي عاشها العالم العربي خلال عصورٍ قاتمات، تناهى سوء حالها في الاستئثار والامتهان وطغيان ليالي الاستبداد الرهيب!

فلا قويّ فيها ـ بمقياس قوّة البهيمة ـ إلّا وهو سيّدٌ مطاع ينكّل ويقتل وينهل ويسطو ويضرب الخلقَ بالترويع!

ولا لصّ فيها إلّا وهمّته أن يأكل الناس مع الآكلين!

ولا سفّاح إلّا ورقاب الأبرياء مَحصَدةٌ لسيفه!

ولا جاهل إلّا وقصرهُ من جماجم المفكّرين!

ولا عبد إلّا وله مأثرةٌ في قتل حُر!

ولا تافه إلّا ويمشي في الأرض مرحاً وهو يحسب أنّه يخرق

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٥٣ ـ ٩٩.

(٢) نهج البلاغة: قصار الحكم، ٣٢٨.

(٣) المحاسن: ١ / ٧٧، الكافي: ٢ / ٤٣٣.

الأرض وأنّه يبلغ الجبالَ طولا !

ولا جَرْو وعْواع من جِراء هؤلاء إلّا وله رأيٌ وصوتٌ ويدٌ في تحديد مدّة الحياة للأحياء، وكأنّ تاريخنا من ثمّ فصل من تاريخ الإنسانية العامّ الذي عرف من هذه المظالم كثيراً أو قليلاً ! وعلى سبيل المثل العابر، أفلمْ يحكم «سيرا كوز» في العصر القديم طاغية حقير يدعى دينيس فيبيع أفلاطون العظيم رقيقاً فيفتديه أحد أصدقائه ويردّ إليه حريّته ! ثمّ يقوم بعد دينيس ابنٌ له أحقر من أبيه يدعى : دينيس الصغير ؛ فيعقد النية على أن ينكّل بالفيلسوف الجليل، فينجو الفيلسوف للمرّة الثانية ؛ ثمّ يعود ويعتزم قتله، فينجو هذه المرّة أيضاً بأعجوبة على يد أحد تلاميذه المخلصين .

أقول : إنّها قصة الثورة التي عاشها العالم العربي خلال المهالك المفزعة في ضمائر الأحرار وعلى ألسنتهم وبأيديهم، وهم كثيرٌ في طليعتهم تلاميذ عليّ الآخذون من نهجه وخلقه وصموده في وجه الاستبداد، والممثّلون للقوى المعارضة في حكم الطغاة في أكثر أدوار تاريخنا المتوسط والقديم .

ثورة الإنسان المرهَق المظلوم الذي تبنّى قصة الدفاع عن نفسه وعن المستضعَفين والمضطهدين ؛ مختاراً أو مَسوقاً لا فرق . وقصة هذه الثورة الطويلة التي علّلها كثيرون فقال بعضهم : إنها خيرٌ كلّها فأيّدوها، وقال بعضهم : إنها شرّ كلها فأنكروها ؛ جديرة بأن تدرس في ضوء جديد وهي في حقيقتها البعيدة التي نراها استمرار مشدود على الزمان لقصة علي ذاتها مع محاربيه بالسيف والحيلة . وهي بذلك صفحات من الكفاح في سبيل الحياة خطّها في تاريخنا آباء لنا سابقون، فكانت لنا تعويضاً عظيماً عما في أمسنا من آثام واعتداءات .

وخلاصة القول ، اننا إذ ننطلق من النطاق العربي إلى النطاق العالمي الوسيع ، ومن حدود الزمان العربي المقيّد بتاريخين متقاربين إلى حدود الزمان العالمي الذي يشمل بدء وجود الإنسان حتى عصر النهضة في أوروبا ، والذي عاش فيه عباقرةٌ عظام ، وسُنّت دساتير ، وقامت ثورات اجتماعية وأخلاقية وسياسية ، لابدّ لنا أن ندرك أن لابن أبي طالب مكانة بين هؤلاء الأفذاذ أصحاب الدساتير ومحدّثي الثورات ، فما هي هذه المكانة! وما هو محل الرجل بين أولئك الرجال؟

أليس من الغبن أن يدور الحديث في أكثر المؤلّفات الموضوعة عن ابن أبي طالب حول موضوعات تكاد تنحصر في واحد يدور فيه كلّ بحث وكلّ جدال، وهو إن جاوزه ؛ فللكلام على الضرب بالسيوف حتى تتقوس، والطعن بالرماح حتى تتقصف، ثم عن مقاتليه تنحطّ عليهم الطير من السماء وتمزّقهم سباع الأرض ؟

إنّ لهذه الأُمور موضوعاً في تاريخ عليّ ولا ريب، لأنّ أخبارها قد انحسرت عن ألف قضية وقضية في التاريخ البعيد . ولكنّ جوانب العظمة الحقيقية في ابن أبي طالب أكثر من ذلك . وهي إن درست فلكي تتوضح بعض الخفايا التاريخية في حياة الرجل وحياة معاصريه، لا لكي يدور على محورها كلّ بحث وكلّ نقاش .

لقد جهدنا أن يحفل هذا الكتاب بنظرات جديدة تتعلّق بعصر علي ، وبنظرات موسّعة جديدة كذلك تتناول عبقريته ، ثم بالتفاتة جامعة تشمل ما انطوى عليه تاريخ الإنسانية من معنى الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً وكيف تدرّج هذا المعنى من طورٍ إلى طور وفقاً لسير التاريخ العامّ ، لنوضح بعد ذلك ما أمكننا أن نوضح من معنى الإنسان عند علي بن أبي طالب بالمقابلة بينه

وبين مفكري العصور من بعض الجوانب ، وبين مبادئه العامة ومبادئ الثورة الكبرى المعروفة بالثورة الفرنسية بوصفها تجمع ما في الإنسانيات القديمة والمتوسطة من معنى الإنسان ، ثم بوصفها خاتمة عهود في تاريخ البشر وفاتحة عهد جديد!

ومما أثبتناه أيضاً في هذا الكتاب أبحاث تتناول كلاًّ من عليّ وسقراط بالتحليل ، ثمّ تتناول الرجلين بالمقارنة والموازنة في فلسفة الأخلاق وفي غيرها من شؤون الإنسان. وبحثٌ يُظهر أن عليّاً يمثل في جملة كيانه جانباً عظيماً من العدالة الكونية الشاملة. ودراسة واسعة الغرضُ منها الكشف عن مقدار ما في شخصية ابن أبي طالب من تماسكٍ لا يصحّ بغير وجوده بحثٌ ولا يستقيم رأي. ولقد بدا لنا من تماسك هذه الشخصية ما يُدهش ويُعجب. ثمّ أبحاث تدور حول معنى التشيُّع في التاريخ العربي وفيها كشفٌ عن الأغلاط التي رضيَها أكثر المؤلفين لأنفسهم بصدد هذا الموضوع الدقيق. وأُخرى تتناول أثر عليّ في الأدب العربي خلال العصور المتوسطة. ودراسةٌ خاصة بعنوان : الإمام عليّ والقومية العربية. ثمّ دراسات كثيرة غيرها.

وقد مهّدنا لهذه الأبحاث جميعاً برأيٍ لنا مفصّل في أساليب الباحثين ساعة يدرسون تاريخنا القديم ويرون آراءهم في قضاياه. وبفضل تحدّثنا فيه عن الحدود الحقيقية التي يمكننا أن ندرس تاريخنا ضمنها. وأنهيناها بالنظر في الدراسات التي وضعها المؤلفون العرب والأجانب عن ابن أبي طالب وبإبداء رأينا فيها.

بقي أن نوضح أمراً يتعلّق بما أشار إليه بعض النقّاد من مقاطع هنا أو هناك هي أقرب إلى الشعر منها إلى البحث. ولمّا كان هذا الأمر موضّحاً في الفصل الذي عقدناه عن الأُوربيين والإمام ، فقد كفينا نفسنا والقارئ عناء

إيضاحه الآن. وإنّ ردّنا على هذا التزمّت المنسوب زُوراً إلى العلم ، والذي يريد أن يسلب النارَ حرارتَها والريحَ عصفَها والنهرَ مجاريه ، والذي لا نرى فيه إلّا كلالاً وعجزاً يتستران ببرقع صَنَعاه وقالا إنه من صنع العلم ، لَجديرٌ بأن نلفت إليه النظر لأنّه يتناول جوهراً في أُسلوب الدراسات ، لا عَرضاً.

وأنْ نكون قد أنصفنا بعض أطوار تاريخنا وأفدنا منها عبرةً في سيرنا الصاعد مع موكب الحياة المتجدّدة أبداً ، أُسوةً بغيرنا من إخواننا البشر الذين يُفيدون من تاريخهم الخاص ، وأُسوة بغيرنا وبأنفسنا ساعة نُفيد من تاريخ الإنسانية الشامل ، ذَلِكُمْ رجاؤنا من هذا الكتاب.

جورج سجعان جرداق

بيروت: ١ آذار سنة ١٩٥٨ م

المقدمة

بقلم: ميخائيل نعيمة

لنا في حياة العظماء معين لا ينضب من الخبرة والعبرة والإيمان والأمل . فهم القمم التي نتطلَّع بشَوقٍ إليها ولهفة، والمنارات التي تكشِّح الدياجير[1] من أمام أرجلنا وأبصَارنا . وهم الذين يجدِّدون ثقتنا بأنفسنا وبالحياة وأهدافها البعيدة السعيدة . ولولاهم ؛ لتولَّانا القنوط في كفاحنا مع المجهول، ولرفَعْنا الأعلام البيض من زمان، وقلنا للموت : نحن أسراكَ وعبيدك يا موت . فافعل بنا ما تَشاءُ !

إلّا إنّنا ما استسلمنا يوماً للقنوط، ولن نستسلم . فالنصْر لنا بشهادة الذين انتصَروا منَّا . وابن أبي طالب منهم . وهم معنا في كلّ حين، وإن قامت بيننا وبينهم وهدات سحيقة[2] من الزمان والمكان . فلا الزمان بقادر أن يخنق أصواتهم في آذاننا، ولا المكَان بماحٍ صورهم من أذهاننا .

وهذا الكِتاب الذي بين يديك قارئي الكريم خير شاهد على ما أقول . فهْو مكرّس لحياة عظيم من عظماء البشَرية، أنبتتْه أرض عربية، ولكنها ما استأْثرتْ به . وفجَّر ينابيعَ مواهبه الإسلامُ، ولكنه ما كان للإسلام وحده . وإلّا فكَيف لحياته الفذَّة أن تلهب روح كاتبٍ مسيحيّ في لبنان، وفي العام (١٩٥٦م) ؛ فيتصدَّى لها بالدرس والتمحيص والتحليل، ويتغنَّى تغني

---

(١) تكشِّح الدياجير: تكشف الدياجير ، أي الظلمات ، وتُذهب بها . أُنظر تاج العروس: ٢١٢/٢، مادة «كشح».
(٢) وهدات سحيقة : حفر، وأراضي منخفضة .كتاب العين: ٧٧/٤، مادة «وهد».

الشاعر المتيَّم بمفاتنها ومآثرها وبطولاتها ؟

وبطولات الإمام ما اقتصرت يوماً على ميادين الحرب . فقد كان بطلاً في صفاء بصيرته، وطهارة وجدانه، وسحر بيانه، وعمق إنسانيته، وحرارة إيمانه، وسموّ دعته، ونصرته للمحروم والمظلوم من الحارم والظالم وتعبُّده للحقّ أينما تجلّى له الحقّ . وهذه البطولات، ومهما تقادم بها العهد، لا تزال مقلعاً غنيّاً نعود إليه اليوم وفي كلّ يوم كلما اشتدَّ بنا الوجد الى بناء حياة صالحة، فاضلة .

لست أُريد أن أستبق القارئ الى الكشف عن مواطن المتعة في هذا الكتاب . فهي كثيرة . منها بيانٌ مشرق يسمو هنا وهناك إلى سوامقَ من الصور الشعرية، المشبوبة العاطفة، الزاهية اللون، العذبة الرنَّة . ومنها اتِّزان في التقدير والتفسير . ومنها محاولة جريئة في نقل عليٍّ وآرائه السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية إلى مسرح الحياة التي نحياها اليوم . وهي محاولة بارعة وموفّقة، ما فطن لها الذين كتبوا في الموضوع من قبل . ناهيك باجتهادات جديدة في تفسير بعض الأحداث التي رافقت حياة الإمام تفسيراً يغاير النمط الذي درج عليه مؤرّخوه حتى اليوم .

إنه ليستحيل على أي مؤرّخ أو كاتب، مهما بلغ من الفطنة والعبقرية، أن يأتيك حتّى في ألف صفحة بصورةٍ كاملة لعظيم من عيار الإمام عليّ، ولحقبةٍ حافلة بالأحداث الجِسام كالحقبة التي عاشَها . فالذي فكَّره وتأمّله، وقاله وعمله ذلك العملاق العربي بينه وبين نفسه وربّه لِمّا لم تسمعه اذن ولم تبصره عين . وهو أكثر بكثير ممَّا عمله بيده أو أذاعه بلسانه وقلمه . وإذذاك فكلّ صورة نرسمها له هي صورة ناقصة لا محالة . وقصارى ما نرجوه منها أن تنبض بالحياة .

إلّا إن العبرة في كتاب من هذا النوع هي في تفحُّص ما اتصل بنا من أعمال عليّ وأقواله . ثمّ في تفهُّمه تفهُّماً دقيقاً، عميقاً، ثمّ في عرضه عرضاً تبرز منه صورة الرجل كما تخيّله المؤلّف وكما يشاؤك أن تتخيّله .

ويقيني أن مؤلّف هذا السفر النفيس، بما في قلمه من لباقة، وما في قلبه من حرارة، وما في وجدانه من إنصاف ؛ قد نجح الى حدٍّ بعيد في رسم صورةٍ لابن أبي طالب لا تستطيع أمامها إلّا أن تشهَد بأنها الصورة الحيّة لأعظم رجل عربي بعد النبي .

ميخائيل نعيمة

أرض المعـجزات

مهد النبوّة

أرضٌ هي المُعجزةُ بماكانت، وهيَ المعجزة بما ستكون !

فلواتٌ عظيمة الاتّساع لو جادها الغيثُ ومدّها بـالخضرة والنـضرة والرواء ؛ لأطعمت جياع الدنيا وكستْ عُراة العالمين، وفيها من الامتداد ما لا يحدّه خيالٌ ولا يضبطه تصوّر . ولكنها بَوادٍ ما تزالُ في أوّل تكوينها من رمال متعرّجة ملتوية تموّجتْ أو تصلّبتْ أو لعبتْ بها زعازع الريح فـهيَ أرضٌ تثور . ومن كُثبانٍ هنا وأودية هناك جعلتها اللوافحُ من حَبّ الرمال، فهي من عجبٍ تقعدُ وتقوم . ومن جبالٍ جُرْدٍ قليلة الارتفاع هي الجدْبُ تجمّعَ وتكوّرَ وعلا علوّاً هزيلاً . ومن قفارٍ بركانية لافحة استوتْ صُلبة أرضُها ذات حجارةٍ سُودٍ نَخِرَةٍ كأنها اُحرقت بالنار فهي مقذوفاتٌ تجمّدت حرارةً وسواداً فدعوها حَرّاتٍ وجعلوا لها أسماء، ويا لبؤس الأسماء ! إنها فلواتٌ لا تصلح للزراعـة ولا للإقامة، وفي الزراعة علّةُ السّكنى . وهي في ذلك من أشـدّ أقـاليم العـالم حرارة وأقلّها سماحاً بالنّدى على الرغم مـن بـحارٍ ثـلاثة تـحيط بـها . وقـد يجودها الغيثُ في بعض الأقاليم فيكسبها شـيئاً مـن الطـراوة، فـيتربّصون[1] مواسمه، فيخرجون إليه بكلّ ما لهم من إبل ونساء وأولاد . إلّا أن ريح السموم

---

(١) يتربصون : يترقّبون، يتحيّنون . المنجد: ٢٤٥، مادة «ربص».

وهي شرّ ريح تثور في جنباتها وأواسطها فتقضي على كلّ رطب فيها، وقد تقضي على الحياة . فإذا بالشعراء يغنّون نسيم الصبا المنعش إذا هبّ عليهم من الشرق،كمنْ يبتهجون بعبقة[1] من رائحة الجنة !

أما أنهارها فلا نهر واحد فيها دائم الجريان . ولكن سيولٌ غِزارٌ تجري حين تفيض الأمطار في بعض الأقاليم، آخذة بطون الأودية المشتبكة مَسِيلاً لها، فإذا بالقوم يحتالون على بعضها بسدودٍ تحبس المياهَ ولو إلى حين .

أمّا حيوانُها فغير حيوانِ سائرِ الأرض . لقد جعل اللهُ له سُوقاً طوالاً ليُمكنه أن يقطع المسافاتِ الشاسعة فلا يتيه في عرض الفلاة .كما جعل لبعضه خُفّاً مستديراً كي لا تغرق سُوقُهُ في الرمال . وهيّأ له من قوّة الاحتمال والصبر بمقدار ما هيّأ لموطنه من وعورة المسلك وأهوال الطريق . ثمّ خصّه بمقاومة الظمأ والقيظ، وبمعدةٍ تختزن المياه لأيّام . وقد تُستخلَص هذه المياهُ بإحدى الوسائل فيشربها البدويّ، صاحبُ البعير، الذي سمّاه ألفاً من الأسماء .

ونبتُها، ـولن أسهب في وصفه ـنادرٌ، شائكُ حَرّان، ظمآن العروق .

أمّا بيوتها فمن الخطأ أنّ تُدعى بيوتاً . فإنْ هي إلّا مضارب تنفخ فيها الرياحُ اللّافحة ويغزوها الحرّ القائظُ فإذا بها وَعَرَاء الصحراء سواءٌ بسواء . وهي إلى ذلك، لا تُضرَب إلّا في أقاليمَ وأقاليم . فمن العبث أنْ يسعى ساكنوها إلى الإقامة حيث يشاؤون، أو يَقَرّوا في مكانٍ أمين، فهم على موعد دائم مع الرحيل .

أمّا آلة العيش فيها فالأسودانِ : التمرُ وماكان من الماء . بالإضافة الى ما قد يكون من لحم الإبل وقنص البيد .

---

(١) عبقة: رائحة الطيب. مجمع البحرين: ١١٣/٣، مادة «عبق».

وتحمل طبيعةُ الصحراء قاطنيها على الغزو فالاقتتال . فالنزاعُ الدائم هو نظامهم الاجتماعي في الأصل . وعلى صحارى الجزيرة وداراتها تُلقي الشمسُ رداءً من لهيب، فإذاالصعلوك يشوي على حصاها الذئبَ الصريع أو الشاة الجَزُور .

وعلى صحارى الجزيرة وداراتها يخيّم الضجرُ القاتلُ والسأمُ المرّ . فمشاهدها واحدةٌ لا تتبدلُ في انبساطٍ من محيط الرمال على قلّة الواحات، وفي الأمل الكليل(١) الذي لا تهيّئ له الفلواتُ انعقاداً ولا امتداداً .

وليس من شأن هذه الطبيعةِ القاسية، وهذا العيش الرتيب، وهذا الوجودِ الصعب، أنْ تخلق في أهل الصحراء شعوراً بسَعَةِ الكون وشُمول الحياة، وامتدادِ قيَم الخير ممّا يُليّن النفسَ ويملأ القلب . فمثْل هذه الأحاسيس تنبتُ في الواحات الخُضْرِ لا في المَهَامهِ البيد، ولدى الناعمين بالعيش لا في قلوب التاعسين .

ولا عبرة في بعض قرى الجزيرة العامرة في ذلك الزمان . فهي قرىً تتناثر هزيلةً عجفاء، كئيبةً سوداء، بين حرّات سُود، تُباعد ما بينها مجاهلُ يضلّ فيها الدليلُ، ويعبسُ وجهُ الأرض . أمّا عُمرانُها فأشبه ما يكون بالقليل الى جانب الأقلّ، وبالعسير الى جانب الأعسر . وهي فوق ذلك، خاضعةٌ لجوّ الصحراء العام من حيث قسوة المناخ، وطغيان الفاقة، وبُعد الأسفار، والعزلة عن مآتي العالم، اللّهمّ إلّا ما كان في بعض أرض الطائف ويثرب من ثروةٍ نسْبية .

---

(١) الكليل : الضعيف . المنجد: ٦٩٢، مادة «كلّ».

أمّا مكّة، فبيتٌ للأوثان !

أمّا أهلها، فتجّار من مقاييسهم أخْذُ الروح بالدينار !

* * *

شظفٌ من العيش في جحيمٍ من الرمال، في سأم من الحال، في يأسٍ من الغدِ ماحق، هذه هي جزيرة العرب .

وإنسانُها؛ أليس من العجب أن يكون في هذه الأرض إنسانٌ وفي جوارها خصْبٌ ورُواء، وغذاءٌ وكساء ووفْرةٌ من كلِّ عيشٍ تكفي مَن عَبَرَ إليه سبيلاً ؟

وجود هذا الإنسان في هذه الأرض لا يبغي عنها حِولاً، ولا يرضى بغيرها موطناً، وقد حاصرتْه جبالُه وبحاره وآفاقه وصحاريه، هو المعجزة التي كانت : معجزة الصحراء قبل ثورةِ محمّدٍ وثورةِ عليّ !

* * *

ولكنْ، ما ينابيعُ الأرض إذا تفجّرت بالخير !

ما واحاتُ النعيم إذا اشتعلتْ بالخضرة !

ما ثروة الدنيا إذا تجمّعتْ في بلد !

ما رطوبة الليل وأنداء الصباح، وأنفاس الصبا !

ما أجسامٌ تقيم على ناعم العيش في أرضٍ ؛ تدرّ العسلَ واللبنَ وتُعطي المرّ واللبان ؟

ما ضحك الطبيعة، ومرحها، وتوثّبها، في كلّ فردوس !

ماكلّ ما يُمكن للدنيا، دون جزيرةِ العرب، أن تعطيه يومذاك !

ماكلّ ذلك شأناً وقيمةً إلى جانب ما ستطلعُ به أرضُ المعجزاتِ

على الدنيا !

لقد أطلّت على الدنيا يومذاك بما هو أجلّ وأعظم، حين تنادى الكون، وتوحّد الزمن، وصفتِ الينابيع، وانجلتْ قيمُ الحياة، وانطلق ضمير الوجود في محْضٍ من الإنسانية المطلقة وفي فيْضٍ من تمجيد الخير وتصعيد الطبيعة وتمديد عناصر الفضيلة، لتحلّ وحدةً حيّة في نزيل غارّ حرّاء، محمد بن عبد الله ! ثم لتستمرّ في صفوة الخيّرين، الثائر العظيم عليّ بن أبي طالب .

بَعْثُ هذا الكائن العظيم، واستمراره في ابن عمّه العظيم، تجسيد للحقيقة العظمى، على مثل هذه الأرض، في قومٍ من مقاييسهم أخْذُ الروح بالدينار، هو المعجزة التي ستكون : معجزة الصحراء بعد محمّد وعليّ، صاحبَي الثورات الاجتماعية الخيّرة على بؤس ذلك المحيط وذيّاك الزمان .

صَوْت محمّد

من لهيب الصحراء المحرقة وهجٌ في عينيه !

ومن انبساط الرمال أمام وهج الشمس صراحةٌ على شفتيه !

ومن جنائن يثرب وخمائل الطائف، ومن واحات الحجاز السابحة في الفضاء كأنها الجزرُ المتناثرةُ في محيطٍ من الرمل تحت ضوء القمر، نداوةٌ في قلبه ورفقٌ في دمه !

ومن عصف الرياح الهُوج، ثورةٌ في خياله !

بيان الشعر ونور السماء، سحْرٌ في لسانهِ وقبَسٌ في روحه !

ومن صِدق العزيمة ولغة الفكر، مضاءٌ في حسامه ورسالةٌ في يمينه !

ذاك هو محمد بن عبد الله، نبيّ العرب، ومحطّم الوثنية التي أقصت الإنسان عن أخيه الإنسان : وثنية المال، ووثنية العادة، العنصر الخرقاء !

كان بنو قريش يختصرون الدنيا بدرهمٍ يَزلقُ من يد الأعرابي ليستقرّ في جيوبهم .

وكانوا يوجزون قِيَمَ الحياة بتجارة رابحة وكسبٍ يضاف إلى كسب، وقافلةٍ تسير في الشعابِ والأوهدة، وتقطع البيدَ على حَدْو النّوق، ولا تجد لها مَقيلاً غيرَ ظلّ من دوحةٍ قُرَشيّة، ولا مَوْئلاً إلّا في مكة الوثنية حيث يعتزّ الدرهمُ ويشمخ الدينار .

وعصف في آذانهم صوتٌ تخلّعتْ له أعصابُهم، وتمزّقتْ شهواتُهم ومالت به الدنيا عليهم تقول :

إنّ للإنسان قيمةً غير التي تعرفون ! وإنّ للأعرابيّ السادرِ في مجاهل البيد رسالةً غير التي تزعمون .

ذلك الصوت،كان صوت محمد .

* * *

وجدّت أسدٌ وتميم في طريق الحماقة، وحثّوا السير في مهاوي الضلال، وطفقوا يَئِدون بناتهم، وليس لهم في وأدهنّ من حاجةٍ إلّا اتّباع العادة وتمكين ما حَرّفَ الإنسانُ من آيات الخالق، وما أنكرَ من جمال الطبيعة، وما شوّه من فتنة الكون .

وتردّدَ في أسماعهم صوتٌ رفيقٌ جرتْ عليه نسماتُ الحنان وخفقاتُ الحبّ وهمسُ الحياة يقول :

إليكم عن الوأد يا عباد الله ! للأُنثى منكم مثل ما للذكر، وليس لمخلوق على آخر حقّ الحياة والموت، وإنما هو الله مَن يحيي ويميت .

ذلك الصوت،كان صوت محمّد .

* * *

وانطلق الأعراب يتفانون بحدّ السيف، ويتقارعون بألسنة كأنّها سياطُ الجحيم، ويلثمون أفواه العذارى على شفارِ المهنّد، فإذا هم خلْطٌ من فوارسَ يَفخَرون، ورجالٍ يُصرعون، وأطفالٍ يصرخون ويستغيثون، وينشأون على غير المودّة وغير الإخاء .

ودوّى في خيامهم صوتٌ أشدّ قصْفاً من الرعد، وأمدّ هولاً من

العاصفة، يردّد ويقول :

ما هذا الذي تصنعون ؟ ألَكُم أن تقتتلوا وأنتم إخوةٌ في خالق السماء والأرض ؟ الحرب من عمل الشيطان، والسلم أولى بكم، وفيه ذُوّاقُ النعيم الذي تشتهون !

ذلك الصوت،كان صوت محمّد .

وأدرك العربَ الزهوُ ،كما لم يدرك شعباً ولا أُمّة .

وأبدوا من الاحتقار للأعاجم ما يُبديه الاعتدادُ والغطرسةُ والخُلْقُ الأعجفُ العِربيد . فنال الأعجميّ من الامتهان ما أزرى بكرامتِهِ كإنسان . فشقّ ذلك على صاحب الرسالة ؛ فأفاق المتغطرسون على صوت يقول :

«ليس لعربي فضلٌ على أعجمي إلّا بالتقوى . والإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره»[1].

ذلك الصوت،كان صوت محمّد .

* * *

أمّا المعذّبون في الأرض .

أمّا المشرّدون الذين لفحتْهم سمومُ الصحراء، ونَبَذَهم المجتمع الأجير، وضَيّقتْ عليهم الحياةُ فباتوا من الوجود أحقرَ من ذرّات الرمال، وصاروا من العيش على الصحائف السود ؛ أمّا أُولئك فهمُ أصدقاء صاحب الرسالة،كماكان الفقراء والمنبوذون أصدقاء المسيح عيسى بن مريم

(١) من أقوال صاحب الرسالة . مسند أحمد بن حنبل : ٥ / ٤١١، المبسوط للسرخسي : ٥ / ٢٣ نيل الأوطار، للشوكاني: ١٦٤/٥، مجمع الزوائد: ٨٤/٨، فتح الباري: ٣٨٢/٦، مسند ابن المبارك : ١٤٧، المعجم الأوسط للطبراني : ٥ / ٨٦، المعجم الكبير : ١٨ / ١٣، العهود المحمدية : ٨٧٣،كنز العمال، الحديث رقم : ٥٦٥٥.

وأصدقاء غيره من عظماء الأرض . وهو من أجلهم جعل الحكم شورى وحرّم الاستعباد واستغلالَ الإنسان للإنسان، وأمّم بيتَ المال وجهودَ الناس، وألهب ظهور أعمامه القرشيّين بالسياط الخيّرة، وتطلّع بجملة كيانه الى وحدة الكون مجسّداً في إله واحد، وهم يُغرون به السفهاء والصّبْيَةَ فيرجمونه بالحجارة ويسخرون منه !

أمّا أُولئك المعذّبون في الأرض والمشرّدون والأرقّاء، الذين كان منهم بلال مؤذّن الرسول وأوّل مؤذّنٍ في الإسلام، فهم الذين تفتّحتْ قلوبهم على صوتٍ أعمقَ صدىً من نشيد الصباح وأمدّ سلطاناً من جِنْح الليل، وأفعلَ في النفس من صوت القدَر :

«الخلق كلّهم عيالُ الله وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله»(١).

ذلك الصوت، كان صوت محمّد .

* * *

أمّا خصومُه وراجموه والساخرون به، فقد تلقّوا عن لسانه هذا الصوت المحيي :

﴿ ولو كنتَ فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفرْ لهم وشاورْهم في الأمر وإذا عزمتَ فتوكّل على الله إنّ الله يحبّ المتوكلين ﴾(٢).

ذلك الصوت، كان صوت محمّد .

* * *

(١) من أقوال صاحب الرسالة . المصنف : ٦ / ٢٧ ، مسند أبي يعلى : ٦ / ٦٥ ، المعجم الأوسط للطبراني : ٥ / ٣٥٦ ، المعجم الكبير للطبراني : ١٠ / ٨٦ ، مسند الشهاب : ٢ / ٢٥٥ ،كنز العمال : ٦ / ٣٦٠ الحديث رقم ١٦٠٥٦.

(٢) آل عمران : ١٥٩.

أمّا المحاربون في سبيل حياة أفضل، وأمّا أنصاره ضد الشر، وأمّا مَن قد تُحدّثهم نفوسهم بهدر الحقوق والكرامات في ساعة الجهاد والذود عن الثورة القويمة، فقد ثبتت في قلوبهم هذه الكلمات الرائعة :

«لا تغدروا ولا تغلّوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً فانياً ولا منعزلاً بصومعته، ولا تحرقوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً»[1].

ذلك الصوت،كان صوت محمّد .

* * *

وحمل العرب من ابن عبد الله ذلك الصوتَ الكريم . وامتدّوا به أوّلَ أمرهم على بسْطة الأرضِ حتى أغرقوا فيه كلّ ذي تاج وسلطان، وحتى أوثقوا الصلة بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان وروح الكائنات التي جسّدها نبيّ الصحراء إلهاً سوياً لا شريكَ له .

واتّسع ظلّ محمد بن عبد الله، وتعاظم حتى اكتنف العالم القديم، فإذا هو من مطلّ الشمس الى مغربها أرضٌ تُنبت الخيرَ والمعرفةَ والسلم، وإذا بنبيّ الصحراء يمدّ يده فوق الدنيا ليبذر في أرضها بذور الإخاء والحبّ .

وصار لدولة العرب رجلٌ في الهند، ورجلٌ في الاندلس .

وعُقد على جبينِ الشمس تاجُ شعبٍ عظيم .

* * *

وكانت على هذا الصوتِ الدعوةُ الى الإخاء الإنساني . وكان رفْع أيدي الحكام عن الشعب وأمواله وجهوده، ومساواةُ الناس في الحقوق :

---

(١) من أقوال صاحب الرسالة . تاريخ مدينة دمشق ، لابن عساكر : ٢ / ٩ ، مغازي الواقدي : ٢ / ٧٥٨.

الصغير والكبير، المحكوم والحاكم، العربي والأعجمي، فالناس كلهم إخوان متساوون .

وكانت على هذا الصوت الدعوةُ الى تحرير المرأة من جور الرجل، وتحرير العامل من ظلم صاحب العمل، وتحرير الرقيق والخدم من العبودية والهوان ؛ بما يحمله فكرُ الزمان وتأذن به طبيعةُ المحيط، وإشراكُ الشعب في السلطان، على غير ما رأى فلاسفةُ الأوّلين الذين قرّروا حرمان العمّال والصنّاع والموالي من الحقوق المدنية لـ «انحطاط» ما يمارسونه من المهن والصناعات، وجعلوا الدنيا طبقاتٍ في الحقوق والواجبات .

كان أكثر ما يمكن أن يكون من الخير العامّ في منطق ذيّاك الزمان وإمكانات أبنائه .

وحُرّم الرّبا واستغلال الإنسان للإنسان .

وكان صوت عليّ بن أبي طالب .

وكانت ثورةٌ على مجتمعٍ آخذٍ من كلّ بغيٍ وعدوان .

* * *

الضمير العملاق

الإمام عليّ بن أبي طالب، عظيم العظماء، نسخةٌ مفردةٌ لم يرَ لها الشرق ولا الغرب صورةً طبق الأصل لا قديماً ولا حديثاً .

شبلي الشميّل

على هامة التَّاريخ

ما هو من الآدميين إلّا بمقدار ما يسمّون بمقياس الضمير والوجدان.

هلّا أعرتَ دنياك أُذناً صاغيةً فتخبرك بما كان من أمر عظيمٍ؟ ما أعطت الدنيا إن تُحدّثك عن مثله إلّا قليلاً بين جيلٍ وجيل !

هلّا أعرتَ دنياك أُذناً وقلباً وعقلاً فتُلقي إلى كيانك جميعاً بخبرٍ عبقريٍّ حملت منه في وجدانها قصّة الضمير العملاق يعلو ويعلو حتى لَتهون عليه الدنيا وتهون الحياة . ويهون البنونَ والأقربونَ والمال والسلطان ورؤية الشمس المشرقة الغاربة . وحتى يندفع بصاحبه ارتفاعاً فما هو من الآدميين إلّا بمقدار ما يسمُون بمقياس الضمير والوجدان .

هلّا أعرتَ دنياك هذه الأُذنَ وهذا القلبَ وهذا العقل، فتروي لك مع المعرّي، ومع الطيّبين من الأقربين والأبعدين قصةَ الشهادة تصبغ الفجر

والشفق بدم العدل والحق الصريعين، فإذا دماء الشهيد في أواخر الليل فجرانِ وفي أُوَلياته شَفقان ؟

هلّا ضربت بعينيك حيث شئتَ من تاريخ هذا الشرق، سائلاً عن فكرٍ هو من منطق الخير نقطةُ الدائرة، تشدُّ إليها آراء جديدة في الحياة والموت، ونظراتٍ عميقة في الشرائع والأنظمة والدساتير وقوانين الأخلاق، وفي مكانها من المجموعة البشرية على صعيد التعامل والتعاطي وربط الإنسان بالإنسان في مجتمع هو من الكلّ وللكلّ على السواء ؟

هلّا سألته عن فكرٍ أنتج للناس مذهباً في الحكمة هو من مذاهب العصور ومن نتاجها القيّم يرِثُهُ الأوّلون فيورثونه الأبناء والأحفاد، فيجتمعون له، فيأخذون منه بقدر طاقتهم على الأخذ وما يتركونه فهو للطالعين المُقبلين ؟

هلّا سألتَه عن ذكاءٍ غريبٍ أورث صاحبَه الشقاء والناسُ منه في نعيم. ومدّ أمام أنصاره وأخصامه الطريق وما يزال، ذكاء العالم الباحث عن كلّ علّة وكل نتيجة ؛ الراغب في الاكتشاف والتبيين وتركيز ذاته على قواعد ونواميس ؛ العميق الواسع الإدراك، السابر الأغوار حتى لا تفوته أعمال الناس وهي ما تزال في نفوسهم خواطرَ وفي رؤوسهم أفكاراً، ذكاء العالم الذي أُوتي من المواهب ما جعل علمَه متصلاً بكل علم أخلاقيّ جاء بعده في هذا الشرق، بل أصلاً له ؟

هلّا عرفت بين العقول عقلاً نافذاً كانت له السابقة في إدراك حقيقة كبرى هي أصل الحقائق الاجتماعية وعلّة تركيب المجتمع وتسييره على هذا النحو دون ذاك ؟ وهي الموضوع الذي تدور عليه دراسات الباحثين العلماء في الشرق والغرب اليوم بعد ألف وأربعمائة عام وما ينيف، تمرّ على إدراكه إيّاها . ولا نعني بها إلّا واقع الاستغلالية وأساليبها في الاحتيال على قواعد

الطبيعة، وفي تضليل العقول عن أسبابها الصحيحة ونتائجها المحتومة، وتفاهة منطقها الذي صنعه الأغنياء لاستثمار الفقراء، والحكّام لاحتكار مجهود الناس، وبعضُ الإلهيين لتثبيت سلطانهم على الأرض .

هل عرفتَ العقل الجبار يقرّر، منذ بضعة عشر قرناً الحقيقة الاجتماعية الكبرى التي تضع حدّاً لأوهامٍ لها ألف مصدر ومصدر، فيعلن أنه «**ما جاع فقير إلّا بما مُتّع به غني**»(١) ؟ ثم يردفُ قائلاً لتقييم هذه الحقيقة: «**ما رأيتُ نعمةً موفورة إلّا وإلى جانبها حقٌّ مضيّع**»(٢) أمّا إلى أحد عُمّاله فيبعث بهذا القول في صدد الحديث عن الاحتكار، باب الغبن الاجتماعي ودعامته : «**وذلك باب مضرّة للعامّة، وعيبٌ على الولاة، فامنعْ من الاحتكار**»(٣).

هل عرفت عظيماً دلّه عقله الجبّار، منذ بضعة عشر قرناً، على اكتشاف سرّ الإنسانية الصحيح فإذا سرّها متصلٌ اتصالاً عميقاً بالشعب الذي لم يكن حكّام زمانه وملوكه ليقيموا له وزناً أو ليشعروا له بوجود إلّا في نطاقِ ما يكون لهم سلّماً ومطيّة ؟ فإذا كان رافاييل قد اتّخذ من إحدى فلّاحات الريف الإيطالي نموذجاً للعذراء أُمّ المسيح ليضع في هذا النموذج كل ما يحبّه ويريده من معاني الكرم الإنساني؛ وإذا كان تولستوي وفولتير وغيتي قد عملوا في صنيعهم الفكري والاجتماعي ما هو من روح رافاييل في صنيعه هذا ؟ فإن ذاك العظيم قد سبقهم إليه بمئات السنين مع الفارق بين ظرفه الصعب وظروفهم المؤاتية، وبين مجتمعه الضيّق ومجتمعاتهم الواسعة، فإذا هو يحارب الملوك والأُمراء والولاة والأثرياء ! يحارب عبثهم وسخف تفكيرهم في سبيل الشعب

---

(١) ينابيع المودّة: ٢ / ٢٤٩.

(٢) دراسات في نهج البلاغة، شمس الدين: ٤٠.

(٣) نهج البلاغة :كتاب ٥٣ ـ ٩٩.

المظلوم المهان فيُقسم قائلاً : **«وأيم الله، لأنصفنّ المظلوم من ظالمه ولأقودنَّ الظالم بخزامته حتى أُورده منهلَ الحق وإن كان كارهاً»**[١]. ثمّ يطلق في آذان أُمراء زمانه العابثين هذه الصيحة المدوّية التي يكمن وراءها من المعرفة لحقيقة أهل الارستقراطية التافهين، المتعالين على تفاهتهم، ولحقيقة الشعب البائس الشقي، ما لا مزيد عليه، فيقول بإيجازٍ كأنه صوت القدَر : **«أسفلُكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلُكم !»**[٢]. وما يقصد من وراء هذا إلّا الإشارة الصريحة الى ما يُخفي الحرمانُ والجور من مواهب أبناء الشعب في الخير . وإلى ما يستتر في ثياب الاقطاعيين والحكام والمحتكرين من شياطين الشر وأبالسة الأذى والمكر !

هل عرفت عظيماً ساق إلى مدارك الناس حقيقةً إنسانية قديمة كالأزل، باقية كالأبد، عميقة حتّى ليستشفّها[٣] كبار العقول والنفوس، كلٌّ منهم على نهجه ووفْق مزاجه ؛ وحتى ليأبى العاديّون إلّا العيش في ظلالها وهم لا يعرفون ؟ فإذا بهم يرضون بما قسَط لهم الأجداد والآباء من أفكار وآراء لا تتطلب منهم عناءً ولا جهداً لأنها أُنزلتْ فيهم منزلةَ العادة والتقليد . حقيقة كانت أساساً لفلسفات إيجابية، وأُخرى سلبية، وأعني بها البحثَ عن المطلق للاستقرار .

والبحث عن المطلق لا يعني في أعماقه إلّا البحث عن الحقيقة في وجهٍ من الوجوه . يتعاون في هذا البحث العقلُ والقلب والخيال وما ينبثق عنها من خلق، ثم الظرفُ والمناسبة والدوافع والنوازع على اختلاف معانيها

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٣٦ ـ ٢ صبحي الصالح .
(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٦ ـ ٣.
(٣) يستشفّها : يستنبطها، يستخلصها . لسان العرب: ١٧٩/٩ ـ ١٨٠، مادة «شفف».

وأشكالها . وقد أدرك هذا المطلقَ على نحوٍ معيّن . ثم أدرك بعقله وقلبه أن في كلّ استقرارٍ على المطلق قوة، فإذا هو مثالٌ هذه القوة، وإذا قوّته تبدو في انتصاره وانكساره على السواء لأنها ـ هنا وهناك ـ هي الغالبة القاهرة سيّانِ عندها النصر والهزيمة في ميدان القتال وميدان السياسة وكلّ ميدان . فليس في الغلبة أو الهزيمة محكّ لها، فهي إنما تحمل بذاتها كلّ مقياسٍ وكل ميزان .

هل سألتَ تاريخ هذا الشرق عن صلابة العقيدة لا تُجرّحها الزلازلُ، ولا يشوبها[1] من البراكين وهَنٌ ؟ وأيّ زلزال أشدّ على العقيدة من ائتمارٍ أقلّه إجماع الخصوم، وهم كُثْرٌ أقوياء، على التخطئة والتكفير وما إليهما من ذنوب ؟ وأيّ بركان أحرقُ للعقيدة من التهديد بالموت المحتوم، ثم من الموت نفسه ؟ ثم، هل سألتَ كيف يكون الصراع من أجلِ العقيدة لا يواربُ[2] ولا يساوم، ولا ينطوي على نفع ولا يدور في نطاق من الأثرة والاستعلاء، اللهمّ إلاّ إذا كان نجاح العقيدة هو النفع والاستعلاء والأثرة ؟

هل طلبتَ الى الدنيا أن تناجيك بحديث الرحمة تنطلق من قلبٍ ملأته الرحمة، ومن لسانٍ تجري عليه بَرْداً وسلاماً ؟ فإذا هي القوّة الغالبة تتحطم على بابها مغرياتُ الأرض المتفجّرةِ بالمغريات تأتي من غير مصدرها، في عهدٍ هو عهد القسوة والاستغلال واحتكار المنافع، يتقاتل عليها الخصوم، ثم يلتقون على قتال صاحب القلب واللسان الرحيمين .

هل عرفتَ البراءة في قاموس الكلمات التي يردّدها الناس ويكتبونها ويعيشونها في كثيرهم أو قليلهم وكلٌّ منهم يأخذ منها بحُكم تكوينه، تنادي إليها أخواتها جميعاً من سلامة القلب وصفاء النية، والطهارة الخالصة التي لو

---

(١) يشوبها : يخالطها . كتاب العين: ٢٩١/٦، مادة «شوب».

(٢) يوارب : يُحابي، يتملّق . يتزلّف . راجع لسان العرب: ٧٩٦/١، مادة «ورب».

مَثّلَتها ؛ لمَا أحسنتَ لها تشبيهاً بدموع الليل وأنداء الفجر، لأنها طهارةُ الإنسان ما فَضِلَهُ فجرٌ ولا ليل، البراءة الصافية الطاهرة تنبع من القلب السليم الطاهر الذي تطمئنّ الى صاحبه،كما يطمئنّ الشتاء الى حرارة الشمس، وتثق به كما تثق الأرض بالماء فتحيا وتخضرّ ؟

هل عرفتَ عظيماً أدرك من أسباب المحبة والوفاء فوق ما أدرك الآخرون ؟ ثم ما أدرك هذه المحبةَ وهذا الوفاء إلّا في نطاق الطبع الخالص الذي يجري بنفسه من نفسه، فأحَبّ وما تكلّف حباً، ووفّىٰ وما تَكلّف وفاءً، وفهمَ بعميق فكره وعميق حسّه أن الحرية لها قدسيةٌ يريدها الوجودُ ويأبى عنها بديلاً ؛ وفي رحْبها تدور كل عاطفة وكلّ فكر ؛ وفي رحبها يكون الحبّ ويجري الوفاء صريحين طليقين، فإذا «**شرّ الإخوان مَن تُكلّف لَه**»[1] وإذا خيرهم غير هذا .

هل سألت عن حاكم يحذّر نفسه أن يأكل خبزاً فيشبع في مَواطن يكثر فيها مَن لا عهدَ لهم بِشِبَعٍ، وأنْ يلبس ثوباً ناعماً وفي أبناء الشعب من يرتدي خشن اللباس، وأن يقتني درهماً وفي الناس فقرٌ وحاجة، ويوصي أبناءه وأنصاره ألّا يسيروا مع نفوسهم غير هذه السيرة، ثم يقاضي أخاه لمكانِ دينارٍ طَلَبَه من مال الشعب من غير بلاء، ويقاضي أعوانه ومبايعيه ووُلاته من أجل رغيفٍ يأكلونه في رشوةٍ من غنيّ ؟ فيتهدّد ويتوعّد ويبعث إلى أحد وُلاته بأنه يُقسم بالله صادقاً : إنْ هو خان من مال الشعب شيئاً صغيراً أو كبيراً ؛ ليَشدّنَ عليه شدّةً تدَعُه قليلَ الوفْر، ثقيل الظهر، ضئيل الأمر .

ويخاطب آخر بهذا القول الموجز الرائع الإيجاز : «**بلغني أنك جرّدتَ**

---

(١) قصار الحكم: ٤٧٩.

الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلتَ ما تحت قدميك، فارفعْ إليّ حسابك»[١].

ويتوعّد ثالثاً ممّن يرتشون ويسعون في الإثراء على حساب المستضعفين، يقول : **«فاتّقِ الله، واردُدْ الى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرَنّ الى الله فيك، ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربتُ به أحداً إلّا دخل النـار»**[٢].

هل عرفتَ من الخلقِ أميراً على زمانه ومكانه يطحن لنفسه فيأكل ما يطحن خبزاً يابساً يكسره على ركبتيه، ويرقع خفّه بيديه، ولا يكتنز من دنياه كثيراً أو قليلاً ـ على ما مرّ ـ لأن همّه ليس إلّا أن يكون للمستضعَف والمظلوم والفقير يُنصفهم من المستغلّين والمحتكرين ويمسك عليهم الحياةَ وكريم العيش ؟ فما يعنيه أنْ يشبع ويرتوي وينام هانئاً وفي الأرض : **«من لا طمع له في القرص»**[٣] وفيها **«بطونٌ غرثى وأكبادٌ حرّى»**[٤] قائلاً ـ ويا لشرف القول ـ : **«أأقنع من نفسي بأن يقال أميرُ المؤمنين ولا أُشاركهم مكارهَ الدهر ؟»**[٥] ولأنّ أقل ما في هذه الدنيا شأناً هو خيرٌ عنده من ولاية الناس إن لم يُقم حقّاً ويُزهقْ باطلاً؟!

هل عرفتَ، في موطن العدالة، عظيماً ماكان إلّا على حقّ ولو تألّب عليه الخلقُ في أقاليم الأرض جميعاً ؟ وماكان عدوّه إلّا على باطلٍ ولو ملأ السهلَ والجبل ؛ لأن العدالة فيه ليست مذهباً مكتسباً وإنْ أصبحتْ في نهجه مذهباً فيما بعد، وليست خطةً أوضحتْها سياسة الدولة وإنْ كان هذا الجانبُ من مفاهيمها لديه، وليست طريقاً يسلكها عن عمْدٍ فتوصله من أهل المجتمع الى

(١) نهج البلاغة، الكتاب : ٤٠ ـ ٢.

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٤١ ـ ١١.

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٤٥ ـ ١٢.

(٤) نهج البلاغة : الكتاب ٤٥ ـ ١٣.

(٥) نهج البلاغة : الكتاب ٤٥ ـ ١٤.

مكان الصدارة وإن هو سلكها فأوصلتْه الى قلوب الطيّبين، بل لأنها في بنيانه الأخلاقي والأدبي أصل يتّحد بأُصول، وطبعٌ لا يمكنه أن يجوز ذاتَه فيخرج عليها، حتى لَكأنَ هذه العدالة مادةٌ رُكّب منها بُنيانه الجسماني نَفْسه في جملة ما رُكّب منه، فإذا هي دمٌ في دمه وروحٌ في روحه .

هل عرفتَ في موطن الخصومات عظيماً حاربه ذوو المنافع وفيهم نَفرٌ من ذوي قُرباه، وقاتَلوه ؟ فخذلتِ المفاهيمُ الإنسانيةُ المنتصرين عليه لأنه انتصارٌ للحيلة والمساومة والائتمار، وكسْبِ الدنيا بسيفٍ ظالمٍ غاشم . ورفعتِ المنكسرَ لأن انكساره ؛ في ضوء العقل والقلب، يتضمن جوهر الشهادة في سبيل كرامة الإنسان وحقوقه وما يتوق إليه من بلوغه العدالة والمساواة . وهكذا كان نصرُهم هزيمةً، وانكسارُه انتصاراً عظيماً لقيمة الإنسان .

هل سألت التاريخ عن محاربٍ شجاعٍ فائقِ الشجاعة، يبلغ به حبّه لصفة الإنسان في مقاتليه، ويبلغ عطفُه عليهم أنْ يوصي أصحابه، وهو المصلح الصالح الكريم المغدور به، فيقول : **«لا تقاتلوهم حتى يَبدأوكم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا معوِراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى ؟!»**[1] ثم تُجليه عن الماء عشراتُ الأُلوف المؤلّفة من طالبي دمه على غير حقّ، ويُبلغونه أنهم سيمنعون عنه الماء الجاري حتى يموت عطشاً . فيزلزلهم عن الماء ويحتلّه . ثم يدعوهم إلى هذا الماء أُسوةً بنفسه وبصحبه وبالطير الشارب ولا زاجرَ له، ثم يقول : **«ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجراً ممّن قدرَ فعفّ : لكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة»**[2] حتى إذا هو طالته اليدُ الآثمة

---

(١) نهج البلاغة : الكتاب ١٤ ـ ٢.

(٢) قصار الحكم : ٤٧٤.

فقضتْ عليه ؛ قال لصحبه بشأن قاتله : **«لأن تَعفوا أقرب إلى التقوى !»**[١].

محارب شجاع تتصل في قلبه أسبابُ الشجاعة الغريبة والفروسية النادرة، بأسباب العطف والحنان العجيبين، فيعاتب المتربّصين به، وله القدرة على أنْ يضربَ فيصرَع . وهو لا يعاتبهم إلّا منفرداً، أعزل، حاسر الرأس، وهم مدجّجون بالسلاح، لا يكاد يبدو لهم وجهٌ إلّا من خلاله ؛ ثم يذكّرهم بالإخاء الإنساني وبالمودّات ؛ ثم يبكي لهم إذا هم حثّوا السير في هذه الطريق . حتى إذا أبوا إلّا دمَه وهو سيف المستضعَف والمحروم، صبر لهم حتى يبدأوه القتال، ثم راح يُزلزلهم زلزلةً ويقصفهم قصفاً ويعصف بمطامعهم كما تعصف الرياحُ السافيات برمال الصحراء فتذروها بَدَداً بدداً . وهو لا يصرع منهم إلّا الطاغية الباغية الذي تَبيّن فيه العداء والقصد للشر، ثم إذا هو ظفرَ ؛ بكى قتلاهم وهم في الواقع قتلى الأنانية والأثرة، تأتيهم من المطمع السقيم والهوى المنحرف !

هل عرفت من الخلق أميراً توافرت لديه اسباب السلطان والثروة كما لم تتوافر لسواه، فإذا هو منها جميعاً في شقاء وحسرة دائمين ؟ وقد توافرت لديه محاسن الحسب الشريف فقال: **«لا حسب كالتواضع»**[٢] . وأحبّه محبّوه فقال : **«من أحبني فليستعدّ للفقر جلباباً»**[٣] . وغالوا في حبّه فقال : **«هلك فيّ محبّ غالٍ»**[٤] بعد أن خاطب نفسه يقول : **«اللهمّ اغفر لنا ما لا يعلمون !»**[٥] فألّهوه، فعاقبهم أشد عقاب، وكرهه آخرون فوقف منهم موقف الناصح لإخوانه في

---

(١) ﴿ **وأن تعفوا أقرب للتقوى** ﴾ البقرة : ٢٢٧.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١١٣ ـ ٣.

(٣) في نهج البلاغة : من أحبّنا أهل البيت ؛ فليستعدّ للفقر جلباباً، قصار الحكم : ١١٢.

(٤) في نهج البلاغة : هلك فيّ رجلان : محبّ غالٍ، ومبغض قالٍ . قصار الحكم : ٤٦٩ و١١٧.

(٥) في نهج البلاغة : واغفر لنا ما لا يعلمون، قصار الحكم : ١٠٠.

الخلق . وسبّوه فاستاء صحبُه وأجابوهم بالسباب فقال لهم : «**أكره لكم أن تكونوا سبّابين .**»[(١)] وخاصموه وأساؤوا إليه وما حفظوا له غيبةً ثم خرجوا عليه، فكان يقول : «**عاتبْ أخاك بالإحسان إليه واردُدْه بالإنعام عليه**»[(٢)] . و «**لا يكوننّ أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته، ولا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان**»[(٣)] . وأغروه بمسايرة بعض الآثمين، ولو إلى حين، حفاظاً على سلطانه، فقال : «**صديقك من نهاك وعدوّك من أغراك**»[(٤)] ثم أردف : «**آثِرِ الصدق حيث يضرّ بك على الكذب حيث ينفعك**»[(٥)] . وحاربَه مَنْ أسدى إليهم معروفه، فخاطب نفسه يقول : «**لا يُزهّدنّك بالمعروف من لا يشكر لك**»[(٦)] . وتحدّثوا لديه عن نعيم الأرض فنظر إلى المتحدث قائلاً : «**كفى بحسن الخلق نعيماً**»[(٧)] . ثم عادوا يُغرونه بالنصر أن يأتيه على أسلوب الحاكمين، فقال : «**ما ظفِرَ من ظفِر الإثم به، والغالب بالشر مغلوب**»[(٨)] . وعلم من سيّئات أخصامه ما لا يعرفه سواه، فغضّ عنها طرفه وسلا خاطره وهو يردّد : «**أشرَفُ أعمال الكريم غَفْلَتُه عمّا يعلم**»[(٩)] . وأعان أعداؤه والجهَلةُ من أنصاره الدهرَ عليه بما يُدخل التشاؤم بالناس في كلّ قلب، فإذا به ما يزال يقول : «**لا تظنّنّ بكلمةٍ خرجتْ من أحدٍ سوءاً**

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة : ٢٠٦ ـ ٢ .

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٥٨ .

(٣) نهج البلاغة : ولا يكوننّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته، ولا تكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان . الكتاب : ٣١ ـ ١٠٥ .

(٤) غرر الحكم : ٥٨٥٧ .

(٥) غرر الحكم رقم ٢٣٥٣ : إلزم الصدق وإن خفت ضرّه فإنه خير لك من الكذب المرجوّ نفعه .

(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٠٤ .

(٧) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٢٩ .

(٨) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٣٢٧ .

(٩) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٢٢ .

وأنتَ تجدُ لها في الخير مُحْتَمَلاً»(١) .

هل عرفت إماماً لدينٍ يوصي وُلاته بمثل هذا القول في الناس : **«فإنهم إمّا أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق . أعطِهم من عفوك وصفحك مثلَ الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ؟!»**(٢) هل عرفت صاحب سلطان تمرّد على سلطانه لإقامة الحقّ في الشعب، وصاحب ثروة أنكر منها إلّا القرصَ الذي يُمسك عليه الحياةَ، وما الحياةُ لديه إلّا نفع إخوانه في الخلق ؟ أمّا الدنيا فلتغرّ سواه .

ثم، هل سألت تاريخ هذا الشرق عن نهجٍ للبلاغة آخذٍ من الفكر والخيال والعاطفة آياتٍ تتّصل بالذوق الفنيّ الرفيع، ما بقي الإنسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر ؛ مترابطٍ بآياته متساوق ؛ متفجّرٍ بالحس المشبوب والإدراك البعيد ؛ متدفّقٍ بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع ؛ متآلفٍ يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتّى ليندمج التعبيرُ بالمدلول، أو الشكل بالمعنى، اندماجَ الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء ؛ فما أنت إزاءه إلّا ما يكون المرء قبالةَ السيل إذ ينحدر والبحر إذ يتموّج ، والريح إذ تطوف، أو قبالَةَ الحدثِ الطبيعي الذي لابدّ له أن يكون بالضرورة على ما هو كائنٌ عليه من الوحدة التي لا تُفرّق بين عناصرها إلّا لتمحو وجودَها وتجعلها إلى غير كَوْن ؟

بيانٌ هو من مشاركة الحسّ السمعي للعقل ؛ بحيث يحوّل لك المعاني إلى أنغامٍ هي في حدّ ذاتها المعاني الكاملة كما تشاء الطبيعةُ الحيّة وتريد . وهو من مشاركة الحسّ النظري للعقل ؛ بحيث يحوّل لك المعاني إلى لوحاتٍ فنيّة لها خطوطُها وأشكالها وألوانها، فإذا بك من ذلك في عالمٍ زاخرٍ بروائعِ الفن

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٣٦٠.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب : ٥٢ ـ ٩.

تتمازج به صورٌ وموسيقى، وأنغامٌ وألوان !

بيانٌ لو نطقَ بالتقريع لانقضّ على لسان العاصفة انقضاضاً ، ولو هدّد الفسادَ والمفسدين لَتَفجّر براكينَ لها أضواءٌ وأصوات ، ولو انبسط في منطقٍ لَخاطَبَ العقولَ والمشاعر، فأقفل كلّ باب على كلّ حجةٍ غير ما ينبسط فيه ، ولو دعا إلى تأمّل لَرافق فيك مَنْشأ الحسّ وأصل التفكير فساقكَ إلى ما يريده سَوْقاً، وَوَصَلك بالكون وصْلاً، ووحّد فيك القوى للاكتشاف توحيداً ؛ وهو لو راعاك لأدركتَ حنان الأب ومنطق الأُبوة وصدْق الوفاء الإنساني، وحرارة المحبة التي تبدأ ولا تنتهي .

أمّا إذا تحدّث إليك عن بهاء الوجود وجمالات الخلق وكمالات الكون فإنّما يكتب على قلبك بمدادٍ من نور النجوم، بيانٌ هو بلاغةٌ من البلاغة، وتنزيلٌ من التنزيل، بيان اتّصل بأسباب البيان العربي ماكان منه وما يكون، حتى قال أحدهم في صاحبه : إن كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق !

هل عرفتَ عقلاً كهذا العقل، وعلماً كهذا العلم، وبلاغةً كهذه البلاغة، وشجاعةً كهذه الشجاعة تكتمل من الحنان بما لا يعرف حدوداً حتى ليبهرك[1] هذا القدر من الحنان كما يبهرك ذلك القدر من المزايا التي تلتقي جميعاً وتتّحد في رجلٍ من أبناء آدم وحوّاء ؟ فإذا هو العالم المفكّر الأديب الإداريّ الحاكم القائد الذي يترك الناس والحكّام وذوي المطامع والجيوش يتآمرون عليه، لِيُقبل عليك فيهزّ فيك مشاعرَ الإنسان الذي له عواطف وأفكار، فيهمس في قلبك هذه النجوى الرائعة بما فيها من حرارة العاطفة الكريمة قائلاً : «**فَقْدُ**

---

(١) يبهرك : يدهشك ويحيّرك . أُنظر تاج العروس: ٦٢/٣، مادة «بهر».

الأحبّة غربة»[١] و «**لا تشمت بالمصائب**»[٢] و «**ليكن دنوّك من الناس ليناً ورحمة**»[٣] و «**واعفُ عمّن ظلمك وأعطِ مَن حرمك، وصِلْ مَن قطعك، ولا تبغض من أبغضك !**»[٤] .

هل عرفتَ من الخلق عظيماً يلتقي مع المفكّرين بسموّ فكرهم، ومع الخيّرين بحبّهم العميق للخير، ومع العلماء بعلمهم، ومع الباحثين بتنقيبهم، ومع ذوي المودّة بموداتهم، ومع الزهاد بزهدهم، ومع المصلحين بإصلاحهم، ومع المتألّمين بآلامهم، ومع المظلومين بمشاعرهم وتمرّدهم، ومع الأُدباء بأدبهم، ومع الأبطال ببطولاتهم، ومع الشهداء بشهادتهم، ومع كلّ إنسانية بما يشرّفها ويرفع من شأنها ؟ ثم إنّ له في كلّ ذلك فضل القول الناتج عن العمل، والتضحية المتصلة بالتضحية، والسابقة في الزمان .

هل عرفت عظيماً يهون لديك أمر غالبيه ونصر المنتصرين عليه ؛ لأن أيامهم إنّما هي من الأيام التي عجّت[٥] بالمتناقضات، واصطبغت بالغرائب حتى أصبح فيها شمال الحياة يمينَها وتحتَها فوقَها وأرضُها سماءها ؟!

وسواءٌ لدى الحقيقة والتاريخ أعرفتَ هذا العظيم أم لم تعرفه ؛ فالتاريخ والحقيقة يشهدان أنه الضمير العملاق، الشهيد أبو الشهداء عليّ بن أبي طالب صوت العدالة الإنسانية وشخصية الشرق الخالدة .

وماذا عليكِ يا دنيا لو حشّدتِ قواكِ، فأعطيتِ في كلّ زمنٍ عليّاً بعقله وقلبه ولسانه وذي فقاره ؟!

---

(١) قصار الحكم للشريف الرضي، رقم ٦٥.

(٢) في نهج البلاغة جاء في وصف المتقين : ولا يشمت بالمصائب . الخطبة : ١٩٣ ـ ٢٥ .

(٣) في نهج البلاغة : ودنوّه ممّن دنا منه رحمة . الخطبة : ١٩٣ ـ ٢٧ .

(٤) في نهج البلاغة في وصف المتقين : يعفو عمّن ظلمه ويُعطي مَن حرمه، ويصل مَن قطعه . الخطبة : ١٩٣ ـ ٢٢.

(٥) عجّت : زخرت، ضاقت، امتلأت . المنجد: ٤٨٧، مادة «عجّ».

من الجذور العلويّة

ـ ويلبثانِ معاً يشهدانِ الشمسَ تسبحُ في صفاء السماء، حتى إذا استوتْ في مكانها من الفضاء اللانهائي العجيب ؛ لبثتْ قليلاً ثمَّ راحت تهوي إلى جانبٍ من الكونِ مجهول .

كانت عبقريّة عليّ تتفتح فيه ـ وهو صبيّ ـ شعوراً عميقاً طاغياً بنصرة الخير، وتضحيات أشبه بصُنع المعجزات !

النّبيّ وأبو طالب

وكأنَّ قوّة الكون أرادت لهما أنْ يستيقظا معاً في وحدة الطبيعةِ
وامتثال النجوم، على روعة الخَلق وفتنة الوجود وعلى جمال
الأزل والأبد يجتمعان في كواكب السماء وشفوف الأثير(١)
وحركة الأرض، وصَخَب الحياة!

إذا نظرنا من الأُمور إلى بواطنها دون ظواهرها، وإلى معانيها دون أشكالها، وإلى استمرار حقيقتها بالإجمال لا إلى تأريخ جزئياتها بالتفصيل، تبيّنَ لنا أن قضية عليّ بن أبي طالب هي قضية محمد بن عبد الله. وأن موقف علي وأنصاره من معاوية وجماعته هو موقف الرسول والمسلمين الأُوَل من أبي سفيان وأبي جهل ومَن وراءهما من العصابة القرشية، مع فارقٍ واحد هو أن الرسول استطاع أن يقهر عصابة التجّار والمستبدّين والمستغلّين وبائعي الدنيا برتبةٍ وبدولةٍ من قريش، فيما اختلف الظرفُ وحساب الأقدار بالنسبة لعليّ بن أبي طالب فلم يقهر عصابة التجّار والمستبدّين والمستغلّين وبائعي الدنيا برتبةٍ وبدولةٍ من الأسرة الأُموية.

ولكن، إذا فات عليّاً أن يحكم في رقاب الناس كبني أُميّة، وما كانت رسالته في مثل هذا الحكم، فما فاته أن يحكم في قلوب الطيّبين من الناس. وله من صفات الإنسان الأمثل ما يجعله جديراً بالسلطان على القلوب.

(١) شفوف الأثير: شفّ: رقّ فظهر ما وراءه. غريب الحديث: ٨١٦/٢.

وقبل أن أبدأ الكلام على عليّ بن أبي طالب ؛ لابدّ من أن ألقي نـظرةً عجلى إلى الوراء، لاستجلاء الرابطة العميقة التي تشدّ علياً وذويه إلى محمد بن عبد الله، سواء في الحوادث الجزئية التي تحمل تاريخاً وأرقاماً، أو في الأجواء الروحية والأدبية التي تهيأت في بيت واحد، واجتمعت في هذا وذاك من أهل البيت، وكان الرسول التعبير الأمثل والأكمل عن هذه الأجواء، وكذلك كان ابن أبي طالب .

* * *

حين حُرم الرسول من حدْب الأب وحنان الأُم ؛كفِله جدّه ـ وجدّ علي ـ عبد المطلب الهاشمي . وكان جدّه يحبّه ويفديه بـنفسه . وكـثيراً مـا حـدّث جلساءَه وهو ينظر إلى حفيده، بأنه سيكون لهذا الطفل شأنٌ عظيم . وقد رفعه جدّه، مع صغر سنّه، وأقعده في مجلسه العام، دون أعمامه، في ظلال الكعبة .

ولما توفّي جدّه،كفله عمّه أبو طالب ـ والد عليّ ـ فاستمر الغلام يحيا في جوّ الحنان والدعة، وحسن التربية الذي خلّفه الأب الراحل للابن المقيم .

أمّا كيف كفِله أبو طالب بعد أبيه وهو أشدّ إخوته عَوزاً وأكثرهم بنين ؛ فلأنّ أباه عبد المطّلب حين احتضر للموت ؛ دعا أبا طالب وخصّه دون سائر أبنائه بشـرف هـذه الكـفالة وهـذه الرعـاية . وقـصّة هـذا الاخـتيار مـقبولةٌ ومعقولة ؟

فعبد المطّلب يعرف أبناءه واحداً واحداًويُدرك من حقيقتهم ما بدا وما خفي . وهو ما اختار أبا طالب إلّا استئناساً بما يعرف من أمره وما يُدرك . فإنّ الحنان والعطف وإنْ كان لأكثر وُلْد عبد المطّلب منهما نصيب، لم يبلغا فـي قلوبهم من القوة والبعد ما بَلَغا في قلب أبي طالب . وأثر الحنان والعطف في حُسن الكفالة والرعاية أظهرُ من أثر المال . لذلك كله اختار أبا طـالب أبـوه

لرعاية محمد . أضِفْ إلى هذا أن أبا طالب كان يضمر من العطف على ابن أخيه ما يدفعه دفعاً إلى رعايته وإن لم يكلّفه ذلك أبوه . فكيف إذا اجتمع هذا العطف وهذا التكليف ؟

وممّا لا مراء[١] فيه أن أبا طالب صاحب شخصية جميلة ومحبّبة . شخصية جميلة تطالعنا بحكمة الشيخ الطيّب، والأمين المجرّب الذي يضع كل ما اُوتي من طيبةٍ وأمانة وتجربة موضعَ العمل والتنفيذ في كلّ حال .

وهذه الصفات التي يستجليها[٢] شيئاً فشيئاً كلّ من اطّلع على سيرة هذا الشيخ الجليل، هي التي أدركها القرشيون من أهل الجاهلية ساعة قالوا فيه : **«قلّ أن يسود فقيرٌ وساد أبو طالب»**[٣] .

وفي هذا القول إشارة صريحة إلى نظر أهل مكّة قبل الإسلام إلى شؤون السيادة، وكيف أنها لا تُصرّف إلّا على أيدي الأغنياء . وفيه كذلك إشارة صريحة إلى عظمة خُلق أبي طالب التي هيّأتْه بالرغم من فقره إلى أن يسود ويعلو رأيُه آراء الأثرياء .

واستمرّت الأخلاق الخيّرة ـ التي يتميّز بها بيت عبد المطلب ـ تتركز في نفسيّة محمد وتبدو في تصرّفاته . حتى لكأنّ الله لمّا اختار رسوله من بني عبد المطلب اختار لتنشئته هذا العمّ الكريم . وكأنّ قوة الوجود الشاملة هيّأت لأبي طالب أن يعلم من أمر ابن أخيه ما لا يعلمه سواه . فإذا هو يخرج بالصبيّ في يوم قحط وجدب، ويطلب إليه برفق ولينٍ أن يلصق ظهره بالكعبة . فإذا الصبيّ يفعل ما طلب إليه عمّه، ويلوذ بإصبعه نحو السماء وما في السماء آنذاك

---

(١) لا مِراء : لا شكّ، لا لبس . لسان العرب: ٢٧٧/١٥، مادة «مرا».

(٢) يستجليها : يستوضحها .كتاب العين: ١٨٠/٦، مادة «جلو».

(٣) شرح نهج البلاغة : ١ / ٢٩ .

غيمةٌ أو قَزَعة[١] من غيم . فإذا بالسحاب يُقبل من هنا ومن هنا، فيهطل المطر، فيخصب الوادي وتحيا الأرض . فلمّا سُئل أبو طالب عن هذا الصبيّ قال : هو محمد ابن أخي وفيه أقول :

وأبيضَ يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى، عصمةٌ للأرامل[٢]

ومهما يكن من شأن هذه الرواية، فهي رمزٌ إلى مقدارٍ عظيم من التحابّ، وتعاطي الخير بين الصبي وعمّه .

ويستمرّ أبو طالب في شرف خدمة هذا الصبي . ويبادله الحنان والمودّة والعطف . ويرافقه دائماً فلا ينام إلّا إلى جنبه ويخرج فيخرج معه . وكثيراً ما تهطل عيناه بالدمع ساعة ينظر إليه مشفقاً قائلاً : إذا رأيتُه ذكرتُ أخي أباه[٣] ـ .

ويتهيّأ أبو طالب للرحيل إلى الشام في ركْبٍ للتجارة . فحين يعزم على المسير ينظر إليه محمد ويقول : «**يا عمّ، إلى مَن تكلُني لا أب لي ولا أُمّ !**»[٤] فيرقّ له أبو طالب ويردفه خلفه ويقول : «**والله لأخرجنّ به معي لا يفارقني ولا أفارقه أبداً**»[٥] .

وهكذا يأبى أبو طالب إلّا أن يكون محمدٌ رفيقَ سفره إلى الشام وهو ما يزال في حدود الرابعة عشرة أو ما يقلّ . فيمرّان بمَدْين ووادي القرى وديار ثمود . ويقفان من بلاد الشام عند جنائن الأرض . ويلبثان معاً يشهدان الطبيعة الحيّة والصامتة . يشهدان الشمس تسبحُ في صفاء السماء ويُشرق وجهها فوق

---

(١) قَزَعة : القطعة من السحاب . الصحاح: ١٢٦٤/٣، مادة «قزع».
(٢) أعلام النبوّة للماوردي : ٧٧، وشرح ابن أبي الحديد : ٣ / ٣١٦.
(٣) شرح النهج لابن أبي‌الحديد : ١٤ / ٦٤.
(٤) بحار الأنوار : ١٥ / ٤٠٨.
(٥) المصدر السابق .

ما ترامى من الأرض وأطرافِها، حتى إذا استوتْ في مكانها من الفضاء اللانهائي العجيب ؛ لبثتْ قليلاً ثمّ راحت تهوي إلى جانبٍ من الكون مجهول ! وحتّى إذا لملمتْ آخر شعاعاتها وغاصت وراء تُخوم الأرض ؛ أقبل الليل يمتدّ ويسودّ ويُلبس كل شيء من نفسه ظلاماً لا يُزهّيه إلّا وميضٌ ليّنٌ من نجوم السماء .

فإذا ما بنفس أبي طالب من معاني الطبيعة يشفّ(١) في نفس محمد، فإذا هي جزء من ذاته يتكوّن وينمو تحت نظرة العمّ المحب . وإذا كلّ ما في الطبيعة من مُوحيات الكآبة والحزن، والفرحة والغبطة، والبساطة والعمق، يتجاوب في كيان محمد ويمثّلُ فيه روحاً إنسانياً ومعانيَ كونيّة .

أجل، كأنّ قوة الوجود الشاملة أرادت لهما أن يستيقظا معاً في وحدة الطبيعة وامتثال النجوم، على روعة الخلق وفتنة الوجود . وعلى جمال الأزل والأبد يجتمعان في كواكب السماء، وشفوفِ الأثير، وحركة الأرض، وَصَخب الحياة .

وهذا هو الراهب بُحيرا، أو جرجس على الأصل، يستضيف ركْباً من قريش فيهم أبو طالب وابن أخيه، في صومعةٍ يسكنها على طريق الشام، ولا يسكنها إلّا من تناهى إليه علمُ النصرانية، فيُغذّي ما في نفس أبي طالب من ابن أخيه وهو يلحظُه لحظاً شديداً ويهشّ(٢) له ويبشّ(٣)، إذ يُنبئُه بأنّ هذا الصبيّ سيكون له في العالم شأنٌ عظيم . فينظر أبو طالب إلى الصغير نظرة الحبّ والإعجاب، وبعطف الأب على أعزّ بنيه . ويتحرّك في نفسه الشعورُ بموجبات

---

(١) يشفّ : شفيفاً، أي رقّ حتى يُرىٰ، أي يرقّ . كتاب العين: ٢٢١/٦، مادة «شف».

(٢) يهشّ : يبتسم، ويخفّ للمعروف ويرتاح له . النهاية في غريب الحديث: ٢٦٤/٥، مادة «هشش».

(٣) يبش : يقبل عليه ويفرح به . كان طليق الوجه . مجمع البحرين: ٢٠٣/١، مادة «بشش».

الاستمرار على الخير الذي يربط محمداً بعمّه ويجعله سرّ بيته .

وراح أبو طالب يسمع أهل مكّة ينعتون محمداً بـالأمين، وهـو دامـع العين خافق القلب، إعجاباً وغبطة !

ولمّا طلبت خديجة من مـحمد أن يـقترن بـها ـ بـعد أن ردّت طـلب أشراف قريش من ذوي الجاه والمال ـ لم يجد أمامه غير عمّه أبي طالب، نجيّه في المكرمات، ليعقد في روحه وعلى لسانه، رباطه المقدّس مع هـذ السـيدة الفاضلة .

ولمّا كان أبو طالب أولَ مَن لمَسَ السموّ في أخلاق محمد، فـقد لبّـى نداءه للحال وأدرك أنّ محمداً لم ينطق في هذا المقام إلّا بما يـريده هـو فـي أعماق نفسه وما يرتئيه .

وبعد أن هبط الوحي على محمد في غار حراء،كان أول من صلّى معه زوجته خديجة وعلي بن أبي طالب . وكانا أول الناس إيماناً بالنبي . فلمّا بلغ ذلك أبا طالب ؛ قال لولده عليّ : أي بني ! ما هذا الذي أنت عليه ؟ فقال عليّ : يا أبتِ ! آمنتُ برسول الله وصدّقتُ ما جاء به وصلّيت معه واتّبعته، فقال أبو طالب : يا بنيّ ! إنه لم يدْعُك إلّا إلى خير، فالزمْه !

ولمّا أمر النبي المسلمين الأُوَل أن يـهاجروا إلى الحـبشة تـخلّصاً مـن قريش ؛كان جعفر بن أبي طالب على رأس المهاجرين، وكان أشدّهم حـبّاً لابن عمّه الذي ربّي وإياه في كنف أبيه .

وكان أبو طالب أوّل من قال شعراً في الإسلام يفيض بـالحبّ لمـحمد ويدعو إلى نصرته . وكان يكثرُ عـليه كـلّ عـملٍ أو قـول فـيه بـعض الأذى لابن أخيه .

ودمعت عينا أبي طالب، يوم أبلغه القرشيّون التجّار أنهم عـازمون عـلى قـتله

وقتل محمد إلّم يُخلّ محمدٌ الطريقَ التي يسلك . دمعت عينا أبي طالب لا خوفاً على حياته وحياة بنيه وابن اخيه ؛ بل إعجاباً بموقف محمد ساعةَ بلغه النبأ .

وخلاصة الخبر: أن قريشاً لما ائتمروا بمحمد وأرادوا قتله مشوا إلى عمّه أبي طالب وطلبوا إليه أن يسلّمهم محمداً فأبى . ومضى في دعوته ومضت قريش في ائتمارها . ثم ذهبوا إلى أبي طالب ثانيةً وثالثةً وقالوا له : يا أبا طالب ! إنّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وقداستنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتْم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنّا أو ننازله وإيّاك حتى يهلك أحدُ الفريقين .

وبلغ محمداً ماكان من أمر هؤلاء، فأطرق إطراقةً وقف إزاءها تاريخُ الوجودِ كلّه مبهوتاً لا يدري بعدها ما اتّجاهه ! أيسير التاريخ في طريقه هذه أم يتغيّر وجهه ؟ ففي الكلمة الواحدة التي تنطق بها شفتا هذا الرجل حُكمٌ على سير التاريخ . والتفتَ الرجلُ العظيمُ إلى عمّه وهو ممتلئٌ بقوة إرادته ومضاء عزيمته وصدق دعوته وإخلاصه لِما وَقَفَ له نفسَه وحياتَه، لينطق بهذه الكلمات الخالدات التي تُجسّم نفسية أصحاب الرسالات : «**يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أتركَ هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه، ما تركتُه !**»(١) وبكى أبو طالب إعجاباً وحبّاً عظيماً، وكان وحده آنذاك الشاهد على اتجاهٍ جديد سوف يتّجه التاريخ على يد ابن أخيه .

ولم يكن هذا الحبّ العميق الذي يلفّ محمداً في بيت عمّه أبي طالب ليأتيه من جانبٍ واحد وحسْب، بل كان كلّ من في البيت يضمر لمحمد

---

(١) تاريخ الطبري : ٢ / ٦٧.

العطف والحنان والبرّ، ولا سيّما فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب ووالدة عليّ . فقد كانت هذه المرأة الفاضلة تحدب على محمد حدْب الأمّ على ابنها بشهادة النبيّ نفسه الذي كان يكرمها ويعظّمها ويدعوها : أُمّي ! وكان يردّد أبداً هذا القول : «**لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبرّ بي منها !**»[1] .

ولعلّ هذا الاحترام الذي كان محمد يضمره ويبديه لزوجة عمّه أبي طالب، وإنزاله إيّاها منزلة الأمّ، ثم شعوره بالفرق العظيم بينها وبين معظم النساء القرشيات يومذاك، أمثال حمّالة الحطب ؛ أُمورٌ تجمّعت في نفسه ودفعته إلى أن يسمّي أحبّ بناته إلى نفسه باسمها، وأعني بها السيدة فاطمة زوجة عليّ وأُمّ الحسن والحسين .

وقال أبو طالب مرّةً لوفد قريش الذي جاء يطلب إليه تسليم محمد للعصابة القرشية : «فوالله لا نُسْلمنّه ولا نترك نصرته حتى نفنى عن آخرنا .»[2] .

ولم ينسَ أبو طالب دقيقةً واحدة في حياته أن محمداً إنّما هو استمرار عبقرية الخُلق التي يتميز بها بصورة عفوية هو وأخوه عبد الله وأبوهما عبد المطلب . فلما حضرته الوفاة ؛ جمع إليه قوماً كثيراً وقال لهم : «إنـي أُوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش والصدّيق في العرب وهو الجامع لكل ما أُوصيكم به . وكأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبَر والأطراف والمستضعفين بين الناس قد أجابوا دعوته وصدّقوا كلمته وعظّموا أمره ؛ فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش أذناباً وضعفاؤهم أرباباً . وإذا أعظمُهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم عنه أحظاهم عنده، يا معشر قريش ! كونوا له وُلاةً

---

(١) أُسد الغابة : ٧ / ٢١٧ .

(٢) سيرة ابن هشام : ١ / ٢٦٦ .

ولحزبه حُماة . والله لا يسلك أحدٌ سبيله إلّا رشد ولا يأخذ برأيه أحدٌ إلّا سعد . ولو كان لنفسي مدّةٌ ولأجَلي تأخيرٌ ؛ لدفعتُ عنه الدواهي . إن محمداً هو الصادق الأمين فأجيبوا دعوته واجتمعوا على نصرته وراموا عدوّه من وراء حوزته فإنه الشرف الباقي لكم على الدهر !»[1] .

توفي أبو طالب بعد أن كفل النبيّ وصانه وقاوم قريشاً في سبيله، ووقف في وجهها مدافعاً عن دعوته، زهاء اثنين وأربعين عاماً بليلها ونهارها .

ولما توفي أبو طالب شعر النبيّ بأنه فقد أعظم ركن يستند إليه ويدفع عنه أذى قريش . وماكان هذا الشعور إلّا تدليلاً على تجاذُب أسباب الخير بين محمد وعمّه : رب البيت الذي نشأ فيه وسما خلقه ! وإذا كان من أسباب هذا الشعور بخسارة أبي طالب أن محمداً فقد به نصيراً يفديه بدمه ويدفع عنه الأذى، وملجأ حصيناً ضدّ قريش والمستبدين الغُلاة من بنيها حتى أنه قال : **«ما نالني من قومي سوء حتى مات عمّي أبو طالب»**[2]، فما تعليل هذا الحزن العميق الذي غزا قلب محمد بموت عمّه ؟ وما علّة هذه الكآبة، وماكان محمد إلّا صبوراً حازماً واثقاً بنصر رسالته مهماكثر العدوّ وقلّ الصديق، ومهماكان من شأن الأخيار والأشرار ؟ أجل ما علّة هذه الكآبة إن لم تكن الكارثة التي حلّت بمحمد هي كارثة الإنسان بأعزّ من يعطف عليه ويحميه ؟ وما تكون هذه الدموع الغزار ؛ إن لم تكن شاهداً على أن النبي ـ كرجل ـ أحسّ بأنه فقد شيئاً من ذاته، من حاضره وماضيه ؟

---

(١) سيرة العلّامة الحلبي : ١ / ٣٧٥ ط مصر .

(٢) سيرة ابن هشام : ١ / ٤١٦ .

النّبيّ وعليّ بن أبي طالبْ

كـنّا نـنظر إلى عـليّ فـي أيـام النـبي كـما نـنظر إلى النجم .(١)

عمر بن الخطاب

وفي البيت الطالبيّ الواحد تنمو الروح الواحدة بالصدق والصفاء، ووحدة النظر إلى الكون والحياة . وتستمرّ على أُصولٍ أعمق وفروع أكثر في علاقة النبي مع ربيبه الطفل، ثم الصبي، ثم الشاب، ابن عمّه العظيم عليّ بن أبي طالب .

ونحن إذا نظرنا إلى ميلاد المعاني الإنسانية في قلبٍ وروح ، رأينا أن عليّ بن أبي طالب إنّما وُلدَ مؤمناً بالرسالة الخيّرة ونصيراً لها . فإن خصائص البيت الطالبي الذي ربّي فيه محمد انتقلت بصورة طبيعية إلى ابن عمه ساعة ميلاده .

ونما خلق عليّ على شمائل بيت أبيه أبي طالب،ذاك الذي أصغت جدرانه لأوّل عبارة من محمد، وخرجت منه الدعوة الإسلامية إلى الوجود . فإن علياً ماكاد يبلغ الرابعة من عمره حتى ضمّه محمد إليه وآخاه . وقد أشار عليّ إلى تعهّد محمد إياه، بخطبته التي تسمّى بالقاصعة وفيها يقول :

«وقد تعلمون موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢٠، الحِكم المنسوبة، رقم ٧٣٣، وفيه: الحديث منسوب الى الإمام علي عليه السلام يقول:... ينظر إليّ الناس كما ينظر الى الكواكب في أُفق السماء.

وضعني في حجره وأنا وليدٌ يضمّني إلى صدره، ويكنفني فراشه ويُمسّني جسدَه ويُشمّني عرفَه[١] . وما وجد لي كذبةً في قول ولا خطلةً في فعل . وكنت أتبعه اتّباع الفصيل إثر أُمّه، يرفع لي في كلّ يومٍ من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به .»[٢] .

وهذا هو أوّل الزمن الذي يتأهل الغلام فيه لتلقّي بذور الأخلاق الفاضلة . ولطالما جاور عليّ محمداً في خلواته، وسار على نهجه في الانقطاع عن القرشيين المتردّين في ليلٍ من جهالتهم وجمودهم على ما هم عليه من عاداتٍ وأخلاق . ولطالما عاش في ذلك الجوّ الزكي إلى جوار ابن عمّه وهو أثيرٌ لديه حبيب على قلبه . وإن مثل هذا الجوار وهذا الإخاء لم يظفر به واحد ـ غير علي ـ من أصحاب الرسول وتلاميذه .

لقد فتح علي بن أبي طالب عينيه على الطريق التي رسمها ابن عمّه . وعرف العبادة أول ما عرفها من صلاته . ونعمَ بعطفه وحنانه وإخائه . فإذا هو من محمد ما كان محمدٌ من أبي طالب !

وخفق قلب عليّ أول ما خفق بحبّ ابن عمّه . ونطق لسانه أوّل ما نطق بما لقّنه إيّاه من رائع القول . واكتملت رجولته أوّل ما اكتملت لمؤازرة النبي المضطهَد، وإذا كان النبي يحبّه أنصاره، ويحترمه أعداؤه ؛ فهل يكون ربيبه وتلميذه وأخوه عليّ إلّا شيئاً من كيانه، شيئاً عظيماً من كيان عظيم .

وإذا أسلم بعض الوجوه من قريش منذ أوّل الدعوة احتكاماً للعقل وتخلّصاً من الوثنية ؛ وإذا أسلم كثير من العبيد والأرقّاء والمضطهدين طلباً للعدالة التي تتدفّق بها رسالة محمد، واستنكاراً للجور الذي يلهب ظهورهم بسياطه ؛ وإذا أسلم قومٌ بعد انتصار النبي ؛ امتثالاً للواقع وتزلّفاً للمنتصر، كما

---

(١) عرفه : رائحته . كتاب العين: ٢/١٢٢، مادة «عرف».

(٢) نهج البلاغة، الخطبة : ١٩٢ ـ ١١٩ .

هي الحال بالنسبة لأكثر الأُمويين ؛ إذا أسلم هؤلاء جميعاً في ظروف تتفاوت من حيث قيمتها ومعانيها الإنسانية، وتتّحد في خضوعها للمنطق أو للواقع الراهن ؛ فإنّ عليّ بن أبي طالب قد ولد مسلماً ؛ لأنه من معدن الرسول مولداً ونشأةً، ومن ذاته خلقاً وفطرة . ثمّ إن الظرف الذي أُعلن فيه عمّا يكمن في كيانه من روح الإسلام ومن حقيقته، لم يكن شيئاً من ظروف الآخرين . ولم يرتبط بموجبات العمر . لأن إسلام عليّ كان أعمق من ضرورة الارتباط بالظروف، إذ كان جارياً من روحه كما تجري الأشياء من معادنها والمياه من ينابيعها .

لقد كان أوّل سجود المسلمين الأُوَل، لآلهة قريش .

وكان أوّل سجود عليّ لإله محمد .

ألا إنه إسلام الرجل الذي أُتيح له أن ينشأ على حبّ الخير وينمو في رعاية النبي ويصبح إمام العادلين من بعده، وربّان السفينة في غمرة العواصف والأمواج .

هذا أخي

قال النبي لعليّ :
إنّ فيك لَشبَهاً من عيسى بن مريم ![1]

ولاستجلاء هذه الوقائع بأرقامها لابدّ من ذكر بعض الأحاديث التي تؤيدها وتضمن وجودها، وتخبرنا إلى أيّ مدى كان التآخي الروحي بين النبي وابن عمّه العظيم. كما تخبرنا إلى أيّ مدىً كان عليّ وارثاً لمزايا الرسول، مصطبغاً بصبغته، أثيراً لديه، حبيباً إليه، عظيماً في جنانه وعلى لسانه. ويمكننا بعد ذلك أن نستنتج أن الرسول إنما كان يمهّد لعليّ سبيل الخلافة ضمن الحدود التي تشترطها ثورة الإسلام والتي يتمّ بها سلطانه وانتشاره. يمهّد لعليّ سبيل الخلافة لأنه رأى فيه صورةً عنه من حيث سموّ الخلق ونبل المقصد وسائر المكارم التي سيجري عليها القول بالتفصيل.

حدّث الطبراني عن ابن مسعود أن النبي قال : **«النظر إلى وجه عليّ عبادة»**[2].

---

(١) يأتي تخريج الحديث في الصفحة ٧٣ هامش رقم ٥.

(٢) تاريخ دمشق، ترجمة الإمام علي (عليه السلام)، رقم الحديث : ٨٨٧، اللآلئ المصنوعة للسيوطي : ١ / ١٧٧، مناقب ابن المغازلي، رقم الحديث ٢٥٢. مناقب الخوارزمي : ٢٥٢. ذخائر العقبىٰ : ٥٩. الرياض النضرة : ٢ / ٢١٩. المستدرك للحاكم النيسابوري : ٢ / ١٤١. ميزان الاعتدال للذهبي : ٤ / ٢٨٣ ـ ٤٠١. حلية الأولياء ←

وحدّث بعضم عن سعد بن أبي وقاص قال، قال النبي : **«من آذى علياً فقد آذاني»**[(١)] .

وذكر اليعقوبي في الجزء الثاني من تاريخه أن النبي خرج ليلاً بعد رجوعه من حجّة الوداع منصرفاً إلى المدينة فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له «غدير خم» لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجّة . وقام خطيباً وأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال : **«من كنت مولاه فعليّ مولاه . اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه»**[(٢)] . وجاء في التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي : أن عمر بن الخطاب لقي علياً بعد ذلك فقال له : «هنيئاً لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»[(٣)].

وهذا الحديث أخرجه كثير من المؤرّخين، ومن العلماء أمثال : الترمذي والنسائي والإمام أحمد بن حنبل،كما رواه ستة عشر صحابياً . وقد ذكره عددٌ من الشعراء أوّلهم حسّان بن ثابت الأنصاري، قال :

← لأبي نعيم : ٥ / ٥٨ و ٢ / ١٨٢ . الصواعق المحرقة : ٧٤ . الإصابة : ٨ / ١٨٣ .كنز العمّال : ٦ / ١٥٢ . تاريخ بغداد : ٢ / ٥١ .

(١) مسند أحمد بن حنبل : ٣ / ٤٨٣ طبعة الميمنية بمصر . منتخب ذيل المذيّل للطبري : ٣ / ١٠٨ طبعة مصر . المستدرك للحاكم : ٢ / ١٢٢ طبعة حيدرآباد . مناقب الخوارزمي : ٩٢. تذكرة الخواص، سبط بن الجوزي : ٤٩ طبعة كربلاء . تلخيص المستدرك للذهبي، المطبوع بذيل المستدرك : ٢ / ١٢٢ . تاريخ الإسلام للذهبي : ٢ / ١٩٦ . البداية والنهاية لابن كثير : ٧ / ٣٤٦ طبعة حيدرآباد ، مجمع الزوائد للهيثمي : ٩ / ١٢٩ ط القاهرة .

(٢) هذا الحديث من أشهر الأحاديث المتواترة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد أفرده جمع كثير بالتأليف، منهم : محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ، والحافظ بن عقدة، والدارقطني ، والذهبي، والحاكم النيسابوري، والحافظ الحسكاني، وقد بلغت طرق هذا الحديث أكثر من ألف وثلاثمائة أسناد، ورواه العشرات من الصحابة والتابعين والحفّاظ، فقد رواه أحمد بن حنبل في مسنده : ٤ / ٣٧٠ والنسائي في الخصائص الحديث ٨٧، والطبراني في المعجم الكبير والأوسط، وابن كثير في البداية والنهاية : ٧ / ٣٦٦، والترمذي في صحيحه : ٥ / ٥٩٠ حديث ٣٧١٣.

وللمزيد تراجع موسوعة الغدير للعلّامة الأميني، إحقاق الحقّ للتستري.

(٣) راجع المصادر السابقة.

يـــناديهُم يــومَ الغــديرِ نَــبيّهم ... بـــخمٍّ وأســمعْ بــالنبيّ مــناديا
وقــال فـمن مـولاكُم ووليّكـمْ ... فـقالوا ولم يـبدوا هـناك التعاميا
إلهك مـــــــولانا وأنت نـــبيّنا ... ومــا لك مــنّا بـالوصاية عـاصيا
فــقال له قــمْ يــا عــليّ فــإنني ... رضيتُك من بعدي إمـاماً وهـاديا
فــمن كــنتُ مـولاه فـهذا وليّـهُ ... فكونوا له أنصارَ صدقٍ مواليـا [(١)]

ومن الشعراء الذين ذكروا ذلك اليوم : أبو تـمام الطـائي . ومـن الذيـن أسهبوا في وصفه الكميت الأسدي في قصيدة عينية يقول فيها :

ويوم الدَوح دوحِ غديرِ خمٍّ ... أبــانَ له الولايــةَ لو أُطــيعا
ولم أرَ مثل ذلك اليومِ يـوماً ... ولم أرَ مــثله حـقاً أُضـيعا[(٢)]

ومن كتاب الآل لابن خالويه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله لعلي بن أبي طالب : **«حبّك إيمان، وبغضك نفاق . وأوّل من يدخل الجنة محبّك، وأوّل من يدخل النار مبغضك»**.[(٣)]

ولا يختلف الرواة والمحدّثون في أن النبي طالما ردّد هذه العبارة وهو ينظر إلى علي : **«هذا أخي !»**[(٤)].

وقــال النـبيّ مـرّة لعـليّ : **«إن فـيك لَشَـبهاً مـن عـيسى بـن مـريم !»**[(٥)] و**«لا**

---

(١) مناقب علي بن أبي طالب للخوارزمي : ٨٠، والشيخ الصدوق في أماليه : ٣٤٣، فقد حذفت هذه الأبيات من ديوانه الموجود حالياً .

(٢) الهاشميات : ٣٠ طبعة ليدن .

(٣) الفصول المهمّة لابن الصّباغ المالكي : ١٠٩ نقلاً عن كتاب الآل لابن خالويه .

(٤) سيرة ابن هشام : ١ / ٥٠٤، البداية والنهاية لابن كثير : ٣ / ٢٢٦، ينابيع المودّة للقندوزي : ٥٧ نقلاً عن ابن المغازلي، أُسد الغابة لابن الأثير : ٣ / ٣١٧.

(٥) مسند أحمد بن حنبل : ١ / ٢٥٨ حديث : ١٣٧٩ دار إحياء التراث ١٩٩١ بيروت ، البخاري في التاريخ الكبير ج ٢ رقم الحديث ٢٥٧ ، الحاكم في المستدرك : ٣ / ١٢٣ ، مجمع الزوائد : ٩ / ١٣٣ ، شواهد التنزيل : ←

يُبغضك إلّا منافقٌ !»(١).

وجاء في الحديث عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله وهو في محفل من أصحابه : «**إن تنظروا إلى آدم في علمه ، ونوح في همّه ، وإبراهيم في خلقه ، وموسى في مناجاته ، وعيسى في سنّه ، ومحمد في هديه وعلمه ؛ فانظروا إلى هذا المقبل !**» فتطاول الناس بأعناقم فإذا هو عليّ بن أبي طالب»(٢).

وبالإسناد عن زيد بن أرقم : قال رسول الله : «**ألا أدلّكم على ما إن تساءلتم عليه لم تهلكوا ؟ إن وليّكم الله وإن إمامكم عليّ بن أبي طالب فناصحوه وصدّقوه**»(٣).

وقال الرسول، وقد شكا إليهِ بعض أصحابه شأناً من شؤون علي : «**ما تريدون من عليّ ؟ ما تريدون من علي ؟ ما تريدون من علي ؟ عليّ مني وأنا منه وهو وليّ كل مؤمن بعدي**»(٤).

وبعث الرسول علياً إلى اليمن ؛ فسأله جماعة من أتباعه أن يُركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم . فأبى عليّ . فشكوه إلى الرسول بعد رجعتهم . وتولّى شكايته سعد بن مالك الشهيد، فقال : يا رسول الله ! لقد لقينا من عليّ من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق ... ومضى يعدّد ما لقيه . حتى إذا كان في وسط كلامه

← ١٤٩، أبو يعلى في المسند : ٣٧، المناقب لابن المغازلي : ٧١ حديث ١٠٤، المناقب للنسائي : ١٠٥ حديث ٩٨.

(١) مسند أحمد بن حنبل : ١ / ٨٤، و٩٥، صحيح مسلم : ١ / ٦٠، سنن ابن ماجة : ١ / ٥٥ طبعة مصر، صحيح الترمذي : ٥ / ٥٩٠ حديث ٣٧١٧، خصائص النسائي : ٢٧، حلية الأولياء لأبي نعيم : ٤ / ١٨٥، سنن البيهقي : ٢ / ٢٧١.

(٢) شواهد التنزيل للحسكاني ج١ ص١٠٦ رقم الحديث ١٤٧، مناقب ابن المغازلي ص٢١٢ حديث ٢٥٦. البداية والنهاية ج٧ ص٣٥٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديث ج٢ ص٤٤٩ طبعة مصر، قال : رواه أحمد والبيهقي .

(٣) المسترشد في الإمامة لمحمد بن جرير بن رستم الطبري : ٦٣٢.

(٤) مسند أبي داود : ١١١ حديث ٨٢٩، صحيح الترمذي : ٥ / ٥٩٠ حديث ٣٧١٢، خصائص النسائي : ٢٦، مستدرك الحاكم : ٣ / ١١٠، حلية الأولياء لأبي نعيم : ٤ / ٢٩٤، أُسد الغابة لابن الأثير : ٤ / ٢٧.

ضرب النبي على فخذه وهتف به : «**يا سعد بن مالك الشهيد ! بعض قولك لأخيك عليّ ؟ فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله .**»[١]

ويروى أن قريشاً أصابتها أزمة وقحط ؛ فقال محمدٌ لعمّيه حمزة والعبّاس : ألَا نحمل ثقلَ أبي طالب في هذا المحل ؟ فجاءوا إليه فسألوه أن يدفع إليهم وُلْدَه ليكفوه أمرهم فقال : دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم . فأخذ العبّاسُ طالباً، وأخذ حمزة جعفراً، وأخذ محمدٌ علياً وقال لهم : قد اخترتُ ما اختاره الله لي عليكم[٢]، قالوا : فكان عليّ في حجر الرسول منذ كان عمره ست سنين، وكان ما يُسدي إليه من إحسانه وشفقته وبرّه وحُسن تربيته كالمكافأة والمعاوضة لصنيع أبي طالب به حيث مات عبد المطلب وجعله في حجره .

من هذه الأحاديث، ومن غيرها، يثبت أمرٌ واحدٌ لا يقوم حوله جدل، وهو : أن النبي كان يشعر بنوع من الإخاء لعلي بن أبي طالب، وإن علياً كان ممتلئاً بهذا الإخاء . ثم إن النبي كان يوجّه الأنظار إلى العظمة الإنسانية التي تتمثل في شخصية عليّ، وإلى أنه خير من يستطيع أن يتمّم شروط الرسالة من بعده .

ومن الروايات الثابتة، ما يلقي نوراً ساطعاً على هذه الإرادة الكونية التي شاءت أن يكون عليّ شيئاً من ذات الرسول . وقد هيّأت هذه الإرادة ظروفاً ومناسباتٍ برزت فيها خصائصُ ماكان لأحد أن يشارك بها عليّاً .

فها إن عليّاً ولد في الكعبة التي أصبحت قبلة أشواق المسلمين، وكان مولده فيها بعد أن أصبحت الدعوة الإسلامية شيئاً موجوداً بذات محمّد ؛ وإن لم يكن قد أفصح عنها بعد . وكان موئله بيت أبي طالبٍ أبيه، بيت محمد .

---

(١) عبقرية الإمام عليّ، العقاد : ١٠٧، البداية والنهاية : ٧ / ٢٨٢.

(٢) تاريخ الطبري «ذُكر الخبر في ابتداء النبوّة».

وكان عليّ أوّل من نظرت عيناه إلى النبي وزوجته خديجة وهما يصلّيان . ثم إنه كان أوّل المسلمين وهو لم يبلغ مبلغ الشباب . ولما عوتب على إسلامه دون مشورة أبيه أبي طالب، أجاب على الفور : «**لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب . فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله !**»[١].

وظلّ الإسلام زمناً وهو محصورٌ في بيت محمد : فيه وفي زوجته وابن عمّه ومولاه زيد بن حارثة .

ويوم دعا النبي عشيرته الأقربين إلى طعام في بيته، وشاء أن يحدّثهم داعياً إيّاهم إلى الإسلام، قطع عمّه أبو لهب حديثه واستنفر الآخرين لينهضوا ويغادروه . ثم دعاهم محمد في الغداة كرّة أُخرى، فلما طعموا قال لهم : «**ما أعلمُ إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر ؟**»[٢] فأعرضوا عنه وهمّوا بمغادرة بيته كما فعلوا في المرّة الأولى . فما كان من عليّ إلّا أن نهض، وهو ما يزال صبياً دون الحلم، وقال : «**أنا يا رسول الله عَونُك، أنا حربٌ على من حاربتَ !**»[٣] فضحك بنو هاشم وقهقه بعضهم، وجعلوا يتنقلون بأنظارهم من أبي طالب إلى ابنه الغلام، ثم انصرفوا مستهزئين .

وكان لواء عليّ مع النبيّ في كل قتال وكل زحف . وما كانت فروسيته التي توجز معاني الشهامة فيه، وما كان دمه وقلبه ولسانه إلّا وقفاً على ابن عمّه النبي، وعلى إنجاح الرسالة النبوية . فقد فعل في أعداء محمد الأفاعيل ضمن شروط الفروسية الشريفة . وثبت كالجبل الراسخ أمام صناديد قريش يوم بلغ الفزع من أنصار النبي، وزلزلت قلوبهم وقعة الخندق، فانكشفت عنه خيرة

(١) حياة محمد ـ لمحمد حسين هيكل : ١٠٢، باب إسلام علي بن أبي طالب .
(٢) تفسير الطبري ، سورة الشعراء : الآية ٢١٤.
(٣) شرح نهج البلاغة : ١ / ٢٤، بحار الأنوار : ٤٠ / ٩٢.

صحبه . فكانت من عليّ البادرة التي أعادت إلى المسلمين الثقة بالنصر، وآذنت بهزيمة قريش وأبطالها .

وأكبِرْ بجهاد عليّ يوم فُتحت على يده حصون خيبر القوية وفيها من المقاتلين الأشداء !كل من يُرعب ويخيف لطول ممارستهم للحرب والقتال . وخلاصة ذلك أن حصار المسلمين لحصون خيبر كان قد طال . وأهل هذه الحصون يستميتون في الدفاع عنها إيماناً منهم بأن هزيمتهم أمام محمد هي القضاء العاجل على مؤامرات بني إسرائيل في جزيرة العرب، وعلى تجاراتهم وزعاماتهم . فبعث الرسول أبا بكر الصدّيق إلى الحصن كي يفتحه . فقاتل قتال البطل المؤمن بصالح القتال . ولكنه رجع دون أن يفتح الحصن . فبعث الرسول عمر بن الخطاب في الغداة . فكان حظه كحظ أبي بكر أمام الحصن المنيع والمقاتلين الأشداء . فدعا الرسول إليه عليّ بن أبي طالب وأمره بأن يمضي ويفتح الحصن . فمضى عليّ إليه وهو ممتلئ غبطة بهذه الخدمة الجديدة للعقيدة التي تحيا في دمه . فلمّا دنا من الحصن وأدرك أهله أن خصمهم إنما هو علي بن أبي طالب الذي لم ينهزم في قتال ولم يثبت له مقاتلون ؛ خرجوا إليه جماعات فضربه رجلٌ منهم فطرحه تُرْسه من يده فتناول عليّ باباً ضخماً وجعله في يده كالترس . فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الحصن المنيع . ولم يسقط هذا الحصن إلّا بعد أن قتل أكثر فرسانه وفي طليعتهم قائدهم الحارث بن أبي زينب .

ثم إنّ هنالك لأمراً عجباً !

لقد عرف التاريخ أبطالاً يحاربون في سبيل عقيدةٍ وإن كانوا يؤثرون السلم على الحرب ويفضّلون أن تجري الأُمور في مجاريها الطبيعية دون ما

يضطرّهم مكرَهين إلى القتال .

وعرف التاريخ أبطالاً استشهدوا في سبيل غاية شريفة وهدف نبيل .

ولكنّ مثل هذه البطولة وهذا الاستشهاد، لا يكونان في ساعتهما عملاً بطيئاً من شأنه أن يثير في الخيال صور الموت ومأساة انتظاره ؛ بل يجريان في غمرة من الحماسة الطاغية . وقد يكونان في رعاية الجماعات وتحت الأنظار والقلوب .

أمّا علي بن أبي طالب، فما كان أعجب أمره يوم غامر في سبيل عقيدته التي هي عقيدة محمد بن عبد الله ! وفي سبيل الحقّ ورعاية الشرف والإخاء، هذه المغامرة التي لم يعرف التاريخ أجلّ منها، وأقوى وأروع، وأدلّ على وحدة الذات بين عظيمٍ وعظيم .

فعندما اشتدت مساءات قريش وسعى القوم جادّين إلى الإجهاز على الإسلام بقتل الرسول، ذهب محمد إلى بيت أبي بكر الصدّيق وأخبره بأنه عازم على الهجرة لأنّ قريشاً قد ائتمرتْ به وتنوي قتله . فطلب الصدّيق أن يصحبه في هجرته فأجابه إلى ما طلب .

ولمّا اعتزم الرجلان مغادرة مكّة،كانا على يقين لا يطاله أدنى شكّ في أن قريشاً ستتبعهما. لذلك رأى محمد، بما أوتي من عبقرية في إدراك الأُمور، أن يسلك في هجرته طرقاً مألوفة لدى القرشيين، وفي موعدٍ كذلك غير مألوف .

وفي الليلة ذاتها التي اعتزم محمد أن يهجر مكّة فيها، أعدّت قريش عصابةً كبيرة من الرجال الأشدّاء لقتله، وأوفدتهم لكي يحاصروا داره مخافةَ أن يستتر بالظلام ويفرّ من أيديهم .

غير أن محمداً كان في ليلة الهجرة هذه قد أسرّ إلى ابن عمّه علي بن أبي طالب أن يتسجّى بُرده الأخضر، وأن ينام في فراشه . وأمره أن يتخلّف بعده بمكّة حتى يؤدّي الودائع التي كانت عنده للناس .

وامتثل عليّ لأمر محمد والغبطة تملأ نفسه، كما هي حاله أبداً أمام كل تضحية يقوم بها في سبيل الرسول .

وأحاط هؤلاء الرجال من قريش بدار محمّد . وأوثقوا حولها الحصار حتى ليستحيل على الهواء أن يخرج منها دون أن يمرّ بسيوفهم المُشرَعة . ثم جعلوا يوصوصون من فرجةٍ إلى فراش النبي فيرون في الفراش رجلاً فتطمئنّ خواطرهم إلى أن محمداً لم يفرَّ .

ولمّا كان الثلث الأخير من الليل، وكانت عيون هؤلاء ما تزال ترى رجلاً راقداً في فراشه، كان النبي في دار أبي بكر ليخرج وإياه من خَوخة في ظهرها وينطلقا إلى غار ثَوْر حيث لحق بهما رجالٌ من قريش منع الله عنهم إدراك الرجلين الكبيرين .

لقد كان عليّ بمغامرته هذه استمراراً لمحمد . وكانت تضحيته من روح المقاومة التي عُرف بها ابن عمه العظيم . وكان مبيته في فراش النبي تزكية للدعوة وحافزاً على الجهاد الطويل . ثم إن في هذه المغامرة ما يوجز الحقيقة عن الإمام وطباعه ومزاجه، فإذا هي صادرة عنه كما تصدر الأشياء عن معادنها دون تكلّفٍ ودون إجهاد . ففيها نموّه الذهني المبكّر الذي جعله يدرك حقيقةَ الدعوة التي يدقّ فهمها فهماً صحيحاً على من كان في مثل سنّه . وفيها زهده بالحياة إذا لم تكن عُمراً لمكارم الأخلاق . وفيها صدقه المرّ وإخلاصه العجيب . وفيها عدله بين نفسه وبين سواه من أهل الجهاد، وما يتوخّاه بذلك

من نصرة للمظلومين والمستضعفين، إذا قُتل هو ونجحت الرسالة على يدي صاحب الهجرة . وفيها مواجهته للأُمور بسماحة وبساطة لا يعرف معهما إلى الكلفة سبيلاً . وفيها المروءة والوفاء والطيبة والشجاعة وسائر صفات الفروسية التي يمثّلها عليّ بن أبي طالب ، بل هي شيء من استشهاده المقبل .

وتستمر صلات المودة والإخاء بين محمد وعلي . ويستمر بينهما تعاطي الخير على إنجاح الرسالة، هذا التعاطي الذي يتماسك في أعماقه ويتّحد منذ أن عرف محمدٌ أبا طالب، ومنذ أن عرف عليٌ محمداً، ومنذ أن اجتمع الثلاثة في بيت واحد، قام على مزايا الشهامة . وما كانت خصائص البيت الطالبي إلّا حافزاً لأبي طالب وابنه عليّ على فهم عبقرية محمد فهماً يتمثّل لدى الأوّل شعوراً وتضحية، ولدى الثاني فكراً جبّاراً وشعوراً عميقاً شاملاً وتضحيةً أشبه بصنع المعجزات .

ويدرك الرسول هذه الحقيقة، ويحبّ علياً هذا الحبّ الذي يأخذ مصدره من حبّه للرسالة ذاتها . ثمّ إنّه لا يكتفي بأن يحبّه وحده، فنراه يحبّبه إلى الناس في كلّ ظرف وكلّ مناسبة ليمهّد له سبيل الخلافة في زمنٍ يأتي، شرط أن يدرك الناس قيمة عليّ بوصفه استمراراً للرسول فينتخبوه اختياراً وحبّاً وثقةً، لا لكونه ابن البيت الهاشمي وابن عم النبي، فإن النبي قد اتّقى هذه العصبية، بل إنه حاربها جاهداً وحطّم مفاهيمها تحطيماً . وكان من جملة أعماله أنه أقصى معظم الهاشميين ـ وهم آله ـ عن الولاية والعمالة وحظوظ الدنيا بعد أن حرم نفسه هذه الحظوظ .

صفة الإمام

قال واصفو عليّ بن أبي طالب ـ وفيهم صاحب ذخائر العقبى ـ إنه كان وهو في تمام الرجولة، ربعة القامة أميَلَ إلى القصر . أسمر شديد السمرة، أبيض اللحية طويلها . أدعج العينين في سعة . حسن الوجه واضح البشاشة كثير التبسّم، أغيدَ كأنما عنقه إبريق فضّة . عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش السبع الضاري، لا تبين عضدُه من ساعده بل أُدمجا إدماجاً . شثن الكفّين، أبجرَ يميل إلى السمنة في غير إفراط . ضخم عضلة الساق دقيق مستدقّها . ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقّها . يتكفّأ في مشيته على نحوٍ يقارب مشية النبي . ويُقدِم في الحرب فيقدم مهرولاً لا يلوي على شيء .

ثم إنّه كان من القوة الجسدية على ما يدهش العقول، فربما رفع الفارس بيده فَجَلدَ به الأرض غير جاهدٍ ولا حافلٍ، كأنه يرفع طفلاً وليداً . وربما أمسك بذراع البطل فكأنه أمسك بنَفَسه فلا يستطيع أن يتنفس . واشتهر عنه أنه لم يبارز فارساً إلّا صرعه مهما كانت قواه بالغة ومهما كان شأنه عظيماً . وقد يحمل الباب الضخم الذي يعيا الأبطال بقلبه أو تحريكه فيأخذه بيدٍ واحدة، ويتترّس به كأنه ترسٌ عادي، وقد يزحزح بيدٍ واحدة الصخر الضخم، لا يزحزحه رجالٌ مجتمعون .

ثمّ إنه قد يصيح الصيحة في ميدان القتال فتنخلع لها قلوب الشجعان أفراداً وجماعات، وكان له من مكانة التركيب صلابة على الطوارئ الجوية فلا يبالي ألَبِسَ ثياب الشتاء في الصيف أو ثياب الصيف في الشتاء !

الخُلق العظيم

ـ شكا أحدُ الناس عليّ بن أبي طالب إلى عمر بن الخطاب في خصومةٍ، وكان عمر أميراً للمؤمنين . فأحضرهما وقال لعليّ ؛ قف يا أبا الحسن بجانب خصمك ! فبدا التأثّر على وجه عليّ . فقال له عمر : أكَرِهْتَ يا عليّ أن تقف إلى جانب خصمك ؟ فقال عليّ : لا يا أمير المؤمنين ! ولكني رأيتك لم تسوِّ بيني وبينه، إذ عظّمتني بالتّكنية ولم تكنّه .(١)

ـ خرج عليٌّ وهو راكبٌ فمشى معه قومٌ فقال : ألكم حاجة ؟ قالوا : لا . قال : انصرفوا، فإنَّ مشيَ الماشي مع الراكب مفسدةٌ للراكب ومذلّة للماشي .(٢)

من الصعب والمصطنَع تجزئةُ الصفات والطباع والأخلاق في الكائن الحيّ ولا سيّما العظيم . فهي متماسكة متفاعلة يكمّل بعضها بعضاً ؛ ويكون هذا منها سبباً في ذاك أو نتيجةً لذلك، أو مرادفاً لأحدهما أو لِكِلَيْهما في العلّة والنتيجة . لذلك لا تستهدف محاولتي التجزيئية هذه إلّا عملاً ينقسم في النظرية ويتّحد في التطبيق . وفي مثل هذه التجزئة النظرية ما يسمح لي بالاستنتاج والتعليل ؛ على أن يجري هذا الاستنتاج من طبيعة الأشياء جرياً عفوياً بديهياً .كل ذلك في تلميح وإيجاز . وغايتنا أن نحيط بشخصية الإمام عليّ من نواحيها جميعاً، فتكون معرفتنا لطباعه وأخلاقه إطاراً يدور فيه بحثنا

---

(١) مناقب الخوارزمي حديث ٩٩، فرائد السمطين : ١ / ٦٦، نزهة المجالس : ٢ / ١٧١، قال : أخرجه الزمخشري في ربيع الأبرار .

(٢) مشكاة الأنوار : ٣٦٤، بحار الأنوار : ٤١ / ٥٥، و٧٣ / ٢٩٩، و٩٦ / ١٠٤، ومثله في وقعة صفّين : ٥٣٢.

فيما بعد . ولنبدأ بالكلام عن عبادة الإمام ومعناها .

اشتهر عليّ بن أبي طالب بتقواه التي كانت علّة الكثير من تصرّفاته مع نفسه وذويه والناس . وإني لأرى أنّ تقوى عليّ ليست شيئاً من العبودية المفروضة بحكم الظرف والهوى على أنماطٍ من الأتقياء . ففيما ترى العبادة لدى معظم هؤلاء رجْع أصداء الضعف في نفوسهم أحياناً، ومعنىً من معاني التهرّب من مواجهة الحياة والأحياء أحياناً أُخرى، وهوَساً موروثاً ثم مدعوماً بهوَسٍ جديد مصدره تقديسُ الناس والمجتمع لكلّ موروثٍ في أكثر الأحيان، تراها عند الإمام أخْذاً من كلّ قوّةٍ ووصْلاً لأطراف الحلقة الخلقيّة التي تشتد وتمتدّ حتّى تجمع الأرضَ والسماء، ومعنى من معاني الجهاد في سبيل ما يربط الأحياء بكلّ خير . وهي على كلّ حال شيء من روحِ التمرّد على الفساد يريد محاربته من كلّ صوب ؛ ثم على النفاق وروح الاستغلال والاقتتال من أجل المنافع الخاصة من هذا الجانب، وعلى المذلّة والفقر والمسكنة والضعف من الجانب الآخر . ثم على سائر الصفات التي تميّز بها عصره المضطرب القلِق . وهي شيءٌ كثير من روح الشهادة في سبيل ما يراه عدلاً . أوَ لم تكن تقواه من مقتضيات هذه العلامة للإيمان التي يتحدث عنها بقوله : «**علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّك على الكذب حيث ينفعك**»[1] ؟ ثم، ألم يقضِ شهيدَ هذا الصدق وكانت منافعُ زمانه في غير الصدق ؟ بل زِدْ على ذلك وقل : ألم يحيَ شهيدَ هذا الصدق، إذا صحّت مقاييس الشهادة على الأحياء ؟

ثم، إن مَنْ تبصّر في عبادة الإمام تبيّن له أن علياً متمرد في عبادته وتقواه كما هو متمرد في أسلوبه في السياسة والحكم . ففي عبادته افتتان الشاعر يقف في

(١) نهج البلاغة ٤٥٨، الدكتور : صبحي الصالح ط ١ سنة الطبع ١٤١٥هـ دار الأُسوة للطباعة والنشر .

هيكل الوجود الرحبِ صافيَ النفس ممتلئ القلب، حتى إذا انكشفت له جمالات هذا الكون تجاوبت وما في كيانه من أصداء وأظلال وموازين، فأطلق هذه الآية الرائعة التي نرى فيها دستوراً كاملاً لتقوى الأحرار وعبادة عظماء النفوس : **«إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار . وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد . وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار !»**[1].

إن عبادة الإمام ليست شيئاً من سلبية الخائف الهارب أو التاجر الراغب كما هي الحال عند الكثيرين من المتعبّدين . بل هي شيء من إيجابية الإنسان العظيم، الواعي نفسَه والكون، على أساسٍ من خبرة المجرّب وعقل الحكيم وقلب الشاعر .

وبهذا المفهوم للتقوى والعبادة كان عليّ يوجّه الناس إلى أن يتّقوا الله في سبيل الخير الإنساني العام، أو قلْ في سبيل أمرٍ أجلّ من رغبة تجّار العبادات في نعيم الآخرة .كان يوجّههم إلى التقوى لعلّ فيها ما يحملهم على ان يعدلوا وينصفوا المظلوم من الظالم، فيقول : **«عليكم بتقوى الله ... وبالعدل على الصديق والعدوّ»**[2] . ولا خير في التقوى، في نظر الإمام، إلّا إذا دفعتْك إلى أن تعترف بالحقّ قبل أن تُشهد عليه، **«وألا تحيف على من تبغض ولا تأثم في من تحبّ»**[3] وألّا تخدع أحداً وأن تعفو عمّن أساء إليك .

* * *

ومن كان معنى العبادة في نفسه هذا المعنى ؛ لابدّ أن ينظر إلى الحياة كما

(١) قصار الحكم ٢٢٧ . نهج البلاغة ٢٣٧، ط ١ سنة الطبع ١٤١٥هـ الدكتور : صبحي الصالح .

(٢) نهج البلاغة : ٧ / ٤٧٤، مستدرك سفينة البحار : ١٠ / ٣٤٩، بحار الأنوار : ٧٤ / ٢٣٦.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٩٣ ـ ٢٤، وفيه : لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحبّ، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه .

نظر إليها علي بن أبي طالب، فهي لا تُبتغى لمتاع ولا ترجى للذة عابرة، بل لما يمكنها أن تحتوي من أصداء تتجاوب مع النفس الشاملة . لذلك زهد عليّ في الدنيا وتقشّف . وكان صادقاً في زهده كما كان صادقاً في كلّ ما نتج عن يمينه أو بَدَرَ من قلبه ولسانه . زهد في لذة الدنيا وسبب الدولة وعلّة السلطان، وكلّ ما يطمح لبلوغه الآخرون ويرون أنه مرتَكز وجودهم . فإذا هو يسكن مع أولاده في بيتٍ متواضع تأوي إليه الخلافة لا الملك . وإذا هو يأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها فيما كان عمّاله يعيشون على أطايب الشام وخيرات مصر ونعيم العراق، وما يمكن للحجاز أنّ يقدّم . وكثيراً ما كان يأبى على زوجته أن تطحن له فيطحن لنفسه وهو أميرٌ للمؤمنين، ويأكل من الخبز اليابس الذي يكسره على ركبته. وكان إذا أرعده البرد واشتدّ عليه الصقيع ؛ لا يتخذ له عدّةً من دثار يقيه أذى البرد . بل يكتفي بما رقّ من لباس الصيف إغراقاً منه في صوفية الروح .

روى هارون بن عنترة عن أبيه قال : دخلتُ على عليّ بالخورنق، وهو فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة هو يرعد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ! إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل ذلك بنفسك ؟ فقال : **والله ما أرزؤكم شيئاً، وما هي إلّا قطيفتي التي أخرجتُها من المدينة .**[1]

وسُمع عليٌ يقول على المنبر : «**مَن يشتري مني سيفي هذا، فلو كان عندي ثمن إزارٍ ما بعته**»[2] . فقام إليه رجلٌ فقال : أسلفك ثمن إزار.

(١) تاريخ دمشق : ٤٢ / ٤٧٧.

(٢) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل : ١ / ٥٣٧، حلية الأولياء : ١ / ٨٣ مناقب الخوارزمي الحديث رقم : ١٣٥.

وخرج عليٌ إلى السوق يقول: «**من عنده قميص بثلاثة دراهم ؟**» فقال رجل : عندي . فجاء به فأعجبه، فأعطاه ثم لبسه وقال : «**الحمد لله الذي هذا من رياشه !**»(١) .

وأتى أحدُهم علياً بطعامٍ نفيسٍ حلو يقال له الفالوذج، فلم يأكله عليٌ ونظر إليه يقول : «**واللهِ إنك لطيّب الريح، حسن اللون، طيّب الطعم، ولكنْ أكره أن أُعوّد نفسي ما لم تعتدْ**».(٢)

وظلّ يعيش في بيته عيش الكفاف حتى غدر به ابن ملجم . وإنّ أحداً من رعاياه لم يمت عن نصيب أقلّ من النصيب الذي مات عنه عليّ وهو خليفة المسلمين . ولعمري إن صوفية عليّ هذه ليست إلّا معنى ومزاجاً من معاني فروسيته ومزاجها، وإن بدا للبعض أنهما مختلفان . أوَ لم تكن فروسية عليّ في حقيقتها تعبيراً عن شهامةٍ وخلق ؟ وجهاداً في سبيل فكرة سامية وإنسانية تتّجه به إلى نصرة المضطهدين والمستضعفين وإلى انتزاعهم من بين الأنياب الضارية ؟ وهي إذا كانت كذلك ـ وهي كذلك ـ أفلا تأبى عليه أن ينعم في بلد يكثر فيه الأشقياء والتعساء ؟

وقد روى أحدهم أن علياً أصابه وعائلته الجوعُ يوماً فلم يجدوا في البيت شيئاً يأكلونه . فخرج عليٌ ليعمل في سبيل كسب القوت وأجّر نفسه ليلةً يسقي نخلاً بشيء من شعيرٍ حتى أصبح واستلم الشعير وطحنوا ثلثه فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه ويقال له الحريرة . فلمّا تمّ نضجُه أتى مسكينٌ يرجو طعاماً فأطعموه .

---

(١) فضائل الصحابة لابن حنبل : ١ / ٥٢٨ وفي المسند : ١ / ١٥٧، وفي الغارات : ١ / ١٠٤، كنز العمّال : ١٨٣/١٣، مناقب الخوارزمي ، الحديث رقم ١٣٦.

(٢) فضائل الصحابة لابن حنبل : ١ / ٥٣٦، حلية الأولياء : ١ / ٨١. الغارات للثقفي : ١ / ٨٨. مناقب الخوارزمي ، الحديث رقم : ١٣١ وفيه : شيء لم يأكل منه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا أحب أن آكل منه .

ثم صنع الثلث الثاني فلما تمّ نضجه أتى آخر يرجو طعاماً فأطعموه . ثم صنع الثالث فأتى أسيرٌ من المشركين فسأل فأطعموه وطووا يومهم ذلك دون طعام .

وقد حملت هذه السيرةُ الطيّبة عمرَ بن عبد العزيز ـ أحد خلفاء الأسرة الأُموية التي تكره علياً وتختلق له السيئات وتسبّه على المنابر ـ على أن يقول : «أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب»[1].

والمشهور أن علياً لم يبنِ آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة . وأنه أبى أن يسكن القصر الأبيض الذي كان معدّاً له بالكوفة لئلا يرفع سكنه عن سكن أولئك الفقراء الكثيرين الذين يقيمون في خصاصهم البائسة . ومن كلام عليّ هذا القولُ الذي انبثق عن اسلوبه في العيش انبثاقاً : **«أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أُشاركهم مكاره الدهر ؟»**[2] ويروي ابن الأثير أن علياً تزوج فاطمة بنت الرسول وما لهما فراشٌ إلّا جلد كبش ينامان عليه بالليل ويعلفان عليه ناضحاً لهما بالنهار . فلما صار خليفة قدم عليه مالٌ من أصفهان فقسّمه على سبعة أسهم، فوجد فيه رغيفاً فقسّمه على سبعة .

وكان عليّ يقول : **«أفضل الزهد إخفاء الزهد»**[3].

* * *

ويمثل عليّ بن أبي طالب الفروسية بأروع معانيها وبكلّ ما تنطوي عليه من ألوان الشهامة .والإباءوالترفع أصلان من أصول روح الفروسية . فهما

---

(١) تاريخ دمشق : ٣ / ٢٥٢، الكامل في التاريخ : ٢ / ٢٠١، مناقب الخوارزمي الحديث رقم ١٢٨.
(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٤٥ ـ ١٤، قصار الحكم : ٢٨.
(٣) نهج البلاغة : ٤ / ٧، تحقيق محمّد عبده، خطب الإمام : ٢٨، روضة الواعظين : ٤٢٤.

إذن من طبائع الإمام . لذلك كان بغيضاً لديه أن ينال أحد الناس بـالأذى وإن آذاه . وأن يبادر مخلوقاً بالاعتداء ولوعلى ثقة بأنّ هذا المخلوق إنما يـقصد قتله . وروح الإباء والترفّع هذه هي التي ارتـفعت بـه عـن مـقابلة الأُمـويين بالسباب يوم جعلوا يرشقونه به . فليس من خلق العظيم أن ينال مَن ناصبوه العداء بالسباب ولو سبّوه . بل انه منع على أصحابه أن ينالوا الأُمويين بالشتيمة المقذعة . فهو ماكاد يسمع قوماً من أصحابه هؤلاء يسبّون أهل الشـام أيـام حروبهم بصفين، لأنّهم سايروا الغدر وماشوا الخديعة حتى قال لهم : «**إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم : اللهمّ احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق مَنْ جهله، ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به.**»(١)

ومروءة الإمام أندر من أن يكـون لهـا مـثيل فـي التـاريخ . وحـوادث المروءة في سيرته أكثر من أن تعدّ . منها أنه أبى على جنده ـ وهم في حالٍ من النقمة والسخط ـ أن يقتلوا عدوّاً تراجع، وأن يتركوا عدواً جريحاً فلا يسعفوه . كما أبى عليهم أن يكشفوا ستراً أو يأخذوا مالاً . ومنها أنه صلّى فـي وقـعة الجمل على القتلى من أعدائه وطلب لهم الغفران . وأنه حين ظفر بألدّ أعدائه الذين يتحينون الفرص للتخلص منه، وهم عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص، عفا عنهم وأحسن إليهم وأبى على أنصاره أن يـتعقّبوهم بسوء وهم على ذلك قادرون . ومن حوادث المروءة هذه أن علياً ظفر بعمرو بن العاص، وهو لا يقلّ خطراً عليه من معاوية بن أبي سفيان، فأعرض عـنه

(١) غرر الحكم : الخطبة ٢٠٦ ـ ٢.

وتركه ينجو بحياته ويستمرّ في مؤامرته ضدّه، لأن عمراً هذا رجاه، على أسلوب خاص، أن يعفّ عنه وقد أصبح ذو الفقار فوق هامته، ولو قضى عليّ على عمرو آنذاك ؛ لكان قضى على المكر والدهاء وجيش معاوية، وفي معركة صفين : حاول معاوية وجماعته أن يميتوا عليّاً عطشاً ، فحالوا بينهم وبين الماء وهم يقولون : ولا قطرة حتى تموت عطشاً ! ولكنْ، ماكان من أمره وأمر جيش معاوية بعد ذلك ؟كان أن حمل عليهم الفارس العظيم فأجلاهم عن الماء . ثم أتاح لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده . وهو لو منع عنهم الماء لانتصر عليهم واضطرّهم إلى التسليم خشية الموت ظمأً، وعرف مرة أن رجلين من أنصاره ينالان من عائشة في موقعة الجمل التي أدارتها عائشة للقضاء عليه ؛ فأمر بجلدهما مائة جلدة .

ثم أقبل على عائشة بعد انتصاره في هذه الموقعة وودّعها أكرم وداع، وسار هو نفسه في ركابها أميالاً، ثم أوصى بها وأرسل من يخدمها ويحفّ بها ويوصلها إلى المدينة مكرّمة محترمة . قيل : إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمّمهن بعمائم الرجال وقلّدهن السيوف . فلماكانت عائشة ببعض الطريق ذكَرت عليّاً بما لا يجوز أن يُذكَر به . وتأفّفت وقالت : هَتَك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي ! فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهنّ وقلن لها : إنما نحن نسوة .

* * *

وتتماسك هذه الصفات الكريمة في سلسلة لا تنتهي وبعضُها على بعضٍ دليل . ومن أروع حلقاتها الصدقُ والإخلاص . وقد بلغ به الصدق مبلغاً أضاع به الخلافة وهو لو رضي عن الصدق بديلاً في بعض أحواله ؛ لمّا نال منه عدوّ

ولا انقلب عليه صديق . وقد حدث أن اجتمع عليه مرةً كبار المهاجرين يريدون إقناعه بمسايرة معاوية إلى أن يستتبّ له الأمر فيقصيه . فخالفهم جميعاً مترفّعاً عن الحيلة والمواربة[1] . وقد جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته بالخلافة، وهو من ذوي الحنكة والحيلة وحسن التدبير، فقال له : «إن لك حق الطاعة والنصيحة . وإن الرأي اليوم تحرزُ به ما في غد . وإن الضياع اليوم تَضيعُ به ما في غد . أقرِرْ معاوية على عمله، وأقررْ ابن عامر على عمله، وأقرر العمّال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة جنودهم استبدلتَ أو تركت !»[2].

فصمتَ عليّ غير طويل، ثم أعلن عن إبائه الحيلةَ قال : **«لا أداهن في ديني ولا أعطي الدنية في أمري !»**[3].

ولمّا ظهرت حيلة معاوية، أطلق الإمام عليّ هذه العبارة التي تصح أن تكون صيغةً للخلق العظيم، قال : **«والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر ؛ لكنتُ من أدهى الناس .»**[4].

ومن قوله في التشديد على ضرورة الصدق مهما اختلفت الظروف : **«علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّك، على الكذب حيث ينفعك !»**[5].

* * *

والشجاعة في حدودها الصحيحة ليست عملاً جسدياً ؛ بل طبعاً من طباع

---

(١) المواربة : اللفّ والدوران والخداع، واستعمال أُسلوب التصنّع. لسان العرب: ٧٩٦/١، مادة «ورب».

(٢) تاريخ الطبري، أحداث سنة ٣٥هـ: ٣ / ٤٥٩، طبعة بيروت.

(٣) تاريخ الطبري، أحداث سنة ٣٥هـ: ٣ / ٤٦١.

(٤) نهج البلاغة : خطبة ٢٠٠ ـ ١.

(٥) نهج البلاغة : ٤ / ١٠٥، وفيه : الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّك على الكذب حيث ينفعك.

النفس ومزيّة من مزايا الإيمان . وشجاعة الإمام هي من الإمام بمنزلة التعبير من الفكرة وبمثابة العمل من الإرادة، لأن محورها الدفاع عن طبْعٍ في الحقّ وإيمانٍ بالخير .

والمشهور أن أحداً من الأبطال لم ينهض له في ميدان . وأن فارساً لم يثبت أمامه على صهوة . فقدكان لجرأته على الموت ؛ لا يهاب صنديداً بالغاً ما بلغ من القوة والبأس والصولة ورهبة الصيت. بل إن فكرة الموت لم تجلْ مرة في خاطر الإمام وهو في موقفِ نزال . وإنه لم يقارع بطلاً إلّا بعد أن حاوره لينصحه ويهديه . والمشهور أنه اجترأ، وهو غلام لم يطرّ شاربه بعد، على عمرو بن عبد ودّ فارس الجزيرة العربية وبطل المشركين المهاب في مواقعهم مع المسلمين . وكان اجتراؤه العجيب على هذا الفارس انتصاراً منه للهداية على الغرور، وعلى الزهو والخيلاء . فلمّا كانت وقعة الخندق، في مطلع الإسلام ؛ خرج عمرو مقنّعاً بالحديد ينادي جيش المسلمين : من يبارز ؟ فهال عليّاً هذا التحدّي وأثار عزيمته، فصاح : أنا له ! فقال النبي، وبه إشفاق عليه لحداثة سنة من جهة، ولبأس عمرو من جهة ثانية، وكان عمرو يساوي ألف فارس في نظر أصحابه وأعدائه، قال لعليّ : إنه عمرو . اجلس ! وبعد أخذٍ وردّ طويلين، وبعد أن كرّر عمرو نداءه مراراً وهو يؤنّب المسلمين ؛ أذن النبي لعليّ فمشى إليه فرحاً مغتبطاً . فنظر إليه عمرو فاستصغره وأبى أن ينازله . ثم أقبل عليه يسأله من أنت ؟ فقال عليّ : أنا علي، ولم يزد . قال عمرو : ابن عبد مناف ؟ قال : ابن أبي طالب . فأقبل عمرو عليه يقول : يا ابن أخي من أعمامك مَن هو أسنّ، وإني أكره أن أريق دمك . فقال له عليّ : لكني واللهِ لا أكره أن أريق دمك . فغضب عمرو وأهوى إليه بسيف قال

واصفوه : كأنّه شعلة نار . واستقبل عليّ الضربة بدرقته فقدّها السيف وأصاب رأسه . ثم ضربه عليّ على عاتقه فسقط ونهض، وسقط ونهض، وثار الغبار، فما انجلى إلّا عن عمرو وهو صريع .

وقد سبق التحدّث عن فصولٍ عن شجاعته النادرة بعد أن اكتملت رجولته، وكيف أنه كان يخلع أشد الفرسان صولة وأرهبهم جانباً من صهواتهم فيرفعهم بيده في الهواء ويجلد بهم الأرض جلداً، لا جاهداً ولا متعباً .

وفي نهج البلاغة أن معاوية انتبه يوماً فرأى عبد الله بن الزبير جالساً تحت رجليه على سريره، فقعد، فقال له عبد الله يداعبه :

يا أمير المؤمنين ! لو شئت أن أفتك بك لفعلتُ . فقال : لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر ! فقال : وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفتُ في الصفّ إزاء عليّ بن أبي طالب ؟ قال : لا جرمَ إنه قَتَلك وأباك بيسرى يديه وبقيتْ اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها .

وإذا عرفنا أن عبد الله بن الزبير من أشد الأبطال بأساً ومن ألدّ اصحاب الفتنة خصومةً لعليّ ؛ أدركْنا مدى ما يصوّره من شجاعة عليّ وبطولته ساعةَ أراد أن يبالغ في وصف شجاعته هو، فما رأي أبلغ من أن يصوّر نفسه واقفاً في صفٍّ من المحاربين إزاء عليّ . وإذا عرفنا كذلك عداء معاوية لعليّ وحرصه الشديد على أن يكتم كل فضيلةٍ من فضائله عملاً بمصلحة ملكه الجديد، ثم رأيناه يقول هذا القول، أدركْنا من شجاعة عليّ هذا المدى البعيد الذي حمل معاويةَ قسراً على الاعتراف بما اعترف به .

* * *

وكان علي، مع قوّته البالغة وشجاعته النادرة، يتورّع عن البغي أيّاً كان

الظرف . فقدأجمع المخبرون والرواة والمؤرّخون أن علياً يأنف القتال إلّا إذا حُملَ عليه حملاً . فكان يسعى أن يسوّي الأُمور مع أخصامه ومن يبادره بالعداوة على وجوهٍ سلمية تحقن الدم وتحول دون النزال . وكان يردّد على أسماع ابنه الحسن هذا القول : «**لا تدعوَن إلى مبارزة**»(١).

ولمّا كان قول الإمام لا يخرج إلّا عن معدن صافٍ، فقد طالما عمل بوصيته لابنه الحسن وعفّ عن القتال إلّا مكرَهاً . من ذلك أن جنود الخوارج لمّا أخذوا يعدّون العدّة ليحاربوه، ونصحه أحدهم بأن يبادرهم قبل أن يبادروه، أجاب قائلاً : «**لا أُقاتلهم حتى يقاتلوني.**»(٢) ورأى أن شهامة الفارس وعقيدة المؤمن بالخير، ووثبة الإنسانية في روحه تقضي عليه بأن يجادلهم لعلّهم قانعون . وفيما كان يعظ قوماً فيهم كثيرٌ من الخوارج الذين يكفّرونه، بهرتْ عِظتُه بعض هؤلاء الخوارج فصاح، وقد أرغمتْه بلاغةُ عليّ وسحر بيانه على الإعجاب والإكبار، قائلاً: قاتَلَه الله كافراً ما أفقَهَه ! فهمّ أتباع عليّ بقتله، فصاح بهم يقول : «**إنما هو سبٌ بسبّ أو عفوٌ عن ذنب**»(٣).

وقد مرّ بنا ذكر ماكان من شأنه وشأن جنود معاوية ساعة عزم هؤلاء على أن يميتوه عطشاً . وساعة قابل سيئاتهم بإحسانه، فلم يمنع عنهم ورود الماء بل ساواهم بنفسه وأتباعه . وله مع معاوية وجنوده أخبار لا يتسع لذكرها مجال . وكلّها تشير إلى عبقرية علويّة خاصة في التورع عن البغي وفي الأخذ بالحسنى . من ذلك ما رواه أحد مؤرخي سيرة الإمام قال :

واتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجلٌ يسمّى كريز بن

---

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم، ٢٣٣، عيون الحكم والمواعظ : ٥٢٦، بحار الأنوار : ٢٢ / ٤٥٤.

(٢) المناقب للخوارزمي: ٢٦١ .

(٣) مناقب ابن شهرآشوب : ١ / ٣٨٠، نهج السعادة : ٨ / ٣٧٤، بحار الأنوار : ٢٢ / ٤٣٥.

الصبّاح الحميري . فصاح بين الصفّين : من يبارز ؟ فخرج إليه رجلٌ من أصحاب عليّ فقتله كريز ووقف عليه ونادى : من يبارز ؟ فخرج إليه آخر، فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى : من يبارز ؟ فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبيه . ثم نادى رابعةً : من يبارز ؟ فأحجم الناس جميعاً ورجعَ من كان في الصف الأوّل إلى الصف الذي يليه، وخاف عليّ أن يشيع الرعب بين صفوفه، فخرج إلى ذلك الرجل المُدلّ بشجاعته وبأسه فصرعه . ثم قال يُسمِع الصفوف : **يا أيها الناس لو لم تبدأونا ما بدأناكم !** ثم رجع إلى مكانه !

ومن ذلك ماجرى يوم موقعة الجمل . فحين اجتمع عليه أخصامه وساروا بجهدهم إليه، أمر أصحابه أن يصطفّوا ففعلوا، فقال لهم : «**لا ترموا بسهم ولا تطعنوا برمح، ولا تضربوا بسيف، واعذروا !**» وكان يأمل بذلك أن يجتنب الحرب ويسوّي الأُمور سلماً فيحقن الدماء فلا يموت من الناس مَن يموت قتيلاً، وما هي إلّا دقيقة حتى رمى رجلٌ من عسكر القوم بسهمٍ فقتل رجلاً من أصحاب عليّ : «**فصاح عليّ : «اللهم ! اشهد»**. ثم أُصيب رجل آخر فقتل، فقال: «**اللهم ! اشهد**». وأُصيب عبد الله بن بديل فأتى به أخوه يحمله فقال عليّ : «**اللهم ! اشهد**»(١). ثم كانت الحرب.

* * *

وطبيعة التورع عن البغي أصلٌ من أُصول نفسية علي وخلقٌ من أخلاقه. وهي متصلة اتصالاً وثيقاً بمبدئه العام الذي يقوم بمعرفة العهد وصيانة الذمة والرحمة بالناس، حتى يخونوا كلّ عهدٍ، ويقسوا دون كل رحمة . ومن أروع صور المودة وآيات الوفاء أن يقف فارس في حومة الحرب وينظر إلى

(١) الجمل للشيخ المفيد : ٣٤٢، تحقيق علي شريفي .

معارفه من منازليه نظرة المؤاخاة الداعية إلى السلم ويذكّرهم ما بينه وبينهم من عهد سبق ومودة تربأ بنفسها أن تنقلب أو تخون . يذكّرهم ما بينه وبينهم من عهد يريد بذلك أن ينزع من أيديهم السلاح ويحل ما تعقّد من الأُمور على صورة هي للسلم والصفاء أقرب ؛ فإنه لا يحارب عدوّاً له سابقةُ مودةٍ به إلّا بعد أن يأخذ بتذكيره هذه السابقة ويستعيد على مسامعه ما سلف من عهد الإخاء والصفاء . فلعلّ في الصداقة القديمة ما يحيي ضمير هذا العدوّ فيكون له رادعاً [1] عن العداوة والبغضاء . وماكان لعليّ أن يستنجد الصداقة على العداوة لولا ذلك الفيض العظيم من الوفاء والحنان تزخر به نفسه ويطغى على جنانه .

ومن الدلائل القاطعة على عاطفة الوفاء العميقة التي كانت تعمر قلب الإمام، وعلى دفْق المودة في نفسه، أخباره مع عدوّيه الزبير بن العوّام وطلحة بن عبد الله اللذين ألّبا عليه أنصاره وضمّاهم، إلى أخصامه واندفعا بهم جميعاً، وعلى رأسهم عائشة، إلى قتاله .

فمن ذلك ما رواه الثقاة من المخبرين عن المشاهدين أنصاراً وأخصاماً، قالوا : إن الزبير وطلحة لمّا ألحّا في حربه وإنكار بيعته والتجنّي عليه في موقعة الجمل المشهورة ؛ خرج عليّ إليهما حاسراً لا يحتمي بدرعٍ ولا بسلاح، تدليلاً على نوايا السلم التي يُضمر، ونادى : يا زبير ! اخرج إليّ . فخرج الزبير إليه مدجّجاً بالسلاح . وسمعت عائشة ذلك فصاحت : واحرباه ! ذلك لأنها لم يخالجها[2] أقلّ شك في أن الزبير لا محالة مقتول . فخصمُ عليّ مقضيّ عليه بالموت إذا نازله، مهماكان حظّه من الشجاعة عظيماً، ومهماكانت

(١) رادعاً : مانعاً، والردع: الكف عن الشيء. لسان العرب: ١٢١/٨، مادة «ردع».
(٢) يُخالجها : يُخامرها، يشوبها . المنجد: ١٩١، مادة «خلج».

خبرته بالقتال فائقة .

ولشدّ ما دهشت عائشة ومن حولها وهم يرون إلى عليّ بن أبي طالب يعانق الزبير !

عانقه طويلاً لأن أسباب المودّة لا تنقطع في القلب الكبير !

وعاد عليّ يسأل الزبير بلهجة الصداقة القديمة : ويحك يا زبير ! ما الذي أخرجَك ؟

فقال : دم عثمان .

قال : قَتَلَ الله أولانا بدم عثمان !

وجعلَ عليّ يذكّره العهود والصداقات وأيام الأُخوّة السالفات .

وربّما بكى عليّ في مثل هذا الموقف، ولكن الزبير استمر في قتال الإمام حتى صرع . وكان مصرعه على كرهٍ من راعي المودّات، عليّ بن أبي طالب، وكان من حسن وفائه للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، والذين أعانهم برأيه وعمله ومسلكه ومقاله، أنه سمّى ثلاثة من أبنائه بأسمائهم وهم : أبو بكر وعمر وعثمان .

ولعلّ موقف الإمام من مقتل خصمه طلحة لا يجاريه في التاريخ موقفُ خصمٍ من خصمٍ له جارَ عليه . فإن علياً ساعة وقف على جثة طلحة وهو قتيل، بلغ به الحزن أشدّ مبلغ، وبكى أحرّ بكاء، واندفعت الذكريات العزيزة على قلبه دموعاً غزاراً من عينيه ولوعةً محرقة في قلبه . وجعل ينظر إليه ويقول : عزيز عليّ أن أراك يا أبا محمد مجدّلاً تحت نجوم السماء ! وتمنّى لو أخذه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة .

ولكنّ صاحب المودّات لم يرعَ أصدقاؤه له مودّة . لأنهم لم يكونوا

ليطمعوا بأن يحولوا بينه وبين نفسه، فيطلق أيديهم في خيرات الأرض دون سائر الخلق .

يقول عليّ :

«والله لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبُها جلب شعيرةٍ ما فعلت . وإن دنياكم أهون عندي من ورقةٍ في فم جرادة»(١).

وليس عليّ في هذا المجال قائلاً ثم عاملاً . بل هو القول يجري من طبيعة العمل الذي يُعمل، والشعور الذي يحسّ، والحياة التي يحيا . فعليّ أكرم الناس مع الناس . وأبعد الخَلق عن أن ينال الخلق بالأذى . وأقربهم إلى بذل نفسه في سبيلهم على أن يقتنع ضميره بضرورة هذا البذل ؛ أوَ ليست حياته كلها سلسلة معارك في سبيل المظلومين والمستضعفين، وانتصاراً دائماً للشعب دون من يريدونه آلة إنتاجٍ لهم ؟ «من السادة ورَثَة الأمجاد العائلية» أوَلم يكن سيفاً صارماً فوق أعناق القرشيين الذين أرادوا استغلال الخلافة والأمارة للسلطان والجاه وتكديس الأموال ؟ ألم يُضع الخلافة والحياة على الأرض لأنه أبى مسايرة أهل الدنيا في استعباد إخوانهم الضعفاء والفقراء والمظلومين ؟ أليس عليّ أعظم الناس رفقاً بالناس يوم دفع عنه أخاه عقيلاً الذي جاءه يطلب من مال الشعب . وآثر أن يلوي عنه أخوه هذا ويساير معاوية على أن يأذن له في التصرّف بالقليل القليل من مال الفقير والمظلوم والعامل ومَن رقّ حاله ؟ أليس عليّ أباً كريماً لشعبه في توجيهه الولاة والعمال نحو الرفق بالناس والضرب على أيدي المستغلّين من ذوي الوجاهة والسلطان مشدّداً في هذا التوجيه مهدّداً بالعقاب ؟ أليس عليّ هو صاحب هذه الوصايا المكرّرة في

(١) نهج البلاغة : الخطبة ٢٢٤ ـ ١٢.

آذان وُلاته : «**أنصفوا الناس من انفسكم واصبروا لحوائجهم، فإنهم خـزّان الرعـية، لا تحسموا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته، ولاتبيعنّ للناس في الخراج كسوةَ شتاء ولا صيف، ولا دابّة يعتملون عليها، ولا تضربنّ أحداً سوطاً لمكان درهم**»[١].

أوَليس عليّ صاحب العهد الرائع إلى الأشتر النخعي عـامله عـلى مـصر وأعمالها وفيه يقول : «**ولا تكونَنَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنّهم صنفان : إما أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخلق ؟ أعطهم من عفوك وصفحك مـثل الذي تـحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه . ولا تندمنّ على عفوٍ ولا تبجَحَنّ بعقوبة**»[٢] . ثم يقول له : «**وامنع من الاحتكار**»[٣] .

وتشديد عليّ في منع الاحتكار كان من الأسباب البعيدة في ما كان مـن أمره وأمر معاوية وأنصاره . فهؤلاء يريدون الملك والمال والمغانم لأنفسهم، وعليّ يريدها جميعاً للشعب .

وبلغ عليّ من الرفق بالناس وطلب العذر لهم عمّا يفعلون، أنْ حاربه أهلُ البصرة وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف وسبّوه ولعنوه، فلمّا ظفر بهم ؛ رفعَ السيفَ عنهم وأدخلهم في أمانه . ومن ذلك أيضاً أنه أوصى خيراً بقاتله الأثيم ابن ملجم، على ما سنرى.

وجاء في وصيّته للحسن والحسين : «**قـولا بـالحق، وكـونا للـظالم خـصماً وللمظلوم عوناً**»[٤] !

أوصاهما بأن يكونا للظالم خصماً ولو كـان مـن ذويـهما . وأن يكـونا

---

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٥١ ـ ٣.

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ٩.

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ٩٩.

(٤) نهج البلاغة : الكتاب ٤٧ ـ ٢.

للمظلوم عوناً ولو كان من أقاصي الأرض . ولطالما سعى عليّ في تحطيم الظالمين وفي رفع الحيف[١] عن المستضعفين : سعى لذلك بقلبه ولسانه وحسامه ودمه، وكان لا يساير في هذا السبيل ولا يهادن ولو فقد حياته .

وليس غريباً أن يكون عليٌّ أعدل الناس، بل الغريب أن لا يكونه . وأخبار عليّ في عدله تراثٌ يشرّف المكانة الإنسانية والروح الإنساني . من ذلك ما مرّ بنا من أن أخاه عقيلاً أراد منه مالاً يُجريه من مال الشعب . فأبى الإمام عليه ذلك ؛ لأن المعوزين أجدر بهذا المال وهو مالهم . وهدّده أخوه بأن يتركه إلى خصمه معاوية، فما أثّر ذلك في نفسه ولا بدّل من أمره . فأقبل أخوه على معاوية وهو يقول : «معاوية خير لي في دنياي»[٢].

وكان معاوية عند رأي عقيل فيه، فقد كان بيت المال في نظر معاوية سلاحاً في يديه يمكّن به من سلطانه، ويَفدي به مسلكه، ويستعيد به أمجاد أُميّة السالفات .

وكان الإمام يأبى الترفّع عن رعاياه في المخاصمة والمقاضاة . بل إنه كان يسعى إلى المقاضاة إذا وجبتْ لتشبّعه من روح العدالة . من ذلك أنه وجد درعه عند عربيّ مسيحي من عامة الناس . فأقبل به إلى أحد القضاة واسمه شريح، ليخاصمه ويقاضيه . ولمّا كان الرجلان أمام القاضي ؛ قال عليّ : إنها درعي ولم أبعْ ولم أهَبْ . فسأل القاضي الرجل المسيحي : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ فقال العربي المسيحي : ما الدرع إلّا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب . وهنا التفت القاضي شريح إلى عليّ يسأله : هل من بيّنة تشهد

(١) الحيف : الظلم . المنجد: ١٦٤، مادة «حاف».

(٢) بحار الأنوار : ٤٢ / ١١٦، مواقف الشيعة : ١ / ٢٣٤، جواهر المطالب : ٢ / ٢٢٩، سبل الهدىٰ والرشاد : ١١ / ١١٥.

أنَّ هذه الدرع لك ؟ فضحك عليّ وقال : أصاب شريح، ما لي بيّنة . فقضى شريح بالدرع للرجل المسيحي، فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه ، إلّا أنّ الرجل لم يخطُ خطوات قلائل ؛ حتى عاد يقول : أمّا أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . أمير المؤمنين يدينني إلى قاضٍ يقضي عليه ! ثم قال : الدرع واللهِ درعك يا أمير المؤمنين وقد كنتُ كاذباً فيما ادّعيتُ . وبعد زمنٍ شهد الناس هذا الرجل وهو من أصدق الجنود وأشدّ الأبطال بأساً وبلاءً في قتال الخوارج يوم النهروان، إلى جانب الإمام عليّ .(١)

وعن عليّ بن أبي رافع، قال :

كنت على بيت مال عليّ بن أبي طالب، وكاتبه . فكان في بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة . فأرسلت إليّ بنت علي بن أبي طالب، فقالت لي : إنه قد بلغني أن في بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ، وهو في يدك، وأنا أحبّ أن تعيرنيه أتجمّل به في يوم الأضحى، فأرسلتُ إليها : عاريةً مضمونةً مردودةً بعد ثلاثة أيام يا بنت أمير المؤمنين؟ فقالت : نعم، عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام . فدفعته إليها، وإذا أمير المؤمنين قد رآه عليها فعرفه، فقال لها : من أين جاء إليك هذا العقد ؟ فقالت : استعرته من أبي رافع خازن بيت مال أمير المؤمنين لأتزيّن به في العيد ثمّ أردّه . فبعث إليّ أمير المؤمنين، فجئته، فقال لي : أتخون المسلمين يا ابن أبي رافع ؟ فقلت : معاذ الله أن أخون المسلمين ! فقال :كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير أذني ورضاهم ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! إنها بنتك، وسألتني إعارته لتتزيّن به، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة على أن تردّه

---

(١) ينابيع المودة لذوي القربىٰ : ٢ / ٤١٨، الباب ٥٩.

سالماً إلى موضعه، فقال : ردّه من يـومك، وإيّاك أن تـعود إلى مـثله فـتنالك عقوبتي ! فبلغت مقالته ابنته، فقالت له : يا أمير المؤمنين ! أنا بنتك وبـضعة منك فمن أحقّ بلبسه منّي فقال لها : يا بنت أبي طالب ! لا تذهبي بنفسك عن الحقّ، أكلّ نساء المهاجرين والأنصار يتزيّنّ في مثل هذا العيد بمثل هذا ؟! فقبضته منها ورددتُه إلى موضعه.(١)

وتجري في روحه العدالة حتى أمام أبسط الأُمور . فهو إذا استوى وأخذَ الناس في حقٍّ باختيارِ متاعٍ من أمتعة الدنيا ؛ آثر أن يكون هذا الاختيار من نصيب غيره لئلّا يشعر هذا الغير بأن النصيب الأوفر من الحقوق ملازمٌ للكبير دون الصغير . من ذلك أنه ذهب يوماً، إلى أبي النوار ومعه غلامه، فاشترى من أبي النوار قميصين اثنين، ثم قال لغلامه : اختر أيّهما شئت ! فـاختار الغـلام أحدهما، وأخذ عليّ الآخر .(٢)

ووصايا الإمام، ورسائله إلى الولاة تكاد تدور حول محور واحـد هـو : العدل وما تواطأ الناسُ عليه، أباعد وأقارب، إلّا لأنّـه مـيزان العـدالة الذي لا يميل إلى قريب ولا يساير نافذاً ولا يجوز فيه إلّا الحق . فإنّ عثمان بن عفان لمّا ولي أمر المسلمين أطلق أيدي الأقارب والأعوان والصحابة في كل مورد من موارد الجاه والثروة، منقاداً بـذلك إلى آراء بـطانة السـوء، وكـان مـروان أشدّهم تأثيراً عليه فخالف بما فعلَ الوصية الحكيمة التي أوصى بها أبو بكر الصدّيق، خليفته عمر ابن الخطاب إذ قال له : «إحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذين انتفخت أجـوافـهم وطـمحت أبـصارهم وأحبّ كـلّ

(١) مناقب ابن شهرآشوب : ٢ / ١٠٨ نقلاً عن التهذيب.

(٢) الإمام علي من المهد إلى اللحد: ص١٤٢.

امرئ منهم نفسه» !

وكان في نفس عليّ شيء من هؤلاء الذين انتفخت أجوافهم . فلما صارت الخلافة إليه أبى إلّا أن يعدل فيهم، فعزل منهم من عزل، وأبعد عن السلطان والاحتكار من أبعد . وحارب كلّ من تحدّثه نفسه بأن يحوّل الرسالة عن مجاريها الطبيعية العادلة، لتصبّ في بيته مالاً وسلطاناً وجاهاً . وطالما ردّد على أسماع هؤلاء قوله الرائع : «**إني لأعرف ما يصلحكم ولكن لا أصلحكم بفساد نفسي !**»(١).

وكان من شأنه وشأن هؤلاء ماكان، حتى انهزم الظالمون في حكوماتهم، وإن انتصروا بالحيلة والظرف . وحتى انتصر العدل في قلب عليّ وقلوب أتباعه وإن ظُلموا وظُلم .

وحين مات عليّ من طعنة ابن ملجم الأثيمة ؛ رثته أُمّ الهيثم النخعية بقصيدة باكية، منها هذا البيت الذي يصوّر نظرة الناس إلى عليّ ومعرفتهم بعدله المشرّف :

يقيم الحقّ لا يرتاب فيه ويعدلُ في العِدا والأقربينا(٢)

وعليّ هو القائل :

عليكم بالعدل على الصديق والعدوّ !(٣)

* * *

والصراحة خلقٌ عند عظماء الناس . وهي عند عليّ هذا الخلق لاتّصالها في ينابيعها، بكلّ طباعه الباقية . فهي والصدق والإخلاص والمروءة وما إليها

(١) نهج البلاغة : الخطبة ٦٩ ـ ٤.

(٢) مقاتل الطالبيين : ٥٥.

(٣) نهج السعادة للمحمودي: ٤٧٤/٤، بحار الأنوار : ٧٤ /٢٣٦، مستدرك سفينة البحار : ١٠ / ٣٤٩.

أخوات . فمن صراحته أنّه لم يكن يخفي شيئاً مما يضمر أو يحسب، ولا يُظهر شيئاً مما لا يخفي ولا ينوي . وأنّه لم يكن ليألف الحيلة في معاملة أخصامه المعتدين، وهو أعلم الناس بأن في الحيلة الخلاص من هؤلاء، وممّا يضمرون له من شرّ . وفي حديثنا السابق عن صدق الإمام وإخلاصه ما يُعتبر حديثاً عن الصراحة المطلقة التي كانت من مزاياه، وما أكثرها !

ومن أُصول أخلاقه أنّه كان يعتمد البساطة في كلّ ما يأتيه ويمقت التكلّف ، بل ربّما كان ذلك ملاك الأمر في طباعه . وكان يقول : «**شرّ الإخوان من تُكلّف له**»[1] . ويقول أيضاً : «**إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه**»[2] . ويقصد بالاحتشام مراعاة الصديق حتى التكلّف . وكان لا يتصنّع في رأيٍ يراه، أو نصيحة يسديها أو رزق يهبه، أو مال يمنعه . وكانت هذه الطبعيّة تلازمه حتى يسأم أصحابُ الأغراض من استرضائه بالحيلة، وحتى يسأم المداورون المراوغون من أنه مصطنِعٌ إيّاهم راضٍ عنهم . فإذا هم ينسبون إليه القسوة والجفوة والزهو على الناس . وماكان الإمام ذا قسوة أو جفوة أو زهو مقصود وغير مقصود .

بل كان ما يبدر منه انقياداً للطبع والسجيّة دون تكلّف ودون رياء. ولمّا كان المحيطون به ـ في معظمهم ـ أهل منافع خاصة ؛ فقد ساء بهم ظنّه فما تكلّف أن يخفي هذا الاستياء . وليس صدق الشعور وإظهاره زهواً وليس جفوة . بل إن عليّاً كان يمقت[3] الزهو ويمقت العجب ولا يرضاه . ولطالما نهى وُلْدَه وأعوانه وعمّاله عن الكبر والعجب . ومن قوله في نصح هؤلاء :

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٧٩.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٨٠.

(٣) يمقُت : يبغض. المنجد: ٧٦٩، مادة «مقت».

«إياك والإعجاب بنفسك»(١) ! و **«اعلم أنّ الإعجاب ضدّ الصواب، وآفة الألباب»**(٢) . كان يمقت التكلّف حتى عند مادحيه . فربّما أفرط أحدهم في مدحه ؛ فإذا هو يستوقفه ليقول له: **«أنا دون ما تقول»**(٣) . وربما أفرط في اتّهامه في نفسه، فلا يتكلّف أن يخفي ما عرف من طويّته فيقول : **«وفوق ما في نفسك .»**(٤) وكرهَ عليّ التكلّف في محبّيه المغالين كما كره التكلّف في مبغضيه المفرّطين(٥)، فقال : **«هلك فيّ اثنان : محبّ غالٍ، ومبغضٌ قالٍ»**(٦) ذلك لأن في كلّ إفراط ظاهرة تكلّف . إنه لا يتكبّر ولا يتواضع، لأن في التكبّر تكلّفاً وفي التواضع تكلّفاً كذلك . بل يظهر نفسه كما هي، صريحة صراحة الحقّ وصراحة الطبيعة . وهل رأيت في الناس من هو أودع، وأجمل مسلكاً من عليّ ساعة رآه بعضهم وهو يحمل في ملحفه تمراً قد اشتراه ، فقالوا له : ألا نحمله عنك ؟ فقال ببساطة العظيم : **«أبو العيال أحقّ بحمله»**(٧).

وإنه لمن الخطأ الشائع أن نعدّ التواضع المقصود فضيلة من فضائل النفس، بل إنه شيء من التكلّف المقيت . ولم يكن عليّ بالمتواضع، ولكنّه لم يكن متكبّراً . بل كان يُظهر ما في طويّته دون أن يحسب للتواضع حساباً أو للتكبر . فكلاهما ليس من عدّة العظيم . أمّا إذا رآه بعضهم متكبّراً، ورآه بعضهم متواضعاً، فإن الخطأ في الحالتين خطأ الناس في نظرتهم إليه وتعليلهم

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ١٤٥.
(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٣١ ـ ٥٧.
(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٨٣.
(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٨٣.
(٥) المفرّطون : المتجاوزون حدود هذا البغض إلى حدّ الإفراط فيه. أُنظر المنجد: ٥٧٨، مادة «فرط».
(٦) التحفة السنية (مخطوط) للسيد الجزائري: ٩٢. وجاء في قصار الحكم : ١١٧ من نهج البلاغة: «هلك فيَّ رجلان : محبّ غال، ومبغض قال ».
(٧) الغارات : ١ / ٨٩، بحار الأنوار : ٤١ / ١٣٨، شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٠٢.

أحواله . فهو منهم براء .

يقول صاحب «عبقرية الإمام»: «كان يخرج إلى مبارزيه حاسر الرأس ومبارزوه مقنّعون بالحديد، أفعجيب أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء ؟»[١].

أمّا الجفوة، فلا جفوة في خلق الإمام، بل سماحة وتبسّط.

* * *

ومن خلقه ما تميّز به من سلامة القلب . فهو لا يحمل ضغينة[٢] على مخلوق، ولا يعرف حقداً حتى على ألدّ أعدائه ومناوئيه، ومن يحقدون عليه حسداً وكرهاً . فقد مرّ معنا أنه نهى أولاده وذويه، قبيل موته، أن يقتلوا أحداً من أقرباء قاتله ابن ملجم . وبكى على خصمه طلحة، وكان طلحة هذا يطلب رأسه . ورثاه بقول صادق المودّة ظاهر اللوعة . وأوصى أصحابه ألّا يقاتلوا الخوارج بالرغم من محاربتهم إيّاه، ومن أنّ قاتله أحدهم، ومن أنهم نكّلوا بأصحابه وأذاقوه وإيّاهم من الأذى قدر ما أذاقه معاوية وعمرو بن العاص وأعوانهما . ذلك لأنه شعر بإخلاصهم لقضيّتهم وإن كانوا على خطأ وضلال .

ثم إنه ليس في تاريخه وأخباره جميعاً ما يدلّ على طبيعة تحقد على الأعداء، حتى إنه لم يحقد على معاوية نفسه، محتكماً إلى الحق في قلبه، وإلى الصراحة في لسانه وإلى السيف في يده . وليس من طبيعة الفروسية أن تحقد وإن كان من طبيعتها ألا تنام على ضيم يلحق بها وألّا تهجع على ظلم يلحق بالآخرين . ولكن هذه الطبيعة النبيلة التي لا تحقد حتى على مَن عالنها العداء وأراد لها الموت، كانت تحاط بالحاقدين الساخطين المفرطين في الحقد والسخط.

(١) عبقرية الإمام، عباس محمود العقاد: المقدمة.

(٢) ضغينة: حقد. كتاب العين: ٣٦٦/٤، مادة «ضغن».

وأقوال عليّ الرائعة تفيض بالأسى المرّ لِما فيه من طيبة وحبّ، ولما في الآخرين من غدر. وكان من خُلقه أن يكون كريماً لا حدود لكرمه. ولكنّه الكرمُ السليم بأُصوله وغاياته، لا كرم الولاة وذوي السلطان الذين «يكرمون» بأموال الناس وجهودهم. وهم إذا كُرّموا على هذا النحو فإنّما يكرمون على ذويهم وأقاربهم والضاربين بسيوفهم في سبيل ما يملكون. وهم إذا كُرّموا فوق ذلك؛ فلكي يقال فيهم: إنّهم من أهل الكرم، وهي صفةٌ تزيد المرء وجاهةً لدى الجماعات، وتُكسبه عطفاً، وتستر ما اختلس، وتلقي سدْلاً على جوره إن كان من أهل الجور، وعلى عجزه في سياسة الناس إن كان من ذوي العجز. هذا اللون من ألوان الكرم الذي لا يختلف عن الرشوة في معناه، والذي عرفه أكثر المشهورين بالكرم في تاريخنا وتاريخ سوانا من ذوي الوجاهة والسلطان، لم يعرفه عليّ بن أبي طالب مرة في حياته ولم يأبه له. وإنما كرَمُه هو الكرم الذي يعبّر عن جملة المروءات متّحدةً في نفسه موجّهة. ففيما كان يزجر ابنته زجراً شديداً إذ هي استعارت من بيت الأُمّة قلادة تزيّن بها جيدَها أُسوة ببعض البنات في عيدٍ من الأعياد، وفيما كان يزجر أخاه عقيلاً إذ هو طلب إليه أن يمدّه بقليل من الأموال العامّة، وفيما كان يُبعد عنه كلّ طالب رشوةٍ وكلّ راغبٍ في عطاء على غير جهد وبغير حقّ، كان في ما هو ثابتٌ من الروايات: يسقي بيده النخلَ لقومٍ من يهود المدينة حتّى تمجَل[1] يدُه فيتناول أُجرته، فيهبها لأهل الفاقة والعوز، ويتشري بها الأرقّاء ويحرّرهم في الحال. وممّا رواه الشعبيّ عن لسان عارفيه أنه كان أسخى الناس على الخلق مما يملك. وإذا كانت شهادة الخصم أصحّ الشهادات في بعض الأحوال؛ فكيف

---

(١) تمجل يده: تنفط من العمل ويظهر فيها المجل. والعامّة تقول: بقبقت، ومجلت يده فهي مجلة، وأمجلها العمل إذا مرنت وصلبت. كتاب العين: ٦/١٤٠، مادة «مجل».

يكون كرم عليٍّ وقد شهد به معاوية بن أبي سفيان الذي يجتهد في وصمه وعيبه قائلاً : «لو ملك عليّ بيتاً من تبرٍ وبيتاً من تبنٍ لأنفذ تبرَه قبل تبنه»(١).

* * *

وبعد، أفليس من متمّمات هذه الصفات النبيلة، ومن مزايا الفروسية العلوية، ومن متمّمات العبقرية الأدبية التي سيأتي الكلام عليها، أن تقترن جميعاً بهذه الثقة بالنفس التي عُرف بها الإمام ؟ بل إن الثقة شيء ملازمٌ بالضرورة لهذه الخصائص . فالإمام يعمل وهو مطمئن إلى نبل العمل وصراحة الحقّ فيه . فليس تصدّيه لفارس الجزيرة عمرو بن ودّ، والنبي وأصحابه يحذّرونه من سوء المصير، إلّا شاهداً على هذه الثقة بالشجاعة التي تمتلئ بها نفسه . وخروجه إلى الصلاة دون أن يصطحب من يقيه خطر الأعداء وهم كثرٌ حواليه، حتى أدركه ابن ملجم وضربه بالسيف المسموم ؛ أليس شاهداً هذه على الثقة بالحقّ التي تفيض به جوارحه وسيرته كلها ؟ أليست سلسلة من أعمال وأقوال تدلّ على أن الرجل إنّما هو مطمئنّ إلى صلاح ما يعمل، عنيد في هذا الاطمئنان، لأن عمله وقوله نابعان من عقل جبّار، وخلق عظيم .

وفي جوّ من هذه الثقة الأصيلة يحسّها في نفسه، وفي فيضٍ من إيمانه بعدله، وفي حالٍ من اختلاف الناس فيه فلا يبدّل من موقفه ولا يلين، قال:

«لو ضربتُ خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يُبغضني ما أبغضني . ولو صببْتُ الدنيا

(١) قولة معاوية بن أبي سفيان لمحقن بن أبي محقن الظبيّ لما قال له: جئتك من أبخل الناس، راجع شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٢٢/١، والإمام علي من المهد إلى اللحد : ص١٥٣.

بـجمّاتها[١] **عـلى المـنافق عـلى أن يـحبّني مـا أحـبّني»**[٢] . وفـي مـثل ذلك يـقول أيضاً : **«إني والله، لو لقـيتُهم**[٣] **واحـداً**[٤] **وهـم طـلاعُ**[٥] **الأرض كـلّها، مـا بـاليتُ ولا استوحشت»**[٦].

وبهذه الثقة الرائعة يقول لسهل بن حنيف الأنصاري، وهو عـامله عـلى المدينة، عندما علم أنّ قوماً من أهلها لحقوا بمعاوية: **«أمّا بعد، فقد بلغني أنّ رجالاً ممّن قبلك يتسلّلون إلى معاوية، فلا تأسفْ على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم . إنّهم واللهِ لم ينفروا من جورٍ ولم يلحقوا بعدل»**[٧].

* * *

---

(١) أي : لو كفأت عليه الدنيا بجليلها وحقيرها .
(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٥ ـ ١.
(٣) يعني أخصامه .
(٤) أي : لو كنت واحداً .
(٥) أي : ملء الأرض .
(٦) نهج البلاغة : الكتاب ٦٢ ـ ٧.
(٧) نهج البلاغة : الكتاب ٧٠ ـ ٤.

مع كلّ علم

ـ أقلّ الناس قيمةً أقلّهم علماً.(١)

ـ لا بارك الله في معضلةٍ لا تحكم فيها، يا أبا الحسن !(٢)

عمر بن الخطاب

ثقافة الإمام

عليّ بن أبي طالب فذّ من أفذاذ العقل. وهو بذلك قطب الإسلام وموسوعة المعارف العربية، فليس من علم عربيّ إلّا وقد وضع أصله أو ساهم في وضعه. أمّا بلاغته وعبقريته في الاجتماع، فسيأتي فيها قولٌ كثير.

أمّا علومه ومواهبه في الفقه والقضاء والعربيّة وما إليها، فهي الّتي سنتحدّث عنها في هذا الفصل موجزين، مضافاً إليها ما اقتُضيت إضافته من الكلام على حكمته. وإنّا إذا أوجزنا القول في هذه السعة من ثقافته ومواهبه فلأنّ القائلين فيها كثير. ولأن الباحثين قد أوسعوها درساً.

وغايتنا في هذا الكتاب أن نختصر حيث أسهبوا، ونُسهب حيث أوجزوا أو أهملوا. ولنبدأ في الكلام مع القرآن والحديث، ثم مع غيرهما ؛لندرك إلى أيّ مدىً بعيد أصاب النبيّ في وصفه عليّاً

(١) مستدرك نهج البلاغة : ١٦٥، نهج البلاغة الثاني : ٢٩٦.

(٢) الإصابة : ٢ / ٥٠٢.

ساعة قال: «**أنا مدينةُ العلم وعلي بابُها**»[١]

رُبّيَ علي بن أبي طالب برعاية النبي ابن عمه وتتلمذ له. وورث أخلاقه وأُسلوبه في النظر إلى الحياة والخلق. وجرى الميراث في قلبه وعقله سواء بسواء.

وعكف على دراسة القرآن دراسة المتبصّر الحكيم الذي ينفذ إلى لباب الأشياء فيعي حقائقها ويستوحيها. وقد أُتيح له أن ينصرف إلى هذه الدراسة العميقة النافذة خلال الزمن الطويل الذي استخلف فيه أبو بكر، فعمر فعثمان. فإذا هو يتقن القرآن نصّاً، ويحياه جوهراً فيستقيم به لسانه كما يستقيم جنانه.

أمّا علمه بالحديث فلا يُشقّ له فيه غبار. وليس في ذلك ما يُستغرب. وقد رافق الإمامُ النبي أطوَلَ زمنٍ رافقه فيه مجاهدٌ أو صحابي؛ فسمع منه ما سمعه الآخرون وما لم يسمعوه. ويقال إن علياً لم يكن يروي من الحديث إلّا ما سمعه بنفسه من الرسول، لأنه كان مطلق الإيمان بأنّ كلمةً واحدةً من حديث النبي لم تفت قلبه وأُذنيه. وقيل لعليّ: «ما لك أكثر أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حديثاً؟» فقال: «**إنّي كنتُ إذا سألتُه أنبأني، وإذا سكتّ ابتدأني**»[٢].

* * *

ومن الطبيعي أن يُحسن عليّ بن أبي طالب الإسلام فقهاً كما أحسنه عملاً. فإن معاصريه لم يعرفوا من هو أفقه منه وأصلح فتوى. ولعلمه الكثير وفقهه؛ كان موضع ثقة أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب في ما تعسّر حلّه

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ترجمة الإمام علي (عليه السلام) باب: أنا مدينة العلم وعلي بابها، ميزان الاعتدال: ١ / ٤٣٦، البداية والنهاية: ٧ / ٣٥٨، مناقب ابن المغازلي، الحديث رقم: ١٢٢، ١٢٦، المعجم الكبير للطبراني: ٣ / ١٠٨.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣٣٨/٢. وغرر الحكم: إنّي كنت إذا سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أعطاني، وإذا سكتّ عن مسألة ابتدأني، ٣٧٧٩.

من المشكلات والمعضلات، كما كان مرجعهما الأخير في الاستشارة. وطالما أفاد الخليفتان من مشورته وعلمه. وكما كان مرجعاً لأبي بكر وعمر في شؤون الفتوى ؛ كان كذلك مرجعاً لسائر الصحابة. وندر أن نهضتْ لغيره حجّة أفضل من حجّته في مسائل الشريعة.

ولم يقف علم عليّ بالفقه عند علمه بنصوصه وأحكامه ؛ بل تجاوزه إلى العلم بأدوات الفقه، ومنها علم الحساب الذي كانت معرفته فيه تفوق معرفة معاصريه.

وإذا كان أبو حنيفة إمام الفقه الأكبر في العصور الإسلامية الّتي تلت عصر عليّ ؛ فإنّما هو تلميذ لعليّ. فقد قرأ أبو حنيفة على جعفر بن محمد، وجعفر تتلمذ لأبيه، إلى أن ينتهي الأمر إلى عليّ بن أبي طالب. وكذلك الإمام مالك بن أنس فإنه تلميذ عليّ بالتسلسل. فقد أخذ عن ربيعة، وربيعة أخذ عن عكرمة، وعكرمة أخذ عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عباس قرأ على عليّ. وقيل لابن عباس استاذ اولئك جميعاً: «أين علمك من علم ابن عمّك؟» ـ يُراد علي ـ فقال: «كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط!»[١].

* * *

يُجمع الصحابة على أن النبي قال مرّة: **«أقضاكم علي»**[٢]. فقد كان عليّ أقضى أهل زمانه؛ لأنه كان أعلمهم بالفقه والشريعة، وهما في الإسلام مصدر القضاء.

ثم إنه أُوتي من قوّة العقل ما يكشف له عن الوجه الأكثر صواباً،

(١) ينابيع المودّة : ١٤٨، مناقب ابن شهرآشوب : ٢ / ٣٠، عبقرية الإمام للعقاد : ٢٦ بتصرف.

(٢) تاريخ دمشق : ترجمة الإمام علي (عليه السلام)، طبقات ابن سعد : ٢ / ٣٣٩، الاستيعاب بهامش الاصابة : ٣ / ٣٩، أخبار القضاة : ١ / ٨٨.

والأشدُّ انطباقاً على المنطق إذا اختلفت الوجوه. كما أُوتي من صفاء الوجدان ما يوجّهه في استخدام علمه في القضاء أصدق توجيه، فيعدل في الحكم على أساسٍ من العقل والضمير جميعاً.

ومن المأثور عن عمر بن الخطاب قوله لعليّ: «لا بارك الله في معضلة لم تحكم فيها يا أبا الحسن!» وقوله: «لولا عليّ لهلك عمر»[١] وقوله أيضاً: «لا يُفتينّ أحدٌ في المسجد وعليّ حاضر !»[٢].

وسوف نتحدّث مطوّلاً عن عبقرية عليّ في القضاء وعمّا اكتشف من معقولاته ساعة نسوق الكلام على الموازنة بين عليّ ومبادئه، ورجال الثورة الفرنسية الكبرى ومبادئهم.

* * *

ولمّا كان عليّ بن أبي طالب من الذين لا يكتفون بالنظر في الأُمور نظراً عابراً؛ بل يتوخّون أن ينفذوا من كلّ مشكلة إلى بابها، فقد أمعن النظر في القرآن وموضوعه الدين إمعاناً ينساق إليه المفكّرون انسياقاً. فإذا به يجعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمّل والتبصّر. وما كان لعبقري كعليّ أن يكتفي من الدين بظاهره من إجراء الأحكام وإقامة الحدود وطقوس العبادة. فإذا الناس ـ معظم الناس ـ ينصرفون إلى ظاهر الدين وإلى نتائجه في المعاملة والقضاء انصرافاً حسابياً، أو يكاد يكونه. وإذا عليّ يفقه الدّين ـ إلى جانب فقهه الظاهرِ من أحكامه ـ على أنه موضوعٌ للفكر المحض والدراسة الخالصة والتأمّل البعيد. فلا ينتهي من التفكير والدرس والتأمّل إلّا ليثق بأن

(١) مسند أحمد : الحديث ١٣٢٧، كنز العمّال : ١ / ١٥٤، كفاية الطالب : ١٩٢، مناقب الخوارزمي : ٤٨.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١ / ٦ طبعة القاهرة.

هذا الدين إنّما يقوم على ركائز وأركان تتفاعل وتتقارب وتتّحد في أُصولها وحقيقتها.

من هنا نشأ علم الكلام أو فلسفة الدين الإسلامي. ومن هنا كان عليّ أوّل المتكلمين بل أبا علم الكلام. فإنّ الأوائل من أصحاب هذا العلم لم يستقوا إلّا من معين عليّ بن أبي طالب، ولم تتوفّر لديهم أسبابه إلّا عن طريقه. وإن الأواخر ظلّوا يهتدون به ويعتبرونه إمامهم وإمام الأوّلين. فهذا واصل بن عطاء مؤسّس المعتزلة، وهي أوّل فرقة إسلامية تجاهد لأن تعطيَ العقل مداه في موضوعات الدين، هو تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأبوه تلميذ علي بن أبي طالب. وما يُقال في المعتزلة يُقال في الأشعرية. فإنّ الأشاعرة تلاميذ المعتزلة الذين تلقّوا علمهم عن واصل بن عطاء تلميذ عليّ بالتسلسل.

ثمّ إن التصوف الإسلامي واجدٌ أُصوله وبذوره في نماذج شتّى من نهج البلاغة. وقد استند أهل التصوّف في الإسلام إلى هذه النماذج قبل أن يعرف المسلمون أهل الفكر اليوناني. وقبل أن ينقلوا إلى العربية فلسفة الإغريق والهنود وغيرهم. ومَن شاء؛ فليرجعْ إلى حديث أبي العيناء لعبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المتوكّل، في نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ففيه كثيرٌ من الإيضاح لما ذكرنا.

* * *

وكأن الله أراد أن يكون عليّ بن أبي طالب ركن العربية في علومها كما كان ركن الإسلام في علومه. فإنّ أهل زمانه لم يكن فيهم من يقف إلى جانب الإمام في علوم العربية. وقد ساعده تبحّره فيها، ومنطقه السليم، وقواه الذهنيّة الخارقة، أن يبادر إلى ضبط العربية بأُصولٍ وقواعد تستند إلى الدليل والبرهان،

ممّا يشير إلى مقدرته العقلية على الوزن والقياس. فهو بحقٍ واضع الأساس في العلوم العربية، وممهّد طريقها لكلّ من أتى بعده. وممّا يثبّته التاريخ أن عليّاً هو واضع علم النحو. فقد دخل عليه تلميذه وصاحبه أبو الأسود الدؤلي يوماً فرآه مطرقاً مفكّراً. فقال له: فيمَ تفكّر يا أمير المؤمنين ؟! قال: «**إني سمعتُ ببلدكم هذا ـ** يعني الكوفة ـ **لحناً، فأردت ان أضع كتاباً في أُصول العربية**»[1]، ثمّ ألقى إليه صحيفة فيها: الكلام اسم وفعل وحرف... الخ.

ويروون ذلك على صورة أُخرى فيقولون: إن أبا الأسود الدؤلي شكا إلى الإمام شيوع اللحن على ألسنة العرب لاختلاطهم بالأعاجم بعد الفتوحات العربية، والأعاجم أهل رطانة ولحن. فأطرق الإمام هنيهةً ثم قال لأبي الأسود: اكتب ما أملي عليك. فتناول أبو الأسود قلماً وصحيفة. فقال عليّ: «**إن كلام العرب يتركّب من اسم وفعل وحرف. فالاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولافعل. وإن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، يعني اسم الإشارة على قول بعض النحاة**». ثم قال لأبي الأسود: «**انحُ هذا النحو يا أبا الأسود**».[2] فعُرف هذا العلم بعلم النحو من ذلك اليوم.

ومن مزايا عليٍّ حدّة الذكاء وسرعة الفطنة. ومواقفه الارتجالية الكثيرة تشهد له بقوّة البديهة التي لم يكن يجاريه فيها أحد. وطالماكان يرسل المثل السائر والحكمة الرائعة وهو يرتجل في أنصاره أو في أعدائه. وربّماكان عليّ فريد زمانه في سرعة الفطنة إلى معضلات الحساب. وكان معاصروه يعدّون

---

(١) كنز العمال: ٢٨٣/١٠، ميزان الحكمة: ٣٢٦٦/٤.

(٢) الفهرست لابن نديم : ٥٩، الأغاني : ١١ / ١٩٩، أخبار النحويين البصريين : ١١، نزهة الألباء، معجم الأدباء، ياقوت الحموي باب أبي الأسود الدؤلي.

هذه المعضلات ألغازاً قلّما تفقّه سرّها العقول، وقلّما تدرك إلى حلّها سبيلاً.

وممّا يروى في هذا المجال: أن امرأة جاءت إليه وشكت من أمرها أن أخاها مات عن ستمائة دينار ولم يقسم لها من ميراثه هذا إلّا ديناراً واحداً. فقال لها: **لعلّه ترك زوجة وابنتين وأُمّاً واثني عشر أخاً وأنت؟** فكان كما قال!.[1]

وفيما كان يخطب ذات يومٍ على منبر الكوفة ؛ سأله أحدهم عن رجل مات وترك زوجة وأبوين وابنتين. فأجاب من فوره: **صار ثُمنها تُسعاً!**.[2] وسمّيت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية لأنه أفتى بها وهو على المنبر.

والحكمة بما هي نظرٌ نافذ، وعقلٌ محيط، وحسٌّ أصيل، وقوّةٌ على الحصر والاستنباط والإيجاز، ثمّ جهد دائب على ذلك جميعاً؛ إنّما هي من آثار الإمام عليّ. فإنّ له في ذلك ما يجعل له مركزاً جليلاً بين حكماء الأُمم وأفذاذ التاريخ.

ولعمري أن أشباه عليّ في القدرة على استخراج النظريات من الحوادث وإرسالها أمثالاً خالدة، لَقليل قليل. وقد كان لهذه الحكمة العلوية أبلغ الأثر في توجيه الثقافة الإسلامية وفي طبعها بطابع إنساني مصدره، في الدرجة الأُولى، اثنان: محمد بن عبد الله وعليّ بن أبي طالب.

وقد أكثر الإمام من النظر الفلسفي في شؤون الحياة والكون والمجتمع البشري، وفي أُمور التوحيد والأُلوهيّة والتطلّع إلى ما وراء الطبيعة. فكان، كما مرّ معنا: مؤسّس علم الكلام وفلسفة الإلهيات في الإسلام. وكان استاذاً اعترف برشده وأصالته كل من لحق به من أصحاب الآراء

---

(١) قضاء أمير المؤمنين للتستري : ١٢٤، نقلاً عن المناقب.

(٢) قضاء أمير المؤمنين عليه السلام للتستري : ١٢٤، نقلاً عن المناقب.

والمقولات وهم له أتباعٌ وشارحون.

وفي كتابه العظيم: «نهج البلاغة» فيضٌ من فرائد الحكمة التي يجلس بها في الصف الأوّل بين حكماء الأُمم.

وحين قال النبيّ: **«علماء أُمّتي كأنبياء بني إسرائيل»**[1]، ألم يكن يقصد عليّاً بالذات؟

(١) بحار الأنوار: ٢ / ٢٢.

التجربة القاسية

ـ والله إنّي لأعترف بالحقّ قبل أن أشهد عليه.
ـ إنّ أمرنا صعبٌ مستصعب، ولا يعي حديثنا إلّا صدور أمينة وأحلام رزينة.[1]

الإمام عليّ

ـ وصَمّ آذانهم بصيحةٍ تلوَ صيحةٍ نسفت بنيانهم نسفاً ودكّت سقوفهم دكّاً وقوّضت جدرانهم تقويضاً وكانت علىٰ قلوب المستضعفين والمظلومين برداً وسلاماً ونعمة موفورة.

للإمام عليّ بن أبي طالب في حقوق الإنسان وغاية المجتمع أُصول وآراء تمتد لها في الأرض جذور وتعلو لها فروع. أمّا العلوم الإجتماعيّة الحديثة فما كانت إلّا لتؤيّد معظم هذه الآراء وهذه الأُصول. ومهما اتّخذت العلوم الاجتماعيّة من صورٍ وأشكال، ومهما اختلف عليها من مسمّيات؛ فإنّ علّتها واحدة وغايتها واحدة كذلك. وهما رفع الغبن والاستبداد عن كاهل الجماعات. ثم بناء المجتمع علىٰ أُسس أصلح تحفظ للإنسان حقوقه في العيش وكرامته كإنسان.

ومحورها حريّة القول والعمل ضمن نطاق يُفيدُ ولا يُسيء. وتخضع هذه

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٨٩ ـ ٤.

العلوم لظروفٍ معيّنة من الزمان والمكان لها الأثر الأوّل في تكوينها علىٰ هذا النحو أو ذاك.

وإذا رجعنا إلى الماضي ونظرنا في شؤونه علىٰ أساس هذا الواقع؛ تَبَيّن لنا أنّ في كلّ زمن مضىٰ كفاحاً متّقداً بين الاستبداد والحكم المطلَق، وهدْر حقوق الجماعة وكبْت الحريّات من جهة، وبين النزوع إلى العدالة والحكم المستند إلى الشّورىٰ والعمل علىٰ حفظ الحقوق العامّة وإطلاق الحرّيات من جهة ثانية. وماكانت الثورات القديمة الخيّرة الآتية من الجانب المظلوم إلّا انتفاضات يقوم بها المضطَهدون والمفكّرون للقضاء علىٰ ظلمٍ إجتماعي، وإنشاء قواعد جديدة تقوم علىٰ أنقاض هذا الظلم، وتتّفق بمنطقها وقيمتها مع الوضع التطوّري الذي بلغ إليه المجتمع.

وقد كان لعليّ بن أبي طالب في تاريخ حقوق الإنسان شأنٌ أي شأن. وآراؤه فيها تتّصل اتصالاً كثيراً بالإسلام يومذاك. وهي تدور علىٰ محور من رفع الاستبداد والقضاء على التفاوت الطبقي بين الناس. ومَن عرف عليّ بن أبي طالب وموقفه من قضايا المجتمع؛ أدرك أنه السيف المسلّط علىٰ رقاب المستبدّين الطغاة. وأنه الساعي في تركيز العدالة الاجتماعيّة بآرائه وأدبه وحكومته وسياسته، وبكلّ موقف له ممّن يتجاوزون الحقوق العامة إلىٰ امتهان الجماعة والاستهتار بمصالحها، وتأسيس الأمجاد على الكواهل المتعبة.

نضجتْ في ذهن الإمام القوي، فكرةُ العدالة الإجتماعيّة علىٰ أساس من حقوق الجماعة الّتي لا بدّ لها أن تنتهي بإزالة الفروق الهائلة بين الطبقات الّتي

يُتخم ثريّها وأميرها ويضوي[1] فقيرها وصغيرها. فكان صوته في معركة العدالة الاجتماعية هذه مدوّياً أبداً، وسوطه عاملاً أبداً، ودفاعه عن قيَم الإنسان عظيماً أبداً، شديداً لا هوادةَ فيه ولا لين. كان في حكومته المثل الأعلىٰ للحاكم الواعي لحقوق الإنسان في تلك الحقبة من تاريخ البشر. العاملَ علىٰ تنفيذ منطوقها بكافّة ما لديه من وسائل. ولم يكن في ذهن الإمام ما هو أوضح ـ علىٰ وضوح الأشياء جميعاً فيه ـ من واقع المجتمع في زمانه كيف يكون وعلىٰ أي أساس من الغبن الاجتماعي يقوم؟ ثمّ كيف يجب أن يكون وإلىٰ أي مدىً يأذن الزمان بتطويره؟ ولم يكن في إرادة الإمام ـ علىٰ ما فيها من الدوافع إلى الخير ـ ما يشغلها أكثر ممّا يشغلها السعي في هذا التطوير. ولم يكن في المغريات جميعاً ما يجنَح بهذه الإرادة عن هذا السعي. ولا في المؤامرات ما يكبت[2] فيها قوّةَ الانطلاق إلى العمل والإجادة فيه. فليس هنالك ما هو أحبّ علىٰ قلب الإمام من أن يُقيم حقّاً ويُزهق باطلاً علىٰ أساسٍ لا يتزعزع من رأيه في الحقّ والباطل وموضوعاتهما. وكان صدقه في التفكير والشعور، ثمّ إخلاصه في تطبيق ما يفكّر به ويشعر، سببين: في ألّا يعطي فكرةً غامضة في شأنٍ من الشؤون العامة. وفي ألّا يقف متراجعاً أمام امتهان الوُلاة والعمّال الأقوياء للجماهير والمستضعَفين خصوصاً. وأمام الإفتئات[3] علىٰ سلطان الحقّ واقعاً ما وقع تدبيرُه من هوى الأخصام والأنصار. وذلك تقريراً لحقوق الإنسان الطبيعيّة في العيش الكريم، وفي الحياة الخيّرة لا تشطر الناس شطرين

---

(١) يضوي: من ضوىٰ، نحف وهزل. الصحاح: ٢٤١٠/٦، مادة «ضوا».

(٢) يكبت: الكبت هو الصرف والإذلال. الصحاح: ٢٦٢/١، مادة «كبت».

(٣) الإفتئات: التمرُّد، أو الاستبداد بالرأي وعدم استشارة أحد. المنجد: ٥٩٨، مادة «فوت».

فتُرخي عليهم ستارَين مختلفين: أسودَ موجعاً وأبيضَ ضاحكاً.

وقد أدرك في ضوء عقله الجبّار، أن الطبقيّة الماديّة في الناس إنْ هي إلّا سبيل لن يؤدّي السيرُ فيها إلّا إلىٰ غاياتٍ مُنْكَرة من الجمود في العقل والخبث في النفس. وإلى التعسّف والنكاية والفجور في الحكم والمعاملة، ثمّ إلى الفساد العريض وسائر الأوضاع الملفّقة في هذا الجانب الغاصب، والمنكبّ علىٰ طلب الجاه والثروة بغير بَلاء. كما يؤدّي إلى السقم في الحال والشعور بهَوان الحياة وسوء الظن بالإنسان، وإلى التباغض والتحاسد في الجانب الآخر الذي يذهب جهده لسواه. وفي الجانبين تستقرّ العوامل المؤدّية، في النتيجة، إلى انهيار المجتمع انهياراً لا شكّ فيه. حتّىٰ لكأنّ طبقتَي المجتمع هاتين ما هما إلّا فَكّانِ طاحنان تنسحق بينهما الكفاءات والحقوق وتتمزّق الضحايا.

كانت قاعدة الارستقراطيين النبلاء في أواخر خلافة عثمان، ولا سيّما الأُمويّين منهم، أن يخرجوا معظمهم علىٰ سُنَن الإسلام في طلب العدالة والمساواة في الحقوق. وأن يُذلّوا الجماهير ويستعبدوها ويلقوا في صفوفها الخوف من الحاكم والذعْر حتّى من المثول بين يديه. وأن يهدروا دماءها كما يهدرون حقوقها إذا وقع ذلك في نفوسهم موقعاً حسناً. وألّا يعفّوا عن الرشوة وما إليها، ثمّ يبعثوا عن أنفسهم إرهاصات[1] تُنبئ بما هم ساعون فيه أو مقبلون عليه من تخضيب راياتهم بدماء الذمم والحقوق العامّة وتحويل الخلافة إلىٰ ملك، وديموقراطيّة الإسلام إلىٰ عنجهيّة[2] حُكمٍ فردي. وبات هؤلاء بين صلابة الإمام عليّ في العدالة الاجتماعية وبين مطامعهم في الرئاسة

---

(١) إرهاصات: بدايات الأشياء. والإرهاص: الإثبات، واأصله من الرهص وهو تأسيس البنيان.

(٢) عنجهية: وهي معرّبة عن الفارسيّة، وتعني التكبّر والغرور، ويقال: العنجهية: الجهل والحمق. الصحاح: ٢٢٣٩/٦، مادة «عنجه».

والولاية والمال، يسلكون مسلك المقامرين يترقّبون مفاجآت الربح والمغنم بين حين وحين.

ولمّا كانت قاعدة أولئك القوم هذا الفيض مع المطمع المنحرف، وهذا الأسلوب في التربّص بالعدالة الاجتماعية للتركّز من جديد علىٰ قواعد من الوثنية السياسيّة والوثنية الاجتماعية؛كان ابن أبي طالب أمام تجربة قاسية، غاية في القساوة، تتشابك عناصرها وتتداخل، وتفرض عليه موقفاً هو من الصعوبة بحيث يتعسّر علىٰ صاحبه مداراة الأزمة والخروج منها، والعصرُ اضطرابٌ وقلقٌ وأحداث رهيبة. وهو من الخطورة بحيث يترتّب عليه، إلىٰ حدٍّ بعيد، مصير الخلافة والإسلام وما يستوجبانه في الناس من فضائل خلقية وعدالة اجتماعية. وهو من الدقّة بحيث يكون المحكّ لشخصيّة صاحبه وحقيقة مواهبه في الوفاء للحقوق العامّة، ومضاء عزيمته في إشاعة الفضائل الفرديّة والاجتماعيّة، وطاقته على الصبر والصمود.

كان ابن أبي طالب أمام تجربة أشبه بالتجربة الّتي مرّ بها النبي في المعركة القائمة، يومذاك، بين السماح والديموقراطيّة وإشاعة روح العدل من جانب، وبين الغدر والإستئثار وعقليّة التجّار والنبلاء من جانبٍ آخر.

كان ابن أبي طالب أمام تجربة قاسية؛ ولكن هذه القساوة إنّما تأخذ معناها وصيغتها من نظر المراقبين البعيدين. أمّا في قلب الإمام وفي ذهنه فما هي من القساوة بحيث تجعله يحيد عن الطريق التي ارتضاها مسلكاً ولو قيد شعرة. فمن أُوتي الطاقة الّتي آتاها اللهُ عليّاً؛ هانت لديه القساوات إلّا قساوة القعود عن إشاعة العدالة وروح الحريّة والعمل على زرع الفضائل الخلقية التي تصون هذه الحريّة وهذه العدالة.

أمّا محمد بن عبد الله فقد صمّ آذان أبي سفيان وأبي لهب وحمّالة الحطب وآكلة الأكباد وتجّار قريش بهذه الصيحة التي نسفتْ بنيانهم نسفاً ودكّت سقوفهم دكّاً، وقوّضتْ جدرانهم تقويضاً، وكانت على قلوب المستضعفين والأرقّاء برداً وسلاماً ونعمةً موفورة: «**يا عمّ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتّى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركتُه**»(١).

أمّا محمد بن عبد الله، فيومَ قالوا له: «إن كنتَ جئتَ بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت إنّما تطلب الشرفَ فينا فنحن نسوّدك علينا. وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا». أجاب يقول: «**ما جئتُ بما جئتكم به أطلب اموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا الملك عليكم؛ ولكنّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالات ربّي. فإن تقبلوه فهو حظّكم في الدنيا والآخرة. وإن تردّوه عليّ، أصبر لأمر الله حتّى يحكم بيني وبينكم**»(٢).

أما عليّ بن أبي طالب، فماذا كان من شأنه مع ابن أبي سفيان وآكلة الأكباد وابن الحَكَم وتجّار الولايات والجيوش المجرورة بالغباوة والمنفعة، ومع المساومين حتّى في حدود العقيدة والاتّجاه؟ لقد صمّ آذانهم، هو أيضاً، بهذه الصيحة التي نسفت بنيانهم نسفاً، ودكّت سقوفهم دكّاً، وقوّضت جدرانهم تقويضاً. وكانت على قلوب المستضعفين والمظلومين والمعذّبين برداً وسلاماً ونعمةً موفورة: «**أسفلُكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، واللهِ ما أمرتُ بالجور ما أمّ نجمٌ**

---

(١) تاريخ الطبري: ١ / ٥٤٥، طبعة بيروت.

(٢) مناقب ابن شهرآشوب: ٥٠/١، جامع البيان للطبري: ٢٠٥/١٥، البداية والنهاية لابن كثير: ٦٦/٣، تفسير الطبري: ٣٢٨/١٠.

نجماً، وأيم الله لأنصفنّ المظلوم من ظالمه، ولأقودنّ الظالم بخزامته حتى أُورده منهل الحقّ وإن كان كارهاً، والله إنّي لأعترف بالحقّ قبل أن أشهد عليه، والله ما أُبالي، أدخلتُ على الموت أو خرج الموتُ إليّ»(١).

أمّا عليّ بن أبي طالب فيوم قالوا له: نحن أعزّة قوم، أجاب يقول: «**الذليل عندي عزيزٌ حتّى آخذ الحقّ له. والقويّ عندي ضعيف حتّى آخذ الحقّ منه**»(٢).

ولكنّ، كيف أطلق ابن أبي طالب قولَيه من نطاق البيان إلىٰ نطاق العمل؟ من الفكرة المعقولة إلى التجسيم الماديّ؟ وماذا كان من أمره وأمر الناس؟

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٦، ١٣٦، ٥٥.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٣٧ ـ ٣.

الولاية من الجماعة

ـ لا صواب من ترك المشورة[١].
ـ إنّما أنا رجل منكم، لي ما لكم وعَلَيَّ ما عليكم[٢].
ـ والزموا السوادَ الأعظم، فإنّ يد الله مع الجماعة[٣].
ـ قلوب الرعيّة خزائن راعيها، فما أودَعها من عدلٍ أو جورٍ؛ وجده فيها[٤].

الإمام علي

ـ وقال قولاً موجَزاً بليغاً بسيطاً عميقاً كالحقيقة نفسها، حتى لَكأنّه ومضةُ العقل وهتفة الروح:

«واعجباه! أتكون الخلافة بالصحابة ولا تكون بالصحابة والقرابة؟»[٥].

كانت الخلافة قبل أن تؤول إلىٰ ابن أبي طالب آخذةً بالتحوّل إلىٰ مُلك أُموي، كما تقدّم. أو أنها قد تحوّلت إلىٰ مُلك أُموي بالفعل، وكان وُلاة الأمر والوزراء والمستوزرون قد تعوّدوا الولاية علىٰ أنّها حقّ لهم يعود بأسبابه إلى الحسب والنشأة، وإلىٰ ما يُبذَل في تثبيته من أموال ورشوات، ومداورات ومساومات. كما كانوا قد تعوّدوا أن ينظروا إلىٰ حقوق الشعب علىٰ أنها منوطة بإرادة الوُلاة مهما كان شأن هذه الإرادة في مقاييس الخير والشرّ. فالجماهير

---

(١) شرح المائة كلمة للبحراني : ٢٠٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣٦/٧ .

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٦٨٢٥.

(٤) مستدرك النهج : ١٦٦، نهج البلاغة للحائري : ٢٩٧.

(٥) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٩٠.

المستضعَفة لم تكن في نظر أولئك القوم إلّا ظـهوراً تُـعَرّى لتـصبح مـراعـي للسّياط ومرافعَ للأثقال.

أضف إلىٰ ذلك أن خـلافة عـثمان قـد أتـاحت الفـرصة لهـؤلاء الولاة ومعظمهم من بني اُميّة، أو من أنصارهم النازعين منزعَهم في النظر إلى الاُمور، لأنْ يعملوا في أنحاء البلاد المرتبطة بالخلافة علىٰ إعداد العدّة كـاملةً لتشـييد ملك اُمويّ تدعمه الأموال والرشوات والمساومات، وإطلاق أيدي النـافذين في مقدّرات العامة وفي رقابهم، وفي ابتياع الجيوش المحاربة بثمنٍ منقود أو موعود. ثمّ في تقريب من تُرجىٰ منهم المناصرة وإبعاد من لا يناصرون. فإذا الدولة منقسمة علىٰ هذه القواعد الجديدة يستحدثها الاُمويون الذين ماكانوا في الإسلام، بشهادة التاريخ، إلّا ماكـانوا فـي الجـاهليّة. وإذا مـعظم النـافذين يخذلون إلّا مَن وسّعَ لهم في الاحتكار والاستغلال والحكم، وجَعل في أيديهم مفتاح بيت المال وسيف السلطان، وقَدّمَ لهم الشعب في جملة ما قدّم فأصبح ممّا ملكتْ أيمانهم. وإذا الشعب بين مؤمنٍ بالخير العام، قانع بنصرة الحاكم العادل وإن لم يُجرِ عليه الرزقَ أنهاراً. وبين مرتدّ مع المرتدّين قابعٍ يـتربّص بالعدل والعادلين، حتّىٰ إذا ثار طلّاب الملك ساوم، فساند إذا ربح، أو عاد يساوم من جديد ويساند.

* * *

آلت الخلافة إلىٰ ابن أبي طالب والدنيا علىٰ هذه الحال، والقوم سائرون في ما هم سائرون فيه: فإمّا استماتةٌ في مناصرة الخلافة في شخص الإمام الذي يعرفون عدله وميله إلى العامّة، وإمّا إفراط في مساندة الملك في العنصر الاُموي الذي يأبىٰ إلّا استعادة أمجاده الجاهليّة مهما توعّرت الطريق وتهشّم فيها من

الضحايا. وهو لم يكن ليأبه[١] للخلافة تصير إليه وقد ساهم أجلّ مساهمة في إدارة شؤونها بعهدَي أبي بكر وعمر، ونَصَح إلىٰ عثمان في عهده، وما شكا من البيعة تذهب إليهم عنه وما اهتمّ مرّةً إلّا بإقامة الحقّ. يدلّك علىٰ أن عليّاً لم يكن ليأبه للخلافة تصير إليه أو تذهب عنه، وعلىٰ أنه لم يكن ليريدها يومذاك وقد أرادوه لها، شهودٌ من التاريخ وشهودٌ من قوله. فمن كلامه يومَ أُريدَ على البيعة بعد مقتل عثمان: «**دعوني والتمسوا غيري. وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلّي أسمَعُكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم. وأنا لكم وزيراً خيرٌ لكم منّي أميراً**»[٢].

لم يكن ليرضى بالخلافة يومذاك لأنه يريد لها وجهاً والقوم يريدون لها وجهاً آخر. فما هو منهم بها، ولا هم منه! ولأنه كان، كما قال: «**في دهر عنود وزمن كؤود يُعَدّ فيه المحسن مسيئاً، ويزداد الظالم عتوّاً**»[٣]. ولأن «**الآفاق قد أغامت، والمحجّة قد تنكّرت، والناس يعملون في الشبهات ويسيرون في الشهوات. صُمٌّ ذوو أسماع، وبكمٌ ذوو كلام، وعميٌ ذوو أبصار. لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء**»[٤]. ولأنّ القوم لن يحتملوا منه أن يجيبهم فيركب منهم ما يعلم، وألّا يصغي منهم إلىٰ عتب العاتب وقول الراغب.

هذه هي حقيقة الحال التي مرّ بها الإمام عليّ في الأيام القلائل التي تلت مقتل عثمان، وسبقت اختلافه والقوم يبايعون له ويلحّون، ويتردّد هو في قبول البيعة والوجهاء والنافذون علىٰ غير ما يريدهم عليه من الرغبة في الخير. غير أن هنالك ما يحمل ابن أبي طالب علىٰ أن يقبل بما أرادوا له من البيعة. فالعدالة الاجتماعيّة في خطر. والناس يأكل قويّهم ضعيفَهم، وقد أُطلقت أيدي

(١) ليأبه: ليقيم لها وزناً، ليهتمّ لها، ليعبأ بها. لا يُؤْبَهُ به: لا يلتفت إليه. المنجد: ٢، مادة «ابه».
(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٩٢ ـ ٣.
(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٣٢ ـ ١.
(٤) نهج البلاغة: الخطبة ٩٧ ـ ١٠.

النافذين منهم والحاكمين في الأرزاق والأعناق. والأثرياء والنبلاء يتحلّبون شهوةً لاقتطاع الأرض واحتكار الخيرات وابتلاع الناس. فأنّىٰ له أن يمكث بعيداً عن مركز القيادة والحالة هذه الحال، والأُمور قد تصبح في جملتها بعد قليل في أيدي «**أُغيلمة من قريش**» علىٰ حدّ تعبير النبي؟ وهذه الفئة القليلة قد أذلّت الجماعةَ والسواد الأعظم، والجماعة في نظر عليّ تَلزمها يدُ الله: «**والزموا السواد الأعظم فإنّ يد الله مع الجماعة**»(١).

إذاً، فقبول البيعة واجبٌ عليه وإن كلّفه هذا من التحمّل ما لا طاقة عليه لمحسنٍ «**في زمن كؤود يُعدّ المحسن فيه مسيئاً**»(٢).

يقول عليّ: «**ولكنّ أسفاً يعتريني وجزَعاً يريبني، من أن يليَ هذه الأُمّة سفهاؤها وفجّارها، فيتّخذون مال الله دُوَلاً، وعباد الله خوَلاً، والصالحين حرباً، والقاسطين حزباً**»(٣).

وكان عليّ بطبعه ينفر من العزلة إذا لم تكن العزلة نفسها في خدمة الجماعة. فالإنسان إمّا اعتزل وهو قادر علىٰ خدمة الناس، أنكر ذاته. كما جحد الغاية من وجوده في مجتمع يريد من أفراده أن يتعاونوا في الخير ويتساندوا في المعروف. وأصبح عليّ إمام الناس. ولكي نفهم حكومة عليّ وسياسته الاقتصادية والمالية والاجتماعيّة لا بدّ أن نعود بها إلىٰ أصل واحد لديه، هو: أُسلوبه في فهم الولاية مصدراً وغايةً.

* * *

لم تكن الولاية في نظر ابن أبي طالب حقّاً يوليه الله بشراً فيستأثر به ويدوم عليه ما شاء هو وما شاء له ذلك المتنفّذون والأقربون، كما أصبحت فيما بعد في ملك بني أُميّة وبني العبّاس، وكما كانت في تاريخ أوروبا الوسيط

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٢٧ ـ ٧.

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ٣٢ ـ ١.

(٣) نهج البلاغة : ولكنّني آسىٰ أن يلي أمر هذه الأُمّة سفهاؤها وفجّارها، فيتّخذوا مال الله خولاً والصالحين حرباً والفاسقين حزباً. الكتاب : ٦٢ ـ ٩.

إذ عرّفوا الوالي ـ أو الملك ـ بأنّه ظلّ الله على الأرض، وبأن إرادته هي إرادة خالق السماء لا يُنظَر فيها إلىٰ ما يجوز وما لا يجوز، بل إنّ الولاية في نظره هي من الجماعة تُولي من تشاء وتخلع من تشاء إثابةً علىٰ إحسان، وعقاباً علىٰ إساءة. يقول عليّ: «**فإن ولّوك في عافية وأجمعوا عليك فقمْ في أمرهم. وإن اختلفوا فدعْهم وما هم فيه**»(١). ويقول أيضاً: «**انظروا، فإن أنكرتكم فأنكروا. وإن عرفتم فآزروا. حقّ وباطل، ولكلٍّ أهل**»(٢).

أمّا سلطة الوالي فمستمَدّة من القيام بتنفيذ الشرايع الاجتماعيّة الأكثر صلاحاً. يقول عليّ في خطبة البيعة: «**أيها الناس ! إنّما أنا رجل منكم لي ما لكم وعليَّ ما عليكم. والحقّ لا يُبطله شيء**»(٣). ويقول في خطبة أخرىٰ: «**أيها الناس ! إني والله لا أحثّكم علىٰ طاعةٍ إلّا أسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن مَعْصيةٍ إلّا أتناهىٰ قبلكم عنها**»(٤).

إذاً، فالحاكم لا يطاع لذاته بل لعدالته وتنفيذه للشرائع الاجتماعيّة الخيّرة.

ولم تكن الولاية في نظر ابن أبي طالب باباً يلجُه الوالي إلى الخيرات، ينال منها ما يُتخم ثمّ يقسمها بين الأهل والأقارب والإخوان، والأنصار والأعوان. إنّما الولاية باب يلجُه الوالي إلىٰ إنصاف الناس ولإقامة أقصىٰ ما يمكن أن يقام من أسباب المساواة بينهم، والإثابة على البَلاء بقدر البلاء، والمنع من الاحتكار والاستغلال جهدَ ما يحتمل الزمان، وملازمة الحقّ ولو كانت هذه الملازمة طريقاً إلىٰ هلاك الوالي علىٰ أيدي المفسدين، ثم توجيه الضمائر والعقول إلى الخير توجيهاً له أُصول وقواعد ثابتة في خلق الوالي وفي مسلكه.

---

(١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة للمحمودي : ٥ / ٢١٤.

(٢) نهج البلاغة : خطبة ١٦ ـ ٦.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣٦/٧ .

(٤) نهج البلاغة : الخطبة ١٧٥ ـ ٦.

بعث عليّ، فيما بعد، إلىٰ بعض عمّاله يقول: «**أمّا بعد، فلا يكن حظّك في ولايتك مالاً تستفيده، ولا غيظاً تشفيه، ولكنْ إماتة باطل، وإحياء حقّ**»[١].

الولاية في نظر عليّ إنصافُ الجماعة من الفئة الباغية لأنّ «**يدَ الله مع الجماعة**»[٢]. وهي لا بالصحابة تقوم ولا بالقرابة. وإنّ عليّاً ليعجب من هذا المنطق في فهم الخلافة فيقول قولاً موجزاً بليغاً، بسيطاً عميقاً كالحقيقة نفسها، حتّىٰ لكأنّه ومضة العقل وهتفة الروح: «**واعجباه! أتكون الخلافة بالصحابة ولا تكون بالصحابة والقرابة**»؟ [٣]

لم تكن الولاية في نظر ابن أبي طالب حسباً تُشيّد عليه الأمجاد ولا شرفاً قديماً تُبنىٰ له العروش، ويُتَوسّلُ به إلىٰ استعباد الناس. فإنّه: «**لا حسب كالتواضع ولا شرف كالعلم**»[٤] و «**الكرم أعطف من الرحم**»[٥] ولم تكن قهراً ماديّاً تخضع به الجماعات للسيف والنار، وقطع الأرزاق وهدر الدماء، ولا قهراً معنوياً تخضع به الجماعات للوالي بالترهيب أو الترغيب، وهو الإمام الذي عبد ربّه لا رغبةً في ثوابه ولا خوفاً من عقابه، بل لأنه يستحقّ العبادة. إنّما كانت توجّهاً إلى الضمير الفردي برعاية الخير، وإلى الضمير الاجتماعي، والضمير الإنساني، ثمّ مخاطبةً لعقل الجماعة الذي يرىٰ فيحكم، فيقضي للوالي بأعماله، أو عليه.

ولم تكن الولاية استبداداً في الرأي بعد استتباب الأمر. فالشورىٰ أولىٰ. وللجماعة الحقّ ملء الحقّ في أن يطالبوا الوالي «بألّا يحتجز دونهم سرّاً ولا يطوي دونهم أمراً»[٦] إلّا في ما كان احتجازه وطيّه إلىٰ حين، من

---

(١) نهج البلاغة الثاني للحائري : ١٩٦، نقلاً عن المناقب : ٤ / ٣٤٨، نهج السعادة : ٥ / ٣٤٨.

(٢) في نهج البلاغة : فإنّ يد الله مع الجماعة، الخطبة : ١٢٧ ـ ٧.

(٣) نهج البلاغة: ٤٣، قصار الحكم : ١٩٠.

(٤) نهج البلاغة: ٢٧، قصار الحكم : ١١٣ ـ ٣.

(٥) نهج البلاغة: ٥٤، قصار الحكم : ٢٤٧.

(٦) نهج البلاغة : الكتاب ٥٠ ـ ٣، وفيه ألّا أحتجز دونكم سرّاً إلّا في حرب، ولا أطوي دونكم أمراً إلّا في حكم.

مصلحة الجماعة بالذات.

وللجماعة الحقّ ملء الحقّ أيضاً في أن يدركوا واليهم بالرأي في كلّ ما يعود عليهم بالخير. وعلى الوالي ملء الواجب في أن يستقبل وجوه الآراء جميعاً لعلّ في هذه الآراء ما لم يخطر بباله، أو يهجس في ضميره أو يبلغه علمُه.

ذلك لأن «**من استقبل وجوه الآراء** ـ كما يقول عليّ ـ **عرف مواقع الخطأ**»(١). ومن عرف مواقع الخطأ؛ أمكنه أن ينفذ إلى الصواب. فآراء الجماعة ضرورةٌ يُفيد منها الوالي في معنى ولايته، وتفيد منها الجماعة في معنى التولّي عليها. وهي علىٰ كلّ حال، تحسم الأُمور علىٰ صورةٍ لا يقع بعدها ندَم. ويعترف عليّ بهذه الحقائق اعترافاً لا يقبل تأويلاً إذ يقول: «**لا صواب مع ترك المشورة**»(٢). وليس من صفة الوالي في شيء أن يحيط أعماله بالغموض وأن يتستّر توسّلاً إلىٰ بلوغ حاجةٍ من الحاجات خفيةً عن الخلق. لذلك يتوجّه عليّ إلى الناس ليدلّهم علىٰ هذا الحقّ من حقوقهم قائلاً: «**واستصحبوا من شعلةِ مصباحٍ واضح**»(٣).

لم تكن الخلافة في مذهب ابن أبي طالب بعداً عن الناس، وانصرافاً عن الشعب ودنوّاً من الكِبْر، واحتجاباً عن النظر في الأحوال العامّة وحاجات الأفراد والجماعات. بل أنها سببٌ في تقريب الوالي من الناس وعطفه عليهم وتواضعه لهم، ثمّ انصرافٌ تامّ إليهم، لا عذرَ يُقبَل دونه ولا حجّة.

والناس إن سخطوا على الوالي بسببٍ من هذه الأسباب جميعاً؛ لا بدّ أن يثقل عليه أمرُهم كما ثقل عليهم أمرُه، لأن موقفهم منه يجب أن يكون صورةً

---

(١) نهج البلاغة، ٤٢، قصار الحكم : ١٧٣.

(٢) مطلوب كلّ طالب، رشيد الوطواط : ١٣، شرح المائة كلمة : ٢٠٢، مناقب الخوارزمي : ٣٧٥، ينابيع المودّة : ٢ / ٤١٢.

(٣) نهج البلاغة : أيّها الناس! استصحبوا من شعلة. مصباح واعظ متّعظ، الخطبة : ١٠٥ ـ ٧.

عن موقفه منهم. وفي ذلك يقول عليّ: «**قلوب الرّعيّة خزائن راعيها، فما أودعها من عدلٍ أو جور؛ وجدَه فيها**»[١].

ولم تكن الولاية في مذهب ابن أبي طالب عصبيّةً؛ لأن التعصّب مذموم إلّا إذا كان «**لمكارم الخصال والأخذ بالفضل والكفّ عن البغي وإنصاف الخلق واجتناب الفساد في الأرض**»[٢].

والولاية، علىٰ كلّ حال ليست في مذهب ابن أبي طالب لأولئك الذين يقول فيهم: «**لو وُلّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرىٰ وقيصر.**»[٣] والذين هم «**من أهل المكر والغدر**» و «**أُولي الجور والظلم**» و «**أكَلَة الرّشا !**» و «**الذين يقدّم الطعام ـ في ولايتهم ـ إلى شبعان !**»[٤].

لذلك كلّه لم يقبل عليّ بالخلافة إلّا معتزماً أن يقيم حقّاً ويزهق باطلاً وإلّا فمفارقة الحياة أولىٰ.

وهو لذلك وغير ذلك يهيب[٥] بالناس أن يحاسبوا وُلاتَهم ويراقبوا أعمالهم. وبألّا يقبلوا بوالٍ إن لم يكن خادماً لهم. وبأن يُبدوا السخط إذا شاءوا وأن يُبدوا الرضا. فيقول لهم: «**ألَا تسخطون وتنقمون أن يتولّىٰ عليكم السفهاء... فتُعمّوا بالذلّ وتقرّوا بالخسف ويكون نصيبكم الخسران؟**»[٦] بل إنّه يضع السخط من الجور موضعَ المقابلة مع الرضا بالعدل، في قولٍ حكيم: «**إنّما يجمع الناسَ الرضا والسخط: فمَن رضيَ أمراً فقد دخل فيه. ومن سخط فقد خرج منه**»[٧].

---

(١) غرر الحكم : ٦٨٢٥.

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٩٢ ـ ٧٨. «كفو خل»

(٣) نهج السعادة: ٣٦٠/٢، الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١٦٤/١ .

(٤) كشف المحجّة لابن طاووس : ١٨٧.

(٥) يهيب بالناس : يحثّهم، ويُثير فيهم الحماس.

(٦) نهج البلاغة، الكتاب: ٦٢ ـ ١٣.

(٧) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٠١ ـ ٢.

وهو لذلك ولغير ذلك لم يوصِ بالخلافة بعده لأحدٍ ؛ لأن الأمر يجب أن يُناط بالجماعة وحدها. فإذا هم طلبوا إليه أن يستخلف ابنه الحسن بعده ؛ أبى ، وقال : هذا القول الذي تنتهي إليه المكارمُ في صفات الحاكم والوالي كما تنتهي إليه صراحةُ الاعتراف بالحريّات العامّة وبحقوق الناس في تسيير أُمورهم على ما يعلمون ويختارون : **«لا آمرُكم ولا أنهاكم ، أنتم أعلم»**[1].

فلماذا يأمرهم باستخلاف ابنه إذا هم أنكروه؟

ولماذا ينهاهم عنه إذا هم وجدوا فيه مَن يرضون عنه؟

أوَ ليسوا ، هم في الحالتين أعلم بأحوالهم وحاجاتهم وشؤون مجتمعهم؟

أوَ ليس لهم وحدهم الحقّ في تقرير ما يودّون أن يصيروا إليه؟

أقول : إنها الغايةالتي ينتهي إليها احترام حريّة الجماعة وتقرير حقّ الإنسان في ولاية نفسه. وقد بلغ بعليّ احترامُ حريّات الناس أنْ أباح لهم الحرية حتى في ما يتعلّق بموالاتهم إيّاه أو باعتزالهم عنه. وذلك بعد أن والاه السواد الأعظم ، وأصبح اعتزال فريقٍ منهم ، إنكاراً لحقّ الجماعة في مَن يولّون عليهم.

فهو يأبى كلّ ما يأتي عن طريق الضغط أو الإكراه. من ذلك ماكان من أمره مع نفرٍ أبوا أن يبايعوا. فهو لم يحترْ ولم يرتبك. ولم يُكرِه ولم يغفل عمّا قد يسيء إلى إرادة الجماعة في وقتٍ معاً. فأباح لهؤلاء أن يلزموا رأيهم ، ثم أن يفرغوا من أمر الناس اعترافاً منه بحقّ الأفراد والجماعة في نطاق واحد. وتفصيل ذلك أنّ سعد بن أبي وقّاص ـ وهو أحد أصحاب الشورى ـ أبى أن يبايع ، فتركه عليّ وشأنه بعد أن قال لعليّ : ما عليك مني من بأس.

---

(١) البداية والنهاية: ٧ / ٣٦٢، مناقب الخوارزمي: ٣٨٤، جواهر المناقب: ٢ / ٩٢.

ومن هؤلاء النّفَر أيضاً عبد الله بن عمر ، فقد أبى عبد الله أن يبايع ، فطلب عليّ من يكفله لئلّا يثير الفتنة. فأبى أن يقدّم كفيلاً. فقال له عليّ: ما علمتُك إلّا سيّء الخلق صغيراً وكبيراً. ثمّ قال: خلّوه وأنا كفيله ، وأبى البيعة قومٌ آخرون ، فخلّى عليّ بينهم وبين ما أرادوا شرط أن يعتزلوا الفتنة فلا يُسيئوا إلى إرادة السواد الأعظم. وشاء قوم من الثائرين أن يُكرهوا المتخلّفين عن البيعة فيحملوهم قسراً عليها ، فأبى عليّ ذلك أشدّ إباء. لقدكانت قاعدته العامة في شأن البيعة مستندة إلى هذه الحقيقة التي يراها ويعبّر عنها بقوله: «**فمَن بايع طائعاً ؛ قبلتُ منه ، ومن أبى تركتُه**»[1]. فحريّة الأفراد مكفولة في حكومة عليّ إلّا إذا ألحقت الأذى بحريّة الجماعة. لذلك لم يترك هذه الحريَّة للزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ومعاوية ابن أبي سفيان ، وقد تركها لسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وغيرهما من الذين أبوا أن يبايعوا. فأولئك الثلاثة طامحون إلى ولاية الأمر لِمَا تضمَن لهم هذه الولاية من ثروة ومجد وسلطان. فهم لذلك ثائرون على الخليفة الجديد ، إن لم يكن اليوم فغداً. وهم لذلك عامدون إلى الفتنة وشقّ الصفوف والاستئثار بما الناس فيه اُسْوة. ثم إنّ لهؤلاء الثلاثة قوىً من الأموال والجنود تُيسّر لهم أسباب الفتنة. لذلك لم يتركهم عليّ وشأنهم. وسوف نتبيّن صدق نظرة الإمام إلى هؤلاء في باب «المؤامرة الكبرى على الإمام».

إذن ، فالولاية من الجماعة ؛ ولا إكراه على البيعة إلّا إذا اقتضت مصلحة الجماعة ، لا مصلحة الوالي ، هذا الإكراه. وهو أجلّ المفاهيم لعلاقة الحاكم بالمحكوم ، في ما يتعلّق بحرية القول والعمل. وكان من الطبيعي ، والحالة

---

(١) نهج السعادة: ٥ / ٣٢٥. وفيه : فمن بايعني طائعاً قبلت منه.

هذه ، أن يربط ابن أبي طالب وُلاتَه وعمَاله بالشعب بمثل ما ارتبط بـه هـو. فكان شديد المراقبة لهم على ما سنراه في حينه ، يشـدّد عـليهم فـي كـلّ مـا يلزمهم من رعاية الحقوق العامة. وقد خطا في ذلك خطوة رائعة تـنسجم مـع دستوره العام في الحقوق والواجبات ، وتنسجم كذلك مع أرقى دساتير الأُمم الحاضرة ، وهي أنه جعل من المحكوم. نفسه رقـيباً أعـلى عـلى الحـاكـم ، ومصدراً لأسلوبه في الحكم فكان إذا ولّى أحدهم إقليماً من الأقاليم ، أو مدينة من المدن ؛ أعطاه عهداً يقرؤه على الناس. فإذا أقرّه الناس بعد أن يقرأ عليهم العهد ،كان هذا العهد عقداً بينهم وبينه لا يجوز لهـم أن يـنحرفوا عـنه ، ولا يجوز للحاكم أن يتأوّله أو يخالفه في كثيرٍ أو قليل. أمّا إذا انحرف عنه ؛ فإن عليّاً يوجب عليه العقوبة وينفّذها فيه من فوره.

الحُرِّيَّة وَيَنابيعُها

الحرية وينابيعها

ـ لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًّا(١).

ـ وقد أذنتُ لك أن تكون من أمركَ على ما بدا لك(٢).

ـ ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مُكرَهين(٣).

ـ فبايعاني على هذا الأمر ، ولو أبَيَا لم أكرههما كما لم أُكرِهْ غيرهما(٤).

علي

هذا الإيمان الأصيل العميق بالحرية ، تَلْقاه في الأُسُس التي قامت عليها مناهج عليٍّ في الحكومة والسياسة والإدارة. وهو بوحيها فَصّلَ وأجملَ ، وأمرَ ونهى ، وسالمَ وحارب ، وعزل وأثبت ، وخالط الناس ، وعامل وُلْدَه ، وعبد ربّه. أمّا نظرته إلى الحريّة فمستقاة من نظرته العامة إلى الكون ، وإلى المجتمع. قطب هذا الوجود المتحرّك في طريق الخير الأعلى.

أمّا معاني هذه الحريّة فتنبع من العلاقات التي يرتبط بها أبناء المجتمع ، بقدر ما تنبع من الضمائر والوجدانات. ولها أركانٌ هنا وأركانٌ هناك ، ولا تقوم مقاييسها إلّا عليها جميعاً. هكذا يقرِّر العقل والتجربة ، وهكذا يقرّر ابن أبي طالب.

---

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٣١ـ٨٧.

(٢) الإمامة والسياسة ، تحقيق علي شيري: ١ / ٦٩. ومنها مواقف الشيعة للميناجي: ٣ / ٢٩ .

(٣) الكافي: ١ / ٥٥ ، روضة الواعظين للنيسابوري: ٤٠ ، الفصول المختارة للمفيد: ٧١ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٨ /٣٢٧.

(٤) نهج السعادة: ٥ / ٢٢٥ ، الإمامة والسياسة: ١ / ١٧٦ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦ / ٩٧ ، كشف المحجّة: ١٨١.

أمّا العلاقات التي يرتبط بها أبناء المجتمع ، وهم ذوو صفتين فردية واجتماعية ، فقد أوقف الإمام سياسته وحكومته وإدارته على تجويدها بما يمكّن للناس من العيش الكريم ، ويهبهم الفرصة للانطلاق في ميدان الحريّة بأمتع أشكالها ومعانيها ، وللامتداد في الأُفق الإنساني الوسيع.

إنّ أوّل مسلك في هذا النطاق لابن أبي طالب ،كان أن عالن الناس بمسؤوليته في إقامة ما هو حقّ ، وتهديم ما هو باطل ، إعفاءً لهم من محاولةٍ فاشلة قد يفكّرون باللجوء إليها لمعصيةٍ أو إثم فردي ، مستشفعين لذلك بمودّةٍ أو قرابةٍ أو مناصرةٍ ، يراد بها أجرٌ يُلحق الغبنَ بالجماعة.

ثم إنه قدّم لتقرير هذه المسؤولية ، إرهاصاتٍ من قوله وعمله قبل الخلافة وبعدها. وأرى القوم مسلكاً ذا وجهٍ إيجابي يقوم بالتوجيه إلى الخير وبالعمل على تركيز أسبابه والدوافع إليه، ومسلكاً آخر ذا وجه سلبي يقوم بالشدّة في إقامة الحدود مع الأبعدين والأقربين ، وفيهم خصمُه وأخوه.

ثم إنه مطمئنّ إلى ما يعرفه الناس ،كلّ الناس من زهده وتعفّفه ، والتزامه ما لا يلزم من أسباب الزهد والتعفّف. وماذاك إلّا إمعاناً منه في تجريد الذات ، إلّا ممّا يُمسك عليها الحياة المتيقّظة لرعاية الحقّ ؛ وإمعاناً في رعاية المستضعفين بالشعور والوجدان إلى جانب ما هو عازم عليه من السعي في رفْع الجور عنهم ، ورفع الحاجة بما هو من باب الحقّ لا من باب الجود والإحسان. فهو مطمئنّ إلى نفسه ، وهو يأبى أن يُدَلّ الطريقَ إلى مصفّى العسل وفي الشعب مَن لا عهدَ له بقرص الشعير ، وأنْ يُدلّ الطريقَ إلى نسائج القزّ وفي الشعب مَن لا طمع له بالطمر المرقّع ؛ وأن يقال له : أمير المؤمنين ولا يشاركهم مكاره الدهر .

لقد حرّر عليّ نفسه مما تقيّد به وُلاةُ زمانه من إغلال الإشادة بالحسب والنسب ، وحرّر نفسه من المطمع في الملك والمال والجاه والكِبْر

والاستعلاء. وحرّر نفسه من العرف إنْ لم يدُر في نطاق العقل السليم ، والحاجة الاجتماعية ، والشوق الإنساني الخيّر. وحرّرها من تخصيص ذويه ومحبّيه بما ينفعهم دون سواهم ، ومن الحقد على أخصامه والانتقام من مبغضيه ، وحرّر ضميره من كلّ مناجاةٍ بعملٍ لا يثق بصلاحه ، أو قول لا يرضاه ، فكان الضمير العملاق. ثم حرّر جسده من شهوة المأكل والمشرب والملبس والمسكن ؛ إلّا ماكان من الضرورات البديهية القاهرة. وهو لم يكن ليتناول ثمناً لهذه الضرورات من بيت المال العامّ على حقّه في الحصول على نصيبٍ منه ؛كبعض نصيب عمّاله وولاته على الأقلّ. فتُحدّثنا الرواية الثابتة أنه ربما باع سيفه ودرعه وأمتعته ليأكل وبنوه بأثمانها ، فيماكان يوسّع على العمال والولاة كي لا يضطرّوا إلى قبول الرشوة ، مما يؤدّي إلى ظلم الحقِّ ومسايرة الباطل.

حرّر الإمام عليّ نفسه من هذه الأُمور جميعاً ؛ ليتمّ له أن يتفلّت من كلّ قيد يحول بينه وبين العدل ، على الصديق والعدوّ معاً. ويوجز هو نفسه حالته هذه بقوله: «**من ترك الشهوات كان حرّاً**»(١).

أمّا تقواه فماكانت إلّا تقوى الأحرار ، يؤمنون فيعملون بوحي ما يؤمنون به ، لا تظاهُر هناك ولا مواربة ، لا خشية من عقاب ولا طمع في ثواب.

أمّا ضمان الحريّة للناس ؛ فيقوم في الدرجة الأُولى على العمل. وقد أنزل الإمامُ الجسدَ العامل من الأرض منزلة القلب الكريم من الجنّة ؛ فقال في الطيبين : «**قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل**»(٢) ويقوم نفع العمل بإثابة

(١) نهج السعادة: ٧ / ٤٧٦، تحف العقول: ٨٨.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢ـ١٣٦.

العامل بما يعمل ، على ما سيأتي بيانه بالتفصيل.

وإعلاءً منه لشأن الحريّة ، والعمل الحرّ ؛ اشترط ألّا يُجبَر عاملٌ على عمل. فالعمل الذي لا يواكبه الرضا الوجداني العميق ؛ فيه إساءة إلى الحريّة ، ثم إلى العمل ذاته. يقول : **«ولست أرى أنْ أجبر أحداً على عملٍ يكرهه»**[1]. ويكتفي للحثّ على العمل الذي يفيد الجماعة ، وللمحافظة على الحريّة الفردية في وقت واحد ؛ بأن يجعل نتيجة العمل من حقّ العامل وحده ، وبأن يحرم مَن كرهه لغير مبرّر مقبول: **«والنهرُ لمن عمل دون من كرِهَه»**[2].

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أمرٍ ذي خطر في نطاقِ هذا البحث. فلو استعرض المرء لفظة الحريّة في ذلك العصر لَما وجدَ لها مدلولها الواسع العام إلّا في نهج الإمام عليّ، فإن كلمة الحريّة ومشتقّاتها جميعاً لم يكنْ لها من المدلول في عصر الإمام إلّا ما يقوم منها في معارضة الرقّ. فالحريّة ضدّ العبوديّة ، والحرّ ضدّ العبد أو الرقيق. فلو نظرنا في المدلول الصحيح لكلمة عمر بن الخطاب المشهورة : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتْهم أُمهاتهم أحراراً»[3] لرأينا أن صيغة هذه العبارة ، والظرفَ الذي قيلت فيه ، والدوافعَ التي أهابت بابن الخطاب إلى قولها ، تتفق جميعاً على أن عمر لا يعني بالأحرار إلّا أُولئك الذين ليسوا عبيداً يباعون ويشترون.

أمّا لفظة «الأحرار» التي تعني أصحاب الحقّ في القول الحرّ والعمل الحرّ ، فليست تلك التي يوردها ابن الخطاب في عبارته هذه، بل نضيف إلى ذلك دليلاً آخر ، هو : أن عمر توجّه بقوله هذا إلى الذين يستعبدون الناس

(١) أنساب الأشراف: ١٦٢، نهج السعادة للمحمودي: ٥ / ٣٥٩.

(٢) أنساب الأشراف: ١٦٢، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٩٢.

(٣) كنز العمّال: ١٢ / ٦٦، الحديث رقم (٣٦٠١١) ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١١ / ٩٨.

فيأمرهم بألّا يسترقّوا مَن ولدتْهم أُمهاتهم أحراراً. وهو لم يتوجه بقوله هذا إلى الأرقّاء أنفسهم فيأمرهم بأن يثوروا على مستعبديهم شراءً وبيعاً. إذاً فالأمر منوط بإرادة الأسياد في كلمة عمر ، والنصيحة موجّهة إليهم وحدهم ، والأفضل ألّا يسترقّوا المستضعفين من الناس.

أمّا عند عليّ بن أبي طالب فالأمر غير ذلك، ومفهوم الحريّة لديه أوسع وأعمّ. نستدلّ على ذلك بنصٍّ صريح له أوّلاً ، ثمّ بما نستنبطه من دستوره العامّ الذي نرى منه وجوهاً في معظم أقواله وعهوده ووصاياه. فإزاء كلمة عمر التي أشرنا إليها ، يقول عليّ : **«لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً»**(١) فانظر كيف توجّه عليّ بقوله هذا إلى مَن يريده أن يثق بنفسه ويستشعر روح الحريّة ومعناها ، فألقى في نفسه ما يوقظه على أصلٍ من أُصول وجوده ، وهو : أن طبيعة الكون جعلتْه حرّاً لا يتمرّد ولا يُطيع ، ولا يعمل ولا يقول إلّا على أساسٍ من هذا الحقّ الطبيعي. وهو بذلك إنّما يلقي في نفسه بذور الثورة على كلّ ما من شأنه أنْ يضيّق عليه ويسلبه حقّه في أن يكون حرّاً.

ولا يظنّنّ القارئ أن الفرق بسيط بين كلمة عمر بن الخطاب إذ يتوجّه إلى الأسياد فيأمرهم بألّا يستعبدوا أحداً ، وبين كلمة عليّ بن أبي طالب إذ يتوجّه إلى الكافّة فيخبرهم بأنهم أحرار ، ويجعل الأمر مرهوناً بإرادتهم هم ، لا بإرادة الأسياد إذا شاؤوا استعبدوا ، وإذا شاؤوا أعتقوا. فالفرق في نظرنا شاسعٌ عظيم، وهو فرقٌ يتناول الأُصول لا الفروع. ويشير إلى عمق نظرة الإمام عليّ إلى مفهوم الحريّة. فالحريّة في نصّه هذا نابعة من أُصولها الطبيعية: من الناس الذين لهم وحدهم الحقّ في أن يقرّروا مصيرهم، استناداً إلى أنهم أحرارٌ

---

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٣١ـ٨٧.

حقّاً لا رأيَ في ذلك لمن يريد أن يسلبهم هذه الحريّة أو «يمنحهم» إيّاها.

ومن عمق هذه النظرة العلوية إلى الحريّة ، أنّ عليّاً يقرّر بقوله هذا ، أنّ الحريّة عملٌ وجدانيّ خالص ملازمٌ للحياة الداخلية التي ترسم بذاتها الخطوطَ والحدودَ والمعاني فلا تُقسَر عليها ، لأنها نابعةٌ من الذات لا تلقائية ولاخارجية. وهي إذا كانت كذلك ؛ فليس لأحدٍ أن يُكرهَ الآخر أو يجبره في هذا النطاق؛ لأن عمله هذا يأتي فارغاً من أيّ معنى ، خالصاً من أيّ أثر.

إذاً ، فالفرق بين كلمتَي عمر وعليّ فرقٌ جذريّ لا فرعيّ : هناك حريّة وأحرار تُناط قضاياهم بإرادةِ مَن يبيعون ويشترون ، فهي حريّةٌ معلّقة وهم أحرارٌ مسيّرون. وهي حريّة شكلية لا تنبع بحدودها ومعانيها من معينها الطبيعي ؛ بل تُرسَم خطوطُها خارج الذات وخارج الوجدان. وهم أحرارٌ أُقصوا عن وجداناتهم وارتبطوا باتّفاقات ومعاهدات. وهنا حريّةٌ وأحرارٌ تناط قضاياهم بالطبيعة الإنسانية نفسها ، وهي طبيعة حرّة بأُصولها وينابيعها.

فالحريّة إذاً مطلقةٌ ، وحدودها الرفض والقبول ضمن نطاق الحياة الداخلية والوجدان. والأحرار مخيّرون ، يقبلون ويرفضون عن اقتناع وعن إيجابية. والحريّة بمفهومها العلويّ هذا ، هي التي تخلق الثورات وتنشئ الحضارات وتقيم علاقات الناس على أُسس التعاوُن الخيّر ، وتربط الأفراد والجماعات بما يشدّهم إلى الخير ؛ لأن الارتباط حين يكون طرفاه الاقتناع والقبول هو وحده الطبيعي بين الارتباطات.

* * *

ولمّا كان مفهوم الحريّة عند عليّ هو هذا المفهوم الدقيق العميق، كان لابدّ لمعناها من أن يكون هو المعنى الذي يُنظَر على أساسه إلى الأحوال الخاصّة والعامّة، إلى كلّ ما يرتبط بوجدانات الناس ونزعاتهم وحياتهم

الداخلية ، وإلى كلّ ما يـتّصل بـالعلاقات العـامّة. وكـان لابـدّ أن تُـبنى عـليه حقوق الإنسان.

ولمّا كانت شخصيّة عليّ بن أبي طـالب مـن التـماسُك الشـديد بـحيث تتساوق منبثقاتُها جميعاً وتتعاون ، وبحيث تتّحد في أصلها الأصيل وغايتها الأخيرة ، فإنّك لا شكّ واجدٌ هذا المفهوم للـحريّة أنّـى اتّـجهتَ مـعه وأيّـانَ سرتَ. أمّا إذا فاتك أن تلحظ الصّلةَ الوثيقة بين معنىً من معانيه ، أو عملٍ من أعماله ، وبين هذا المفهوم للحريّة، فما عليك إلّا أن تعيدنظرك من جديدٍ في ما أنت بصَدَده، فإذا أنت أمام هذه الصلةِ الوثيقة وجهاً لوجه.

فعليّ بن أبي طالب من تماسُك الشخصية بحيث لا يتناقض أبداً ، وهو من سلامة الطبع وأصالة الفكر بحيث لا يتعارض.

وسوف نُبرز هذه الناحية الهامّة في ابن أبي طالب في فصلٍ آتٍ عقدناه ودفعتْنا إلى عقْده أسبابٌ ذكرناها.

وإذا شئت دليلاً حاضراً على هذه الحركة العفويّة الموجّهة التي تدفع ابن أبي طالب إلى أن يربطَ كل ما ينبثق عنه من قولٍ أو عمل بمفهوم الحريّة كما أوضحناه ، فإليك الدليل:

من المعروف أنّ نظرية القضاء والقدَر لها مكانٌ فـي الأديـان الشـرقية جميعاً ، وأنّ لها أُصولاً بعيدة في فلسفات القُدامى وفي مفاهيمهم الإلهية وما يتّصل بها من سُنَنٍ أخلاقية ؛كان لها في توجيه الأفراد عملٌ ملحوظ وإنْ كان محدوداً.

ومن المعروف كذلك أنّ مذاهبَ كثيرةً نشأتْ في المسـيحية والإسـلام وغيرهما ، من غاياتها تعليلُ الحوادث الخاصّة والعامّة ، القـريبة والبـعيدة ، على ضوء هذه النظرية. ولا غرابة في أن تترتّب على هذا الأُسلوب في تعليل

الحوادث مناهج خاصّة في الأخلاق والمسلك ، ترفع المسؤولية في العمل عن المتسبّب فيه لتلقيها على القضاء والقدر.

ولمّا كان من أُصول هذه المذاهب القدرية أن تجعل زمامَ الحوادث بيد القدَر وحده، فقد بات من الطبيعيّ لديها تعطيلُ كلّ معنىً من معاني الحريّة التي تفرض وجودَ القدرة على الاختيار ، وتجعل المختار في النتيجة مسؤولاً لأنه حرّ.

هذه القضيّة بالذات ، واجَهها عليّ بن أبي طالب. ولكنْ على أيّ أسلوب؟

هل قال بأنّ القضاء والقدر ـ وهما يد الله في فلسفات القدامى ومذاهبهم ـ يسوقان الإنسانَ سوْقاً فلا رأي له في ما هو مبسوطٌ أمام عينيه من شؤون الحياة ، ولا اختيار له في ما هو صائرٌ إليه؟

إنّه لو قال بذلك لناقضَ نفسه ، ولَمَا كان لقوله في الحريّة شأنٌ. فإنّه لا يكون إذذاك أكثر من قولٍ عابرٍ ، لا يصدر عن أصل عميقٍ ولا يهدف إلى غاية معلومة ، ولا يعبّر عن حقيقةِ قائله إلّا بمقدار ما تعبّرُ الخاطرةُ الطارئةُ الذاهبة.

أمّا إذاكان لقوله في الحريّة هذا الشأن الذي نراه، فإنّه منكرٌ سَوق الإنسان بيد القدَر إنكاراً شديداً، ولا شكّ وإنّه ناظرٌ إلى القدَر بعين مَن لا يضَع إمكاناته فوق إمكانات الإنسان الحرّ الذي يرى ويعلم ويختار ويتّجه ، وماذا قال ؟

قال لشيخٍ من أهل الشام حضر صفّين :

«إنّ الله قد أعظم لكم الأجرَ على مسيركم وأنتم سائرون. وعلى مُقامكم وأنتم مقيمون. ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مُكرَهين ولا إليها مضطرّين».

فقال الشامي:

«كيف يكون ذلك والقضاء والقدر ساقانا ، وعنهما كان مسيرنا وانصرافنا؟»

فقال له عليّ:

«ويحَكَ يا أخا أهل الشام ! لعلّك ظننتَ قضاء لازماً ، وقدَراً محتوماً ؛ لو كان كذلك ؛ لَبطل الثوابُ والعقاب ، ولم تأتِ لائمةٌ لمذنبٍ ولا محمدةٌ لمحسن ، ولَمَا كان المحسن أولى بثواب الإحسان من المسيء ، ولا المسيء أولى بعقوبة المذنب من المحسن»(١).

وقال أيضاً:

«إن كنت صادقاً كافيناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك»(٢).

ولا يكون قدرياً من يكافئ صادقاً ويعاقب كاذباً.

قلنا: إنه لمّا كان مفهوم الحريّة عند عليّ هو هذا المفهوم الدقيق العميق ؛ كان لابدّ لمعناها من أن تُبنى عليه حقوق الإنسان. وهذا ما نراه واضحاً كلّ الوضوح في دستور عليٍّ في الناس. فهو يعترف للأفراد بحقّهم في الانتخاب والاعتزال ، وفي القول والعمل ، وفي العيش الكريم ، ثم يساوي بينهم جميعاً في الحقوق والواجبات. ولا يجعل لهذه الحريّة حدوداً إلّا إذا اقتضت مصلحة الجماعة مثل هذه الحدود.

ونحن إذا تابعنا سيرة الإمام في الناس ـ كما تبيّناها في الفصول السابقة وكما سنتبيّنها في الفصول اللاحقة ـ ألفيناه لا يعارض بتصرفاته ودستوره هذا المفهوم للحريّة في كثيرٍ أو قليل. وقد عالج هذا المفهوم تلقيناً وتطبيقاً في إقامة الحقوق العامّة، ورعاه في أصحابه وأعدائه على السواء.

---

(١) الفصول المختارة للمفيد: ٧١، روضة الواعظين للنيسابوري: ٤١.

(٢) أُصول الكافي: ٧ / ٧٨، الفصول المهمّة: ١ / ٤٩٤، نهج السعادة: ١ / ٣٣٩.

وقد مرّ بنا في مطلع هذا الفصل كيف قرّر أنّه لا يجوز إجبار أحد على أن يعمل ما يكره عمله، ولا أن يُسخّر أحدٌ في عمل. ومرّ معنا في الفصل السابق كيف أنّه لم يستكره بعض الناس على مبايعته بل تركهم على خطئهم ، وهو واثق بأنّهم على خطأ. ولماذا يستكرههم؟ طالما أنّ بقاءهم على خطئهم لا يؤذي الجماعة ولا يسيء إلى الحقوق العامّة ، وطالما أنّهم اختاروا لأنفسهم هذه الطريق راضين عمّا يصيبهم فيه من خير أو شر : **«وأنتم أعلم بالحلال والحرام ، فاستغنوا بما علمتم»**[(١)]. ويقول مخاطباً المغيرة بن شعبة: **«وقد أذنتُ لك أن تكون من أمرك على ما بدا لك»**[(٢)].

من ذلك أيضاً أنّ حبيب بن مسلم الفهري جاءه مرّةً يقول: اعتزلْ أمرَ الناس فيكون أمرهم شورى بينهم. فقال عليّ: **«وما أنت وهذا الأمر ؟ اسكتْ فإنّك لست هناك ولا بأهلٍ له»**. فقام حبيب وقال: «واللهِ لتريَنّي بحيث تكره»[(٣)].

وليس بخافٍ على القارئ ما في هذا القول من التهديد الصريح يتوجّه به أحدهم إلى ابن أبي طالب والزمانُ والناسُ حربٌ عليه. ولكنْ ، ماكان من أمر عليّ؟ هل أمر به وفي يده أن يأمر وقد أطلق في وجهه مثل هذا التهديد؟ أم هل سجنه فمنع عليه أن يكون حرّاً في عدائه وتأليب قومه عليه؟ أم ماذا؟

إنّه لم يفعل شيئاً من هذا، بل نظر إلى صاحب التهديد وقال بلهجة الواثق من عدالته المعترف بحقّ الآخرين في أن يقولوا ويفعلوا: **«ما أنتَ ولو أجلبتَ بخيلك ورجلك! لا أبقى الله عليك إن أبقيتَ عليّ ، إذهبْ فصوّبْ وصعّدْ ما بدا لك!»**[(٤)].

---

(١) البداية والنهاية: ٧ / ٣٦٢.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ٤٩/١ ـ ٥٠، ومنها مواقف الشيعة: ٣ / ٢٩.

(٣) وقعة صفّين، نصر بن مزاحم: ٢٠٠.

(٤) المصدر السابق.

ونضيف إلى ذلك شواهد أُخرى تدلّ على مقدار ماكان يترك من الحريّة الواسعة السمحة لأصحابه وأعدائه على السواء. من هذه الشواهد:

إنّ نفراًكـانوا يـرحـلون مـن الحـجاز والعـراق ويأتـون الشـام ليـلحقوا بمعاوية ، فماكان عليّ ليصدّهم أو يعرض لهم ، وماكان يحاول استبقاءهم أو إغراءهم، فهم في مذهبه أحرار ، يـعملون عـن مـدى تـصوّرهم ويسـلكون سبيلهم إلى ما يريدون. يقول عليّ:

«اللهمّ إني دللتُهم على طريق الرحمة ، وحرصتُ على تـوفيقهم بـالتنبيه والتـذكرة ، ليثيب راجعٌ ويتّعظَ متذكرٌ ، فلم يُطَعْ لي قول، اللهمّ إنّي أُعيد عليهم القول...»[١].

لقد دلّهم هو على طريق الخير وتـركهم أحـراراً لا يـجبر ولا يسـتكرِه. فليستخدموا هذا الحقّ في الحريّة، فمن شاء منهم اهتدى ، ومَن لم يشأ فأمامه طريق الشام رحبةٌ واسعة ، ومعاوية في انتظاره يُعطي فيُكثر العطاء.

ولمّاكتب إليه عاملُه على المدينة : سهل بن حنيف الأنصاري يخبره بأنّ قوماً من أهلها لحقوا بمعاوية ،كتب عليّ إليه يقول:

«أمّا بعد ، فقد بلغني أنّ رجالاً ممّن قِبَلك يـتسلّلون إلى مـعاوية، فـلا تأسـف عـلى مـا يـفوتك مـن عـددهم ، ويـذهب عـنك مـن مَـدَدهم، فـإنّما هـم أهـل دنـيا مـقبلون عليها ومسرعون إليها، وقـد عـرفوا العـدل ورأوه وسـمعوه ووعـوه ، وعـلموا أن النـاس عندنا في الحقّ أُسْوة ، فـهربوا إلى الأثـرة ، فـبُعداً لهـم وسـحقاً! إنـهم ، والله ، لم يـنفروا من جورٍ ، ولم يلحقوا بعدل»[٢].

وشاهدٌ آخر على معرفة عليّ حقّ الناس في الحريّة الواسعة أُسلوبه فـي معاملة الخوارج.

---

(١) المسترشد لمحمد بن جرير الطبري: ٤٠٠.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٧٠ـ٤.

فقد كان يحسن معاملة من أقام منهم معه. ويعرف أن أحدهم يهمّ بالخروج فلا يستكرهه ولا يستبقيه ، ولا يرضى بأن يتعرّض له من أصحابه أحد.

ثم إنه كان يعطيهم نصيبهم من الفيء أُسوةً بسائر الناس ، ويفسح لهم في المجال لأن يتوجهوا حيث يشاؤون. فالحريّة أساس في المعاملة، والناس أحرار في ما يرون من عملٍ وقول ، وموالاة ومعاداة ، إلّا أن يعتدوا على الناس ، ويُفسدوا في الأرض فإنّهم حينذاك غير أحرار. وإنّه حينذاك مقيمٌ ما لزِمَهم من الحدود في غير لين.

وقد أخبره أحدهم مرّة ـ واسمه الخِرّيت بن راشد ـ بأنه لن يأتمّ به ولن يشهد معه الصلاة ولن يأتمر بما يأمر ولن يكون له عليه سلطان. فما كان من عليّ إلّا أن أقَرّه على ما ارتأى وأراد ، وخلّاه حرّاً في ما شاء. ثم كانت أيّامٌ خرج الخِرّيت بن راشد بعدها ومعه أصحابٌ له كثير. فما استكرههم عليّ على البقاء معه ، ولا منعهم من الخروج ، وبيده أن يستكره وأن يمنع. فلمّا أساؤوا استغلال هذه الحريّة فاعتدوا على الناس الأبرياء ونهبوا وعاثوا في الأرض فساداً وتركوا على أنفسهم سبيلاً، أرسل عليّ إليهم مَن أنصف منهم للأرض والناس.

ويهزّك في ابن أبي طالب من اعترافه للناس بحريّتهم أكثرُ من هذا. يهزّك فيه هذا الانسجامُ بين سيرته في الناس وبين إيمانه بأنّ الحريّة أصلٌ إنساني لا يجوز فيه التأويل ، ولا يصحّ عنه الانحراف، فهو معترفٌ بهذا الحقّ في الحرّية لأصحابه حتى في أخطر المواقف عليه: في جهاد القاسطين والفاسقين وأهل الردّة عن الحقّ ، وقد ملأوا الأرض وطلبوا دمه في جملة ما يطلبون. فلمّا كان جهاد هؤلاء أمراً تقضي به كلّ المقاييس والموازين ، ويقضي به الوجدان

الذي يرعى العدالة والحقّ، كان لابدّ لابن أبي طالب من أنصارٍ فـي الحـرب وأعوان، ولكنّه لم يكن ليستكره أحداً من هؤلاء الأنصار على جهادٍ وقتال، ولم يكن يجبر قريباً أو بعيداً بما لديه من حقّ الولاية وبما في يده من قـوّة السلطان ، على أن يثبتوا إلى جانبه في محاربة القاسطين والفاسقين.

لم يكن ليلجأ في ذلك إلى قهرٍ مادّي أو معنوي، فالقهر بمختلف ألوانه ، مُنافٍ لأُصول النظرة العلويّة إلى الحريّة وشروطها. إنّما كان يتوجه إلى عقول القوم بمنطق العقل وما لديه من حجّة وبرهان، ويتوجّه إلى قلوبهم وضمائرهم بمنطق القلب والضمير ، وما لديه مـن قـوّة ودليـل. فـيلحق بـه مَـن يـلحق ويتخلّف عنه من يتخلّف ، فيثيب الأوّليـن بـالرضى والثـناء ، ويـعود عـلى الآخرين بأبلغ الوعظ وأبلغ النّصح وأبلغ التحريض. فمن ظلّ منهم حيث هو ، فإنه حرّ ، فعليّ لا يقبل الإكراه ولا يجيزه، وهو يأبى أن يلحق به أحـد مـن الناس عن غير بصيرة وغير إيمان، لذلك لم يجبر من النـاس أحـداً عـلى أن يلحق به في حرب الجمل وحرب صفّين ، وحرب الخوارج، ولو شاء لجنّد من الناس ملء السهل والجبل.

لقد أدرك علي بن أبي طالب الحريّة بأُصولها ، فأطلق إدراكه هـذا نـصّاً صريحاً، وأقام على هذه الأُصول بناءه الجبّار في الأخلاق الخـاصّة والعـامّة ، وفي علاقات الناس بعضهم ببعض. وعمل بموجباتها مصلحاً ومشترعاً وقائداً وحاكماً وواعظاً. وأعطى على احترامه حقّ الناس في الحريّة الواسعة كلّ يوم دليلاً ، ولكن ضمنَ نطاقٍ يرسمه مفهوم الحريّة نفسه ، وهو : ألّا تسيء حريّة البعض إلى حريّة الجماعة.

الحرّيّة بين الفرد والجماعة

ـ إن إيماننا بالإنسان، وولاءنا للإنسانية هما اللذانِ يثيرانِ في طبيعتنا الخيّرة أعمقَ الدوافع؛ لأن نجعل من البليد المسخّر إنساناً بشريّاً نابهاً.

روسّو

ـ وكذلك موجةُ البحر وزهرةُ القفر وطيرُ السماء، فكلّ ما في الكون حُرٌّ بأُصوله وشروطِ وجوده لا يقبل إلّا بهذه الحريّة قانوناً وإلّا تعطّلَ وانتهى أمرُه.

ـ ولجأ عليٌّ إلى توسيع معاني الحريّة لدى معاصريه، وفي الوقت نفسه لجأ إلى توسيع الشعور بالمسؤولية.

إذاً، فالحريّة مكفولة أصلاً في نهج الإمام ودستوره في الناس، يكفلها الوجدانُ الإنساني بوصفه قوّةً لا تعمل بالإكراه، وتكفلها قوانينُ الطبيعة التي لا يمكن الاعتداء على حركتها الحرّة في قليلٍ أو كثير، ويكفلها العملُ الاجتماعي الصحيح الذي لا يستقيم إلّا بمقدار ما هو خاضع لأُصول الوجدان الإنساني وقوانين الطبيعة الثابتة على حريّتها. فالإنسان إذاً حرّ بأُصوله: يحسّ حرّاً، ويفكّر حرّاً، ويقول حرّاً، ويعمل حرّاً، ولا يجوز إجباره في غير هذه الحدود إلّا إذا جاز إفناؤه.

فأنتَ لا يمكنك أن تقضي على نور الشمس إلّا إذا منعتَه عن غايته في الإنارة وإشاعة الدفء بحاجزٍ تقيمه بين أشعّته وبين غايته، إذاً فقد أخرجتَه إلى نطاق من الإماتة والإفناء.

وأنت لا يمكنك أن تبدّل من مجاري الرياح إلّا إذا صدمتَها في طريقها إلى غايتها بما يثبت لها، إذاً فقد قضيتَ عليها، حيث صدمتَها، بالإماتة والإفناء.

وكذلك موجة البحر وزهرة القفر وطير السماء. فكلّ ما في الكون حرٌّ بأُصوله وشروط وجوده لا يقبل إلّا بهذه الحريّة قانوناً وإلّا تعطّل وانتهى أمره.

هذه الحريّة هي التي أدركها ابن أبي طالب في أعماقه إدراكاً بعيداً، فانطلق لسانه بما أدرك من أمرها في نفسه، وعمل بوحي ما أدرك وما قال، عملاً يبرّره هو، وتبرّره القوانين الطبيعية، وتبرّره غاية الإنسان ومصلحة المجتمع. وقد عرفنا من قوله وعمله هذين الشيء الكثير، وعرفنا كيف سعى في توجيه حركة الأفراد عملاً بشروط هذه الحريّة. وإنّ أمراً أساسياً واحداً يتعلّق بحريّة الإنسان الاجتماعي لم يفتْه، فإذا هو يرعى حريّة الأفراد إلى أقصى حدّ، ضمن نطاقٍ من حريّة الجماعة ومصلحتها وغاية وجودها.

ففيما نرى نفراً من مفكّري اليونان القدماء، ومفكّري أوروبا في العصر الوسيط ينظرون في حريّة الأفراد، دونما اهتمامٍ بمصلحة الجماعة وبالحريّة العامة، فيقودهم تفكيرهم إلى أن يبيحوا خروج الفرد على الجماعة واستئثاره بما هو من حقّهم، وفيما نرى نفراً آخرين من المفكّرين ينظرون في مصلحة الجماعة دونما اهتمامٍ بحريّة الفرد وبما له من حقوق، فيبيحون الضغط على الوجدان والتسخير في العمل، نرى ابن أبي طالب ينظر في حريّة الفرد ومصلحة الجماعة نظرة موحّدة شاملة. فلا يغبن هذا ولا يؤذي تلك، بل يقيم بينهما انسجاماً يجعل الفرد جديراً باستخدام حريّته على أتمّ وجه، ويجعل

الجماعة خليقة[١] بالاستفادة من الاجتماع، بل قل يجعل الفرد للجماعة والجماعة للفرد في نطاقٍ من الحريّة الرحبة السمحة. وسوف نعود إلى مثل هذا الحديث في كلامنا عن شؤون الأرض والمال وطرق الاستغلال.

ولكي يجعل عليّ حريّة الفرد في نطاق من حريّة الجماعة ومصلحة أهلها ، فقد قاده النظر العميق إلى اكتشاف حقيقة اجتماعية أساسية. وهي أن الناس المرتبطين بالمجتمع ، لابدّ لهم من توجيه شعورهم بالحريّة توجيهاً معيّناً لا يحدّ من اُصول هذه الحرية ، بل يمنع استخدامها على اُسلوب بدائي يضرّ بالآخرين.

فحريّة الأفراد لديه ليست الحريّة الإباحية الرعناء، بل هي مقترنة أبداً بالشعور بالمسؤولية. ولكي يجعل هذا الشعور بالمسؤولية أمراً لا يتعارض مع الشعور بالحريّة الواسعة ، لم يلجأ شأنه في ذلك شأن بعض الفلاسفة والمفكّرين الأقدمين إلى التضييق على الناس في معنى الحريّة، بل لجأ إلى وسيلة هي في نظرنا أجلّ الوسائل شأناً وأعظمها قيمةً ، وأدلّها على عمق الأغوار الإنسانية والمفاهيم الاجتماعية في شخصية ابن أبي طالب.

لجأ إلى توسيع معنى الحريّة في مدارك الناس ، وفي الوقت نفسه لجأ إلى توسيع معنى الشعور بالمسؤولية. ومن آياته في هذه الوسيلة الرائعة ما سوف نذكره من أمره مع أهل القرية الذين شاؤوا أن يحفروا مجرى النهر الذي عفا ودرس. فطلبوا إلى عامله على قريتهم أن يسخّرهم في العمل. فأمره عليّ بألّا يسخّرهم ، بل يطلب إليهم أن يعملوا في الحفر ويتقاضوا على ذلك أجراً، ثم أن يكون الأجر والنهر فيما بعد لمن عملوا بملء حريّتهم ، ولمن شعروا بأنّهم

---

(١) خليقة : جديرة ، حَرِيّة. كتاب العين: ١٥١/٤، مادة «خلق».

مسؤولون عمّا عملوه ، وهم أحرارٌ في أن يثابوا خيراً وفي ألّا يثابوا.

وكأني بعليّ يحيا منذ بضعة عشر قرناً هذه العاطفة الكريمة التي صوّرها العبقري الفرنسي جان جاك روسّو منذ قرنين إذ قال: «إن إيمانا بالإنسان وولاءنا للإنسانية هما اللذان يثيران في طبيعتنا الخيّرة أعمق الدوافع لأن نجعل من البليد المسخّر إنساناً بشرياً نابهاً».

لقد تعيّن في دستور عليّ أن الحريّة الحرّة يجب أن تصقل نفسها ، فتتقيد بالشعور بالمسؤولية وهو لا يؤذيها ، بل ينفعها وينفع العمل الفردي والاجتماعي. لذلك لم يجعل المسؤولية بحدودها الشكلية الظاهرة هي المحرّك والباعث على العمل الصالح، بل جعل الحريّة نفسها مسؤولة، وجعل الأحرار أنفسهم مسؤولين، وناط مقدار هذه المسؤولية بمقدار الحريّة. فإذا كانت المسؤولية لا تتبلور في الأفكار الجامدة والقلوب المأسورة والعواطف المكبوتة والشخصيات المحدودة ؛ فلأنها لا تتبلور[1] إلّا في نطاق الحريّة التي تطلق الأفكار والعواطف الشخصية ، وتمدّها بالغذاء النافع المقوّي.

وبهذه النظرة يكون عليّ قد رفع القيود الضيّقة ، والأغلال الثقيلة التي تفرضها السلطات على الناس ؛كي يجنوا لمجتمعهم عملاً كثيراً. فإذا بهم عاجزون عن أن يعملوا لأنّهم غير أحرار. وإذا بهذه المسؤولية في نظرهم لا تنبع من أفكارهم وأحاسيسهم الحرّة الطليقة التي بها وحدها يُجوّد العمل ، بل هي شيء مرتبط بإرادة السلطة وبغمزة عين من الحاكم. وإذا بعزائمهم تثبّط ، ورجولتهم تضعف ، وقواهم تذهب في غير طريقها المستقيم.

بعد أن ترك الإمام الأفراد في مجتمعه السليم أحراراً مخيّرين ، وترك

(١) تتبلور : تتجسّد.

لهذه الحريّة نفسها أن تقودهم إلى الشعور بالمسؤولية ، وإلى التفكير الدائم بأنّهم مرتبطون بمجتمع له عليهم حقوق ، راح يحكم ويضع النظريات على أُصول من هذه الحقيقة ، فيثيب على ضوئها ويعاقب ، ويأمر وينهي ، وفق ما رأيناه ، ثم على ما سنراه بالتفصيل.

* * *

وإننا إذ نكتفي الآن بهذا القدر اليسير من الكلام عن الحريّة ومفاهيمها عند عليّ ، ندعو القارئ إلى انتظار فصولٍ آتية نتحدّث فيها مطوّلاً عن هذه الحريّة ، وذلك في أساس الكلام عن المبادئ الإنسانية بين ثورة عليّ والثورة الفرنسية الكبرى.

ولَسوف يرى القارئ إذ ذاك مقدار ما ترك عليّ في آثاره من أفكارٍ ثورية عميقة ، جديرة بالحياة ، داعية إلى التطوّر. ومقدار ما أدرك من روح الحريّة التي لا يجوز معها إرهابٌ للضمير ولا تخويفٌ للنفس ، والتي لا تعترف من الإنسانية إلّا بوجهها الجميل وخيرها الأصيل.

من أين لك هذا؟

ـ إنّ هذا المال ليس لي وليس لك[1]
ـ لا يَسَعُنا أن نُعطي امرءاً أكثر من حقّه[2]
ـ أتأمروني أن أطلب النصر بالجَوْر في مَن وُلّيتُ عليه؟ والله ما أطورُ به ما أَمَّ نجمٌ في السماء نجما![3]

عليّ

ـ طلحة والزبير: نبايعك على أنَّا شركاء في هذا الأمر.
ـ عليّ: **لا.**
ـ وراح عليّ يَقْشِر المحتكرين من كلّ مالٍ اغتصبوه كما تُقشَر عن العصا لحَاها.

قلنا: إنّ الحريّة بمفاهيمها الواسعة هي مصدر الأصالة في حكومة عليّ وفي سياسته، وإنّها مرتبطة بعلاقات أبناء المجتمع بعضهم ببعض بقدر ما هي مرتبطة بالضمير والوجدان. ثم إنّ الإنسان الصاعد في طريق التعاون والتآخي، لا يمكنه هذا الصعود إنْ لم يكن حرّاً بجانبَيه الذاتيّ والاجتماعي. فليس حرّاً ذاك الذي لا يصفو ضميره من الشوائب التي تحطّ بالقدر الإنساني. وليس حرّاً ذاك الذي يهمله المجتمع عملياً وإن أقرّ بحقوقه، أو ببعضها، إقراراً نظرياً.

في سبيل هذا البناء في الفرد وفي الجماعة وقف عليّ من محبّيه

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٢.
(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٩٨/٢.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ١٢٦ـ١.

ومبُغضيه على السواء موقفَ المصمّم العازم ، لا يقهره مطمعٌ في غير الحقّ ولا يزعزعه عمّا هو عليه وعدٌ أو وعيد. وكان يعلم حقّ العلم أنّ ذاك ثقيلٌ على بعض الناس فيقول: **«إنّ أمرنا صعبٌ مستصعب»**(١). وكان يعلم حقّ العلم أيضاً أن ذاك ثقيلٌ على الوُلاة خاصّةً فيقول: **«والحقّ ثقيلٌ على الوُلاة... وكلّ حقّ ثقيل»**(٢).

ولكنْ سواءٌ عند ابن أبي طالبٍ أثَقُلَ الحقّ على الوُلاة والوجهاء أم خفّ ، فإنّ عقله وضميره جميعاً يأمران وما لغيرهما شأنٌ لديه. وهما يأمران بألّا يُهمَل الظامئون إلى العدل الاجتماعيّ وألّا يهونَ على المشترع والحاكم أمرُهم فيعانوا من الحاجة ما يُذلّهم فيُلصقهم بالأرض ، ويقاسوا من الجوع ما تجفّ به حلوقُهم وتستعر أجوافهم ، ويُحرَقوا بحَرّ الهجير وأجّة الليل(٣) ، أو يقرقفوا(٤) تحت سوط الرياح في زمهرير الشتاء ، وهما يأمران بألّا تُترك خيراتُ الأرض بين أيدي المُتخَمين والمترهّلين الآكلين على شبعٍ ، والشاربين على غير ظمأ ، المتبذّخين بأموال العامّة على غير جهدٍ وغير بَلاء ؛ أولئك الذين أخذوا الدنيا كما يأخذها الفيلُ ؛ إذ يكتفي من دنياه بقرْض عشبٍ لم يزرعه ، وشرْبِ ماءٍ لم يفجّر ينابيعَه ، والاستراحةِ في الظلّ بعدَ استراحةٍ لم يسبقها عناء.

وقد صدق ظنّ ابن أبي طالب في أنّ النافذين والوجهاء من القوم لن يتحمّلوا أسلوبه في الولاية ولن يطيقوا صلابته في الدفاع عن هذا الأسلوب ، على نحو ما أعلن قبل البيعة. فقد أرادوه بعد البيعة أن يكون لهم دون العامّة ،

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٨٩ـ٤ ، غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ٣٥٥٣.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ١٠٧.

(٣) أجّة الليل : الأجّة : التلهب والتوقّد لليل حفيف كحفيف اللهب. لسان العرب: ٢٠٦/٢ ـ ٢٠٧، مادة «أجج».

(٤) يُقرقفوا : يرتعدوا من البرد تقرقف : أصابه البرد وآلمه حتى اصطدمت ثناياه بعضها ببعض اصطكت ثناياه بعضها ببعض. لسان العرب: ٢٨٢/٩، مادة «قرقف».

فأبى أن يكون لغير الحقّ.

جاءه طلحة والزبير يساومانه قائلين: «نبايعك على أنّا شركاؤك في هذا الأمر» فقال غير متردّد: لا. فتفرّقا عنه[١] ، وزحفا عليه بالجيوش ـ على ما سيأتي بيانه ـ وعليّ أعلمُ الناس بما لطلحة والزبير من نفوذ ومكانة. ولكنّه العدل ، ولكنّه ابن أبي طالب الذي يقول لهؤلاء وهؤلاء: **«أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور في من ولّيتُ عليه؟ والله ما أطور ـ آمر ـ به ما سَمَرَ سميرٌ وما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً ألَا إنّ عطاء المال في غير حقّه إسراف وتبذير»**[٢].

إنّ الطعام لا يُقدَّم إلى شبعان ، كما يقول عليّ. والثروة ـ قليلةً كانت أو كثيرة ـ لا تكون مشروعةً في مذهبه إلّا إذا كانت عن غير طريق الاحتكار ، واستغلال العامّة والإفادة من السلطة.

وقد يغتفر عليّ للمجرمين بعضَ ما أجرموا، وللظالمين بعض ما ظلموا. غير أنّه لا يغتفر جريمة الاحتكار ونهب أموال الشعب، ولا يغتفر لطبقة المحتكرين أن يظلموا العامل والكادح والمستضعَف بخبزهم ومائهم. وإنّ الظلم بألوانه جميعاً لعنةٌ على لسان ابن أبي طالب، غير أنّ أفحشه هو ظلم القويّ للضعيف ، والمحتكر للعامّة ، والحاكم للمحكوم. وعليّ لا يتسامح بمثل هذا الظلم الذي يخلق في المجتمع الطبقية الماديّة ، ورذائلها وجرائمها.

والأدلّة التي تقيم الحجّة الصريحة على المستغلّين والغاصبين في أدب عليّ ، كثيرةٌ وافية. فأنّى اتّجهتَ في «نهج البلاغة» تحسّ تلك الحرقة التي تُلهب أقوال عليّ ساعةَ يتحدّث عن الاستغلال والغصْب. ويكاد يتحدّث

(١) نهج السعادة: ٥ / ٢٢٥.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٢٦ـ١.

عنهما في كلّ خطبةٍ له وفي كلّ مقال. وفي أقواله جميعاً ما يدلّ على أنه واثقٌ بأنّ الغصْب جريمةٌ اجتماعية ، والمستغلّ مجرمٌ أيّاً كان، وأنّ جمْع المال من غير طرقه الطبيعية المشروعة إنّما له تَبِعَاتٌ جسامٌ تَلزَم صاحبَها على كلّ حال.

وإليك ما يقوله عليّ في إحدى خطبه وكان يتحدّث عن جامع المال:

«... ويتذكّر أموالاً جَمَعَها وأغمَض في مطالبها ـ أي لم يفرّق بين حلالٍ وحرام ـ وأخذَها من مُصرّحاتها ومشتبَهاتها ، وقد لزمتْه تبعات جمْعها»[1]. أمّا كسب الحلال الذي لا يد فيه لاستغلالٍ أو احتكار ، فيقول عليّ في صاحبه: **«مَن مَات من كسب الحلال مات والله راض عنه»**[2].

لذلك عزم عليّ على أن يدكّ ما ارتفع في العهد السابق من حصون الاحتكار ، واستغلال النفوذ ونهْب الأرزاق وسائر ما شيّده أُولئك الأثرياء الذين يقول في أمثالهم: **«وأمّا الأغنياء من مُترَفةِ الأُمم فتعصّبوا لآثار مواقعِ النّعم»**[3]. فخطب الناس يقول:

«ألا إنّ كل قطيعةٍ أقطعَها عثمان ، وكلّ ما أعطاه من مال الله ، فهو مردود في بيت المال،. فإنّ الحقّ لا يبطله شيء، ولو وجدتُه قد تزوّج به النساء وفرّق في البلدان لرددته. فإنّ العدل في سعة. ومن ضاق عليه الحقّ فالجور ؛ عليه أضيق»[4].

قد يعدل بعض الولاة وأصحاب السلطان فلا يُثيبون على غير جهد ، ولا يبذّرون مال الشعب بإرادة متقرّب أو قريب ، أو باشارة صديقٍ أو حبيب. أمّا أن يعود والٍ إلى من أيسروا في عسر الشعب ، في أيّامٍ لم تكن أيامه ،

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٠٩ـ٢٠.
(٢) لم نقف على المصدر.
(٣) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ ـ ٧٥.
(٤) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٥ ـ ١.

فيحاسبهم ، فيستعيد منهم ما ليس لهم ، فتلك دلالة صريحة على عمق نظرته إلى الأُمور ، وعلى أنّ إيمانه بالعدالة الاجتماعية ليس ما يتيسّر لجميع الناس من الإيمان، بل إنّه موطّد على دعائم من العقل الرجيح الذي لا تفوته خفايا الأُمور ، ولا يطغى عليه عُرْف العصر والناس. فإذاكان للمرء ألا يُثاب إلّا في نطاقٍ من خدمة الجماعة ، فأيّ جهدٍ في سبيل الجماعة بَذَلَهُ الحارث بن الحكم حتّى يستحقّ مائتي ألف درهم تُبذل له من مال الشعب ، يوم عرسه ، إن لم يكن زواجُه ببنت عثمان هو هذا الجهد وهذه الخدمة!؟

وأيّ جهد في سبيل الجماعة قدّمه طلحة والزبير حتى يحصلا على أموال الدولة بغير حساب ، ويقطعا ما لا طَمَعَ ببعضه للملايين من الناس؟ من أين لأحدهما ـ الزبير ـ أن يقتني من الأرقّاء ألف عبدٍ وألفَ أمة؟ أمّا إذاكان لهما فضل السابقة في الإسلام ، فإنّ الفضل في ذلك عند الله ،كما يقول عليّ ، والدنيا معاشٌ والناس في المعاش أُسْوة.

وما هي وجوه الخير التي أطلّت على الشعب مع الولاة من قرابة عثمان وأنصاره كي يوسّع عليهم في الملك والأموال والثروات والأجناد والتحكّم في الرقاب؟ وفي هؤلاء معاوية الراشي والحكم بن العاص وعبد الله بن سعد وغيرهم من الأهل والأنصار.

من أين لمعاوية فلسطين وحمص تُضمّان إلى ولايته ، والأجناد الأربعة تُجمع له قيادتها؟

ومن أين لغيره تلك الثروات والدور والقصور في كلّ بلد وكلّ مصر؟

أجل ، ياهذا! من أين لك هذا؟ كيف حصلتَ على هذه القصور وهذه الأموال وليس في أعمالك ما يثبت على صعيد الخدمة العامّة فيما لو أطلّت

عليك الشمس؟ أمّا إذا مرّ الزمان على احتوائك المال والأرض ، فماذاك بحجّة لأن يظلّ المعوجّ على اعوجاجه ، والحقّ لا يبطله شيء.

إذاً ، فكلّ قطيعة ، وكلّ مال أُعطي بغير حقّ هو مردود في بيت المال، ولو وُجد قد تُزوّج به النساء وفُرّق في أنحاء الأرض. فإنّ العدل ـ وهو في سعة ـ لن يضيق ولن يُحدّ في إطار من هذه الإطارات التي قد يتعلّل بها المستنفعون.

وهنالك أمرٌ جدير بأن يُنظرَ فيه، وهو : أنّ عليّاً كان يحسب اقتطاع الأرض بالقرابة والنفوذ في جملة المال المنهوب؛ ذلك لأنّه يعرف بحكم الواقع أنّ هذه الأرض مصدر ثروة ، ثم علّة تملّك، ثم يرى بسديد عقله أن مقتطعيها من الحكّام والأثرياء والنبلاء لا شكّ أنهم سيسعون في استرقاق العامّة لخدمة هذه الأرض واستخراج خيراتها ، ممّا يجعل الأرض سبباً في تضخّم الثروة لديهم ، فيما يتضاءل الآخرون شيئاً فشيئاً، ثم يعود أصحاب الإقطاعات الكبيرة فيشترون من صغار الملاّكين ما يملكون ، حتى تتألف في الشعب طبقة الإقطاعيين وطبقة المغبونين. يقول عليّ: «**ولا يطمعنّ منك في اعتقاد عقدة** ـ اقتطاع ضيعة ـ **بمن يليها من الناس في شربٍ أو عملٍ مشترك يحملون مؤونته على غيرهم**»(١).

وقد صدقت نظرة الإمام إلى ما يصير إليه أصحابُ الضياع الواسعة من النفوذ والسلطان واسترقاق الناس في سبيلها ، ثم بها يقول الدكتور طه حسين في كتابه «عثمان»: «وُجدت الإقطاعات الكبيرة الضخمة والضياع الواسعة

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ١٢٧.

العريضة من جهة ، وقام فيها العاملون من الرقيق والموالي من جهة أُخرى ، فظهرت في الإسلام طبقة جديدة من الناس هي طبقة البلوتوقراطية التي تمتاز إلى ارستقراطيتها التي تأتيها من المولد ، بكثرة المال وضخامة الثراء وكثرة الأتباع أيضاً»[1].

إنّ المال والأرض ، والخيرات الناجمة عنهما ، ليس لأحدٍ فيها نصيبٌ أكثر من سواه ، في مذهب عليٍّ ، إلّا بجهد وحاجة. ومَن أبى هذه الحقيقةَ فقد خان الشعب **«وأعظمُ الخيانة خيانة الأُمّة»**[2] في نظر الإمام. ومَن خان الأُمة فلا رأيَ له ، ولا شأن لموقفه من الخليفة الجديد. لذلك هو عازمٌ على أن يعمل بما يحفظ لهذه الأُمّة حقوقها. وابن أبي طالب إذا عزم لا يخشى موقف النافذين منه ، ولا قولهم فيه. ولا هو يأبه[3] للحقاهم بأخصامه ومحاربيه. فهو الحقّ الذي يعزم والعدالة التي تنطق. وليس حتى لأصحاب النبيّ والمجاهدين معه فضلٌ بهذه الصحبة وهذا الجهاد على غيرهم من الخلق :

«أيها الناس ، ألَا لا يقولَنّ رجالٌ منكم غداً قد غَمَرَتْهُمُ الدنيا فامتلكوا العقار ، وفجّروا الأنهار ، وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف المرقّقة ، إذا ما منعتُهم ما كانوا يخوضون فيه وأصَرْتُهم إلى حقوقهم التي تعملون : حَرَمَنا ابنُ أبي طالب حقوقنا ، ألَا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فإنّ الفضل غداً عند الله. فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يُقسّم بينكم بالسويّة ، ولا فضل فيه لأحد على أحد»[4].

---

(١) عثمان بن عفان ، للدكتور طه حسين ، طبعة مصر.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٢٦.

(٣) تقدم معناه.

(٤) أمالي الطوسي : ٧٢٩، شرح نهج البلاغة : ٧ / ٣٧، وفيهما وأكثر المصادر: الوصائف الروقة.

إنّ هذا الأُسلوب يلجأ إليه عليٌّ في التسوية بين الناس جميعاً في الحقوق العامّة ، لهو الدافع الأوّل الذي حمل أُولئك الوجهاء على تَرْك ابن أبي طالب والالتحاق بابن أبي سفيان ـ على ما سيأتي بيانه بالتفصيل ـ فإنّ عليّاً لم يكن ليفضّل شريفاً على مشروف ؛ لأن مقاييس الشرف في علمه لم تكن مقاييس زمانه ، ولا يفضّل عربياً على أعجمي لأنّ الإنسان أخو الإنسان في الخلق بضمير عليّ. ولم يكن يصانع أُولئك الرؤساء وزعماء القبائل كما كان يفعل ابنُ هند ، ولا يستميل أحداً إلى نفسه بمال الأُمّة. قال الأشتر النخعيّ لعليّ:

«إنّا قاتلْنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهلِ الكوفة ورأيُ الناس واحدٌ ، وقد اختلفوا بعد ذلك وتعادوا ، وضعفت النيّة وقَلّ العددُ ، وأنت تأخذهم بالعدل وتعمل فيهم بالحقّ ، وتُنصفُ فيهم الوضيعَ من الشريف ، فليس للشريف عندك فضلُ منزلةٍ على الوضيع ، فضجّتْ طائفةٌ ممّن معك من الحقّ إذ عموا به ، واغتمّوا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائعَ معاوية عند أهل الغناء والشرف فباعوا أنفُسهم إليه وأكثرهم يجتوي[1] الحقّ ويشتري الباطل ، فإنْ تبذل المالَ ؛ يملْ إليك أعناق الرجال ، وتصْفُ نصيحتهم لك ، ويُستَخْلَص ودّهم»[2]. فأجابه عليٌّ من فوره:

«أمّا ما ذكرتَ من عملنا وسيرتنا بالعدل فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ مَن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربّك بظلّام للعبيد ﴾ وأنا مِنْ أن أكون مقصّراً فيما ذكرتَ أخوَفُ ، وأمّا ما ذكرتَ من أن الحقّ ثَقُلَ عليهم ففارَقونا لذلك، فقد علمَ الله أنّهم لم يفارقونا من جورٍ ، ولا لجأوا إذ فارقونا إلى عدْلٍ. وأمّا ما ذكرتَ من بذل الأموال واصطناع الرجال

(١) يجتوي: يبغض، أو يكره. المنجد: ١١٢، مادة «جوي».
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢ / ١٩٧.

فإنّه لا يَسَعُنا أن نُؤتيَ امرءاً من المال أكثر من حقّه»[1].

أما موجز دستور عليّ في هذا الوضع ، فقوله في عهده إلى الأشتر : «**إياك والاستئثار بما الناس فيه أُسوة!**»[2] والحقوق العامّة هي ما يتساوى فيه الناس ، وإياها يعني ابنُ أبي طالب**!**

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢ / ١٩٨.

(٢) نهج السعادة للمحمودي: ١٢٠/٥، عيوان الحكم والمواعظ: ١٠٠.

رفـع الحاجـة

ـ وأن تكونوا عندي في الحقّ سواء[1]
ـ ما جاع فقيرٌ إلّا بما مُتّع به غنيّ[2]
ـ مـا رأيتُ نـعمةً مـوفورة إلّا وإلى جـانبها حـقٌّ مضيّع[3]
ـ لكلّ ذي رمقٍ قوتٌ ، ولكل حبّةٍ آكل[4]
ـ ولا تصحّ نصيحتهم إلّا بقلّة استثقال دوَلهم[5]
ـ أشقى الرعاة من شقيتْ به رعيّته[6]

عليّ

هذه الحقوق العامّة يوصي بها عليّ ، ويرعاها ، ويحصر في رعايتها معنى الولاية. ثمّ إنّه على ضوئها يُثبت عاملاً ويعزل آخر. وتتّسع مفاهيم هذه الحقوق عنده وتتشعب، غير أنها تلتقي جميعاً في نطاقٍ حصين: من رفْع الحاجة عن العامّة ومِن ألّا يكون فيهم مَن يجوع فتُهان فيها كرامةُ الجنس الإنساني. ولا بأس أن تُجاز القوانين لرفْع هذه الحاجة ، إذا لم يكن في تطبيق القانون ما يكفي لرفعها. فكما أن العبادة في مذهب عليّ ليس من شأنها أن

---

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٠ ـ ٤ و ٥.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣٢٨.

(٣) دراسات في نهج البلاغة لمحمد مهدي شمس الدين: ٤٠ .

(٤) تحف العقول: ٩٨ ، نهج السعادة: ١ / ٥٩.

(٥) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ٥٨.

(٦) مصنّف ابن أبي شيبة: ٨ / ١٤٧ ،كنز العمّال: ٥ / ٦٩٦ رقم الحديث: ١٤٢٠٩ ، شرح نهج البلاغة: ١٢ / ٩٢.

تجعل الإنسان متنكّراً للحياة العامّة ، وكما أنّ الدين هو المعاملة ، وسلامة العقيدة هي سلامة المسلك، فكذلك لابدّ من أن تُسخّر الأنظمة والقوانين لتيسير الحاجات المادّية للكافّة ، ورفع الحاجة عنها ؛ حتّى لا يهون المرءُ على نفسه ولا تهون عليه دنياه. ورفْع الحاجة عن الشعب واجبٌ على المشترع والحاكم لا منّة، وهو بالنسبة للشعب حقّ لا سؤال، وقد شدّد عليّ في ذلك حتى قلّ أن تجد له كلاماً أو وصيّة أو عهداً إلّا ويملؤه ما قرّره من هذا الحقّ على العمّال والوُلاة.

وكيف لا يكون رفع الحاجة عن الشعب واجباً على المشترع والحاكم في دستور عليّ ، وحقّاً أساسياً من حقوق العامّة ، وهو الذي لا يرى في سيّئات الأكاسرة والقياصرة ، على كثرة ما لهم من سيّئات ، أبرزَ من استهانتهم بالشعب. فإذا بهم يهملون ما له من حقوق في خضرة الأرض ورخيّ العيش ، فيأثمون إذ يعملون على إفقاره فيقول: «**تأمّلوا في حال تشتّتهم وتفرّقهم ، ليالِيَ كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم يحتازونهم**[١] **عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا**»[٢] إلى منابت الشيح[٣] ومهافي الريح[٤] ونكَدِ المعاش فتركوهم عالةً مساكين.

وقد يضطرّ عليّ إلى تهديد هؤلاء الوُلاة بأشدّ العقوبات إذا هم خانوا من مال الشعب شيئاً صغيراً أو كبيراً. وقد يبلغ التوجّع في نفسه مبلغاً عظيماً إذا أدركه أحدهم بأنّ والياً أو عاملاً بات على غضْبٍ أو احتكار. فإذا به يوجّه إليه

(١) يحتازونهم: يقبضونهم. أُنظر مفردات الخطبة في نهج البلاغة.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ ـ ٩٥.

(٣) منابت الشيح: الشيح نبت سهلي من الفصيلة المركّبة ، رائحته طيبة قويّة ، وهو كثير الأنواع ، ترعاه الماشية. المنجد: ٤١٠، مادة «شاح».

(٤) المهافي: المواضع التي تهفو فيها الرياح، أي تهب. أُنظر مفردات الخطبة المرقمة في نهج البلاغة.

قولاً تملؤه عصبيّةُ الحقّ وثورة العدل. بعث إلى بعض عمّاله يقول: «**بلغني أنّك جرّدتَ الأرض فأخذت ما تحت قدميك ، وأكلتَ ما تحت يديك، فارفع إلي حسابك**»[١].

وأوصاه خيراً بقوله: «**فارفع إليّ حسابك**» فوراءه ـ في جملة ما وراءه ـ إيمانُه المطلَق بضرورة الإنصاف ، حتى أنّه لا يرى مكاناً للإطالة والتعليل والإمهال. هذا الإيمان الذي يجمع في ومضةٍ خاطفة الفهمَ العميق لواقع المجتمع المتأرجح بين حقٍّ مهضوم وآخر مطلوب، إلى إدراكِ ما قد ينجم عن ذلك من انهيارٍ خلقي واجتماعي في الغاصب والمغصوب على السواء ، إلى الثقة الكاملة بضرورة إقامة العدل، ولْيقعْ هذا من نفوس الأعوان حيث وقع ، كلّ ذلك على عصبيّةٍ تأبى فتتغضب فتوجز قائلةً: «**فارفع إليّ حسابك**».

وهو إمّا بلغه أنّ عاملاً آخر يأكل ما تحت يديه من أموال العامّة، بعث إليه على عجل يقول: «**فاتّق الله واردُدْ إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنّك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعْذَرَنّ إلى الله فيك**[٢]**. واللهِ لو أنّ الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلتَ ما كانت لهما عندي هوادة ، ولا ظفرا مني بإرادة ، حتى آخذ الحقّ منهما ، وأزيل الباطل عن مظلمتهما**»[٣].

وأرسل عليّ رجلاً يدعى «سعداً» إلى زياد بن أبيه يأمره بأن يحمل إلى بيت المال ما عنده منه. وكان قد بلغه أنّ زياداً يتقلّب في النعيم ، يستأثر به على الضعيف والفقير والأرملة واليتيم. وأنّه يتظاهر بالفضيلة وهو عنها بعيد. فلمّا كان الرسول عند زياد ألحّ عليه ، فتجبّر زياد وتكبّر ونهَرَه. فكتب إليه عليّ يقول:

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٤٠ ـ ٢.
(٢) لأعاقبنّك عقاباً يكون لي عذراً عند الله من فعلتك هذه.
(٣) نهج البلاغة ، الكتاب: ٤١ ـ ١٢.

«إنّ سعداً ذكر لي أنّك شتمته ظالماً وجبهْته(١) تجبّراً وتكبّراً، وقد قال رسول الله ﷺ: «الكبرياء والعظمة لله» فمن تكبّر سخط الله عليه. وأخبرني أنّك مستكثرٌ من الألوان في الطعام، وأنّك تدهّن كلّ يوم، فماذا عليك لو صُمتَ لله أيّاماً وتصدّقت ببعض ما عندك محتسباً، وأكلت طعامك في مرّةٍ مراراً أو أطعمته فقيراً. أتطمع، وأنت متقلّب في النعيم تستأثر فيه على الجار المسكين والضعيف الفقير والأرملة واليتيم، أن يجب لك أجر الصالحين المتصدقين؟ وأخبرَني أنّك تتكلّم كلام الأبرار وتعمل عمل الخاطئين وإن كنت تفعل ذلك فنفسَك ظلمت وعملَك أحبطت... الخ»[٢].

ويواصل عليّ أوامره للولاة بكفّ الأيدي عن الغضب بكافّة ألوانه. ويحارب الرشوة وهو يرى فيها أتفهَ ما يربط الحاكم بالمحكوم من علاقة، وأوهنَ صلةٍ بين الحقّ وصاحبه. ويسمّي الحكّام الذين يقبلونها **«أكلَة الرّشا»**. ثم يُدرك إلى أيّ مدى من الفساد يُقاد المجتمع بالفساد، حتّى إذا بلَغه أنّ أحد أُمراء الأجناد يرتشي خلّع له كتفيه بهذه الهزّة العنيفة: **«أمّا بعد، فإنّما أهلك من كان قبلك أنّهم منعوا الناس الحقّ فاشتروه[٣] وأخذوهم بالباطل فاقتدوه[٤]»**.[٥]

وقد يدعى أحد الولاة إلى وليمة فيمضي إليها، فإذا بعليّ يؤنّبه أشدّ تأنيب، ويوبّخه أعنف توبيخ. أفلإقامةِ حقٍ يريدون أن يرشوه بالدعوة والحقّ يقام بدون رشوة؟ أم لإنزال الباطل منزلةَ الحقّ، وليس للوالي أن يفعل ذلك ولو أُعطي سلطان الأرض؟ ثم، كيف يمضي إلى وليمة يُدعى إليها الثريّ ويُبعَد عنها الفقير والمعْوز؟ وفي ذلك مظهرٌ من مظاهر التفرقة بين الناس،

---

(١) جَبَهْته بالمكروه: استقبلته به. المنجد: ٧٩، مادة «جَبَه».

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري: ٢ / ٨٩٤ نهج السعادة للمحمودي: ١٩٢/٥.

(٣) حجبوا عن الناس حقّهم فاضطر الناس لشراء الحقّ بالرشوة.

(٤) كلّفوهم بإتيان الباطل فأتوه، فصار الباطل قدوة يتبعها الأبناء بعد الآباء.

(٥) نهج البلاغة، الكتاب: ٧٩.

ثم إشعارٌ لهم بهذه التفرقة ، ممّا يجرّح بعض الخواطر ، ويحزّ في قلب عليّ ، أمّا حين يستقيم المجتمع فليُدعَ قوم وليُبعَد آخرون ، فما في ذلك غبن.

وقد يخال البعض أنّ الإمام يغالي في مثل هذه المحاسبة الدقيقة للولاة، غير أنّه حين يدرك أن الإمام قد ركّز هؤلاء الولاة على صعيد مادّي يكفيهم الحاجةَ ولا يجوز من بعده الارتشاء أيّاًكان لونه ، ولا التطلّع إلى المغانم مهما قلّ شأنها ، يعرف عندذاك أنّه على حقّ ولا مغالاة في هذه الدقّة ، وإنّما هي من أعمال العقل الذي ينهج نهجاً صحيحاً له موازين ومقاييس. فيأبى هذه السابقة وإن قلّ خطرها ، فإنّ خطر اللاحقة أشدّ.

ونحدّد زمن السابقة هنا بأيّام عليّ ولا نعود بها إلى أيّام عثمان. لقد بذل عليّ من مال الدولة للولاة ما يقيهم الحاجةَ وما تجرّه من الانزلاق في دَرَك الرشوة ، فلماذا يرتشون؟

ثم إنّ هنالك حقيقة ضمنيّة في هذا الباب يلفت عليّ أنظارَ الولاة إليها ، وهي أنّه لا يبيح للوالي أن يغنم من الناس بالولاية ولو غداءً أو عشاءً ، فإنّ هذا الغنم إذا جاء عن طريق الولايةكان أشبه بالسرقة أو الرشوة. والذي لا يُسمَح له بأن يُرشَى بعشاء فلن يُباح له ـ طبعاً ـ أن يسرق مدينةً ، أو يرتشي بجهد شعب.

وهذه الشدّة التيكان يعامل بها الولاة المسيئين يقابلها تشجيعٌ للمحسن منهم وإثابة. وإليك ما بعث به إلى عمر بن أبي سَلمة عامله على البحرين، حين ولّى مكانه النعمان بن عجلان ودعاه إليه ليصحبه في حملته على معاوية:

«إني قد ولّيتُ النعمان بن عجلان البحرين من غير ذمٍّ لك ولا تهمة في ما تحت يدك. ولعمري لقد أحسنتَ الولاية وأدّيت الأمانة. فأقبلْ إليّ غير ظنين ولا ملوم، فإني أريد المسير إلى ظَلَمَة أهل الشام ، وأحببتُ أن تشهد معي أمرهم، فإنّك ممّن أستظهرُ به على جهاد العدوّ.

جعلنا الله وإيّاك من الذين يهدون بالحقّ وبه يعدلون»[(١)].

إذاً ، فالذين لا يخونون الأُمّة من الولاة ولا يرتشون لهم ما يقيهم الحاجة من المال ، وما يشجّعهم من إحسان أمير المؤمنين إليهم. أمّا الخائنون فعقابهم العتاب ، ثم التوبيخ الشديد ، ثم العزل ، ثم الحبس مع العزل إذا هم أكثروا من الإساءة.

وهنالك غاصبون ومحتكرون ومستغلّون غير الولاة ما يزالون يسعون في الحصول على الثراء العريض. هنالك مجمّعو الأموال وحاصروها ومقتطعو الأراضي والضياع، هؤلاء يحاربهم الإمام حرباً لا هوادة فيها، ويحارب فيهم البطرَ والجشع الباطل وحبّ الاستغلال. ويسعى في أن يحول بينهم وبين الأموال التي يريدون تضخيمها.

أمّا الغصب فقد حرّمه عليّ في كلّ ما قال وفعل وأقام من حدود. وأمّا الاحتكار فقد شدّد في منعه: «**واعلمْ أنّ في كثيرٍ منهم احتكاراً للمنافع وتحكّماً في البياعات ؛ وذلك باب مضرّة للعامّة وعيبٌ على الولاة ، فامنعْ من الاحتكار!**»[(٢)] ثم يقول: «**ومَن قارفَ حُكرَةً**[(٣)] **بعد نهْيك ، فنكّلْ به وعاقبْه في غير إسراف**»[(٤)].

أمّا اقتطاع الأرض والضياع فله فيه رأي هو عقل العاقل وشرف الوالي ، وقد مرّ الكلام عليه. أمّا الاستغلال بألوانه جميعاً فهو شيء من الغصب والاحتكار فالإمام لا يهادن فيه، وله في ذلك أقوالٌ لا تحدّ من «نهج البلاغة» بمكان. لقد قصد الإمام من وراء ذلك إلى تحطيم الوسائل التي تؤدّي إلى

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٤٢، أنساب الأشراف للبلاذري: ٢ / ٨٨٩، طبعة دار الفكر ، بيروت.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ٩٩.

(٣) قارف حُكرةً : الاحتكار عبارة عن سوء المعاشرة ، أو الظلم أو التنقّص. المنجد: ١٤٦، مادة «حَكَرَ».

(٤) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ١٠٠.

تكديس الأموال و تضخيم الثروات،كما تقدم في غير هذا الفصل من الكتاب. هذه الأموال والثروات التي لا تلبث أن تنحصر في فئة خاصة، و تصبح «دُولَةً بين الأغنياء» دون غيرهم من فئات المجتمع.

ولقد كرّه للمجتمع الصالح تضخيم الأموال ، هذا الذي لا يقوم على جهد ولا ينشأ عن كفاءة، ويؤدّي في غايته البعيدة إلى خلق طبقة المترَفين الكسالى المترهَلين، الذين يعيشون على حساب الجماعة الفقيرة. وطبقة أُخرى معْوزة مُعسرة تعمل وتشقى ، ولا أمل لها في طعام وكساء. ثم يؤدّي إلى انهيارٍ لابدّ منه في خلق الفرد وفي خلق الجماعة. فإذا الفقراء ضحايا الأثرياء، وإذا الكادحون ضحايا الخانعين التافهين، وإذا الأخلاق ضحايا الطبقتين، وإذا المجتمع بناء ينهار! يقول الإمام واصفاً بعض أحوال الناس في زمانه:

«فربّ دائبٍ مُضيّع ، وربّ كادحٍ خاسر. وقد أصبحتم في زمنٍ لا يزداد الخير فيه إلّا إدباراً ، والشرّ فيه إلّا إقبالاً ، والشيطان في هلاك الناس إلّا طمعاً. اضربْ بطرفك حيث شئت من الناس: هل تُبصر إلّا فقيراً يكابد فقراً[1] ، أو غنيّاً بدّل نعمة الله كفراً ، أو بخيلاً اتّخذ البخل بحقّ الله وفْراً ؟ أين خيارُكم وصلحاؤكم وأحراركم وسمحاؤكم؟ وأين المتورّعون في مكاسبهم ، والمتنزّهون في مذاهبهم؟»[2].

أجل ، لقد أدرك عليّ بصائبِ فكره وسلامة فطرته وعظيم خُلقه أنّ كلّ نظامٍ لا يستهدف رفْع الحاجة عن عامّة الناس لا قيمة له.

إنّ كلّ قانونٍ تافهٌ ومَقيتٌ ؛ إذا لم يقضِ على التفاوت الباطل بين طبقات المجتمع.

وإنّ السنن الاجتماعية التي تخلق مجتمعاتٍ تكون فيها طبقاتٌ من

---

(١) يكابد فقراً : يعاني ويصارع الفقر والكبد: الشدة والمشقة. مجمع البحرين: ٤/٧، مادة «كبد».

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٩.

الناس، فريسة لطبقةٍ ضئيلة العدد ـ ممّن أسموا أنفسهم «أشرافاً وسادة»، وراحوا ينهبون حقوق الشعب وأمواله وأرزاقه بوقاحةٍ وفجور ـ هي سننٌ وقحةٌ وفاجرة. «**والفجور** ـ كما يقول عليّ ـ **دارُ حصنٍ ذليلٍ لا يمنع أهلَه، ولا يُحرِزُ مَن لجأ إليه**»(١).

ولأنّ الفجور لا يمنع أهله ولا يعصم مَن لجأ إليه، فإنّ المجتمع متفسّخٌ لا محالة عند ذاك: متفسّخٌ في الطبقات التي اغتُصبتْ حقوقُها، ومتفسّخٌ في الطبقة الغاصبة، سواءٌ بسواء.

* * *

بعد ذلك يأتي العمل الإيجابي لرفع الحاجة عن الشعب، وهو يقوم على مرتكزين اثنين.

أوّلهما: إنّ الأموال والأراضي والضياع وجميع مصادر الثروة هي ملك الجماعة، تُوزّع على الأفراد بقدر الاستحقاق والحاجة، بعد أن تتاح الفرصة للعمل لجميع هؤلاء، وليس لأحدٍ أن يتصرف بما تمليه عليه الإرادة الفردية الخالصة دونما نظرٍ إلى المصلحة العامّة. ثم إنّه ليس من مصلحة هذا الفرد بالذات ألا يتعاون مع الجماعة، فهو يعطيها وهي تعطيه، وعطاؤها أكثر، يقول عليّ: «**من يقبض يده عن عشيرته؛ فإنما تُقبضُ منه عنهم يدٌ واحدة، وتقبضُ منهم عنه أيدٍ كثيرة**»(٢).

وعلى الدولة أن تكون القيّمة العادلة على تطبيق هذه السياسة أدقّ ما يمكن من التطبيق. فالشعب جسدٌ واحد وعلى الدولة أن ترعى أعضاءه جميعاً بما تستحقّ، لا إهمال ولا تقصير ولا تفرقة، وهي لذلك تأخذ نسباً من

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٧.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٣ ـ ١١.

الأرباح والرساميل ذاتها: نسباً غير مطلقة التحديد ، بل هي ترتفع وتنخفض بالنسبة للمصلحة العامّة. فإذا اقتضت المحافظةُ على سلامة الجماعة وعلى كرامتها وأسباب معاشها أن يؤخذ من الأرباح والرساميل والأراضي والأملاك نِسَبٌ عظيمة جداًكان ذلك دون تردّد.

وثانيهما: النظر في عمارة الأرض ، فإنّها قوام المعاش والازدهار الاقتصادي. لذلك فإنّ على الولاة والعمّال أن ينظروا في عمارة الأرض فوق ما ينظرون في الحصول على حقّ الدولة المشروع في الخراج. فالخراج نفسه ـ وهو ملك الجماعة في نتيجة كلّ حساب ـ لا يمكن إدراكه إلّا بالعمارة ولا يسعى في تحصيل الضرائب من الجماعة والأرض لا عمارة فيها إلّا والٍ سَفُهَ وطاش وأراد أن يخرب البلاد ويهلك العباد ، ويجعل أمره في الولاية ضئيلاً قليلاً.. والأرض لا تعمر بذاتها، ولا بسفَهِ حاكمٍ أو طيش أمير، ولا بوجود قصور فيها مُتَرَفون مترهّلون أو ذوو ثراء وسخف وكِبْر. وإنّما تعمر بجهد العاملين فيها وبثراء أهلها من كافّة الناس.

ويشدّد عليّ في تحريم أخذ الخراج من الشعب إذا لم يكن الشعب راضياً عن حالته الاقتصادية وعن وُلاته وحكّامه. فأُصول الاجتماع ، والقواعد الإنسانية ، والمقاييس الأخلاقية ، تحتّم جميعاً أن يكون عطاء الشعب للدولة عن يُسْر لا عن عسر ، فلينظر الولاة في تحسين أحوال العامّة ـ إذاً ـ قبل أن ينظروا في الأخذ منهم. يقول عليّ لعماله على الخراج:

«ولا تبيعَنّ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ، ولا رزقاً يأكلونه ، ولا دابّة يعتملون عليها، ولا تضربَنّ أحداً منهم سوطاً لمكان درهم، ولا تُقمْه على رجله في طلب

درهم، ولا تبغْ لأحدٍ منهم عَرَضاً في شيء من الخراج. فإنّما أُمرنا أن نأخذ منهم بالعفو!»(١)

ويقول أيضاً:«**وتفقّد أمر الخراج بما يُصلح أهله، فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلّا بهم**»(٢).

وهذه النظرة إلى أحوال الأرض وتراوحها بين العمارة والخراب ، وترتيب صلاح الدولة على صلاح العامل والفلّاح، هي من الصحّة والدقّة بحيث إن العلوم الاقتصادية والاجتماعية تؤيّدها اليوم ، وقد انقضى على عهد صاحبها قرونٌ طوال.

ولكنْ ،كيف يتاح لهذا الشعب أن يجهد في عمارة الأرض ويفجّر منها الخير، فيأمن الأفراد والجماعات ؟ لقد وضع عليّ لذلك قاعدة عامّة هي من القواعد التي تقرّها العلوم الاجتماعية الحديثة أيضاً.

رأى بعض المفكّرين الأوائل أنّ عمارة الأرض تكون بأن يُستخدَم فيها الأرقّاء والأسرى والمستضعفون غصباً وقسراً، وإنْ هم رحموا فالمأجورون من الناس يُنتجون فينالون بعض الجزاء. أمّا الجزاء الأوفى في شرع أُولئك المفكرين فيذهب لطبقةٍ تملك الأرض وتستغلّها بغير جهد ، هي طبقة أصحاب الجلالة والسموّ و«الشرف» الرفيع والنبلاء والأثرياء ، وأهل الارستقراطية الفارغة والفساد العريض وسائر المترهّلين.

ولطالما سقطت قيمة الإنسان وقيمة العمل في مثل هذه الشرائع، ولَطالما أفاد الحكّامُ وأنصارهم من بؤس الناس وشقاء الكادحين ، اللذين تبررهما شرائعُ الاستعباد ، بل قل شرائع التقتيل الجماعي في التاريخ القديم والحديث. وقدكان من نتائج هذا النمط من التفكير الاجتماعي البدائي أنْ تَساندَ الحكّام

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥١ ـ ٤.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ٧٨.

والكهنة ، وتعاونوا على أن يمصّوا دم الجماعات وروحها باسم الوطن تارة ، وباسم الربّ الذي يعبدون تارة أُخرى. وإليك صورة عن هذا الواقع الذي نرسمه ، نأخذها عن العالم المؤرّخ الانكليزي ولز ، يقول:

كان الكهنة يلقّنون الناس أنّ الأرض التي يزرعونها ، ويدأبون فيها ليست لهم، وإنّما هي للآلهة التي في المعابد، وقد يهبها الآلهة للحكّام ، ويهبها الحكّام لمن يشاؤون من خدَمهم وموظّفيهم.

«واستكشف الرجل العادي شيئاً فشيئاً أنّ الرقعة التي كان يزرعها لم تكن له ، إذكان الربّ مالكها ، وعليه أن يدفع جزءاً من محصوله للربّ، أو أنّ الإله قد وهبها للحاكم ، وللحاكم أنْ يفرض عليها ما يراه من الضرائب، أو أنّ الحاكم قد منحها إلى موظّف هو سيّدٌ للرجل العادي. وكان للربّ أو الحاكم أو للسيّد في بعض الأحيان عملٌ يجب قضاؤه. وكان لِزاماً على الرجل العادي عند ذلك أن يترك رقعته ويشتغل لمولاه. ولم يحدث قطّ أن تحدّد في ذهنه ، ولا أن اتّضح لديه تماماً أمر رقعة الأرض التي كان يزرعها: إلى أيّ حدّ كانت ملكيته لها. إذاً ليس للرجل العادي من الأمر ، ولا من الحياة ، ولا من الأرض شيء»(١).

والتاريخ العربي ، بعد عليّ ، سيقدّم لنا شواهد لا تحصى من استئثار الحكّام بالأرض والأموال والأرزاق ، ومن لجوئهم إلى أُسطورة «الحقّ الإلهي» الذي هو حقّهم يعطون من يشاؤون ، ويحرمون من يشاؤون ، وليس لأحد أن يعارضهم فيما يفعلون ؛ لأن الأرض ملك الربّ وهم ممثّلوه على الأرض ، فهي إذاً ، ملكهم.

---

(١) من هنا نبدأ، لخالد محمد خالد: ٢٦.

أمّا عليّ بن أبي طالب: فتتوضح الأُمور في عقله على صورة رائعة ، لقد أدرك أنّ الأرض ملكُ مَن يعمل فيها ، وأنّها لا يخربها إلاّ عَـوَز أهـلها ، ولا يعمرها إلاّ المفيدون منها. فهم إمّا ذهبتْ أتعابهم إلى حلوق الحكّام ، وبطون المترفين ، وأكياس الولاة وجيوب المحتكرين ، تهاونوا وأهملوا ، وابتأست حالهم ومن حقّهم ذلك، وهم إمّا ذهبتْ أتعابهم إلى أولادهم ، ثم إلى بيت مال الدولة التي تُعنى فعلاً بالمصالح العامّة ، أقبلوا على العمل وثبتوا فيه ، وانتعشت حالهم وانتعشت فيهم الدولة.

إنّ رضا الشعب بهذا الصدد هو في نظر عليّ المقياس الوحيد لصلاح النظام وصلاح الحاكم، أمّا الضغط والقسْر فهما من سقط التدبير. يقول عليّ: **«وإنّ أفضل قرّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد ، وظهور مودّة الرعية ، وإنّه لا تظهر مودّتهم إلّا بسلامة صدورهم ، ولا تصحّ نصيحتهم إلّا بقلّة استثقال دُوَلهم»**(١).

ولتقديس العمل في الأرض وكلّ عمل ، ووضْع الحدود الحصينة دون البطالة ودون التمنّع عن العمل، قرّر عليّ أنّ الأساس في تفضيل الناس بعضهم على بعضٍ هو العمل ، لا الحسب الموروث ولا السيادة المصطنعة،كما قرّر إثابةَ كلٍّ بما يعمل، وشدّد في ذلك حتّى عُرف بانتصاره لمن يعمل ، وخذْله لمن يسأل أو يطلب ولا يعمل عملاً يفيد به ، وتفيد الجماعة. وقصّته مع أخيه عقيل بن أبي طالب قصّة معروفة، إذ جاء يطلب من بيت المال مالاً بغير جهدٍ بذله فردّه خائباً. وليس في نظر عليّ ما هو أبعد عن العدل مِن ألّا يثاب عاملٌ على عمله، ومِن أن يذهب جهد عامل إلى شدق مستثمرٍ(٢) مستغلٍّ ، ومِن أن يضيع على العامل بعضُ عمله مهماكان هذا البعض قليلاً ،

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ٥٨.

(٢) شدق مستثمر : الشدق: جانب الفم ممّا تحت الخدّ. تشدّق: حرّك شِدقيه للمضغ. لسان العرب: ١٧٢/١٠، مادة «شدق».

ومن أنْ يكون في الأعمال المتقنَة ماهو صغيرٌ وكبير.

فربّ عامل «دائب مضيّع ، وكادح خاسر» في زمنه ، وهـو يأبـى ذلك! اسمع هذا القول الخالد ، الذي يبقى في أُصول الدساتير الاجتماعية والإنسانية ما بقي المجتمع والإنسان:

«ثم اعرف لكل امرئٍ منهم ما أبلى ـ أي ما عمل **ـ ولا تُضيعَنّ بلاء امرئ إلى غيره. ولا تقصرنّ به دون غاية بلائه. ولا يدعونّك شرف امرئٍ إلى أنْ تعظّم من بـلائه مـا كـان صغيراً ، ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً»**(١).

فعمارة الأرض ، والمكافأة العادلة على العمل هما الأساس السليم الذي ارتأى عليّ أن يبني عليه مجتمعاً سليماً. جاءه مرةً أهـلُ إقـليم مـن الأقـاليم يقولون له: إنّ في بلادهم نهراً قد طمرت الأيام مجراه فعَفا ، وأنّ في حفْره من جديد خيراً لهم، ورجوه بعد ذلك أن يأمر عامله على إقليمهم بأن يسخّرهم في احتفار هذا النهر الدارس. فماكان من عليّ إلّا أن قبل فكرة احتفار النهر ، غير أنّه أبى عليهم ما ارتضوه لأنفسهم مـن التسـخير. فكـتب إلى عـامله واسـمه قرظَةبن كعب ، يقول:

«أمّا بعد ، فإنّ قوماً من أهل عَمَلك أتوني فذكروا أنّ لهم نهراً قد عفا ودرس ، وأنّهم إن حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم ، وقووا على كلّ خـراجـهم ، وزاد فـيء المسـلمين قِبلهم. وسألوني الكتاب إليك لتأخذهم بعمله وتجمعهم لحفْره والإنفاق عليه، ولستُ أرى أن أجبُر أحداً على عملٍ يكرهه. فادعُهم إليك ، فإن كان الأمر في النهر على ما وصفوا فمَن أحبّ أن يعمل فمُرْه بالعمل. والنهر لمن عمل دون من كَرِهه. ولأنْ يعمروا ويقووا أحبّ إليّ من أن يضعفوا. والسلام»(٢).

---

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ٦١. وفيه: ولا تضيعن.

(٢) نهج السعادة: ٥ / ٣٨٠. أنساب الأشراف: ١٦٢ ، باب: قبسات من كتبه.

فليس التسخير ممّا يجوز في شرع عليّ ، وإن رضيَ الناس أن يُسخّروا. بل العمل هو الشريعة والقاعدة. يقول عليّ: «**وأُمرتم بالعمل**»[1]. أما النهر فلن يكون فيه نصيبٌ إلّا للذين يعملون فيه. ثم إنّ الذين يكرهون العمل لا يجوز إجبارهم عليه، والعمل بالرغبة ـ دون إكراه أو إجبار ـ أمرٌ يشدّد عليه ابن أبي طالب فيكلّ شأن. وهو يشدّد عليه مشيراً تارةً وطوراً مصرّحاً. ومن دستوره في ذلك هذا القول الصريح الذي جعله قاعدةً في ما يتعلّق بالعمل: «**ألا فاعملوا في الرغبة**»[2].

وبهذه النظرة العميقة لأحوال العمل والعامل استطاع عليّ أن يسبق مفكّري الغرب بما ينيف عن ألف عام. ثم إنّه ركّز نظرته هذه على أساسٍ من العدالة لا أرفع منه ولا أعقل. فهو لا يجبر الناس على العمل وإن كان مفيداً. لأنّ فكرة الإجبار بحدّ ذاتها انتقاصٌ من القيمة الإنسانية وإساءةٌ إلى الحريّة الخاصّة ثم إلى العمل نفسه الذي لا تكتمل شروطه بالإكراه. ولكنّه يدفعهم إليه ، من جهة ثانية بأن يجعل خيرات هذا العمل من نصيب العاملين وحدهم: «**والنهر لمن عمل دون من كرهه**»[3] ثم ، أليستْ هذه النظرة هي أحد الأُسس الرئيسية التي تقوم عليها النظريات الاجتماعية الصالحة في القرن العشرين؟

إذاً ، فلكلٍّ أن يعمل ، وليس هنالك صغير ولا كبير إلّا بما يعمل ، ولكلّ من يعمل جزاء عمله. وليس للبطِر الكسول ومن يدّعي الشرف ونبل المحتد[4] أن يذهب إليه شيء من تعب الكادحين مهما كان هذا الشيء قليلاً.

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ١١٤ ـ ١٦.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٨ ـ ٤.

(٣) نهج السعادة: ٥ / ٣٦٠. أنساب الأشراف: ١٦٢ ، باب: قبسات من كتبه.

(٤) المحتد: الأصل، يقال «فلان كريم المحتد» أي الأصل. المنجد: ١١٧، مادة «حَتِدَ».

وإنّ الله ـ إنّ أحبّ أحداً فإنّما ـ «**يحبّ المحترفَ الأمين**»[1] كما يقول عليّ.

وإذا جاء العمل النافع بالملكية ، فإنّ هذه الملكية من حقّ الأفراد بالطبع. غير أنّها لا تكون ـ بجملتها ـ من حقّهم إلّا بمقدار ما ينسجم ذلك مع مصلحة الجماعة. أمّا إذا كانت المصلحة العامّة تقضي بالحدّ من هذه الملكية فهذا ما يجب أن يصار إليه ، لا تردّدَ في ذلك ولا جدال، فإنّ كلّ ملكية لابدّ لها من أن تخدم الجماعة؛ لأن العبرة فيها هي: المنفعة العامّة إلى جانب المنفعة الخاصة! وإذا فُهمت حدود الملكية على هذا النحو كانت سبباً رئيسياً في القضاء على تضخّم المال وعلى خلق الطبقية الاقتصادية في المجتمع.

أمّا إذا كان في المجتمع قوم لا يستطيعون العمل لعجز أو قصور ، كالطفولة اليتيمة أو كالرقة في السن ، فهل يهمل الإمام عليّ حقّ هؤلاء في الحياة الكريمة كما تهملهم المجتمعات العربية اليوم ، مثلاً ؟ أم أنّه ينظر إليه بعين الإنسان العادل ، القائم بأُصول نظرته على المقاييس الإنسانية التي تتبنّاها المجتمعات العادلة الصحيحة؟

إنّ للجماعة على الفرد حقوقاً، وإنّ للفرد على الجماعة مثل هذه الحقوق، والشعب جسم واحد متكافل متعاون ، وكلّ فرد فيه يثاب بما يعمل. وقد «**قسّم الله بين الناس معايشهم**» فليس من حقّ أحد أن يستأثر بمعيشة سواه. أمّا العاجز عن العمل ـ أيّ عمل ـ كالطفل والشيخ ، فعلى الجماعة أن تقوم بحاجاته، عليها إنصافه مثل إنصاف غيره من الناس، وهذا حقّ للفرد على الجماعة ، لا منّة ولا عطف! واجب مركّز ، لا برّ ولا إحسان! أمّا المسؤول المباشر عن إقامة هذا الحقّ ، فالدولة بأشخاص ممثليها. يقول الإمام عليّ: «**فإنّ هؤلاء من بين**

---

(١) بحار الأنوار : ١٠ / ١٠٠. وسائل الشيعة: ١١/١٧ باب ١ من أبواب الدين ح٦.

الرعيّة أحوجُ إلى الإنصاف من غيرهم. وتعهّد أهل اليتم وذوي الرقة في السنّ[١] **ممّن لا حيلة لهم»**[٢]. وإذا لم يكن عليّ ليُطلق على هذا الأصل من أُصول تدبيره الاجتماعي لفظ «الضمان الاجتماعي» أفلا نرى ، نحن وأنّه سبق اُلوف المفكّرين الغربيين إلى إدراك هذه الضرورة الاجتماعية ، وإلى جعل العمل بها واجباً من واجبات الدولة ، لا عطفاً من «جود» المحسنين ، ولا غيثاً من سماء الغيورين ، ولا شَركاً من أشراك المنافقين؟

فإنّ عليّاً الذي يرى أنّ الفقر هو الموت الأكبر ، وأنّ الفقير غريبٌ في بلده ، لا يريد أن يُقطَع الفقرُ والجوع بثمنٍ من المنّة المهينة ، والعطف الكاذب من جهة الحاكم. ولا بثمنٍ من الخضوع والمذلّة والمسكنة من جهة المحكوم، لذلك يقرّر هذه الحقيقة تعظيماً لكرامة الإنسان إذ يقول: **«الجوع خيرٌ من ذلّ الخضوع!»**[٣] فعلى المرء أن ينال حقّه ونفسُه في عافية لأنّ **«شر الفقر فقر النفس»**[٤].

وممّا يدخل في باب رفع الحاجة عن الشعب ذلك الاهتمام العظيم الذي كان يبديه عليّ نفسه بماكان «الأشراف» من العمّال في عهد عثمان لا يقيمون له وزناً، وبما لا تعيره أكثر حكومات العالم العربيّ اليوم التفاتاً ، وذلك لـ «صغر» شأنه من جهة ، ولانشغالهم بما يسمّونه «سياسات عليا» من جهة ثانية.

أمّا هذا الشيء «البسيط» فلم يكن بسيطاً في نظر عليّ ؛ لأنّ عليّاً كان

---

(١) الذين تقدّمت بهم السن فعجزوا عن العمل.
(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ١٠٧.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ١٧٦٩.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ٥٧٢٢.

عظيماً حقاً ، والعظمة والبساطة تلتقيان أبداً ، وأعني به: الاهتمام بأحوال السوق التي يباع فيها المتاعُ والقوت ، وبدراهم العامّة التي يسطو عليها التجّار ، فينهبونها بواسطة الكيل والميزان والسعر. وحين نعلم اليوم أنّ غلاء أسعار الملح ـ وهو شيء لا قيمة له في حساب أكثر الحكّام المشارقة ـ كان في جملة الأسباب الرئيسية التي عجّلت بإيقاد نار الثورة الفرنسية، ندرك قيمة آرائهم في ما هو بسيط وغير بسيط من الأُمور ، كما ندرك قيمة سياستهم «العليا الباردة».

لم يكن عليّ صاحب سياسات «عليا» ، بل صاحب عدْلٍ في الحكم وأمانةٍ في العمل، لذلك كان يغتدي صبيحة كلّ يوم فيطوف بنفسه أسواق الكوفة ، ويتفقد بنفسه أهل كلّ سوقٍ منها ، ويفحص بنفسه أحوال الشارين والبائعين ، ويحمل المخالفين من التجّار قسْراً على أن يكونوا بشراً لا جزّارين، ويقف على رؤوسهم مذكّراً إيّاهم بالعقاب، إن هم احتكروا أو اختلسوا أو بخسوا الناسَ اليسير من حقوقهم ، ثم يناديهم قائلاً:

«يا معشر التجار... الخ».

لقد اقتنع ضمير عليّ واقتنع عقله بأنّ الناس في المعاش اُسْوة، وبأنّ هذه الحقيقة إنّما هي ضرورةٌ من ضرورات الحياة ، وأُسلوبٌ في دفع الفرد في طريق الحريّة ، وعاملٌ على بناء المجتمع بناءً صحيحاً. فإذا هو يجعل المساواة في الحقوق قانوناً، ثم يقرّر على ضوء هذا القانون: أنّ أهل الحاجة أولى من أهل السابقة في الإسلام بالأموال العامّة ، وأنّ الحاجة نفسها تعادل الجهد المبذول ، والعمل النافع في الاستحقاق، فهي على هذا مبرّر للحصول على المال وتملّك الأرض.

وكانت وصايا الإمام لعمّاله على الأمصار تتلاحق، وفيها أوامر مشدّدة

برفع كلّ حجز ، وعدم استيفاء الضرائب من أهل الحاجة، ثم بمساعدة هؤلاء كي تُقبل عليهم الأرض بالخير، فيما كان يأمر باستيفاء هذه الضرائب أضعافاً مضاعفة من الأغنياء ؛كي يثري بيت مال الجماعة؛ تحقيقاً لما يمكن تحقيقه من المساواة بين الناس.

وكم يصغر في نظرنا اليوم في عصر إعلان حقوق الإنسان، أن نرى الكثير من حكومات هذا الشرق السعيد ، الفريد في سعادته، تُثقل أهل الحاجة من الشعب بالضرائب ، تستوفيها من قُوتهم الضروري ، ومن دمهم بالتهديد والوعيد ، والحجز وبيع ما لديهم من ضئيل الممتلكات تحت أعينهم ، وبما إلى ذلك جميعاً من وسائل العصور الفرعونية ، أو القراقوشية ، أو السلطانية؟ مع العلم بأنّ هذه الحكومات لا تعرف شيئاً عن حقيقة هذا الشعب الذي تريد أكله ، ولا تعترف له بحقوق ، ولا تعمل على رفع الحاجة عنه كي يستطيع مكافأتها على «جهودها» المشكورة!

وكم يعظم في نظرنا ابنُ أبي طالب حين يقول لكلٍ من عمّاله، وهو يراقبهم كي لا يقصروا أو يهملوا ، وكان ذلك من بضعة عشر قرناً: **«لا تبيعَنَ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف، ولا رزقاً يأكلونه ، ولا دابّة يعتملون عليها. ولا تضربنّ أحداً منهم سوطاً لمكان درهم، ولا تقمْه على رجله في طلب درهم، ولا تبع لأحدٍ منهم عَرَضاً في شيء من الخراج، فإنّما أُمرنا أن نأخذ منهم بالعفو»؟ «وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج»**[1].

* * *

لقد أدرك الإمام عليّ الحقيقة الكبرى في تكوين المجتمع الطبقيّ ، فصاغها بهذه الكلمات القلائل ، في ذاك العهد البعيد ، بعد أن فصّلها وأوضحها

(١) نهج البلاغة ، من عهده عليه السلام لمالك الأشتر ،كتاب: ٥٣ / ٨٠.

في أكثر من مكانٍ ، من عهوده ووصاياه ، قال: **«ما جاع فقيرٌ إلّا بما مُتّع به غنيّ»**[١].

هذه الحقيقة الكبرى ، التي تقيم عليها الأنظمة العادلة اليوم قواعدَها في العلاقات المادّية بين الناس سبق لابن أبي طالب أن أدركها منذ بضعة عشر قرناً ، وأنْ فصّلها بما يسمح به زمانه من قواعد وأُصول.

حدّثني الكاتب اللبناني الصديق ج.ح. قال:

يوم كنت في أحد البلدان الأوروبية التي تسعى في تحرير الإنسان من العوَز والفاقة وويلاتها ، قلت لوزير معارف ذلك البلد: نحن العرب ، سبقناكم أكثر من ألف عام إلى إدراك حقيقة المجتمع الطبقي، التي تعملون أنتم اليوم على توضيحها. فقال الوزير الأوروبي: وكيف كان ذلك؟ قال: منذ بضعة عشر قرناً قال عليّ بن أبي طالب: **«ما رأيت نعمةً موفورة إلّا وإلى جانبها حقّ مضيّع»**[٢]. فقال الأوروبي: إنّما نحن أفضل منكم ، قال: لِمَ؟ وكيف؟ قال: لأنّ عربيّا منكم اكتشف هذه الحقيقة منذ بضعة عشر قرناً، وأنتم ما تزالون في مظلمةٍ اجتماعية ، فيما طبّقناها نحن قبلكم. فأنتم متأخّرون عنّا بضعة عشر قرناً في هذا المعنى.

وقبل أن أختم هذا الفصل لابدّ من قولٍ أُوجز به كلّ ما تقدم ، ثم أدعو القارئ لأن يقابل بين أحدث النظريات الاجتماعية السليمة ، وأُسُس النظرية الاجتماعية العلوية:

يمكننا تلخيص فلسفة المجتمع عند عليّ بعبارات تِسْعٍ ، يقوم عليها تصويره لأحوال المجتمع من حيث الثراء والفقر ، ومن حيث الطبقية المالية ، ثم يجري عليها دستوره في رفْع الحاجة عن العامّة، والمساواة بين الناس

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم ، رقم: ٣٢٨.

(٢) دراسات في نهج البلاغة ، شمس الدين: ٤٠.

جميعاً في الحقوق والواجبات. أمّا العبارات التسع فهي:

إمنع من الاحتكار.[(١)]

ما جاع فقيرٌ إلّا بما مُتّع به غنيّ[(٢)]**.**

ما رأيت نعمة موفورة إلّا وإلى جانبها حقٌّ مضيّع.[(٣)]

وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج.[(٤)]

لست أرى أن أجبر أحداً على عمل يكرهه.[(٥)]

قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل.[(٦)]

النهر لمن عمل دون من كرهه.[(٧)]

إعرفْ لكلّ امرئٍ منهم ما أبلى ، ولا تضيعنّ بلاء امرئٍ إلى غيره.[(٨)]

إيّاك والاستئثار بما الناس فيه أُسوة.[(٩)]

فإذا أنت أمعنت النظر في هذه العبارات أدركتَ أنّها أُصولٌ عميقة في بناء كلّ مجتمع صحيح، تُحفظ فيه حقوق الإنسان ، وتُرعى فيه الحريّة الإنسانية بأروع معانيها وأوسعها، أُصول تقوم عليها النظريات الاشتراكية الحديثة ولا تخالفها في شيء.

وبعد ،فليبارك القارئ هذا العقل العربي الجبّار !

---

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ٩٩.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم ، رقم: ٣٢٨.

(٣) دراسات في نهج البلاغة ، شمس الدين: ٤٠.

(٤) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ٨٠.

(٥) أنساب الأشراف ، البلاذري ، ص١٦٢ ، باب قبسات من كتبه. نهج السعادة: ٥ / ٣٦٠.

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ ـ ١٣٦.

(٧) نهج السعادة ، ٥ / ٣٦٠.

(٨) نهج البلاغة ،كتاب: ٥٣ ـ ٦١ وفيه: ولا تضيفن.

(٩) نهج البلاغة ،كتاب: ٥٣ ـ ٤٩.

لا تعصّبَ ولا إطلاق

ـ وإذا وُجدتْ رابطة الإخاء الإنساني بصفة الإنسان وحدها، فما في ذلك إثم.
ـ وكيف يغرق هؤلاء من المواضيع الحيَّةِ في مُطْلَقاتٍ لا تجوز حتى في جماد الطبيعة؟ وكيف يتَّخذون من قياسات الوزن والمساحة حدوداً للإنسان الذي لا يُحَدّ، وللحياة المتحرّكة المتطوّرة التي تأسَنُ[1] إمّا حُدِّدتْ بإطلاقٍ ويلزمها الانقباض؟ فإذا هيَ لا حياة وإذا هو لا إنسان.

ويتابع عليّ بن أبي طالب سيره الصاعد في الطريق الرحب، فيقرّر للإنسان على تُخوم حقوقه في المعاش، حقوقاً أُخرى لا يكتمل إلّا بها. ويجوز كلّ نطاقٍ إلى الحدود الإنسانية البعيدة التي لا تقف عند عقيدةٍ معيّنة، ولا تنتهي عند تخوم العنصريّة الضيّقة المؤذية؛ وذلك تأكيداً لكرامة الجنس البشريّ بكافّة عناصره ومقوّماته الماديّة والأخلاقيّة.

يأبى ابنُ أبي طالب أن يفرض على الناس عقيدة معيّنة فيما يتعلّق بالدين أو المذهب، وفي كلّ ما له صلةٌ قريبةٌ أو بعيدة بالوجدان الخالص وحياة الإنسان الداخلية التي تتصوّر وتتلوّن بصوَرٍ وألوانٍ نابعةٍ من الذات، أو حاصلةٍ من ارتباطات الإنسان بالبيئة الخاصّة والعامّة. فهو، وإن كان خليفة النبي وحصن الإسلام وأمير المسلمين، يأبى أشدّ إباء أن يفرض على أحد من النّاس أن يؤمن بما يؤمن به المسلمون ديناً. فالناس أحرار في أن يؤمنوا بالله

---

(١) تأسن: تتغيّر. تارج العروس: ١٢٣/٩.

على ما يرون، وأن يعتقد كلّ منهم على طريقته في الاعتقاد شرط ألّا يلحق ذلك الأذى بالجماعة، والخلق كلّهم عيال الله ، والدين هو المعاملة.

وصفةُ الإنسان كافية في نظر الإمام عليّ، لأن تجعله محترماً محبوباً ، مرفوقاً به ، معطوفاً عليه ، غير مهدور حقّه. يقول في رسالته إلى عامله على مصر : «**ولا تكوننّ عليهم**[1] **سَبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنّهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، ولا تندمنّ على عفوٍ ولا تَبْجَحَن بعقوبة**»[2].

إذاً ، فلكلّ إنسان من الحقّ مثل ما لك وإن اختلف عنك ببعض ما يعتقد ، أو بكلّ ما يعتقد. والدين نفسه ، أليست غايته أن يشدّك إلى الآخرين برابطة الإخاء؟ فإذا وُجدتْ رابطة الإخاء بصفة الإنسان وحدها ، فما في ذلك إثم.

وهو ـ على كلّ حال ـ يريدك ألّا تجعل رأيك في أمرٍ من أُمور الحياة والأحياء مدار الحكم والقياس المطلق، فالحياة واسعة الحدود، والأحياء في هذه السعة دائرون ، فما عليك أن تقيم نفسك الحكَمَ الأوّل والأخير على تصرّفات الخلق وهم لا يلحقون بك الأذى. وما أدراك! فرُبّ أمرٍ تخاله عظيماً وهو في سعة الوجود غير عظيم، وربّ امرئٍ تستصغر شأنه وهو ـ لو عرفتَ ـ أرفع منك شأناً! يقول الإمام نصّاً صريحاً: «**فلا تستصغرنّ عبداً من عبيد الله، فربّما يكون وليّه وأنت لا تعلم**»[3]. فإذا أنت حملتَ هذا القول الحكيم إلى مداه البعيد أدركتَ موقفه الصريح من التعصب والإطلاق.

---

(١) أي على الناس جميعاً.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ٨

(٣) بحار الأنوار : ٩٠ / ٣٦٣. درّ الأخيار : ٤٨٦. ميزان الحكمة: ٣ / ١٨١٨. تفسير نور الثقلين: ٢ / ٣٠٩. حياة الإمام الحسين ، باقر القرشي: ١ / ١٤٦.

صفحاته هذا القولَ عليّ بن أبي طالب:

«ولو ثُنيتْ لي وسادةٌ فجلستُ عليها لحكمتُ في أهل التوراة بتوراتهم ، وفي أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وفي أهل القرآن بقرآنهم ، حتى تركتُ كلّ كتابٍ ينطق من نفسه»[١] لقد صدق عليّ.

ثم اسمعْ ما يأمر أميرُ المسلمين به معْقلَ بن قيس:

«اتّقِ الله يامعقل ما استطعت. لا تبغِ على أهل القبلة[٢] **ولا تظلم أهل الذمّة ، ولا تكبّرْ، فإنّ الله لا يحبّ المتكبرين»**[٣].

أرأيت كيف يحدّد عليّ اتّقاء الله بألّا يظلم الإنسانُ أخاه الإنسان وبألّا يبغي عليه في كثيرٍ أو قليل؟

ثم أرأيت كيف يجعل المسلمين وغير المسلمين في درجة واحدة ، لا تمايُز بينهم ولا تفاضُل؟

ومثل هذه التسوية بين المسلمين وغير المسلمين في حكم عليّ نراها أنّى اتّجهنا معه.

فهو إمّا تحدّث إلى المسلمين عن أحوالهم جَعَلَ رفْع الظلم عن كواهل الناس أُولى ما يجب أن يتحلّوا به من فضائل الإسلام، فقال:

«ولو سلكتم الحقّ... وأضاء لكم الإسلام ، لما ظُلم منكم مسلمٌ ولا معاهَد[٤]**»**[٥].

وهو إمّا عنّف المسلمين لتخاذُلهم عن نصرة الحقّ ورفْع الظلم عن مدينة الأنبار، ساعةَ غزاها سفيان بن عوف الأسدي ونكّل بأهلها ، عَنّفَهم لأنّهم لم

(١) نهج البلاغة الثاني للحائري، الحكمة: ٣٠٧.

(٢) أهل القبلة: المسلمون.

(٣) تاريخ الطبري: ٤ / ٩٤، أحداث سنة ٣٨.

(٤) أهل الذمّة ، أو المعاهدون: الداخلون في ذمّة المسلمين من أهل الكتاب.

(٥) تاريخ الطبري: ٤ / ٩٤، أحداث سنة ٣٨.

يدفعوا الظلم عن إخوانهم وأخواتهم من أبناء المدينة ، لا فرقَ فيهم بين مَن أسلم أو عاهَد ، قائلاً:

«...ولقد بلَغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأُخرى المعاهدة ، فينتزع حِجْلها... الخ، فلو أنّ امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به مَلوماً»(١).

وهو إمّا بعث بعهدٍ إلى محمد بن أبي بكر حين ولّاه مصر بعث إليه يقول:

«أُوصيك بالعدل على أهل الذّمة ، وبإنصاف المظلوم وبالشدّة على الظالم وبالعفو عن الناس والإحسان ما استطعت ، وليكن القريب والبعيد عندك في الحق سواء»(٢).

لقد أمره بالعفو عن جميع الناس ، بعد أن لفت نظره إلى أهل الذمّة تمكيناً لفكرة التسوية بين الناس في ذهنه.

ومن عهده إلى نصارى نجران هذه العبارة: **«.. لا يضامّوا ولا يُظلموا ولا ينقص حقٌّ من حقوقهم»**(٣).

وجعل عليّ ديّة النصراني كديّة المسلم.

وكان هذا الموقف يقفه عليّ من التعصب انبثاقاً طبيعيّاً عن شخصية صاحبه القائل في روح الوجود الشامل:

«ولا يلويه شخصٌ عن شخص ، ولا يُلهيه صوتٌ عن صوت»(٤).

إنّ لكلّ إنسان كرامةً عند عليّ، وإنّ لكلّ صوتٍ سامعاً.

وعلى الرغم من تعصّب أهل الجهل والغباء من أبناء كل دينٍ في العصور الغابرة فإن هذه الحقيقة عن عليّ جعلتْ عارفيه من نصارى العرب في زمانه وبُعيْد زمانه، من أشدّ الناس حبّاً له وتعلّقاً به، وقد أشار ابن أبي الحديد إلى

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٧ ـ ١٣.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٧ ـ ٦.

(٣) الحديث للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وفيه: ولا يغير حق من حقوقهم ، فتوح البلدان: ١ / ٧٧، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٦٦/١ .

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٥ .

ذلك في شرح النهج قال: «وما أقول في رجلٍ ـ يعني عليّاً ـ تحبّه أهل الذمّة على تكذيبهم بالنبوّة.. الخ»(١)..

ولقد بنى عليّ معاملته لغير المسلمين على قوله هذا: **«أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا»**(٢).

وأرادها سُنّةً مِن بعده.

* * *

إذاً ، فالتعصّب الديني مذمومٌ في منطق عليّ، وهو مغاير لأبسط قواعد الحريّة التي يؤمن بها على أوسع نطاق ويقيسها بأرحب المقاييس. وإذا نحن قابلنا بين موقفه هذا ممّن لا يدينون بمعتقده ، وبين رجال «الإيمان» الأوروبيين في العصور الوسطى ، ولا سيّما القائمين على محاكم التفتيش ، ثم بين سماحة السّمْحِ وتشدّدهم المقيت ، لرأيناه يسمو حيث ينحدرون، ولا عجب في ذلك ، فالإيمان عند عليّ كان نابعاً من أُصوله الإنسانية ، ومن نظرته العامّة إلى الحياة والوجود، فيما كان إيمان الكثيرين من أُولئك مظهراً من مظاهر العبودية التي انقلبت فيهم إلى عادة ، لا أصالة إنسانية فيها ولا جمال.

* * *

ونحن ، إذا حاربنا اليوم التعصب الديني أو المذهبي ، وما عاد التعصب الديني بذي شأن على كلّ حال فإنّ بعض الأُمم قد أبدلتْ به تعصّباً أفتك وأخطر : تعصّباً للقوميات أو العنصريات، أو تعصّباً للمذاهب السياسية لا يعفو ولا يعذر ولا يقابل الإنسان بصفح أو سماح، وفي ذلك ما فيه من رعونة وغباء وأثرة مؤذية، فإنّ المتعصّب يعترف لك ضمناً ، بأنّه مالكُ الحقّ ولا حقّ

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، المقدمة: ٢٨ ، طبعة دار إحياء التراث العربي ١٣٨٥هـ .

(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٤٨/١٧، إيضاح الفوائد ، ابن العلاّمة: ١ / ٣٨٩، الجزية وأحكامها ، كلانتري: ١٤، المغني لابن قدامة: ٦٢٣/١٠.

إلّا بين يديه وأنّ نظرته إلى الدنيا هي النظرة بعينها وأنّ رأيه في شؤون الإنسان والحياة مطلقٌ لا يجوز فيه تعديلٌ ولا يعدِلُهُ رأي، فإذا بهؤلاء المتعصبين للعنصريات أو للمذاهب السياسية يغرقون في المطلقات من حيث يعرفون أو لا يعرفون ، والغرق في المطلق فيما يتعلّق بالمذهب والمسلك ، شيء من الجمود ، فالموت. وكيف يغرق هؤلاء من المواضيع الحيّة والجارية من حالٍ إلى حال ، في مطلَقاتٍ لا تجوز حتى في جماد الطبيعة؟ وكيف يتّخذون من قياسات الوزن والمساحة حدوداً للإنسان الذي لا يُحدّ ، وللحياة المتحرّكة المتطوّرة التي تأسَنُ إمّا حُدّدتْ بإطلاقٍ ويلزمها الانقباض ، فإذا هي لا حياة وإذا هو لا إنسان.

وكأنّ هذا التعصّب بكافّة ألوانه من طباع بعض الناس من قديم الزمان. فهذا الإمام الجليل لا يفرَغ من محاربة التعصب الديني ؛ حتى يعود ليحارب التعصّب بسائر أشكاله ومظاهره، وهو يرى في التعصب للقبيلة أو للعنصر بغْياً وإفساداً ثم تشويهاً لوجه الحياة الجميل، ويرى في الفخر بالآباء ضرباً من ضروب هذا التعصّب فيُخزيه، فلنسمعه كيف يخاطب أهل العصبيّة من أبناء زمانه:

«ألَا وقد أمعنتم في البغْي وأفسدتم في الأرض، فاللهَ الله في كبْر الحميّة! وفخر الجاهلية! فإنّه مَلاقِحُ البغضاء ومنافخ الشيطان التي خدع بها الأُممَ الماضية والقرون الخالية».

«ألَا فالحذرَ الحذرَ من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبّروا عن حسَبهم وترفّعوا فوق نسبهم ـ أي احتقروا غيرهم من الناس وتعصّبوا عليهم ـ **وجاحَدوا الله على ما صنع**

فإنّهم قواعدُ أساس العصبيّة ودعائمُ أركان الفتنة»[١].

وبعد أن يجعل التعصّب للقبيلة والعنصر بغياً وإفساداً وتشويهاً لوجه الحياة ، ثم يقرنه إلى الفتنة يعود ليطلق هذا المذهب الحكيم في معنى التعصّب أيّاً كان لونهُ ، مقرّراً قاعدة لا أراها تزداد مع الأيام إلّا رسوخاً حيث يقول:

«ولقد نظرتُ فما وجدتُ أحداً من العالمين يتعصّب لشيءٍ من الأشياء ، إلّا عن علّةٍ تحتمل تمويهَ الجهلاء ، أو حجّةٍ تليط بعقول السفهاء»[٢].

وليرجع الراجعون إلى كلّ ما قيل في معنى التعصب، فإنّهم لن يجدوا في أُصوله أكثر من هذا الأصل المزدوج الذي ذكره ابنُ أبي طالب: فإمّا أنْ يتعصّب المتعصّبون عن جهل ، وإمّا أن يتعصّبوا عن سفاهة ، وكِلا الجهل والسفاهة يحتملان البغيَ والإفسادَ والكبر على الحياة ، وهي ما صوّرها ابنُ أبي طالب في قوليْه السابقين.

وهكذا ، فإنّ كلّ تعصّب مذموم في عقيدة ابن أبي طالب. اللهمّ إنْ لم يكن تعصّباً للفضيلة والعدالة والحقوق العامّة!

اللهم إن لم يكن تعصّباً لإنصاف الطبقات المظلومة من ناهبيها ومحتكري خيراتها!

اللهمّ إن لم يكن تعصّباً للاستقامة والصدق وسلامة الضمير! اللهمّ إن لم يكن تعصّباً للحريّة نفسها ، ولكرامة الجنس الإنساني!

اللهمّ إن لم يكن تعصّباً لإنصاف الخلق من المتعصّبين للأذى! وهذا ما نراه في خطبته المسمّاة بالقاصعة:

«فإنْ كان لابدّ من العصبية ؛ فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال ومحاسن الأُمور والأخلاق الرغيبة والأحلام العظيمة والآثار المحمودة ، والأخذ بالفضل والكفّ عن البغي

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ ـ ٣٠.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ ـ ٧٢.

والإنصاف للخلق واجتناب المفاسد في الأرض»[١].

ومن آياته في الاندفاع مع الطبيعة الخيّرة ، التي تكره التعصّب لفكرةٍ أو لحالةٍ راهنة أيّةً كانت، وصيّته بالخوارج وقد قسطوا عليه وحاربوه ملءَ قواهم قال:

«لا تقاتلوا الخوارج من بعدي. فليس مَن طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»[٢].

ولكي يجعل الإمام في أفهام الناس أنّ التعصّب لا يعني إلّا اعتراف المتعصّب بأنّه لا يخطئ، يأمر بالمشورة ثم يعطي المثل بنفسه فيقول: **«فلا تكفّوا عن مقالةٍ بحقّ ، أو مشورةٍ بعدل، فإني لستُ في نفسي بفَوْقِ أن أخطئ»**[٣].

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ ـ ٧٦.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٦١.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢١٦ ـ ٢٤.

الحربّ والسّلم

ـ هلكَ من ادَّعى ، وخاب من افترى[١].
ـ الغالب بالشرّ مغلوب[٢].
ـ بئس العدوان على العباد[٣].
ـ إنَّ في الصلح أمناً للبلاد[٤].
ـ حُطْ عهدك بالوفاء ، ولا تغدرنَّ بذمَّتك ، ولا تخيسنَّ بعهدك ، ولا تختلنَّ عدوّك ، ولا تقوّينَّ سلطانك بسفك دمٍ حرام[٥].

عليّ

وللإنسان على الإنسان حوقٌ كثيرةٌ فوق هذه، في طليعتها عقْد حبل المودّة والأُلفة بين الناس أفراداً وجماعات ، قبائلَ وشعوباً. الناس الإخوة الذين يجمعهم أصلٌ واحد ، وطريقٌ مشتركة ، وغاياتٌ لا تتباعد.

فإنّ الحريّة ، واليُسر ، والأنظمة الموضوعة ، والأعمال الموروثة ، والمساعي المستحدثة ، وغيرها ممّا يتعلق بالإنسان، أُمورٌ لا معنى لها ولا مبرّر للنظر فيها مع الحرب التي تمحق الإنسان، ومن أجله كانت كلّ تلك الأُمور.

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٦ ـ ٨.
(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣٢٧.
(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢٢١. جاء فيها: بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد.
(٤) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ١٣٣.
(٥) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ١٣٤ و ١٣٦.

وكلّ قولٍ يدّعي خدمة الإنسان ولا يدعو إلى السلم هو قولٌ كاذبٌ وخُلقٌ لئيم.

وكلّ عملٍ يدّعي خدمة الحياة ، ثم يدفع الأحياء إلى الموت تحت سنابك الخيل وشظايا الحديد هو عملٌ منافق وشيء عقيم.

وكلّ نظرٍ في حال الإنسان وحال الحياة لا تتبعه الدعوة إلى المؤاخاة بين البشر الإخوة هو نظرٌ عاجزٌ ورأيٌ سقيم.

فما أعجزَ القول والعمل والنظر ساعة تنقلب الأنهار دماءً ، والرياض صحارى ، ويطلع الشوك في القصور!

وما أعجز القول والعمل والنظر ساعةَ يرتفع الإنسان كالعُصافة في طريق الزوبعة ، ويُطرَح في أشداق حربٍ تأكله أكلاً عظيماً، فإذا هو لا شيء! وإذا جمالات الحياة وأُمنياتها قد أصبحتْ عدَماً وخَواء ، وإذا البوم تهبط إلى خرائب عمرانه فتقرّ فيها وتجد لنفسها محلاً.

وإذا كانت الحرب مَهْلكةً فالسلم وحده مَنجَاة وهو إلى ذلك الغاية الموصلة إلى غايات: هو الحالة التي تمكّن أبناء الإنسانية الواحدة من أن يستخدموا مواهبهم وطاقاتهم جميعاً ، ويتعاونوا في مساعيهم الواحدة ؛ ليبلغوا أمانيهم المشتركة الواحدة ، مرحلةً مرحلة.

وابن أبي طالب الذي تتماسك مذاهبُه في كلّ ميدان تماسُكَ الفروع النامية على أصلٍ واحد، يدرك أن السلم سياجٌ عظيم يشيد حول الإنسان وحول الحياة فيمنع عنهما كلّ شرّ.

يخاطب ابنُ أبي طالب الناس، قائلاً: **«إن الله لم يخلقكم عبثاً»**(١).

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٦٤ ـ ٣ والخطبة: ٨٦ ـ ٤.

«وإنها دارُ حربٍ وسلبٍ ونهب»(١).

والحرب مَتْلَفَةٌ للحقّ بقدر ما هي تغطية للباطل، والسماء والأرض وُجدتا بالحقّ في مذهب عليّ، وبالحقّ يعلو الإنسان ويقوم المجتمع وتسعد الدنيا. أمّا الباطل فهو مجمع المخزيات والرذائل. وإذا كان الأمر كذلك فما هو نصيب الحرب من القيمة في خاتمة كلّ حساب؟ إنها مجمع المخزيات والرذائل **«لأنّها** ـ أي الحرب ـ **إذا أقبلتْ شُبّهتْ»**(٢) أي ارتفع فيها شأن الباطل وانخفض صوت الحقّ. وإذا كان السلم هو الحقّ فإنّ **«مَن تعدّى الحقّ ضاع مذهبه»**(٣).

هذا هو أساس نظرة عليّ إلى الحرب. ولا عجب في ذلك، فهو نظرٌ يلائم إيمانه العميق بالحريّة، ويلائم ثقته بالإنسان، ويلائم احترامه العميق للحياة والأحياء، وما يجب أن ينصبّوا عليه من العمل الخيّر المفيد.

وهو لذلك يكتفي بأن يخاطب أصحابه في بعض الحالات، قائلاً: **«وحسْبُ عدوّكم خروجُهم من الهدى إلى الضلال»**(٤) منعاً من الفتنة، وميلاً إلى السلم.

وهو لذلك يأمر المخطئ المسيء بأن يعتذر عمّا فعل؛ رفعاً لأسباب القتال. ويأمر مَن أُسيءَ إليه بأن يقبل عذر من اعتذر له مهما كان ذنبه عظيماً، قائلاً له: **«إقبلْ عذر من اعتذر إليك!»**(٥) و **«قاتلْ هواك بعقلك، تسلم لك المودّة!»**(٦).

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩١ ـ ١٥.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٩٣ ـ ٦.
(٣) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١ ـ ١٠٣.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٨١ ـ ٢.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، رقم: ٢٤١٠.
(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٤٢٤.

وهو لذلك لا يرى في شيعته صفةً أجدر بالتقدير من نزوعهم إلى السلم وميلهم عن الحرب ، وإلحاحهم في طلب العافية لأنفسهم وللناس جميعاً ، فيقول في ما يجب أن يكونوه: **«شيعتنا إن غضبوا لم يظلِموا ، بركةٌ على مَن جاوروا سِلمٌ لمن خالطوا»**(١).

ولكنّ هذه الحرارة في التنفير من الحرب والدعوة إلى السلم لا تعني الاستسلام والخضوع في حالٍ من الأحوال ، لأنها لا تعني الهروب من المسؤولية وإطلاق العنان للمفسدين. فالحرب ليست كريهةً لذاتها ، بل لِمَا تؤذي وتسيء. والسلم ليس محبّباً لذاته ، بل لِمَا يعطي أهلَه من إمكانات للطمأنينة ، وما يأذن به للناس من الانصراف إلى تحسين المجتمع ، وما يفتح أمام الأحياء من طرق الحياة الرحبة الواسعة.

فقد تنتهي الإساءة في بعض الأنظمة والقوانين إلى أنْ تتجمّد على قهر الضعيف وظلْم السواد الأعظم ، وأن ترغب لنفسها في السلم ؛كي لا تمتدّ إلى جمودها يدُ الحياة فتُذيبها وتُبدل بها جديداً. فهل الخير عندذاك إلّا في القتال سحْقاً لهذا الجمود ومحْقاً لهؤلاء الجامدين؟

وقد تنتهي الإساءة في بعض الأفراد ، أو الطبقات الشبيهة بالأفراد ، إلى أن يريدوا الحياة مغنماً لهم ، والأرضَ مكسباً ، وحياةَ الناس موتاً ، والبشرَ عبيداً أرقّاء ، وأنْ يرغبوا لأنفسهم في السلم ؛كي لا تطالهم يدُ الحقّ فتُلغي وجودهم ، وتمزّق عن الدنيا قناعَها الأسود المقيت. فهل من الخير عندذاك إلّا في القتال تحطيماً لهذه الطبقيّة وركلاً لهؤلاء التافهين؟

فلو كان لكلٍّ من الحرب والسلم قيمةٌ ذاتية مطلقة لكانت الثورات التي

---

(١) بحار الأنوار: ٦٥ / ١٩٠ و ٧٥ / ١٨٠.

مُوزّعون بالجور والظلم لا يعدلون»(١).

«أمّا قولكم: أكلّ ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أُبالي، أدخلتُ على الموت أو خرج الموت إليّ، وأمّا قولكم: أشكّاً في أهل الشام؟ فوالله ما دفعتُ الحرب يوماً إلّا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحبّ إليّ من أن أُقاتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها»(٢).

ثم شَرْطَ ألّا تكون الغاية من هذه الحرب النصر بحدّ ذاته ولا الانتقام ولا التنكيل ولا الأذى ولا الإساءة إلى أسير أو جريح أو مُدْبر أو امرأة أو شيخ أو غلام، بل إعادة الحقّ إلى نصابه ساعةَ يكون أخو الحرب مؤمناً بأنّه على حقّ، وبأنّ خصمه ظالمٌ لابدّ من أنْ يُنصَف منه، فإذا أُدرِكت الغاية بأقلّ نصيب من القتال وجب إيقافه في الحال، فاستنكار سفك الدماء إلّا بالضرورة القاهرة قاعدةٌ أساسية في حروب عليّ، لذلك كان من منطق الغاية التي تهدف إليها الحرب في مذهبه أنْ يبدأ خصمَه الظالم بالنصح: **«وأيم الله، لأنصفنّ للمظلوم ولأنصحنّ للظالم»**(٣).

وكثيراً ما كان يلجأ إلى ترهيب خصمه وتخويفه إذا لم يُجْدِهِ الترغيب في السلم، إذ المهمّ لديه ألّا تُهرَق الدماء حيث يمكن أن تُحقَن. قال في تخويف أهل النهروان:

«فأنا نذيركم أن تُصبحوا صَرعى بأثناء هذا النهر على غير بيّنةٍ من ربّكم، ولا سلطانٍ مبينٍ معكم. وقد كنتُ نهيتُكم عن هذه الحكومة فأبيْتم عليّ إباء المخالفين

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٢٥ ـ ٨.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٥٥ ـ ٢.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ١٣٦ ـ ٢، وفيها وأيم اللهِ لأنصفن المظلوم من ظالمه... الخ.

المـنابذين[1]**، حتى صرفتُ رأيي إلى هواكم. ولم آتِ ـ لا أباً لكم ـ بُجْراً**[2] **ولا أردتُ لكم ضرّاً!»**[3] ثم إليك هذا الدعاء العجيب بنزعته الإنسانية يطلقه إمامٌ يتألّب عليه أخصامه بصفّين، وقد عزم على لقائهم بعد أن فشلت مساعي السلم:

«اللهمّ، ربّ هذه الأرض التي جعلتَها قراراً للأنام، ومَدرَجاً للهوامّ والأنعام، وما لا يحصى ممّا يُرى وممّا لا يُرى، وربّ الجبال الرواسي التي جعلتَها للأرض أوتاداً وللخلق اعتماداً، إن أظهرتَنا على عدوّنا فجنّبنا البغي وسدّدنا بالحقّ، وإن أظهرتَهم علينا فارزقْنا الشهادة واعصمْنا من الفتنة»[4].

وحبّ عليّ للسلم وتعلّقه بأسبابه حتى قبَيل القتال بلحظات، أمران لا يختلف فيهما شاهدان من الأصحاب والعدوّ، وسيرته حافلة بمظاهر هذا الحبّ للسلم وهذه الكراهية للحرب، من ذلك ما جرى يوم موقعة الجمل: فحين اجتمع عليه أخصامه القاسطون وساروا بجندهم إليه أمرَ أصحابه أن يصطفّوا، فقال لهم: **«لا ترموا بسهم، ولا تطعنوا برمح، ولا تضربوا بسيف، واعذروا!»**[5]. ولم يقاتلهم إلّا بعد أن رَموا من أصحابه ثلاثة فصرعوهم، وأشهَدَ على ذلك ربّه ثلاثاً.

ولطالما خرج الإمام إلى الزاحفين لقتاله حاسرَ الرأس أعزلَ من السلاح،

---

(١) نهاهم عن إجابة أهل الشام في طلب التحكيم بقوله: «**إنّهم رفعوا المصاحف ليرجعوا إلى حكمها...الخ**» وقد خالفه أهل النهروان ـ أي الخوارج ـ بقولهم: «دعينا إلى كتاب الله فنحن أحق بالإجابة إليه» بل إنّهم أغلظوا في القول حتّى قال بعضهم: «لئن لم تجبهم إلى كتاب الله أسلمناك لهم وتخلّينا عنك.»

(٢) بُجْراً: شراً. انظر مفردات الخطبة في نهج البلاغة.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٣٦ ـ ٣.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٧١ ـ ٤.

(٥) المستدرك للحاكم: ٣٧١/٣، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٨٢.

وهم موقّرون بالحديد معتصمون به ، يحاورهم بالمودّة ويذكّرهم بالخير ويخاطبهم بما يتحصّنون له بالجحود والمكابرة ، من لهجة القلب المحبّ ومن بيان العاطفة الحنون، حتى لكأنّه وهُمْ أمامه قِطَعٌ من الليل بما اُلبسوا من دروعٍ وتُروس يتقلّد من احترامه العميق للإنسان درعاً ، ومن إيمانه بعدالة مسعاه تُرساً ، ومن ثقته بالضمير الإنساني حصناً ، ومن عطفه على المظلوم ووفائه للحقّ وحبّه للسلام ألف مجنّ. إنّه هو القائل: **«مَن أمنتَ من أذيّته فارغبْ في أُخوّته»**[1] وهو الذي يكره الخصومة أشدّ الكره لأنّ الخصومة والمراء تهدمان أخلاق الفرد ، وتعصفان بشخصية الجماعة بما ينبت عليهما من نفاق: **«إيّاكم والمراء والخصومة، فإنّهما يمرضان القلب وينبت عليهما النفاق!»**[2].

لطالما خرج إلى مقاتليه على هذه الصورة؛ تدليلاً على نفوره من القتال، وعلى ميله الخالص إلى حلّ المشكلات بأُسلوبٍ هو إلى المودّة والإخاء أقرب ؛ وتحقيقاً للقاعدة التي وضعها لمثل هذا الظرف: **«خذ على عدوّك بالفضل فإنّه أحلى الظفرين»**[3]. ثم توكيداً لحقيقةٍ لا يحسّ قيمتها إلّا الإنسان الإنسان. وهي أنّ القتال شرّ ، وأنّ الخير الذي يجنيه الغالب لا قيمة له ؛ لأنّه أتى عن طريق هذا الشر : **«ما خيرُ خيرٍ لا يأتي إلّا بشرّ ، وما قيمة يُسرٍ لا يأتي إلّا بعسر !»**[4] فهو يدرأ [5] هذا الشرّ بكلّ وسيلة. ويطلب اليُسْر لمبادئ الصلاح بغير العُسر ؛ حتّى إذا أبى أعداؤه إلّا قتاله ظلماً ، وإلّا دمَه ودم البقيّة الخيّرة من أعوانه عاد يكرّر عليهم نداءه من جديد. فإذا أصرّوا على الإثم ، وأصبحت الحرب

(١) كنز الفوائد للكراجكي: ١٧٢، بحار الأنوار : ٧١ / ١٦٦، مستدرك البحار : ٦ / ٢٥٦.
(٢) بحار الأنوار: ١٣٩/٢ ، أُصول الكافي: ٢ / ٣٠٠، كتاب الإيمان والكفر.
(٣) نهج البلاغة ، الكتاب: ٣١ ـ ١٠٢.
(٤) نهج البلاغة ، الكتاب: ١٣ ـ ٨٧.
(٥) يدرأ : يدفع. المنجد: ٢٠٩، مادة «درأ».

ضرورة اجتماعية وإنسانية، ترك لهم أن يبدأوه القتال، فإن هم فعلوا حاربَهم. ويا لابن أبي طالب يدخل على الموت إذذاك إن لم يخرجِ الموت إليه، فيزعزع الرجال ويصرع الأبطال.

وإنّه الدفاع الأكرم عن عدالةٍ يريدونها جوراً، وعن كرامةٍ يهدرونها هدراً، وعن حريّة يودّون لوكانت عبودية، وعن إنسان يريده عزيزاً ويأبون إلّا إذلالَه، وبكلّ جوادٍ تحتهم نيْطَ غلّ[1] وقيدٌ ثقيل.

إنّه الدفاع عن ضرورات اجتماعية ومطالب إنسانية، لا يكون القعود دونها إلّا تخاذلاً وكفراً. يقول الإمام عليّ في موضوع قتاله لمعاوية: «**ولقد ضربتُ أنفَ هذا الأمر وعينه، وقلّبت ظهره وبطنه، فلم أرَ لي إلّا القتالَ أو الكفر**»[2].

وإليك كيف يوجز ابنُ أبي طالب الفصل الأوّل من وقعة الجمل:

«**وكان طلحة والزبير أول مَن بايعني، ثم نقضا بيعتي على غير حدَث، وأخرجا أُمّ المؤمنين إلى البصرة، فصرتُ إليهما في المهاجرين والأنصار، فدعوتُهما إلى أن يرجعا إلى ما خرجا منه فأبَيا. فبالغت في الدعاء، وأحسنتُ في البقاء**»[3]. وكان عليّ قد بعث إليهما وهو ببعض الطريق إلى الكوفة بابنه الحسن، وابن عمّه عبد الله بن عباس وعمّار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عبادة، لعلّهما يقطعان الفتنة، فأبَيا. وفي ذلك يقول عليّ:

«**وسرتُ بهم** ـ أي بالمهاجرين والأنصار ـ **حتّى نزلتُ بظهر البصرة، فأعذرتُ في الدعاء وأقلتُ العثرة، وناشدتهم عقد بيعتهم فأبوا إلّا قتالي، فاستعنتُ الله عليهم. فقُتل مَن قتل وولّوا مدبرين. فسألوني ما كنتُ دعوتُهم إليه قبل اللقاء، فقبلتُ العافية ورفعتُ**

---

(١) نيط غلّ: أوثق بوثاق.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٨٥ ـ ١٥.

(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ٨٣/١ وقعة الجمل، للشيخ المفيد: ٢٤٤.

عنهم السيف واستعملتُ عليهم عبد الله بن عباس، وبعثتُ إليهم زُفَرَ بن قيس ، فاسأله عنّا وعنهم»(١).

وهو إذا كُتب له النصر بفضل شجاعته الفائقة وإيمانه العميق ، أدركه من التوجّع ما أدرك المغلوبَ نفسه، فبكى وتألّم، وخلا إلى نفسه كئيباً حزيناً كما لا يكون. وإنّها ، لعمري ، مأساة القلب الكبير يحب أبناءه أشدّ الحب ، ويكره الظلم أشدّ الكره ، فإذا القوم هم أبناؤه الظالمون ، وإذا هو بين العطف على الأبناء والكراهية للظلم في مثل تأجّج النار أو أشدّ سعيراً.

ولم يكن على قلب الإمام ما هو أكرهُ من أن يرى دماً مراقاً، وإذ لم يكن على ثقة بأنّ وُلاته وعمّاله إذا قاتلوا عفّوا عن إراقة الدماء إلّا بحاجة العدالة والحقّ ، أكثر من أوامره إليهم بألّا يسفكوا دماً. أضف إلى ذلك نظرة عبقريّة كان يلقيها ، فتكشف عن الجانب الدوليّ في هذا الموضوع ،كما تكشف عاطفتُه عن الجانب الإنساني الخالص فيه. فسفكُ الدماء يزيل السلطان في نظر الإمام ، ويُفقده معناه ، ولا سيّما إذا كان عمداً، وهو لا يعذُر فيه. بعثَ لأحد عماله يقول: «**ولا تقوّينّ سلطانك بسفك دمٍ حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزيله وينقله. ولا عُذْرَ لك عند الله ولا عندي في قتل العمد**»(٢).

وإنّي لأعرض للقارئ ـ بهذا الصدد ـ أمراً عَجباً: فأيّ إنسان عرف في غير ابن أبي طالب قائدَ جماعةٍ يأمر وُلاتَه بألّا يستعملوا على الجيش إلّا مَن كرِهَ القتل وإلحاقَ الأذى بالناس، ثم عَذَرَ وعفّ. وكان عطوفاً رحيماً طاهر القلب لا يلجأ إلى عنفٍ ولا يقسو. اسمعه ، والله يأمر عامله على مصر بهذا القول: «**وولِّ من جنودك أنقاهم جيباً** ـ أي أطهرهم قلباً ـ **وأفضلهم حلماً: ممّن يبطئ**

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١/١١٠، وقعة الجمل للشيخ المفيد: ٣٩٨، الإرشاد: ١٣٧، والشافي: ٤ / ٣٣٠.
(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ١٤٢.

عن الغضب ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء[١]**، وممّن لا يثيره العنف...الخ»**[٢].

إذاً، فعليّ يحبّ السلم ويأمر به، ويكره الحرب وينهى عنها، ولا يأتيها إلّمْ تأتِهِ هي وتلحّ، بعد أن تسقط في معالجتها المداراةُ بالمودّة والإحسان. وهو إن حارب، سعى في ألّا يكثر صرعى القتال، وعفّ كلما قدر، وطالما قد قدر وطالما عفّ، ثم رثى المغلوبَ والغالبَ في وقتٍ معاً. وهو إمّا تلقّى دعوةً للصلح تأتيه من عدوّه رحّب وحيّا «**فإنّ في الصلح دعةً للجنود وراحةً من الهموم وأمناً للبلاد**»[٣]. وله أوامر كثيرة لقوّاده وعمّاله يوصيهم فيها بأنّ ينهجوا نهجه هذا، إلى جانب وصاياه بألّا يقاتلوا قتالاً أرعن، فيمتشقوا السيف بتلك السهولة التي تَعَوَّدها القوّاد والمحاربون في العصور القديمة. ومن ذلك قوله: «**ولا تحرّكوا بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم!**»[٤] وقوله أيضاً: «**ولا أُعاقب على الظنّة**»[٥] و«**لستُ مُقاتله حتى أدعوه وأُعذِرَ له، فإن ثاب ورجع قبلنا منه، وإن أبى إلّا الاعتزام على حربنا، استعنّا اللهَ عليه وناجزْناه**»[٦]. وسوف نتحدّث بالتفصيل عن مواقف ابن أبي طالب من أخصامه المعتدين عليه.

* * *

وللإنسان على الإنسان حقّ الوفاء بالعهد؛ تدعيماً لأركان السلم بين الأفراد والجماعات، ومكرهةً للحرب، ولا فرق أن يكون العهد بين أبناء

---

(١) ينبو على الأقوياء: يشتدّ ويعلو عليهم ليكفّوا أيديهم عن الضعفاء.
(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣ ـ ٥٠.
(٣) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣ ـ ١٣٢.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٠ ـ ١٧.
(٥) الغارات: ٣٧١، بحار الأنوار: ٣٣ / ٤١٧. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣ / ١٤٨.
(٦) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ٣ / ١٤٨، نهج السعادة: ٢ / ٤٨٤.

المذهب الواحد ، أو المذاهب المختلفة. ولا أن يكون بين أبناء القوم الواحد ، وبين قوم وآخرين. ولا أن يكون بين مسالمٍ ومسالم أو محارب. ولا بين صديق وصديق أو عدوّ.

لا مذهب ولا قومية ولا حالة سلم أو حرب تحول دون الوفاء بالعهد في خاطر ابن أبي طالب وفي حكمه؛ ذلك لأنّ الوفاء بالعهد تدعيم لأركان السلم كما تقدّم ، وفي السلم أمنُ البلاد وراحة الناس، ولأنّه خدمة للمجتمع المرتبط بقوانين وذمم. ثم إنّه غذاء للضمير الإنساني الذي يسعى الإمام في الارتفاع به ما أمكن الارتفاع، وهو بذلك كلّه سبب في التقارب والتوادّ بين الأفراد والجماعات والقبائل والشعوب المختلفة، وهو في كلّ أحواله مظهرٌ من مظاهر الصدق واحترام الشخصية الإنسانية في ذاتِ مَن أعطى العهد ومن أعطي له سواء بسواء. ثم إنّ الوفاء بالعهد يرافقه أبداً الاطمئنان من الجانبين، وإذا اطمأنّ الجانبان كان لكلّ منهما أن يعمل بوحي الحريّة التي يستشعرها، فيتمكّن من ممارستها في حدود هذا الاطمئنان، لذلك كان الوفاء بالعهد من دستور ابن أبي طالب في الخلافة والولاية، ففرض على كلّ من أعطى عهداً أو ذمّة أن يصونهما بجسده وروحه فيهلك ، أو يفي بهما.

ويتألّم ابن أبي طالب من النكث بالعهد بمقدار ما يتألّم من الكذب. يقول في خطبة له: «**إنّ الوفاء توأمُ الصدق ، ولا أعلم جُنّة ـ وقاية ـ أوقى منه. ولا يغدر من علم كيف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان قد اتّخذ أكثر أهله الغدر كَيساً، ونسبَهم أهلُ الجهل فيه إلى حسن الحيلة. ما لهم؟ قاتلهم الله! قد يرى الحُوّلُ القُلّبُ وجه الحيلة ودونه مانعٌ من أمر الله ونهيه ، فيدعها رأيَ عينٍ بعد القدرة عليها ،**

وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين[١]»[٢].

ويقول في رسالة منه إلى عامله على مصر : «**وإن عقدت بينك وبين عـدوّك عقدة** ـ أي ميثاقاً ـ **أو ألبسته منك ذمّة ؛ فحُطْ عـهدك بـالوفاء ، وارعَ ذمّـتك بـالأمانة ، واجعل نفسك جنّة دون ما أعطيت** ـ أي حافظ على ما أعطيت من عهدك بروحك ـ **ولا تغدرن بذمّتك ، ولا تخيسنّ بعهدك ، ولا تختلنّ عدوّك** ـ أي لا تخدعَ عدوّك ـ »[٣].

ثم إنّه لا يكتفي بهذه التوصية الصريحة بألّا يخدع الإنسان حتّى عـدوّه ومقاتله، بل يشدّد على من تحدّثه نفسه من الوُلاة بأن يـعطي عـهداً مـبهماً يتحمّل التأويل والتفسير على غير المراد، لمخادعة من أُعطيَ له هذا العهد ، وللتملّص من الميثاق رغبةً في نقضه وعدم التزامه ، أو في الجور ومـا إليـه. يشدّد الإمام على مثل هؤلاء فيقول: «**ولا تعقدْ عقداً تجوز فيه العلل ، ولا تعوّلنّ على لحنِ قولٍ بعد التأكيد والتوثقة**[٤]»[٥].

ولم يكن ابنُ أبي طالب ليرى رأياً أو يأمر بتنفيذِ مذهبٍ من مذاهبه إلّا بعد أن يعيشَ هذا الرأيَ بكلّ كيانه ، وينفّذ هذا المذهب في كلّ أحواله جرْياً على عادته في ذلك. فإذا كان الوفاء بالعهد من آرائه ومن مذاهبه فـإنّ عـقبةً واحدةً لم تكن لتحول بينه وبين هـذا الوفـاء، مـهما صَـعُبَ أمـرُها وتـعسّر

---

(١) كيساً: عقلاً ، وأهل ذلك الزمان يعدّون الغدر من العقل وحسن الحيلة ، كأنّهم أهل السياسة من بني زماننا. والإمام علي يعجب من زعمهم ويقول: **ما لهم؟ قاتلهم الله!** ـ يزعمون ذلك ، مع أن البصير بتحويل الأُمور وتقليبها ـ **قد يرى وجه الحيلة في بلوغ مراده، لكنه يجد دون الأخذ به مانعاً من أمر الله ونهيه**... الخ.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٤١ ـ ١.

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ١٣٣ و ١٣٤.

(٤) العلل: جمع علّة وهي ، في النقد والكلام ، بمعنى ما يصرفه عن وجهه ويـحوّله إلى غـير المـراد ، وذلك يطرأ على الكلام عند إبهامه وعدم صراحته. لحن القول: ما يقبل التوجيه كالتورية والتعريض. يـقول: إذا رأيت ثقلاً من التزام العهد ؛ فلا تركن إلى لحن القول لتتملّص منه ، بل خذ بأصرح الوجوه لك وعليك!

(٥) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ١٣٨.

اجتيازُها. من ذلك ما جرى له في وقعة صفّين على أثر خدعة التحكيم المشهورة، فإنّ أمر هذه الخدعة ماكاد ينكشف للناس جميعاً، حتّى قام محمدبن جريش إلى عليّ وقال له: «يا أميرَ المؤمنين! أمَا إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل؟ فواللهِ إني لأخاف أن يورث ذلاً» مشيراً بذلك إلى الكتاب ـ أو العهد بالتحكيم ـ الذي وقّعَه عليّ، على أنْ لا يكون في الأمر خدعة. فقال عليّ: **«أبَعْدَ أن كتبناه ننقضه؟ إن هذا لا يحلّ»**[١].

ثم إنّ عليّاً هو القائل: **«واعتصموا بالذمم!»**[٢] و**«ذمّتي بما أقول رهينة!»**[٣].

* * *

وهكذا يبدو لنا أن دعوة عليّ إلى السلم إنما هي في نتيجتها البعيدة تعبيرٌ عن كلّ ماكان يطلبه للناس من عدل ومساواة وحريّة، بل تعبيرٌ عمّاكان يضمره في نفسه، ويعلنه في دستوره، من العمل الشامل في سبيل الإنسان: العمل الذي يريد أن يستوعب كلّ ميدانٍ تخصب فيه الإنسانية وتنمو.

وإنّ عليّاً، بدعوته الحارّة إلى الأُلفة بين أبناء البشر الأشقّاء، ليستوي وسائر آباء الإنسانية القُدامى، فما أشبه دعوته بهذه العاطفة الكريمة التي يعبّر عنها محمّدٌ بقوله: **«كونوا عبّادَ الله إخواناً»!**[٤] ثم بهذه الفكرة العظيمة التي يطلقها النبيّ أيضاً ساعةَ يسأله أحدُهم: «ما أفضل الأعمال؟» فيجيب قائلاً: **«أفضل الأعمال بذْلُ السلام للعالم!»**[٥].

وما أشبه صوت عليّ بغايته ومُحتواه، بصوت أشعيا! إذ يتصوّر ما يمكن

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١ / ١٩٣، وقعة صفّين، لنصر بن مزاحم: ٥١٩ وفيه: محرز بن جريش ابن ضليع.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٥٥.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ١٦ ـ ١.

(٤) مسند أحمد: ٢ / ٢٨٨، شرح صحيح مسلم للنووي: ١٦ / ١١٦.

(٥) مجمع الزوائد: ٨ / ٢٩، وفيه: من موجبات المغفرة بذل السلام.

أنْ تؤول إليه أحوال الناس حين يتصافون، وإذ يؤكّد أنّ تصوّره لا محالةَ محقّقٌ في غدٍ قريبٍ أو بعيد ، فيقول هذا القول العظيم:

«يقال للأسرى: أخرُجوا ، وللذين في الظلمة ابرزُوا، فيرعون في الطرق ويكون مرعاهم في كلّ الروابي»[(١)].

«ويُجعَل في البريّة طريقٌ ، وفي القفر أنهارٌ ، وفي الأرض القاحلة مخارج مياه»[(٢)].

«ويبني الناسُ بيوتاً يسكنون فيها ويغرسون كروماً ويأكلون ثمرها. لا يبنون ويسكن آخرُ ولا يغرسون ويأكل آخر»[(٣)].

«يطبعون سيوفهم سككاً ورماحَهم مناجل. يسكن الذئبُ مع الخروف ويربض النمر مع الماعز. لا ترفع أُمّةٌ على أُمّةٍ سيفاً ولا يتعلّمون الحرب فيما بعد»[(٤)].

---

(١) و (٢) سفر أشعيا ، الإصحاح الحادي عشر ، وفيه: فيسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجدي ، والشبل والمسمّن معاً ، وصبي صغير يسوقها ، والبقرة والدّبة ترعيان.

(٣) و (٤) سفر أشعيا ، الإصحاح الحادي عشر ، وفيه: فيسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجدي ، والشبل والمسمّن معاً ، وصبي صغير يسوقها ، والبقرة والدّبة ترعيان.

لا ظالم ولا مظلوم

ـ الذليل عندي عزيزٌ حتّى آخذ الحقّ له ، والعزيز عندي ذليلٌ حتى آخذ الحقّ منه(١).

عليّ

ـ بقَدَر ما يحبّ الإنسانُ الجمالَ يكره القبح. وعلى مقدار ما يطلب العدل ينفر من الجَور. وَحسْبما يتوهّج إلى دفء الوجود تهولُه برودةُ العدَم. وهو لا تحمله قدَماه في وعورة الأرض عبْرَ الكهوفِ والأودية وصخور الجبال ، إلّا إلى ديار المودّة! أمّا الذي لا يكره: فهْوَالذي لا يُحبّ!

وتتصل حلقات السيرة العلويّة في القضايا العامّة اتّصالاً مُحْكماً كريماً. وتتداخل مواهب عليّ في الادارة والولاية والقيادة والأخلاق العظيمة ، تداخلاً تتألّف منه الشخصية العلويّة الفذّة في وحدةٍ متلازمة العناصر ، فإذا ثورته على الاحتكار والاستغلال هي في الوقت ، ذاته ثورةٌ على الظلم والظالمين. وإذا نقمته على الأثرياء والأقوياء المستثمرين ثراءهم وقوّتهم بما يؤذي الجماعة ، وعلى الأغبياء المتعالين، هي في حدّ ذاتها نقمةٌ على الاستبداد بكافّة أشكاله. وإذا نزوعه العميق إلى رعاية المستضعَفين بالعدل وقد وُلدوا بشراً ؛ لا يهونون إلّا في مجتمعٍ مغلوط ، وإلى تحرير المستعبدين ،

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٣٧ ـ ٣.

وقد خُلقوا أحراراً لا يذلّون إلّا وقد ذلّت الكرامة الإنسانية بالذات، هي في الحين نفسه نقمةٌ على من أهان وأذلّ.

وإذا كان في ما رأيناه حتى الآن من انتصار الإمام لأهل الحاجة ، انتصارٌ للمظلوم ، وإذا كان في ما رأيناه حتّى الآن من سخط الإمام على خصوم الإنسانية والمجتمع والعاملين في غير هدْي الضمير ، سخطٌ على الظالم، فما ذاك بسببٍ يكفينا عناء الكلام على موقف ابن أبي طالب من الظلم والظالمين نصّاً منطوقاً. ففي الظلم نصّاً ، ما هو أشمل من الاحتكار والاستغلال والاستهتار بالكرامات، وما هو أبعد في الإشارة إلى هذه النقائص ، إلى ما بدا منها وما اختفى. والظلم على كل حال ، لفظٌ لا تجدُ للإمام قولاً في خطبةٍ أو وصيّةٍ أو عهدٍ إلّا وهو فيه. وإلّا وثورته تنصبّ على روحه ومعناه. وإلّا ولسانه وبيانه يصيبانه بكلّ لعنة، لذلك وجب إفراد فصلٍ يبحث في موقف عليّ من الظلم والظالمين ، والطغاة العتاة المفسدين الذين ما أهمل ابن أبي طالب قتالهم فيوجدانهم وعلى لسانه ، وبدستوره وذي فقاره ؛ صيانةً للعامّة من غصب الغاصبين ومظالم العابثين.

أمّا قتال الظلم فقدكان في تاريخ الإنسان منذكان الإنسان، ولكنْ على وجوهٍ وأشكال ، وكثرَ حملَةُ أعباء هذا القتال في عهود الفئات المستأسدة الطاغيةكثرةً، تشرّف تاريخ الإنسانية بقدر ما ينحطّ به ظلمُ الغاشمين. وظلّ هؤلاء المقاتلون يتناوبون ويتعاونون ويتوارثون روح القتال. ومن عظماء الإنسانية مَنكانت أيّامهم حلقاتٍ متواصلة من الصراع. فما تاريخ المسيح إلّا ثورة على المستعمرين الرومان ، والمستعمرين الداخليين من الملوك والارستقراطيين ، وعبيد الوثنية الاجتماعية ، وما تاريخ محمد إلّا استمرارٌ لتاريخ المسيح في ثورة تعصف عصفاً ولا تنقلب نسيماً نديّاً إلّا إذا نال

المظلومون ما تريده لهم من حال.

وما يقال في المسيح ومحمد يقال في سقراط وغاليليو وفولتير وتولستوي وبوشكين وبتهوفن وغوركي وروسو وجورج برنارد شو وغاندي، ومَن إليهم من أعلام التاريخ الإنساني. وكما يتحوّل الظلم في النفوس والأجسام إلى مادّة من مادّتها ، فإذا هو شيء من أشيائها يسهل إتيانُه كما يسهل المشربُ والمطعم والملبس والتنفّس، على نحو ما نرى في حياة نيرون وجانكيزخان وأجلاف المماليك وباشوات بني عثمان ، ورجال ديوان التفتيش أو المحكمة «المقدّسة» في أوروبا بالعصور المتوسطة ، وفي حياة الأباطرة والأكاسرة والفراعنة والسلاطين التافهين ، وفي سيرة الحجّاج بن يوسف وزياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد ومسلم بن عقبة ومَن إليهم، فكذلك يتحوّل مقْت الظلم في نفوس الآخرين وفي أجسامهم إلى مادّةٍ من مادّتها، فإذا هو شيء من أشيائها يعيش بها مع النبض والخفوق.

بهذا أستطيع أن أُعلّل ثبوت الأوّلين على المظالم بما فيها من فظائع وشنائع ثبوتاً لا يتطلب أي جهد، ولا يبتغي في معظم الحالات أيّة غاية كبيرة أو صغيرة أبعدَ من صدور الأشياء عن مصادرها ؛ حتى لَينادي أحدَهم الحجّاجُ بن يوسف حَرَسيّه ، وهو على مائدة الطعام في رهْطٍ من أصحابه ، قائلاً له: «يا حرسيّ ، اضرب عنقه» مشيراً إلى عجوز مسكين يقف مرتجفاً بين يديه ولم يرتكب إثماً كثيراً أو قليلاً، ثم يتابع طعامه كأنّ أمراً لم يكن. يفعل ذلك بنفس البساطة التي ينادي بها غلامَه قائلاً له: يا غلام ، هات لنا ماءً مبرّداً! وحتّى ليحرق نيرون روما وهو يشرب الكأس ويصغي إلى الشعر والعزْف والغناء!

وبهذا أستطيع أن أُعلّل أيضاً ثبوت الآخرين على مصارعة الظلم

والاستبداد ثبوتاً لا يكونون إلّا به ؛ حتّى ليشرب سقراط السمّ كما يشرب الدواء إذا كان شربُه نهايةً محتومة لهذا الثبوت؛ وحتّى ليحارب فولتير أكبر رأس في أوروبا بزمانه ، وكأنّه مدفوع إلى ذلك كما يُدفَع الظمآن إلى الماء والجوعانُ إلى الخبز، وحتّى ليَقف أصحابُ الحسين بن عليّ بين يديه ويقولوا له ، وقد تألّبتْ عليه الدولةُ الأُموية فهو منفردٌ وحيد: نموت معك!

هذه الطائفة العظيمة من أبناء البشر يأتي ابنُ أبي طالب في طليعتها. لقد جاء ،كما يقول: ليقيم حقّاً ويزهق باطلاً. فحدودُه في الدولة هي هذه الحدود. ولكنْ ما أبعدَ أطراف الدنيا القائمة ضمن هذه الحدود، والظالمون في زمانه أعظم عدداً وأشدّ بأساً!

لا ظالم ولا مظلوم!

هذه هي إرادة ابن أبي طالب، وهذا ما يأباه زمانه ، ويتخلّف عن مسايرته في هذه الإرادة حتّى المظلومون أنفسهم لخوفٍ قديم ألَّم بهم، فباتوا يخشون معاندة ظالميهم، أو لجهلٍ حُملوا به على قبول الرشوة إلّا مَن خلق ربّك من كبار القلوب.

ولكنْ ، هل يضعف عليّ والناس متألّبون عليه سائرون إليه في ركاب النافذين؟ هل يضعف الفارس الغريب الكئيب في أرض الآلام يقيم بها بين السباع الضواري وفي أبناء آدم وحوّاء كراهيةٌ للموت؟ لا شكّ .

هل يضعف و«الظالم يزداد عتوّاً» والنافذون «يعملون في الشبهات» ويتاجرون بضمائرهم فيدفعونها ثمناً للمغانم ينتهزونها ، وللمنابر يَفرعونها ، والبلاد نهبةٌ لهم ، وهم لمظالمهم متعصّبون يأخذهم الكِبْر ويغريهم الفخر ، يتلوّنون ألواناً ويعدّون لكلّ حقّ باطلاً ويتقارضون الثناء

ويتراقبون الجزاء ، وقد استغلّوا العدل والحقّ ، وطغوا وبغوا وأفسدوا في الأرض وتجبّروا؟

هل يضعف؟ وأنصاره أنفسهم **«ما عزّت دعوةُ مَن دعاهم ، ولا استراح قلب مَن قاساهم. ومَن فاز بهم فقد فاز بالسهم الأخيب! صُمّ ذوو أسماع ، بُكْمٌ ذوو كلام ، لا أحرار صدقٍ عند اللقاء ولا إخوان ثقةٍ عند البلاء!»**[1].

إنّ المرء ليضعف في مثل هذه الشروط ، إن لم يكن عليّ بن أبي طالب ، فالحنان العميق الذي يكنّه عليّ للناس يحمله على ألّا يهادن من أساء للناس، ولو كانت حياته الثمن لذلك ، وإنه ليكذب لعمري ! أو يجهل حقيقةَ الطبائع ، مَن يخال أنّ من شروط الحنان والرقّة القعودَ عن الثورة على الظالمين. وأنّ من مظاهر العاطفةِ الوَدود الاستسلام دون التمرّد ودون العنف في هذا التمرّد ؛ فالحنانُ والعطف يحملانك دون تردّدٍ على أن تتمرّد وتثور على الظالم ؛ تخليصاً لمن تعطف عليهم ممّا يرسفون به من قيود ، وإن العطف والحنان والحبّ هي التي تدفعك في بعض الحالات إلى العنف حتّى أقصى حدوده.

فبقدر ما يحبّ الإنسانُ الجمالَ يكره القبح، وعلى مقدار ما يطلب العدل ينفر من الجور، وحسْبما يتوهّج إلى دفء الوجود تهولُه برودة العدم، وهو لا يحمل سيفاً يهوي به على أعناق الطغاة التافهين إلّا إذا كانت الحياة معبداً له ونعيماً، ولا تحمله قدَماه في وعورة الأرض عبْرَ الكهوف والأودية وصخور الجبال إلّا إلى ديار المودّة ، أمّا الذي لا يكره فهو الذي لا يحبّ.

وأسوق دليلاً جديداً على الرقّة والحنان في مزاج عليّ يتّحدان والتمرّدَ

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٩ ـ ٢.

والعُنف اتّحادَ الأشياء بذاتها ، في سبيل رفْع الظلم بكلّ أشكاله:

روت سودة بنت عمارة الهمذانية: أنّها جاءت إلى عليّ تشتكي من رجلٍ ولّاه صدقاتهم ، فقال لها بتعطّفٍ ورأفة: ألكِ حاجة؟ فأخبرتْه خبر الرجل ، فبكى ثم قال: **اللهمّ إنّي لم آمرهم بظلم خلقك ولا ترْك حقك!»** ثم أخرج من جيبه قطعة من ورق فكتب فيها:

«.. فأوفوا بالكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين. إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظْ بما في يدك حتّى يأتي من يقبضه منك»(١).

فانظر كيف بلغ به العطف على المرأة المظلومة الشاكية حدّاً أبكاه. ثم كيف انقلب هذا العطفُ عنفاً آمراً ناهياً سريعاً مقتضب اللهجة، يتوجّه به إلى جامع الصدقات الذي جار.

إنّ ابن أبي طالب لن يتراجع عن محاربة البغْي ، ولن يضعفَ وفي الأرض عزيزٌ يضطهد ذليلاً ، وكبيرٌ يقهر صغيراً. لن يضعف ولن يتراجع وفي قلبه من الحنان والمحبّة ما يكفل له الثبوت في الصراع بين الحقّ والباطل، وما يضمن له القدرة على قيادة المعركة.

وكان عليّ يؤمن إيماناً وطيداً بأنّه **«لابدّ من إمامٍ يُؤخذ به للضعيف من القوي ، وللمظلوم من الظالم حتّى يستريح برّ ويُستراح من فاجر»**(٢) و **«أنّ الله قد أعاذ الناس من أن يجور عليهم»**(٣) فكيف يجور عليهم الجائرون؟ و **«أنّه امتحن الأُمراء بالجور»**(٤) فإذا ظلموا انتهى أمرُهم؛ لأنّه **«إن أمهل الظالمَ فلن يفوت أخْذُه فهو له بالمرصاد على**

(١) نهج السعادة للمحمودي: ٤٢/٥، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ٢٢٦/٦٩، أعيان الشيعة: ٧ / ٣٢٤ طبعة دار التعارف سنة ١٤٠٦هـ.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٤٠ ـ ٢ ، ٣.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٠٣ ـ ١١ ، وفيه: **أيّها الناس ، سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام ، كما يكفأ الإناء بما فيه ، أيها الناس ، إن الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم.**

(٤) الحديث للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، كنز العمّال: ١٦ / ٨٧ الحديث رقم: ٤٤٣٠.

مجاز طريقه!»[١] وعند ذاك يكون «**يوم العدل على الظالم أشدّ من يـوم الجـور عـلى المظلوم!»**[٢] ومن أوامر ابن أبي طالب الدائمة: «**أمرتكم بالشدّة عـلى الظـالم**»[٣] و«**خذوا على يد الظالم السفيه!**»[٤].

أجل! إنّ في قلبه من الحنان والمحبّة ما يكفل له الثبوت في الصراع بين الحقّ والباطل. وهو إذا أطلّ على هذا الصراع من بـعيدٍ أوجـزَ يـقول: «**لنـظهر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك**»[٥]. ثم إذا هو دنا من المعترك قال: «**وأيم الله لأنصفنّ المظلوم من ظالمه ولآخذنّ الظالمَ بخزامته، حتّى أُورده منهلَ الحقّ وإن كان كارهاً!**»[٦] أو أطلق هذه العبارة: «**الكفّ عن البغي والإنصاف للخلق واجـتناب المفاسد في الأرض**»[٧] وهو إذا كان في قلب الصراع الرهيب تفَقّد أنصاره، فإذا هم قليل. ونظر إلى أخصامه فإذا هم كثير. فنظر في أحـواله وأحـوال النـاس وقال: «**ما ضعفتُ ولا جبنتُ ، فلأنقبنّ الباطلَ حتّى يخرج الحقّ من جنبه**»[٨]. ثم إنّه لن يكفّ عن محاربة الظلم ولو رأى شهادته ماثلة لعينيه، ولن يبالي ولو تألّبتِ العرب عليه يساندها أهلُ الأرض جميعاً ، في شعاب الأرض ووهادها.

ويزداد ابن أبي طالب ثقةً بنفسه وإيماناً بعدالة ما يعمل، فيقول: «**الذيل عندي عزيزٌ حتّى آخذ الحقّ له ،والعزيز عندي ذليلٌ حتّى آخذ الحقّ منه**»[٩] «**فـوالله مـا**

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٩٧ ـ ١.
(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم ، رقم: ٣٤١.
(٣) نهج السعادة: ٤ / ٩٩.
(٤) نهج السعادة: ٥٥٩/١، أُصول الكافي باب جوامع التوحيد: ١٤٢ ، بحار الأنوار: ٤ / ٢٦٧.
(٥) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٣١ ـ ٤.
(٦) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٣٦ ـ ٢.
(٧) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ ـ ٧٩.
(٨) نهج البلاغة ، الخطبة: ٣٣ ـ ٤.
(٩) نهج البلاغة ، الخطبة: ٣٧ ـ ٣.

أُبالي أدخلتُ على الموت أو خرج الموتُ إليّ»[١].

وإذا هو قاتل الظالمين فبقي لهم في الأرض صولة قال: «**وبقيتْ بقيّة من أهل البغْي ، ولئن أذن الله في الكرّة لأديلنّ منهم، إلّا ما يتشذّر في أطراف البلاد تشذّراً**»[٢].

ورجال العلم في مذهب عليّ قادة الأُمّة ، وعليهم من ثـمّة مسؤولياتٌ جِسام، في طليعتها مقاومةُ الظالم والانتصار للمظلوم، يقول: «**وقد أخذ اللهُ على العلماء أنّ لا يُقارّوا على كظّة ظالمٍ ، ولا سغَب مظلوم**»[٣].

ولكي لا تكون في عداد القوم الظالمين ، ولا في مَن يعينون على الظلم أو يرضون به، يجعل عليّ ذنوبَ الناس في درجاتٍ يُغتفَر لهم بعضُها إلّا الظلم ، فيقول: «**وأمّا الذنب الذي لا يُغفَر فظلم العباد بعضهم لبعض**»[٤]. وهو يرى ، في كلّ حال ، أنّ: «**ظلم الضعيف أفحش الظلم**»[٥].

وهكذا وضع ابنُ أبي طالب رفْع الظلم بأشكاله وألوانه جميعاً ـ ولا سيّما الظلم الماديّ ـ في أساس دستوره في الشعب. وهكذا حارب الظالمين بلسانه وسيفه وهو معتصمٌ بذمّته في ذلك ، وظلّ يُديل من أهل البغْي حتى استشهد عظيماً، ولو قد استوت قدماه من مزالق دهره لَغيّر أشياء.

وتلك آية ابن أبي طالب.

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٥٥ ـ ١.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ ـ ١١٤.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة: ٣ ـ ١٧.

(٤) نهج السعادة: ٢٤٩/٣، نهج البلاغة ، الخطبة: ١٧٦ ـ ٣٣ ، وقد جاء فيها: **أمّا الظلم الذي يُترك، فظلم العباد بعضهم بعضاً.**

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ٦٠٥٤.

دستور الإمام في الولاة

ـ إيّاك والاستئثار بما الناس فيه أُسوة!

علي

بعد أن تبيّن لنا موقف الإمام عليّ من المجتمع وأحواله ، وظهر لنا أُسلوبه في العمل من أجل توطيد العلاقات الاجتماعية على أساسٍ من العدالة متين، لا بدّ من إثبات مختارات من كتابٍ بعث به إلى الأشتر النخعي لمّا ولّاه على مصر وأقطارها، وهو أطول عهوده ومن أجلّها شأناً.

وإذاكنّا قد استندنا في دراستنا هذه على مختلف عهود الإمام وكتبه ؛ لأنّ حقوق الفرد والجماعة ظاهرة فيها جميعاً ، فلا يمكننا الاستغناء عن إثبات مختارات من كتابه هذا لعامله على مصر، ذلك لأنّه أجمع كتبه وعهوده لآرائه في بناء المجتمع، ففي هذا الكتاب الجليل دستور عليّ في الولاة كاملاً، إلّا ما تناثر في بقيّةِ كتبه وعهوده من أُسُس ٍ أُخرى وأركان نأخذ بعضاً منها ونثبتها في خاتمة هذا الكتاب.

وهكذا نتيح الفرصة لأن يطّلع القراء على فصلٍ من أروع ما أنتجه العقل والقلب في ربط الناس بالعلاقات الاجتماعية والإنسانية الخيّرة.

وإليك بعض ما جاء في كتاب عليّ إلى الأشتر [1]:

---

(١) الفقرات التالية كلّها في عهد الإمام علي لمالك الأشتر حين ولّاه مصر ، نهج البلاغة ، الكتاب رقم: ٥٣.

«ثم اعلمْ أنّي قد وجّهتُك إلى بلادٍ قد جرتْ عليها دُوَلٌ قبلك من عدْلٍ وجور. وأنّ الناس ينظرون من أُمورك في مثل ماكنت تنظر فيه من أُمور الولاة قِبَلك،ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. وإنّما يُستدَلّ على الصالحين بما يُجري الله لهم على ألسُن عباده، فليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرةَ العمل الصالح. فاملِكْ هواك وشُحّ بنفسك عمّا لا يحلّ لك فإنّ الشّحّ بالنفس الإنصافُ منها فيها أحبّتْ أو كرهتْ. وأشعرْ قلبك الرحمةَ للرعية، والمحبةَ لهم، واللطفَ بهم، ولا تكونَنّ عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنّهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق، يَفْرُط منهم الزلَل[١]، ويُؤتى على أيديهم في العمْد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه. ولا تندمَنّ على عفوٍ، ولا تبجَحَنّ بعقوبة. أنصِف الناسَ من نفسك ومن خاصّة أهلك ومَن لك فيه هوىً من رعيّتك، فإنّك إلّا تفعل تَظلم! ومَن ظَلَمَ عباد الله كان الله خصمه دون عباده. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظُلم، فإنّ الله سميع دعوة المضطهَدين وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحبّ الأُمور إليك أوسطها في الحق وأعمّها في العدل وأجمعَها لرضا الرعية! وليس أحدٌ من الرعيّة أثقلَ على الوالي مؤونةً في الرَخاء وأقلَ معونةً في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسألَ بالإلحاف، وأقلّ شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمّات الدهر من أهل الخاصّة. والعُدّةُ للأعداء العامّة من الأُمّة، فليكن صَغوُك[٢] لهم ومَيلك معهم.

وليكن أبعدَ رعيّتك منك، وأشنأهم[٣] عندك، أطلَبُهم لمعائب الناس[٤]؛ فإنّ في الناس عيوباً الوالي أحقّ مَن سَتَرَها. فلا تكشفنّ عمّا غاب عنك منها فإنّما عليك تطهير ما ظهر

---

(١) يفرط: يسبق. الزلل: الخطأ. المنجد: ٥٧٧، مادة «فرط». و ٣٠٣، مادة «زلّ».

(٢) صَغْوُك: استماعك وإصغاؤك.كتاب العين: ٤٣٢/٤، مادة «صغو».

(٣) أشنأهم: أبغضهم. غريب الحديث: ٨٧٣/٢.

(٤) الأطلب للمعائب: الأشد طلباً لها.

لك، فاستر العورة ما استطعت. أطلق عن الناس عقدة كل حقد ، واقطع عنك سبب كل وِتْر[١] ، وتغابَ عن كلّ ما لا يصحّ لك ، ولا تعجَلَنّ إلى تصديق ساعٍ ، فإنّ الساعي غاشٌ وإن تَشَبّه بالناصحين.

ولا تُدخلَنّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ، ولا جباناً يُضعفك عن الأُمور ، ولا حريصاً يُزيّن لك الشّرَهَ بالجور. إنّ شرّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً ، ومَن شَركَهُم في الآثام، فلا يكونَنّ لك بطانةً فإنّهم أعوان الأثَمَة وإخوان الظَّلَمَة ، وأنت واجدٌ منهم خيرَ الخَلَف ممّن لم يعاونْ ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه ، ثم ليكن آثرُهم[٢] عندك أقْوَلهم بمُرّ الحقّ لك[٣] وأقلّهم مساعدة فيما يكون منك ، مماكره الله لأوليائه واقعاً ذلك من هواك حيث وقع.

ولا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلةٍ سَواء ، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة! وألزِمْ كلّاً منهم ما ألزم نفسه. واعلم أنّه ليس شيء بأدعى إلى حُسْن ظنّ راعٍ برعيّته من إحسانه إليهم ،وتخفيفه المؤونات عليهم ، وترْك استكراهه إيّاهمُ على ما ليس قِبَلَهم[٤]. فليكنْ منك في ذلك أمرٌ يجتمع لك به حسنُ الظنّ برعيّتكَ. وإن أحقّ مَن حسُن ظنّك به لَمَنْ حسُنَ بلاؤك[٥] عنده ، وإنّ أحقّ من ساء ظنّك به لَمَن ساء بلاؤك عنده. وأكثِر مدارسة العلماء ، ومنافثة[٦] الحكماء ، في تثبيت ما صلحَ عليه أمرُ بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك. وَوَلِّ من جنودك أنقاهم جَيْباً[٧] وأفضلهم حلْماً: ممّن يُبطئ عن الغضب ويستريح إلى العُذْر ويرأف بالضعفاء ، وينبو على

---

(١) الوتر : العداوة. مجمع البحرين: ٥٤١/٣، مادة «وتر».
(٢) الضمير يعود على الوزراء في كلام سابق للإمام.
(٣) ليكن أفضلهم لديك أكثرهم قولاً بالحقّ المرّ. ومرارة الحق: صعوبته على نفس الوالي.
(٤) قبلهم: بكسر ففتح: عندهم. المنجد: ٦٠٦، مادة «قبل».
(٥) البلاء ، هنا: الصنع ، حسناً كان أو سيّئاً. لسان العرب: ٨٤/١٤ مادة «بلا».
(٦) المنافثة: المحادثة. انظر مفردات الخطبة المرقمة في نهج البلاغة.
(٧) يقال: نقيّ الجيب أي: طاهر القلب. لسان العرب: ١٠٦/٦، وانظر هامش نهج السعادة: ٧٥/٥.

الأقوياء[١] ، وممّن لا يُثيره العُنف.

ثم تفقّدْ من أُمورهم ما يتفقّد الوالدان من ولَدهما ، ولا يتفاقَمَنّ في نفسك شيء قوّيتَهم به[٢] ولا تَحْقِرَنّ لطفاً تعاهدتهم به[٣] وإن قلّ، فإنّه داعيةٌ لهم إلى بذل النصيحة لك وحُسن الظنّ بك، ولا تدَعْ تَفَقّدَ لطيفِ أُمورهم اتّكالاً على جسيمها ، فإنّ لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه. وإنّ عطفك عليهم يعطِف قلوبهم عليك. وإنّ أفضل قرّة عين لولاة استقامةُ العدل في البلاد ، وظهور مودّة الرعيّة ، وإنّه لا تظهَرُ مودّتهم إلّا بسلامة صدورهم، ولا تصِحّ نصيحتهم إلّا بقلّة استثقال دُوَلِهم.

ثم اعرف لكلّ امرئ منهم ما أبلى ولا تضيفنّ بلاء امرئ إلى غيره[٤]، ولا تقصّرنّ به دون غاية بلائه ، ولا يدعوَنّك شرف امرئ إلى أن تُعظم مِن بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضَعَةُ امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً.

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك[٥] في نفسك ممّن لا تضيق به الأُمور ، ولا تُمحكُهُ[٦] الخصوم ، ولا يتمادى في الزلّة ، ولا تُشرف نفسه على مطمعٍ ، ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه[٧] وأوقفَهم في الشّبُهات[٨] وآخَذَهم بالحجج ، وأقلّهم تبرّماً بمراجعة الخصم وأصبرَهم على تكشّف الأُمور ، وأصرمَهم عند اتضاح الحكم، ممّن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليلٌ، ثم أكثر تعاهُد

---

(١) ينبو على الأقوياء: يشتدّ ويعلو عليهم ليكفّ أيديهم عن ظلم الضعفاء.

(٢) تفاقم الأمر : عظم. يقول: لا تعدّ شيئاً قوّيتهم به غاية في العظم زائداً عما يستحقون ، فكل شيء قوّيتهم به واجب عليك إتيانه ، وهم مستحقون لنيله.

(٣) أي لا تعدّ شيئاً من تلطفك معهم حقيراً فتتركه لحقارته ، بل كلّ تلطف وإن قلّ فله موقع من قلوبهم.

(٤) لا تنسبن عمل امرئ إلى غيره ، ولا تقصر به في الجزاء دون ما يبلغ منتهى عمله الجليل.

(٥) ثم اختر.. الخ: انتقال من الكلام في الجند إلى الكلام في القضاة.

(٦) تمحكه : تضيق خلقه (تغير أخلاقه). لسان العرب: ٤٨٦/١٠، مادة «محك».

(٧) لا يكتفي في الحكم بما يبدو له بأوّل فهم وأقربه ، دون أن يأتي على أقصى الفهم بعد التأمّل.

(٨) الشبهات: ما لا يتضح الحكم فيه. يريد أنّه ينبغي الوقوف عن الحكم حتّى يرد الحادثة إلى أصل صحيح. ولفظة «أوقفهم» تابعة بالإعراب للفظة «أفضل».

قضائه(١) وأفسحْ له في البذل ما يزيل علّته وتقلّ معه حاجته إلى الناس. وأعطهِ من المنزلة لديكَ ما لا يطمع فيه غيرُه من خاصّتك ؛ ليأمنَ بذلكَ اغتيالَ الرجال له عندك. فانظرْ في ذلك نظراً بليغاً.

ثم انظر في أُمور عمّالك فاستعملهم اختباراً(٢) ولا تولّهم محاباةً وأثرَةً، فإنّهم جِماعٌ من شُعَبِ الجور والخيانة.

ثم أسبغْ عليهم الأرزاق فإنّ ذلك قوةٌ لهم على استصلاح أنفسهم، وغنىً لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجّةٌ عليهم إن خالفوا أمرك أو ثَلَموا أمانتك. ثم تفقّدْ أعمالهم وابعث العيونَ من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإنّ تعاهُدك في السرّ لأُمورهم حَدوةٌ ـ حَثّ ـ لهم على استعمال الأمانة بالرعية.

وتفقّد أمر الخراج بما يُصلح أهله ، فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلّا بهم ، لأنّ الناس كلّهم عيالٌ على الخراج وأهله. وليكن نَظرُكَ في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ؛ لأنّ ذلك لا يُدرَك إلّا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلّا قليلاً.

فإن شكوا ثِقَلاً(٣) أو علّةً أو انقطاع شربٍ أو إحالة أرضٍ أغتمرها غرقٌ أو أجحف بها عطشٌ فخفّفْ عنهم بما ترجو أن يصلُح به أمرهم. ولا يثقلَنّ عليك شيء خفّفْتَ به المؤونة عنهم ، فإنّه ذُخرٌ يعودون به عليك في عمارة بلادك ، وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسنَ ثنائهم ، وتبجّحك(٤) باستفاضة العدل فيهم. فإنّ العمران محتَمَلٌ ما حمّلتَه. وإنّما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنّما يُعوزُ أهلها لإشراف أنفس الولاة على

---

(١) تعاهده: تتبعه بالاستكشاف والتعرف.

(٢) أي: ولهم الأعمال بالامتحان ، لا محاباة ، أي: اختصاصاً وميلاً منك لمعاونتهم ، ولا أثرة ، أي: استبداداً بلا مشورة ، فإنّ المحاباة والأثرة يجمعان الجور والخيانة.

(٣) ثقل المضروب من مال الخراج.

(٤) التبجّح: سرور المرء بما يرى من حسن عمله في العدل. لسان العرب: ٢/٤٠٥ ـ ٤٠٦، مادة «بجح».

الجمْع[١] وقلّة انتفاعهم بالعِبَر.

ثم انظرْ في أُمور كتّابك فولِّ على أُمورك خيرَهم ممّن لا يجهل مبلغَ قدْر نفسه في الأُمور، فإنّ الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكنْ اختيارك إيّاهم على فراستك واستنامتك[٢] وحسن الظنّ منك، فإنّ الرجال يتعرّفون لفراسات[٣] الولاة بتصنّعهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء. ولكن اختبرْهم بما وُلّوا للصالحين قبلك: فاعمدْ لأحسنهم كأنّ في العامّة أثراً وأعرَفهم بالأمانة وجهاً! ومهما يكنْ في كتّابك من عيبٍ فتغابيتَ عنه أُلزمتَه.

ثم استوصِ بالتجّار وذوي الصناعات وأوصِ بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرِب[٤] بماله، فإنّهم موادّ المنافع وأسبابُ المرافق وجُلاّبها من المباعد والمصارح في برّك وبحرك وسهلك وجبلك. وتفقّد أُمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلمْ أنّ في كثيرٍ منهم ضيقاً فاحشاً وشحّاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكّماً في البياعات، وذلك باب مضرّةٍ للعامّة وعيبٌ على الولاة، فامنع من الاحتكار، فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) منع منه. وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدْلٍ، وأسعارٍ لا تُجحف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمَن قارف حكْرَةً[٥] بعد نهيك إيّاه فنكّل به وعاقبه في غير إسراف.

ثم يتحدث الإمام عن الطبقة المعوزة فيقول:

واحفظ لله ما استحفظك من حقّه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت المال، وقسماً من غلّات كلّ بلد، فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلٌّ قد استُرعيتَ حقّه، فلا يشغلنّك

(١) أي لتطلع أنفسهم إلى جمع المال.

(٢) الفراسة، بالكسر: قوّة الظن وحسن النظر في الأُمور. الاستنامة: السكون والثقة، أي: لا يكون انتخاب الكتاب تابعاً لميلك الخاص.

(٣) يتعرّفون للفراسات: يتوسّلون إليها لتعرفهم بها.

(٤) المضطرب: المتردّد بأمواله بين البلدان.

(٥) قارف: خالط. المنجد: ٦٢٢ مادة «قرف»، الحكرة: الاحتكار.

عنهم بطرٌ ، فإنّك لا تُعذَر بتضييعك التافهَ لإحكامك الكثيرَ المـهمّ. ولا تُشـخِص هـمّك[١] عنهم ، ولا تُصعّر خدّك لهم ،وتفقّد أُمورَ من لا يصل إليك منهم ، فإنّ هؤلاء من بين الرعيّة أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وتعهّد أهل اليتيم وذوي الرقّة[٢] في السنّ ممّن لا حيلة له.

واجعل لذوي الحاجات[٣] منك قسماً تفرّغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مـجلساً عامّاً فتتواضع فيه لله الذي خلقك ،وتُقعِد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرَطك[٤] حتى يكلّمك متكلّمُهُم غير مُتَتَعْتِع[٥] فإنّي سمعت رسول اللهﷺ يقول في غير موطن[٦]: «لن تقدّس أُمّة لا يُؤخذُ للضعيف فيها حقّه من القويّ غير متعتع.» ثم احتمل الخُرقَ[٧] منهم والعِيّ[٨] ونحِّ عنهم الضيق والأنف[٩].

ثم أُمورٌ من أُمورك لابدّ لك من مباشرتها: منها إجابة عمّالك بما يعيا عنه كتّابك. ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تَحرّجُ به صدورُ أعوانك[١٠] ، وامضِ لكلّ يومٍ عمَله ، فإنّ لكل يوم ما فيه.

ولا تُطوّلَنّ احتجابك عن رعيّتك فإنّ احتجاب الولاة عن الرعية شُعبةٌ مـن الضـيق ، وقلّةُ علمٍ بالأُمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علمَ مـا احـتجبوا دونـه فـيصغر عـندهم الكبير ، ويعظم الصغير ، ويَقبُحُ الحسَن ويحسنُ القبيح ، ويشـاب الحـقّ بـالباطل ، وإنّـما

---

(١) لا تشخص همّك: لا تصرف همّك.

(٢) ذوو اليتيم: الأيتام. ذوو الرقّة في السن: المتقدمون فيه.

(٣) لذوي الحاجات: أي للمتظلّمين.

(٤) أي تأمر بأن يقعد عنهم جندك وأعوانك وأحراسك وشرطك فلا يتعرّضوا لهم.

(٥) التعتة في الكلام: التردّد فيه من عجز وعي ، والمراد ، غير خائف .

(٦) أي في مواطن كثيرة.

(٧) الخرق: العنف ، ضدّ الرفق. لسان العرب: ٢٥٧/٩ .

(٨) العيّ: العجز عن النطق. المنجد: ٥٤٢، مادة «عيّ».

(٩) الأنف: الاستنكاف والاستكبار.

(١٠) تحرج: تضيق. بما تحرج به صدور الأعوان ، يريد: أن الأعوان ، تضيق صدورهم بـتعجيل الحـاجات ، ويحبّون المماطلة في قضائها استجلاباً للمنفعة أو إظهاراً للجبروت.

الوالي بشرٌ لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأُمور ، وليست على الحقّ سِماتٌ[١] تُعرَف به ضروب الصدق والكذب ، وإنّما أنت أحد رجلَين: إمّا امرؤٌ سخت نفسك بالبذل في الحقّ ففيمَ احتجابك من واجب حقٍّ تعطيه أو فعلٍ كريمٍ تُسديه؟ أو مبتلىً بالمنع ، فما أسرَعَ كفّ الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بَذْلك[٢]، مع أنّ أكثر حاجات الناس إليك ممّا لا مؤونة فيه عليك من شكاةِ مظلمة ، أو طلب إنصافٍ في معاملة!

ثم إن للوالي خاصّةً وبطانةً فيهم استئثارٌ ، وتطاوُلٌ ، وقلّة إنصاف في معاملة ، فاحسم[٣] مادّة أُولئكَ بقطع أسباب تلك الأحوال ، ولا تُقطعَنّ لأحدٍ من حاشيتك وحامّتك[٤] قطيعةً[٥] ، ولا يَطمِعَنّ منك في اعتقاد عُقدةٍ[٦] تضُرّ بمن يليها منَ الناس في شرْب أو عملٍ مشترَك، يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مَهنَأ[٧] ذلك لهم دونك ، وعيبُه عليك في الدنيا والآخرة.

والزِم الحقّ مَن لَزِمَهُ من القريب والبعيد ، وكن في ذلك صابراً محتسباً ، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصّتك حيث وقع. وابتغ عاقبته بما يَثقُلُ عليك منه، فإنّ مغبّة ذلك محمودة[٨].

وإن ظنّت الرعيةُ بك حَيفاً ـ أي ظلماً ـ **فأصحِر لهم[٩] بعذرك ، واعدلْ عنك في**

---

(١) سمات: علامات ، أي ليس للحق علامات ظاهرة يتميز بها الصدق من الكذب وإنّما يعرف ذلك بالامتحان والاختيار.

(٢) يقول: فإن قنط الناس من قضاء مطالبهم منك أسرعوا إلى البعد عنك ، فلا حاجة للاحتجاب.

(٣) احسم: إقطع. يقول: إقطع مادّة شرورهم عن الناس بقطع أسباب تعديهم ، وإنّما يكون ذلك بالأخذ على أيديهم ومنعهم من التصرف في شؤون العامّة.

(٤) الحامّة كالطامة: الخاصة والقرابة. الصحاح: ١٩٠٧/٥، لسان العرب: ١٥٣/١٢.

(٥) الإقطاع: المنحة من الأرض. والقطيعة: الممنوح منها.

(٦) الاعتقاد: الامتلاك. العقدة: الضيعة. واعتقاد الضيعة: إقتناؤها.

(٧) مهنأ: منفعة هنيئة.

(٨) المغبّة العاقبة ، يقول: إنّ إلزام الحقّ لمن لزمهم ، وإن ثقل على الوالي وعليهم ، محمود العاقبة بحفظ الدولة.

(٩) إصحر: أبرز لهم وبيّن عذرك. المنجد: ٤١٧، مادة «أصحر».

ظنونهم بإصحارك، فإنّ في ذلك رياضةً منك لنفسك[١]، ورفقاً برعيّتك، وإعذاراً[٢] تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحقّ.

لا تدفعَنّ صلحاً دعاك إليه عدوّك ولله فيه رضا، فإن في الصلح دعةً لجنودك وراحةً من همومك وأمناً لبلادك، وإن عقدتَ بينك وبين عدوّك عُقدةً أو ألْبَسته منك ذمّةً[٣]، فحطْ عهدك بالوفاء، وارعَ ذمّتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنّةً دون ما أعطيتَ[٤]، ولا تغدرَنّ بذمّتك، ولا تخِيسَنّ بعهدك[٥]، ولا تختلنّ[٦] عدوّك. ولا تعقد عقداً تجوّز فيه العلل[٧]، ولا تعوّلنْ على لحنِ[٨] قولٍ بعد التأكيد والتوثقة.

ولا تقوّينّ سلطانك بسفك دمٍ حرام، فإن ذلك ممّا يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقلُهُ، ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمْد، وإيّاك والمنّ على رعيّتك بإحسانك! أو التزيّدَ[٩] في ما كان من فعلك، أو أن تعِدهم فتُتبع موعدك بخُلفك، فإن المنّ يُبطل الإحسان، والتزيّد يذهب بنور الحقّ، والخلف يوجب المقت عند الله والناس.

وإيّاك والعجلة بالأُمور قبل أوانها! أو التسقّط[١٠] عند إمكانها، أو الوَهن عنها إذا استوضحتْ فضعْ كلّ أمرٍ موضعه، وأوقعْ كلّ أمرٍ موقعه.

---

(١) أي: رياضة منك لنفسك، تعويداً لنفسك على العدل.

(٢) الإعذار: تقديم العذر.

(٣) أصل معنى الذمّة: وجدان مودع في جبلة الإنسان ينبّهه لرعاية حقّ ذوي الحقوق عليه ويدفعه لأداء ما يجب عليه منها، ثمّ أُطلقت على معنى العهد.

(٤) الجُنة: الوقاية، يقول: حافظ على ما أعطيت من العهد بروحك.

(٥) خاس بعهده: خانه ونقضه.

(٦) الختل: الخداع.

(٧) العلل: جمع علّة وهي في النقد والكلام، بمعنى ما يصرفه عن وجهه ويحوّله إلى غير المراد، وذلك يطرأ على الكلام عند إبهامه وعدم صراحته.

(٨) لحن القول: ما يقبل التوجيه كالتورية والتعريض، يقول: إذا رأيت ثقلاً من إلتزام العهد؛ فلا تركن إلى لحن القول لتتملص منه، بل خذ بأصرح الوجوه لك وعليك.

(٩) التزيد: إظهار الزيادة في الأعمال والمبالغة في وصف الواقع منها في معرض الافتخار.

(١٠) التسقط، يريد به هنا: التهاون.

وإيّاك والاستئثار بما الناس فيه أُسْوة[(١)]! والتغابي عمّا تُعنى به ممّا قد وَضحَ للعيون، فإنّه مأخوذٌ منك لغيرك، وعمّا قليل تنكشف عنك أغطية الأُمور ويُنتَصف منك للمظلوم. إملكْ حميّة أنفك[(٢)] وسَورة حَدّك وسطوة يدك وغَرْبَ لسانك[(٣)] واحترس من كلّ ذلك بكفّ البادرة[(٤)] وتأخير السطوة حتّى يسكن غضبك فتملِكَ الاختيار.

والواجب عليك أن تتذكّر ما مضى لمن تَقدّمَك من حكومةٍ عادلة أو سنّة فاضلة، فتجتهد لنفسك في اتّباع ما عهدتُ إليك في عهدي هذا، واستوثقتُ به من الحجّة لنفسي عليك لكي لا تكون لك علّةٌ عند تسرّع نفسك على هواها. وأنا أسأل الله أن يوفقّني وإيّاك لِمَا فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه[(٥)] مع حسن الثناء في العباد وجميل الأثر في البلاد!».

وسوف نزيد على عهد ابن أبي طالب للأشتر، بعض الأوامر والوصايا التي يكمّل بها دستوره العظيم في الولاية، ويركّزه، ويصرّ عليه، ويمدّه بالدفء والحنان، وذلك في باب المختارات من أدب الإمام، في فصولٍ سوف تأتي في مكانها.

أمّا الآن، فإلى الأبحاث التي تتناول المعاني الإنسانية بين مفكّري العصور جملةً وبين عليّ، ثم إلى المقابلة بين مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى، والمبادئ التي خلّفتْها ثورة ابن أبي طالب.

---

(١) إحذر أن تخصّ نفسك بشيء تزيد به عن الناس، وهو مما تجب فيه المساواة من الحقوق العامّة.

(٢) أي إملك نفسك عند الغضب.

(٣) السورة: الحدّة، والحدّ: البأس. والغرب: الحدّ، تشبيهاً له بحدّ السيف ونحوه.

(٤) البادرة: ما يبدر من اللسان عند الغضب، وإطلاق اللسان يزيد الغضب إنقاذاً، والسكوت يطفئ من لهبه.

(٥) يريد من العذر الواضح: العدل، فإنّه عذر لك عند من قضيت عليه وعذر عند الله في من أجريت عليه عقوبة أو حرمته من منفعة.

الإمام عليٌّ (عليه السلام) ومبادئ الحرّيّة

إنّ مذهب عليٍّ في الحريّة يوجب عليه أن يتنبّه إلى الجانب الوجداني منها تنبّهاً شديداً ؛ فيلحظ أنّ في الإكراه إساءةً إلى حياة الإنسان الداخلية تلحق الأذى في المكرِه والمكرَه ، فيقول: «**إنّ للقلوب شهوةً وإقبالاً وإدباراً ، فأتوها من قِبَل شهوتها وإقبالها ، فإنّ القلب إذا أُكره عمي**»[1]. وفي هذا الموقف السليم الذي يقفه عليّ من وجدانات الناس اعترافٌ أصيل بأنّهم أحرارٌ في المولد والمنشأ لا قسْر يجوز عليهم ولا إكراه.

إنّ أخطر مظاهر الحريّة التي دارت حولها أبحاث الفلاسفة والمفكّرين تتجمّع في ما يلي:

أوّلاً: الحرّية الشخصية التي يكون الإنسان بموجبها حرّاً في غدوّه ورواحه، فلا يُمنع منهما ولا يعارَض إلّا إذا أجاز القانون هذا المنع وهذه المعارضة في حدود تُعيّنها المصلحة العامّة. وهذا الشرط من شروط الحريّة أقرّه عليّ، إذ أمَرَ وُلاته بأن يُطلقوا عن الناس كلّ عقدةٍ تجعل غدوّهم ورواحهم ثقيلين عليهم، وإذْ أمَرَهم بأن يتغابَوا عن كلّ ما لا يصحّ لهم ، وألّا يستكرهوا أحداً على ما لا يجيزه القانون. أمّا الذين يضطرّون إلى مزيد من الحريّة في غدوّهم ورواحهم ،كالتجار وغيرهم، فإنّ عليّاً يأمر بأن يُفسَح لهم في سبُل

---

(١) نهج البلاغة، الحكم القصار : ١٩٣.

الحريّة الشخصيّة على أوسع مجال **«في البرّ والبحر والسهل والجبل»** كما جاء في عهده إلى الأشتر النخعي. وكيف لا يجيز مثلَ هذه الحرّية للناس جميعاً مَن أجازها لمحاربيه، فمن شاءَ منهم أن يلحق فهو حرّ في مسيره إليه لا يمنعه مانعٌ ولا يعترضه قانون؟

ثانياً: حريّة المسكن: وهي ألّا يُباح لأحدٍ أن يدخل مسكناً من المساكن الخاصّة على أصحابه إلّا بإذنهم أو بأمر القانون. وقد فطن عليّ إلى ما يتوجب على الدولة من توفير هذا المظهر من مظاهر الحريّة ، فقال فيه قولاً كأنّما ينزع به عن مذهب الأحرار من مفكّري القرن الثامن عشر. ومن أوامره العامّة التي كان يبعث بها مكتوبةً إلى عمّاله على الصدقات ، قوله:

«ولا تروّعنّ إنساناً ، ولا تجتازنّ عليه كارهاً... فإذا قدمتَ على الحيّ فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم. ثمّ امضِ إليهم بالسكينة والوقار. حتى تقوم بينهم فتُسلّم عليهم، ولا تخدج[1] بالتحيّة لهم ثم تقول: هل للهِ في أموالكم من حقّ فتؤدّوه؟ فإن قال قائل: لا، فلا تراجعْه. وإن أنعمَ لك مُنعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تَعْسِفه أو تُرهقه. فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضّةٍ، فإن كان له ماشيةٌ أو إبلٌ فلا تدخلْها إلّا بإذنه فإنّ أكثرها له...الخ»[2].

وفي مكانٍ آخر يقول عليّ نصّاً:

«ولا تؤتى البيوت إلّا من أبوابها ، فمَن أتاها من غير أبوابها سمّي سارقاً»[3].

فإذا أنت قرنتَ هذا النصّ الصريح إلى النصّ السابق استخلصتَ منهما

(١) لاتخدج: لا تبخل.
(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٢٥ ـ ١.
(٣) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٥٤ ـ ٣.

معاً نصّاً قانونياً واضحاً ، هو أنّ حريّة السكن مضمونة. وأنّه لا يُباح لأحدٍ أن يدخل مسكناً من المساكن الخاصّة على أصحابه إلّا بإذنهم.

ثالثاً: حريّة العمل والصناعة والتجارة والزراعة: وهي أن يباح للإنسان أن يعمل ما شاء من الأعمال وأن يصنع وأن يتاجر. وعليّ لا يكتفي بأن يبيح للناس هذه الحريّة ، بل إنّه يجعل رعاية العامل والصانع والتاجر والزارع همّاً من هموم الدولة ، فيأمر عامله على مصر قائلاً: «**ثمّ استوصِ بالتجّار وذوي الصناعات وأوصِ بهم خيراً ، المقيمِ منهم والمضطرب بماله، فإنّهم موادّ المنافع وأسباب المرافق وجُلّابُها من المباعد والمطارح في برّك وبحرك وسهلك وجَبَلك،وتفقّد أُمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك**»(١). ويوصي بالزرّاع قائلاً:«**وتفَقّدْ أمرَ الخراج بما يصلح أهله ، فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلّا بهم ؛ لأنّ الناس عيالٌ على الخراج وأهله!**»(٢).

ولا يخفى ما في هذه الأقوال ـ بالإضافة إلي إباحة حريّة الصناعة والتجارة والزراعة ـ من نتائج تترتّب عليها ، منها خلْق طبقةٍ جديدة من طبقات الناس من شأنها أن تساعد ذلك المجتمع على التقدّم بها تقتضيه من إضعاف طبقة الأشراف وأهل الإقطاع. وقدكان ظهور طبقة أهل الصناعة والتجارة في أوروبا مرحلةً من المراحل التي ساعدت على تهديم العهد الإقطاعي.

وشدّد عليّ على حقيقة جليلة ، وهي: أن الإنسان لا يُعدّ إنساناً إلّا بما يُحسن من عمل فقال: «**واعلموا أنّ الناس أبناء ما يحسنون**»(٣). والمرء لا يُحسن

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ٩٥.
(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ٩٧.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ١١٧٨.

عملاً إن لم يكن حرّاً فيه ، وقد رأيت في فصل «رفع الحاجة» أنّ عليّاً أمر عمّاله بألّا يُكرهوا إنساناً على عملٍ لا يرتضيه ، وبأن يُحسنوا مكافأة من يعمل في الأرض أو في النهر أو في غيرهما عملاً يدفعه إليه اختياره ورضاه وحدهما.

ولكنّ عليّاً إذا اعترف للتجّار والصناع ومَن إليهم بحقّهم في حريّة العمل وبالفائدة التي يجنيها المجتمع من نشاط أبناء هذه الطبقة ، فإنّه لا يغفل عن تقييد هذه الحريّة بمصلحة الجماعة ساعةَ يتحول نشاط هؤلاء إلى نشاطٍ عدواني ، يلوذ بالاستئثار والاحتكار ويميل أصحابه إلى التسلّط على الناس ، واستعبادهم بما استأثروا وبما احتكروا. فإذا به يضع قاعدةً لحكّام زمانه هي بمثابة الأساس الجامع لقواعد أشمل وأعمّ تأتي مع الزمان ، فيقول:

«واعلم مع ذلك أنّ في كثيرٍ منهم ـ أي من التجار وأهل الصناعات ـ **ضيقاً فاحشاً وشحّاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكّماً في البياعات ، وذلك بابُ مضرّة للعامّة وعيبُ على الولاة. فامنع من الاحتكار. وليكن البيعُ بيعاً سمحاً بموازين وأسعارٍ لا تُجحف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمَن قارفَ حُكرةً من بعد نهيك إياه فنكّلْ به وعاقبْه من غير إسراف»**[(١)].

رابعاً: حريّة الفكر، ومن آيات عليّ في إباحة حريّة الفكر سماحُه لمن خالَفَه في تصوّره وتفكيره ومسلكه ومذهبه، بأن يفكّر وينظر ثمّ بأن يكون من أمره على ما يبدو له ، أي أنّه كان يأذن له بأن يفكّر حرّاً ، ويتّجه حيث دلّه التفكير الحرّ والنزعةُ المستقلّة عن أي ضغط أو إكراه.

ثمّ إنّ عليّاً أكثرَ من دفع الناس إلى طلب العلم بمعناه العامّ وهو : المعرفة، وطلبُ المعرفة، مربوطٌ أصْلاً وطبيعةً بحريّة الطالب في التفكير ؛ لأنّ

---

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ١٠٠.

استيعاب المعارف يقتضي من الحريّة حدوداً أوسع. فلا عِلمَ لمن لا يفكّر، ولا فكر لمن لا يكون حرّاً.

فطلب العلم وحريّة الفكر متلازمان متّحدان، بل إنّ عليّاً دقّق في هذا الشرط تدقيقاً أعظم حين قال: **«ما من حركة إلّا وأنت محتاجٌ فيها إلى معرفة»**(١).

ومن البديهيات في طلب المعرفة وفي استيعابها: حريّة النظر وحريّة التلقّي وحريّة الأخذ وحريّة العطاء، وهذه في جملتها لا تعني إلّا حريّة التفكير. أضفْ إلى ذلك تعظيمه لكلّ مَن عَرَف أن يختار من الآراء أقربَها إلى ذهنه وألصقها بنفسه، ساعةَ يقول: **«مَن استقبل وجوه الآراء عرفَ مواقع الخطأ»**(٢). فمن البديهيّ أيضاً أنّ استقبال وجوه الآراء للانتفاع بما يوافق، يستلزم الاختيار. ولا اختيار بلا حريّة فكر، وبما أنّ الإنسان ينظر حرّاً ويختار بفعل هذه الحريّة في النظر والتفكير، فإنْ هو أحسن الاختيار فله وإن أساءَ فعليه، و **«مَن أساء عذّب نفسه»**(٣).

وإليك ما يقوله بصدَد «المساواة في الحقوق» نصّاً صريحاً.

«الحقّ لا يجري لأحدٍ إلّا جرى عليه، ولا يجري عليه إلّا جرى له»(٤).

وليس في هذا المبدأ العلوي ما يحتاج إلى توضيح.

ثم إننا نجد في عهده إلى الأشتر النخعي هذه القاعدة:

«إيّاك والاستئثار بما الناس فيه أُسوة»(٥). أي احذرْ أن تخصّ نفسك أو غيرك

---

(١) تحف العقول: ١٧١، نهج السعادة: ٨ / ٢١١ من وصيّته عليه السلام لكميل بن زياد.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم، رقم: ١٧٣.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، رقم: ٧٧٩٨.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٢٦ ـ ٢.

(٥) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣ ـ ١٤٩.

من البشر بكثيرٍ أو قليلٍ من الأُمور التي تجب فيها المساواة بين الناس وهي: الحقوق العامّة. ثم يقول له ولسواه! «**وليكن أمر الناس عندك في الحقّ سواء**»[١]. ومعنى هذه العبارة ـ كما هو واضح ـ أنّ الناس متساوون في الحقوق ، لا فرقَ فيهم بين كبير وصغير ، أو بين قريب وبعيد ، أو بين مسلم وغير مسلم ، أو بين عربيّ وأجنبيّ ، لأنّ هؤلاء جميعاً هم الذين يُعبّر عنهم بلفظة «الناس». ثم يشدّد عليّ على هذا المعنى خشيةَ أن يلتبس على الولاة ما أراد، فينبّه كلاًّ منهم إلى أصل الأُصول ، وهو أنّ البشر جميعاً متساوون في الحقوق لأنّهم متساوون في المولد ثم في صفة الإنسان قبل أن يكونوا أقارب وأباعد ومسلمين ومجوساً وعرباً وأعاجم ، قائلاً: «**كلّ إنسانٍ نظيرٌ لك في الخلق**»[٢]. لذلك كان «**للأقصى ـ في دستور عليّ ـ مثل الذي للأدنى**»[٣]. ولذلك يقول في غير المسلمين: «**أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا**»[٤] ما جاز عليهم جاز على غيرهم ، وما حرّم عليهم حرّم على غيرهم كذلك.

ويذهب عليّ بعيداً في معنى المساواة بين الناس في الحقوق ؛ فيرى أنّ الأموال التي تحت يديه وأيدي عمّاله «ليست له ولا لهم» وإنّما هي ممّا أنتجتْه الجهود العامّة إنتاجاً مُشتركاً ليكون من حقّ الناس جميعاً ، وعليّ أوّل مفكّرٍ شرقي قال قولاً صريحاً ، وبصيغة لا تقبل تأويلاً ، بأنّ الأموال العامّة هي أموال الشعب بكامله ، فهي من ثَمّ حقّ من حقوق الشعب كلّه. وفي هذا الضوء ساوى عليّ في العطاء بين الناس لا قريبَ فيهم ولا بعيد ، ولا شريف

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٩ ـ ١.
(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ٩.
(٣) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ١٠٣.
(٤) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٤٨/١٧، أُصول السرخسي: ١٩٠/١، إيضاء الفوائد لابن العلاّمة: ١ / ٣٨٩، الجزية وأحكامها: ١٤.

ولا غير شريف ، ولا سيّما بعد أن نظر في أمر الناس ، وهم لديه أخوةٌ متساوون متعاونون ، فإذا كثيرُهم في فقرٍ مريع ، وإذا قليلهم في غنىً فاحش فقال مخاطباً نفسه: «**اضربْ بطرفك حيث شئتَ من الناس، فهل تبصر إلّا فقيراً يكابد فقراً ، أو غنيّاً بدّل نعمة الله كفراً**»[١]. ولمّا جاءَه ناصحٌ له يعاتبه على هذه التسوية في العطاء ويجعلها عليه مأخذاً قائلاً: «**يا أمير المؤمنين، أعطِ هذه الأموال وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم**» ، أجاب بقوّة وهدوء: «**أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور !**»[٢].

وكما كان عليّ أوّل مفكّر شرقيّ أعلن أنّ الأموال العامّة هي أموال الشعب لا أموال الطبقة الحاكمة أو طبقات الأشراف ،كان كذلك أوّل حاكم في الشرق كلّه يصوغ هذه الحقيقة صياغةً تحمل طابعَ القانون. فالأموال العامّة «**ليست طعمةً للولاة**» بل هي ملك الناس. والولاة في دستوره ليسوا ـ بالنسبة لهذه الأموال ـ أكثر من «**خزان أموال الرعيّة**». وهم في نصّ آخر : «**خزّان الرعية ، ووكلاء الأُمّة**» ، وفي خطبةٍ له نجد هذا القول الصريح: «**تَرِبَتْ يدُ هذا المشتري**[٣] **نُصرةَ غادرٍ فاسقٍ**[٤] **بأموال الناس !**».[٥]

والسابقون من البشر لهم عملٌ في إنتاج هذا المال ـ في دستور عليٍّ ـ والحاضرون لهم عملٌ كذلك فيه وللّاحقين حقٌّ به. فجميع الناس هم أهل هذا المال. لذلك بعث عليٌّ إلى بعض عمّاله يقول: «**أمّا بعد ، فإنّ ما بيدك من المال له**

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٢٩ ـ ٤.
(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٢٦ ـ ١ ، الغارات للثقفي: ٤٨ ، تحقيق الخطيب.
(٣) يقصد معاوية.
(٤) يقصد عمرو بن العاص.
(٥) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١٧٨/١، الغدير للأميني: ١٥٣/١٠.

أهلٌ قبلك ، وهو صائرٌ إلى أهلٍ له بعدك»[١]. ونظرة عليٍّ هذه إلى المال هي النظرة التي يجب أن تُلقى على كلّ مولّدات الحضارة البشرية نتيجة جهود كلّ الناس في كلّ أرض وكلّ زمان. وإذا نحن أخذنا رأيَ عليٍّ في المال بوصفه نتاجَ جهودٍ عامّة مشتركة ، كمقياسٍ لكلّ ما تنتجه الجهودُ العامّة المشتركة ، أفلا نراه قد أدرك القاعدة الأساسية في نتاج الحضارة الذي هو عملٌ يشترك فيه السابقون واللاحقون ، والقدامى والمحدثون؟ والذي عبّر عنه الفيلسوف الفرنسي باسكال حين قال: إنّه «يجب أن ننظر إلى سلسلة البشر خلال عصور التاريخ كأنها رجلٌ واحدٌ يعيش أبداً ويتعلّم بدون انقطاع».

وأروع من ذلك كلّه ، وأشدّ منه إظهاراً لِمَا بين البشر من تعاون وتكافؤ ، قول عليّ:

«ثم جعل الله حقوقاً لبعض الناس على بعض ، فجَعَلَها تتكافأ في وجوهها ويوجبُ افتراضها بعضها بعضاً ، ولا يستوجب بعضها إلّا ببعض»[٢].

وإنّي لم أعثر في أقوال مفكّري العالم العظام ، على أروع من هذه الفكرة ، وهذا البيان في إظهار وحدة الجهود المشتركة بين البشر ، التي عبّر عنها عليّ بوحدة الواجبات ووحدة الحقوق!

وهذه النظرة العميقة الى إشتراك سلسلة البشر في إنتاج ما تحت أيدي البشر هي الأصل التي تبنى عليه نظرية المساواة بين الناس في كافّة الحقوق.

ومن هنا كانت نظرة عليّ تلفّ المجتمع على أنّه مجتمع لكلّ أبنائه، وفيهم القادر على العمل والعاجز عنه ، أمّا العاجز كالشيخ واليتيم ومن إليهما ،

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم: ٤١٦ ـ ٣.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢١٦ ـ ٥.

فعلى الدولة أن تكفيه وتيسّر له معاشه تيسيراً كريماً لا منّة فيه ولا إحسان. وفي ذلك يقول عليٌّ في دستوره إلى مالك الأشتر بصدد العاجزين عن العمل: **«واجعلْ لهم قسماً من بيت المال وقسماً من الغلّات في كل بلد، فإنّ الذي للأقصى منهم مثلُ الذي للأدنى، وكلٌّ قد استُرعيتَ حقّه»**(١). ولمّا كان لهؤلاء نصيبٌ من الأموال العامّة هو حقٌّ لهم لا منّة من أحدٍ عليهم، ولمّا كانت هذه الأموال في أمانة الدولة، فعلى الدولة نفسها أن تبحث عنهم، وتصل إليهم بحاجتهم من المال، لأنّ عمل الدولة هو أن تحمي الناس وترفع عنهم العوز؛ مبادرةً منها لا استجابةً لمسألةٍ من مُعوز، وفي ذلك يقول عليّ: **«وتفقّدْ أمور من لا يصل إليك منهم، فإنّ هؤلاء من الرعيّة أحوج إلى الأنصاف من غيرهم!»**(٢).

وبناءً على الحقيقة السابقة أيضاً، وهي اشتراك سلسلة البشر في إنتاج ما تحت أيدي البشر، وحقّ كلّ من الناس بهذا النتاج، كانت نظرة عليّ تلفّ المجتمع على أنه مجتمع إنسانيّ لا عنصريّ. وقد رأيت كيف ساوى بين العرب والأعاجم في العطاء فكانوا لديه سواء، فلامَهُ في ذلك لائمٌ، فردّ عليه رأيَه وأبى أن يكون للعرب من الحقوق فوق ما للأعاجم. وقد رأيت كيف ساوى بين زعماء قريش وهم عشيرته وأهله، وبين عامّة العرب من مختلف القبائل، فلامَهُ في ذلك لائمٌ، فردّ عليه رأيَه، وأبى أن تكون قريش أفضل من سائر العرب فلا يتساوون في كلّ حقّ.

وإذا نحن نظرنا في سيرة عليّ رأيناه قد أوقع بالإجحاف اللاحق بأبناء زمانه، فمزّق الأُسطورةَ القائلة بامتياز طبقة عن طبقة في الحقوق، وسوّى بها

(١) نهج البلاغة، الدكتور صبحي الصالح، الطبعة الأولى: ٦٠٢.
(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣ ـ ١٠٤.

الأرض ، وجعل الناس سواسيَةً عملاً بما تقتضيه سنّة الطبيعة وسنّة المجتمع القويم. وهنا يمكن التعليل الصحيح الأوحد لثورة زعماء قريش عليه، وقد غلّ أيديهم عن نهب الناس ورَفَعَ سلطانهم عن أعناق البشر ، وساوى بهم ـ وهم الوجهاء فيما يزعمون ـ كلّ من حملَه وجهُ الأرض ، مطلِقاً في وجوههم هذه الصيحةَ التي أرعدتْ فرائصهم ، ونفختْ في رؤوسهم ورَمَحَتْ جلودهم بالسّنان فراحوا يرفعون ما بينهم من عداواتٍ فيتكتّلون عليه ويتآمرون به ، قائلاً لهم: **«الذليل عندي عزيزٌ حتى آخذ الحقّ له ،والعزيزُ عندي ذليلٌ حتى آخذ الحقّ منه»**(١) ، سائراً على هدْي الطبيعة السليمة ، مذكّراً هؤلاء الأشراف: **«أن الشرف بالعقل والأدب لا بالأصل والنسب»**(٢) حتى إذا كابروا وظلّوا يكابرون وينزعون عن عقيدتهم بأنهم وَرَثةُ أمجادٍ وأبناء شرف، عاد إليهم بلهجةٍ أعنف وأخذَهم بواقعٍ أشدّ ، منبّهاً إيّاهم إلى أنّهم يفاخرون بالموت والحياة أولى بهذا الفخر ، وهي أمّارةٌ بالعمل مواليةٌ لصاحب الهمّة ، قائلاً لهم: **«الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية»**(٣).

وقصّة عليّ مع قريش هي قصّة كلّ مفكّرٍ ، رأى أنّ المساواة في الحقوق هي السنّة الطبيعيّة الوحيدة في نطاق المجتمع السليم. وسوف يأتي الكلام بالتفصيل على قصّة التاريخ هذه التي يتمثّل فصلٌ من أوسع فصولها في أخبار عليّ وقريش ؛ وذلك في حديثنا اللاحق عن المؤامرة الكبرى على ابن أبي طالب.

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٣٧ ـ ٣.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ٣٨٧٣ ، وجاء فيها: إنّما الشرف بالعقل والأدب ، لا بالمال والحسب.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ١٩٩١.

ولكي يزول كلّ التباسٍ من أذهان الولاة والناس، يعود عليّ ليخصص ويفصّل في نطاق المساواة ، فيقول هنا وهناك: «**وإنّما يعاب من أخذ ما ليس له**»[١] و «**لا تنظر إلى مَن قال ، وانظر إلى ما قال**»[٢] و «**من أمنتَ أذيّته فارغب في أُخوّته**»[٣] إلى غير ذلك من الأوامر والتعاليم التي تنبع من روح المساواة في الحقوق ، ونصب فيها. فإذا اعتَبَرَ حُماةُ القانون القائلَ لا القولَ ، بطلتْ المساواة أصلاً كما بطلَ القانون. وإذا أخذ امرؤٌ ما لا يبيحه له حقُّه كان معتدياً على حقوق الآخرين، فبطلتِ المساواة كذلك. ومَن رَفَع عنك أذاه فهو أخوك أيّاً كان ، وأخوك مساوٍ لك في كلّ حقّ بنسبة مساواته لك في الصفة الإنسانية الشاملة.

ومن روائع عليّ في تعطيل قيمة النسب المصطنعة ، وتعظيم معنى الكفاءة تأميناً لمبدأ المساواة في كلِّ حقٍّ ، قولُه: «**قيمة كلّ امرئٍ ما يُحسن**»[٤]. وقد لا يصحّ هذا القول في معنى وجود الفرد المطلق ؛ لأنّ الحياة بذاتها إنّما تحمل كلّ قِيَمِها ، ولكنّه صحيحٌ مائة بالمائة في معنى وجود الإنسان الاجتماعي.

وهذا المبدأ العام في المساواة اتّفق البشر على حدوده، فقالوا إنّ المساواة في الحقوق إنّما تقوم على أربعة أُصول رئيسية هي: المساواة في القانون ، والمساواة أمام القضاء ، والمساواة في الضرائب ، ثمّ المساواة في الوظائف.

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٦٦.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١٠١٨٩.

(٣) بحار الأنوار : ٧١ / ١٦٦.

(٤) الخصال للصدوق: ٤٢ ، نهج البلاغة الثاني للحائري: ٢٦٩.

أمّا المساواة في القانون فنجدها مقرّرةٌ عند عليّ في قوله السابق: «**وليكن أمر الناس عندك في الحقّ سواء**»[١]. ثمّ في هذا القول: «**واعلموا أنّ الناس عندنا أُسوة**»[٢]. وهما قولان صريحان بمساواة الناس جميعاً أمام القانون لا يحتملان تأويلاً ولا يعتريهما إبهام. والمساواة في القانون هي ـ على كلّ حال ـ رأس المساواة في الحقوق.

أمّا المساواة أمام القضاء فلعليّ في شأنها فضل السابق والواضح والمنفّذ. ولعلّ هذا الوجه من وجوه المساواة بين الناس هو الذي كثّرَ الافتراء عليه في التاريخ وكثّر تعطيله؛ ذلك لأن كلمة القضاء هي القول الفصْل في الخلاف بين الناس؛ ولأنّ حكم القضاء في ما اختلف فيه المختلفون نافذٌ ، يجري على الناس سواءٌ أكان عادلاً أو ظالماً! ففي رجال القانون مَن عطّلوا مساواة الناس أمام القضاء في الأُصول نفسها ،كذلك القانوني الانكليزي التافه «بركلي» الذي سبقَ أن أشرنا إلى قوله: بأنّ القانون إنّما وُضع لخدمة الحكّام ، أي أن المساواة أمام القضاء معطّلة بين الحكّام والناس. وليس غريباً على دارسي التاريخ أن يعرفوا غلوّ القوانين القديمة في تعطيل هذه المساواة تعطيلاً جذرياً ، إذ لا يستطيع العبد بحُكم القانون أن يقاضي الحرّ ، وإذ لا يتمكّن ابنُ الطبقة الفقيرة من أن يقاضي النبيل ، ولا يجوز للعامّة كذلك أن تقاضي واليها ، وإذ لا يؤذن لهؤلاء جميعاً أن يفكّروا بمقاضاة صاحب السلطان الأعلى. وهذه المساواة أمام القضاء إنّ هي أُقرّت في قانونٍ من تلك القوانين ،

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٩ ـ ١.
(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٧٠ ـ ٣، وجاء في هذه الفقرة: علموا أن الناس عندنا في الحقّ أُسوة.

فإنّها لم تكن لتجوز نطاقها النظريّ ، إذْ قلّما وقعت هذه المساواة عمليّاً بين غنيٍّ وفقير ، أو بين نافذٍ وغير نافذ. وهكذا يكون الحكّام وأصحاب الامتيازات وذوو الوجاهات قد عبثوا بهذه المساواة وإن كانت مقرّرة ـ نظريًا ـ في قوانينهم. ويشاركهم في هذا العبث القضاةُ أنفسهم لأسبابٍ عدّةٍ ، نذكرها فيما بعد.

والخطر الناجم عن تعطيل هذا الوجه من وجوه المساواة ـ سواءٌ أكان هذا التعطيل بالقانون أو بالظرف الذي يحمل القاضي على الالتواء ـ خطرٌ جسيمٌ قد يجرّ المجتمع كله إلى الحضيض ، ويقضي فيه على عوامل التعاون والتآخي والأمن والعدالة ، كما قد يشدّ أزر المغتصب والظالم ، وينكب المحروم المظلوم بحقّه أو بحياته. ومَنْ يُسلَب حقّه أو يُظلم أو يُهدَر دمُه أو يُقتل باسم العدالة ـ وهي حجة القضاء والقاضي ـ كان إنساناً مسحوقاً بصيغةِ وجوده هذه ، في مجتمعٍ لا معنى لقيامه ولا خير في بقائه.

وقد أدرك عليّ أهمية المساواة أمام القضاء فجَعَلها قانوناً لا يقبل تأويلاً ولا يأذن بعبْث. كما أدرك أهمية استقامة القضاة ، فوضع قواعدَ تحفظ المستقيم منهم في حاله ، وتُيسّر طرقَ الاستقامة لغير المستقيم ، وتقضي بعزْل الجائر إذا هو لم يسلك طريقَ العدل وقد تيسّرتْ له ؛ تحقيقاً للمساواة بين الناس جميعاً أمام هذه السلطة من جانب القانون ، ومن جانب القاضي معاً.

والمساواة أمام القضاء هي على كلّ حالٍ شيءٌ من المساواة في الحقوق

العامّة، فهي من ثمّ تتضمّنها بوصفها بعضاً من كلّ. غير أنّ عليّاً يخصّص فيتوجّه إلى القاضي قائلاً: «**والزم الحقّ مَن لزمه من القريب والبعيد**»[1]. وإلى القضاة جميعاً: «**وعليكم بالعدل على الصديق والعدوّ**»[2] و «**لا تبغوا على أهل القبلة ولا تظلموا أهل الذمّة**»[3]، وهي أوامر واضحة بالمساواة بين الناس أمام كلّ قضاء، فإنّ عدم المساواة إن كان فإنّما يكون بين قريبٍ وبعيد: أمّا القريب فهو مَن وصلتْك به قرابةٌ أو مودّةٌ ، أو من له عليك نفوذٌ بالمال أو بالرئاسة، أمّا البعيد فهو مَنْ لا يصلك به شيءٌ من هذا على الإطلاق. أمّا الصديقُ فتخصيصٌ من القريب لأنّ هواك معه، وأمّا العدوّ فتخصيصٌ من البعيد لأنّ هواك عليه ، ولأنّ من العداوة ما يغيظك ، ويُثير فيك عوامل الانتقام. ثم إنك قاضٍ مسلم في دولة تدين بالإسلام وتقضي بشرعه، فإيّاك أن تبغي على مسلمٍ بحكمٍ من الأحكام لأن المسلمين متساوون بالإسلام! وفي هذه الدولة بشرٌ لا يدينون بالإسلام ، هم اليهود والنصارى ، وغيرهم من أصحاب العقائد المختلفة ، فاحذر أن تظلم واحداً من هؤلاء ، فهم متساوون والمسلمين بصفتهم الإنسانية!

وخلاصة هذا: أنّ الناس جميعاً متساوون أمام القضاء وأحكامه ، وهؤلاء الناس لا يحدّهم إلّا كونهم أُناساً وحسب. فالقريب والبعيد ، والصديق والعدوّ ، والمسلم وغير المسلم ، سواءٌ لا فرقَ بينهم أمام الحقّ.

ولمّا كان أكثر العابثين بالقضاء وأحكامه ، والمائلين بالقُضاة عن جادّة الحقّ ، ومعطّلي صفة العدالة فيه ، هم الوجهاء والنبلاء والأثرياء والأُمراء والولاة ومَن إليهم من المترفّلين ، ولمّا كان هؤلاء لا يعبثون بالقضاء ، ولا

---

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ ـ ١٢٩.

(٢) نهج السعادة: ٧ / ٤٧٤ ، تحف العقول: ٨٨، ينابيع المودة ، الباب: ١٠٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٤ / ٩٤، الكامل لابن الأثير : ٣ / ١٤٥ ، شرح النهج للمعتزلي: ٣ / ١٣٧.

ولمّا كانت شخصية عليّ من الأصالة والتماسك على ما أشرنا إليه، فقد ضرب بنفسه أروعَ الأمثال على المساواة المطلقة بين الناس أمام القضاء. من ذلك ما ذكرناه في فصلٍ سابق عن المقاضاة التي كان هو فيها أحد الطرفين المتخاصمين. فعُد إليها [1] إذا شئتَ ، فهي من الحوادث التي يعتزّ بها تراثُ الخلق الإنساني النازع عن الشعور الصافي بالمساواة بين البشر في كافّة أحوالهم ، وفيها أكثر من عبرة وأكثر من مَثل. فيها ما نحن بصدَد الكلام عليه من المساواة بين الكبير والصغير ، والحاكم والمحكوم ، والمسلم وغير المسلم. وفيها الاعتراف المطلق بحريّة القاضي ورفْع كلّ سلطةٍ عنه ليحكم بالقانون وبالضمير حقّاً، وهو مبدأُ فصْلِ السلطة القضائية عن السلطة العامّة؛ توفيراً للمساواة بين الناس وتمكيناً للقاضي بالحكم بالعدل. وفيها احترام القضاء عندما يكون حُكمه صادراً عن قانونٍ عامّ ، ونظرٍ سليم ووجدان صاف. وفيها ، فوق ذلك جميعاً هذا التعفّف عن الطعن والمذمّة ، وهذا الاحترام العميق لكرامة الإنسان ، الباديان في قوله «**إنّها درعي ولم أبِعْ ولم أهَبْ**»[2] فهو واثقٌ أن هذه الدرع له ، وأنّ خصمه قد سرقها. ولكنّه لم يشأ أن يجرح كرامة هذا الخصم فيقول مثلاً: إنها درعي وقد سرقها. فاكتفى بأن يقول : إنه لم يبعْها ولم يهبْها ! والدرع التي لم تبعْها ولم تهبْها ثمّ تجدها عند إنسان آخر ، درعٌ مسروقةٌ بلا شكّ.

وأروعُ من هذا المثَل في المساواة أمام القضاء ، مَثَلٌ آخر ضرَبَه عليّ نفسه في خلافة عمر بن الخطّاب. فقد شكا أحدُ الناس عليّاً إلى عمر بن

(١) راجع ص ٩٢ من هذا الكتاب (بحث الخلق العظيم).
(٢) مناقب ابن شهرآشوب : ٢ / ١٠٥.

الخطّاب في خصومةٍ ، وكان عمر خليفة. فأحضرهما وقال لعليّ : قف يا أبا الحسن بجانب خصمك ! فبدا التأثّر على وجه عليّ. فقال له عمر : أكرِهْتَ يا عليّ أن تقف إلى جانب خصمك؟ فقال عليّ : **«لا يا أمير المؤمنين ! ولكني رأيتُك لم تُسوِّ بيني وبينه ، إذ عظّمْتَني بالتكْنية ولم تُكنّه»**.(١)

وفي قول عليّ هذا ، الغايةُ التي لا غاية بعدها في الشعور العميق بالمساواة بين الناس. وفيه الغاية التي لا غاية بعدها في الشعور العميق، بما قد يُساور أحدَ المتقاضيَين من شعورٍ خفيّ بالهوان والمذلّة ساعةَ يحسّ أن في القضاء أدنى إيثارٍ لإنسانٍ على إنسان ، وأنّ لدى القاضي شعوراً سابقاً بقيمة خصمه. وفيه ما يجمع ذلك كلّه ويزيد عنه ، ألا وهو الخلق العظيم : مصدر كلّ قضاء شريف.

عمل عليّ بهذه النزعة التي تدلّ على إيمانه ؛ بأن رئيس الدولة نفسه ليس بفَوقِ أن يمثُل أمام القضاء ، ولا بفَوقِ أن يساوي رجلاً عاديّاً أمام القاضي، ولا بفَوقِ أن يقبل الحكم عليه. فالقضاء في مذهبه ليس مؤسّسةٌ تُضاف إلى سائر المؤسّسات التي أنشأها الأقوياء لأكل الضعفاء ، والظالمون لإرهاقِ المظلومين ، وأصحاب السلطان لأخْذ السبيل على الناس بالعدوان والتنكيل.

عملَ بهذه النزعة ، ووضع قواعدَ وقوانينَ تحمل القضاة على أن يحتذوا (٢) خطاه في التسوية بين الخلق ؛ حتّى أنّه لم يهمل في ذلك كبيرةً أو صغيرةً إلّا أشار إليها.

من ذلك أنّه أوصى الأشتر النخعي في عهده إليه ـ وهو عهدٌ بمثابة القانون والدستور ـ قائلاً: **«واشعِر قلبك الرحمة للرعيّة ، والمحبّةَ لهم ، واللطفَ بهم ، ولا تكوننّ**

(١) شرح نهج البلاغة : ١٧ / ٦٥ ، مناقب الخوارزمي : ٩٨.

(٢) يحتذوا : يتّبعوا ، يقتدوا. انظر كتاب العين: ٢٨٤/٣، مادة «حذو».

عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم»[١]. و «**انصفِ الناسَ من نفسك ومن خاصّة أهلك ومَن لك فيه هوىً من رعيّتك ، فإنكَ إلّا تفعلْ تظلِم. وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظلمٍ»**[٢]. و «**ليكنْ أحبّ الأُمور إليك أوسطها في الحقّ وأعمّها في العدل وأجمعها لرضا الرعيّة»**[٣]. و «**اجعلْ لذوي الحاجات منك قسماً تُفرّغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عامّاً ، وتُقعِد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرَطك ؛ حتّى يكلمك مُتكلّمهم غيرَ مُتَتَعْتِع**[٤] **ثم احتملْ الخرْقَ**[٥] **منهم والعيّ**[٦] **ونحِّ عنهم الضيقَ والأنَف**[٧]**»**[٨].

وليست بنا حاجةٌ للإشارة إلى ما في هذه الوصايا من قواعدَ تصحّ ولا يصحّ سواها في التسوية بين الناس أمام القضاء. فلا خاصّة أمام القضاء ، ولا أهل ولا أقارب ولا أصحاب نفوذٍ وسلطان ، بل بشرٌ متساوون. ولا هوىً يشدّ صاحبَ القضاء إلى هنا أو هناك ، بل نظرٌ سليم وحُكمٌ عادل.

وليستْ بنا حاجة كذلك للإشارة إلى ما في هذه الوصايا من حنانٍ عميقٍ ومن عطفٍ كثيرٍ على البشر، ممّا ينزع عن وجه القضاء العُبوسَ والتقطيب ، وينزع من كلمة القاضي الجفافَ والقسوةَ ، فإذا القضاءُ رحمةٌ بالناس ومحبّةٌ لهم ، وتصريفٌ عادلٌ خيّرٌ لشؤونهم. وإذا القاضي أخٌ رحومٌ عطوفٌ لطيف ،

---

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ٨.

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ١٧.

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ٢٠.

(٤) التعتعة في الكلام : التردد فيه من عجز وعي ، والمراد : غير خائف. انظر الصحاح: ١١٩١/٣.

(٥) الخرق : العنف ، ضدّ الرفق.

(٦) العيّ : العجز عن النطق.

(٧) الأنف : الاستنكاف والاستكبار.

(٨) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ١٠٩.

لا سبعٌ ضارٍ ولا وجهٌ متجهّم. وإذا الناس لديه آمنون مطمئنّون ، يتكلّمون بحريّةٍ ويقولون على مَهَل ، وهم واثقون بأنّ صاحب الحقّ سينتهي إليه حقّه ، لا حرّاس فوق رؤوسهم يُخيفونهم ولا شُرطَ ولا أعوان ، ولا هم خائفون ولا عاجزون عن النطق بفعلِ هذا الخوف ، وكيف يتساوى الناس أمام القضاء وفيهم من يعجز عن النطق رهبةً أو خشية؟

وليست بنا حاجة كذلك للإشارة إلى هذا الإمعان في الرحمة بالمتقاضين ، إذ يأمر عليٌّ القضاةَ ـ أو العمّالَ ساعةَ يقضون ـ بأن يحتملوا العنفَ والعيّ من المتقاضين المتساوين ، فلا يستكبرون ولا يستنكفون ، ولا يسخطون ولا يثورون. بل إنّه يحمّل القضاة مسؤولية الاستكبار والسخط إذا هم لجأوا إليهما تحت أعين المتقاضين ، تمكيناً لهؤلاء من ألّا يستشعروا سخطَ القاضي فيجبنوا ويخافوا ، وتمكيناً للقضاة من أن يحكموا بعدْلٍ، فلا تكون لسَورة الغضب يدٌ في الحكم من ذلك ما أمرَ به شريحاً القاضي، إذ قال له : «**لا تُسارّ أحداً في مجلسك ، لأنّ في هذه المسارّة ما يُشعِر أحد المتخاصمَين بأنّ للقاضي هوىً في خصمه، ومثل هذا الشعور يؤذي الاطمئنان إلى المساواة ، وإن غضبتَ فقم ، ولا تقضَينّ وأنت غضبان!**»[1].

وإذا امتلأ قلب القاضي بالرحمة كما يريد عليّ ـ لأنّ القضاء في نظره إنصافٌ لمظلومٍ ورحمةٌ بالناس وحكمٌ بحقّ ـ فما عليه إلّا أن يُشعر المتقاضين بأنّهم سواء لديه ، وبأنّه إنّما يقضي بينهم بالرحمة. لذلك يجب ألّا يقضي وهو غضبان ـ كما مرّ بنا ـ وألّا يجلس إلى القضاء إلّا وعلى وجهه بشاشة. وإن هو ضحك لخصمٍ ، فعليه أن يضحك للخصم الآخر ، ليساوي بينهما حتّى في

(١) تهذيب الأحكام : ٦ / ٢٢٧.

أبسط الأُمور. فالمساواة بين الناس لدى القاضي يجب ألّا تكون بقضائه فقط، بل بمجلسه وبوجهه حتّى لا يطمع قويّ في حَيْفِهِ ، ولا ييأس ضعيفٌ من عدله. يقول عليّ مخاطباً مَن يجلس للناس مجلس القضاء : «**اخفُض لهم جناحك ، وأَلِن لهم جانبك ، وأبسط لهم وجهك ، وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة، حتّى لا يطمح الأقوياء في حيْفك**[1] **ولا ييأس الضعفاء من عدلك**»[2].

ويتجاوز عليّ ذلك إلى تخصيص نصوصٍ في ضرورة الانتصاف من ذوي الوجاهات الذين كانوا يحسبون أنّ القضاء مؤسّسةٌ خاصةٌ بهم ؛ وأنّ القضاة في خدمتهم ، وأنّهم غير متساوين بالعامّة أمام الحقّ. وقد مرّت بنا نصوصٌ تَوجّهَ بها إلى الأشتر النخعي في هذا الشأن. ونزيد عليها الآن هذا الأمرَ الذي أصدره إلى شريح القاضي ، قال: «**انظرْ إلى أهل الملك والمَطْل من أهل اليسار، فخذْ للناس بحقوقهم منهم وبِعْ فيها العقار والديار**»[3].

فهذا عليّ الذي رأيناه يأمر وُلاتَه بألّا يأخذوا الخراج من الناس إلّا إذا كانوا قادرين ، وبألّا يقسوا على أحدٍ منهم ، وبألّا يبيعوا لهم شيئاً من الأشياء؛ استيفاءً لما يترتّب عليهم دفعُه من مال هذا الخراج ، نراه الآن ، وقد هالَه فجورُ طبقة الوجهاء ،كما هاله استكبارُهم ورغبتُهم عن أن يتساووا مع جميع الناس أمام القضاء العادل ، يأمر قاضيَه بأن يحملهم قسْراً على الاعتراف بهذه المساواة ،كما يأمره بأن يسترجع بالقوّة ما اغتصبوه من حقوق العامّة ، ويبيع لهم عقارهم وديارهم انتصافاً منهم للمظلوم ، وهم الظالمون.

---

(١) الحيف : الحكم بالظلم.

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٢٧ ـ ١.

(٣) الكافي : ٧ / ٤١٢، وفيهما وفي أغلب المصادر: «أهل المعك» بدل «أهل الملك».

ولا تظنّن أنّ عليّاً يجور على هؤلاء الوجهاء ساعةَ يأمر القاضي ببيع عقارهم وديارهم بحقوق العامّة. فإذا كان بين هؤلاء من لا يملك عقاراً ولا داراً ولا مالاً ، فالحكم عليه ألّا يَظلِم ولا يُظلَم. لذلك يستدرك عليّ بعضَ أمره إلى القاضي فيقول في شأن هؤلاء الوجهاء : **«ومَن لم يكن له عقارٌ ولا دارٌ ولا مال، فلا سبيل عليه»**(١).

وقد سبق لنا أنْ قلنا : إنّ المساواة أمام القضاء قد تعطل إمّا بنصٍ صريح يميّز طبقةً من البشر عن طبقة ، وإمّا بالتواء القاضي وانحرافه عن الطريق المستقيم. فالقضاء قانونٌ أوّلاً ، وقاضٍ يحكم بموجبه ثانياً. أمّا المساواة أمامه بين جميع الناس ، فقد تكلّمنا عليها ، وبَـيّنا كيف جعل عليّ هذه المساواة قاعدة أساسية في القضاء لا يجوز الانحراف عنها كثيراً أو قليلاً : فالناس أمام القضاء متساوون ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا بين جنس وجنس ، ولا بين دين ودين.

أمّا في ما يختصّ بالقاضي نفسه، فإن عليّاً وضع لصلاحه واستقامته وتسويته بين الناس شروطاً لا تقلّ في أهمّيتها ـ من الناحية العمليّة ـ عن شروط المساواة في المبدأ. ولْنرَ ما فعل:

دَرَجَ الحكّام القدماء في الشرق والغرب على تولية القضاء رجالاً ذوي صفاتٍ، تُعيّنُها مصالحُ هؤلاء الحكّام بأوسع معانيها، ومصالحُ الطبقات التي تتبادل مع حكّام هذه المصالح، حتى إذا ساوى القانونُ بين طبقات الناس عطّلَ القاضي هذه المساواة ، وحكَمَ بهوى الحكّام وأصحابِ الامتيازات.

وتاريخ أوروبا في القرون الوسطى يفيض بأخبار هذا النوع من القضاة.

---

(١) الكافي : ٧ / ٤١٢ ، تهذيب الأحكام : ٦ / ٢٢٦ ، وسائل الشيعة : ١٨ / ٣٤٣ ، و ١٧ / ٣٠٨.

وكذلك تاريخ الشرق العربي أيّام الأُمويين والعباسيين والمماليك والأتراك وغيرهم. وإنّ الجرائم التي ارتكبها القضاة المنحرفون هنا وهناك باسم العدالة لممّا يُخزي جبينَ الإنسانية ، ويستوجب اللعنةَ على رؤوس أولئك القضاة. فالجريمة التي تُقْتَرَف بحقّ أحد الناس، أو بحقّ جماعةٍ من الناس باسم السياسة أو بتدبيرٍ سياسيّ، هي أخفّ وطأةً على النفوس ـ بالرغم من شناعتها ـ من تلك التي تُقتَرَف باسم العدالة ، ويحكم بها قضاةٌ هم المرجع الأخير للقانون وللضمير معاً.

وماذا فعل عليّ بصَدد القضاة؟ وما هي القواعد التي ركّزها ليحول دون الغبن يلحق بالناس عن طريق القاضي ،كما حال دون هذا الغبن يلحق بهم عن طريق القانون؟

كان الشرط الأوّل الذي يجب أن يتوفر في شخص القاضي في دستور ابن أبي طالب الكفاءة العلمية، فبدون هذه الكفاءة يضطرّ القاضي إلى أن يحكم : إمّا بعلمه المحدود وإمّا بهواه، وكلاهما لا يكفي لأن يُقيم حدودَ المساواة بين الناس.

فالكفاءة العلمية تعني أولاً: استناد القاضي إلى خبرة الأجيال التي سبقتْه وإلى علوم الأوّلين والمعاصرين ، وإلى القوانين والشرائع التي اشتغلتْ في وضعها عقولٌ فذّةٌ، يتفوّق أصحابها على هذا القاضي بما درسوا وبما اختبروا ، وبما جمعوا ، ثم بما أبدعوا ، ويدفعون إليه بنتاج عقولهم واختباراتهم ؛ لتكون قانوناً يسير عليه وهدياً يهتدي به. والكفاءة العلمية تعني ثانياً : استناد القاضي إلى قوانين موحّدة يُعمل بها في أنحاء البلاد جميعاً ، فلا يُصدر قاضي البصرة ـ مثلاً ـ حُكماً في قضيّةٍ يكون حاكمُ الكوفة قد أصدر

حكماً معارضاً له في قضيّةٍ مشابهة لها ، ويكون حاكم المدينة قد أصدر كذلك حُكماً ثالثاً ، لا يتفق مع واحدٍ من هذين في أساسٍ ولا في فرع. وحين يتولّى القضاء رجلٌ لا كفاءة علمية عنده ، لا يلبث أن يصبح آلةً للفساد والشرّ ، مهما كانت القوانين صالحة وعادلة بحُكم جهله هذه القوانين.

وعليّ الذي يقول لكافّة الناس: **«أقلّ الناس قيمةً أقلّهم علماً»**[١] ، والذي يقول كذلك : **«ما من حركةٍ إلّا وأنت محتاجٌ فيها إلى معرفة»**[٢] أو يقول: **«أعلَم الناس مَن جمع علم الناس إلى علمه»**[٣]، أحرى به أن يطلب مثل هذا العلم ممّن يعدّ نفسه لمنصب القضاء؟ ولذلك يقول : **«مَن أفتى الناس بغير علم لعنته الأرضُ والسماء»**[٤]. ويهاجم في القاضي الجاهل جهلَه فيقول : **«وآخر قد تسمّى عالماً وليس به. فاقتَبَسَ جهائلَ مِن جهّال ، وأضاليلَ من ضلّال ، ونصبَ للناس شرَكاً من حبائل غرور وقوْل زُور. يُؤمّن مِن العظائم ويهوّنُ كبيرَ الجرائم ، يقول: أقفُ عند الشّبُهات**[٥] **وفيها وقَع. فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان!»**[٦].

ويقول في مكان آخر ، في القاضي الجاهل الذي أوصلته إلى منصب القضاء أُمورٌ غير الكفاءة :

«.. قد سمّاه أشباهُ الناس عالماً وليس به. فاستكثرَ مِن جمْع ما قَلّ منه خيرٌ مَاكثُرَ[٧] **حتى إذا ارتوى من ماءٍ آجن واكتنز من غير طائل جلس بين الناس قاضياً ضامناً تخليصَ ما**

(١) ينابيع المودة للقندوزي: ٤١٦/٢، كنز الفوائد للكراكجكي: ١٣٨ .
(٢) تحف العقول : ١٢٧ ، مستدرك الوسائل : ٧ / ٢٦٨.
(٣) المحاسن : ١ / ٢٣٠ ، من لا يحضره الفقيه : ٤ / ٣٩٥ ، الخصال : ٥ .
(٤) الحديث نبوي في مسند زيد : ٤٤٤.
(٥) الشبهات : ما لا يتضح الحكم فيه.
(٦) نهج البلاغة : الخطبة ٨٧ ـ ١٠.
(٧) أي : استكثر من جمع معلومات تافهة ، قليلها خير من كثيرها.

التبسَ على غيره، فإنْ نزلتْ به إحدى المهمّات هَيّأ حَشْواً رثّاً من رأيه ثم قَطَعَ به. فهو مِن لبس الشّبُهات في مِثل نسْج العنكبوت»(١).

فالكفاءة شرطٌ أساسيّ في من يجب أن يتولّى القضاء في دستور علـيّ. والقاضي يجب «**ألّا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه**»(٢) ، وأن يقف عند الشبهات، فلا يحكم إلّا وقد دلّه علمُه على أصل الحادثة الصحيح، بعد الصبر الطويل على تَكَشّف الأُمور ، وبعد الأخذ بالحجج والمقاييس.

ولقيامَ هذه الحجج والمقاييس قياماً صحيحاً، كان يشترط على القـاضي العالم ألّا يسمع الدعوى لأحد الخصمين إلّا بحضور الخصم الآخر ، ليـجيب عمّا اتُّهِم به فتتعادل كفّتا الميزان وتبين الحـجّة. وكـان علـيّ يـجمع القـضاة والفقهاء بين حين وحين ؛ ليوحّد الأُسس التي تقوم عليها الأحكامُ في كـافّة الأمصار ، ويجعل كلّاً من القضاة على علمٍ واسعٍ بما بلغ إليه الاجتهاد. وكـان يقول : «**ترِد على أحدهم القضيّةُ في حكمٍ من الأحكام ، فيحكم فيها برأيه. ثمّ تَرِدُ تلك القضيّة بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه. ثمّ يجتمع القـضاة بـذلك عـند الإمـام الذي استقضاهم فيصوّب آراءَهم جميعاً**»(٣).

والشرط الثاني الذي يجب أن يتوفّر في شخص القاضي في دستور ابن أبي طالب شرطٌ خلقيّ، لا ينفع وجودُ الشرط الأوّل بدونه. وقد عرفنا أنّ عليّاً يبثّ حرارةَ الحنان ودفء القلب في كلّ ما يعمل ويقول ويشترع. وهو يريد مثل هذه الحرارة وهذا الدفء في شخصيّة القاضي شريطةَ أن يكونا فيه طبعاً لا كلفةً. فإذا توفّر العلم والكفاءة في رجلٍ ما ، ولم تتوفّر فيه المزايـا الخـلقيّة

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٧ ـ ٦.
(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ٦٧.
(٣) نهج البلاغة : الخطبة ١٨ ـ ٢.

الكريمة، فإنّ عليّاً يمنعه مِن توَلّي القضاء. وقد فصّل هذه المزايا في عـهوده ووصاياه جميعاً ، وفي دستوره إلى الأشتر النخعي بصورة خاصّة.

وقد اشترط عليّ في القاضي : سعةَ الصدر ، وضبطَ النفس ، وبشاشة الوجه ، وطيبَ القلب ، وسلامة الوجدان والرفقَ بالمتخاصمين ؛ حتّى ولو أسمعوه كلاماً عنيفاً يضيق به الصدر. ويضع عليّ الرفقَ بالناس موضعاً عظيماً فيقول : «**الرفق رأس العلم**»[1]. كما اشترطَ فيه الحبّ المطلق للعدالة ، والميلَ الأصيل إلى رفْع الظلم ، وعدم التسرّع في الحكم ، وعدَم الغضب ، والتبصّرَ في الأُمور تبصّراً طويلاً ، وألّا يُشرف على طمع ، وألّا يخشى في الحقّ أحداً ، وألّا يكون فيه حنينٌ إلى الحظوة لدى الوجهاء. يقول في عهده إلى الأشتر النخعي :

«**ثمّ اخترْ للحكمْ بين الناس أفضلَ رعيّتك في نفسك، ممّن لا تضيق به الأُمور ولا تُمحِكُه[2] الخصوم ، ولا يتمادى في الزلّة ، ولا تُشرف نفسه على مطمعٍ ، ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه. وأوْقَفَهم في الشّبُهات ، وآخَذَهم بالحجج ، وأقلّهم تبرّماً بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشّف الأُمور ، وأصرَمَهم عند اتّضاح الحكم ، ممّن لا يزدهيه إطراءٌ ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل**»[3]. ويشترط عليّ في القاضي كذلك : أن يكون مسلكه في الناس مَثَلاً يُقتدى ، قائلاً للقاضي شريح : «**واعلمْ أنّه لا يحملُ الناسَ على الحقّ إلّا مَن وَزَعَهم ـ**بسيرته**ـ عن الباطل**»[4]. وأن يُعين على الحقّ أبداً ، وأن يرد الجورَ أبداً ، وألّا يستثقل كلمةَ الحقّ تُقال له : «**رحِمَ اللهُ أمرأً رأى حقّاً**

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم : ٥٢٢٤ ، وجاء فيها : **رأس العلم الرفق.**

(٢) تمحكه : تضيق خلقه.

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ٦٩.

(٤) من لا يحضره الفقيه : ٣ / ١٥.

فقد عالجه عليّ فأحسنَ العلاج. وعليّ الذي أدرك أنّ «**الفقر هو الموت الأكبر**»(١)، يدرك أنّ هذا «الموت الأكبر» قد يلفّ بجناحيه القاضي ،كما يلفّ سواه. فإذا به يؤمّنه اقتصاديّاً كي لا يطمع برشوةٍ ولا يساير في سبيلِ منفعة. فيقول في عهده إلى الأشتر هذا القول الصريح : «**وافسِحْ له** ـ أي القاضي ـ **في البذْل ما يزيل علّته ،وتقلّ معه حاجتُه إلى الناس!**»(٢).

ثم إنّ القاضي قد ينحرف ، بالرغم من كل أسباب الوقاية التي أحاطه بها عليّ في دستوره ، بسببٍ واضحٍ أو خفيّ. وعندذاك تتولّى السلطة العليا مراقبته ، والنظرَ في أحكامه ومراجعتها في ضوء العقل والوجدان. وهكذا يجعل عليّ السلطة مسؤولة عن أن تتعهّد القاضي بالتفتيش ، قائلاً لممثّل هذه السلطة : «**ثمّ أكثِرْ تعاهُد قَضائه!**»(٣).

وإذا عجز القاضي في خاتمة الأمر ، عن أن يحكم بالعدل بين الناس ، وأن ينتصف للمظلوم من ذوي الوجاهات والنبلاء والمعتدّين بمولدهم ، أو بما صاروا إليه ، أو إذا عجز عن الحكم بالعدل ساعةَ تقع الخصومة بين أحد العامّة وبين الوالي نفسه وقد يكون باغياً أثيماً ، فإلامَ يؤول الأمر؟

لقد وقف عليّ هنا موقف العازم الحازم الذي يأبى على العدل أن ينكّس رايته ، وعلى المساواة أن يجوز عليها الظالم الباغي بما لديه من نفوذِ الولاية أو الجاه، فأعملَ فكره وقلبه ليفتح باب المساواة أمام القضاء على مصراعيه، فيدخله كلّ من ظَلَمَهُ الوُلاة والحكّام فتقرّ عينه ويُنصَف ، ويحسّ أنّه مساوٍ ـ عمليّاً ـ لهؤلاء الولاة والحكّام أمام العدالة. فإذا به يُبدع ما أسماه «النظر

(١) نهج البلاغة : قصار الحكم ١٦٣.
(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ٦٩.
(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ٦٩.

في المظالم» وهو مجلسٌ يجلسه رئيس الدولة نفسه ؛ ليرفع إليه الذيـن بَـغَى عليهم الولاةُ والأُمراء ظلامَتَهم وشكاويهم.

وكان الناس يتوافدون عليه إذا جلس للنظر في المظالم. وكانوا يتوافدون عليه في ساعات راحته الخاصّة، فيبشّ لهم في الحالتين ، ويكرمهم ويستمع إلى ظلامتهم فيرفعها من فوره لا إبطاء ولا تأجيل. وكم عَزَلَ من والٍ لاعتدائه على أحد الناس ولو أقلّ اعتداء؟ وكم هدّد من والٍ بـالعزل بـظلامةٍ يـرفعها أحدهم إليه؟ وكم وبّخ من والٍ أشدّ توبيخ ؛ لمَا بَدَرَ منه من ميلٍ إلى الاستعلاء على الناس ، أو إلى بخْسِهم أشياءَهم؟ وقد مرّ بنا ما روتْه إحداهنّ : ـ سودة بنت عمارة الهمدانية[1] ـ ساعةَ جاءت إلى عليّ تشتكي من رجلٍ ولّاه إمارةَ الصدقات. ولم يكن اليوم ولا الساعة للنظر في المظالم، فأقبلَ عليها عليّ ببشاشةٍ ، وقال لها بعطف ورأفة : **«ألك حاجة؟»** فأخبرتْه خبرَ أمير الصدقات، فبكى وقال : **«اللّهم إني لم آمرهم بظلم خلقك!»**. ثم أخرج من جيبه ورقة فكتب فيها : **«.. أوفوا الكيلَ والميزان ، ولا تبخسوا النـاس أشياءَهم ، ولا تعثوا فـي الأرض مفسدين! إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك ؛ حتّى يأتي مَن يقبضه منك والسلام»**[2].

وكان يردّد كلما ذُكر له الولاةُ الظالمون الذين بغوا على الناس ، وأكلوا حقوقهم، فما استطاع قاضٍ أن يكفّ عن الخلق طغيانهم وجورَهم ، فَعَزَلهم هو وأقصاهم ، وردّ مظالمهم عليهم : **«بُعداً لهم وسحقاً!»**[3].

وقد عرفتْ هذه الوظيفة القضائية في العهد الفاطمي في مصر باسم :

---

(١) شاعرة من شواعر العرب ، ذات فصاحة وبيان ، كانت تحضّ الرجال على القتال في صفّين ، وفدت على معاوية ، ورثت أمير المؤمنين (أعلام النساء: ٢ / ٢٧٠).

(٢) كشف الغمّة للأربلي : ١ / ١٧٣.

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٧٠ ـ ٣.

«ولاية المظالم» ، ودُعي قاضيها باسم : «قاضي المظالم». وكثيراً ما كان الخليفة الفاطمي نفسه يشغل هذه الوظيفة.

وتتّصل أسباب العدالة العامّة بأسباب العطف ؛ اتّصالاً قويّاً مُحكماً في قضاء عليّ. فإذا هو أسبق القضاة الحكماء إلى إقرار ما نسمّيه اليوم بالحقّ العامّ ، الذي هو من خصوصيات النيابة العامّة. وفي ذلك ما فيه من مراعاةٍ لفكرة العدل بين الناس ، وفكرة المساواة ، على صعيدٍ يُرفَع لكرامة الإنسان وقدسيّة حقوقه ، دونما نظرٍ إلى موقف الجانبين المتقاضيين. وفيه ما فيه من لفْت أنظار الناس إلى واجباتهم نحو المجتمع الذي يعيشون فيه ، ونحو إخوانهم الذين يعايشونهم بالمساواة. وفيه كذلك صائبُ النظر إلى المجتمع على أنّه : وحدةٌ يرتبط فيها الأفراد بقوانين عامّة ، واحترامٍ متبادَل يعود الأمر فيه إلى المجتمع نفسه لا إلى الأفراد المتقاضين وحسب. فإثباتاً لهذه القوانين ومراعاةً لوضع المجتمع كوحدةٍ متعاونةٍ متساوية في الحقوق والواجبات وَضَعَ عليّ في قضائه هذا الأصلَ الذي تعتمده الشعوب المتحضّرة اليومَ في قضائها :

فقد سمع عليّ في إحدى الليالي صوتَ مستغيثٍ يدعو مَن يجيره ، فهرع إليه بنفسه يجري ويقول : **«أتاك الغوث!»** ، ثمّ ما لبث أن رأى رجلاً يُمسك برجلٍ آخر إمساكاً شديداً فما أقبل عليّ حتّى خلّاه وقال : يا أميرَ المؤمنين! بعتُ هذا الرجلَ ثوباً بتسعة دراهم ، فأعطاني دراهمَ على غير الشرط، ثمّ لمّا طلبتُ إليه استعاضةَ غيرها أبى ، ثمّ شتمني ولطمني لطماً موجعاً. فقال عليّ للمشتري : أَبدِلها له! ثمّ قالَ للمدّعي : أينَ بيّنتُك على اللطمة؟ فجاءه بالبيّنة، فقال عليّ للضارب المعتدي : اقعدْ هنا! ثمّ قال للمضروب : اقتصّ منه، فقال :

إني عفوتُ عنه! فأبى عليّ عندذاك أن يطلب منه لطْمَ المعتدي وقد عفا عنه[1]. والعفو خطةٌ اختطّها ابنُ أبي طالب لنفسه ، ولزِمَها في حدودها ، وأمَرَ بها الناس ، لذلك سَرّه من المدّعي أن يعفو عن المعتدي. ولكنّ ذهنَ عليّ الوقّاد أشار إليه أنّ هنالك حقّاً عامّاً يجب أن يكون بالضرورة ، وأن يكون من شأنه معاقبة الآثم والمعتدي والمغتصب أيّاً كان ؛ محافظةً على صحّة العلاقات بين أفراد المجتمع ، ودفعاً للتفكير ثانيةً بهدْر الحقوق. ولا شكّ في أن عليّاً قد ذكر في تلك الدقائق أنّ هنالك أقوياء من كلّ صنفٍ يعتدون ويغتصبون ويأثمون، ولا يستطيع المظلومون بهم أن يقاضوهم عندذاك ، إمّا لخوف في قلوبهم مستحكمٍ ، وإمّا لغير ذلك. فهل تُهدَر حقوق المستضعفين إذاً؟ ومَن يكون مسؤولاً عن حماية هؤلاء حتّى وإن لم يرفعوا ظلامتهم إلى القضاء؟ ومَن يتولّى المحافظة على حقوقهم في مثل هذه الحال ، ويجعل في قلوبهم الاطمئنان، إلى أنّهم يعيشون في مجتمعٍ يكون فيه الناس سواسيةً ، لا فرق بينهم في الحقوق العامّة؟ وقد يأثمُ أحدُ هؤلاء الغاصبين، فيقتل إنساناً ليس له قريبٌ أو وريث يطلب عدلاً بقتله ، فهل يذهب عندذاك حقّه كإنسانٍ كان حيّاً وكان يجب أن يحيا ملءَ حياته؟

وهكذا خَلّى عليّ المعتدَى عليه ، وأمسك بالضارب المعتدي على مشهدٍ من المضروب الذي عفا عنه ، ولَطَمه بيده تسعَ مرّاتٍ وقال : هذا حقّ السلطان .

وعليّ الذي رأيناه هنا يضرب معتدياً عفا عنه خصمُه أخْذاً بالحقّ العامّ ، نراه في مكانٍ آخر يعطّل الحَدّ المقرّر فلا يُقيمه على زانيةٍ اعترفتْ بما فعلتْ ؛

---

(١) تاريخ الطبري : ٤ / ١٢٠.

ملاحظاً الظرف وملتفتاً إلى الضرورة. ومِن أخباره الدالّة على أنّ القضاء لديه عدلٌ ورحمة وانتصاف واحتكام إلى المنطق والوجدان ، لا قانونٌ جافّ خالٍ من الروح يأخذ الأحياءَ ،كما يأخذ جمادات الطبيعة بالأرقام وما إليها ، هذا الخبر الذي رواه البيهقي في «السنن» قال :

أُتيَ عمر بن الخطّاب في خلافته بامرأةٍ جهدَها العطشُ، فمرّت على راعٍ فاستسقتْ ، فأبى الراعي أن يسقيها إلّا أن تمكّنه من نفسها، ففعلتْ، فشاور عمرُ الناسَ في رجْمها، فقال عليّ : هذه مضطرّة أرى أن يُخلّى سبيلُها، ففعَل.[1]

ونظرة عليّ هذه هي نظريّة الضرورة في القانون الجنائي الحديث. وهي نظريةٌ تجعلُ للقوانين وللأحكام الصادرة عنها طابعاً إنسانيّاً بعيداً عن الجفاف.

ومن أعمال عليّ لجعْل الناس سواسيةً أمام كلّ قانون ، ولأخْذ أهل الريبة بما يفعلون ، ثمّ لإثبات نظرية الحقّ العامّ، أنّه استحدث في أجهزة الدولة جهازاً خاصّاً يكون عيناً للقانون وعوناً للقاضي، وهو جهاز الشرطة الذي حوّله الأُمويون والعبّاسيون وغيرهم فيما بعد إلى أداة انتقامٍ، تديرها أيديهم في الخفاء وفي العلانية ضدّ خصومهم الأبرياء. وكلّ ماكان يُعرف قبل عليّ في هذا الموضوع ، وهو نظام العَسَس الذي أوجده عمر بن الخطّاب. وهو الطواف ليلاً للبحث عن أهل الريبة.

وكان عليّ من الرحمة بحيث كان يحسن معاملة من تجري عليهم أحكام القضاء بالسجن. وهو أوّل من أجرى على أهل السجون ما يكفيهم من الرزق والكساء شتاءً وصيفاً. فإذاكان لواحدهم مالٌ أنفق عليه من ماله، وإن لم يكن

(١) السنن الكبرىٰ للبيهقي : ٨ / ٢٣٦.

له مالٌ أنفق عليه من بيت مال الأُمّة. وكان فوق ذلك يأذن لأهل السجن بأن يخرجوا منه أوقاتاً محدّدة ؛كي لا يبقى أحدٌ منهم في هوان الأسر طوال نهاره. ونحن اليوم نجد الإنفاق على أهل السجون أمراً عاديّاً ؛ لأنّا أَلِفْناه بعد زمن الثورة الفرنسية، غير أنّا حين نعرف كيف عامل الأُمويون والعباسيون ـ مثلاً ـ أهلَ السجون فيما بعد ، وما كان هؤلاء يلقونه من الضرب والإهانة والتقييد بالأغلال والإرهاق والعنت والجوع والعري في أيّام الدولة العبيدية في مصر وفي القرون الوسطى بأوروبا ، وكيف كانت السجون : «الداخل لها مفقود والخارج منها مولود» ،ندرك قيمة ما عمله عليّ في هذا الشأن ،كما ندرك مدى الرحمة التي كانت تعمر قلبه. وبعضُ دليلنا على ذلك ما يرويه المقريزي إذ يصف السجون وأهلها في زمانه ـ في القرن الخامس عشر ـ يقول :

«وأما الحبس الآن فإنّه يجمع الكثير في موضعٍ يضيق عنهم. يؤذيهم الحرّ في الصيف والبرد في الشتاء. يخرجون مع الأعوان في الحديد وهم يصرخون في الطرقات من الجوع! وجميع ما يُجَمع لهم من صدقات الناس ، يأخذه السجّان وأعوان الوالي. وهم مع ذلك يُستعملون في الحفر ونحو ذلك من الأعمال الشاقّة ، والأعوان تستحثّهم ، فإذا انقضى عملهم ردّوا إلى السجن في حديدهم ، من غير أن يُطعَموا شيئاً.

وهكذا يكون عليّ قد سبق إنسان العصور الحديثة إلى خلق أربع وظائف قضائية أساسية ؛ تركيزاً لعدالة القضاء ، وتمكيناً للناس من أن يطمئنوا إلى أنّهم متساوون جميعاً أمام القاضي. أمّا هذه الوظائف ، فأُولاها : الخطوة إلى فصل القضاء عن السلطات الباقية. والثانية : التفتيش القضائي. والثالثة : ولاية المظالم التي هي بمثابة مجلس الشورى؛ لأنّ أساسهما واحدٌ ، وغايتهما

واحدة وإن اختلف الإسمان. فأنت اليوم لا يمكنك أنْ تطالَ الحكومة قضائيّاً أمام القاضي العادي، فتلجأ إلى مجلس الشورى الذي قد يحكم لك على الدولة. وكذلك الرجل القديم ، فإنه لم يكن يستطيع أن يطال الوالي أو الحاكم قضائياً أمام القاضي العادي ؛ حتّى أوجد له عليّ «ولاية المظالم» التي قد تحكم له على الوالي : ممثّل الدولة. والوظيفة الرابعة : النيابة العامّة.

وهكذا يكون عليّ قد سبق إنسان العصور الحديثة ،كذلك إلى نظرية «الضرورة» التي تعتمدها القوانين الجنائية الحديثة. وإلى مبدأ «التأمين الاقتصادي» الذي يجعل القاضي في منجى من الانحراف بالرشوة ،كما أوجد وظيفة الشرطة لتكون عوناً للقضاء في وضع الناس أمام القانون صفّاً واحداً.

هذا في ما يخصّ المساواة أمام القانون والمساواة أمام القضاء. ولنتحدّث الآن عن المساواة في الضرائب ثمّ في الوظائف :

إنّ الضرائب بوصفها مالاً أو متاعاً يفرضه غازٍ على مغزوّ ، أو حاكمٌ على محكوم ، أو طبقةٌ من الناس على طبقة ، أو قانون على جماعة ، فيؤخَذ قسْراً ، أو صلْحاً أشبه بالقسر ، أو حقّاً لا يستقيم بدونه مجتمعٌ ... هذه الضرائب تؤلف قضيّةً رئيسية من قضايا التاريخ التي كانت من أجلها الفتوحات وارتُكبتْ بسببها المظالم ، وقامت في سبيلها الثورات، بل لعلّها القضية الأساسيّة التي تستتر وراءها كلُّ القضايا؛ وذلك لاتّصالها بالوضع الاقتصادي للأفراد والجماعات.

فالبشر الأوائل ،كالكلدان والآشوريين والحثيين ،كانوا يخوضون الحروب تلو الحروب ، ويدمّرون أنفسهم كما يدمّرون الشعوب التي يغزونها ، ويقضون أيّامهم بين معركةٍ حاضرة ، وذكرى معركةٍ سابقة ،

واستعدادٍ لمعركةٍ لاحقة ، ولا يستقرّون ساعةً يستقرّ فيها جيرانُهم إلّا بعد أن يطمئنوا إلى أنّهم حاصلون على ضرائب ، فرفضوها على شعبٍ غـزَوه ، أو مدينة افتتحوها بعد حصار شديد دام شهوراً أو أعواماً. وحين ترى أنّ الثورة قد أُعلنتْ عليهم ، هنا أو هناك ، فاعلمْ أنّ وراءَها شـدّة الدولة فـي تـحصيل الضرائب. وحين ترى في الشعوب المغزوّة ميلاً إلى حكومة الغازي ورغـبةً فيها، فاعلمْ أنّ هذا الغازي قد أسقط الضرائب عنها.

وكذلك الإغريق والرومان ومَن جاء بعدهم من دعاة النصرانية والإسلام الذين بدأوا فتوحاتهم باسم الدين، ثمّ تحوّلوا إلى حكّامٍ يفرضون على الناس الضرائب بأسماء مختلفة ، وأشكال متباينة ، وجوهرٍ واحد ، لا يبعد كثيراً أو قليلاً عن أن يكون ضريبةً من الضرائب.

وكلّ من له أدنى إلمامٍ بالتاريخ يعرف أخبار الضرائب التي كـان رجـال الكنيسة يفرضونها على الناس تارةً باسم بناء البيعَ والأديـرة ، وتـارةً بـاسم شفاعة القدّيسين ، وطوراً باسم الأوقاف أو باسم الصلاة عـن أرواح الأحـياء والأموات ، وحيازة نعيم الدنيا وجنّة الآخرة. وكلّ من له أدنى إلمامٍ بالتاريخ يعرف أخبار الضرائب التي كان حكّام المسلمين يفرضونها على الناس ، تارةً باسم الخراج وتارةً باسم الجزية أو الغنيمة أو العشور ، أو غيرها من الضرائب التي تختلف عليها الأسماء وهي ضرائب. وليس موضوعنا الآن أن نـقرّر إذا كانت هذه الضرائب عادلة أو غير عادلة، إنّما مـوضوعنا هـو أن نـقرّر : أنّ الضرائب كانت قضيّة رئيسيّة من قضايا المجتمعات المسـيحية والإسـلامية، كما كانت قضيّة رئيسيّة في المجتمعات القديمة السابقة لهـما. ومـن أبسـط الأدلّة على ذلك وأقربها : أنّ الامبراطورية المسيحية في الغرب كانت ترضى عمّن لا يعتنقون مذهبها من الخلق إذا هم دفعوا لها ضرائب «معقولة» ، ومنها

أن كثيراً من ملوك بني أُميّة وعمّالهم كانوا يرفضون أن يسقطوا ضريبة الجزية عن الأعاجم الذين يُسلمون، وهي مخالفةٌ صريحة لقواعد الإسلام، بل إنّهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، إذ جعلوا الحصول على الضرائب هو الأساس الذي تقوم عليه دولتهم. فالجرّاح الحكميّ أحد عمّال الأُمويين على خراسان ،كان يكتب إلى الخليفة متخوّفاً من مسارعة الناس إلى الإسلام ، وسقوط الجزية عنهم ، مشيراً إلى أنّه يُؤثر أن يدفعوا ضريبة الجزية ويبقوا على دين المجوس. وكذلك كان موقف عديّ بن أرطاة عامل ابن عبد العزيز على العراق ، فقد كتب له قائلاً: إنّ الناس كثروا في الإسلام حتى خفتُ أن يقلّ الخراج»[1].

وإنّما نعطيك هذه الأمثلة دليلاً على ما كان للضريبة من أهميّةٍ في تاريخ الشعوب جميعاً ، ممّا جعلَ مفكّري الثورة الفرنسيّة يعاجلون إلى النظر فيها ، ويضعونها موضع القضايا الرئيسية التي يعالجونها ، بصدَد بحثهم في المساواة بين الناس. ولا ننسَ أنّ عدم المساواة في الضرائب كان من المحرّكات الرئيسية والمباشرة للثورة الكبرى.

نستطيع استنتاج هذا اللون من ألوان المساواة بين الناس في نهج عليّ ، من مبدئه العامّ في المساواة بوصفه بعضاً من كلّ ، وفرعاً من أصل. فالناس إذا كانوا سواء في الحقوق والواجبات كانوا سواء في الضرائب. وإذا كانت عمارة الأرض ـ لا تحصيل الخراج ـ هي همّ الوالي في دستور عليّ إذ يقول :«**وتفقّدْ أمرَ الخراج بما يُصلح أهله... وليكنْ نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأنّ ذلك لا يُدرَك إلّا بالعمارة ، ومَن طلبَ الخراجَ بغير عمارةٍ أخربَ البلاد وأهلك**

(١) للمزيد راجع شرح نهج البلاغة : ١٧ / ٢٠ ، وجواب عمر بن عبد العزيز لعدي بن أرطاة.

العباد»[١] ، فإنّ المساواة بين الناس في هذه الضريبة أبسط وأيسر. والذي يجعل تحصيل الضرائب مرهوناً بعمارة الأرض أوّلاً ، وبرخاء الناس والتخفيف عنهم بما يُصلح أُمورهم، فإنّه جاعلٌ المساواة في هذه الضرائب أصلاً في توزيعها. ولعلّ ابن أبي طالب يوصي بما هو أكثر وأجمل من هذه المساواة في ما يخصّ الضرائب : فإذا تساوى الناسُ في الضرائب بفعل القانون وحسْب قد يلحق بعضهم غبنٌ كثيرٌ ، إذ يُفرَض عليهم أن يدفعوا هذه الضرائب ـ وقد سُوّيَ بينهم فيها ـ وهم عاجزون عن أن يدفعوها لقلّة ما يُنتجون ، ولتقصير هذا الإنتاج نفسِه عن أن يسدّ حاجتهم الضروريّة. عندذاك يجعل ابن أبي طالب تحصيلَ الضريبة مرهوناً بيُسْر الناس ـ كما أسلفنا ـ لا بتطبيق قانون جامد. فعلى الدولة أن تحصّل هذه الضرائب ، في دستور عليّ ، ولكنّ تحصيلها فرعٌ ، أمّا الأصل فهو العمل على عمارة الأرض ، وإصلاح الوضع الاقتصادي والرحمة بالناس ، حتّى تكون الضريبة فضلاً من ثروةٍ لا قوتاً ينتزَع من أفواه الجياع انتزاعاً ، وحتّى تصبح الضرائب عطاءً من الشعب الموسر يُعطى ، لا أخذاً تغتصبه الدولةُ اغتصاباً ممّن هم أحوج إليه. لذلك يتابع عليّ أمره السابق قائلاً: **«فإنْ شكوا ثِقَلاً**[٢] **أو علّة أو انقطاعَ شربٍ ، أو إحالة أرضٍ اغتمرها غرقٌ ، أو أجحفَ بها عطشٌ، فخفّفْ عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرُهم. ولا يثقُلَنّ عليك شيءٌ خففْتَ به المؤونةَ عنهم!»**[٣].

ثمّ إنه يزيد فيأمر بألّا يُوخذ شيء من الضرائب إلّا من الموسرين ، وأن تسقط عن الذين لا يتمكّنون من تأديتها ، وأن يُعمَلَ على إصلاح حالهم بدلاً

---

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ٨٠.
(٢) ثقل المضروب من مال الخراج.
(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ ـ ٨١.

من التضييق عليهم. ولمّاكان عمّال بني أُميّة في أيّام عثمان يُرهقون الناس بأمر الخراج فيبيعون لهم عقارهم ، ويخرّبون ديارهم ويضربونهم تحصيلاً للضرائب ، فقد رأى عليّ أن تكون القاعدة على العكس من ذلك ، فقال لكلٍّ من عمّاله على الخراج :

«ولا تبيعَنّ للناس في الخراج كسوةَ شتاءٍ ولا صيف ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابّة يعتملون عليها. ولا تضربَنّ أحداً منهم سوْطاً لمكان درهم. ولا تُقْمه على رجله في طلب درهم ، ولا تبع لأحدٍ منهم عَرَضاً في شيء من الخراج. فإنّما أُمرنا أن نأخذ بالعفو !»[1].

وهكذا فإن الناس ليسوا متساوين وحسْب في الضرائب، بل إنّ الضريبة لا تُؤخذ في دستور علي إلّا من الموسر دون المعوِز ، وفي حال عمارة الأرض ورضا الأهلين عن أوضاعهم وعن دولتهم. وهذه النظرة نابعة من المفاهيم العلوية العامّة لمعنى الدولة ومعنى الحكومة ، وما يجب أن يتمّ من التعاطف والتعاون بين المحكوم الذي هو أساس المجتمع ، والحاكم الذي لا وظيفة له إلّا خدمة العامّة : أصحاب الحقّ في توليته وعزله.

أمّا الوظائف فالناس متساوون فيهاكذلك في دستور ابن أبي طالب. فقد رأيناكيف أسقط فكرة الاستئثار بما الناس فيه أُسْوة ، وكيف رفَعَ أيدي الأشراف والوجهاء عن كلّ عملٍ لا يكونون له أهلاً ليتولّاه أهلُ الكفاءة من الناس. وقضيّة الكفاءة هي المقياس الأوّل والأخير ، في دستوره ، في إسناد الوظائف العامّة إلى طلّابها. وقد بدأ أوّلاً بالخلافة نفسها ـ بوصفها أعظم الوظائف ـ فخالفَ ما ارتآه بشأنها أهلُ زمانه أجمعين. ففيماكانوا لا يعترفون بهذا الحقّ إلّا لأصحاب النبيّ من المهاجرين والأنصار ، أو لذوي قرابته؛ تعظيماً منهم لشأن هذه الوظيفة الخطيرة،كان عليّ وحده يخالف ما اجتمع

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٥١ ـ ٤ .

عليه رأيُ الآخرين ، فإذا به يصوغ ما ارتآه بشأنها صوغاً يدعونا لأن نعيد النظر في كلّ ما دُسّ عليه دسّاً في كتب التاريخ ، من تطلّعه الدائم إلى هذا المنصب[1] ، قائلاً: «**واعجباه! أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة؟**»[2].

وإن لم تكن الخلافة بالصحابة والقرابة ، فَبِمَ تكون؟

مهما استقْبلتَ من وجوه الآراء للجواب عن هذا السؤال فإنك لن تجد جواباً معقولاً ومقبولاً إلّا بالكفاءة، فهي السبيل الأوحد في دستور ابن أبي طالب إلى هذا المنصب الخطير.

ولسوفَ نرى أنّ الناس حين اختلفوا في أمر عثمان قَبيل مقتله وبعده، انقسموا قسمين : قسماً يرى أنّ في صحابة عثمان للرسول وفي قرابته منه ، وفي سبقه إلى الإسلام ومكانته من قريش ، ما يجب أن يمنع عنه سخط العامّة مهما التوتْ سياستُه ، ومهما أساء عمّالُه وأيّاً كان موقف أعوانه ومستشاريه من دماء الخلق وأموالهم وأحوالهم، وعلى رأس هذا القسم : بنو أُميّة وعددٌ عظيم من وجهاء القوم وزعماء القبائل.

وقسْماً يرى أنّ صحابة عثمان للرسول وقرابته منه ، وسبقه إلى الإسلام ومكانته من قريش ؛ ليست ممّا يوجب ارتقاءَه إلى هذا المنصب ، وليست سبباً في منع سخط الأمصار ، وقد التوتْ سياستُه وساءت أعمال وُلاته وأعوانه ومستشاريه. وإنّما كانوا يرون أنّ الكفاءة هي الأصل والركن ، ومن الكفاءة لمن يتولّى أمرَ الخلافة أن يسعى في رفْع المستوى المالي لعامّة

(١) لا شكّ في أن تألّم الشيعة لما لحق بعلي من إجحاف ، جعل بعضهم ينسبون إليه أقوالاً تصوّره متألّماً جازعاً لوقوف بعض الصحابة دون وصوله إلى الخلافة. وهي في جملتها أقوال بعيدة عن نفسية علي وعن منهجه العام. ومواقفه المختلفة الكثيرة التي تصرّح بقوّة شخصيّته ، تنقض هذا الجزع البادي في ما دسّ عليه من أقوال. وقد أشرنا إلى بعض هذه المواقف العظيمة.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٩٠.

الشعب ، وأن يسعى في رفْع ما يلحق بهم من غبنٍ وحيفٍ[١] وجور. وعلى رأس هذا القسم من الناس : عليّ بن أبي طالب وتلاميذه ورؤوس شيعته ، أمثال أبي ذرّ الغفاري ، وعمّار بن ياسر ، وبلال الحبشي ، وسلمان الفارسي وغيرهم. وكان عليّ يوجز موقفه وموقف الناس من مصير عثمان بهذه الكلمات : **«استأثرَ فأساء الأثرة... وقام معه بنو أُميّة يخضمونَ مالَ الله خضمةَ الإبل نبتةَ الربيع»**[٢].

وعلى كلّ حال ، فإنّما **«يُستَدَلّ على الصالحين ـ في نهج عليّ ـ بما يُجري الله لهم على ألسُن عباده»**[٣] و **«قلوب الرعيّة خزّان راعيها»**[٤].

أمّا الوُلاة فلن يكون شأنهم مع الولاية غير شأن الخلفاء مع الخلافة، فهو يختارُهم لا عن هوىً ولا عن ميلٍ شخصي ، ولا لنشوئهم في بيئة الشرفاء والارستقراطيين ، ولا لِما يتحصّنون به من المجد التليد والثروة الطارفة[٥] أو السبق إلى الإسلام. وإنّما يختارهم بعد أن يختبرهم في قلوب الناس ، ويعرف أنّهم جُبلوا ليَخدموا لا ليُخدَموا ، وأنّهم ينظرون إلى جهود العامّة نظْرتهم إلى الأمر المقدّس الذي لا يُمَسّ ، وأنّهم لا يرتشون ولا ينهبون ولا يفجرون ولا هم بالظالمين ولا بأعوان الظالمين.

ويطول بنا القول إذا نحن شئنا أن نذكر أوامرَ عليّ العامّة بصدد اختيار الولاة والعمّال. إلّا أنها تتلخّص جميعاً بأنّ العمّال يجب أن يكونوا من ذوي الكفاءة، فالكفاءة هي السبيل الوحيد الذي يجب أن يسلكوه. ومِن الكفاءة أن

(١) حيف : ظلم. المنجد: ١٦٤، مادة «حاف».

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ٣ ـ ١١.

(٣) نهج البلاغة : ٣ / ٩٣ ، من عهده لمالك الأشتر، نهج السعادة: ٦٠/٥، تحف العقول للبحراني: ١٢٦ .

(٤) شرح نهج البلاغة : ١١ / ٩٤ ، عيون الحكم والمواعظ : ٣٧٠ وفيه : قلوب الرعية خزائن ملكها .

(٥) الطارفة : الثروة المستحدثة. المنجد: ٤٦٤، مادة «طرف».

بلاغة عليّ
في خدمة الإنسان

حدود العقل والقلب

ـ وكان شديداً ، قاصفاً ، مُزَمْجِراً ، كالرعدِ في ليالي الويل.
ـ فالينبوعُ هو الينبوعُ لا حسابَ في جَرْيِه لِلَيْلٍ أو نهار.

مَن تتبّع سِيَر العظماء في التاريخ لا فرقَ بين شرقيٍّ منهم وغربيّ ، ولا بين قديمٍ ومُحْدَث أدرك ظاهرةً لا تخفى وهي : أنّهم على اختلاف ميادينهم الفكرية وعلى تبايُن مذاهبهم في موضوعات النشاط الذهني أُدباء موهوبون على تفاوتٍ في القوة والضعف ، فهم بين منتج خلّاق ، ومتذوّق قريب التذوّق من الإنتاج والخلق، حتّى لكأنّ الحسّ الأدبي ـ بواسع دنيواته ومعانيه وأشكاله ـ يلزم كلّ موهبة خارقة في كلّ لونٍ من ألوان النشاط العظيم.

فنظرةٌ واحدةٌ إلى الأنبياء ، مثلاً ، تكفي لتقرير هذه الظاهرة في الأذهان. فما داود وسليمان وأشعيا وأرميا وأيّوب والمسيح ومحمّد إلّا أُدباء ، أُوتوا من الموهبة الأدبية ما أُوتوا من سائر المواهب[1]. وهذا نابوليون القائد ، وأدوار هريو السياسي ، ولينين المشترع والزعيم ، وأفلاطون الفيلسوف ، وباسكال الرياضي ، وجواهر لال نهرو رجل الدولة والفكر ، وباستور العالم

(١) من الثابت أن أنبياء الله (عليهم السلام) معصومون ، وقد أكرمهم الله تعالىٰ بصفات خُلقية وخَلقية من أجل أداء الرسالات.. وهم مختلفون في معاجزهم كلٌّ حسب ظروفه وعصره ومهمّته. والجنبة الأدبية احدى تلك الصفات المودعة فيهم وقد تجلّت في البعض منهم دون الآخر تبعاً للظرف الذي يقتضي إظهار تلك الصفة.

الطبيعي ، وجمال الدين الأفغاني المصلح الاجتماعي : إنّهم جميعاً أُدباء ، لهم في الأدب ما يجعلهم في مصافّ ذوي الشأن من أهله. فلكلٍّ منهم لونٌ من ألوان النشاط الفكري حَدّده الطبْعُ والموهبة ، ثم رعتِ النزعةُ الجماليّةُ ما دخل منه في نطاق التعبير ، فإذا هو من الأدب الخالص.

هذه الحقيقة تتركّز جليةً واضحة في شخصية عليّ بن أبي طالب ، فإذا هو الإمام في الأدب وسرّه البلاغة، كما هو الإمام في ما أثبت من حقوقٍ وفي ما علّم وهدى، وآيته في ذلك «نهج البلاغة» الذي يقوم في أُسُس البلاغة العربية في ما يلي القرآن من أُسُس، وتتّصل به أساليبُ العرب في نحوِ ثلاثة عشر قرناً فتبني على بنائه وتقتبس منه ويحيا جيّدُها في نطاقٍ من بيانه الساحر.

أمّا البيان ، فقد وصل عليٌّ سابقَه بلاحقِه ، فضمّ روائع البيان الجاهلي الصافي المتّحد بالفطرة السليمة اتحاداً مباشراً ، إلى البيان الإسلامي الصافي المهذّب المتّحد بالفطرة السليمة والمنطق القويّ ؛ اتحاداً لايجوز فيه فصلُ العناصر بعضها عن بعض. فكان له من بلاغة الجاهلية ، ومن سحر البيان النبويّ ، ما حَدا ببعضهم إلى أنْ يقول في كلامه إنّه : «دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق»[1].

ولا غرْوَ[2] في ذلك ، فقد تهيّأتْ لعليٍّ جميعُ الوسائل التي تعدّه لهذا المكان بين أهل البلاغة، فقد نشأ في المحيط الذي تسلم فيه الفطرة وتصفو ، ثمّ إنّه عايش أحكم الناس «محمّد بن عبد الله» وتلقّى من النبي رسالته بكلّ ما فيها من حرارة وقوّة. أضفْ إلى ذلك استعداداته الهائلة ومواهبه العظيمة، فإذا بأسباب التفوّق تجتمع لديه من الفطرة ومن البيئة!

* * *

(١) نهج السعادة: ٥٥/٧، شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٢٤/١، بحار الأنوار: ١٠٤ / ٢١٠.

(٢) لا غرو: لا عجب. كتاب العين: ٤٤١/٤، مادة «غرو».

أمّا الذكاء ، الذكاء المفرط ، فتلقى له بكلّ عبارة من «نهج البلاغة» عملاً عظيماً. وهو ذكاءٌ حيّ ، قديرٌ ، واسعٌ ، عميقٌ ، لا تفوته أغوار. إذا هو عملَ في موضوعٍ أحاط به بُعداً فما يُفلِت منه جانبٌ ولا يُظلَم منه كثيرٌ أو قليل. وغاص عليه عمقاً ، وقلّبه تقليباً ، وعركه عركاً [1] ، وأدرك منه أخفى الأسباب وأمعنها في الاختفاء، كما أدرك أصدق النتائج المترتّبة على تلك الأسباب، ما قرُبَ منها أشدَّ القرب ، وما بعد أقصى البُعد.

ومن شروط الذكاء العلويّ النادر ، هذا التسلسل المنطقي الذي تراه في النهج أنّى اتّجهت. وهذا التماسك بين الفكرة والفكرة ، حتّى تكون كلّ منها نتيجةً طبيعيةً لِما قبلها ، وعلّةً لِما بعدها. ثمّ إنّ هذه الأفكار لا تجد فيها ما يُستغنى عنه في الموضوع المعالَج، بل لا تجد فيها ما يستقيم البحثُ بدونه. وهو ، لاتّساع مداه ، لا يستخدم لفظاً إلّا وفي هذا اللفظ ما يدعوك لأن تتأمل وتمعن في التأمل ، إذ لا تجد عبارة إلّا وتفتح أمامك آفاقاً وراءها آفاق من النظر الجليل.

فعن أيّ رحبٍ وسيعٍ من مسالك التأمل والنظر يكشف لك قوله : «**الناس أعداء ما جهلوا**»[2] أو قوله : «**قيمة كلّ امرئٍ ما يُحسنه**»[3]. أو «**الفجور دارُ حصنٍ ذليل**»[4] وأيّ إيجاز مُعجز هو هذا الإيجاز : «**مَن تخفّف لحق**» وأيّ جليلٍ من المعنى في العبارات الأربع وما تحويه من ألفاظ قلائل فُصّلت تفصيلاً ، بل قُلْ : أُنزلت تنزيلاً!

---

(١) عركه عركاً : قلبه ظهراً لبطن.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٧٢ ، ٤٣٨ .

(٣) قصار الحكم : ٨١.

(٤) نهج البلاغة : الخطبة ١٥٧ ـ ٥ .

ثمّ عن أيّ حدّةٍ في الذكاء واستيعابٍ للموضوع وعمقٍ في الإدراك يشفّ هذا الكشفُ العجيب عن طبْع الحاسد وصِفَةِ نفسه وحقيقةِ حاله : **«ما رأيتُ ظالماً أشبهَ بمظلومٍ من الحاسد : نفَسٌ دائم وقلبٌ هائم ، وحزنٌ لازم ، مغتاظٌ على مَن لا ذنبَ له ، بخيلٌ بما لا يملك»**[1].

ويستمرّ تولّدُ الأفكار في «نهج البلاغة» من الأفكار، فإذا أنت أمام حشدٍ منها لا ينتهي. وهو مع ذلك لا يتراكم ، بل يتساوق ويترتّب بعضه على بعض. ولا فرْقَ في ذلك بين ما يكتبه عليٌّ وبين ما يُلقيه ارتجالاً ، فالينبوع هو الينبوع ولا حساب في جرْيه لليلٍ أو نهار.

ففي خُطَبه المرتجلة معجزاتٌ من الأفكار المضبوطة بضابط العقل الحكيم والمنطق القويم. وإنك لتدهش أمام هذا المقدار من الأحكام والضبط العظيمين ، حين تعلم أنّ علياً لم يكن ليعدّ خُطَبه ، ولو قُبَيل إلقائها بدقائق أو لحظات. فهي جائشة بقلبه منطلقة على لسانه عَفْوَ الخاطر لا عنتَ ولا إجهاد ، كالبرق إذ يلمع ولا خبرَ يأخذه أو يعطيه قبل وميضه. وكالصاعقة إذ تزمجر لا تُهيّء نفسَها لصعقٍ وزمجرة. وكالريح إذ تهبّ فتلوي وتميل وتكسح وتنصبّ على غايةٍ ، ثمّ إلى مداورها تعود ، ولا ما يدفعها إلى أن تروح وتجيء إلّا قانونُ الحادثة ومنطقُ المناسبة في حدودها القائمة ، لا قبل ولا بعد!

ومن مظاهر العقل القويّ في «نهج البلاغة» تلك الحدود التي كان عليّ يضبط بها عواطف الحزن العميق إذ تهيج في نفسه. فإنّ عاطفته الشديدة ما تكاد تُغرقه في محيط من الأحزان والكآبات البعيدة، حتّى يبرز سلطان العقل

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/١٧، كنز الفوائد للكراجكي: ٥٧، تحف العقول: ٢١٦.

بجلاء ومضاء ، فإذا هو آمرٌ مطاع.

ومن ذكاء عليٍّ المفرط في نهجه أنّه نَوّع البحث والوصف فأحكم في كلّ موضوع ، ولم يقصر جهده العقليّ على ناحية واحدة من الموضوعات ، أو من طرق البحث. فهو يتحدّث بمنطق الحكيم الخبير عن أحوال الدنيا وشؤون الناس ، وطبائع الأفراد والجماعات. وهو يصف البرق والرعد والأرض والسماء. ويسهب في القول في التاريخ الطبيعي، فيصف خفايا الخلق في الخفّاش والنملة والطاووس والجرادة وما إليها. ويضع للمجتمع دساتير وللأخلاق قوانين. ويبدع في التحدث عن خالق الكون وروائع الوجود. وإنّك لا تجد في الأدب العربي كلّه هذا المقدار الذي تجده في «نهج البلاغة» من روائع الفكر السليم والمنطق المحكَم في مثل هذا الأُسلوب النادر.

* * *

أمّا الخيال في «نهج البلاغة» فمديدٌ وسيع ، خفّاق الجوانح في كلّ أُفق ، وبفضل هذا الخيال القوي ، الذي حُرم منه كثيرٌ من حكماء العصور ومفكّري الأُمم ،كان عليّ يأخذ من عقله وتجاربه المعاني ذات الموضوعية الخالصة، ثمّ يطلقها زاهيةً متحرّكة في إطارٍ تثبت على جنباته ألوانُ الجمال على أروع ما يكون اللون. فالمعنى مهما كان عقليّاً جافاً لا يمرّ بمخيّلة عليٍّ حتّى تنبت له أجنحةٌ تقضي فيه على صفة الجمود ، وتُبلورُ ما فيه من حقيقة.

فخيال عليٍّ هو نموذج للخيال العبقريّ الذي يقوم على أساسٍ من الواقع العميق، فيحيط بهذا الواقع ويُبْرزه ويجلّيه ، ويجعل له امتدادات من معدنه وطبيعته ، ويصبغه بألوان كثيرة من مادّته ولونه. فإذا الحقيقة تزداد وضوحاً ، وإذا بطالبها يقع عليها أو تقع عليه.

وقد تميّز عليٌّ بقوّةِ ملاحظةٍ نادرة ، ثمّ بذاكرةٍ واعية تخزن وتتّسع. وقد

مرّ من أطوار حياته بعواطفَ جَرّها عليه حقدُ الحاقدين ومكرُ الماكرين ، ومرّ منها كذلك بعواطفَ كريمةٍ أحاطَه بها وفاءُ الطيّبين وإخلاص المخلصين. فتيسّرتْ له من ذلك جميعاً عناصرُ قويّة تغذّي خيالَه المبدع. فإذا بها تتعاون في خدمة هذا الخيال وتتساوق في لوحات رائعةٍ حيّة ، شديدةِ الروعةِ والحيوية ، تتركّز على واقعيةٍ صافية تمتدّ لها فروعٌ وأغصان ، ذاتُ أوراق وأثمار.

ومِن ثَمّ يمكنك ـ إذا شئتَ ـ أن تُحوّل عناصر الخيال القويّ في «نهج البلاغة» إلى رسومٍ مخطوطة باللون ؛ لشدّة واقعيّتها واتّساع مجالها وامتداد أجنحتها وبروز خطوطها. ألا ما أروعَ خيالَ الإمام إذ يخاطب أهلَ البصرة ، وكان بنفسه ألمٌ منهم بعد موقعة الجمل ، قائلاً : **«لَتَغرِقَنّ بلدتُكم ، حتّى كأنّني أنظرُ إلى مسجدها كجؤجؤ طيرٍ في لُجّة بحر !** [١]»[٢]. أو في مثل هذا التشبيه الساحر : **«فِتَنٌ كقِطَع الليل المظلم»**[٣] أو هذه الصورة المتحرّكة : **«وإنّما أنا كقُطب الرحى : تدور عليّ وأنا بمكاني»**[٤] أو هذه اللوحة ذات الجلال التي يشبّه فيها امتدادات بيوت أهل البصرة بخراطيم الفيَلة ، وتبدو له شُرُفاتُهن كأنّها أجنحةُ النسور : **«ويلٌ لِسكَكِكم العامرة ، والدور المزخرفة ، التي لها أجنحةٌ كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفيَلة»**[٥].

ومن مزايا الخيال الرحْبِ قوّةُ التمثيل. والتمثيلُ في أدب الإمام وجهٌ ساطعٌ بالحياة. وإنْ شئتَ مثَلاً على ذلك فانظرْ في صاحب السلطان الذي يغبطه

(١) الجؤجؤ : الصدر. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٢٢٥/١، مادة «جؤجؤ».
(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٣ ـ ٤ .
(٣) نهج البلاغة : الخطبة ١٠٢ ـ ٣.
(٤) نهج البلاغة : الخطبة ١١٩ ـ ٣.
(٥) نهج البلاغة : الخطبة ١٢٨ ـ ٥.

بعضُ الناس ويتمنّون ما هو فيه من حال ، ولكنّه أعلمُ بموضعه من الخوف والحذَر ، فهو وإنْ أخافَ بمركوبه إلّا أنّه يخشى أنْ يغتاله. ثمّ انظرْ بعد ذلك إلى عليٍّ كيف يمثّل هذا المعنى ، فيقول : «**صاحب السلطان كراكب الأسد : يُغبَط بموقعه ، وهو أعلم بموضعه**»[١]. وإن شئتَ مثلاً آخرَ فاستمعْ إليه يمثّل حالةَ رجلٍ رآه يسعى على عدوٍّ له بما فيه إضرارٌ بنفسه ، فيقول : «**إنّما أنت كالطاعن نفسَه ليقتلَ رِدفَه**»[٢] والرِّدْف هو الراكبُ خلفَ الراكب. ثمّ إليك هذا الأُسلوب الرائع في تمثيل صاحب الكذب : «**إيّاك ومصادقةَ الكذاب فإنه كالسراب : يُقرّبُ عليك البعيد ويُبعد عنك القريب!**»[٣].

أمّا النظرية الفنيّة القائلة بأنّ كلّ قبيح في الطبيعة يصبح جميلاً في الفنّ، فهي إن صحّت فإنّما الدليلُ عليها قائمٌ في حديث ابن أبي طالب عن سكّان القبور. فما أهوَلَ الموتَ وما أبشعَ وجهَه! وما أروع كلام ابن أبي طالب فيه وما أجمل وقْعَه! فهو قولٌ آخذٌ من العاطفة الفيّاضة نصيباً كثيراً ، ومن الخيال الخصب نصيباً أوفر. فإذا هو لوحةٌ من لوحات الفنّ العظيم لا تُدانيها إلّا لوحات عباقرة الفنون في أوروبا ساعةَ صوّروا الموت وهَوْلَه لوناً ونغماً وشعرا.

فبعد أنْ يُذكّر عليٌّ الأحياء بالموت ويُقيم العلاقَة بينهم وبينه، يوقظهم على أنّهم دانُون مِن منزل الوحشة بقولٍ فيه من الغربةِ القاسية لونٌ قاتمٌ ونغَمٌ حزين : «**فكأنّ كلّ امرئٍ منكم قد بلغ من الأرضِ منزل وَحْدتِه، فيالَه مِن بيت وَحْدة ،**

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٦٣ .

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٩٦ .

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢٦٥٠ .

ومنزِل وَحْشة. ومَفْرَدِ غربة!»[١]. ثمّ يهزّهم بما هُم مسرعون إليه ، ولا يدرون بعباراتٍ متقطّعة متلاحقة ، وكأنّ فيها دويّ طبولٍ تُنْذر تقول : «ما أسرع الساعات في اليوم ، وأسرعَ الأيام في الشهر ، وأسرع الشهور في السنة ، وأسرع السنين في العُمُر !»[٢]. بعد ذلك يُطلق في أذهانهم هذه الصورة الرائعة التي يأمر بها العقلُ ، وتُشعلها العاطفة ، ويجسّم الخيالُ الوثّابُ عناصرَها ، ثمّ يعطيها هذه الحركاتِ المتتابعةَ : وهي بين عيونٍ تدمع ، وأصواتٍ تنوح ، وجوارحَ تئنّ ، قائلاً : «وإنّما الأيّام بينكم وبينهم بواكٍ ونوائحُ عليكم»[٣]. ثمّ يعود فيُطلق لعاطفته وخياله العنانَ، فإذا بهما يُبدعان هذه اللوحةَ الخالدة من لوحات الشعر الحيّ :

«ولكنّهم سُقُوا كأساً بَدّلتْهم بالنُّطق خَرَساً ، وبالسّمْع صمَماً ، وبالحركات سكوناً. فكأنّهم في ارتجالِ الصّفة صرعى سُبات[٤]. جيرانٌ لا يتآنسون ، وأحبّاء لا يتزاورون. بَلِيتْ بينهم عُرى التعارف ، وانقطعتْ منهم أسبابُ الإخاء. فكلّهم وحيدٌ وهمْ جميعٌ ، وبجانب الهجر وهم أخلّاء ، لا يتعارفون لليلٍ صباحاً ، ولا لنهار مساءً. أيّ الجديدَين[٥] ظَعَنُوا فيه كان عليهم سَرْمَدا[٦]»[٧].

ثمّ يقول فيهم هذا القول الرهيب : «لا يعرفون مَن أتاهم ، ولا يحْفِلون مَن بكاهم ، ولا يجيبون مَن دعاهم»[٨].

فهل رأيتَ إلى هذا الإبداع في تصوير هَوْل الموت وَوحْشةِ القبر وصِفَة

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٥٧ ـ ١٤ .
(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٨٨ ـ ٨.
(٣) نهج البلاغة : الخطبة ٢٢١ ـ ٧.
(٤) ارتجال الصفة : وصف الحال بلا تأمّل ، فالواصف لهم بأوّل النظر يظنّهم صرعى من السبات ، أي النوم.
(٥) الجديدان : الليل والنهار. الصحاح: ٤٥٤/٢، مادة «جدد».
(٦) سرمد : أبدي، الدائم. الصحاح: ٤٨٧/٢، مادة «سرمد».
(٧) نهج البلاغة : الخطبة ٢٢١ ـ ١٥ .
(٨) نهج البلاغة : الخطبة ٢٣٠ ـ ١٢ .

سكّانه في قَوله : «**جيرانٌ لا يتآنسون وأحبّاء لا يتزاورون؟**»(١). ثمّ هل فطنتَ إلى هذه الصورة الرهيبة الأبديّة للموت التي لا ترسمها إلّا عبقرية عليّ : «**أيّ الجديدَين ظَعَنوا فيه كان عليهم سَرْمدا**»(٢). ومثل هذه الروائع في «النهج» كثير.

* * *

هذا الذكاء وهذا الخيال في «نهج البلاغة» يتّحدانِ اتّحادَ الطبيعة بالطبيعة مع العاطفة الشديدة التي تمدّهما بوهج الحياة، فإذا الفكرة تتحرّك وتجري في عروقها الدماءُ سخيّةً حارّة. وإذا بها تخاطب فيك الشعورَ بمقدار ما تخاطب العقلَ لانطلاقها من العقل الذي تمدّه العاطفةُ بالدفء. وقد يصعب على المرء أن يعجب بأثرٍ من آثار الفكر أو الخيال في ميادين الأدب وسائر الفنون، إنْ لم تكن للعاطفة مشاركةٌ فعّالة في إنتاج هذا الأثر. ذلك أنّ المركّب الإنساني لا يرضيه ، طبيعياً ، إلّا ماكان نِتاجاً لهذا المركّب ، وهذا الأثر الأدبي الكامل ، وهو ما نراه في نهج البلاغة. وإنّك لَتحسّ نفسك مندفعاً في تيّارٍ جارفٍ من حرارة العاطفة بسائر ألوانها، وأنت تسير في نهج البلاغة من مكانٍ إلى آخر.

أفَلا يشيع في قلبك الحنانُ والعطفُ شيوعاً وأنت تصغي إلى عليٍّ يقول : «**لو أحبّني جبلٌ لَتهافتَ؟**»(٣) أو : «**لا رأي لمن لا يُطاع؟**»(٤) أو : «**دعوني والتمسوا غيري؟**»(٥) أو : «**يا دنيا ! يا دنيا ، غرّي غيري!**»(٦) أو في هذا القول الموجز الزاخر

---

(١) نهج البلاغة : الخطبة ٢٢١ ـ ١٣ .

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ٢٢١ ـ ١٥ .

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١١١ .

(٤) نهج البلاغة : الخطبة ٢٧ ـ ١٦ .

(٥) نهج البلاغة : الخطبة ٩٢ ـ ١ .

(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٧٧ ـ ١ ، وجاء فيها : يا دنيا يا دنيا... هيهات غرّي غيري ، لا حاجة لي فيك .

بالحنان : «**فقْدُ الأحبّة غربة**»(١) أو في قوله : «**اللهمّ إني استَعْديك على قريش ، فإنّهم قد قطعوا رحمي وأكفأوا إنائي ، وقالوا : ألَا إنَّ في الحقّ أنْ تأخذه وفي الحقّ أن تمنعه ، فاصبر مغموماً أو متْ متأسّفاً. فنظرتُ فإذا ليس لي رافدٌ ، ولا ذابّ ولا مساعد إلّا أهل بيتي!**»(٢).

وإليك هذا الجمال الطافح بالعاطفة ، وهذه القوّة في الرقّة واللوعة ، في كلامٍ له عند دفن السيّدة فاطمة ، ويخاطب به ابنَ عمّه الرسول :

«**السلام عليك يا رسول الله عنّي وعن ابنتك النازلة في جوارك ، والسريعة اللحاق بك! قَلّ ، يا رسول الله ، عن صفيّتك صبري ، ورقّ عنها تجلّدي ، إلّا أنّ لي في التأسّي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك ، موضع تعزّ !**»(٣) ومنه : «**أمّا حزني فسرْمد ، وأمّا ليلي فمسهّد ، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم!**»(٤). ثمّ إليك هذا الخبر :

روى أحدهم عن نوف البكالي بصدد إحدى خطب الإمام عليٍّ قال :

خطَبَنا هذه الخطبةَ بالكوفة أميرُ المؤمنين عليه السلام ، وهو قائم على حجارة نصبَها له جعدة بن هبيرة المخزومي ، وعليه مدرعةٌ من صوف ، وحمائل سيفه ليف ، وفي رجليه نعلان من ليف ، فقال عليه السلام ، في جملة ما قال :

«**ألَا إنّه أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً ، وأقبل منها ما كان مدبراً. وأزمع الترحالَ عبادُ الله الأخيار ؛ وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى ، بكثيرٍ من الآخرة لا يفنى. ما ضرّ إخواننا الذين سُفكت دماؤهم وهم بصفّين أنْ لا يكونوا اليوم أحياء يُسيغون الغَصَص ، ويشربون الرّنِق(٥)؟! قد ، واللهِ ،لقوا الله فوفّاهم أُجورَهم وأحلّهم دارَ الأمن بعد خوفهم! أين إخواني**

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٦٥ .

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ٢١٧ ـ ٣.

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ٢٠٢ ـ ١ .

(٤) نهج البلاغة : الخطبة ١٥١ ـ ١٣ .

(٥) الماء الرّنِق : الماء الكدر. غريب الحديث: ١٣٨/٢ .

الذين ركبوا الطريقَ ومضوا على الحقّ؟ أين عمّار[١]**؟ وأين ابن التيّهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نُظَرَاؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على النيّة؟»**[٢].

قال : ثمّ ضرب بيده على لحيته الشريفة فأطال البكاء.

وأخبر ضرار بن حمزة الضابيء قال : فأشهد لقد رأيتُه ـ يقصد الإمام ـ في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائمٌ في ظلامه قابضٌ على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ويقول : «**يا دنيا يا دنيا ، إليك عنّي! أبي تعرّضتِ ، أم إليّ تشوّقتِ؟ لا حان حينك ، هيهات! غرّي غيري ، لا حاجة لي فيك ، قد طلّقتُك ثلاثاً لا رجعة فيها ! فعيشكِ قصير ، وخطرك يسير ، وأملك حقير. آه من قلّة الزاد وطول الطريق وبُعد السفر وعظيم المورد!**»[٣].

هذه العاطفة الحارّة التي عرفها الإمام في حياته تُواكبه أنّى اتّجه في «نهج البلاغة» وحيث سار. تُواكبه في ما يحمل على الغضب والسخط ،كما تواكبه في ما يثير العطف والحنان.

حتّى إذا رأى تخاذُلَ أنصاره عن مساندة الحقّ فيما يناصر الآخرون الباطلَ ، ويحيطونه بالسلاح والأرواح، تألّم وشكا ، ووبّخ وأنّب. وكان شديداً قاصفاً ، مزمجراً ،كالرعد في ليالي الويل. ويكفيك أن تقرأ خطبة الجهاد التي تبدأ بقوله : «**أيّها الناس المجتمعةُ أبدانُهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهي الصمّ الصِّلاب.. الخ!**»[٤]لتدرك أيّةَ عاطفةٍ متوجّعةٍ ثائرة هي تلك التي تمدّ هذه الخطبةَ بنبْض الحياة وجَيَشانها.

---

(١) يقصد عمّار بن ياسر.

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٨٢ ـ ٢٧ .

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٧٧ ـ ٢.

(٤) نهج البلاغة : الخطبة ٢٩ ـ ١ .

وإنّه لمن المعيي أن نسوق الأمثلة على تدفّق العاطفة الحيّة التي تبثّ الدفء في مآثر الإمام، فهي في أعماله وفي خطَبه وأقواله مقياسٌ من المقاييس الأُسُس. وما عليك إلّا أنْ تقرأ بعض آثاره في فصل «من روائع الإمام» من هذا الكتاب، كي تقف على ألوانٍ من عاطفة ابن أبي طالب، ذات القوّة الدافقة والعمق العميق.

الأسلوب والعبقريّة الخطابية

ـ بيانٌ لو نطَقَ بالتقريع لانقضّ على لسان العاطفة انقضاضاً. ولو هدّدَ الفسادَ والمفسدينَ لَتَفَجّرَ براكينَ لها أضواءٌ وأصوات. ولو دعا إلى تأمّلٍ لَرافقَ فيك منشأ الحسّ وأصْلَ التفكير، فساقَك إلى ما يريدُه سَوْقاً ووَصَلَك بالكون وصلاً.

ـ ويندمجُ الشكل بالمعنى اندماجَ الحرارة بالنار، والضوء بالشمس والهواء بالهواء، فما أنتَ إزاءَه إلّا ما يكونُ المرءُ قبالةَ السيلِ إذْ ينحدر والبحرِ إذ يتموّج والريح إذْ تطوف.

ـ أمّا إذا تحدّثَ إليك عن بهاء الوجود وجمال الخلْق فإنّما يكتب على قلبك بمدادٍ من نجوم السماء.

ـ ومن اللفظ ما له وميضُ البرق، وابتسامةُ السماء في ليالي الشتاء.

هذا من حيث المادّة. أمّا من حيث الأُسلوب، فعليّ بن أبي طالب ساحر الأداء. والأدب لا يكون إلّا بأُسلوب، فالمبني ملازمٌ فيه للمعنى، والصورة لا تقلّ في شيءٍ عن المادّة. وأيّ فنٍّ كانت شروط الإخراج فيه أقلّ شأناً من شروط المادّة؟

وإنّ قسْط عليّ بن أبي طالب من الذوق الفنّي ـ أو الذوق الجمالي ـ لَمِمّا يندر وجوُده. وذوقه هذا كان المقياس الطبيعيّ الضابط للطبع الأدبيّ عنده.

أمّا طبعه هذا ، فهو طبعُ ذوي الموهبة والأصالة الذين يرون فيشعرون ، ويُدركون فتنطلق ألسنتهم بما تجيش به قلوبهم ، وتنكشف عنه مداركهم انطلاقاً عفوياً. لذلك تَمَيّز عليٌّ بالصدق كما تميّزت به حياته. وما الصدق إلّا ميزة الفنّ الأُولى ، ومقياس الأُسلوب الذي لا يخادع.

وإنّ شروط البلاغة ، التي هي موافقة الكلام لمقتضى الحال، لم تجتمع لأديبٍ عربيّ ،كما اجتمعت لعليّ بن أبي طالب. فإنشاؤه أعلى مثالٍ لهذه البلاغة ، بعد القرآن. فهو موجزٌ على وضوح ، قويٌّ جيّاش ، تامّ الانسجام لِما بين ألفاظه ومعانيه وأغراضه من ائتلاف ، حلوُ الرنّة في الأُذن موسيقيّ الوقْع. وهو يرفق ويلين في المواقف التي لا تستدعي الشدّة. ويشتدّ ويعنف في غيرها من المواقف ، ولا سيّما ساعةَ يكون القول في المنافقين والمراوغين وطلّاب الدنيا على حساب الفقراء والمستضعفين وأصحاب الحقوق المهدورة. فأُسلوب عليّ صريحٌ كقلبه وذهنه ، صادق كطويّته ، فلا عجب أن يكون نهجاً للبلاغة!

وقد بلغ أُسلوبُ عليٍّ من الصدق حدّاً تَرفّعَ به حتّى السجْعُ عن الصنعة والتكلّف. فإذا هو على كثرة ما فيه من الجمل المتقاطعة الموزونة المسجّعة أبعد ما يكون عن الصنعة وروحها ، وأقرب ما يكون من الطبع الزاخر.

فانظر إلى هذا الكلام المسجّع وإلى مقدار ما فيه من سلامة الطبع : «**يعلم عجيجَ الوحوش في الفلوات ، ومعاصي العِباد في الخلوات ، واختلافَ النينان في البحار العامرات ، وتلاطُمَ الماء بالرياح العاصفات**[1]. أو إلى هذا القول من إحدى خطبه :

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٩٨ ـ ٢.

«وكذلك السماء والهواء ، والرياح والماء ، فانظر إلى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر ، واختلاف هذا الليل والنهار ،وتَفجّر هذه البحار ، وكثرة هـذه الجـبال ، وطول هذه القلال ،وتفرّق هذه اللغات ، والألسن المختلفات...الخ»[1]. وأُوصيك خيراً بهذا السجع الجاري مع الطبع : **«ثمّ زيّنها بزينة الكواكب ، وضياء الثواقب**[2] **وأجرى فيها سراجاً مستطيراً**[3] **وقمراً منيراً ، في فَلَكٍ دائر ،وسقفٍ سائر...الخ»**[4]. فإنّك لو حاولت إبدال لفظٍ مسجوع في هذه البدائع جميعاً بآخر غير مسجوع لعَرفتَ كيف يخبو إشراقُها ، ويبهت جمالها ، ويفقد الذوقُ فيها أصالتَه ودقّته ، وهُما الدليل والمقياس. فالسجْع في هذه الأقوال العلوية ضرورةٌ فنّيةٌ يقتضيها الطبعُ الذي يمتزج بالصنعة امتزاجاً، حتّى لكأنّهما من معدنٍ واحد ، يبعثُ النثرَ شعراً له أوزانٌ وأنغامٌ تُرْفِق المعنى بصُوَرٍ لفظيّة ، لا أبهى منها ولا أشهى.

ومن سجْع الإمام آياتٌ تردّ النّغَمَ على النّغمِ رَدّاً جميلاً ، وتُذيبُ الوقْعَ في الوقْعِ على قراراتٍ لا أوْزنَ منها على السّمْع ولا أحبّ ترجيعاً. ومثال ذلك ما ذكرناه من سجعاته منذُ حين ، ثمّ هذه الكلماتُ الشهيّاتُ على الأُذن والذوق جميعاً : **«أنا يومٌ جديد ، وأنا عليك شهيد ، فاعملْ فيّ خيراً ، وقُل خيراً»**[5].

وإذا قلنا : إنّ أُسلوب عليّ توفّر فيه صراحةُ المعنى ، وبلاغةُ الأداء ، وسلامةُ الذوقُ الفنّي، فإنّما نشير إلى القارئ بالرجوع إلى نهج البلاغة ليرى كيف تتفجّر كلماتُ عليٍّ من ينابيعَ بعيدةِ القرار في مادّتها ، وبأيّةِ حُلّةٍ فنيةٍ

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٨٥ ـ ١٩.

(٢) الثواقب : المنيرة المشرقة. انظر مفردات الخطبة المرقمة في نهج البلاغة.

(٣) سراجاً مستطيراً : منتشر الضياء ، ويريد به الشمس. انظر المصدر السابق.

(٤) نهج البلاغة : الخطبة ١ ـ ١٧.

(٥) بحار الأنوار : ٧٤ / ٣٨٠ ، مستدرك سفينة البحار : ١٠ / ٦١٩.

رائعة الجمال تمورُ وتجري. وإليك هذه التعابير الحسان في قوله : «**المرءُ مخبوءٌ تحت لسانه**»(١) وفي قوله : «**الحلم عشيرة**»(٢) أو في قوله : «**مَن لان عوده كثفتْ أغصانه**»(٣) أو في قوله : «**كلّ وعاءٍ يضيق بما جعل فيه إلّا وعاء العلم فإنّه يتّسع**»(٤) أو في قوله أيضاً : «**لو أحبّني جبلٌ لتهافت**»(٥). أو في هذه الأقوال الرائعة : «**العلم يحرسك وأنت تحرس المال**(٦). **رُبّ مفتونٍ يحسن القول فيه**(٧). **إذا أقبلَتِ الدنيا على أحدٍ أعارته محاسنَ غيره ، وإذا أدبرتْ عنه سلبتْه محاسنَ نفسه**(٨). **ليكن أمر الناس عندك في الحقّ سواء**(٩). **افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئاً فإنّ صغيره كبيرٌ وقليله كثير**(١٠). **هلك خُزّان المال وهم أحياء**(١١). **ما مُتّع غنيٌّ إلّا بما جاع به فقير**»(١٢).

ثمّ استمعْ إلى هذا التعبير البالغ قمّةَ الجمال الفنّي وقد أراد به أن يصف تَمكّنَه من التصرف بمدينة الكوفة كيف شاء ، قال : «**ما هي إلّا الكوفة أقبِضُها وأبسطُها...**»(١٣).

فأنت ترى ما في أقواله هذه من الأصالة في التفكير والتعبير ، هذه

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٤٨ و ٣٩٢.
(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤١٨.
(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢١٤.
(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٠٥ ، وجاء فيها : ... فإنه يتّسع به.
(٥) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١١١.
(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٤٧ ـ ٣.
(٧) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٦٢.
(٨) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٩.
(٩) نهج البلاغة، نهج البلاغة : الكتاب ٥٩ ـ ١.
(١٠) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٢٢.
(١١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٤٧ ـ ٦.
(١٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٣٢٨، وفيه : فما جاع فقير إلّا بما متّع به غني.
(١٣) نهج البلاغة : الخطبة ٢٥ ـ ١.

الأصالة التي تلازم الأديب الحقّ بصورةٍ مطلقة ولا تفوته إلّا إذا فاتته الشخصية الأدبية ذاتها.

* * *

ويبلغ أُسلوب عليّ قمّةَ الجمال في المواقف الخطابية ، أي في المواقف التي تثور بها عاطفته الجيّاشة ، ويتّقد خياله فتعتلج فيه صوَرٌ حارّةٌ من أحداث الحياة التي تَمرّس بها. فإذا بالبلاغة تزخر في قلبه وتتدفّق على لسانه تدفُّق البحار. ويتميّز أُسلوبُه ، في مثل هذه المواقف ، بالتكرار بُغيةَ التقرير والتأثير ، وباستعمال المترادفات وباختيار الكلمات الجزلة[1] ذات الرنين المتدفّق عذوبةً ومتانة، وقد تتعاقب فيه ضروب التعبير من إخبارٍ إلى استفهامٍ إلى تعجّبٍ إلى استنكار. وتكون مواطن الوقف فيه قوّيةً شافيةً للنفس. وفي ذلك ما فيه من معنى البلاغة وروح الفنّ. وإليك مثلاً لهذا خطبة الجهاد المشهورة ، وقد خطب عليٌّ بها الناسَ لمّا أغار سفيان بن عوف الأسدي على مدينة الأنبار بالعراق وقتل عامله عليها:

«هذا أخو غامدٍ قد بلغتْ خيلُه الأنبار ، وقتل حسّان بن حسّان البكري ، وأزال خيلَكم عن مسالحها وقتل منكم رجالاً صالحين.

وقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأُخرى المعاهدة ، فينزعُ حِجلَها ، وقُلبها ، ورُعاثَها ، ثم انصرفوا وافرينَ ما نال رجلاً منهم كلمٌ ، ولا أُريق لهم دم ، فلو أنّ امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسَفاً ، ما كان به مَلوماً ، بل كان به عندي جديراً»[2].

---

(١) الجزلة : جزالة الكلام : قوّة الكلام. لسان العرب: ١٠٩/١١، مادة «جزل».

(٢) جدير : خليق ، حريّ ، قمين. غريب الحديث: ١٩٧/٢.

فيا عجباً ، واللهِ يميت القلبَ ويجلب الهمّ اجتماعُ هؤلاء على باطلهم وتفرّقُكم عن حقّكم ،فقبحاً لكم حين صرتم غرضاً يُرمى : يُغار عليكم ولا تغيرون ،وتُغزَون ولا تَغزُون ، ويُعصى الله وترضون»[1].

فانظر إلى مقدرة الإمام الفنّية في هذه الكلمات الموجزة، فإنّه تدرّج في إثارة شعور سامعيه حتى وصل بهم إلى ما يصبو إليه. وسلك إلى ذلك طريقاً تتوفّر فيه بلاغةُ الأداء وقوّةُ التأثير. فإنّه أخبرَ قومَه بغزْو سفيان بن عوف الأنبارَ ، وفي ذلك ما فيه من عارٍ يلحق بهم. ثم أخبرَهم بأنّ هذا المعتدي إنّما قتَل عامل أمير المؤمنين في جملة من قتل ، وبأنّ هذا المعتدي لم يكتف بذلك فأغمد سيوفه في نحورٍ كثيرة من رجالهم وأهليهم.

وفي الفقرة الثانية من الخطبة توجّه الإمام إلى مكان الحميّة من السامعين ، إلى مثار العزيمة والنخوة من نفس كلّ عربيّ وهو شرف المرأة. وعلي يعلم أنّ من العرب مَن لا يبذل نفسه إلّا للحفاظ على سمعةِ امرأةٍ وعلى شرف فتاة، فإذا هو يعنّف هؤلاء القوم على القعود دون نصرة المرأة التي استباح الغزاةُ حماها ثم انصرفوا آمنين ، وما نالتْ رجلاً منهم طعنةٌ ولا أُريق لهم دم !

ثم إنّه أبدى ما في نفسه من دهَشٍ وحيرةٍ مِن أمرٍ غريب : فإنَّ أعداءَه يتمسكون بالباطل فيناصرونه ، ويدينون بالشرّ فيغزون الأنبار في سبيله ، فيما يقعد أنصارُه حتى عن مناصرة الحقّ، فيخذلونه ويفشلون عنه.

ومن الطبيعيّ أن يغضب الإمام في مثل هذا الموقف ، فإذا بعبارته تحمل كلَّ ما في نفسه من الغضب ، فتأتي حارّةً شديدةً مسجّعةً مقطعّةً ناقمة : «**فقبحاً**

---

(١) نهج البلاغة : الخطبة ٢٧ ـ ١٠.

لكم وترحاً حين صرتُم غرضاً يُرمى : يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزَون ولا تَغزُون ويُعصى الله وترضون!»[١].

وقد تثور عاطفتُه وتتقطع ، فإذا بعضُها يزحم بعضاً على مثل هذه الكلمات المتقطّعة المتلاحقة : **«ما ضعُفْتُ ، ولا جبنْتُ ، ولا خُنْتُ ، ولا وهَنْتُ!»**[٢] وقد تصطلي هذه العاطفة بألمٍ ثائرٍ يأتيه من قومٍ أرادَ لهم الخيرَ وما أرادوه لأنفسهم لغفلةٍ في مداركهم ووَهَنٍ في عزائمهم. فيخطبهم بهذا القول الثائر الغاضب ، قائلاً: **«ما لي أراكم أيقاظاً نُوّما ، وشهوداً غُيّبا ، وسامعةً صمّاء ، وناطقةً بكماء الخ...؟»**[٣].

* * *

والخطباء في العرب كثيرون، فالخطابة من فنونهم الأدبية التي عرفوها في الجاهلية والإسلام ولا سيّما في عصر النبي والخلفاء الراشدين ؛لِما كان لهم بها من حاجة. أمّا خطيب العهد النبويّ الأكبر فالنبيّ لا خلافَ في ذلك. أمّا في العهد الراشدي ، وفي ما تلاه من العصور العربية قاطبة، فإنّ أحداً لم يبلغ ما بلغ إليه عليّ ابن أبي طالب في هذا النحو. فالنطق السهل لدى عليٍّ كان منْ عناصر شخصيّته، وكذلك البيان القويّ بما فيه من عناصر الطبع والصناعة جميعاً ، ثم إنّ الله يسّر له العدّة الكاملة لِما تقتضيه الخطابة مِن مقوّمات أُخرى على ما مرّ بنا. فقد مَيّزَه الله بالفطرة السليمة ، والذوق الرفيع ، والبلاغة الآسرة[٤] ، ثمّ

(١) نهج البلاغة : الخطبة ٢٧، ١ / ٦٩، الكافي للكليني : ٥ / ٥، الغارات : ٢ / ٤٧٦ (تحقيق المحدث) ، نهج السعادة : ٥ / ٣١٥، أنساب الأشراف ترجمة الإمام علي (عليه السلام) باب غارة سفيان الغامدي : ٤٤٢.

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٠٤، ١ / ٢٠٠.

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ١٠٨، ١ / ٢٠٧، شرح نهج البلاغة : ٧ / ١٨٧.

(٤) البلاغة الآسرة : البلاغة التي تسحر لبّ سامعها.

بذخيرةٍ من العلم انفردَ بها عن أقرانه ، وبحجّةٍ قـائمة ، وقـوّةِ إقـناع دامـغة ، وعبقريّةٍ في الارتجال نادرة. أضفْ إلى ذلك صدقَه الذي لا حدود له، وهـو ضرورةٌ في كلِّ خطبةٍ ناجحة ، وتجاربَه الكثيرة المرّةَ التي كشفتْ لعقله الجبّار عن طبائع الناس وأخلاقهم وصفات المجتمع ومحرِّكاته. ثـم تـلك العـقيدة الصلبة التي تصعب مداراتها ، وذلك الألم العميق الممزوج بالحنان العميق ، وبطهارة القلب وسلامة الوجدان وشرف الغاية.

وإنّه لمن الصعب أن تجد في شخصيات التاريخ مَن اجتمعت لديه كـلّ هذه الشروط التي تجعل من صاحبها خطيباً فذّاً ، غير عليّ بن أبـي طـالب ، ونفَرٍ من الخلق قليل ، وما عليك إلّا استعراض هذه الشروط ، ثـمّ اسـتعراض مشاهير الخطباء في العالمين الشرقي والغـربي ، لكـي تـدرك أنّ قـولنا هـذا صحيح لا غلوّ فيه.

وابن أبي طالب على المنبر رابط الجأش ، شـديد الثـقة بـنفسه وبـعدْل القول ، ثمّ إنّه قويّ الفراسة سريع الإدراك ، يقف على دخائل الناس وأهـواء النـفوس وأعـماق القـلوب، زاخـرٌ جـنانُهُ بـعواطـف الحـرّية والإنسـانية والفضيلة ،حتّى إذا انطلق لسانه الساحر بما يجيش بـه قـلبه ادركَ القـومَ بـما يحرّك فيهم الفضائل الراقدة والعواطف الحامدة.

أمّا إنشاؤه الخطابي فلا يجوز وصفُه إلّا بأنّه أساسٌ في البلاغة العربية.

يقول أبو هلال العسكري صاحب «الصناعتين» : ليس الشأن في إيراد المعاني ـ وحدها ـ وإنّما هو في جودة اللفظ ، أيضاً ، وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحّة السبك والتركيب والخلوّ من

أود النظم[1] والتأليف.

من الألفاظ ما هو فخمٌ كأنّه يجرّ ذيول الأرجوان أنفَةً وتيها. ومنها ما هو ذو قعقعةٍ كالجنود الزاحفة في الصفيح. ومنها ما هو كالسيف ذي الحدّين. ومنها ما هو كالنقاب الصفيق يُلقى على بعض العواطف ليستر من حدّتها، ويخفِّف من شدّتها. ومنها ما له ابتسامة السماء في ليالي الشتاء، فمن الكلام ما يفعل كالمقرعة وهو كلام الانتقاد والتنديد. ومنه ما يجري كالنبع الصافي وهو المعدّ للرضى والغفران. ومنه ما يضيء كالشهاب وهو كلام التعظيم. كذلك من الكلام ما ليس له طابع خاصّ، فيؤتى به لتقوية الجملة ودعم المعنى، فهو يلائم كلّ حال.

كلّ ذلك ينطبق على خطَب عليّ في مفرداتها وتعابيرها. هذا بالإضافة إلى أنّ الخطبة تحسن إذا انطبعت بهذه الصفات اللفظية على رأي صاحب الصناعتين، فكيف بها إذا كانت كخطب ابن أبي طالب تجمع روعةَ هذه الصفات في اللفظ إلى روعة المعنى وقوّته وجلاله؟

وإليك ما جاء في فصلٍ سابقٍ لنا من هذا الكتاب تحت عنوان «الضمير العملاق» بصدَد بيان الإمام عليّ، لا سيّما ما كان منه في خطَبه:

نهجٌ للبلاغة آخذٌ من الفكر والخيال والعاطفة آياتٍ تتّصل بالذوق الفنّي الرفيع ما بقي الإنسان، وما بقي له خيالٌ وعاطفةٌ وفكر، مترابطٌ بآياته متساوق، متفجّر بالحسّ المشبوب والإدراك البعيد، متدفّقٌ بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع، متآلفٌ يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج، حتّى ليندمجَ التعبيرُ بالمدلول، أو الشكلُ

---

(١) أوِد النظم: أوِد الشيء: اعوجّ. القاموس المحيط: ٢٧٥/١، مادة «أود».

بالمعنى ، اندماجَ الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهـواء بـالهواء. فـما أنت إزاءه إلّا ما يكون المرء قبالةَ السيل إذ ينحدر ، والبحر إذ يـتموّج والريـح إذ تطوف، أو قبالةَ الحَدَثِ الطبيعي الذي لا بدّ له أنْ يكون بالضرورة على ما هو كائنٌ عليه من الوحدة، لا تفرّق بين عناصرها إلّا لتمحو وجودَها وتجعلها إلى غير كَوْن!

بيانٌ لو نطق بالتقريع لانقضّ على لسـان العـاصفة انـقضاضاً! ولو هـدّد للفساد والمفسدين لَتفجّر براكينَ لها أضواءٌ وأصوات! ولو انبسط في منطقٍ لَخاطبَ العقولَ والمشاعر فأقفلَ كلَّ بابٍ على كلّ حجّةٍ غير ما ينبسط فيه! ولو دعا إلى تأمّلٍ لَرافقَ فيك منشأ الحسّ وأصل التفكير، فسـاقك إلى مـا يـريده سَوْقاً ، ووَصلَك بالكون وصْلاً ، ووحّد فيك القوى للاكتشاف توحيداً. وهو لو راعاك لأدركتَ حنانَ الأب ومنطق الأُبوّة وصـدْقَ الوفـاء الإنسـاني وحـرارةَ المحبّة التي تبدأ ولا تنتهي. أمّا إذا تحدّثَ إليك عن بهاء الوجود وجـمالات الخلق وكمالات الكون ، فإنّما يكتب على قلبك بمدادٍ من نجوم السماء.

بيانٌ هو بلاغةٌ من البلاغة ، وتنزيلٌ من التنزيل. بـيان اتّـصل بأسـباب البيان العربي ماكان منه وما يكون، حتّى قال أحدهم في صاحبه : إنّ كـلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

وخُطَب عـليٍّ جـميعاً تـنضح بـدلائل الشـخصية ، حـتّى لَكأنّ مـعانيها وتعابيرها هي خوالج نفسه[1] بالذات ، وأحداث زمانه التي تشتعل في قلبه كما تشتعل النار في موقدها تحت نفخ الشمال. فإذا هو يرتجل الخطبة حسّاً دافقاً وشعوراً زاخراً ، وإخراجاً بالغاً غايةَ الجمال.

---

(١) خوالج النفس : نوازع النفس ، يقال تخالجه : تجاذبه وتنازعه. تاج العروس: ٣٥/٢، مادة «خلج».

وكذلك كانت كلمات عليّ بن أبي طالب المرتجلة ، فهي أقوى ما يمكن للكلمة المرتجلة أن تكون من حيث الصدق ، وعمق الفكرة ، وفنّية التعبير ، حتّى إنّها ما نطقتْ بها شفتاه إلّا ذهبتْ مثلاً سائراً.

فمن روائعه المرتجلة قولهُ لرجلٍ أفرط في مدحه بلسانه وأفرط في اتّهامه بنفسه : **«أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك»**(١).

ومن ذلك أنّه لمّا اعتزم أن يقوم وحده لمهمّةٍ جليلةٍ تَردّد فيها أنصاره وتخاذلوا، جاءَه هؤلاء وقالوا له ، وهم يشيرون إلى أعدائه : يا أمير المؤمنين! نحن نكفيكَهم. فقال من فوره : **«ما تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم؟ إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حَيْفَ رُعاتها، فإنني اليومَ لأشكو حيْفَ رعيّتي ،كأنّني المقود وهم القادة»**(٢).

ولمّا قتل أصحاب معاوية محمد بن أبي بكر فبلغه خبرُ مقتله قال : **«إن حزننا عليه قدر سرورهم به ، ألَا إنّهم نقصوا بغيضاً ونقصْنا حبيباً»**(٣).

وسئل: أيّهما أفضل: العدل أم الجود؟ فقال: **«العدل يضع الأُمور مواضعَها، والجود يُخرجها من جهتها، والعدلُ سائسُ عامّ، والجود عارضٌ خاصّ، فالعدل أشرفهما وأفضلهما»**(٤).

وقال في صفة المؤمن ، مرتجلاً :

«المؤمن بشرُه في وجهه ، وحزنُه في قلبه ، أوْسعُ شيء صدراً ، وأذلّ شيء نفساً.

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٨٣.
(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٦١.
(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٣٢٥.
(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٣٧.

يكره الرفعة ، ويَشنأُ السمعة[١] **، طويلٌ غمّه ، بعيدٌ همّه ، كثيرٌ صمتُه ، مشغولٌ وقتُه ، شكور صبور ، سهل الخليقة ، ليّن العريكة»**[٢].

وسأله جاهل متعنّتٌ عن معضلة ، فأجابه على الفور : **«اسألْ تفقّهاً ولا تسألْ تعنّتاً ، فإنّ الجاهل المتعلم شبيهٌ بالعالم ، وإنّ العالم المتعسّف شبيهٌ بالجاهل المتعنّت»**[٣].

والخلاصة أنّ عليّ بن أبي طالب أديبٌ عظيمٌ ، نشأ على التمرّس بالحياة ، وعلى المرانة بأساليب البلاغة فإذا هو مالكٌ ما يقتضيه الفنّ من أصالةٍ في شخصية الأديب ، ومن ثقافة تنمو بها الشخصية وتتركز الأصالة.

أمّا اللغة ، لغتنا العربية الحبيبة التي قال فيها مرشلوس في المجلّد الأوّل من كتابه «رحلة إلى الشرق» هذا القول الذكيّ : «اللغة العربية هي الأغنى والأفصح والأكثر والألطف وقعاً بين سائر لغات الأرض. بتراكيب أفعالها تتبع طيران الفكر وتُصوّره بدقّة ، وبأنغام مقاطعها الصوتية تقلّد صراخَ الحيواناتِ ، ورقرقةَ المياه الهاربة ، وعجيجَ الرياح وقصْفَ الرعد» ، أمّا هذه اللغة ، بما ذكر مرشلوس من صفاتها وبما لم يذكر ، فإنّك واجدٌ أُصولها وفروعَها ، وجمالَ ألوانها وسحْرَ بيانها ، في أدب الإمام عليّ.

وكان أدباً في خدمة الإنسان والحضارة.

---

(١) يشنأ السمعة : يبغضها ، ويكرهها. كتاب العين: ٢٨٧/٦، مادة «شنأ».

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٣٣٣ ـ ٣.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٣٢٠.

من روائع الإمـام

طائفة من أقوالـه

في رسائل الإمام عليٍّ وفي عهوده ووصاياه ، وفي خطَبه وسائر أقواله ، روائعُ خالدةٌ تناوَلَها من الإنسان جوهراً وغاية ، ومن الكون معنىً وشكـلاً ، ومن أحوال زمانه وأحداث عصره، ودفعَها عـقلُه الحكـيم إلى خـياله وقـلبه حقائقَ علميةً خالصة، فإذا بها لا تمرَّ على خياله الخصب وعاطفته الحارّة إلّا لتتحرك وتنمو وتنبعث ، وفيها امتداداتٌ ونبْضٌ وخفوق ، فما هي إلّا حـياةٌ من الحياة.

وإنّها لتراثٌ عظيمٌ للإنسانية بوصفها دستوراً جليلاً في الأخلاق الخـاصّة والعامّة ، لا تسمو عليه دساتيرُ الأنبياء والمفكّرين والحكـماء فـي مـختلف العصور والأمكنة.

ونلفت أنظارَ القرّاء ـ بصورةٍ خاصّة ـ إلى ما يبدو في هذه الآثار العلوية من دعوةٍ إلى السلم ، والمؤاخاة والتصافي في سـبيل الانـطلاق إلى المـيادين الإنسانية الرّحبة ، وفي سبيل إكرام الحياة واحترام الأحياء. وإنه ليجدر بمثيري الحروب اليوم ، ومسبّبي ويلات الشعوب والأفراد ، أن يسمعوا كلمات جبّار الفكر العربيّ ، وعملاق الضمير الإنسانيّ : عليّ بن أبـي طـالب ، ويـعوها ، ويطأطئوا رؤوسهم لصاحبها العظيم.

وقد أثبتنا في هذا الفصل روائعَ اتّخذناها شواهدَ هنا وهناك في هذا الكتاب. وروائعَ أُخرى كثيرةً لم تُذكر إلّا بهذا الفصل من المختارات. وأهملْنا إثباتَ روائعَ غير قليلة لورودها على صورةٍ بارزة في أبحاثٍ سابقاتٍ ولاحقاتٍ. وإليك الآن هذه الطائفة من آثار العقل والقلب والوجدان :

مَن ظَنّ بك خيراً فصدِّقْ ظنّه.(١)

لا تظنَّنّ بكلمةٍ خرجتْ من أحدٍ سوءاً وأنت تجد لها في الخير مُحْتَمَلا.(٢)

أسْوأُ الناس حالاً مَن لم يثقْ بأحدٍ لسوء ظنّه ، ومَن لم يثقْ به أحدٌ لسوء فعله.(٣)

ليس من العدل القضاءُ بالظنّ على الثقة.(٤)

سوء الظنّ يدوي(٥) **القلوب ، ويتّهم المأمون ، ويوحش المستأنس ، ويغيّر مودّةَ الإخوان.**(٦)

ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظمَ أجراً ممّن قدر فعَفّ : لَكاد العفيف أنْ يكون ملكاً من الملائكة.(٧)

العفو زكاةُ الظفر.(٨)

ما كلّ مفتون يُعاتب(٩)**.**(١٠)

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٤٨ والكتاب : ٣١ ـ ١٠٣ ، وفيها : ومن ظنّ بك خيراً فصدّق ظنّه.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٣٦٠.

(٣) نهج البلاغة، غرر الحكم ودرر الكلم : ٥٧٤٨ وفيها : شرّ الناس من لا يثق بأحد لسوء ظنّه ، ولا يثق به أحد لسوء فعله.

(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٢٠ ، وفيها : ليس من العدل القضاء على الثقة بالظنّ.

(٥) يدوي : يصيبه بالداء.

(٦) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٠٨.

(٧) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٧٤.

(٨) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢١١ ـ ١ .

(٩) أي : لا يتوجه العتاب واللوم إلى كلّ داخل في فتنة ، فقد يدخل فيها من لا محيص له عنها لأمر اضطرّه فلا لوم عليه.

أولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة.(١)

استرْ عورةَ أخيك واغتفرْ زلّةَ صديقك.(٢)

عليك بالصدق في جميع أُمورك.(٣)

لا سوأة أسوأ من الكذب.(٤)

الكذّاب يخيف نفسه وهو آمن.(٥)

علامة الإيمان أنْ تُؤثر الصدقَ حيثُ يضرّك على الكذب حيث ينفعك.(٦)

جانبوا الكذب، فإنّ الصادق على منجاةٍ وكرامة، والكاذب على شَفامهواةٍ وهلكة.(٧)

الكذّاب والميّتُ سواء ، لأنّ فضيلة الحيّ على الميّت الثقة به ، فإذا لم يوثَقْ بكلامه فقد بطلتْ حياتُه.(٨)

إن كنتَ صادقاً كافيناك ، وإن كنتَ كاذباً عاقبناك.(٩)

لا يصلح الكذب في جدٍّ ولا هزل ، ولا في أن يعِدَ أحدُكم صبيّه ثم لا يفي له. إنّ الكذب يهدي إلى الفجور.(١٠)

خير المقال ما صدّقَتْه الفِعال.(١١)

---

(١٠) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٥.
(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٥٢.
(٢) تحف العقول : ٩٨، شرح أُصول الكافي : ١١ / ٢٣٢.
(٣) نهج السعادة : ١ / ٣٤٥.
(٤) فروع الكافي : ٨ / ١٩.
(٥) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٩٤.
(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٥٨.
(٧) تحف العقول ، للحرّاني : ١٥١.
(٨) شرح أُصول الكافي : ١ / ١٨٦.
(٩) فروع الكافي : ٧ / ٧٨.
(١٠) الدر المنثور : ٣ / ٢٩٠، والقول للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.
(١١) عيون الحكم والمواعظ : ٢٤٠.

إنّ مَن عدمَ الصدقَ في منطقه فقد فُجع بأكرم أخلاقه.[١]

ما السيف الصارم في كفّ الشجاع بأعزّ له من الصدق.[٢]

أقبحُ الصدق ثناءُ المرء على نفسه.[٣]

ذمّتي بما أقول رهينة.[٤]

اعتصموا بالذمم.[٥]

لا تغدرَنّ بذمّتك ولا تخيسَنّ بعهدك ولا تَخْتِلَنّ عدوّك.[٦]

أوفوا إذا عاقدتم، واعدلوا إذا حكمتم، ولا تفاخروا بالآباء.[٧]

لا تكنْ ممّن ينهىٰ ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، ويصف العبرة ولا يعتبر، فهو على الناس طاعنٌ ولنفسه مُداهن.[٨]

لا تصحبِ المائقَ[٩]، فإنّه يزيّن لك فعله ويودّ أن تكون مثله.[١٠]

إيّاك ومصادقةَ الأحمق فإنّه يريد أنْ ينفعك فيضرّك! وإيّاك ومصاحبةَ البخيل فإنه يَبْعُدُ عنك أحوجَ ما تكون إليه! وإيّاك ومصادقة الكذّاب فإنّه كالسراب: يقرّب عليك البعيدَ ويُبعد عنك القريب.[١١]

---

(١) معدن الجواهر، للكراجكي: ٢٣، شرح نهج البلاغة: ٢ / ٣٣٦.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٢ / ٢٩٦.
(٣) عيون الحكم والمواعظ: ١١٨، ميزان الحكمة: ٤ / ٢٨٦٥.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٦ ـ ١.
(٥) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٥٥.
(٦) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣ ـ ١٣٦.
(٧) تحف العقول: ١٥١.
(٨) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٥٠ ـ ١٠.
(٩) المائق: الأحمق. لسان العرب: ٣٥٠/١٠، مادة «موق».
(١٠) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢٩٣.
(١١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣٨ ـ ٤.

لا صديق لمتلوّنٍ ، ولا وفاء لكذوب ، ولا راحة لحسود ، ولا مروءة لدنيء.[١]

إيّاكم والخديعة فإنّها من خُلق اللئام.[٢]

واللهِ ما معاوية بأدهى منّي ، ولكنّه يغدر ويفجر ، ولولا كراهيةُ الغدر لكنتُ أدهى الناس.[٣]

انتهزوا فُرَصَ الخير.[٤]

إفْعلوا الخير ولا تَحْقِروا منه شيئاً ، فإنّ صغيره كبيرٌ وقليلَه كثير.[٥]

قولوا الخيرَ تُعرَفوا به ، واعملوا الخيرَ تكونوا من أهله.[٦]

الساعي بالخير كفاعله ، أمّا الساعي بالشرّ ومحاربةِ الخير فهو عدوّ الله والبشر.

ولا يقولَنّ أحدُكم : إنّ أحداً أولى بفعل الخير منّي فيكون واللهِ كذلك.[٧]

إذا تحرّكتْ صورة الشرّ ولم تظهر ولّدتِ الفزع، فإذا ظهرتْ ولّدت الألم. وإذا تحرّكتْ صورة الخير ولم تظهر ولّدت الفرج، فإذا ظهرت ولّدت اللذة.[٨]

الكَيّسُ مَن كان يومه خيراً من أمسه.[٩]

مَن اعتدل يوماه فهو مغبون.[١٠]

إذا رأيتم الشرّ فاعرضوا عنه.[١١]

---

(١) تحف العقول : ٣٧٦، وفيه : لا مروءة لكذوب ، ولا راحة لحسود...

(٢) تحف العقول : ٨١

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٠٠ ـ ١.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢٥٠١.

(٥) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٢٢.

(٦) المحاسن ، للبرقي : ١ / ١٥.

(٧) وسائل الشيعة : ١ / ١١٨.

(٨) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٨٢.

(٩) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٧٩٧.

(١٠) بحار الأنوار : ٧٤ / ٣٧٦.

(١١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦٧ ـ ٥.

مَنْ مَنّ بمعروفه أفسده.(١)

لا يُزهّدنّك في المعروف مَن لا يشكر لك.(٢)

أهل المعروف إلى اصطناعه أحوَجُ من أهل الحاجة إليه.(٣)

لا تستصغر شيئاً من المعروف قدرتَ على اصطناعه إيثاراً لِما هو أكثر منه، فإنّ اليسير في حال الحاجة أنفع من الكثير في حال الغِنى عنه.(٤)

قارنْ أهلَ الخير تكنْ منهم.(٥)

فاعلُ الخير خيرٌ منه ، وفاعلُ الشرّ شرٌّ منه.(٦)

لا تعمل الخير رياءً ولا تتركه حياءً.(٧)

مَن لا يعرف الخير من الشرّ فهو بمنزلة البهيمة.(٨)

إسألِ اللهَ أن يُقوّيك على العمل بكلِّ خير.(٩)

لن يُضيع اللهُ أجرَ مَن أحسن عملا.(١٠)

أُطلبوا الخيرَ وأهله ، واعلموا أنَ خيراً من الخير معطيه ، وشرّاً مِن الشرّ فاعله.(١١)

كنت أنا والعباس وعمر نتذاكر المعروف ، فقلت أنا : **خيرُ المعروف سترُه.** وقال العباس : خيرُه تصغيرُه. وقال عمر : خيرُه تعجيله. فخرج علينا رسول

(١) من لا يحضره الفقيه : ٤ / ٣٩٠.
(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٠٤.
(٣)كشف الغمّة ، للأربلي : ٣ / ١٣٩.
(٤) ميزان الحكمة ، للري شهري : ٣ / ١٩٣٦.
(٥) نهج البلاغة ، من وصيته للإمام الحسن (عليه السلام) : ٣ / ٥٢.
(٦) نهج البلاغة ، الكلمات القصار : ٣٢.
(٧) عيون الحكم والمواعظ : ٥٢٢.
(٨) تحف العقول ، للحرّاني : ٩٩.
(٩) نهج السعادة : ٥ / ١٢.
(١٠) مستدرك الوسائل : ٢ / ٣٦٨.
(١١) تحف العقول ، للحرّاني : ٥٧.

الله ، فقال : **فيمَ أنتم؟** فذكرنا له ، فقال : **خيرُه أن يكون هذا كله فيه.**[١]

ما مِن يوم يمرّ على ابن آدم إلّا قال له : أنا يومٌ جديد ، وأنا عليك شهيد ،فقلْ فيّ خيراً واعملْ فِيَّ خيراً فإنك لن تراني بعد هذا أبداً![٢]

قال في صفة الإنسان الشريف : **ينوي كثيراً من الخير ، ويعمل بطائفةٍ منه ، ويتلهّف على ما فاته كيف لم يعمل به.**[٣]

وقال فيه أيضاً : **قد ألزمَ نفسَه العدلَ ، يصف الحقّ ويعمل به ، لا يدَعُ للخير غايةً إلّا أمّها ، ولا مَظَنّةً إلّا قَصَدَها**[٤].[٥]

أُحصد الشرَّ من صدر غيرك بقلعه من صدرك.[٦]

مَن استحسن القبيحَ كان شريكاً فيه.[٧]

إذا أردت أن تعرف طبع الرجل فاستَشْرِهُ. فإنّك تقف في مشورته على عدله وجوره ، وخيره وشرّه.[٨]

ليس في البرق الخاطف مستمتَعٌ[٩] **لمن يخوض في الظلمة.**[١٠]

ما خيرُ خيرٍ لا يُنال إلّا بشرّ[١١] **ويُسْرٍ لا يُنال إلّا بعُسْر.**[١٢]

---

(١) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٧٠

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٣٩٧/٤.

(٣) تحف العقول : ٢١٢.

(٤) مظنة خير : موضع ظن لوجود خير.

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ٨٧ ـ ٩.

(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٧٨.

(٧) بحار الأنوار : ٧٥ / ٨٢، وفيه : من استحسن قبيحاً...

(٨) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٧٢.

(٩) مستمتع : متعة.

(١٠) عيون الحكم والمواعظ : ٤١١.

(١١) يقول : أيّ خير في شيء سماه الناس خيراً وهو ممّا لا يناله الإنسان إلّا بفعل الشر.

(١٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ٨٧.

إقبلْ عذرَ من اعتذر إليك ، وأخّر الشرّ ما استطعت.(١)

ليكنْ أمرُ الناس عندك في الحقّ سواء.(٢)

مَن تعدّى الحقّ ضاع مذهبه.(٣)

مَن صارع الحقَّ صرعَه.(٤)

لا يُؤْنسنّك إلّا الحقّ ولا يوحشنّك إلّا الباطل.(٥)

ألَا وإنّه بالحقّ قامت السماوات والأرض فيما بين العباد.(٦)

ما شككت في الحقّ مذ رأيتُه.(٧)

اتبعوا الحقّ وأهلَه حيث كانوا.(٨)

لا تزيدنّي كثرةُ الناس حولي عزّةً ، ولا تفرّقُهم عنّي وحشةً ، وما أكره الموتَ على الحقّ.(٩)

ليسَ مَن طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطلَ فأدركه.(١٠)

مَن طلب عزّاً بباطلٍ أورثَه اللهُ ذُلّاً بحقّ.(١١)

إعلمْ أنّه لا يحمل الناسَ على الحقّ إلّا مَن وَزَعَهم(١٢) عن الباطل.(١٣)

---

(١) دستور معالم الحكم ، لابن سلامة : ٦٩.

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٥٩ ـ ١ ، وفيه : فليكن...

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٣١ ـ ١١١.

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٠٨.

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٣٠ ـ ٣ ، وغرر الحكم : ٩٤٨٢.

(٦) بحار الأنوار ، ٣٣ / ٤٩٣.

(٧) نهج البلاغة ، الخطبة : ٤ ـ ٥.

(٨) المسترشد ، للطبري : ٤٠١.

(٩) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣٦ ـ ٦.

(١٠) نهج البلاغة ، الخطبة : ٦١.

(١١) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٣٠٩.

(١٢) وزعهم : ردعهم. النهاية في غريب الحديث: ٥/١٨٠، مادة «وزع».

(١٣) من لا يحضره الفقيه ، للصدوق : ٣ / ١٥.

مَن استثقل الحقّ أنْ يُقال له أو العدلَ أن يُعرَض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه.(١)

لنا حقّ فإن أُعطيناه وإلّا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السُرى.(٢)

لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة من يسلكه.(٣)

اعملوا في غير رياء ولا سُمعة فإنّه من يعمل لغير الله يكله الله سبحانه إلىٰ من عمل له.(٤)

للمرائي ثلاث علامات: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده ويحبّ أن يحمد في جميع أحواله.(٥)

مَن أسعف أخاه مبتدئاً وبَرّه راغباً فله الأجر.(٦)

ليكنْ دنوّك من الناس لِيناً ورحمة.(٧)

عاتبْ أخاك بالإحسان إليه واردُدْه بالإنعام عليه.(٨)

صلْ مَن قَطعَك، واعطِ مَن حَرَمَك، وأحسِنْ إلى مَن أساء إليك، وقل الحقّ ولو على نفسك.(٩)

إن كنتَ من أخيك على ثقةٍ فابذلْ له مالك ويدك.(١٠)

أُزجرِ المسيءَ بثواب المحسن.(١١)

---

(١) بحار الأنوار: ٢٧ / ٢٥٣، و ٧٤ / ٣٥٩، نهج السعادة: ٢ / ١٨٦، شرح نهج البلاغة: ١١ / ١٠١.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢٢.

(٣) مستدرك الوسائل: ١٢ / ١٩٤.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٥٣٤، ونهج البلاغة، خطبة: ٣٣ ـ ٦.

(٥) مستدرك الوسائل: ١/١١٤.

(٦) وسائل الشيعة: ٧ / ٢٢٧.

(٧) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٣ ـ ٢٧، وفيها: ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة.

(٨) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٥٨.

(٩) نهج السعادة: ٣٥٣/٧، كنز العمال: ٣٥٨/٣.

(١٠) تحف العقول، ٢٠٥.

(١١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٧٧.

إذا قصرتْ يدك عن المكافأة فليطلْ لِسانك بالشكر.(١)

خذْ على عدوّك بالفضل فإنّه أحلى الظفَرين(٢).(٣)

إنْ لم تكن حليماً فتحلّمْ ، فإنّه قَلّ مَن تشبّهَ بقومٍ إلّا أوشك أن يكون منهم.(٤)

ليس جزاء مَن سَرّك أن تسوءَه.(٥)

ما ظفرَ مَن ظفر الإثمُ به ، والغالب بالشرّ مغلوب.(٦)

مَن أساء خُلقَه عذّب نفسه.(٧)

كفى بحُسن الخُلق نعيماً.(٨)

لا تَعِدَنّ عِدَةً تحقّرها قلّةُ الثقة بنفسك ، ولا يغرّنك المرتقى السهل إذا كان المـنحَدَر وَعْراً.(٩)

أُوصيك بالحلم عند الجهل ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المُنْكَر ، واجتناب الفواحش.(١٠)

إرحَمْ تُرحَمْ ، قلْ خيراً تُذكَر بخير ، اجتنب الغيبةَ فإنّها إدام كِلاب النار.(١١)

ليرأفْ كبيرُكم بصغيركم.(١٢)

---

(١) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣١٤.

(٢) الظفرين : الذي يكون نتيجة القتال ، وذاك الذي يكون نتيجة الإحسان.

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ١٠٢.

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٠٧.

(٥) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ١٠٥.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم : ٥٨٣٠ ، ونهج البلاغة : قصار الحكم : ٣٢٧.

(٧) غرر الحكم ودرر الكلم : ٨١٥٦

(٨) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٢٩ .

(٩) شرح النهج : ٢ / ٢٦٠.

(١٠) بحار الأنوار : ٤٢ / ٢٤٥.

(١١) أمالي الصدوق : ٢٧٨.

(١٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦٦ ـ ١.

مَن وعظ أخاه سرّاً فقد زانه ، ومن وعظه علانيةً فقد شانه.(١)

عليكم بكلمة الحقّ في الرضا والغضب ، وبالعدل على الصديق والعدوّ.(٢)

عليك لأخيك مثل الذي لك عليه.(٣)

الغيبة جُهدُ العاجز.(٤)

سامع الغيبة أحد المغتابين.(٥)

نَظَر إلى رجل يغتاب آخر عند ابنه الحسن ، فقال : يا بنيّ! نزّهْ سمعك عنه، فإنّه نظر إلى أخبث ما في وعائه فأفرغَه في وعائك.(٦)

امحضْ أخاك النصحَ وساعدْه على كلِّ حال ، ولا تصرمْ أخاك على ارتياب ولا تقاطعه دون استعتاب، فلعلّ له عذراً وأنت تلوم.(٧)

أكثرِ البرَّ ما استطعتَ لجليسك.(٨)

كفى أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك.(٩)

الويل كلّ الويل لمن استحسن لنفسه ما يكرهه لغيره ، وأزرى على الناس بمثل ما يأتي.(١٠)

---

(١) تحف العقول : ٤٨٩.

(٢) نهج السعادة للمحمودي : ٧ / ٤٧٤ ، تحف العقول : ٨٨، ينابيع المودة : الباب ١٠٠.

(٣) فروع الكافي : ٧ / ٢٢.

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٦١.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم : ٥٥٨٣.

(٦) الاختصاص للمفيد : ٢٢٥.

(٧) تحف العقول : ٨٢.

(٨) من لا يحضره الفقيه : ٤ / ٣٩١.

(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤١٢ ، وفيه: كفاك أدباً.. .

(١٠) تحف العقول : ٩١.

ليس بعاقلٍ من انزعج من قول الزور فيه ، ولا بحكيمٍ مَن رضيَ بثناء الجاهل عليه.(١)

مَن تجرّأ لك تجرّأ عليك.(٢)

من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راضٍ عنك ذمّك بما ليس فيك من القبح ، وهو ساخط عليك.(٣)

عجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح! وعجباً لمن قيل فيه الشرّ وليس فيه كيف يغضب!(٤)

لتكنْ معرفتك بنفسك أوثقَ عندك من مدح المادحين لك.(٥)

من استحيا من الناس ولم يستحِ مِن نفسه فليس لنفسه عنده قدر !(٦)

رأس العلم الرفق.(٧)

ما كان الرفقُ في شيءٍ إلّا زانه.(٨)

وإنّ غائباً يحدوه الجديدان ـ الليل والنهار ـ لحريّ بسرعة الأوبة(٩).(١٠)

طُوبى لمن شغلَه عيبُه عن عيوب الناس.(١١)

---

(١) تحف العقول : ٢٠٨.

(٢) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٣٤٢.

(٣) عيون الحكم والمواعظ ، لعلي بن محمد الواسطي : ٤٤٠.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١١ / ١٠٣.

(٥) المصدر السابق : ٢٠ / ٢٧٤.

(٦) المصدر السابق : ٢٠ / ٢٦٥.

(٧) غرر الحكم ودرر الكلم : ٥٢٢٤.

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم : ٩٥١٧.

(٩) يحدوه : يسوقه. الأوبة : الرجوع. لسان العرب: ٢١٨/١، مادة «أوب».

(١٠) نهج البلاغة ، الخطبة : ٦٤ ـ ٤.

(١١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٧٦ ـ ٣٥.

مَن نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رضيَها لنفسه فذاك الأحمق بعينه.(١)

مَن نظر في عيب نفسه شُغل عن عيب غيره.(٢)

مَن نَسيَ زللَه استعظم زللَ غيره ، ومَن تكبّر على الناس ذلّ.(٣)

وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره.(٤)

الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل.(٥)

مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه.(٦)

هلك امرؤٌ لم يعرف قدره.(٧)

أُنظُر وجهك كل وقت في المرآة ، فإن كان حسناً فاستقبح أن تضيف إليه فعلاً قبيحاً وتشينه به. وإن كان قبيحاً فاستقبح أن تجمع بين قبحين!(٨)

الإنسان مرآة الإنسان ، يتأمّله ويسدّ فاقته.(٩)

إذا كان في رجل خَلّةٌ رائقة فانتظروا أخواتها(١٠).(١١)

شِرارُكم المشّاؤون بالنميمة ،المفرّقون بين الأحبّة ، المبتغون للأبرياء المعايب.(١٢)

---

(١) تحف العقول : ٨٩.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٤٩ ـ ١.

(٣) فروع الكافي : ٨ / ١٩.

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦ ـ ٩، وغرر الحكم ودرر الكلم : ٧٠٥٤.

(٥) تحف العقول : ١٣٩.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم : ٧٩٤٦.

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٩.

(٨) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٧١.

(٩) مستدرك الوسائل : ٩ / ٤٩ ، وفيه المؤمن مرآة المؤمن ، لأنه يتأمله...

(١٠) الخلة : الخصلة. الصحاح: ١٦٨٥/٤ .

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٤٥.

(١٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٦٢.

لا سؤدد مع انتقام ، ولا صواب مع ترك المشورة.(١)

لا أقبل شهادة الفاسق إلّا على نفسه.(٢)

إذا حُيّيتَ بتحيّةٍ فحيِّ بأحسنَ منها ، وإذا اسديتْ إليك يدٌ فكافئْها بما يربى عليها ، والفضل في ذلك للبادي.(٣)

إذا بلغ المرء من الدنيا فوق قدره ، تنكّرتْ للناس أخلاقُه.(٤)

إذا رفعتَ أحداً فوق قدره فتوقّعْ منه أن يحطّ منك بقدر ما رفعتَ منه.(٥)

لا تشمتْ بالمصائب ولا تدخل في الباطل ولا تخرجْ من الحقّ.(٦)

لا تفرح بسقطة غيرك ، فإنك لا تدري ما تتصرّف الأيام بك.(٧)

أكرم نفسك عن كلّ دنيّة.(٨)

لا يأبى الكرامة إلّا حمار.(٩)

مَن حمّل نفسه ما لا يُطيق عجز.(١٠)

مِن كفّارات الذنوب العِظام إغاثةُ الملهوف والتنفيس عن المكروب.(١١)

---

(١) مناقب الخوارزمي : ٣٧٥.

(٢) وسائل الشيعة : ١٦ ـ الباب ٦ ، الحديث رقم ١.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٦٢.

(٤) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٧٢.

(٥) المصدر السابق : ٢ / ٢٩٨.

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦٣ ـ ٢٥ ، وفيها : المتقي : ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل في الباطل ، ولا يخرج من الحقّ.

(٧) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٧٩.

(٨) نهج البلاغة : الكتاب ٣١ ـ ٨٦.

(٩) معاني الأخبار للصدوق : ١٦٣.

(١٠) مستدرك سفينة البحار : ١٠ : ٣٠٠.

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٤.

مَن عزّى الثكلى فقد أظلّه الله في ظلّ عرشه.(١)

أدّبِ اليتيمَ بما تؤدّب به وُلْدَك.(٢)

ساووا ضعفاءَكم في مآكلكم.(٣)

لا يطمع قريبُك في حيفك(٤) **ولا ييأس عدوّك من عدلك.**(٥)

إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين.(٦)

لا تصحبَنّ في سفرٍ مَن لا يرى لك من الفضل عليه مثلَ ما يرى له من الفضل عليك.(٧)

إنّ مشْيَ الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلّةٌ للماشي.(٨)

لا تُسارّ أحداً في مجلسك ، وإن غضبتَ فقمْ ، ولا تقضَينَ وأنت غضبان.(٩)

ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة.(١٠)

إذا طرقك إخوانُك فلا تدّخرْ عنهم ما في البيت ، ولا تتكلّف لهم ما وراء الباب.(١١)

شرّ الإخوان مَن تكلّفَ له.(١٢)

إيّاك وكلّ عملٍ إذا ذُكر لصاحبه أنكره!(١٣)

---

(١) الذكرى ، للشهيد الأول : ٧١.

(٢) وسائل الشيعة : ١٥ ـ الباب ٨٥ من أحكام الأولاد ، الحديث الأول.

(٣) مصباح المتهجّد ، للطوسي : ٧٥٧، بحار الأنوار : ٩٤ / ١١٧.

(٤) حيفك : ظلمك.

(٥) فروع الكافي ، ٧ / ٤١٣ ، من لا يحضره الفقيه : ٣ / ١٥ ، تهذيب الأحكام للطوسي : ٦ / ٢٢٦.

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٠٦ ، المعيار والموازنة ، للأسكافي : ١٣٧.

(٧) وسائل الشيعة ، ٨ / ٣٠٢، الكافي للكليني : ٤ / ٢٨٦.

(٨) المحاسن ، للبرقي : ٦٢٩.

(٩) مجمع الفائدة ، للأردبيلي : ١٢ / ٤٣.

(١٠) نهج البلاغة ، الخطبة : ٥٢ ـ ٤.

(١١) المحاسن : ٤١٥ ، وفيه : لا تدخرين شيئاً مما في بيتك ولا تتكلّف شيئاً مما وراء الباب.

(١٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٧٩.

(١٣) شرح أُصول الكاقي : ٩ / ٢٩٨.

مَن عمل في السرّ ما يستحي منه في العلانية ؛ فليس لنفسه عنده قدر.(١)

مَن أصلح سريرته أصلح علانِيتَه.(٢)

ليتزَيّنْ أحدُكم لأخيه كما يتزيّن للغريب الذي يحبّ أن يراه في أحسن الهيئة.(٣)

صديقك من نهاك وعدوّك من أغراك.(٤)

مَن حذّرك كمن بشّرك.(٥)

حسد الصديق من سُقم المودّة.(٦)

ما رأيتُ ظالماً أشبه بمظلومٍ من الحاسد: نَفَسٌ دائم وقلبٌ هائم وحزنٌ لازم ، مغتاظٌ على من لا ذنبَ له ، بخيلٌ بما لا يملك.(٧)

لا يرضى عنك الحاسدُ حتّى يموت أحدكما.(٨)

التواضع نعمة لا يفطن لها الحاسد.(٩)

قال لرجل أفرط في الثناء عليه ، وكان له متّهماً : أنا دونَ ما تقول وفوقَ ما في نفسك.(١٠)

الثناء بأكثر من الاستحقاق ملقٌ ، والتقصير عن الاستحقاق عيٌّ أو حسدٌ.(١١)

---

(١) كنز الفوائد : ٢٨٣.
(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٢٣.
(٣) تحف العقول : ١٠٢.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم : ٥٨٥٧.
(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٥٩ ، وغرر الحكم : ٧٩٨٢.
(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢١٨.
(٧) كنز الفوائد : ٥٧.
(٨) شرح نهج البلاغة ، للمعتزلي : ٢ / ٢٨١.
(٩) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣٠١.
(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٨٣.
(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٤٧.

خالطوا الناس مخالطةً إن متّم معها بكوا عليكم ؛ وإن عشتم حنّوا إليكم.(١)

لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاثٍ : في نكبته وغيبته ووفاته.(٢)

عدوٌّ عاقل خيرٌ من صديق جاهل.(٣)

من أشرف أعمال الكريم غفلتُه عمّا يعلم(٤).(٥)

أكبر الأعداء أخفاهم مكيدةً.(٦)

مَن كساه الحياءُ ثوبَه لم يرَ الناسُ عيبه.(٧)

ما جفّت الدموع إلّا لقسوةٍ في القلوب ، وما قست القلوب إلّا لكثرة الذنوب.(٨)

إسأل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار.(٩)

الكرَم أعطَفُ من الرحم.(١٠)

تحتاج القرابة إلى مودّة ، ولا تحتاج المودّة إلى قرابة.(١١)

ربّ قريبٍ أبعد من بعيد. وربّ بعيدٍ أقرب من قريب. والغريب من لم يكن له حبيب.(١٢)

---

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٢٦ ـ ١.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٣٤.

(٣) كشف الخفاء : ٢ / ٥٦.

(٤) أي عدم التفاته إلى عيوب الناس وإشاعتها وإن علمها.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٢٢.

(٦) عيون الحكم والمواعظ ، للواسطي : ١٢٦.

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٢٣.

(٨) علل الشرائع ، للصدوق : ٨١.

(٩) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ١١٥.

(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٤٧.

(١١) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٣٠٥.

(١٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ١١١.

المودّة قرابةٌ مستفادة.(١)

فقْد الأحبّة غربة.(٢)

مِن كرَم المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه، وحنينه إلى أوطانه، وحِفْظُه قديمَ إخوانه.(٣)

الطمع رقٌّ مؤبّد.(٤)

أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.(٥)

كم من عقلٍ أسيرٍ تحت هوى أمير.(٦)

إن كنت جازعاً على ما تَفَلّتَ من يديك؛ فاجزع على كلّ ما لم يصل إليك.(٧)

الهوى مطيّة الفتنة.(٨)

في تقلُّب الأحوال علمُ جواهر الرجال.(٩)

إذا أيسرت فكلّ الرجال رجالك، وإذا أعسرت أنكركَ أهلُك.(١٠)

إذا أقبلتِ الدنيا على أحدٍ أعارته محاسنَ غيره، وإذا أدبرتْ عنه سلبتْه محاسنَ نفسه.(١١)

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢١١ ـ ٣.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٦٥.

(٣) كنز الفوائد، للكراجكي: ٣٤.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ١٢٦، وفيها: الطمع رقّ. و ٧٥٥ و ٩٨٣، وفيهما: الطمع رقّ مخلّد.

(٥) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢١٩.

(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢١١ ـ ٣.

(٧) غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٧١٦.

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم: ١٠٩٨.

(٩) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢١٧.

(١٠) شرح نهج البلاغة، ٢ / ٢٨٩.

(١١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٩.

فَوتُ الحاجة أهونُ مِن طلبها إلى غير أهلها.[١]

ثلاثةٌ يُرحَمون : عاقلٌ يجري عليه حُكمُ جاهل ، وضعيف في يد ظالم قوي ، وكريم يحتاج إلى لئيم.[٢]

إذا سألتَ كريماً حاجةً فدعْه يفكِّر ، فإنه لا يفكّر إلّا في خير. وإذا سألتَ لئيماً حاجةً فعاجلْه ، فإنّه إنْ فكّر عاد إلى طبعه.[٣]

الرغبة إلى الكريم تُحَرِّكُهُ على البذل ، وإلى الخسيس تُغريه بالمنع.[٤]

الكريم لا يلين على قسر ، ولا يقسو على يُسر.[٥]

وجّهوا آمالكم إلى مَن تحبّه قلوبكم.[٦]

البخل جامعٌ لمساوئ العيوب ، وهو زمامٌ يُقاد به إلى كلّ سوء.[٧]

البخل جلباب المسكنة.[٨]

البخلاء من الناس يكون تَغافُلُهم عن عظيم الجرْم ؛ أسهلَ عليهم من المكافأة على يسير الإحسان.[٩]

السخاء ما كان ابتداءً ، فأما ما كان عن مسألة فحياءٌ وتذمّم[١٠].[١١]

---

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٦٦.
(٢) شرح نهج البلاغة : ٥ / ٢٧٥.
(٣) المصدر السابق : ٢٠ / ٣٠٦.
(٤) المصدر السابق : ٢ / ٢٧٤.
(٥) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٩١.
(٦) جواهر المطالب ، لابن الدمشقي : ٢ / ١٦٧.
(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٧٨.
(٨) تحف العقول : ٩٠.
(٩) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٧٥.
(١٠) التذمّم : الفرار من الذمّ ، كالتأثّم والتحرج.
(١١) شرح نهج البلاغة : ١٨ / ١٨٤.

يا ابن آدم ، ما كسبتَ فوق قوتك أنت فيه خازنٌ لغيرك.(١)

يا ابن آدم ،كنْ وصيّ نفسك في مالك ، واعملْ فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك.(٢)

من يكن له مالٌ فليفكّ به العاني والأسير.(٣)

لم يذهب مِن مالك ما وعظَك.(٤)

مَن كرمتْ عليه نفسه هان عليه ماله.(٥)

الحرص والكِبْر والحسد دواعٍ إلى التقحُّم في الذنوب.(٦)

لا تهضمنَّ محاسنك بالفخر والتكبّر.(٧)

يكون الصبر على قدر المصيبة.(٨)

المصيبة واحدةٌ فإنْ جزعتَ كانت اثنتين.(٩)

إذا أردت أن تُحمَد فلا يظهر منك حرص على الحمد.(١٠)

أكبر الفخر ألّا تفخر.(١١)

عوّدْ نفسك الصبرَ على المكروه.(١٢)

---

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٩٢.

(٢) شرح نهج البلاغة : ١٩ / ٩٥ ، منازل الآخرة ، للقمي : ٢٧٣.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٤٢ ـ ٢.

(٤) غرر الحكم ، ودرر الكلم : ٧٤٣٣ ـ وفيها : لن يذهب من مالك ما وعظك ، وحاز لك الشكر.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٤٩ ، وغرر الحكم ودرر الكلم : ٨٧٧١ ، وفيهما : مَن كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته ، أو : شهوته.

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٧١ ـ ٣.

(٧) شرح نهج البلاغة ، للمعتزلي : ٢٠ / ٢٥٨.

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٤ ، وفيها : ينزل الصبر على قدر المصيبة.

(٩) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٦٢٣.

(١٠) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٥٩.

(١١) المصدر السابق.

(١٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ١٦ ، وفيها : وعوّد نفسك التصبر على المكروه.

لا يُعدم الصبور الظفر وإنْ طال به الزمان.[١]

لا تجزعوا من ضراء الدنيا وبؤسها.[٢]

عند تناهي الشدّة تكون الفرجة.[٣]

الصبر مطيّةٌ لا تكبو.[٤]

الصبر صبران : صبرٌ على ما تكره وصبرٌ عمّا تحبّ. وأفضلهما الصبر على ما تكره.[٥]

الدهر يومان : يومٌ لك ويوم عليك. فإنْ كان لك فلا تبطرْ وإنْ كان عليك فاصبرْ.[٦]

مَن صبرَ صبْرَ الأحرار ، وإلّا سَلَا سُلُوَّ الأغمار[٧].[٨]

لا تكن عند النعماء بطِراً ولا عند البأساء فَشلاً.[٩]

التكبّر على المتكبّرين هوَ التواضع بعينه.[١٠]

مَن طلب شيئاً نالَه أو بعضه.[١١]

المرء مخبوءٌ تحت لسانه.[١٢]

---

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٥٣.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ٩٩ ـ ٥.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٥١.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم : ٩٤٩.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٨٩٢.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٩١٧.

(٧) الأغمار : جمع غمر ، وهو : الجاهل الذي لم يجرّب الأُمور. النهاية في غريب الحديث: ٣/٣٨٥، مادة «غمر».

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم : ٣٧١٢ ، وفيها : إن صبرت صبر الأحرار وإلّا سلوت سُلُوَّ الأغمار.

(٩) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣٣ ـ ٤.

(١٠) شرح نهج البلاغة : ٢٠ ـ ٢٩٨.

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٨٦.

(١٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٨ و٣٩٢.

هانت عليه نفسُه مَن أمّر عليه لسانَه.[١]

لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه.[٢]

لا خير في الصمت عن الحكم ، كما أنّه لا خير في القول بالجهل.[٣]

أمسك عليك لسانك فإنّ تلافيك ما فرط من صمتك أيسرُ عليك مِمن إدراك ما فات من منطقك.[٤]

إذا فعلتَ كلّ شيء فكن كمن لم يفعل شيئاً.[٥]

لا تسأل عمّا لا يكون ، ففي الذي قد كان لك شغل.[٦]

الوفاء لأهل الغدر غدرٌ عند الله.[٧]

إنّ الأُمور إذا اشتبهتْ اعتُبر أوّلُها بآخرها.[٨]

أصاب متأمل أو كاد ، وأخطأ مستعجلٌ أو كاد.[٩]

ما أكثر العِبَرَ وأقلّ الاعتبار![١٠]

العاقل مَن وعظتْه التجارب.[١١]

رأيُ الشيخ أحبّ إليّ من جلَد الغلام[١٢].[١٣]

---

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٠.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٨٢.

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : الكتاب ٣١ ـ ٩٠.

(٥) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٥٨.

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٦٤.

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٥٩.

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٧٦.

(٩) غرر الحكم : ١٢٢٩ ، ميزان الحكمة : ٣ / ١٨٣٤.

(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٩٧.

(١١) غرر الحكم ودرر الكلم : ١١٨٩.

(١٢) جَلَد الغلام : صبره على القتل. انظر مفردات الخطبة المرقمة في نهج البلاغة.

(١٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٨٦

قيل له : صف لنا العاقل. فقال : **هو الذي يضع الأشياء مواضعها.** فقيل : فصف لنا الجاهل : فقال : **قد فعلتُ.**(١)

مَن اشتبه عليكم أمرُه فانظروا إلى خلطائه.(٢)

إذا كنت في إدبار ، والموت في إقبال ، فما أسرع الملتقى!(٣)

مَن تذكّر بُعْدَ السفر استعدّ.(٤)

نفَسُ المرء خطاه إلى أجَله.(٥)

كم من أكلةٍ منعتْ أكلات.(٦)

الخلاف يهدم الرأي.(٧)

لا رأي لمن لا يُطاع.(٨)

قال لما سمع قول الخوارج «لا حُكمَ إلّا لله» : **كلمةُ حقّ يرادُ بها باطل!**(٩)

من جهل شيئاً عابَه.(١٠)

الناس أعداء ما جهلوا.(١١)

مَن لان عُوده كثفتْ أغصانُه.(١٢)

---

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٣٥.
(٢) صفات الشيعة ، للصدوق : ٦.
(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٩.
(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٨٠.
(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٧٤.
(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٧١.
(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢١٥.
(٨) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٧ ـ ١٦ ، وفيها : ولكن لا رأي لمن لا يُطاع.
(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٩٨ ، والخطبة : ٤٠ ـ ١.
(١٠) بحار الأنوار : ٤٠ / ١٦٣ ، وفيه : من جهل شيئاً عاداه.كشف الغمة : ٣ / ١٣٧.
(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٧٢ و٤٣٨.
(١٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢١٤.

العفّة مع الحرفة خيرٌ من السرور مع الفجور.(١)

نومٌ على يقين خيرٌ من صلاةٍ على شكّ.(٢)

فقيهٌ واحد أشدّ على إبليس من ألف عابد.(٣)

أفضل الزهد إخفاء الزهد.(٤)

ليست الصلاة قيامك وقعودك إنّما الصلاة إخلاصك.(٥)

كم من صائمٍ ليس من صيامه إلّا الظمأ ، وكم من قائم(٦) ليس له من قيامه إلّا السهر والعناء. حبّذا نوم الأكياس(٧) وإفطارُهم.(٨)

أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه.(٩)

لا تحتقرَنَّ صغيراً يمكن أن يكبر ، ولا قليلاً يمكن أن يكثر.(١٠)

يأتي على الناس زمانٌ لا يُقرَّب فيه إلّا الماحلُ(١١) ولا يُظَرَّف فيه إلّا الفاجر(١٢) ولا يُضَعّف فيه إلّا المُنصِف(١٣).(١٤)

---

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ٩١.
(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٩٧ ، وفيها : نوم على يقين خير من صلاة في شكّ.
(٣) بحار الأنوار : ٢ / ١٦.
(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٨.
(٥) شرح نهج البلاغة : ١ / ٣٢٥.
(٦) أي قائم للصلاة.
(٧) أكياس : جمع كيّس وهو العاقل. النهاية في غريب الحديث: ٢١٧/٤، مادة «كيس».
(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٥.
(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٧٧ و ٣٤٨.
(١٠) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٨٣.
(١١) الماحل : الساعي في الناس بالوشاية عند السلطان. مجمع البحرين: ١٧٦/٤ .
(١٢) لا يظرف : لا يعد ظريفاً.
(١٣) لا يضعف : لا يعد ضعيفاً.
(١٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٠٢ ـ ٢.

الدنيا حمقاء لا تميل إلّا إلى أشباهها.(١)

أنا كابٌّ الدنيا لوجهها ، وقادرُها بقدرها ، وناظرُها بعينها.(٢)

أيها الناس ! إني والله ما أحثُّكم على طاعة إلّا أسبقكم إليها ، ولا أنهاكم عن مَعْصية إلّا أتناهى قبلكم عنها.(٣)

مَن نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره. وليكنْ تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه. ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلّم الناس ومؤدّبهم.(٤)

ينبغي لمن وليَ أمرَ قوم أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعيّته ؛ وإلّا كان بمزلة من رام استقامة ظِلِّ العُود قبل أن يستقيم ذلك العود.(٥)

واعَجَباه! أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة.(٦)

أشقى الرُّعاة مَن شقيتْ به رعيّتُه.(٧)

ما أقبح الغدر من السلطان!(٨)

لا زعامة لسيّء الخلق.(٩)

إذا كان الراعي ذئباً ، فالشاة مَن يحفظها ؟(١٠)

الراعي بلا عملٍ كالرامي بلا وتر.(١١)

---

(١) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٩٤.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٢٨ ـ ٣.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٧٥ ـ ٦.

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٧٣.

(٥) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٦٩.

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٩٠.

(٧) شرح نهج البلاغة : ١٢ / ٩٢.

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٨٦٤ ، وفيها : الغدر بكل أحد قبيح ، وهو بذوي القدرة والسلطان أقبح.

(٩) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٠٥٩٧ ، وفيها : لا سؤدد لسيء الخلُق.

(١٠) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣٠٠.

(١١) نهج البلاغة ، قِصار الحكم : ٣٣٧، وفيها : الداعي بلا عمل... .

ألا وإني أُقاتلُ رجلين : رجلاً ادعى أن لا نسب له ، وآخر منع الذي عليه.(١)

واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة !(٢)

يد الله فوق رَأس الحاكم ترفرف بالرحمة، فإذا حاف(٣) وكلَهُ الله إلى نفسه.(٤)

قال في الله تعالى : **وقلَع جبالها ونَسَفَها ودكّ بعضُها بعضاً من هيبةِ جلالته.(٥)**

الحمد لله الذي لا تواري عنه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضاً.(٦)

على أئمّة العدل أنْ يقدروا أنفسهم بالعامّة.(٧)

بنى رجل من عمّاله بناء فخماً ، فقال : أطلعتِ الوَرِقُ(٨) رؤوسها. إنّ البناء يصف لك الغنى.(٩)

ثلاثةٌ يؤثرون المال على أنفسهم : تاجر البحر ، وصاحب السلطان ، والمُرتشي في الحكم.(١٠)

إذا غضب اللهُ على أُمّة غلتْ أسعارُها وغَلبَها أشرارُها.(١١)

اللّهمَ! اغفرْ لي ما أنت أعلم به مني. فإنْ عدتُ فعِدْ عليّ بالمغفرة ، اللهمّ اغفرْ لي

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٧٣ ـ ٣.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ٣٩.

(٣) حاف : ظلم. لسان العرب: ٦٠/٩، مادة «حيف».

(٤) الكافي : ٧ / ٤١٠ ، من لا يحضره الفقيه : ٣ / ٧.

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٠٩ ـ ٢٨.

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٧٢ ـ ١.

(٧) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٠٩ ـ ٤ ، وفيها : إن الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس.

(٨) الورق : الفضة. غريب الحديث: ٧٧/١.

(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٥٥.

(١٠) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٩٧.

(١١) ثواب الأعمال للصدوق: ٢٥٦.

بئس العدوان على العباد.(١)

الظلم يدعو إلى السيف.(٢)

إنّ السباع همّتُها التعدّي ، وإنّ البهائم همّتُها بطونها.(٣)

إصبروا على البلاء ، ولا تحرّكوا بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم(٤)!(٥)

لا تقوّينّ سلطانك بسفك دمٍ حرام.(٦)

إخترْ أن تكون مغلوباً وأنت منصِف ، ولا تختر أن تكون غالباً وأنت ظالم.(٧)

وأيمُ الله لأنصفنّ المظلومَ من ظالمه ولآخذنّ الظالم بخزامته، حتّى أورده منهلَ الحقّ وإن كان له كارهاً.(٨)

ألأمُ الناس مَن سعى بإنسان ضعيف إلى سلطان جائر.(٩)

ظلم الضعيف أفحش الظلم.(١٠)

وأمّا الذنب الذي لا يُغفَر ، فظلم العباد بعضهم لبعض.(١١)

لا تكن للظالم معيناً.(١٢)

---

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٢١ .
(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٧٦ ، وفيها : والحيف يدعو إلى السيف.
(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٥٣ ـ ١٢ ، وفيها إن البهائم همّها بطونها ، وإن السباع همّها العدوان على غيرها.
(٤) ينهى المحاربين عن التعجل في حمل السلاح ؛ تلبية لقول يقوله أحدهم في غير وقته.
(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٩٠ ـ ١٧.
(٦) نهج البلاغة ، الكتاب : ٥٣ ـ ١٤٢.
(٧) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٥٨.
(٨) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٣٦ ـ ٢.
(٩) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣٠٣.
(١٠) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ٩٣.
(١١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٧٦ ـ ٣١ إلى ٣٣.
(١٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٨٨ ، ١٩٩ ، وفيه :كونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً.

للظالم ثلاث علامات : يظلِمُ مَن فوقه بالمَعْصِية ، ومَن دونه بالغَلَبَة ، ويظاهرُ القومَ الظَلَمَة[(١)]. [(٢)]

العامل بالظلم والمعين عليه والراضي به شركاء ثلاثة.[(٣)]

الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم ، وعلى كل داخل في باطل إثمان : إثم العمل به ، وإثم الرضا به.[(٤)]

قيل له : أيّ الأُمور أعجلُ عقوبةً وأسرعُ لصاحبها صرعةً؟ فقال : ظُلمُ من لا ناصرَ له إلّا الله ، واستطالةُ الغني على الفقير.[(٥)]

اذكر عند الظلم عدل الله فيك ، وعند القدرة قدرة الله عليك.[(٦)]

ما زلتُ مظلوماً منذ قبض الله نبيّه حتى يوم الناس هذا. ولقد كنت أُظلَم قبل ظهور الإسلام. ولقد كان أخي عقيلٌ يُذنبُ أخي جعفر فيضربني[(٧)]!

الفجور دارُ حُصنٍ ذليل لا يمنع أهلَه ولا يُحرزُ مَن لجأ إليه[(٨)]. [(٩)]

لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها.[(١٠)]

إنّما يجمع الناسَ الرضا والسخط : فمَن رضيَ أمراً فقد دخل فيه ، ومَن سخطَه فقد خرج منه.[(١١)]

---

(١) الغلبة : القهر. يظاهر : يعاون. الظلمة : جمع الظالم.
(٢) الخصال للصدوق : ١٢١ ، عيون المواعظ والحكم : ٤٠٤.
(٣) الخصال للصدوق : ١٠٧ ، تحف العقول : ٢١٦.
(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٥٤.
(٥) نهج السعادة : ٨ / ١٣٦.
(٦) مستدرك الوسائل : ١٢ / ١٠٣ ، شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣٢٨ ، عيون المواعظ والحكم : ٧٧.
(٧) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٢٨٣/٢٠ .
(٨) يحرز : يحفظ.
(٩) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٥٧ ـ ٥ .
(١٠) مستدرك سفينة البحار : ٧ / ٣٦٦.
(١١) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٠١ ـ ٢.

لكلّ امرئٍ ما اكتسب.(١)

قيمة كلّ امرئٍ ما يُحسن.(٢)

واعلموا أنّ الناس أبناء ما يحسنون.(٣)

لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال.(٤)

لا حسبَ كالتواضع ولا شرف كالعلم ولا قرين كحسن الخلق.(٥)

أشرف الأشياء العلمُ ، والله تعالى عالمٌ يحبّ كل عالم.(٦)

من أبطأ به عمله لم يُسرع به حسَبُه.(٧)

اعملْ لدنياك كأنّك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً.(٨)

مَن قصّر في العمل ابتلي بالهمّ.(٩)

لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل ويُرجئ التوبة بطول الأمل.(١٠)

الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية.(١١)

الشرف بالعقل والأدب ، لا بالأصل والنسب.(١٢)

---

(١) الآية الشريفة (١١) من سورة النور : ﴿ **لكل امرئٍ منهم ما اكتسب..** ﴾ وقد استشهد الإمام بهذه الآية.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٨١، وفيها : ما يحسنه.

(٣) أُصول الكافي : ١ / ٥١، تحف العقول : ٢٠٨.

(٤) عيون الحكم والمواعظ : ٥١٧، مناقب الخوارزمي : ٣٧٥.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١١٣ ـ ٣.

(٦) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٨٨.

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٣ و٣٨٩.

(٨) مستدرك الوسائل : ١٣ / ٥٨، والحديث للإمام الحسن (عليه السلام).

(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٢٧.

(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٥٠ ـ ١.

(١١) عيون الحكم والمواعظ : ٦٠.

(١٢) شرح مائة كلمة ، للبحراني : ٦٥.

تعلّموا العلمَ وإن لم تنالوا به حظاً، فَلأنْ يُذَمّ الزمانُ لكم أحسنُ مِن أن يُذَمّ بكم![١]

ما من حركة إلّا وأنت محتاجٌ فيها إلى معرفة.[٢]

العاملُ بغير علمٍ كسائرٍ في غير طريق ، فلا يزيده بُعده عن الطريق إلّا بُعداً عن حاجته. والعامل بالعلم كسائرٍ على الطريق الواضح ، فلينظرْ ناظرٌ أسائرٌ هو أم راجع؟[٣]

الفكرة تورث نوراً ،والغفلة تورث ظلمة.[٤]

سل تفقّهاً ولا تسأل تعنّتاً ![٥]

أعلم الناس مَن جمعَ علم الناس إلى علمه.[٦]

مَن استبدّ برأيه هَلَك ، ومن شاوَرَ الرجال شاركها في عقولها.[٧]

من استقبلَ وجوهَ الآراء عرفَ مواقعَ الخطأ.[٨]

لاكنز أنفع من العلم ، ولاعزّ أرفع من الحلم.[٩]

قَطعَ العلمُ عذْرَ المتعلّلين.[١٠]

العلم يحرسك وأنت تحرس المال.[١١]

ليس الخير أنْ يكثر مالك ووُلْدُك، ولكنّ الخير أن يكثر علمك.[١٢]

---

(١) شرح نهج البلاغة ، ٢٠ / ٣١٠.
(٢) تحف العقول : ١٧١ ، مستدرك الوسائل : ١٧ / ٢٦٨.
(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٥٤ ـ ٧.
(٤) تحف العقول : ٨٩، بحار الأنوار : ٧٤ / ٢٣٧.
(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٢٠.
(٦) الخصال للصدوق : ٥، الأمالي للصدوق : ٧٣.
(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٦١.
(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٧٣.
(٩) فروع الكافي : ٨ / ١٩ ، تحف العقول : ٩٣.
(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٨٤.
(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٧ ـ ٣.
(١٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٩٤ ـ ١.

هلك خزّان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقيَ الدهر.(١)

الملوكُ حكّام على الناس ، والعلماء حكّامٌ على الملوك.(٢)

العالم حيٌّ وإن كان ميتاً ، والجاهل ميتٌ وإن كان حيّاً.(٣)

العلم إحدى الحياتين ، والمودّة إحدى القرابتين ، والذكر الجميل أحدُ العمرين.(٤)

قال لأبناء زمانه : **جاهِلُكم مُزداد ، وعالمُكُم مُسَوِّف**(٥).(٦)

ما أسرع الساعات في اليوم ، وأسرع الأيام في الشهر ، وأسرع الشهور في السنة ، وأسرع السنين في العمر!(٧)

لا يَسْتحيَنّ أحدٌ إذا سُئل عمّا لا يعلم أنْ يقول : لا أعلم ، ولا يستحيَنّ أحدٌ إذا لم يعلم الشيءَ أنْ يتعلّمه.(٨)

ما أكثر ما تجهلُ من الأمر ويتحيّرُ فيه رأيك، ويضِلُّ فيه بصرُك، ثم تُبصره بعد ذلك!(٩)

لا فقر أشدّ من الجهل.(١٠)

لا يؤمنّك من شرِّ جاهلٍ قرابةٌ ولا جوارٌ ، فإنّ أخْوَفَ ما تكونُ لحريق النار أقربُ ما تكون إليها.(١١)

---

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٧ ـ ٦ ، وفيها : هلك خزّان الأموال...
(٢) مستدرك سفينة البحار ، ٩ / ٤٤٣.
(٣) عيون الحكم والمواعظ : ٤٥.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٦٢٦ ، ١٦٢٨.
(٥) أي : جاهلكم يغالي ويزداد في العمل على غير بصيرة وعالمكم يسوّف بعمله ، أي يُؤخره.
(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٨٣.
(٧) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٨٨ ـ ٨.
(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٨٢ ـ ٢.
(٩) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ٤٢.
(١٠) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٠٦١٩.
(١١) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣٠٥.

إذا أرذل الله عبداً حظَر عليه العلم.(١)

كلّ وعاءٍ يضيق بما جُعل فيه إلّا وعاء العلم فإنه يتّسع.(٢)

إنّ هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة.(٣)

لَهبُ الشوق أخفّ محملاً من مقاساة الملالة.(٤)

كفى العلم شرفاً أن يدّعيه مَن لا يُحسنه ،ويفرح إذا نُسب إليه مَن ليس مِن أهله. وكفى بالجهل خمولاً أن يتبرّأ منه مَن هو فيه ، ويغضب إذا نُسب إليه.(٥)

أقلّ الناس قيمةً أقلّهم علماً.(٦)

العلم دينٌ يُدانُ به.(٧)

العلم أكثر من أنْ يحصى فخذوا من كلّ شيء أحسنَه.(٨)

مَن أفتى بغير علمٍ لعنتْه الأرضُ والسماء.(٩)

العلماء غرباء لكثرة الجهّال(١٠)

ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتّى أخذ على أهل العلم أن يعلّموا. شكْرُ العالم على علمه أنْ يبذله لمن يستحقّه.(١١)

---

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٨٨.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٠٥.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٩٧.

(٤) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٦٣.

(٥) المجموع ، للنووي : ١ / ١٩، منية المريد ، للشهيد الثاني : ٧٢، ١١٠، بحار الأنوار : ١ / ١٨٥.

(٦) من لا يحضره الفقيه : ٤ / ٣٩٥، أمالي الصدوق : ٧٣، معاني الأخبار للصدوق : ١٩٥، روضة الواعظين للفتال النيسابوري : ٨، كنز الفوائد للكراجكي : ١٣٨، مشكاة الأنوار للطبرسي : ٢٤١، الأربعون حديثاً للشهيد الأول : ٥٥، ينابيع المودة للقندوزي : ٢ / ٤١٦.

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٧ ـ ٥، وفيها : معرفة الدين دَيْن يدان به.

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٨١٩.

(٩) مستدرك الوسائل: ٢٤٣/١٧، دعائم الإسلام: ٩٦/١ .

(١٠) عيون الحكم والمواعظ للواسطي : ٥٢، بحار الأنوار : ٧٥ / ٨١ .

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٧٨.

ذو الهمّة وإن حطَّ نفسه يأبى إلّا علوّاً ، كالشعلة من النار يخفيها صاحبُها وتأبى إلّا ارتفاعاً.[١]

إذا جلستَ إلى عالمٍ فكنْ إلى أن تسمع أحرصَ منك إلى أن تقول.[٢]

العلم مقرونٌ بالعمل : فمَن علمَ عملَ. والعلم يهتف بالعمل : فإن أجابه وإلّا ارتحل.[٣]

ياحَمَلَةَ العلم أتحملونه؟ فإنّما العلم لمن علمَ، ثمّ عمل بما عِلِم ووافق عمَلُه علمَه.[٤]

إنّ العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجّةُ عليه أعظم.[٥]

لا تجعلوا علمكم جهلاً ويقينكم شكّاً. إذا علمتم فاعملوا ، وإذا تيقّنتم فاقدموا.[٦]

ما أحسن العمل يزينه الرفق![٧]

قلتم : إنّ فلاناً أفاد مالاً عظيماً ، فهل أفاد[٨] أياماً ينفقه فيها؟[٩]

ولا يزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتّى يُسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيمَ أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعما عمل فيمَ علم؟[١٠]

مجاوزتك ما يكفيك فقر لا منتهى له.[١١]

---

(١) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٨٩.

(٢) المحاسن للبرقي: ٢٣٣/١، الاختصاص للمفيد : ٢٤٥.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٦٦.

(٤) نهج البلاغة : ٢ / ٢٦٧.

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١١٠ ـ ٧.

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٧٤.

(٧) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٥٩ ، تفسير الثعالبي : ٤ / ٢٧٧.

(٨) أفاد : استفاد.

(٩) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٩٧.

(١٠) معدن الجواهر ، للكراجكي : ٤٩ ، بحار الأنوار : ٧٤ / ١٦٠ ، شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٥٩.

(١١) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٨٨.

ما أصعب على من استَعبدتْه الشهوات أن يكون فاضلاً ![(١)]

مَن مَلَكَ استأثر[(٢)].[(٣)]

منهومان لا يشبعان : طالبُ علم وطالبُ مال.[(٤)]

التاجر فاجر ، والفاجر في النار ، إلّا مَن أخذ الحقّ وأعطى الحقّ.[(٥)]

قال في جامع المال : لَعلّه مِن باطلٍ جَمَعَه ، ومَن حقٍّ مَنَعه.[(٦)]

الفقر الموت الأكبر.[(٧)]

الفقر يخرس الفطن والفقير غريبٌ في بلده.[(٨)]

الفقر في الوطن غربة.[(٩)]

ليس بلدٌ بأحقّ بك من بلد ، خير البلاد ما حملك[(١٠)].[(١١)]

لو تمثّل لي الفقرُ رجلاً لقتلتُه.[(١٢)]

اللهمّ! إنّي أعوذ بك أن أفتقر في غناك.[(١٣)]

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ٢٥٨.

(٢) استأثر : استبد وخصّ نفسه بكل مغنم.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٦٠.

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٥٧.

(٥) كنز العمال: ١٣٦/٤، وسائل الشيعة: ٣٨١/١٧ .

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٤٤ ـ ٢.

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٦٣.

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣، وفيها : والفقر يُخرس الفطن عن حجّته ، والمقلُ غريب في بلدته.

(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٥٦.

(١٠) يقول : كل البلاد تصلح سكناً ، وانما أفضلها ما حملك ، أي : أعزّك وأراحك وأطعمك وآواك.

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٤٢.

(١٢) لم نوفق للعثور علىٰ هذا الحديث.

(١٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢١٥ ـ ٤.

ألَا وإن من البلاء الفاقة! [١]

ما جاع فقيرٌ إلّا بما مُتّع به غني. [٢]

ما رأيت نعمةً موفورة إلّا وإلى جانبها حقٌّ مضيّع. [٣]

لا تُنال نعمةٌ إلّا بفراق أُخرى. [٤]

لا تُنال نعمة إلّا بعد أذى. [٥]

الخطأ في إعطاء مَن لا يبتغي ومَنْعِ من يبتغي واحد. [٦]

إذا استغنيت عن شيء فدعه، وخذ ما أنت محتاج إليه. [٧]

إنّما يُعاب مَن أخذ ما ليس له. [٨]

ما خلق امرؤٌ عبثاً فيلهو ولا تُرِك سُدى فيلغو [٩]. [١٠]

إيّاكم والدَّينَ! [١١]

الدَّين مذَلَّة. [١٢]

واحذروا ما نزل بالأُمم قبلكم من المُثُلات لسوء أفعالهم، فتذكروا في الخير والشر

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢٧٧٥

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٢٨.

(٣) دراسات في نهج البلاغة ، لمحمد مهدي شمس الدين : ٤٠.

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٤٥ ـ ٢.

(٥) من لا يحضره الفقيه : ٤ / ٣٩٢.

(٦) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٦٠.

(٧) شرح نهج البلاغة : ٣ / ٢٤٨، ٢٠ / ٢٦٢.

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٦٦ ، خصائص الأئمة للشريف الرضي : ١٠٩.

(٩) يلهو : يتلهى بلذّته. يلغو : يأتي باللغو ، وهو ما لا فائدة فيه.

(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم: ٣٧٠، بحار الأنوار : ١٢٤/٧٠ ، ١٣٢ ، و ٦/٧٥ ، شرح نهج البلاغة: ٣٠٠/١٩.

(١١) الكافي للكليني : ٥ / ٩٥.

(١٢) علل الشرائع للصدوق : ٢ / ٥٢٧ ، وفيه : والدّينَ فإنه مذلّة.

أحوالهم! واحذروا أن تكونوا أمثالهم! واتّعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتّعظ بكم مَن بعدكم![١]

لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقون لزمانٍ غير زمانكم![٢]

قلوب الرجال وحشيّة ، فمَن تألّفها أقبلتْ عليه.[٣]

لا تكنْ عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً ![٤]

كلُّ ما حملتَ عليه الحُرَّ احتَمَلَهُ ورآه زيادة في شرفه إلّا ما حَطّهُ جزءاً من حريته، فإنّه يأباه ولا يجيب إليه.[٥]

وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون.[٦]

قد أذنتُ لك أن تكون على ما بدا لك.[٧]

الهمّ نصف الهرم.[٨]

لا أُعاقب على الظنّة.[٩]

لا يجوز القصاص قبل الجناية.[١٠]

مَن تعاظم على الزمان أهانَه.

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٩٢ ـ ١٣.

(٢) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٦٧.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٥٠.

(٤) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ٨٧.

(٥) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٧٩.

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٠٨ ـ ٢.

(٧) الإمامة والسياسة : ١ / ٥٠، وفيه : وكن من أمرك علىٰ ما بدا لك.

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٣، ٤ / ٣٤، من لا يحضره الفقيه : ٤ / ٤١٦.

(٩) الجمل ، للمفيد : ٨٩، وفيه : يا ابن عباس ، أتأمرني بالظلم أبداً ، وأعاقب على الظنّة..

(١٠) بحارالأنوار: ٢٧٩/٤٢ ، وفيه: لايجوزالقصاص إلّا بعد الجناية ، الأنوارالعلوية ، للنقدي: ٣٧٤،كما في بحارالأنوار.

أنهاك عن التسرّع في القول والعمل![١]

اتّقوا اللهَ في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتّى عن البقاع والبهائم ![٢]

والله لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحتَ أفلاكها على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبُها لبَّ شعيرةٍ ما فعلتُ. وإنّ دنياكم عندي أهونُ من ورقةٍ في فمِ جرادة.[٣]

طائفة من رسائله وعهوده ووصاياه

حقوق الإنسان :

راجع رسالة عليّ إلى الأشتر النخعي عامله على مصر ، وقد أثْبتناها في باب «عليّ وحقوق الإنسان» تحت عنوان «دستور الإمام في الولاة»، وهي من جلائل وصاياه وأجمعها لقوانين المعاملات المدنية ، والحقوق العامّة والتصرّفات الخاصّة.

* * *

من وصيّة له إلى عسكره قبل لقاء العدوّ في صفّين :

لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم ، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تصيبوا مُعْوِراً ، ولا تُجهزوا على جريح ، ولاتهيجوا النساء بأذىً وإنْ شتمْنَ أعراضكم وسبَبْنَ أُمراءَكم![٤]

* * *

من كتاب له إلى زياد بن أبيه وهو على البصرة :

(١) نهج السعادة: ١٣٩/٨، الأمالي للشيخ الطوسي: ٧، وفيهما: أنهاك عن التسرع في القول والعمل.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦٧ ، ٢ / ٨٠، شرح نهج البلاغة : ٩ / ٢٨٨.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ٢٢٤، ٢ / ٢١٨ ، رسائل المرتضى : ٣ / ١٤٠، الصراط المستقيم ، للعاملي : ١ / ١٦٣ ، حلية الأبرار للبحراني : ٢ / ٢٠١ ، بحار الأنوار : ٤١ / ١٦٢ و ٧٢ / ٣٦٠.

(٤) نهج البلاغة ، الكتاب : ١٤ ـ ٢.

وإني أُقسم بالله صادقاً ، لَئن بلَغَني أنك خُنتَ من فَيْء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشُدّنَ عليك شدّة تدعُك قليلَ الوَفْر ، ثقيلَ الظهر ، ضئيلَ الأمر ![1]

* * *

من عهدٍ له إلى محمد بن أبي بكر حين قلّده مصر :

فاخفضْ لهم جناحَك ، وابسطْ لهم وجهَك ، وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة، حتّى لا يطمعَ العظماءُ في حيفك لهم ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم![2]

* * *

من وصية له كتبها لابنه الحسن من صفّين :

يا بنيّ! اجعلْ نفسك ميزاناً فيما بينك وبين الناس ، فأحبِبْ لغيرك ما تُحبّ لنـفسك ، واكرهْ له ما تكره لها ، ولا تظلمْ كما لا تحبّ أنْ تُظلَم وأحسِنْ كما تُحبّ أن يُحسَنَ إليك ، واستقبحْ من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقلْ ما لا تعلم وإن قَلّ ما تعلم ، ولا تقلْ ما لا تحبّ أن يُقال لك.

ومَن ظَنّ بك خيراً فصدّق ظنّه ، ولا تُضيعنّ حقّ أخيك اتّكالاً على ما بينك وبينه ، فإنّه ليس لك بأخٍ مَن أضَعْتَ حقّه ، ولا يكنْ أهلك أشقى الخلق بك ، ولا يكوننّ أخوك عـلى مقاطعتك أقوى منك على صلته ، ولا يكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان.[3]

* * *

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٢٠.
(٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٢٧ ـ ٢ ، والكتاب : ٤٦ ـ ٤.
(٣) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ١٠٥.

من كتاب له إلى بعض عمّاله :

بلغني أنّك جرّدتَ الأرض فأخذتَ ما تحت قدميك ، وأكلتَ ما تحت يديك ، فارفع إليّ حسابك![١]

من كتاب له إلى المنذر بن الجارود العبدي ، وقد خان الأمانات العامّة في بعض ما ولّاه من أعماله :

أمّا بعد ، فإنّ صلاح أبيك غرّني منك ، وظننتُ أنك تتّبع هديَهُ ، وتسلك سبيله. فإذا أنت فيما رُقّيَ إليّ عنك ، لا تدَعُ لهواك انقياداً . ولئِنْ كان ما بلغَني عنك حقّاً ، لَجَمَلُ أهلِك وشِسْعُ نَعلِك خيرٌ منك! ومن كان بصفتك فليس بأهلٍ أن يُسَدّ به ثغرٌ ، أو ينفُذَ به أمرٌ ، أو يُعلى له قدْر ، أو يُشرك في أمانة ، أو يؤمَن على خيانة ، فأقبلْ إليّ حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء الله.[٢]

* * *

من كتاب له إلى العامل السابق نفسه :

كيف تُسيغ شراباً وطعاماً وأنت تعلم أنّك تأكل حراماً وتشرب حراماً ، وتبتاع الإماء من مال اليتامى والمساكين؟ فاتّقِ الله واردُدْ إلى هؤلاءالقوم أموالهم ؛ فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذِرَنّ إلى الله فيك ، ولأضربنّك بسيفي الذي ما ضربتُ به أحداً إلّا دخل النار.[٣]

* * *

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٤٠ ـ ٢.
(٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٧١ ـ ٤.
(٣) نهج البلاغة ، الكتاب : ٤١ ـ ١١.

من كتاب له إلى مِخْنَف بن سليم عامله على أصبهان وهمدان :

وإنّا قد هممنا بالمسير إلى هؤلاءالقوم الذين استأثروا بالفيء ، وأماتوا الحقّ وأظهروا في الأرض الفساد واتخذوا القاسطين وليجةً ، فإذا ظالمٌ ساعدَهم على ظلمهم أحبّوه ، وتعاونوا على الإثم وكانوا ظالمين.(١)

* * *

من كتاب له إلى عامله على أردشير وقد بلغه أن يقسّم الأموال في بني قومه:

بَلغَني عنك أمرٌ إن كنتَ فعلتَه فقد أسخطتَ إلهك وأغضبتَ إمامك، فَوالذي فَلَقَ الحبّة وبَرَأَ النسمة ، لئن كان ذلك حقّاً لَتَجِدَنّ بكَ عليّ هواناً ، ولَتَخِفّنَ عندي ميزاناً !(٢)

* * *

من كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ، وهو عامله على البصرة ، وقد بلغه أنّه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها :

وأمّا بعد ، يا ابن حنيف! فقد بلغني أنّ رجلاً من فِتْية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تُستطاب لك الألوان ، وتنقل إليك الجفان ، وما ظننتُ أنّك تجيب إلى طعامِ قومٍ عائلُهم مجفوّ(٣) وغنيّهم مدعوّ. ألاَ وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطِمْرَيه(٤) ومن طعمه بقرصيه ، ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك ، ولكنْ أعينوني بورع واجتهاد ، وعفّةٍ وسداد. فواللهِ ماكنزتُ من دنياكم تبراً ، ولا ادّخرتُ من غنائمها وَفراً ، ولا أعددت لبالي ثوبي طِمْراً. ولو شئتُ لاهتديتُ الطريقَ إلى مصفّى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذاالقزّ ،

---

(١) وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم : ١٠٤ ، المعيار والموازنة ، للإسكافي : ١٢٤ ، نهج السعادة : ٤ / ٢٢٤ ، بحار الأنوار : ٣٢ / ٤٠٠.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٤٣ ـ ٣.

(٣) عائلهم : محتاجهم . مجفو : مطرود. انظر مفردات الخطبة في نهج البلاغة .

(٤) الطمر : الثوب العتيق الخلق. النهاية في غريب الحديث: ١٣٨/٣ .

ولكنْ هيهاتِ أن يغلبني هواي ، ويقودني جَشعي إلى تخيّر الأطعمة ، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمعَ له في القرص ، ولا عهدَ له بالشبَع. أوَ أبيتُ مبطاناً وحولي بطونٌ غرثى وأكبادٌ حَرّى؟ أأقنع من نفسي بأن يقالَ أميرُ المؤمنين ولا أُشاركهم مكاره الدهر؟ وكأني بقائلهم يقول : «إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان!» ألَا وإنّ الشجرة البريّة أصلبُ عُوداً ، والروائع الخضِرةُ أرقّ جلوداً ، والنباتاتُ البدوية أقوى وقوداً ، وأبطأ خموداً. والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيتُ عنها.(١)

* * *

من كتاب له إلى عمّاله على الخراج :

فأنصفوا الناس من أنفسكم ، واصبروا لحوائجهم ، ولا تحسِموا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته ، ولا تبيعُنّ للناس في الخراج كسوة شتاءٍ ولا صيفٍ ولا دابّة يعتملون عليها ، ولا تضربنّ أحداً سوطاً لمكان درهم!(٢)

* * *

ومن كتاب له إلى سهل بن حنيف الأنصاري أيضاً ، وهو عامله على المدينة :

أمّا بعد ، فقد بلغني أن رجالاً ممّن قِبَلِك يتسلّلون إلى معاوية ، فلا تأسف على ما يفوتُك من عددهم ويذهب عنك من مددهم، فإنّما هم أهل دنيا مقبلون عليها ومسرعون إليها ، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه ، وعلموا أنّ الناس عندنا في الحقّ أُسوةٌ، فهربوا إلى الأثرة ، فبعداً لهم وسحقاً! إنّهم ـ واللهِ ـ لم ينفروا من جَور ، ولم يلحقوا بعدل!(٣)

* * *

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٤٥ ـ ١٩.
(٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٥١ ـ ٤.
(٣) نهج البلاغة ، الكتاب : ٧١ ـ ٤.

من كتاب له إلى أُمراء الأجناد ، لمّا استخلف :

أمّا بعد ، فإنّما أهْلَكَ مَن كان قبلك أنّهم مَنَعُوا الناسَ الحقَّ فاشتروه[١]، وأخـذوهم بالباطل فاقتدوه[٢].[٣]

❊ ❊ ❊

من كتاب له إلى أحد عمّاله :

أمّا بعد ، فلا يكن حظّك في ولايتك مالاً تستفيده ، ولا غيظاً تشـفيه ، ولكـنْ إمـاتةُ باطلٍ وإحياءُ حقّ![٤]

❊ ❊ ❊

ومن كلام له قاله قبل موته على سبيل الوصية ، بعد أن ضربه ابن ملجم ، وفيه يأمر أهله وأتباعه بالعفو عن قاتله :

أنا بالأمس صاحبكم ، واليومَ عِبرةٌ لكم ، وغداً مفارقُكم. إن أبْقَ فأنا وليّ دمي ، وإن أفْنَ فالفناء ميعادي ، وإن أعْفُ فالعفوُ لي قربةٌ ، وهو لكم حسنةٌ ،فاعفوا ![٥]

❊ ❊ ❊

من كتاب له إلى قثم بن العباس ، وهو عامله على مكّة :

أمّا بعد : فعلّمِ الجاهلَ ، وذاكرِ العالم ، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلّا لسانك ، ولا حاجب إلّا وجهك . ولا تحجُبَنّ ذا حاجةٍ عن لقائك بها ، فإنّها إن ذِيدَت عن أبوابك في أول وِرْدها لم تُحمد ، فيما بعد ، على قضائها. وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفْه إلى مَن قِبلَك من ذوي العيال ؛ مُصيباً به مواضعَ الفاقة والخلّات . وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسّمه في مَن قِبَلَنا.[٦]

---

(١) أي حجبوا عن الناس حقّهم ، فاضطر الناس لشراء الحقّ بالرشوة.

(٢) أي :كلّفوهم بإتيان الباطل فأتوه ، فصار الباطل قدوة يتبعها الأبناء بعد الآباء.

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب : ٧٩.

(٤) نهج السعادة : ٥ / ٣٤٨.

(٥) نهج البلاغة ، الكتاب : ٢٣ ـ ٣.

(٦) نهج البلاغة ، الكتاب : ٦٧ ـ ٤.

من كتاب له إلى أُمرائه على الجيوش :

أمّا بعد : فإنّ حقّاً على الوالي أن لا يغيّره على رعيّته فَضْلٌ ناله ، ولا طَولٌ خُصّ به ، وأن يزيده ما قَسَمَ الله له من نِعَمِه دُنوّاً من عباده وعطفاً على إخوانه. ألَا وإنّ لكم عندي أن لا أحتجزَ دونكم سِرّاً إلّا في حرْب ، ولا أطوي دونكم أمراً إلّا في حُكم ، ولا أؤخّر لكم حقّاً عن محلّه . وأن تكونوا عندي في الحقّ سواء. وإن أنتم لم تستقيموا على ذلك لم يكن أحدٌ أهونَ عليّ ممّن اعوجّ منكم ، ثم أُعظِمُ له العقوبة ولا يجد عندي فيها رُخصةً.(١)

طائفة من خطبه

يا أشباه الرجال!

من خطبة له بعد أن غزا سفيان بن عوف من بني غامد ، بلدةَ الأنبار الواقعة على الشاطئ الشرقي للفرات ؛ وقد بعثه معاوية لشنّ الغارات على أطراف العراق تهويلاً على أهله :

وهذا أخو غامد قد وردتْ خيلُه الأنبار ، وقد قتل حسّان بن حسّان البكريّ وأزال خيلَكم عن مسالحها(٢). وقتل منكم رجالاً صالحين. ولقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأُخرى المعاهدة(٣) فينتزع حِجْلَها(٤) وقُلْبها(٥) وقلائدَها ورِعاثَها(٦) ما تُمنَعُ منه إلّا بالاسترجاع والاسترحام(٧). ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كَـلْمٌ ولا أُريق لهم دم. فلو أنّ امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ؛ ما كان به مَلوماً ، بل كان به عندي

---

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٥٠ ـ ٦.

(٢) مسالحها : جمع مسلحة ، وهي الثغر والمرقب حيث يخشى طروق الأعداء.

(٣) المعاهدة : الذمية ، أي الداخلة في ذمة المسلمين وفي حمايتهم ، وأهل الذمة هم أهل الكتاب من غير المسلمين.

(٤) الحجل : الخلخال. الصحاح: ١٦٦٦/٤، مادة «حجل».

(٥) القلب ، بالضم ، كقفل : السوار. المنجد: ٦٤٩ .

(٦) رِعاث جمع رعثة : القرط. غريب الحديث: ١١٠/١.

(٧) الاسترجاع : ترديد الصوت بالبكاء ، والاسترحام : أن تناشده الرحم.

جديراً. فيا عجباً! واللهِ يميتُ القلبَ ويجلبُ الهمّ اجتماعُ هؤلاءِ على باطلهم، وتفرّقُكم عن حقّكم. فقُبْحاً لكم وَتَرَحاً![1] حين صرتم غَرَضاً يُرمى: يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزَون ولا تغزُون، ويُعصى الله وترضَون! فإذا أمرتُكم بالسير إليهم في أيّام الصيف قلتم: هذه حمارّة القيظ[2] أمهِلْنا يُسَبّخْ عنّا الحرّ[3]! وإذا أمرتُكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صبارّة القُرّ[4] أمهلْنا ينسلخْ عنّا البرد، كلّ هذا فراراً من الحرّ والقر، فأنتم واللهِ من السيف أفرّ. يا أشباه الرجال ولا رجال! حُلومُ الأطفال وعقول ربّات الحجال[5]، لَوَدَدتُ أنّي لم أرَكُم ولم أعرفكم! معرفةٌ، واللهِ جرَتْ ندماً وأعقبتْ سَدَماً[6] قاتَلكم الله!

لقد شحنتم صدري غيظاً وجرّعتموني نُغَبَ التهمام أنفاساً[7] وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إنّ ابن أبي طالب رجلٌ شجاع، ولكن لا علمَ له بالحرب!

لله أبوهم! وهل أحدٌ منهم أشدّ لها مراساً[8] وأقدمُ فيها مقاماً مني؟! لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين، وها أنا ذا قد ذرّفتُ على الستين[9]، ولكنْ لا رأيَ لمن لا يُطاع![10]

* * *

(١) ترحاً: هماً وحزناً. تاج العروس: ٢/١٢٧.
(٢) حمارّة القيظ، بتشديد الراء: شدة الحر. النهاية في غريب الحديث: ١/٤٢٢.
(٣) يسبّخ: يخفف ويسكن. مجمع البحرين: ٢/٣٢٥.
(٤) القرّ: برد الشتاء. صبارة القر: بتشديد الراء: شدة القر. النهاية في غريب الحديث: ٣/٩.
(٥) حجال: جمع حجلة وهي القبة، وموضع يزين بالستور، والثياب للعروس. وربات الحجال: النساء. لسان العرب: ١١/١٤٤.
(٦) السدم: الهم مع الأسف والغيظ. لسان العرب: ١٢/٢٨٣.
(٧) النغب: جمع نغبة وهي الجرعة. الصحاح: ١/٢٢٦. التهمام: الهمّ الكثير. أنفاساً: أي جرعة بعد جرعة. انظر مفردات الخطبة في نهج البلاغة.
(٨) مراساً: مصدر مارس، أي عالج وزاول وعانى. المنجد: ٧٥٥.
(٩) ذرّفت على الستين: زدت عليها. غريب الحديث: ٢/١١٥.
(١٠) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٧ ـ ١٦.

غيبة الناس

من كلام له في النهي عن غيبة الناس ورحمة أهل الذنوب :

وإنّما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهلَ الذنوب والمعصية ويكونَ الشكر هو الغالب عليهم وإلى جزلهم عنهم ، فكيف بالغائب الذي غاب أخاه وعَيّره ببلواه؟ أما ذَكَرَ موضعَ سَتْرِ الله عليه من ذنوبه ممّا هو أعظم من الذنب الذي غابَه به؟ وكيف يذمّه بذنبٍ قد رَكبَ مثله؟! يا عبد الله! لا تعْجل في عيب أحدٍ بذنبه فلعلّه مغفورٌ له!(١)

* * *

أقوْلاً بغير علم؟

من خطبة له :

أيّها الناس! المجتمعةُ أبدانُهم ، المختلفة أهواؤهم : كلامكم يوهي الصُمّ الصِّلاب ، وفعلكمُ يُطمع فيكم الأعداء ما عزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم! أيّ دارٍ بعد داركم تمنعون؟ ومع أيّ إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غَرَرْتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز واللهِ بالسهم الأخيَب. أصبحتُ والله لا أُصدّق قولكم ، ولا أطمعُ في نصركم ، ولا أوعد العدوّ بكم . ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ ما طبّكم؟ القوم رجال أمثالكم أقَوْلاً بغير علم؟ وغفلةً من غير ورع؟ وطمعاً في غير حقّ؟!(٢)

* * *

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٤٠ ـ ٤٠٤.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٩ ـ ٦.

ويزداد الظالم عتوّاً!

ومن خطبة له :

أيّها الناس! إنا قد أصبحنا في دهرٍ عَنود وزمنٍ كؤود ، يُعَدّ فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد الظالم عُتوّاً! لا ننتفع بما علمنا ولا نسأل عمّا جهلنا ، ولا نتخوّف قارعةً حتّى تحلّ بنا. من الناس مَن لا يمنعه الفسادَ إلّا مهانةُ نفسه وكلالةُ حدّه[١] ونضيضُ وَفْره[٢]. ومنهم المُصْلِتُ لسيفه والمعلن بشرّه ، والمُجْلِبُ بخيله ورَجله ، قد أشرط نفسه لحُطام ينتهزه أو منبر يَفْرعُه[٣]. وَلَبِئْسَ المتجرُ أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا![٤]

* * *

حُبّ السلم

من كلام له وقد استبطأ أصحابه إذنَه لهم في القتال بصفّين!

أمّا قولكم : أكلّ ذلك كراهيةُ الموت؟ فواللهِ ما أُبالي أدخلتُ على الموت أو خرج الموت إليّ! وأمّا قولكم : أشكّاً في أهل الشام؟ فواللهِ ما دفعتُ الحرب يوماً إلّا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفةٌ فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي[٥] ، وذلك أحبّ إليّ من أن أقاتلها على ضلالها ، وإن كانت تبوءُ بآثامها![٦]

* * *

(١) كلالة حدّه : ضعف سلاحه عن القطع في أعدائه ، يُقال : كلّ السيف كلالةً إذا لم يقطع ، والمراد إعوازه من السلاح. انظر مفردات الخطبة في نهج البلاغة.

(٢) نضيض وفره : قلّة ماله ، فالنضيض القليل ، والوفر : المال.

(٣) منبر يفرعه ـ فَرَعَ المنبر ـ بالفاء : علاه.

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة : ٣٢ ـ ٥ .

(٥) تعشو إلى ضوئي : تستدلّ عليه ببصر ضعيف.

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة : ٥٥ ـ ٢.

أسفلكم أعلاكم

من كلام له يجري مجرى الخطبة ، لمّا بويع بالمدينة :

والذي بعثه بالحق ، لَتُغَرْبَلَنّ غربلةً ، وَلَتُساطَنّ سَوْطَ القِدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم! والله ماكتمتُ وشمةً ، ولاكذبتُ كذبة![1]

* * *

زجر النفس

ومن خطبة له :

زِنُوا أنفسكم قبل أن توزَنوا ، وحاسبوها من قبل أن تحاسَبوا ، وتنفّسوا قبل ضيق الخناق ، وانقادوا قبل عُنف السّياق ، واعلموا أنّه مَن لم يُعِنْ على نفسه حتى يكون له منها واعظٌ وزاجرٌ ؛ لم يكن له من غيرها زاجرٌ ولا واعظ![2]

* * *

عتب العاتب

من خطبة له لمّا أُريد على البيعة بعد قتل عثمان :

دعوني والتمسوا غيري فإنّا مستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوان ؛ لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول . وإنّ الآفاق قد أغامت والمحجّة قد تنكّرتْ ، واعلموا إن أجَبْتُكم ركبتُ بكم ما أعلم ، ولم أُصغِ إلى قول القائل وعتب العاتب . وإنْ تركتموني فأناكأحَدِكم ، وَلعلّي أسمَعُكُم وأطوَعُكُم لمِن ولّيتموه أمرَكم . وأنا لكم وزيراً خيرٌ لكم مني أميراً![3]

* * *

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦ ـ ٤.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ٩٠ ـ ٩.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ٩٢ ـ ٣.

يا أهل الكوفة!

من خطبة له في أهل الكوفة :

يا أهل الكوفة! مُنيتُ منكم بثلاثٍ واثنتين : صمٌّ ذوو أسماع ، وبُكمٌ ذوو كلام ، وعميٌ ذوو أبصار ، لا أحرار صدقٍ عند اللقاء ، ولا إخوان ثقةٍ عند البلاء! يا أشباه الإبِل! غاب عنها رُعاتُها : كلّما جُمعتْ من جانب تفرّقتْ من جانب!(١)

* * *

العدالة في القسمة

من كلام له يجري مجرى الخطبة لمّا عوتب على التسوية في العطاء :

أتأمروني أن أطلب النصرَ بالجور في مَن وُلِّيتُ عليه؟ واللهِ ما أطورُ(٢) به ما سمَر سَميرٌ وما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً! ألَا وإنّ إعطاء المال في غير حقّه تبذيرٌ وإسراف.(٣)

* * *

الظالم والمرتشي

وقد علمتم ، أنّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل ؛ فتكونَ في أموالهم نَهْمَتُه ، ولا الجاهلُ فيُضِلّهم بجهله ، ولا الجافي فيقطعَهم بجفائه ، ولا الحائف(٤) للدُوَل فيتّخذَ قوماً دون قوم ، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق!(٥)

* * *

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ٩٧ ـ ١٠.

(٢) أطور به : آمر به.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٢٦ ـ ٢.

(٤) الحائف : الجائر . الدول : جمع دولة ، بالضم ، وهي المال ، لأنّه يتداول به ، أي ينتقل من يد ليد.

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٣١ ـ ٧.

إنصاف المظلوم من الظالم

من كلام له في غاية البيعة والخلافة والحكم السليم :

لم تكن بَيْعتكم إيّاي فلتةً ، وليس أمري وأمركم واحداً : إنّي أُريدكم لله ، وأنتم تريدونني لأنفسكم . أيها الناس! أعينوني على أنفسكم! وايْمُ الله لأنصفنّ المظلوم من ظالمه ، ولأقودنّ الظالم بخزامته[١] حتّى أورده منهل الحق وإنْ كان له كارهاً![٢]

* * *

الكفّ عن البغي وإنصاف الخلق

من خطبة له تسمى «القاصعة» :

لقد نظرتُ ، فما وجدتُ أحداً من العالمينَ يتعصّب لشيء من الأشياء إلّا عن علّة تحتملُ تمويهَ الجهلاء ، أو حجّةٍ تُليط بعقول السّفهاء ، غيركم ؛ فإنكم تتعصّبون لأمرٍ لا يُعرَف له سبب ولا علّة. فإن كان لابدّ من العصبية ؛ فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأُمور والأخلاق الرغيبة ، والأحلام العظيمة والآثار المحمودة! فتعصّبوا لخلال الحمد : مِن الحفظ للجوار ، والوفاء بالذمام ، والطاعة للبرّ والمعصية للكبر ، والأخذ بالفضل والكفّ عن البغي ، والإنصاف للخلق ، واجتناب الفساد في الأرض!

ألّا وقد أمرَني الله بقتال أهل البغي والنكث[٣] والفساد في الأرض : فأمّا الناكثون فقد قاتلتُ ، وأمّا القاسطون[٤] فقد جاهدتُ ، وأمّا المارقة فقد دوّختُ ، وأمّا شيطان

(١) خزامته : الخِزامة ـ بالكسر ـ حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير ليشد فيها الزمام ويسهل انقياده.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٣٦ ـ ٢.

(٣) النكث : نقض العهد.

(٤) القاسطون : الجائرون عن الحقّ.

الردهة[١] فقدكفيتُه بصعقةٍ سُمعت لها وجبةُ قلبه ورجّة صدره. وبقيتْ بقيّةٌ من أهل البغي . ولئن أذنَ الله في الكرّة عليهم لأُديلنّ منهم إلّا ما يتشذّر في أطراف البلاد تشذّراً.[٢]

* * *

الحقّ والناس

من خطبة له بصفّين :

أمّا بعد ،فقد جعل الله لي عليكم حقّاً بولاية أمركم ، ولكم عليّ من الحقّ مثل الذي لي عليكم. فالحقّ أوسع الأشياء في التواصف ؛ وأضيقها في التناصف ، لا يجري لأحدٍ إلّا جرى عليه ، ولا يجري عليه إلّا جرى له.

وإنّ من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أنْ يُظَنّ بهم حبُّ الفخر ، ويوضع أمرُهم على الكبر. وقدكرهتُ أنْ يكون جالَ في ظنّكم أنّي أُحبّ الإطراء واستماع الثناء، فلا تكلّموني بما تُكَلّمُ به الجبابرة. وإنّه مَن استثقل الحقَّ أنْ يقال له أو العدلَ أن يُعرَض عليه ،كان العمل بهماأثقل عليه ، فلا تكفّوا عن مقالةٍ بحقّ ، أو مشورة بعدل ، فإنّي لستُ في نفسي بفوقِ أنْ أخطئ![٣]

* * *

الحقّ لا يبطله شيء

من خطبة له عقب البيعة :

أيّها الناس! إنّما أنا رجلٌ منكم ، لي ما لكم وعليّ ما عليكم. ألا إنّ كلّ قطيعةٍ أقطعَها عثمان ، وكلّ مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال. فإنّ الحقّ لا يُبْطله شيء.

(١) الردهة : النقرة في الجبل . وشيطان الردهة : يعني به أحد رؤساء الخوارج وقد وجد مقتولاً في ردهة.
(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٩٢ ـ ١١٤.
(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢١٦ ـ ٢٤.

ولو وجدتُه قد تُزُوّج به النساء وفرّق في البلدان لرددتُه. فإنّ في العدل سعةً ، ومَن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق.(١)

أيّها الناس! ألا لا(٢) **يقولَنّ رجالٌ منكم غداً ـ قد غَمَرَتْهُم الدنيا ـ فامتلكوا العقار ، وفجّروا الأنهار ، وركبوا الخيل ، واتّخذوا الوصائف المرقّقة**(٣)**، إذا ما منعتُهم ماكانوا يخوضون فيه وأصَرتْهُم إلى حقوقهم التي يعلمون ـ: حَرَمَنا ابنُ أبي طالب حقوقَنا! ألا وأيّما رجلٍ من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أنّ الفضل له على سواه بصحبته، فإنّ الفضل غداً عند الله. فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يُقَسّم بينكم بالسويّة ، ولا فضلَ فيه لأحدٍ على أحد!**(٤)

* * *

ومن خطبة له يدعو الناس إلى قرْض الدنيا على منهاج موسى وداود والمسيح ومحمد :

وإن شئتُ قلتُ في عيسى بن مريم (عليه السلام) ، فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن ويأكل الجَشِبَ ، وكان إدامُه الجوع وسراجُه بالليل القمر ، وظلالهُ في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها ، وفاكهته وريحانه ما تُنبت الأرضُ للبهائم. ولم تكن له زوجةٌ تفتنُه ، ولا ولد يحزنه ، ولا مال يلفِته ، ولا طمعٌ يُذلّه ، دابّته رجلاه وخادمه يداه!(٥)

* * *

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٥ ـ ١ ، وفيها : ومن ضاق عليه العدل.

(٢) أثبتناها من المصادر.

(٣) في أكثر المصادر: «الروقة» بدل «المرققة».

(٤) شرح نهج البلاغة : ٧ / ٣٧، بحار الأنوار : ٣٢ / ٢٧.

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦٠ ، ٢ / ٥٨ ، شرح أُصول الكافي : ١ / ٢٣٢ ، مكارم الأخلاق للطبرسي : ٩ ، بحار الأنوار : ١٤ / ٢٣٨.

في الإنسان الخيّر

من خطبة له جليلة يصف بها الإنسانَ الصادق الخيّر ، أو الإنسان كما يجب أن يكون. ونلفت نظر القارئ إليها بصورة خاصة ، لِما فيها من صفات عليّ بن أبي طالب نفسه :

يمزج الحِلم بالعلم والقول بالعمل، الخير منه مأمول والشرّ منه مأمون، يعفو عمّن ظلمَهُ ويعطي مَن حرَمَهُ، بعيدٌ فحشُه ليّنٌ قوله غائب منكَره حاضرٌ معروفه ،مقبلٌ خيره مدبرٌ شرّه، لا يَحيفُ على مَن يُبغض ولا يأثم في من يحب، يعترف بالحقّ قبل أن يُشهَد عليه، لا ينابز بالألقاب ولا يُضارّ بالجار ، ولا يشمتُ بالمصائب ، ولا يدخلُ في الباطل ولا يخرج من الحقّ، نفسه في عناء والناس منه في راحة، بُعده ممّا تباعد عنه زهدٌ ونزاهة ، ودنوّه ممّن دنا منه لينٌ ورحمة . ليس تباعدُه بكبرٍ وعظمة ، ولا دنوّه بمكرٍ وخديعة.[1]

* * *

في صفة المنافقين

من خطبة له في وصف المنافقين :

يتلوّنون ألواناً ويفتّنون[2] افتناناً ، ويَعمِدونكم بكلّ عِماد ويرصدونكم بكلّ مرصاد. يمشون الخَفاء ويدبون الضرّاء. مؤكِّدو البلاء ومقْنطو الرجاء ، لهم بكلّ طريقٍ صريعٌ وإلى كلّ قلبٍ شفيعٌ ولكلّ شجوٍ دموع[3]. يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء. إنْ عَذَلوا كشفوا وإنْ حكموا أسرفوا. قد أعَدّوا لكلّ حقٍّ باطلاً ولكلّ قائمٍ مائلاً ، ولكلِّ حيّ قاتلاً ، ولكلّ

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٩٣ ، ٢ / ١٦٤ ،كتاب التمحيص للإسكافي : ٧٣، أمالي الصدوق : ٦٦٩.
(٢) يفتنون : يأخذون في فنون من القول لا يذهبون فيه مذهباً واحداً.
(٣) الشجو : الحزن ، أي يبكون تصنّعاً ونفاقاً متى أرادوا.

بابٍ مفتاحاً ، ولكلِّ ليلٍ مصباحاً . يتوصّلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم،ويُنفقوا به أعلاقهم. يقولون فيشبّهون ويصفون فيوهمون . قد هوّنوا الطريق وأضلعوا المضيق، فهم لُمّةُ الشيطان.[١]

* * *

اللَّهمَّ جنّب المنتصر البغي!

من خطبة له لمّا عزم على لقاء القوم بصفّين:

اللهمّ! ربّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام ، ومَدْرجاً للهوام والأنعام وما لا يُحصى ممّا يُرى وممّا لا يُرى، وربّ الجبال الرواسي التي جعلتَها للأرض أوتاداً وللخلق اعتماداً ، إنْ أظهرتَنا على عدوّنا فجنّبْنا البْغيَ وسدّدْنا بالحقّ . وإنْ أظهرتْهم علينا فارزقْنا الشهادة واعصمْنا من الفتنة![٢]

* * *

اللهمّ أصلح ذاتَ بيننا وبينهم!

من خطبة له بصفّين وقد سمع قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام ردّاً على سبّ أهل الشام إيّاه :

إنّي أكره لكم أن تكونوا سبّابين ، ولكنّكم لو وصفتُم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر ، وقلتم مكانَ سَبكم إيّاهم : اللهمّ احقنْ دماءَنا ودماءَهم ، وأصلحْ ذات بيننا وبينهم ، واهدِهم من ضلالتهم ؛ حتّى يعرف الحقّ مَن جهلَه ، ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به![٣]

* * *

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٩٤، ٢ / ١٦٦، عيون الحكم والمواعظ : ٥٥٤، بحار الأنوار : ٦٩ / ١٧٧.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٧١، ٢ / ٨٤، مستدرك الوسائل : ١١ / ١٠٩ الحديث رقم ١٢٥٥٢، شرح نهج البلاغة : ٩ / ٣٠١.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٠٦، ٢ / ١٨٦، مستدرك الوسائل : ١٢ / ٣٠٧ الحديث ١٤١٥٩، عيون الحكم والمواعظ : ٦٦، بحار الأنوار : ٣٢ / ٥٦١.

خلقة الجرادة

من خطبة له في وصف خلقة الجرادة :

وإن شئتَ قلتُ في الجرادة : إذ خلق الله لها عينين حمراوين ، وأسرج لها حدقتين قمراوين[١] ، وجعل لها السمع الخفيّ ، وفتح لها الفم السويّ ، وجعَل لها الحسّ القويّ ، ونابَين بهما تقرِض ومِنجلين بهما تقبِض[٢]. يرهبها الزرّاع في زرعهم ولا يستطيعون ذَبّها[٣] ، ولو أجلبوا بجَمْعهم ؛ حتّى ترِدَ الحرْثَ في نزواتها[٤] وتقضي منه شهواتها . وخلْقُها كلّه لا يكون إصبعاً مستدقّة.[٥]

* * *

خلقة النملة

ومنها في وصف النملة :

أُنظروا إلى النملة في صِغَر جثّتها ولطافة هيئتها، لا تكاد تُنال بلحظ البصر ولا بمستدقّ الفِكر ، وكيف دبّت على أرضها وصبَت على رزقها! تنقل الحبّة إلى جُحْرها وتَعُدّها في مستقرّها . وتجمع في حرّها لبردها ، وفي ورودها لصَدَرها ، مكفولةٌ برزقها مرزوقة بوِفْقها[٦] ، لا يُغْفلها المنّان ولا يحرمها الديّان ولو في الصفا والحجر الجامس[٧]. ولو

---

(١) أي مضيئتين كأنّ كلّاً منهما ليلة أضاءها القمر.

(٢) أراد بالمنجلين هنا : رجليها ، لاعوجاجهما وخشونتهما.

(٣) ذبّها : دفعها وإبعادها.

(٤) نزوات ، جمع نزوة وهي : الوثبة.

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٨٥ ، ٢ / ١١٨ ، الاحتجاج : ١ / ٣٠٦ ، بحار الأنوار : ٣ / ٣٧ و٦١ / ٤٠ ، مستدرك سفينة البحار : ٢ / ٥٠ .

(٦) الصدر : الرجوع بعد الورود . بوفقها ، أي : بما يوافقها من الرزق ويلائم طبعها.

(٧) الجامس : الجامد.

فكّرت في مجاري أكْلها ، وفي عُلْوها وسُفْلها وما في الجوف من شراسيف بطنها[١] وما في الرأس من عينها وأُذنها، لقضيتَ من خَلْقها عجَباً ، ولقيتَ من وصفها تعباً. ولو ضربتَ في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته، ما دلّتك الدلالة إلّا على أنّ فاطر النملة هو فاطر النخلة، لدقيق تفصيل كلّ شيء وغامض اختلاف كلّ حيّ.[٢]

* * *

خلقة الخفّاش

من خطبة له يذكر فيها بديع خلقة الخفّاش :

ومن لطائف صنعته وعجائب خلقته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ، ويبسطها الظلام القابض لكلّ حيّ، وكيف عشيتْ أعينها عن أن تستمدّ من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها ، وتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها ، وردعها بتلألؤ ضيائها عن المضيّ في سبحات إشراقها[٣] ، وأكنّها في مكامنها عن الذهاب في بلج ائتلاقها[٤]، فهي مسدلة الجفون في النهار على أحداقها ، وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها ، فلا يردّ أبصارها إسداف ظلمته[٥] ولا تمتنع من المضيّ فيه لغَسقِ دُجنّته، فإذا ألقت الشمس قناعها وبدت أوضاحُ نهارها ، ودخل من إشراق نورها على الضِّباب[٦] في وجارها، أطبقت الأجفان على

---

(١) الشراسيف : أطراف الأضلاع التي تشرف على البطن والواحد شرسوف.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٨٥ ، ٢ / ١١٧ ، الاحتجاج للطبرسي : ١ / ٣٠٦، بحار الأنوار : ٣ / ٣٦ و٦١ / ٣٩، مستدرك سفينة البحار : ٦ / ٣٧٨، درر الأخبار : ٥٤، شرح نهج البلاغة : ١٣ / ٥٦ .

(٣) سبحات النور : درجاته وأطواره.

(٤) البلج ؛ الضوء ووضوحه . الائتلاق : اللمعان الشديد.

(٥) أسدف الليل : أظلم.

(٦) الضباب : جمع ضبّ وهو الحيوان المعروف.

مآقيها وتبلّغت[١] بما اكتسبت من فَيْء ظلم لياليها . فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً ، والنهار سكناً وقراراً ، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنّها شظايا الآذان غير ذوات ريش ولا قصب، إلّا أنك ترى مواضع العروق بيّنة أعلاماً ، لها جناحان لمّا يرقّا فينشقّا ولم يغلظا فيثقلا ؛ وولدها لاصقٌ بها لاجئ إليها : يقع إذا وقعتْ ويرتفع إذا ارتفعت ، لا يفارقها حتّى تشتدّ أركانه ، ويحمله للنهوض جناحه ، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه ، فسبحان الباري لكلّ شيء على غير مثالٍ خلا من غيره.[٢]

* * *

اللهمّ! قد انصاحت جبالنا

من خطبة له في الاستسقاء ، وهي التي تزخر بالعاطفة والحنان ، وبالتواضع لخالق الكون وهيبة الوجود :

اللهمّ! قد انصاحت[٣] جبالنا ، واغبرّت أرضنا ، وهامت دوابُنا وتحيّرت في مرابضها ، وعجّت عجيجَ الثكالى على أولادها ، وملّتِ التردّد في مراتعها والحنينَ إلى مواردها . اللهمّ! فارحم أنين الآنّة ، وحنين الحانّة . اللهمّ! فارحم حَيْرتها في مذاهبها ، وأنينها في موالجها[٤]. اللهمّ! خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدابير السنين وأخلَفَتْنا مخايل الجود[٥]، فكنتَ الرجاءَ لمبتئس والبلاغ للملتمس :ندعوك حين قنِطَ الأنام ، ومُنع الغمام ، وهلك السّوامّ ، أن تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا، وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق والربيع المغدَق ، والنبات المونق سحّاً وابلاً [٦] تحيي به ما قد

(١) تبلّغت : اكتسبت أو اقتاتت.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٥٥ ، ٢ / ٤٧ ، بحار الأنوار : ٦١ / ٣٢٤ ، شرح نهج البلاغة : ٩ / ١٨٢ ، الكنى والألقاب ، للقمي : ٢ / ١٧.

(٣) انصاحت : جفّت أعالي بقولها ويبست من الجدب.

(٤) موالجها : مداخلها في المرابض.

(٥) مخايل : جمع مخيلة ،كمصيبة ، وهي السحابة تظهر كأنّها ماطرة ثمّ لا تمطر. والجود : المطر.

(٦) سحّاً : صبّاً . الوابل : الشديد من المطر الضخم القطر.

مات وتردّ به ما قد فات. اللهمّ! سُقياً منك ، محيية مرويّةً ، تامّةً عامّة ، طيّبةً مباركة ، هنيئة مَريعة[١] ، زاكياً نبتُها ، ثامراً فرعها ، ناضراً ورقُها ، تُنعش بها الضعيف من عبادك وتحيي بها الميت من بلادك! اللهمّ! سُقيا منك تُعشبُ بها نجادَنا[٢] وتجري بها وهادنا وتخصب بها جنابنا[٣] وتُقبل بها ثمارنا ، وتعيش بها مواشينا ، وتَندى بها أقاصينا ، وتستعين بها ضواحينا ، من بركاتك الواسعة.[٤]

* * *

التضامن والقوة

ومن أمثال عليّ :

أثوارٌ ثلاثةٌ كنّ في أجمة : أبيضُ وأحمر وأسود ، ومعهنّ فيها أسد ، فكان لا يقدر منهنّ على شيء لاجتماعهنّ عليه . فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يدلّ علينا في أجمتنا إلّا الثور الأبيض ، فإنّ لونه مشهور ، ولوني على لونكما ، فلو تركتماني آكله صفَت لنا الأجمة ، فقالا له : دونك فكله . فأكله . فلما مضت أيامٌ ، قال للأحمر : لوني على لونك فدعني آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة! فقال : دونك فكله. ثمّ قال للأحمر إني آكلك لا محالة ، فقال دعني أُنادِ ثلاثاً . فقال افعل . فنادى : ألا إنّي أُكِلتُ يوم أُكِل الثور الأبيض[٥].[٦]

---

(١) مريعة : خصيبة.

(٢) نجاد : جمع نجد ، وهو ما ارتفع من الأرض.

(٣) الجناب : الناحية.

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢١٦ ـ ٤.

(٥) رأينا أن نثبت هذا المثل هنا ، لأنّه من أجمل الأمثال العربية التي جاءت حكاية عن الحيوان. ثمّ لأنّه أوّل هذه الأمثال ، وفيه دعوة إلى الاتحاد وتنفير من الفتنة . ومن الغريب أن يكون هذا المثل الذي ثبتت نسبته لعلي بن أبي طالب ، غير مذكور في نهج البلاغة على اختلاف طبعاته وكثرة شارحيه والمعتنين به.

(٦) كنز العمال : ١٣ / ٨٩، الحديث : ٣٦٣٠٨، البداية والنهاية لابن كثير: ٢١٦/٧، تاريخ المدينة ، للنميري : ٤ / ١٢٣٣.

ملوك و تفاهات

المؤامرة في الإسلام

إذا ألقيتَ نظرةً على عناصر التاريخ عامةً ، منذ أقدم العصور الاجتماعية والسياسية حتّى يومنا هذا، أدركتَ أنّ الصراع من أجل السلطان كان أكثر هذه العناصر مصدراً للدسائس والمؤامرات . وليس بين أطماع الإنسان ، منذ قامت المجتمعات والدول ، ما أذكى في نفسه الميلَ إلى التآمر مثل السلطان والسيادة . يستوي في ذلك الأفراد والجماعات دولاً كانت أم أحزاباً أم طوائفَ من نماذجَ شتّى . ولكَم غرقت الشعوب في دمائها من جَرّاء هذا الصراع العنيف الطويل تُذْكيه مطامعُ الرئاسة والسيادة في التاريخ ، حتّى إنّ شعباً واحداً لم ينجُ من المجازر الرهيبة التي خلقتْها هذه المطامع.

وكانت المجتمعات القديمة أحفلَ مجتمعات التاريخ بمعارك المُلك والسلطان، ذلك لأنّ مغريات السلطة كانت من القوّة بحيثُ تصعب مقاومتها ؛ وبحيث تحمل مَن له بعض الأمل في إدراك الملك ، على أنْ يضحّي في سبيله حتّى بحياته ، فالمُلك في المجتمعات القديمة، ولا سيّما ذات الأنظمة الاستبدادية منها، كان النعمةَ كلّها ، والأمرَ كلّه ، والإرادةَ التي لا تُردّ ، والسلطة التي لا تُحدّ ، والخيراتِ المادّية التي يرتع فيها الأفراد على حساب الألوف والملايين. ثمّ إنّه مطلَقٌ في كلّ شيء ، وغيرُ مسؤولٍ عن شيء ، وقد يعتزّ بذاته ويشمخ حتّى ليدنو من القدسية . هذا ، على ما في نفوس طلّاب الملك في تلك الأعصر السحيقة مِن

نذالةٍ وغباءٍ، يُشبه غباءَ البهائم في أكثر الأحيان.

وفي سبيل الوصول إلى هذا المُلك إذاكان بعيداً ، وفي سبيل المحافظة عليه والقضاء على الطامعين فيه إذاكان قريباً،كانت المؤامرات «السياسية» التي ملأتْ صفحاتِ التاريخ سواداً وأجرتْ دماءَ الشعوب أنهاراً. وإنّه لَيُمْكننا أنْ نلخّص تاريخَ الملوك الأوائل بأنّه قصة استعدادٍ للقضاء على قريبٍ منافس، أو لإخضاع ملوكٍ أباعدَ يبدو عليهم بعضُ الضعف في الحيلة وأساليب المغالبة، أو لقهر شعبٍ يحاول أنَ يتخلّص من جورٍ وطغيان. فتاريخ أُولئك الملوك ليس والحالة هذه ، إلّا حكاية لصوصٍ ، أدنياء النفوس لا يحملون من القِيَم والمعاني أكثرَ ممّا تحمل الضّباعُ القذِرة ، وهي تهاجم فرائسَها في ليالي الشتاء.

غير أنّ هنالك مؤامراتٍ سياسية من نوعٍ آخر يقدّمها لنا التاريخ ، وتكمُنُ بواعثُها في النزوعِ إلى استرداد الحرّيات التي قضتْ عليها مؤامراتُ الملوك ، وإلى رفْع كابوس الظلم أيّاًكان نوعه. فمِن المؤامرات السياسية ماكان شرّاً وما أشبهَ قطْعَ الطرق ، وأعني مؤامرات الطامعين في السلطان ، ولا غايةَ لهم من وراء ذلك إلّا الرتوع في نعيم المُلك ، ولو قام على سلسلة من المعارك الدامية والمجازر الرهيبة. ومن المؤامرات السياسيةماكان خيراً وما أشبهَ البطولة، وأعني مؤامرات الطامحين إلى تهديم أركان العبودية ، واسترجاع الحرّيات المفقودة والثروات المنهوبة. ومصدر هذا النوع من المؤامرات إنّما هو الشعب ذاته.

لقد عرف التاريخ هذين النوعين من المؤامرات السياسية، وإنْ كانت مؤامرات الطغاة هي الأوفر من حيث العدد ، والأعنف من حيث القسوة وإهراق الدماء.

أمّا التاريخ العربي ، فقد عرف المؤامرات هو أيضاً كما عرفها تاريخ سائر الشعوب. بدأت المؤامرات والمجتمع العربي ما يزال في بدء تكوينه. ومن هذه المؤامرات ما اكتسب طابعاً من العنف مريعاً. ومنها ما انحطّتْ به النفسُ البشريّة إلى الدّرك الأسفل والمنزلةِ المهينة. ولكي نعطيك صورةً عن مؤامراتِ فظيعةٍ جرتْ في بلاد العرب ولم يكن لها مِن هدفٍ إلّا هوىً خسيسٌ في نفسِ عَبْد ؛ ولكي نبرّر ما نعتْنا به الملوكَ القُدامى حين قلنا : إنّهم لصوصٌ أدنياء ، نروي لك هذا الخبرَ الرهيبَ عن مؤامرةٍ رهيبة ، حاكها ملكٌ عربيّ ، ورواها المؤرّخون الإغريق والروم والعرب ؛ لتكون شاهداً على حقيقةٍ من حقائق التاريخ.

في أواخر القرن الخامس الميلادي كان على دولة كِنْدةَ في نجد الملكُ الحارثُ بن عمرو ، جدّ امرئ القيس الشاعر الشهير. ولسببٍ من الأسباب توافدتْ إليه قبائلُ العرب مِن مُضَرَ وربيعة ، وطلبتْ منه أن يولّي عليها مِن أبنائه مَن يحكمها فيُبْطلُ ما كان قائماً بينها من خلاف. ففرّقَ في هذه القبائل أربعةً من أولاده تَوَلّى كلٌّ منهم بعضَها. فرضيتْ أسد وغطَفان بحُجْر بن الحارث ـ والد امرىء القيس ـ ملكاً عليها. ورضيتْ قبيلةُ بكر بن وائل ، بأخيه شرحبيل بن الحارث. وتولّى معدي كرب بن الحارث ، قبائل قيس عيلان جميعاً. أمّا سلمة بن الحارث فقد تولّى قبائل تغلب والنمر بن قاسط.

ولم تطل حياة أبيهم الحارث فمات بعد ذلك بقليل. وشاءَت المصادفات أن يهرب قبل موته من الحيرة عاصمة المناذرة اللخميّين ، وأن يلحق به الملك المنذر المعروف : بابن ماء السماء يريد قتْلَه للتسلية والمجد والشرف الرفيع ؛ فلحق الحارث بأرضِ قبيلة كلب ونجا ، فنهب المنذرُ مالَه ومطاياه. وأسَر ثمانية وأربعين نفْساً من عائلة ملك كندة وفيهم ابناه عمرو ومالك ـ

وهما عمّا امرئ القيس الشاعر ـ فتلهّى بهم المنذر زمناً قليلاً ثم قتَلَهم وطرَحهم في العراء للوحش والطير. وقد رثاهم امرؤ القيس بقصيدةٍ موجعة.

وبعد موت الحارث ظلّ أولاده الأربعة على ما ملكوه. فراح المنذر يحيك المؤامرات لقتْلهم تشفّياً وانتقاماً ، وإظهاراً لعنجهيّة الملوك الغليظة. فسعى أوّلَ الأمر في الإفساد بينهم مستخدماً في هذا السبيل كلّ وسيلةٍ ممكنة. وما زال بهم حتى أغرى اثنين منهما فتحاربا. أمّا الإثنان فهُما سلمة أمير تغلب وأخوه شرحبيل أمير بكر. ودارت الدائرة في هذه القتال على شرحبيل فقُتل. فلمّا علم أخوه سلمة بمقتله جزِعَ جزَعاً عظيماً،وأدرك أنّ المنذر بن ماء السماء إنّما أراد أنْ يقتل بعضُهم بعضاً ، فأصبح لا يؤمّن على نفسه. وخرج من تغلب والتجأ إلى قبيلة بكر ، فقال له البكريّون : لا يحكمنا بعد أخيك غيرك. فاغتاظ المنذر لا لأمرٍ إلّا الهَوس الملوكيّ السخيف ، فبَعث إلى البكريّين يدعوهم إلى طاعته والدخول في أمره والتخلّي عن كلّ ما ارتضوه لأنفسهم من شؤونهم الخاصّة. وكان من الطبيعي أنْ يأبى البكريّون مثْلَ هذا الأمر، فثارتْ نَخْوةُ الجهل والغباوة والمُلك في رأس المنذر ، وأقسَم بـ «شَرَف أبيه» لَيَسيرنّ إلى البكريّين فإنْ ظفِرَ بهم لَيَذْبحنّهم على قمّة جبل «أوارة» حتى بلغ الدمُ الحضيض[1].

وسار في جموع من أشباهه الأغبياء إلى البكريّين الذين كانوا يقاسون من الفقر والتعاسة والبؤس ما لا مزيد عليه، وبمؤامرةٍ ملكيّةٍ حقيرةٍ دُبّرتْ سَلَفاً ، التقوا بجبل «أوارة» فاقتتلوا اقتتالاً شديداً أبدى فيه البكريّون من البسالة والشرف شيئاً كثيراً. وانكشفتْ الواقعة عن هزيمة البكريّين ، وأُسر

---

(١) الحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل. النهاية في غريب الحديث: ٣٨٥/١.

يزيد بن شرحبيل الكندي، فأمَرَ المنذرُ بن ماء السماء بقَتْله فقُتل ، وذُبح معه من البكريّين خلقٌ كثير. وأسر المنذر مَن بقيَ حيّاً ومَن لم يستطع النجاة مِن البكريّين ، ثم أمرَ بذبح الأسرى جميعاً ويبلغون الأُلوف ، فذُبحوا على جبل أوارة المذكور فجعل الدم يجمد فلا يبلغ الوادي كما كان الملك قد أقسم ، فقال له كلابُ الزّلْفى[1] والنفاق وكأنّهم يحرّضونه : «أبَيْتَ اللعنَ! لو ذبحتَ كلَّ بكْريّ على وجه الأرض لم يبلغ دمُهم الحضيضَ، ولكنْ لو صببْتَ عليه الماء». ففعل الملك ، فسال الدم إلى الحضيض. ثم نظر إلى النساء فإذا هنّ كثيراتٌ ملوّعاتٌ أسىً وحزناً ، فأمر بهنّ أنْ يُحْرقْنَ بالنار وهن على قيد الحياة حرْقاً بطيئاً. وهكذا انتهى أمرُ الكثرة الكثيرة من القبيلة البائسة.[2]

وهنا يتساءل المرء عمّا يكون عليه أمرُ هؤلاءالملوك في التاريخ ، وعمّا تكون عليه مؤامراتهم من البشاعة والنذالة حين يكون وراء هذه المؤامرات حِفاظٌ على مُلْك ، أو سعْيٌ في سبيله ، طالَما أنّ الغرور والهَوس وحدَهما أنتجا مثْلَ هذه المؤامرة التي انتهتْ بهذه البشاعة المريعة.

ومثل هذه المؤامرة في تاريخ العرب قبل الإسلام كثير. وتكاد قصّة حبْك المؤامرات وتنفيذها أن تكون كلّ تاريخ الملوك السّبئيّين ، والحميريين ، والغساسنة ، والمناذرة.

ثم كانت مؤامراتٌ جاهلية في مطلع الدعوة الإسلامية ، والمجتمعُ العربي ما يزال بعيداً عن روح هذه الدعوة ، وعن مقاصدها الأدبية والاجتماعية. وكان ذلك يوم ائتمرتْ قريش بمحمّد وصَحْبه ؛ دفاعاً عن سلطةٍ ونفوذٍ ومَغْنَم ، وتوطيداً لأنظمةٍ اجتماعيةٍ وتقاليدَ محليّةٍ ومعتقداتٍ دينيّة ، تخدم

(١) الزُّلفىٰ والزُّلفة : القُربة والمنزلة. وأزلفه : قرّبه.كتاب العين: ٣٦٨/٧، مادة «زلف».
(٢) العمدة لابن رشيق ج٢ ص١٦٨.

أصحابَ الوجاهات وتجور على العامّة ، وتستذلّ المستضعفين وتسمّيهم عبيداً أرقّاء.

وقد اتّخذتْ مؤامرات القرشيين الكثيرة على محمد بن عبد الله صيغةً دينيّة للتمويه والتضليل ، وظهر أصحابها كأنّهم يريدون التخلّص من صاحب الدعوة الجديدة ؛ دفاعاً عن دينهم ودين آبائهم. وهي في الواقع لم تكن تستهدف إلّا غايةً سياسيّةً معيّنةً ، ووراءَها غاياتٌ طبَقيّةٌ خالصة. كانت تستهدف القضاء على الدعوة الجديدة ؛ لِمَا يترتّب عليها من تحطيمٍ لزعامات قريش الدينية ، وما تجرّه هذه الزعامات من منفعة وسلطان. وكان من خواصّ الملك السياسي في هاتيك العصور أن يستند إلى الدين ؛ وأن تمتزج السلطتان المدنية والدينية في زعامةٍ واحدة.

وازداد كيد القرشيين وتعاظم سخطهم ، يوم ترامى إليهم أنّ النبي عازمٌ على الهجرة إلى المدينة بعد أن انتقل إليها صحبه. فتجهّم جوّ مكّة واسودّت قلوب القوم. فاجتمعوا بدار الندوة بمن استطاعوا إغراءهم من زعماء القبائل العربية الأُخرى ، وتفاوضوا في أمر الرجل ـ ويعنون به النبيّ ـ وقَرّ عزمُهم على أن يقتلوه مهما كلّف الأمر. وأسندوا أمْرَ تنفيذ الجريمة إلى عددٍ عظيم من الرجال الأشداء يمثل كلّ منهم قبيلةً معيّنة ؛ كي يتّخذ قتْلُه صفةً عامّة ، فلا يكون على أحدٍ منهم مسؤولية قتله ولا يكون لقبيلةٍ دون أُخرى ، مثلُ هذا «الشرف» في ارتكاب الجريمة. ثم إنّ دم محمد يفَرّق ـ بهذه الطريقة ـ على القبائل العربية جمعاء، فلا يستطيع أنصارُه الاثّار له منهم جميعاً.

ويُنبئنا تاريخ مطلع الإسلام ، أنّ سلسلة المؤامرات القرشية على الرسول وصحبه لم تنتهِ إلّا بعد أن تمكّن الرسول من أنْ يشقّ طريقه إلى النصر بين صفوفٍ من الأذى والسخرية والانتقام ، ويجمع حوله أنصاراً من ذوي الخلق

العظيم ، وأنصاراً كثيرين من المضطَهدين والمستضعفين. فلم تنتهِ المؤامرة ، ولم يُلقِ المتآمرون سلاحهم إلّا ساعة وطّد النـبيّ أركـان الدعـوة الجـديدة ، وكبَتَ ما في نفوس الجماعة من كيدٍ له ولأصحابه.

ثم كانت من جانب المسلمين أنفسهم مؤامراتٌ، ولكنّها من نوعٍ آخر. مؤامرات تُساند الخيرَ ضدّ الشر وضدّ الشعوذة والنفاق. وأهمّ هذه المؤامرات : تلك التي انتهت بمقتل الأسْود العَنسيّ. وقصّة ذلك أنّ نجاح الدعوة الإسلامية القائمة على أساسٍ من العدل والسموّ والتفهّم لروح العـصر وعـقلية النـاس، أغرى بعضَ الناس في ادّعاء النـبوة. وفـاتَهم أنّ اليـنابيع التـي اسـتقى مـنها محمدبن عبد الله رسالته الجليلة هي غير الادّعاء المجرّد ، الذي لا يستقون ـ هم ـإلّا منه ، ولا سلاح بأيديهم سواه.

وكان أقوى هؤلاء الأدعياء وأوسعهم نفوذاً مشعوذٌ بارعٌ يُدْعىٰ الأسـود العنسي. وقد تمكّن العنسيّ مِن أن يجمع حوله خلقاً كـثيراً ويسـير بـهم إلى اليمن حيث يمتدّ نفوذه، فينطلق فيما بعد إلى سائر أنحاء الجزيرة.

ولم يكن غريباً إذذاك أن يرتدّ كثيرٌ من أهل اليمن المسلمين، ويلتفّوا حول هذا المشعوذ. فإنّ دينهم كان ما يزال رقيقاً ، لأنّهم لم يكونوا على صلات ثابتة بحقيقة الرسول وينبوع الرسالة؛ ذلك لأنّ بين الحجاز مهد الإسلام واليمن موئل العنسيّ المشعوذ ، فلواتٍ وقفاراً. ولمّا كان للشعوذة أنصارٌ في كلّ زمن فقد خشي النبيّ من محاولة هذا المنافق في أرضٍ لم يكن نور الإسلام قد سطع فيها بعد ، خصوصاً بعد أن أنشأ الأسودُ العنسي حكومةً في اليمن ، تُحاول أن تنافس حكومة المدينة في زعامة الجزيرة العربية، فكتب إلى عمّاله في اليمن أن يسعوا في التخلّص من العنسي ، وأن يسعوا في ذلك بما يرون. فماكان من العمّال هؤلاء إلّا أن ائتمروا بالدعيّ ، وآثروا اغـتياله اتـقاءً لخـطره وبأسـه.

صحة هذه الرواية من حيث أسبابها. إذ ليس ببعيدٍ أن يكون مصرع الخليفة الثاني نتيجة مؤامرةٍ مدروسة ؛ أتقنَها ونفّذها نفَرٌ من الوجهاء الذين عزّ عليهم أن لا يُطلق عمر أيديهم في نهبٍ أو اختلاس أو نفوذ. والذين يضمرون في أعماق نفوسهم كثيراً من أهواء الزعامة والاستئثار، فساءَهم من عمر ألّا يلين وألّا يصانع ، وأن يسحق هذه الأهواء وما يمنّون به نفوسهم ، فدفعوا إليه بمن يطعنه فيصرعه.

أمّا ثالث الخلفاء الراشدين : عثمان بن عفان ، فهو أيضاً من ضحايا هذه المؤامرة ، وإن اختلفتْ أسبابها التي قُتل بها عن أسباب تلك التي قتل بها عمر. فإن عثمان أحاط نفسه ببطانةٍ ظَنّ بهم الخير ، وكان على رأسهم مروان بن الحكم الذي لم يكن «نصحه» له في شتّى الأُمور إلّا شرّاً عليه وعلى المسلمين. وبحكم هذه البطانة السيّئة طُبعتْ سياسة عثمان بطابع الأثَرة والمصلحة العائلية. فإنّه ماكاد يستلم الحكم حتى عزل الولاة والعمال الذين كان عمر قد اختارهم ولقّنهم أُصول السيرة العادلة ؛ وجعل مكانهم جماعة من أقربائه وذويه. ثم إنّه استأثر بكلِّ سلطة ، واتّبع هوى العائلة في تدبير الأُمور وتبذير الأموال التي هي ملك الشعب. وأطلق يد عمّاله ـ ومُعْظمهم من أهله ـ في الأمصار فاستبدّوا بها ونكّلوا بأهلها وأفسدوا مرافقَها وجمعوا أموالها لأنفسهم، حتى كادت الخلافة تتّسم في عهده بطابع المنفعة الخاصة التي تستبيح[1] ما ينهىٰ عنه الإسلام ، وما يخالف أبسط مبادئ العدالة الاجتماعية.

ولمّا جاءت وفود الأمصار لتشكو إلى عثمان عمّالَه واستبدادَهم وركوبَهم الأهواء ، ورجَوه في أن يكون بعهده بعض الإنصاف الذي كان بعهد

(١) تستبيح : تنتهك وتنتهب. كتاب العين: ٣١١/٣، مادة «بوح».

عمر ، وعَدَهم خيراً وصرفهم يحلمون بتحقيق هذه الوعود. ولمّا كانوا في بعض الطريق إلى ديارهم ضبطوا كتاباً من مروان بن الحكم، يأمر به العمّال بقتل زعماء الوفود ساعة يصلون. فارتدّوا إلى المدينة عاصمة الخلافة ، وطلبوا من عثمان أنّ يسلّمهم المجرم ـ أي مروان ـ فأبى. وأصرّ زعماء الوفود على طلبهم وأصرّ كذلك عثمان على ألّا يجيب لهم طلباً. واشتدّ سخط الساخطين وزادت بهم النقمة، حتّى اضطر الخليفة إلى ملازمة داره.

وسعى عليّ بن أبي طالب لدى عثمان في أنْ يحسم الخلاف بطريقة يقرّها المنطق، فلم يُجدِ سعيُه إذ بقي عثمان على هواه. فما زاد موقفُ الخليفة الساخطين إلّا عناداً وإصراراً. وقوي جانبهم حين انضمّ إليهم خلقٌ كثير من المدينة وغيرها. فحاصروا دار الخلافة بضراوة وشراسة، ولمّا تعاظم الخطر على مَن في الدار تخلّى عن عثمان حتّى أبناء عائلته الأُمويّون الذين كانوا السبب في ما صار إليه أمره وأمر المسلمين ، على ما سيتبيّن لنا في هذا الكتاب. وآثروا أن يهربوا خفيةً إلى الشام حيث ينتظرهم نسيبهم معاوية بن أبي سفيان عامل الخليفة عليها. فيما بقي وَلَدا علي : الحسن والحسين على رأس القوم الذين يلازمون أبواب دار الخلافة ؛ لعلّهم يمنعون عن الخليفة الأذى وسوءَ المصير.

وطال الحصار مدة أربعين يوماً ، وأخصام الخليفة يزدادون ضراوة في الحصار والاٌثار. وطال دفاع المدافعين عنه. ولكن الخليفة الشيخ كان مصيره محتوماً، إذ انتهى الحصار بأن تسلّق سورَ الدار جماعةٌ من المتآمرين ، وفتكوا به.

وبعد ذلك كانت المؤامرة الكبرى في التاريخ العربي!

المؤامرة على الإمام عليّ بن أبي طالب ، ثمّ على من سار على ضوئِه من

وُلْـده وأنـصارهم جـميعاً ، ومِـن غـير هـؤلاء كـالأُمويّ العـظيم عـمر بـن عبد العزيز ، الذي سلك في قومه وفي الناس مسلكَ العدالة والحقّ ، وشاء أن يكون الناس سواسيةً كأسنان المشط ، وأمر بوقْف الفتوح ونـهب الأرزاق ، فتآمر به قومُه الأُمويّون وقتلوه.

المؤامرة التي احتضنتْ مـؤامـرات ، وانـتهتْ بشـقّ المسـلمين شـقّين كبيرين ، وبتنكيل المتآمرين بشـيعة عـليّ ، وبـاضطهاد الطـالبيّين ونـفيْهم وتشريدهم وتقتيلهم مدّةَ تاريخٍ طويل.

وقبل أنْ نستعرض تفاصيلِ المؤامرة الكبرى على عليّ لابدّ لنا من إلقاء بعض النور على حقيقةٍ البيت الأُموي ، صاحب المبادرة في هذه المؤامـرة ، ومن مقابلة موجزة بين نفسية الأُمويين ونفسية الهاشميين في تـلك الحـقَب البعيدة ؛ ليتسنّى لنا فهم الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى هذا النـضال الدامـي الطويل بين المسلمين.

بيتـا قريـش

ـ إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مالَ الله دُوَلاً وعبادَ الله خَوَلاً! (١)

النبيّ

ـ وهؤلاء أكَلَةُ الرُّشا الذين لو وُلّوا عليكم لأظهروا فيكم الغضبَ والفخرَ والتسلُّطَ والجبروت والفساد في الأرض! (٢)

عليّ

أصاب النبيّ ساعةَ قال : «**هلاك أُمّتي على أيدي أُغَيْلِمةٍ من قريش**»(٣).

وما أروع هذه الـ«أُغَيلمة» تنطلق من لسان النبيّ لتنصبّ في دارٍ للدسائس والمؤامرات يُقيم فيها خليعٌ مثل يزيد بن معاوية!

بل ما أعظمَ النبيّ وهو يرى خصومه ـ خصومه يومَ جاهدوه دفاعاً عن رئاسةٍ ، ويومَ أسلموا طمعاً في رئاسة ـ فيَشْخَص بأنظاره إلى أطراف الأُفق، ثم يقول متألِّماً متحسّراً : «**هلاك أُمتي على أيدي أُغيلمةٍ من قريش!**».

وأصاب النبيّ كذلك ساعةَ نظر في أحوال الأُمويين في زمانه ، وقد عرفهم واحداً واحدا. وسَبَرَ أغوارهم حتّى لا يفوته من حقيقتهم خفيٌّ،

---

(١) العمدة ، لابن البطريق ص٤٧٢ الحديث رقم ٩٩٣ ، كنز العمال ج١١ ص١٦٥.

(٢) الإمامة والسياسة ج١ ص١٧٨.

(٣) المستدرك ، للحاكم النيسابوري ج٤ ص٤٧٩ ، فتح الباري ج١١ ص٤٧١ ، التاريخ الكبير ، للبخاري ج٢ ص٤٩٩ الحديث رقم ١٦٦٢.

فأوصلَه الاستنتاجُ المنطقيّ إلى إدراك ما سيكونون عليه ، في زمنٍ يأتي من الميل الشديد إلى الاستئثار والتسلّط والاستهانة بكرامة الأحياء ، وإلى تداوُل أسباب المنفعة الخاصّة فيما بينهم ، فقال في معشرٍ منهم هذا القولَ البصير : **«إذا بلغَ بنو العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مالَ الله دُوَلاً وعبادَ الله خَوَلا».**

أمّا هؤلاء القوم ، أو هؤلاء الـ«أُغيلمة القرشيون» : فاستعرض معي تاريخ قريش من ناحية النزعة والهوى ، تدركهم واحداً واحدا !

* * *

يبدأ الخلاف بين الأُمويين والهاشميين ـ ومن هؤلاء بنو طالب ـ قبل أن يبدأ بينهم النزاع على السلطة ـ مع الفارق العظيم بين النظرتين إلى مفهوم السلطة ـ وقبل أن يكون الإسلام. وهو خلافٌ يأخذ أُصولَه العميقة من الفروق البعيدة بين الجماعتين في التربية والنشأة والعمل والمفاهيم العامّة لحقيقة الأشياء ، ومن ذلك كلّه فرقٌ عظيم بين الجماعتين في المناقب والأخلاق وأساليب التصرّف والتدبير.

كان الأُمويّون والهاشميون في الجاهلية يشغلون مناصب الرئاسة سواء بسواء. غير أنّ الهاشميين كان نصيبهم أن يكونوا رؤساء دينيين على أُسلوب الجاهلية في الدين ، فيما كان الأُمويون أصحاب زعامة سياسية ، وأصحاب تجارة ورئاسة مدنية.

ويجمع المؤرّخون من عرب وأجانب : على أنّ الهاشميين لم يكونوا لينهجوا مناهجَ الكَهَنة المشعوذين ، الذين يبرزون عادةً في الديانات الوثنية القديمة ، ويتّخذون من كهاناتهم وسائلَ للتغرير بالسذّج والبسطاء ، واستغلال إيمانهم على نحوٍ يعود على هؤلاء الكهنة المرائين بالمال والنفوذ، وألوان الزعامة التي تتوخّى منفعة أصحابها وإحاطَتَهم بالعِصمة وما إليها. بل كانوا على

العكس من ذلك : أصحابَ إيمان بربّ البيت وما يحلّل أو يحرّم ، وأصحابَ عقيدة أدبية فيها من المروءَات شيءٌ كثير.

وكانوا صادقين في إيمانهم لا يخادعون فيه ولا يواربون[1]. من ذلك أن عبد المطّلب الهاشمي ـ جدّ النبي وعليّ بن أبي طالب ـ أوشك أن يذبح أحد بنيه فِدْيةً لربّ البيت الذي يؤمن به ، وتحقيقاً لوعدٍ قطَعه على نفسه إذ نذر : لَئن عاش له عشرة بنينَ لَينحرنّ أحدَهم على الكعبة إكراماً لرّبها. ولم يتحلّل من نذره هذا إلّا بعد أن هداه إيمانه ، على لسان عرّافة ، إلى أنّ ذبح ابنه لن يرضي ربّ الكعبة.

وكانوا صادقين في عقيدتهم الأدبية ، وخلاصتها : نصرةُ المظلوم ونجدةُ المستغيث ورفْعُ الحيْف عن المظلوم وذي العوَز والفاقة. من ذلك أنّهم كانوا الداعين إلى الحِلْف الشهير الذي اتّفقوا عليه مع جماعة من القرشيين ، دون الأُمويين ، وقد جاء فيه : «**ليكوننّ مع المظلوم حتى يؤدّوا إليه حقّه ، وليأخذنّ أنفسَهم بالتآسي في المعاش والتساهل في المال ؛ وليمنعنّ القويّ من ظلم الضعيف والقاطنَ من عنْف الغريب**»[2].

وقصّة هذا الحلف : أنّ رجلاً من قريش اشترى بضاعةً من رجلٍ غريب، على أن يدفع له ثمنَها بعد حين. ثم أحجم عن دفع ما عليه اتكالاً على قوّته ونسَبه وموطنه من جهة ، وعلى فقر الرجل وضآلة نسَبه وابتعاده عن دياره من جهةٍ أُخرى. فماكان من الهاشميين إلّا أن تنادَوا لنصرة الغريب المظلوم ومعاقبة القُرَشيّ المغتصب ، إنصافاً وعدلاً. وكان الحِلْف الذي أشرنا إليه.

(١) يواربون : يقال : واربه : أفسد عليه رأيه ، داهاه وخاتله وخادعه. المنجد: ٨٩٥ مادة «ورب».

(٢) شرح نهج البلاغة ج١٥ ص٢٠٤.

أمّا الأُمويون ، فلم يكن هذا الحلف من هَواهم ؛ لذلك كانوا حرباً عليه.

ولعلّ الزعامة الدينية التي توارثَها الهاشميون في الجاهلية كانت ممّا يلائم طبائعَهم وأخلاقَهم المثالية. وقد تمكّنتْ فيهم هذه الميول وهذه الطبائع تراكمت من سيرة الآباء في عقول الأبناء ، وبما عاش حيّاً في قلوب الأواخر من عقيدة الأوائل، وهم عليهم ناشئون. تمكّنتْ هذه الخلائق فيهم وتمكّنتْ... حتى بُعث محمدٌ فكان تعبيراً طبيعيّاً عن البيت الهاشميّ، كما كان من بعده عليّ بن أبي طالب.

وإنك لتذهب مع التاريخ جيلاً أو جيلين أو خمسةَ أجيالٍ بعد الإسلام ، فيهزّك ما تراه من أنّ أعقاب الأُسرة الهاشمية ـ ونحصرها ، بعد موت النبيّ ، بالطالبيّين ـ هم في جمْلتهم صوَرٌ حيّة عن آبائهم من حيث المروءة ، والشجاعة ، والصراحة ، والصدق ، والوفاء ، وبلاغة القلب واللسان. ولولا أصالة الشمائل وقوّة الشخصية الإنسانية في هذا البيت، لما تمتّع أفراده بالمثالية الرائعة ، في عصورٍ غلبتْ فيها الأثرةُ والأنانيةُ والملَقُ والانحدارُ في الأخلاق والطبائع. وسبيل الانحدار أيْسَرُ من طريق الصعود أو الثبات ، في مثل الأعصر التي ثبتَ فيها الطالبيّون.

* * *

أما بنو أُميّة ، فقد كانوا على نقيض ذلك!

كانوا ، في الجاهلية ، أصحاب تجارة ، أو رئاسة سياسية. والتجارة في الجاهلية ، أو الرئاسة السياسية ليست أكثر من عملٍ جاهدٍ في سبيل المال والنفوذ والسلطان المدني وحصْرها جميعاً في فردٍ واحدٍ أو أفراد بيتٍ واحدٍ. ولعلّك لا تجهل السبيل التي لابدّ لأصحاب هذه الأعمال من سلوكها ، وأيسرُها الظلم ، والاحتكار، والانتفاع عن طريق التلاعب والربا

والمماكسة[1] والمداورة والتحيّز والتزييف!

لقد اختار الأُمـويّون هـذه الأعـمال لأنّـها تـلائم طـبائعَهم. كـما اخـتار الهاشميون أعـمالهم تـلك التـي تـلائم خـلائقهم أيـضاً. وهـم إذا لم يكـونوا ليختاروها فقد تمرّسوا بها طويلاً ونشأوا عـلى أُصـولها ومـعانيها وأشكـالها في أخلاقٍ هي أشبه ما تكون بالمساومة على كسْبٍ وبالحيلة على نفوذ.

فها هم يقعدون عن نصرة الغريب المظلوم لأنّ في نـصرة المـظلوم مـا يخالف أسلوبَهم في الانتفاع وحيلتهم في الكسب، وفيها ما يقوم حجةً عليهم في ما يفعلون.

وها جدّهم أُميّة لا تمنعه مثاليةُ كمثالية الهاشميّين عن أنْ يتعرض للنساء تعرّضاً فيه وجوه المساومة والحيلة من حيث المعنى والمفاد. فإذا تنافَرَ عبد المطلب الهاشميّ ـ جدّ عليّ ـ وحربُ بن أُمية ـ جدّ معاوية ـ إلى نفيل بن عديّ قضى نفيل بن عديّ هذا لعبد المطلب وأكرمَه، ثم قال لحرب بن أُميّة هـذا القول الذي يوجز حقيقة الهاشميين وحقيقة الأُمويين في الجاهلية:

أبـوك مُـعاهرٌ، وأبـوه عـفٌّ وذادَ الفـيلَ عـن بـلدٍ حـرامِ

ويقصد نفيل بن عديّ خبرَ والد عبد المطلب يوم نهض وردّ فيل أبرهةَ الذي أغار به على البيت الحرام. ثم نعَتَ أُميّة ـ والد حرب وأصْل الأُمويين ـ بأنّه «معاهرٌ» لأن أخباره في التعرّض للنساء تشير إلى ما في نفسه من ميولٍ إلى الحيلة والمساومة. ومن أخباره أنّه تعرّض مـرةً لامـرأةٍ مـن بـني زهـرة تعرّضاً لا يليق، فضربوه بالسيف وأخطأوا منه المقتل. وكان لأُميّة هذا غرائب الأخبار في هذا الباب.

---

(١) المماكسة: المناقصة. مكس الشيء مكساً: نقص. وفي البيع: نقصَ الثمن. تاج العروس: ٢٤٩/٤.

وكانت دعوة النبي الهاشمي ، فكان أبو سفيان بن حرب الأُموي رأسَ أعدائه وقائد قريش ضدّه ورأس المؤامرات و«بطل» أساليب التنكيل بأنصار الدعوة الجديدة ولو كان خروج أبي سفيان بن حرب على محمد بن عبد الله مبنيّاً على أساسٍ من العقيدة الدينية ، أو من الدفاع عن تقاليد روحية وأخلاقية معيّنة، لكان له بعض العذر في ما فعل؛ لأن صاحب العقيدة له من إيمانه وصدقه عاذرٌ مهما كان شأنه ومهما كانت قيمة العقيدة التي يؤمن بها ، وقيمة التقاليد الروحة والأخلاقية التي يدفع عنها خطرَ الجديد.

ولكنَّ الأمر لم يكن كذلك في قلب أبي سفيان وعلى لسانه، بل كان الأمر في نظره يدور حول سلطانٍ موروث في بني أُميّة ، قائمٍ على أركانٍ من التجارة والتحكّم والاستئثار واستعباد الضعفاء ، ومهدّدٍ بالزوال على يد صاحب الدعوة الجديدة التي تعصف بمثل هذه الأركان الواهية التي يقوم فيها سلطان بني أُمية.

وظل أبو سفيان ، بحكم غريزة المنفعة الذاتية التي يصحّ أن نسميها الغريزة الأُموية ـ في معرض المقابلة مع الشمائل الهاشمية ـ ظلّ أبو سفيان حتّى بعد إسلامه ينظر إلى الدعوة الإسلامية نظرَتَه إلى انتقال المُلك من بني أُميّة إلى بني هاشم ، دون أن يكون في نفسه من سيرة النبيّ ومن صمود أصحابه وتضحياتهم ومن معنى الرسالة أيّ قبس من نور القيم الإنسانية. فهو عندما رأى النبي في غزوة الفتح وحوله كتائب الأنصار ، وبين يديه جيش ضخم من المؤمنين تلفّت إلى العبّاس بن عبد المطلب عمّ النبي، وكان بجانبه قائلاً له : «واللهِ يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليومَ عظيماً!..».

قال ذلك دون أن يعبُرَ بخاطره معنى واحدٌ من تلك المعاني التي أدركَها الهاشميون إدراكاً بديهياً مباشراً، وجاهدوا في سبيلها ، وماتوا.

بكلمة حقّ ، والذي لا يخفى عليه أنّ أبا سفيان لم يغضب ؛ لأنّ الخلافة لم تستقرّ في بني هاشم وهي لو استقرتْ فيهم لانتحرَ كيداً ، أو لحَاولَ مع زمرته أن يثيروا الدنيا على الهاشمين. فنظر عليٌّ إليه وقال بهدوء وثقة وإيمان :

«لا والله! لا أريد أن تملأها عليه خيلاً ورجالاً ، ولولا أنّنا رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خلّيناه وإياها»[١]. وزاده مؤنّباً : **«يا أبا سفيان! إنّ المؤمنين قومٌ نَصَحَةٌ بعضهم لبعض. وإنّ المنافقين قومٌ غَشَشَةٌ بعضهم لبعض ، متخاونون وإنْ قربتْ ديارُهم وأبدانهم!»**[٢].

بهذه الصفة وسمَ عليّ بن أبي طالب أبا سفيان وأعوانه.

لقد «كان أبو سفيان إقطاعيّاً مُترفاً ، من هؤلاء الأرستقراطيين الإقطاعيين المترَفين ، الذين يرون لأنفسهم ولطبقتهم شرفاً على الناس، فهم سادةٌ وغيرهم عبيد. وكان ينظر إلى الإسلام من هذه الزاوية على أنّه حركة نفعية ، استخدمتْ مبادئها التطوّرية سلاحاً لا يختلف بروحه عن اصطناع الوثنية في وقتها ، للنفع. فهذه المبادئ التي نادى بها محمد ،كالأصنام عنده ، إنّما تفرض على العامّة والجماهير من الناس كي يستقيموا للسادة والأشراف، ويخدموا الطبقات النبيلة لا أكثر. والفرق عنده بين الأداتين إنّما هو بنتائجها. فهذه المبادئ أفضل ، لأنّها أنفع وأنفذ وأخدم للرؤساء. فإذا لم تخدم الرؤساء ، ولم تفرض نفوذَ طبقتهم، بطلَ نفْعُها وذهبتْ فائدتها ووجب تبديلها بالنافع المفيد للنبلاء والرؤساء وطبقتهم»[٣].

وحين آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان الأُموي ، شعر أبو سفيان بأنّ بعض أمجاده العائلية قد عاد إلى الظهور وأخذ يتركّز من جديد ، فمشى به

(١) كنز العمال ج٥ ص٦٥٧، تاريخ مدينة دمشق ج٢٣ ص٤٦٥.
(٢) كنز العمال ج٥ ص٦٥٣ ، تاريخ مدينة دمشق ج٢٣ ص٤٦٥.
(٣) حليف مخزوم لصدر الدين شرف الدين ، ص ١٥٦.

الحقد الثأري المستفزّ إلى قبر حمزة ـ عمّ النبي وأبي طالب ـ فركله برجله وهو يقول : «انهض. فقد صار إلينا المُلك الذي حاربتَنا عليه»[1] في نزوةٍ جاهلية لا نعرف في النزوات أنبضَ منها بالطيش ؛ ولا أولع منها بالتشفّي».

* * *

ولمّا استخلف أوّل الراشدين وثانيهم ، لم يكن في مقدور الأُمويين أن يتظاهروا بما في نفوسهم من كيدٍ وترقّبٍ للظروف التي تتيح للخلافة أن تنقلب على أيديهم إلى مُلك. وإنّه من السذاجة الاعتقادُ بأنّ بني أُميّة كانوا من المؤمنين بمعاني الخلافة ، وبما يميّزها عن المُلك من طابع الخير.

فإنّ إسلامهم كان ما يزال رقيقاً وقد أسلموا مكرَهين، وإنّ عصبيّتهم الجاهلية كانت ما تزال تشدّهم إلى الوراء. وإنّ ظهور النبوّة في اُسرة بني هاشم كان ممّا يثير حفائظهم على منافسيهم القدماء. ولكنّ أبا بكر وعمر لم يكونا من التغافل بحيث يفسحان المجال أمام الطامعين والعابثين، فسكت الأُمويون على مضض ، ولبثوا يتحيّنون الفرص لاسترجاع المجد المفقود.

وكانت خلافة عثمان بن عفان الأُموي مرحلةً أُولى يجوزها بنو اُميّة لتحقيق مطامعهم، على غير رغبةٍ من الخليفة الشيخ. فهو ماكاد يستخلف حتى اجتمع حوله «الشمْل» وأبعدوه عن كلّ اتّصال مباشر بالشعب، ومنعوا عن الناس أن يوصلوا إليه شكاياتهم، وجعلوا بطانتَه أُمويّة خالصة وعلى رأسها مروان بن الحكم الذي كان أوّل من أثار حفيظة المسلمين على المسلمين ، وحفيظة الشعب على الخليفة ، وأوّل من جاهر ـ عمليّاً ـ بأن المُلك خير من الخلافة ، وبأنّه وقْفٌ على بني أُميّة وحقٌّ من حقوقهم. وكان ذلك بأنْ حَمَلَ

(١) حليف مخزوم ص١٦٢.

عثمان على عزْل الولاة والعمّال واستبدالهم بعمّالٍ وولاةٍ أُمويين. وبأن جَعَلَ الدولة أُمويّةً خالصةً لا مطمع بخيراتها وأموالها ومناصبها إلّا لمن كان من أُميّة أوّلاً ، ومن حزبها ثانياً.

وكان أول الغيث... بحراً !

وسيتبيّن لنا في الفصول التالية مقدار الإثم الذي كانت تنطوي عليه نفس رجل كمروان بن الحكم ، ومقدار تعلّقه بالحُكم ولو على رؤوس الضحايا يوم أشار بإصرارٍ على عامل يزيد بن معاوية في المدينة بأنْ يضرب عنقَ الحسين بن عليّ تخلُّصاً منه. ويوم وبّخه توبيخاً شديداً على أنّه لم يفعل.

لقد كان مروان بن الحكم رجلاً يبتغي الملك ونعيمه ، أُسوةً بأجداده في الجاهلية. فإنْ لم يكن الملك له ـ هو ـ فلأحد الأُمويين أعوانه وإخوانه وأبناء أُسرته. وكان أُسلوبه في إدراك المُلك ـ بمقياس الإنسان لا بمقياس التاجر ـ أُسلوباً يدلّ على نفسيةٍ غير محبّبةٍ لم يكن المُلك بقادر على تشريفها.

معاوية وخلفاؤه

ـ فاقتلْ مَن لقيته ممّن ليس هوَ على مثْل رأيك. وانهبْ أموالَ كلّ مَن أَصبتَ له مالاً ممّن لم يكن له دخلٌ في طاعتنا! [١]

معاوية

ـ كانت نفسية الأُمويين مركّبةً على الطمع في الغنى إلى حدّ البشم [٢] ، وحبّ الفتح بقصْد النهب.

كازانوفا

ـ كان «حلمُ» معاوية يتّسع حتى ليَهبَ ابن العاصِ مصرَ وأهلَها. وكان يضيقُ حتّى ليملك على مصر وأهْلِها كلّ حقٍّ لهم في الحياة فيعطيهم هديةً لرجل.

إنّ أبرز الأُمويّين لخصائص أُميّة في الإسلام إنما هو معاوية بن أبي سفيان. وأوّل ما يطالعنا من صفات معاوية إذا درسناه درساً دقيقاً أنّه لم يكن على شيءٍ من إنسانيّة الإسلام وخُلق المسلمين في ذلك العهد الطيّب من عهود الناس. فإذا اعتبرنا الإسلام ثورةً على قديمِ العرب في أكثر مذاهبهم ومنها الأَثَرةُ الخالصة ، والعملُ للمصلحة الفرديّة الخالصة ، والنظر في أحوال الجماعة على أنّها قطعانٌ يُغزى بها وتُغزى ، وعلى أنها مصدرُ قوّةٍ وثروةٍ لصاحب الوجاهة والنفوذ والمال، تأكّدَ لنا أنّ معاوية لم يكن على شيء من الإسلام ،كما سيتبيّن لنا تفصيلاً في هذا الكتاب. وإذا اعتبرنا الإسلام ـ من

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٤١.

(٢) البَشَمَ : التخمة. والبَشام : شجر طيّب الريح ، يُستاك به. الصحاح: ١٨٧٣/١٥ .

جانبٍ آخر ـ ديناً يتّجه بأوامره ونواهيه اتجاهاً مباشراً إلى الخُلق الفرديّ والمسلك الشخصي ، ويسعى في إصلاح الأفراد عن طريق ربْطهم بإرادة السماء وإنذار الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنّة، تأكّد لنا كذلك أنّ معاوية لم يكن على شيءٍ من الإسلام ، وقد شهد على نفسه بذلك. فإنّه كان يلبس الحرير ويشرب في آنيةٍ من الذهب والفضّة ، حتّى أنكرَ عليه ذلك أبو الدرداء فقال له: إني سمعتُ رسولَ الله يقول : **«إنّ الشارب فيهما لَتُجرجرُ في جوفه نارُ جهنّم»** فقال معاوية بلا مبالاة : أمّا أنا فلا أرى بذلك بأساً[1] !

فإذا نحن أدركنا تشدّد المسلمين الأوّلين في أمر دينهم ، وأخبارَهم في الاستشهاد في سبيله ، وإنكارَهم كلَّ ما ينهى عنه ، وتخوّفَهم من الإثم ساعة يأثمون ، واحترامَهم العظيم لكلِّ كلمةٍ نطق بها الرسول إنْ أمراً وإنْ نهياً ، ثمّ رأينا إلى هذه اللامبالاة يجْبَه بها معاويةُ مَن يُنكر عليه عملاً يخالف أمْرَ الرسول ويسوق صاحبَه إلى نار جهنّم تستعرُ في جوفه ، وإلى هذه المخالفة الصريحة لإرادة صاحب الشريعة بما يعكسها أو يُبْطل عملَها، أدركْنا أنّ معاوية لم يدخلْ في جماعة المسلمين بوصْفهم قوماً يدينون بعقيدةٍ روحيةٍ أخلاقية ذات أوامرَ بالمعروف ونواهٍ عن المنكر ،كما أنّه لم يدخل في جماعة المسلمين بوصفهم جنوداً في ثورة اجتماعية وسياسية تستهدف الإصلاحَ العامّ ، في مجتمعٍ كانت تسوده الفرديةُ والعصبية منذ حين. فالمهمّ في الأمر ما يراه معاوية لا ما يراه باعثُ تلك الثورة.

وأيّ شيءٍ غير رقّةِ إسلام معاوية يراه القارئ وراء هذه الكلمة العابثة التي أرسل بها إلى عليّ بن أبي طالب وهو رسولُ القِيَم الكبرى في نظر أنصاره وخصومه على السواء ، قال : أمّا بعد ، فاتّقِ اللهَ في دينك يا عليّ! إنّ في هذه

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٣٠/٥ .

الكلمة يتوجّه بها معاوية إلى عليّ ،كلّ العبث وكل الاستهانة بمدلول الكلمات وكلّ النفسيّة التي تستخدمُ قِيَماً، آمن بها المؤمنون لمصلحة رجل لم يكن على شيء من هذا الإيمان. وإنّ معاوية في الإسلام لم يكن إلّا كأبيه أبي سفيان في الجاهلية، وجيهاً يستعمل الناسَ في خدمته ، ويؤوّل أحوالَهم وعقائدَهم وكلّ ما هم فيه تأويلاً يوثِقُ ما يضع في أعناقهم من أغلال. وهو لم يُسلم إلّا مكرَهاً ولم يثبتْ على التظاهر بالإسلام إلّا مكرَهاً كذلك أو منتفعاً. ومَن أخبرُ بمعاوية ومعنى الإسلام في نفسه من معاصريه أنصاراً وخصوماً! أفلم يتّهموه جميعاً على ما سوف نراه؟ أوَلم يكن عليٌّ أعلمَ الناس به وأصدقَهم تعبيراً عن حقيقته حين بعث إليه يقول : **«فقد سلكتَ مدارجَ أسلافك بادعائك الأباطيل وإقحامك غرورَ المَيْن**[1] **والأكاذيب؟»**[2] أوَ يكون مسلماً في عهد النبي والراشدين من يدّعي الباطلَ ويكذب؟ أوَ يكون من مسلمي ذلك العهد الطيّب مَن يقول له عليٌّ ولأبناء بيته: **«وما أسلم مسلمكم إلّا كرْهاً!»**[3].

أمّا بعض مزايا الرجل الطيّبة ـ من حيث المظهر ـ كالحلم والرفق والجود وسعة الصدر ، فإنّما هي وسائل لجأ إليها يومَ دله ذكاؤه على أنّها قد تكون أنجح في تبليغه ما يريد بلوغه من ملكٍ وسلطان. وإني أُرجّح أنّ سيرة آبائه ومعاصريه الأُمويّين ، وشعور الناس بضآلة بني أُميّة وضآلة أمجادهم الحالية إزاء الدعوة الجديدة ، قد جَنَحا به عن قصدٍ وتصميم لأنْ يُلقي على الأنظار ستائرَ من الحلم والجود فلا تنفذ إلى الحقيقة إذا هي استعرضت الأُمويّين على صعيد الشمائل والكفاءات!

---

(١) المَيْن : الظنون السيّئة. مجمع البحرين: ٢٥٦/٤، مادة «مين».

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٦٥ ـ ١.

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب: ٦٤ ـ ٢.

إنّ الحلم والجود لدى معاوية لم يكونا إلّا طريقاً إلى اصطناع الناس بغية المُلك ، وما أسهلَ أنْ يصطنعَ الجود الناسَ! وطريقاً إلى ستْر التالد والطريف من سيّئات الحقيقة الأُمويّة.

فأيّ حلمٍ وأيّةُ مروءَة يجد المُطْنبون[1] في مدح معاوية الذي كانت سياسته محصورةً في منطق القاهر مع المقهور ، وفي تصرّف الوجيه القويّ مع الضعيف البائس، فهْي سياسة عنفٍ وقسوةٍ وأثرة وَضَعَ خطوطها لمن جاء بعده مِن اُميّة فاستغلّوها على أنين الملايين من البشر في أنحاء الإمبراطورية الأُمويّة.

أيّ حلمٍ وأيّةُ مروءَة يجد هؤلاء في معاوية؟ إذ سَيّرَ المجرم بسر بن أرطاة إلى المدينة ليشغب[2] على عليّ وزوّدَه بهذه الوصية : «سِر حتّى تمرّ بالمدينة فاطرد الناس وأخِف مَن مررت به ، وانهب أموال كلّ من أَصبتَ له مالاً ممّن لم يكن له دخلٌ في طاعتنا!»[3].

أيّ حلمٍ وأيّةُ مروءَة يجد هؤلاء في معاوية؟ إذ سَيّرَ سفيان بن عوف الغامدي إلى العراق للشغب على عليّ وزوّدَه بهذه الأقوال: «إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق! تُرعب قلوبَهم وتُفرح كلّ مَن له فينا هوىً منهم ، وتدعو إلينا كلّ من خاف الدوائر. فاقتلْ مَن لقيتَه ممّن ليس هو على مثْل رأيك ، وأخربْ كلّ ما مررت به من القرى ، وأحرب الأموال فإنّ حرب الأموال شبيهٌ بالقتل وهو أوجع للقلب»[4] إلى آخر هذه «النصائح» بقتل

---

(١) المُطنبون : المبالغون. مجمع البحرين: ٦٣/٣، مادة «طنب».

(٢) ليشغب : من الشغب ، وهو تهييج الشر، وشغب الجند. الصحاح: ١٥٧/١، مادة «شغب».

(٣) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٤١ ، شرح نهج البلاغة ج٢ ص٣ نقلاً عن كتاب الغارات ، الغدير ج١١ ص٢٣.

(٤) شرح نهج البلاغة ج٢ ص٨٦

الضعفاء والبائسين ممّن لا يريدون أن يحملوا بني أُمية على أعناقهم! وقد زوّد معاويةُ السفّاحَ الضحّاك بن قيس الفِهري بمثل هذه الوصايا حين أرسله في غارةٍ على بعض ولايات عليّ. ونفّذ الضحّاك هذه الوصايا كما نفّذها غيره، فنهب وقتل وأكثر من الاعتداء والافتراء.

بل أيّ حلمٍ وأيّةُ مروءَة يجدونها في هذا الرجل؟ وقد قال في الموالي، وهم مئات الأُلوف من البشر لهم عقولٌ وقلوب وأبدان: «فقد رأيتُ أنْ أقتل ـ منهم ـ شطراً، وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق!»[1] ولو لم يردّه الأحنف بن قيس عن هذه الفعلة لنفّذ ما رأى، ولَقَتَل من الخلق عشرات الأُلوف ولا ذنبَ لهم إلّا لأنّهم موالي، ولاسترقّ مئات الأُلوف واستغلّهم كما تُستَغَلّ الآلة والبهيمةُ ولا ذنبَ لهم كذلك.

كان معاوية رفيقاً حليماً كريماً، ساعة يجمعه الزمان بصاحبِ جيشٍ أو نفوذٍ يخشى خطرَه على عرشه، فإذا قسا عليه ونال منه وقال فيه قولاً كأنّه السمّ أو أنفذ، ملك نفسه واسترضى الغاضبَ وقبلَ منه ما يقول. وقد يشتدّ عليه نافذٌ بتوبيخٍ أليمٍ وهو في حاشيته وبين أعيانه، فإذا به «يرفق ويحلم» خشْيَة البأس، وقد يأمر أُمناءه إذذاك بتسجيل كلمة التوبيخ هذه قائلاً لهم: «هذه حكمة فاكتبوها!» أمّا إذا كان المرء لا جيش عنده ولا نفوذ فإنّ معاوية لا يرفق عندذاك ولا يحلم، حتّى ولو لم يتوجّه إليه بتوبيخٍ أو تأنيبٍ أو تذكير. وقد يطيب له أنْ يأمر بأنْ «يُقتَل ـ هذا المرء ـ قتلةً لم يُقْتَلْها أحدٌ في الإسلام.[2]

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه ج٣ ص٤١٣.

(٢) هذه المقولة لابن زياد حين أراد أن يقتل مسلم بن عقيل، مقاتل الطالبيين ص٦٧، الإرشاد للمفيد ج٢ ص٦٢.

وكان معاوية رفيقاً حليماً كريماً ساعة تجمعه المصلحة الخاصّة بمن ينتفع به... فيقبل منه كلّ قولٍ وكل عملٍ شريطةَ أن يسنده في تثبيت ملكه وإن جار ، وعندذاك قد يعطيه مصر وأهلها... ملكاً حلالاً لا ينازعه فيه منازع ، على نحو ما أعطاها عمرَو بن العاص.

كان حلم معاوية يتّسع حتى ليهب عمرو بن العاص مِصر وأهلها ، وكان يضيق حتى ليملك على مصر وأهلِها كلّ حقّ في الحياة ، ويعطيهم هديّة «منه» لشريكٍ له.

أمّا إذا كان هذا هو الحلم والرفق والكرَم ، فليس من سفّاح في التاريخ إلّا وهو حليمٌ رفيقٌ كريم.

والذي يمعن النظرَ في سياسة معاوية يهوله هذا المقدار من قوى الشر والاحتيال التي تألّفَ منها أُسلوبُه في أخْذ الناس وفي ما سمّاه أنصاره «بناء الدولة». فهو أُسلوب ميكيافيلي خالص لا ينقصه شيء من تفاصيل الميكيافيلية المجرمة. فالنهب والترويع والتقتيل من سياسة معاوية المدروسة. ومنها الوعد والوعيد ، وكذلك الفتك بالأبرياء والأحرار ، واصطناع الخونة والمأجورين وأهل الإجرام. ومنها استخدام الدعاية في تمثيل السماء أرضاً والأرض سماء. ومنها الاحتيال على كلّ قيمة إنسانيةٍ قصْدَ الكسْب والاستفادة. ومنها مساومة أصحاب الضمائر السود على حساب الحقّ والعدل. ومنها الاستئناس بمعونة السفّاحين الذين نذروا أنفسهم لخدمة «الأمير» وما تقوم خدمتُه إلّا بالمهارة في نهْب أموال الشعب، وكبْت حرّياته وسوْق أبنائه عبيداً مطيعين لصاحب السلطان.

وقد شهد معاوية على نفسه مراراً بأنّه لم يُنصف في سياسته ولم يعدل، ولم يقف وقفةً في حياته إلى جانب حقٍّ ظهر أو عدلٍ سطع. ومِن شهادته على

نفسه : حديثٌ له يدور على جانب من سياسته ، ثم على نظرته العامّة إلى معنى العدل في الناس وإلى قيمته. فقد حدّث المطرف بن المغيرة بن شعبة قائلاً:

كنت أدخل مع أبي على معاوية ، فكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إلي فيذكر معاويةَ وعقله ويعجب بما يرى منه. وجاء ذات ليلةٍ فأمسك عن العشاء ، ورأيته مغتمّاً ، فانتظرتُه ساعةً وظننتُ لأمرٍ حَدَثَ فينا ، فقلتُ : ما لي أراك مغتمّاً منذ الليلة؟ فقال : يا بنيّ! جئتُ من عند أكفر الناس وأَخبثهم ، قلت : وماذاك؟ قال: قلتُ له وقد خلوتُ به : إنك قد بلغتَ سنّاً يا أمير المؤمنين! فلو أظهرتَ عدلاً وبسطتَ خيراً وقد كبرتَ! ولو نظرتَ إلى إخوتك من بني هاشم فوصلتَ أرحامهم ، فواللهِ ما عندهم اليومَ شيءٌ تخافه ، وإنّ ذلك ممّا يبقى لك ذِكرُه وثوابُه! فقال : هيهات هيهات! أيّ ذكرٍ أرجو بقاءَه؟ ملَكَ أخو تيْم ـ يعني أبا بكر ـ فعدَلَ وفعلَ ما فعل فما عدا أن هلكَ حتى هلك ذكره إلّا أن يقول قائلٌ «أبو بكر» وملكَ أخو عديّ ـ يعني عمر ـ فاجتهد وشمّر عشْرَ سنين ، فما عدا أنْ هلك حتى هلك ذكرُه إلّا أن يقول قائلٌ «عُمر» وإنّ ابن أبي كبشة ليُصاح به كلّ يوم خمسَ مرّات «أشهد أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله» ، فأيّ عملٍ يبقى وأيّ ذكرٍ يدوم بعد هذا؟ لا أباً لك.(١)

كان معاوية من الذين نشأوا على كره أصحاب الرسالات السامية بحُكم مولده في بيت أبيه أبي سفيان. ثم إنّه شهد «مآثر» أبيه وهو يؤلب الجموعَ على صاحب الدعوة ويسير في طليعتهم إلى حَربه ، ويوقع بصحبه ويسعى جاهداً في أن يوقع بالرسول ذاته ؛ لتدوم له زعامتُه السياسية ومكاسبُه المادّية ، ويظلّ سيّداً على قومه ولوكلّفتْ هذه السيادةُ أن يخسر العربُ عظيماً

(١) وسائل الشيعة ، للعاملي ج١ ص٣٧ ، شرح نهج البلاغة ج٥ ص١٣٠. وفيهما وفي أغلب المصادر: ... فأي عمل يبقىٰ وأي ذكر يدوم بعد هذا ـ لا أبا لك ـ؟ لا والله إلّا دفناً دفناً.

كمحمد ، وعظماء كصحبه الثائرين على القديم، وديمقراطيةً كروح الرسالة. وهو في ذلك سرّ أبيه الأول : أُميّة بن عبد شمس.

ولم يكن تأثير والد معاوية في تربيته وتنشئته على هذه الروح التاجرة ، وعلى الدفاع عن مجدٍ غابرٍ ومكسبٍ طريف بأكثرَ من تأثير أُمّه هند آكلة الأكباد. ومَن تكون هند هذه؟

لعلّ تاريخ المرأة العربية لم يحفل بصور الأنانية والأثرة والشراسة والخلق العربية وسائر ما يحفل به تاريخ هند بنت عُتبة زوجة أبي سفيان! فقد كانت هذه المرأة من القساوة بحيثُ يعزّ على أشدّ الرجال أن يكونوا أكثر ضراوةً وبربريةً ووحشية منها.

فحين جعلت قريش تبكي قتلاها وكانوا المعتدين على المسلمين ناحت نساؤها شهراً كاملاً على هؤلاء القتلى. ثم مشينَ إلى هند زوجة أبي سفيان يقلن لها : ألا تبكين مثلَنا على قتْلانا وفيهم أهلُ بيتك؟ فقالت بعنادٍ وقساوة لا تعرفهما المرأة : أبكيهم فيبلغ ذلك محمّداً وأصحابَه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء بني الخزرج! لا واللهِ حتى أثأر من محمّد وأصحابه! والدهنُ عليَّ حرام حتّى نغزو محمداً ثم راحت تحرّض الناس على محمّد وأصحابه حتّى كانت موقعة أُحد الشهيرة.

أَرأَيتَ كيف أنّ روحاً خشنة تطغى على كيانها؟ فإذا هي لا تحسّ حاجة إلى أنْ تبكي ذويها ؛ أُسوةً بسائر النسوة وتلبيةً لنداء القلب الأنثويّ ، بل تنظر إلى الأُمور بعقليّة مَن ترى الدنيا منازَعةً على بأس ، ومغالبَةً على نفوذ ، ومجاهدةً من أجْل رفعِ لواء.

وحين كان التهيّؤ لموقعة أُحد هذه أبتْ هند بنت عتبة إلّا أن تسير على رأس فرقةٍ نسائيّة لتحريض الرجال على قتل محمّد وصحْبه وتروي ظمأها

لرؤية الدماء تسيل والرجال تُصرَع. وصاحب في وجه مَن يعترض خروج النساء إلى تلك الموقعة، تقول : «نعم ، نخرج فنشهد القتال!»[١].

وكان لأُمّ معاوية ما أرادت ، فخرجتْ مع قريش على رأس نسائها، وهي على أشد ما يكون عليه الإنسانُ طلباً للثأر وتحريضاً على الانتقام. ولمّا كانت الموقعة الكبرى جعل نساء قريش يمشين خلالَ صفوفها يضربْن بالدفوف والطبول وعلى رأسهنّ هند بنت عتبة ، وهنّ ينشدن :

وَيْـــهاً[٢] بـــني عــبد الدارْ   وَيْـــهـــاً حُـماةَ الأدْبـــارْ
ضرْباً بكلّ بتّار[٣]

وينشدْنَ أيضاً :

إنْ تُـــــقبِلوا نُـــعانـــقْ   ونـــــفرشُ النـــمــارقْ
إن تُـــدبروا نُـــفــارقْ   فِــراقَ غــيرِ وامـــقْ[٤]

وكانت هند قد وعدتْ وَحْشيّاً الحبشيّ شيئاً كثيراً إنْ هو قتل من المسلمين ، ولا سيّما حمزة بن عبد المطّلب عمّ النبيّ ، وكان نُبْلُه عظيماً وكان حقْدُها عليه يتأجّج. ونكّلتْ قريش بالمسلمين في هذه الموقعة، وكادت تطير فرحاً بانتصارها. وكان من قتلاها حمزة، قَتَلَه وحشيّ الحبشي بتحريض من هند،كما قرأنا. وصاح أبو سفيان: «يومُ بيومِ بدر والموعد العام المقبل»[٥]. أمّا زوجته هند فلم يكفِها هذا النصر ولم يكفِها قتلُ حمزةبن عبد المطلب، بل جمعتْ حولَها النسوةَ القرشيات اللواتي كنّ معها ، وانطلقتْ بهنّ تمثّل

(١) شرح نهج البلاغة ج١٤ ص٢١٦.

(٢) ويهاً : إذا أغراه بالشيء يُقال : ويهاً يا فلان ، وهو تحريض كما يقال : دونك يا فلان. لسان العرب: ١٣ /٥٦٣، مادة «ويه».

(٣) البداية والنهاية ج٤ ص١٨.

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي ج٦ ص١٠٩ ، شرح نهج البلاغة ج١٤ ص٢٣٥ ، تاريخ الطبري ج١ ص ٦١٠.

(٥) تاريخ الطبري ج٢ ص٢٠٦ ، البداية والنهاية ج٤ ص٢٨.

بالقتلى، على صورةٍ يعفّ عنها برابرةُ الرجال فكيف بله النساء. راحت تجدع الآذانَ والأُنوف وتجعل لنفسها منها قلائدَ وأقراطاً. ثمّ إنّها بقرتْ بطنَ حمزة وجذبت بين يديها كبدَه بعنفٍ وحماقة وجعلتْ تلوكها بأسنانها، تريد أن تأكلها فلا تستطيع مضْغَها وإساغتَها. وقد بلغ من شناعة ما فعلتْ من الفظائع أنْ تبرّأَ من أعمالها حتى زوجها أبو سفيان، فقال يخاطب أحد المسلمين: «إنّه قد كان في قتلاكم مَثْلٌ، واللهِ ما رضيتُ وما سخطتُ وما نهيتُ وما أمرتُ!»(١).

ولقّبتْ هند هذه بآكلة الأكباد!

ولمّا أسلم أبو سفيان بن حرب مكرَهاً عند فتْح مكة، كانت هند بنت عتبة تصيح في القوم بعد إسلام زوجها: «اقتلوا الخبيثَ الدّنس الذي لا خير فيه. قُبِّح من طليعةِ قوم. هلّا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم؟» قالت ذلك وهي لا تزنُ بميزانٍ ما لقيتْ هي وزوجها وابنها وبيتها من رحمة محمد بن عبد الله ومن عفوه وسماحه!

على أيدي أبي سفيان هذا وزوجته هند بنت عتبة هذه كانت نشأة معاوية، بالإضافة إلى ما في نفسه من خواصّ قومه وآبائه الأوّلين، وأقلّها حبّ الرئاسة والتوصّل إليها عن طريق السياسة المموّهة بالطلاء والخداع والمواربة والاصطناع والتشريد وما إليها جميعاً. إنّه ربيب القوم الذين يصفهم الإمام عليّ بأنهم: **«أكَلَةُ الرُّشا، المشترون الغادرَ الفاسقَ بأموال الناس؛ الذين لو وُلّوا على الناس لأظهروا فيهم الغضب والفخر والتسلّط والجبروت والفساد في الأرض!»**(٢).

---

(١) فتح الباري ج٧ ص٢٧٢ نقلاً عن سيرة ابن إسحاق.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص١٧٨.

ولمّا كانت ولايته على الشام في عهد عمر بن الخطّاب جعل يعمل بهذه العصبية الجاهلية في الخفاء وتحت ستار كثيف من الدهاء والتملّق.

وبدأ الستار ينكشف عن خداع معاوية في عهد نسيبه عثمان بن عفّان، إذْ جعل يركّز ولايتَه على أساسٍ من العمل لنفسه ووُلْده دون الخلافة ودون الإسلام. وأحاط الرجل نفسه بالقوّة والثروة. واصطنع الرجالَ على حساب بيت المال وهو للمسلمين لا لأُميّة. ولبث يترقّب الفرصةَ ويستعدّ للبقاء الطويل في دولة تكون له وللأُمويين من بعده ولا سيّما بنيه. لبث يترقّب الفرصة لتحقيق ما أدرك أبوه بالرسالة يوم قال للعباس عمّ النبيّ : «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً»[1]. لتحقيق هذا الإدراك فيه وفي بنيه، لا في ابن أخي العباس الذي لم يسلك إلى الملك طريقاً.

وسنحتْ[2] هذه الفرصة بمقتل عثمان الذي سنرى أنّ لمعاوية نفسه يداً في مقتله ،كما كان لنسيبه الأُمويّ مروان بن الحكم.

وهنا تبدأ فصولٌ من نبوغ معاوية في الخداع والمواربة. وهنا يبدأ الصراع بين المثالية والاستقامة وصفات الفروسية التي يمثّلها عليّ بن أبي طالب ، وبين النزعة إلى السلطان والسياسة الميكيافيلية والاصطناع والمماكسة ، وسائر الصفات التي يمثلها معاوية وقومه ، وُرَثاء الخصائص الأُمويّة!

ففيما كان شعار عليّ بن أبي طالب هذا القول : «**لا أُداهن في ديني ولا أُعطي الدنية في أمري**»[3] أو هذا القول : «**أحببْ لغيرك ما تحبّ لنفسك ، واكره له ما تكرهْ لها ، ولا تظلم كما لا تحبّ أن تُظلم ، ولا يكوننّ أخوك على الإساءَة أقوى منك على**

(١) تاريخ الطبري: ٣٣٢/٢، شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٧٥/١٥.

(٢) سنحت : عرضت. المنجد: ٣٥٤، مادة «سنح».

(٣) تاريخ الطبري: ٣ /٤٦١ مع اختلاف يسير.

الإحسان»[١]. كان شعار معاوية : «إنّ لله جنوداً من العسل»[٢]. وهو يعني العسل الذي يُداف بالسمّ فيقضي على أخصامه أيّاً كانوا ؛ ليخلّوا أمامه طريق الحكم. وأخصام معاوية هم كل أُولئك الذين يعترضون طريقه من أهل الخلق العظيم!

بهذا «العسل» قتل معاوية الحسن بن عليّ. وبالأموال العامّة اشترى الناس واصطنع الأنصار والمحاربين. وكان يقول للناس يوم خفّ إلى مكة يقنعهم ببيعة ابنه يزيد ومعه الجنْد وحقائب الأموال : «وأردتُ أن تقدموا يزيد باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمّرون وتجبون المال وتقسّمونه!»[٣].

وهو إذ تأفف[٤] الناس من يزيد وأبوا أن يبايعوه ، قال لهم متوعّداً : «أعذر من أنذر. إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذّبني على رؤوس الناس. فأُقسم بالله لئن ردّ عليّ أحدُكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع إليه كلمةٌ غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقينّ رجلٌ إلّا على نفسه!».[٥]

وهو إذا عوتب في تبذير مال الشعب الذي كان عليّ بن أبي طالب يحميه للشعب وحده، أجاب بهذا القول الأُموي : «الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما آخذ من الله فهو لي ، وما تركتُه منه كان جائزاً لي!»[٦]. أمّا إذا تحرّكت الضمائر والألسن في الناس تطلب منه أن يدَع الناس أحراراً في ما يرون ، فإنّه يجيب

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ ـ ٥٥ و١٠٥.
(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٥٦ /٣٩١.
(٣) العقد الفريد: ٢ /٣٠٢.
(٤) تأفّف : ضجر ، وتململ . القاموس المحيط: ١١٧/٣، مادة «أف».
(٥) المصدر السابق.
(٦) النصائح الكافية ، لابن عقيل: ١٣١.

بمثل هذا القول : «نَدَعُ الناسَ ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا!»(١).

وعلى مثل هذا الجوّ من الطغيان الفرديّ يعلّق محمد الغزالي صاحب «الإسلام والاستبداد السياسي» بقوله : «إنّ طغيان الفرد في أُمّةٍ ما جريمةٌ غليظة ، وإن الحاكم لا يستمدّ بقاءه المشروع ، ولا يستحق ذرّةً من التأييد ، إلّا إذا كان معبّراً عن روح الجماعة ومستقيماً مع أهدافها»(٢). ثم يقول في مكان آخر : «إنّ الاستبداد الأعمى عدوّ الله ، وعدوّ رسله ، وعدوّ الشعوب». وقد ظهر أنّ تفكير المستبدّين واحد على اختلاف العصور ، وأنّهم لا يتركون غرورَهم مهما تلطّف المصلحون معهم.

بمثل هذه السياسة الميكيافيلية اغتصب معاوية السلطة وحوّل الخلافة إلى ملك والشورى إلى وراثة في بنيه. وهو في ذلك كلّه تعبيرٌ صميم عن النفسية الأُمويّة في الجاهلية والإسلام.

فإنّ عليّ بن أبي طالب ما كاد يُصرَع بيد ابن ملجم حتّى راح معاوية بن أبي سفيان يعدّ المهالك لكلّ من لا ينادي به خليفةَ ربّ العالمين. وأعلنَ أنّه لن يدَع الناس في حالٍ من أحوالهم إلّا إذا كانوا له عبيداً ، قائلاً : «ندَع الناسَ ما لم يحولوا بيننا وبين مُلْكنا». أعلن أنّ المُلك له ، ثمّ لبني أُميّة من بعده ، وأنّ الناس ليسوا أحراراً إلّا في التخلّي عن حرّياتهم وحقوقهم في سبيل بني أُميّة وسلطانهم. وراح يأخذ الناسَ بالتهمة والشبهة والظنّة على غير ما عرف الناسُ في السابقين. وأمعن في تقتيل الصحابة والتابعين وغيرهم ممّن يمثّل الرأي العامّ ويسلك مسلكاً صحيحاً صريحاً.

ثمّ إنّه ما استوثق له الأمر حتى جعل يسجّل الناسَ وما يملكون وراثةً

(١) تاريخ مدينة دمشق ج٦٨ ص١٣٥.

(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص٢٤٩.

لابنه الخليع يزيد. وهو من أجل هذا «التسجيل» كان يلبس ويخلع من الأردية والأغطية ما يوافق مصلحة هذا الابن. وإليك صورةً من ألف صورة ممّا لجأ إليه معاوية لأخذ البيعة ليزيد رغمَ الأُنوف. وهي كافيةٌ لأن تدلّك على الأُسُس التي قامت عليها خلافة يزيد ومعظم مَن سيليه مِن الأُمويّين :

عقد معاوية اجتماعاً لوفود الأمصار كي يقسرهم على مبايعة يزيد في حياته فيطمئنّ إلى مصير المُلك. وفيما القوم مجتمعون وبينهم معاوية وابنه وقف أحد المتزلّفين المنافقين واسمُه يزيد بن المقفّع ، فقال :

أمير المؤمنين هذا! وأشار إلى معاوية.

ثم قال: فإنْ هلك فهذا ! وأشار إلى يزيد.

ثم قال: فمَن أبى فهذا ! وأشار إلى سيفه.

فقال له معاوية: اجلسْ فإنّك سيّد الخطباء![1]

ثم كانت لمعاوية في أهل الحجاز ـ وقد أبوا مبايعة يزيد بالرغم من الجند والمال ـ أخبارٌ عِجاب! فقد هدّدهم يقول: «فأُقسم بالله لئن رَدّ عليّ أحدُكم كلمةً في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمةٌ غيرها، حتّى يسبقها السيف إلى رأسه. فلا يبقينّ رجلٌ إلّا على نفسه!» وأقام رجلين على رأس كلٍّ من أهل الحجاز وأمَرَ صاحبَ شرطته قائلاً: «إنْ ذهب رجلٌ منهم يردّ كلمة بتصديقٍ أو تكذيب فليضرباه بسيفهما!»[2].

وراح الأُمويون إذذاك ينزعون عن مدى تصوّرهم الجاهلي الأُوتوقراطي لأنفسهم وللناس ، فإذا هم يضربون بالسيف الأعناق التي تأبى بيعة يزيد ، وينقشون على أكفّ المبايعين علامةَ الاستبداد والاسترقاق.

---

(١) العقد الفريد ج٢ ص٣٠٢، الكامل لابن الأثير ج٣ ص٢١٤، البيان والتبيين للجاحظ ج١ ص٣٠٠.

(٢) البداية والنهاية ج٨ ص٨٦، النصائح الكافية، لابن عقيل ص٧١.

وكان خلفاء معاوية من أُميّة أكثرَ الخلق ضلالاً به وأَسْيَرَهم على نهجه. منهم مَن أضاف إلى سيّئاته سيّئات دون أنْ يُصيبهم أيسرُ نصيبٍ من حظّ معاوية في الظاهر من الحسنات. لذلك قاسى الناس في أيّامهم الصعاب وحُملوا قسْراً على أن يتركوا أرزاقَهم وأعناقَهم للأُمويين وعمّالِهم وكانوا عمّالاً فَجَرَةً خالصين. وقد ساموا[1] سكّانَ البلاد التي احتلّوها أو وُلّوا عليها كلّ خسْفٍ وكلّ عذاب وأذاقوا غيرَ العرب من الشعوب التي أسلمتْ كلّ هوانٍ وكلّ مذلّةٍ واستعبدوهم أشدّ استعباد. وحطّوا من شأن أهل الذمّة على غير ما يوصي به الإسلام، وكان يوصي بهم خيراً وبسائر الخلق. وقتلوا من العرب كلّ مَن لا يريد أن يُطعمهم لحمَه ويُشربَهم دمَه راضياً مختاراً. وسلّطوا على جميع الناس مَن ينوّع عليهم الضرائبَ ويزيدها ، ثمّ يحصّلها بأشدّ ألوان العنف وأبشع صوَر القسوة. ولذلك كلّه كان سعيد بن العاص أحدَ عمّالهم على العراق يقول: «ما السواد إلّا بستان قريش ، ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه»[2]. ولذلك قال عمرو بن العاص لصاحب «أخَنا» عندما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية: «إنّما أنتم خزانةٌ لنا ! »[3].

لقد كان همّ الخلفاء الأُمويين أن ينهبوا بيوتَ المال نهباً ، وأن يوسّعوا لحاشيتهم في كلّ ملك وكلّ إثراء. وراح عمّالهم على الأمصار يختلسون كلّ ما تقع عليه أيديهم من مالٍ ومتاع ، بالإضافة إلى ما كانوا يتقاضونه من المرتبات الضخمة لقاء مساندةالملوك الأُمويين في ما يريدون. مثال ذلك: أنّ أحد عمّال هشام بن عبد الملك على العراق ، واسمه خالد بن عبد الله القسري ، كان

---

(١) ساموا: أولوه إياهم ، وأرادوه لهم. المنجد: ٣٦٥، مادة «سام».

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٧١، تاريخ ابن خلدون ق٢ ج٢ ص١٤٠.

(٣) معجم البلدان للحموي ج١ ص١٢٤، تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/٧٩ ـ ٨٠.

يتناول من بيت المال مرتباً سنوياً قدره مليون درهم ، ويختلس من أموال الناس مائة مليون!

وعلى أيدي بني أُميّة انهارت قواعد العدل العلويّ والعدل الإسلامي ، وخُلقتْ في المجتمع الطبقيّةُ، فأثرى قومٌ وجاع آخرون. واستبدّتْ فئة وظُلمتْ فئات! ففيما كان في الناس مَن لا يأكل الرغيف كان أحد ملوك بني أُميّة يهب ـ من مال الجماعة ـ اثني عشر ألف دينار لمعبد ، لأنّ تَنَغّمَ معبدٍ يرضيه. وفيما كان الناس يطمحون لأن يعيشوا أحراراً كان من العبيد والأرقّاء قُبيل خلافة سليمان بن عبد الملك عشرات الأُلوف، يدلّك على ذلك أنّه أعتق وحده سبعين ألف مملوك ومملوكة.

وفي عهد بني أُميّة هذا شمخت العنصرية العائلية والقبلية والقومية على نحوٍ لا يريده الإسلام، ولم يوصِ به الإمام. فإذا القيسيّ غير اليمنيّ في الحقوق، وإذا العربيّ غير الأعجمي. وفي عهد بني أُميّة كثرَ المترهّلون[1] المقرّبون الذين يأكلون ولا يعملون ، أو الذين يُنعم عليهم البيتُ المالك بالوظائف الاسمية ، فيُفرغ في جيوبهم أموالَ العامّة ويُثيبهم على غير جهد ، كما هي الحال في بعض البلدان العربية اليوم، حتّى ليخبرنا التاريخ أنّ الوليد بن عبد الملك ألغى من أهل الديوان بشراً كثيراً بلغ عددهم عشرين ألفاً. أضف إلى ذلك جميعاً طريقةَ الأُمويين عامّة ـ باستثناء عمر بن عبد العزيز ـ في أخْذ البلاد بالقسوة والعنف على ما تقدّم. فعبد الملك بن مروان، ـ مثلاً ـ حكم الدولة حكماً أُوتوقراطياً هانت به الأرواح. «أمرَ بردم العيون والآبار في البحرين ليُفقر أهلَها فيلينوا للحكّام[2]». وجعل على الحجاز والعراق ذلك السفّاح الحقير

(١) المترهّلون: المسترخون ، يُقال: رهل لحمه ، اضطرب واسترخىٰ. الصحاح: ١٧١٤/٤، مادة «رهل».

(٢) راجع ملوك العرب لأمين الريحاني الجزء الثاني ص٢٠٦ ، وكتاب النكبات للريحاني أيضاً ٦٤.

الذي اسمُه الحجّاج بن يوسف.

ومن الطرائف التي تدلّ على أُسلوب عددٍ من ملوك بني أُميّة في النظر إلى قيمة «الرعايا» وفي الاستهتار بمعنى الخلافة ومعنى الشعب على السواء، ما ذكره المؤرّخون من أنّ يزيد بن عبد الملك بن مروان سكرَ يوماً سكراً شديداً وعنده حبابة إحدى جواريه فلمّا طرب قال: دعوني أطير! فقالت حبابة: على مَن تدع هذه الأُمة؟ قال: عليكِ!

يقول أمين الريحاني، والحديث عن بني أُميّة: «أمّا العدل في الرعـيّة، العدل الذي هو أساس الملك، فهو ينعكس من الجالس عـلى العـرش. وقـد عرفت أرباب العروش ـ الأُموية ـ وفيهم العاجز والسفيه والخـليع والسكّـير والظالم»[١] ولا نغفل ـ أخيراً ـ عن أُسلوب بني أُميّة المستهجن[٢] في شتم عليّ ابن أبي طالب وبنيه على منابر الأمصار.

أمّا الخليفة الأُمويّ العظيم عمر بن عبد العزيز الذي شرّفتْ سيرتُه المُلكَ في تاريخ الشرق، وزادت في شرف الإنسان نفسِه، والذي بدأ سلطتَه بـرفْع المظالم عن الناس كلّ النـاس، وأعـاد لكـلّ ذي حـقٍّ حـقّه، وعـزل الولاة الجائرين وأبدل بهم وُلاةً عادلين، وشدّد عليهم في أخْذ الخلق أخْذاً ليّناً عادلاً رفيقاً، وساوى بين العرب الأعـاجم والمسـلمين وغـير المسـلمين مسـاواةً حقيقيّة لا شكّ فيها، وأمَرَ بوقْف الفتوحات مـحافظةً عـلى حـرّيات النـاس وحقوقهم وحياتهم، وأسقط كلّ ضريبةٍ عن الناس إلّا تـلك التـي يـقدّمونها للدولة عن رضىً واختيار، ورفَع شتْمَ عليّ بن أبي طالب، وعظّمَ شأنَه وسعى في أنْ يسـلك فـي النـاس مسـلكَه الجـليل، وجـرّد الأُمـراء والوجـهاء مـن

(١) النكبات ص ٧٠. تاج العروس: ٩/٣٦٦.

(٢) المستهجن: المستقبح أو الأُسلوب القبيح.

المنهوبات ، وأمرَهم بأن يعملوا فيأكلوا. أمّا هذا الرجل العظيم الحقّ فقد تآمر به قومُه الأُمويّون وأنصارهم فقتلوه فلم يدمْ حكمُه إلّا قليلاً. وكانوا من قبلُ قد قتلوا معاوية الثاني ابن يزيد لأنّه صارحَهم بمظالمهم ، وأنكر عليهم استهتارَهم بالحقوق العامّة وخَطّأَ جدّه وأباه ، ورغب في العافية.

ولَسوف يأتي كلامٌ كثيرٌ في حينه على حقيقة بني أُميّة، وفي معنى الولاية كما تصوّروا وفعلوا. وإنّه لمن المستغرَب حقّاً أنْ يتصدّى بعضُ الكتّاب المعاصرين للدفاع عن هذه الطغمة من ملوك بني أُميّة وعمّالهم وأنصارهم، بأقوالٍ لا تدفع شيئاً ولا تدافع عن شيء ولا تُقنع حتى مَن يقولها. وما هي إلّا العصبيّة لكلّ قديم لنا تلك التي تدفع أمثالَ هؤلاء الكتّاب لمثل هذا الدفاع المستهجَن الفاشل[١]. فَلم يكن معاصرو بني أُميّة وشاهدو حُكمهم أعلمَ وأصدق حين قالوا فيهم ، بأيّامهم ذاتها ، قولاً ينقض مثل هذا الدفاع ويدين بني أُميّة إدانةً صريحة.

بماذا يجيب هؤلاء المتطوّعون للدفاع عن النفسية الأُمويّة ، والذهنيّة الأُمويّة ، والأساليب الأُمويّة في الحكم ، ساعةَ يستمعون إلى الرواية التالية؟

التقى يوماً عبيدة بن هلال اليشكري وأبو حرابة التميمي ، فقال عبيدة: يا أبا حرابة! إنّي أسألك عن أشياء أفتصدقني عنها في الجواب؟ قال: نعم! قال عبيدة: ما تقولون في أئمّتكم الأُمويين؟ قال أبو حرابة: يُبيحون الدم الحرام! قال: فكيف فعْلُهم في المال؟ قال: يجبونه من غير حِلّه ويُنفقونه في غير

(١) إذا شئت دليلاً على ذلك فارجع إلى التعليقات الكثيرة، التي وضعها الكاتب المصري الدكتور حسين مؤنس، في حواشي الصفحات التي يتحدث بها جرجي زيدان في الجزء الثاني من كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي» عن مظالم بني أميّة وعن حقيقة حكمهم. فهي تعليقات لا تستند إلّا على عاطفة مع بني أُميّة ، لا تزيد عن ذلك شيئاً.

وجهه! قال عبيدة: فكيف فعْلُهم في اليتيم؟ قال أبـو حـرابـة: يـظلمونه مـالَه ويمنعونه حقّه وينكحون أُمّه! قال: ويحك يا أبا حرابة! أمثْلُ هـؤلاء يُـتبع؟ قال: قد أجبتُك فاسمعْ ودعْ عتابي![(١)]

وفي قول أبي حرابة هذا «دع عتابي» تصريحٌ ضمنيٌّ بأنّ المرء لا يجرؤ في حكم بني أُميّة وعمّالهم أن يرى رأيه ويقول قولَه.

بماذا يجيب هؤلاء المتطوّعون للدفاع عن بني أُميّة ساعةَ يـقفون عـلى آراء أهل المدينة في حكّامهم الأُمـويّين بـعد أن طـردهم مـنها أبـو حـمزة الخارجي، وأقبل يسأل الناس عمّا أصابهم على أيدي خلفاء الشام ووُلاتهم فيعترفون بأنّ الأُمويين كانوا يقتلون الآدميّين بالظنّ والشّبهة، ويستحلّون كلّ ما حرّمَه الإسلامُ والعقلُ والضميرُ والنفسُ الكريمة؟ وممّا جاء في خطبة أبي حمزة هذه الأقوال:

«ألا ترون إلى خلافة الله وإمامة المسلمين كيف أُضيعتْ حتّى تداوَلَها بنو مروان، فأكلوا مالَ الله أكلاً وتلعّبوا بدين الله لعباً واتّخذوا عـبادَ الله عـبيداً، يورث الأكبرُ منهم ذلك الأصغرَ؟ لقد ملكوا الأمر وتسلّطوا فيه تسلّطَ ربوبيّةٍ، بطشُهم بطشُ الجبابرة يحكمون بالهوى ويقتلون عـلى الغـضب ويأخـذون بالظنّ، ويعطّلون الحـدود بـالشفاعات ويـؤمّنون الخـونَةَ، ويـعصون ذوي الأمانة ويتناولون الصّدَقَةَ من غير فرْضها ويضعونها غيرَ موضعها!»[(٢)].

بماذا يجيب هؤلاء ساعةَ يسمعون الشاعرَ البحتريّ وهو يعبّر عن آراء الناس في حكومة الأُمويين وهم على عهدٍ قريبٍ منهم إذ يقول:

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٤ ص١٦٩.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٥ ص١١٧.

إنّــا نكــفّر مـن أُمـيّةَ عـصبةً طلبوا الخلافةَ فجرةً وفسوقا[(١)]

والذي ثبت للمتقدّمين من أخبار الأُمويين وأُسلوبهم الفظّ في الحكـم، وغايتهم منه ثبت للمتأخرين. وما وثق به المؤرّخون العـرب مـن حـدوث المظالم المريعة على أيدي الأُمويين، وثقَ به المؤرّخون الأجانب. وهـذا مـا يعترف به المدافعون عن بني أُميّة من الكتّاب المعاصرين فـي مـصر وغـير مصر. مثال ذلك ما يرويه أحدُهم[(٢)] بمعرض «الدفاع» عن أُميّة إذ يـقول: إنّ معظم المؤرّخين في الشرق والغرب يحملون على بني أُميّة حملاتٍ عنيفة ما عدا يوليوس فلها وزن، فله اتّجاهٌ خاصّ معتدل بعض الشيء. ويلاحظ القارئ أنّ هذا المستشرق الفرد الذي لا يرى رأيَ زملائه في بـني أُمـيّة ، إنّـما هـو «معتدلٌ بعضَ الشيء» لا كلّه! وفي هذا القول اعترافٌ من الكاتب المـصريّ نفسه بأنّ المستشرق الفرد لم يجد من الأدلّة ما يمهّد أمامَه طريقَ الدفاع عن الأُمويين ؛ ليكون معتدلاً كلَّ الشيء لا بعضَه. غيرَ أنّا ندلّ الكاتب المـصري المذكور على مستشرقٍ آخر نسيَه ولو فطن له لأدرك أنّ في الأوروبيين مَن دافع عن الأُمويين كلّ الدفاع لا بعضَه ، ونريد به المستشرق الفرنسي لا مانس الذي استخدم علمَه الغزير في مآرب خاصّة له.

أمّا العدد الأكبر من المستشرقين فقد صوّروا من الحقيقة الأُموية مـا لا يرضي المدافعين عن ابـن أبـي سـفيان ووُلْـد مـروان. وفـي طـليعة هـؤلاء المستشرق الفرنسي كازانوفا الذي يقول: «كانت نفسيّة الأُمويين على الإطلاق

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٥ ص٧٤، راجع ديوان البحتري ص١٤٥ من قصيدة أولها: أأفاق صبٌ من هوىً فأفيقا.

(٢) راجع تعليقات الدكتور حسين مؤنس على أبحاث جرجي زيدان في كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي» الجزء الثاني ص٢٣.

مركّبة على الطمع في الغنى إلى حدّ البشَم[١] ، وحبِّ الفتح بقصْد النهب ، والحرْصِ على التسوّد لتمتّع بملذّات الدنيا!».

وعلى كلّ حالٍ فإنّ المؤرّخين العرب والأجانب لم يصفوا النفسيّةَ الأُموية أكثر ممّا وصفَها ـ بعفويّةٍ خالصة ـ الخليفةُ الأُمويّ الوليد بن يزيد ببعض شعره. ففي هذا الشعر ما يُفصح عن الروح التي مارَس بها الأُمويّون الزعامَة في الجاهلية والمُلك في الإسلام ، وعن الذهنيّة التي عالجوا بها في العهدين أحوال الناس. ومنه هذه الأبيات:

فدعْ عنك ادّكارك آلَ سعدي   فنحن الأكثرون حصىً ومالا
ونحن المالكون الناسَ قسْراً   نسومُهُم المذلّةَ والنِّكالا
ونوردُهم حياضَ الخسْفِ ذُلّاً   وما نألوهُمُ إلّا خبالا[٢][٣]

فإذا ردّ هؤلاء الكتّابُ المدافعون عن أُميّةَ ما قاله المؤرّخون في النفسية الأُمويّة والذهنيّة الأُموية ، وما قاله العربُ والفرنجة ، والقدامى والمحدّثون ، والخاصّةُ والعامّة ؛ فهل يردّون على الوليد بن يزيد شعرَه هذا؟!

(١) البشم: التخمة. الصحاح: ١٨٧٣/٥ مادة «شم».
(٢) الخبال: الفساد. النهاية في غرب الحديث: ٩/٢، مادة «خبل».
(٣) الأخبار الطوال ص٣٤٨، الخبال: الفساد .

كآبة الخيّرين

ـ إنّ جملةَ الحوادثِ التي عاشَها الحسينُ تقطعُ بأنّه في مقياس الأخلاق سماءٌ أيّ سماء! وإنّ جملةَ الحوادثِ التي عاشَها يزيدُ تقطع بأنّه في مقياس الأخلاق أرضٌ تحت أرض! وحسْبُكَ مأساةُ كربلاء دليلاً ذا ألسنةٍ تقولُ، وأيْدٍ تُشير!

ـ وأمّا يزيد فقد كان سِكّيراً خِمّيراً يلبسُ الحريرَ ويضرب بالطنابير.

ومن الأفراد الذين تتمثّل فيهم خصائص البيتين كأظهر ما يكون: الحسين بن عليّ ويزيد بن معاوية. وإذا كانت خصائص الفرد تعبيراً صادقاً عن محيطه الذي نشأ فيه، ففي هذه الصورةالعاجلة التي سنرسمها لكلٍّ من الحسين ويزيد إبرازٌ لخصائص المحيطين.

ولد الحسين من فاطمة بنت الرسول وعليّ بن أبي طالب، فأخذه جدّه وكبّر في أُذنيه ليسكبَ في روحِه روحَه، ويجعل منه معنى من معاني وجوده، ويعلّمه أنّ لحياته ـ منذُ وُلد ـ مبدأً ولسيرته قاعدةً، وكلاهما من روح الرِّسالة. ثم ليصل كيانَه بكيانه فيرتفع به فوق الضراوة والإساءَة؛ ويبلغ به آفاقاً واسعة من الخير الكثير والإنسانية المهذّبة والخلق الكريم. لقد اختلجت الحياة اختلاجةً نابعةً من الصفاء المطلق في قلب النبيّ، ساعةَ أخذ حفيدَه فهمس في أُذنه بهذه الاختلاجة همساً سيحيا في أعماقه وفي دمه،

صوتاً صريحاً يوجّه ضميره ويسوق خطاه إلى العمل الصالح ، فلا تقوى عليه فتونُ الدنيا إذا رافقَها ظلمٌ أو أذىً ، ولا تميل به عن الطريق التي هي طريقُ جدّه وأبيه.

وفي اليوم السابع من مولده أخذه النبي بين يديه مستبشراً متهلّلاً وقال: لقد أسميتُه حسيناً.

وراح الطفل ينمو وفي سريرته روحُ جدّه ، وفي قلبه خلجات قلب أبيه وفي أعماقه بذورُ رسالة الخير. وراحت خصائص آبائه الأقربين وآبائه الأوّلين الذين كان لهم اتّصالٌ مباشرٌ بقِيَم الإنسان العالية ، وبالضمير المستوثق المطمئن وبالشعور الداخلي الدافع إلى التخلّص من مهالك الأنانية والفرديّة والجشَع ، تتجمّع في كيانه وتتّحد وتنمو مع نموّه العضوي. وانتقالُ الخصائص الشعورية والصفات النفسية من الآباء إلى الأبناء قانونٌ طبيعي لا شكّ فيه ، شأنه في ذلك شأن انتقال الخصائص الماديّة. وهي إذا احتاجت إلى مبرّراتٍ من المعايشة والمساكنة ، فقد تمّتْ لها هذه المبرّرات.

وعاش الحسين في رعاية جدّه النبي سبع سنين. ولمّا قُبض النبيّ جعل الصحابة من بعده يقتدون به حبّ الحسين ، ولا سيّما وهو يشبه جدّه شبهاً عظيماً في الصفة والشكل على ما يروي مَن شاهدوا النبيّ وسِبْطَه.

وإنّ في الأسماء التي تواكب منشأ الحسين وتنطبع صورُ أصحابها في خياله فتتّحد صفاتُهم في صفاته اتّحاداً طبيعيّاً بحكم الوراثة ، ثم بحكم المعايشة والمساكنة ، لتمثيلاً رائعاً لِما يراه العلماء المحدثون في فلسفة المنشأ ونموّ الأخلاق. ونأخذ مثلاً على ذلك تمثيل العلّامة الإيطالي «بستالوزي» للمنشأ والتربية، قال:

«تتمثّل لي التربية بشجرة مثمرة بجانب جدولِ مياهٍ جارٍ ، وما أصلها إلّا

حبّة صغيرة أودع الخالق فيها شكلَ هذه الشجرة وخواصّها وأثـمارَها. فـلمّا غُرستْ وتعهّدها الزارع بما يساعد الطبيعةَ على عملها ظهرتْ تلك الحبّة في شكل نبات ، ثم نمتْ وترعرعتْ حتى كبرت وأينعت وأثمرت ، وما هي إلّا الحبّة الصغيرة مكبّرة نامية.

«وهذه هي الحال في الطفل الذي أودع فيه الخالقُ تلك القوى التي تنمو وتظهر معهُ بالتدريب ، فتنمو أعضاؤه ومـلكاته تـدريجاً حـتى يـصبح مـن مجموعها وحدة. فيجب على المربّي أنْ يساعد قوى الطفل البدنية والأدبـية والعقلية على النموّ الطبيعي ، دون استعمال الطرق الصناعية. يجب أن ينمّي الإيمانَ ـ مثلاً ـ في الطفل لا بواسطة الكلام النظري ، بل بما يُنَشّأ عليه الطفلُ بتصديقه الفعلي ورسوخ الاعتقاد في نفسه[(١)].

ثم وعى الحسين أباه العظيم وعايشَه في استقامته وعدله وحنانه ونصرته للمظلوم، وعقابه للظالم ومُبادرتِه الأعداءَ بالإحسان.كما عايشَه في مآسيه وقد شاهد فصولَ شجاعته النادرة المثال إذكان إلى جانبه في يوم الجمل ، ثم في موقعة صفّين ومعركة النهروان ، يتلقّى عنه دروساً في آداب القتال من أجل الخير وفي التضحية بالنفس لرفع الحَيْف عن كافّة الناس.

ومن أروع ما انتظم في نفس الحسين ـ فيما نرى ـ من آثار تلك الروافد من الآباء الأقربين والأوّلين تجري إليه وتمدّه بمعاني السموّ وتحيا في أعماقه وتؤلّف كيانَه ، تلك المسحةُ الكئيبة التي لم تفارقه أبداً ، والتي كانت في قلبه نتيجةً محتومةً للصراع الذي سمع أخباره عـن آبـائه الأوّلـين وهـم يـفادون الحقّ[(٢)] ويصمدون في وجه الباطل ، ونـتيجةً مـحتومةً كـذلك للـصراع الذي

---

(١) عن كتاب «تأريخ الحسين» للعلامة عبد الله العلايلي ص١٧١ طبعة دار الجديد ١٩٩٤.

(٢) يفادون الحقّ: يفدونه بالغالي والنفيس ، أو بالنفس والمال. لسان العرب: ١٤٩/١٥، مادة «فدي».

شهده طوالَ أيّامه بين الصدق والنفاق في أعماق الناس ، وبين الصراحة والمواربة ، وبين العدالة والانحراف. وكان له من حياة أبيه عاملٌ قويّ على تفجير ينابيع الحزن العميق في نفسه،كماكان له مثل هذا العامل في حياة الأقربين إليه جميعاً.

وُلد الحسين من اُمّه ولها من العمر عشرون ربيعاً. وكانت رقيقة القلب كثيرة الحنان. ومن هذه الرقّة وهذا الحنان تولّدتْ في نفسها أمواجٌ من الأسى البعيد القرار يثيره ويفجّره ماكان يصيب أباها وذويها من كيد قريش ومن تمثيلهم بالقتلى من أنصار صاحب الرسالة ومن ذويه. وشاعت الكآبة في نفسها بصورةٍ خاصّة ، وبلغ بها الحزنُ والأسى مبلغاً عميقاً، يوم كانت غزوة اُحُد التي فتك بها القرشيّون بالمسلمين ومثّلوا بقتلاهم. وماكان أوقع منظر والدها النبيّ في نفسها وهو يبكي عمّه حمزة وولده بالتبنّي زيد بن حارثة بدموعٍ ستحيا ذكراها في نفسها حتى الموت!

في غمرة هذا الأسى العميق الذي يصيب فاطمة كان الحسين ما يزال جنيناً. فإذا بها تورث وليدَها فيما بعد هذه التأثّرات العنيفة والحزنَ المرّ. وكانت آثار هذه الوراثة ظاهرةً في طفولة الحسين وفي شبابه: فقدكان محبّاً للعزلة دائمَ التفكير قليلَ المرح شديدَ الحساسية لأقلّ مظاهر الحزن تُلِمُّ بالآخرين.

ثم إنّه ماكاد يبلغ السابعة من عمره حتى رأى طوائف الناس تبكي جدّه وكان ذلك له مصدرَ حبٍّ وحنانٍ عظيمَين. ويرى الوفود تؤمّ بيته والدموع تنهمر من عيونها والكآبة تطغى على وجوهها وتعقد ألسنتها.

ولبث إلى جانب اُمّه وهي معتكفةٌ في بيتها لا تخرج منه أبداً ، تستعيد ذكرياتها مع أبيها فتبكيها أشدَّ بكاءٍ ، وتبكيه. وما يذكر التاريخ أنّ اُم الحسين

ضحكتْ مرّةً بعد وفاة والدها. وظلّتْ كذلك حتّى لحقتْ بـه. ويُـروى أن أنس بن مالك استأذن يوماً على فاطمة وطفق[١] يتوسّل إليها أن ترحم نفسها من هذا الحزن وهذا البكاء ، وأن تصبر. فلم تُجبْه إلّا بهذا القول:

«كيف مكّنك قلبُك أن تسلم للأرض جثّةَ رسول الله؟»[٢].

وتفجّعتْ فاطمة. وانطلق أنس بن مالك في بكاءٍ شديد ، وانصرف عنها واللوعة تملأ قلبه لِما رأى لوعتها وحزنها.

وكان الحسين يشهد ذلك كلّه ، وكان يشهد أُختَه الكئيبةَ الواجمة[٣] زينب في مهد الأسى هذا ، فينقبض قلبه ويخلو إلى نفسه متحسّراً واجماً!

كان الحسين ينظر إلى أُمّه وأُخته وكأنه يستشفّ في الغيب البعيد صُوَرَ أحزانٍ يخبّئها القدرُ لهما ، وله ، ولأبنائهم جميعاً. كان يستشعر أنّـه سيبكي وأُختَه زينب أُمّهما بعد قليل ، وأنّهما سيبكيان والدَهما بعد ذلك ، ثم أخاهما الحسن ، وأنّ آله جميعاً مُقبلون على سلسلةٍ من المآسي الرهيبة!

وسمع الحسين أُمّه ، بعد أيامٍ قلائل ، توصي شقيقتَه زينب أن تصحب أخويها الحسن والحسين وترعاهما وتكون لهما من بعدها أُمّاً!

وتوفّيت أُمّه بعد وفاة والدها بثلاثة أشهر. ووقف الحسين يودّعها الوداع الأخير ، وينظر إلى زينب وقد وجمتْ من الحزن ، وإلى أبيه العظيم يتمهّل عند قبر الزهراء يبكيها مودّعاً كئيب القلب.

وهكذا نشأ الحسين نشأته الأولى، في جوٍّ من الكآبة لا ينتهي.

وكان شابّاً حين وقف على شِباك القوم تُلقّى هنا وهناك في طريق أبـيه

(١) طفق: بدأ. المنجد: ٤٦٧ .

(٢) العقد الفريد: ٣ / ٢٣٧. الصحاح: ٢٠٤٩/٥. مادة «وجم».

(٣) الواجمة: الواجم الذي اشتدّ حزنه حتّى أمسك عن الكلام.

وزاده موقفُ عائشة وأنصارِها من الإمام حزناً من جهة ؛ واندفاعاً للوقوف إلى جانب أهل الحقّ من جهةٍ ثانية كما فجّر في نفسه أمواجاً من العطف على كلّ مظلوم. ثم رأى من غدْر معاوية وعمرو بن العاص وأنصارهما بأبيه ما مسَحَ الدنيا بمسحةٍ جديدةٍ من الكآبة أمام عينيه ، وما جعلَ الحياة هزيلة المعنى لديه إنْ لم يندفع في تقويم الاعوجاج بذات الجرأة النادرة التي اندفع بها أبوه.

وتمّتْ له أسباب الأسى يومَ امتدّتْ يدٌ آثمة بالسيف إلى جبين أبيه وهو في المسجد ، يطلب إلى الله أن يعينه في إصلاح ما فسدَ من السرائر ، فما لبث بعدها إلّا يومين وفارق الدنيا ؛ لتقوم من بعده دولةٌ لأهل الجور.

وقُتل أخوه الحسن مسموماً. ثم هاله[1] أن يرى الأُمويين وأنصارهم يرمون جنازة أخيه بالسهام. وعرف أنّ معاوية أمرَ بأنْ يُسبّ أبوه عليٌّ وأخوه الحسن على منابر دولة بني أُميّة. بل إنّه بأُذنيه سمع معاوية يسبّ أباه.

وراحت أسباب الحزن تتراكم في نفسه من جديد. هذه الأسباب التي ستبلغ منتهاها عدداً وقوّةً ، غداً في كربلاء ، حيث ستنعقد الجريمةُ البشعة في قوّادٍ وجنودٍ أدنياء يرتكبون الأهوالَ مع القلّة القليلة من أُخوته وآله وأطفالهم وأنصارهم.

أمّا مأساته هو فسيترك آثارها لشقيقته زينب وولده زين العابدين.

هذا ما كان من نشأة الحسين إرثاً وتربية، وما كان من أسباب الحزن في نفسه ، هذا الحزن الذي لاحَقَه منذ رأى النور ، كما لاحق جدّه وأُمّه وأباه ، فانطبعتْ به نفسه ولان به خلقُه وجنحتْ به أسبابُه إلى مشاركة الناس آلامهم ومعاندةَ مَن يُلحقون الأذى بالآخرين، حتّى الفِداء.

---

(١) هاله: صعب عليه ، راعه. المنجد: ٨٧٧ مادة «هول».

وعلى هذه الأُصول من الإرث والتربية كان الحسين بن عليّ يقول ويحيا مثلَ هذه الأقوال: «**الحلم زينةٌ والوفـاء مـروءَةٌ ، والاسـتكبار صَـلَفٌ والسّـفَهُ ضـعفٌ ومجالسة أهل الفسق ريبة**»(١). و «**لا تتناول إلّا ما رأيتَ نفسك له أهـلاً**»(٢). و «**لا أرى الحياة مع الظالمين إلّا بَرَماً!**»(٣). و «**الصدق عزٌّ والكذب عجز!**»(٤).

* * *

أمّا يزيد بن معاوية فمن يكون؟

لقد ورث هذا الرجل خصائص البـيت الأُمـويّ فـي النشأة والمسـلك ، والنـظر إلى الأُمـور وزاد عـليها مـمّا أفـاض(٥) الشـيطان فـي خـلق الأشـرار والتافهين. ولم يرث من أبيه حتى هذه الصفات التي ينعتونها بأنها حسـنة ، وهي في الواقع إنما كانت مجنّدة لخدمة الملك والسلطان، بل قُلْ إنّ يزيد جامعٌ لسيئات قومه دون ما قد يميّزهم من صفاتٍ طيّبات! فليس بين الأُمويين مَن قتلتْه لذّتُه كما قتلتِ اللذةُ يزيد ، ويروون أنه كان يسابق قرداً فسقط عن فرسه سقطةً كان فيها هلاكه. ومن سجعات(٦) الأوّلين المعبّرة عن رأي الناس فـي يزيد هذا القول الطـريف: «كـان سكّـيراً خـمّيراً يـلبس الحـرير ويـضرب بالطنابير»(٧).

وبقدر ما كان الحسين بن عليّ امتداداً للغرسة النبوية واسـتمراراً للـخُلق

---

(١) كشف الغمة ج٢ ص٢٤٢، بحار الأنوار ج٧٥ ص١٢٢.

(٢) أسرار الحكماء ص٩٠، أعيان الشيعة ج١ ص٦٢١.

(٣) تـاريخ الطـبري ج٤ ص٣٠٥، تـحف العـقول ص٢٤٥، شـرح الأخـبار ج٣ ص١٥٠، بـحار الأنـوار ج٧٥ ص١١٧.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٤٦.

(٥) أفاض: أسبغ ، أفرغ . المنجد: ٦٠٢، مادة «فيض».

(٦) سجعات، السجع: الكلام المقفّى. الصحاح: ١٢٢٨/٣، مادة «سجع».

(٧) شرح نهج البلاغة ٢ / ٢٦٢.

العلوي ،كان يزيد انحداراً للنفسية السفيانية.

وبقدر ما تراكم في نفس الحسين من أسباب الأسى الذي تُجبَل به نفوسُ الطيّبين في الشدائد التي تحصر الناسَ في طائفتين من ظالمين ومظلومين ، تراكم في نفس يزيد من أسباب الوقاحة العابثة القائمة بأسبابها ونتائجها إزاء كآبة الخيّرين.

نشأ يزيد في بيتٍ ينظر إلى الإسلام نظرتَه إلى حركةٍ سياسية من شأنها أن تنقل الرئاسة من أُسرة إلى أُسرة ، ولا يعرف للمواطنين من قيمةٍ إلّا بمقدار ما يكونون جنوداً للحاكم في كلّ حال، ولا يعترف لهم بغايةٍ من وجودهم أبعدَ من أنّهم مصادر ثروةٍ لبيت المال الذي تصير محتوياته إلى صاحب السلطان وحده. ولمّا كانت نشأة يزيد في مثل هذا البيت كان لابدّ له من أنْ يسلك الطريق نفسَها التي سلَكها أهلُه وذووه في الجاهلية والإسلام. أضفْ إلى ذلك أنّه ترعرع في بيت أبيه الذي تتدفّق عليه أموال المسلمين، فتُهدَر على رغائب السلطان ورغائب ذويه. وإذا اجتمعت الثروة إلى الجهل وإلى النشأة التي لا تشعر بالمسؤولية كان العبث وكان المجون. وهكذا عُرف يزيد بالإدمان على شرب الخمر ، وعلى اللعب بالكلاب على عادة أهل الغباء من المترفين. وقد تصَرّفَ حين آل إليه الملكُ المغتَصَبُ على أساسٍ من رغائبه وشهواته الخاصّة، فكان يُنهب مواليه وجواريه وندماءَه ومُغنّيه الأموالَ العامّة. وكان يُلبس كلابَ الصيد الكثيرة التي يملكها أساور من الذهب وخلاخل من الفضّة ومنسوجاتٍ من ثمين الدِّمَقْس ، فيماكانت سياط عمّاله تُلهب ظهور الفقراء لجمع أموال الخراج والجزية.

وكانت ولايته ثلاث سنوات وستة أشهر، ملأها بالمخزيات التي ترتّبت على سياسةٍ أُموية لا تخدم إلّا شهواتٍ آثمة. فبالإضافة إلى ما ذكرنا من نهجه

في الحياة ، قتل الحسين بن عليّ وأهله وأنصاره ، وسبى نساءَهم في السنة الأُولى من ولايته. وفي السنة الثانية منها نهب مدينة الرسول ، لا تردعه حشمةٌ ولا إجلال، وأباحها لجنوده ، وقتَلَ من أهلها أحدَ عشر ألفاً فيهم سبعمائة من المهاجرين والأنصار أصحاب النبيّ ، وانتهك حرمة ألف عذراء أو ما يزيد.

وفيما كان من طبع الحسين أن يحارب الظلْمَ والبغْيَ أُسوةً بجدّه وأبيه ، نراه يقول: «**لا أرى الحياة مع الظالمين إلّا برَماً**»[1] ، كان يزيد يُعلي من قدر السفّاحين وأهل الجور والانتقام الرخيص ، ويشدّهم إليه ويكافئهم على كلّ جريمةٍ بشعة يقترفونها. ويوصي بإكرامهم، مثال ذلك: أنّه جلس ذات يومٍ إلى شرابه وعن يمينه والي الكوفة الحقير عبيد الله بن زياد أحد «رموز» فاجعة كربلاء ، وكان ذلك بعد مقتل الحسين بقليل ، فنادى ساقيه يقول:

اسقني شربةً تروّي فؤادي   ثم صِلْ فاسْقِ مثلها ابنَ زيادِ
صاحبَ السرِّ والأمانةِ عندي ،   ولتسديد مغنمي وجهادي[2]

وما أشبه حاله وهو يُكرم مجرماً كعبيد الله بن زياد على هذا النحو ، بحال خَلَفِه عبد الملك بن مروان وهو يوصي بنيه بإكرام المجرم الأكبر الحجّاج بن يوسف!

والخلاصة: أنّه إذا كان «لله جنودٌ من العسل» المداف بالسمّ في عهد معاوية ، فإنّ «جنود الله» في عهد يزيد هي السمّ دون أنْ يكون مدافاً بشيءٍ من العسل! وفي عهد هذا الرجل تبلورت العصبيّةُ الأُموية الجاهلية التي جعلتْ

(١) تحف العقول ص٢٤٦، شرح الأخبار ٣ / ١٤٩، مناقب ابن شهرآشوب ٣ / ٢٢٤، بحار الأنوار ٤٤ / ١٩٢، ٤٤ / ٣٨١، تاريخ الطبري ٣ / ٣٠٧.
(٢) شرح الأخبار ٣ / ٢٥٣.

من الإسلام نفسه محرِّكاً لهذه العصبيّة. وإنّ حادثةً واحدة في التاريخ لا تدلّ على رجلٍ كان أقلّ حظّاً في المعاني الإنسانية من يزيد منفّذ مأساة كربلاء! كما أنّ حادثةً واحدة في التاريخ لا تدلّ على رجلٍ كان أعظم خلقاً من الحسين شهيد مأساة كربلاء! فهناك المعاني السود، وهنا جلائل الصفحات! هناك تجارات أُميّة، ورئاساتها، وأرقّاؤها، وجلّادوها، وهنا مثاليّة الطالبيّين، وفروسيتهم، وأحرارهم، وشهداؤهم.

* * *

وإذا كان للحوادثِ منطقٌ في تقرير حقيقةٍ من الحقائق لا يرقى إليه منطقُ الاستنتاج، وإذا كان في الوقائع كلُّ برهانٍ قاطعٍ وكلُّ دليل، فإنّ جملةَ الحوادث التي عاشها الحسين بن عليّ تقطع بأنّه في مقياس الأخلاق سماءٌ أيّ سماء! وإنّ جملة الحوادث التي عاشها يزيد بن معاوية تقطع بأنّه في مقياس الأخلاق أرضٌ تحت أرض. وحسبُك مأساة كربلاء دليلاً ذا ألسنةٍ تقولُ وأيدٍ تُشير. وحسبُك ـ قبل هذه المأساة ـ حادثةٌ! طرَفاها الحسين ويزيد: الحسينُ الذي يجسّم كآبة الخيّرين التي تنمو في نفوس أصحابها على كراهية الظلم حيث يكون الظلم. ويزيد الذي يجسّم وقاحة العابثين التي تنمو في نفوس أصحابها على وهَن الخُلق وميوعة الشخصية والتنكّر لكلّ مسؤولية. وهي في الوقت ذاتها حادثةٌ تعيد إلى الأذهان قصّةَ الحِلْف الذي أشرنا إليه في الفصل السابق، والذي وقف منه آباء يزيد في الجاهلية موقفَ المُنكرين والأعداء، ووقف منه آباء الحسين موقفَ الداعين إليه المؤيّدين له «ليكونوا فيه مع المظلوم حتى يؤدّوا إليه حقّه... ويمنعوا القويّ من ظلم الضعيف

والقاطن من عنف الغريب»[١].

أجل، إنّها حادثةٌ طرَفاها الحسين وآله جميعاً، ويزيد والأُمويّون إلّا أقلّهم. وإليك خلاصتها:

سمع يزيد بن معاوية بجمال زينب بنت إسحاق زوجة عبد الله بن سلام القرشي. وكانت من أجمل نساء وقتها وأحسنهنّ أدباً وأكثرهنّ مالاً. ففُتِن بها. فلمّا عيل صبرُه ذكر ذلك لبعض خاصّة أبيه واسمُه رفيق. فذكر ذلك لمعاوية وقال له: إنّ ابنك يزيد قد عيل صبرُه وضاق ذَرْعُه بها.

فبعث معاوية إلى يزيد فاستفسره عن أمره، فبثّ[٢] يزيد له شأنَه. فقال معاوية: مهلاً يا يزيد! فقال له: علامَ تأمرني بالمَهَل وقد انقطع منها الأمل؟ فقال له معاوية: أكتمْ أمرك يا بني، فإنّ البوح به غير نافعك؛ والله بالغُ أمره فيك، ولابدّ ممّا هو كائن.

وأخذ معاوية في الاحتيال في تبليغ يزيدَ مُناه. فكتب إلى زوجها عبد الله ابن سلام ـ وكان قد استعمله على العراق ـ أن أقبِلْ حين تنظر كتابي لأمرٍ فيه حظُّك إنْ شاء الله، فلا تتأخّر عنه!

فأسرع عبد الله بن سلام وقَدِم، فأنزله معاوية منزلاً كان قد هُيّءَ له. وكان عند معاوية يومئذٍ بالشام أبو هُريرة وأبو الدرداء، فقال لهما معاوية:

لقد بلغتْ لي ابنةٌ أُريدُ زواجَها والنظرَ في اختيار مَن يصلح لها زوجاً، لعلّ من يكون بعدي يقتدي فيه بهَدْيي ويتّبع فيه أثري. فإنّه قد يلي هذا المـلْكَ بعدي من يغلب عليه الشيطانُ فيحمله على حبْس البنات عن الزواج ظلماً، فلا يرون لابنتي كُفْـءً ولا نظيرا. وقد رضيتُ لها عبد الله بن سلام القرشي،

(١) شرح نهج البلاغة ج١٥ ص٢٠٤.

(٢) فبثّ: أظهر، كشف. المنجد: ٢٦، مادة «بث».

لدينه وشرفه ، وفضله ومروءَته! فقالا له: إنّ أولى الناس برعاية نِعَم الله وشكرها ، وطلبِ مرضاته في ما اختصّه ، لأنت!

فقال لهما معاوية: فاذكرا له ذلك عنّي! وقد كنتُ جعلتُ لها في نفسي شُورى ، غير أنّي أرجو ألّا تخرج من رأيي إن شاء الله .

فخرج أبو هريرة وأبو الدرداء من عند معاوية ، وأتَيا عبد الله بن سلام وذكرا له القصّة.

ثم دخل معاوية على ابنته وقال لها: إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبوهريرة ، فعرَضا عليك أمْرَ عبد الله بن سلام ، وطلبا إليك أنْ تسارعي إلى الأخْذ برأيي في الزواج من ابن سلام ، فقولي لهما: إنّه كفءٌ كريم ، وقريبٌ حميم ، غيرَ أنّه متزوّجٌ من زينب بنت إسحاق ، وأخاف أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء ، فأتناول منه ما يسخط الله تعالى فيه ، فيُعذّبني عليه ، ولستُ بفاعلةٍ حتى يفارقها.

فلمّا اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله بن سلام وأخبراه بقول معاوية ، ردّهما إليه يخطُبان له منه. فأتَياه. فقال: لقد علمتما رضائي به وحرْصي عليه ، وكنتُ قد أخبرتُكما بالذي جعلتُ لها في نفسي من الشُورى ، فادخلا عليها وأعرضا عليها الذي رأيتُ لها.

فدخلا على ابنة معاوية وأخبراها. فقالت لهما ما قاله أبوها لها. فرجعا إلى ابن سلام وأعلماه بما قالت.

فلمّا ظنّ عبد الله بن سلام أنّه لا يمنع ابنةَ معاوية منه إلّا فراقُ زوجته زينب ، أشهد الرسولين بطلاقها وأعادهما إلى ابنة معاوية.

فأتَيا معاوية وأعلماه بماكان من فراق عبد الله لزوجته زينب رغبةً في الاتّصال بابنته. فأظهر معاويةُ كراهةَ فِعله وفراقَه لزينب ، وقال ما استحسنتُ

له طلاقَ امرأته ، ولا أحببتُه. فانصرِفا في عافية ، ثمّ عودا إليها وخُذا رضاها.

فقاما ثم عادا إليه. فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها ، وقال: لم يكن لي أن أُكرهها وقد جعلتُ لها الشّورى في شؤونها الخاصّة. فدخلا عليها فأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأتَه. وذكَرا مِن فضْله وحُسن نسبه. فقالت لهما: إنّه في قريش لرفيع القدر ، وقد تعلمان أنّ الأناة في الأُمور أرفق لِما يُخاف من المحذور. وإنّي سائلةٌ عنه حتّى أعرف دِخْلةَ أمره ، وأخبركما بعد ذلك بالذي يزيّنه الله لي ، ولا قوّة إلّا بالله. فقالا: وفّقك الله. وانصرفا عنها حتّى إذا جاءَا عبد الله بن سلام وأخبراه بقولها ، أنشد قول الشاعر:

فإنْ يكُ صدرُ هذا اليوم ولّى ... فإنّ غداً لِناظره قريبُ

وتَحدّث الناس بماكان من طلاق عبد الله زوجتَه زينب ، وخطبته ابنةَ معاوية ، ولاموه على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه ؛ لِما يعرفونه من فساد يزيد واحتيال معاوية.

ثم استحثّ عبدُ الله أبا هريرة وأبا الدرداء فأتَيا ابنةَ معاوية وقالا لها: اصنعي ما أنت صانعة واستخيري الله فإنّه يهدي مَن استهداه. فقالت: أرجو أن يكون الله قد خار لي ، وقد استقصيتُ أُمورَ عبد الله بن سلام حتّى عرفتُها كلّ المعرفة ، وسألتُ عنه ، فوجدتُه غير ملائمٍ ولا موافق لِما أُريد لنفسي. وقد اختلفَ مَن استشرتُه فيه ، فمنهم الناهي عنه ومنهم الآمر به ، واختلافهم أوّلُ ما كرهتُ.

فلمّا بلّغ الرسولان كلامَها عبدَ الله بن سلام علم أنّه مخدوع!

وذاع أمره وفشا في الناس. وقالوا: خدَعه معاوية حتى طلّق امرأته! وإنّما

أرادها معاوية لابنه يزيد. وقبّحوا فعْلَه.[١]

وتمّ الفصل الأوّل من مكيدة معاوية استجابةً لرغبة يزيد في الفساد. غير أنّ المقادير أتتْ بخلاف تدبيره. وكان ذلك على يد الحسين بن عليّ الناشئ على سيرة أبيه العظيم في نصرة المظلوم. وإليك ماكان:

لمّا انقضتْ عدّة زينب مطلّقة عبد الله بن سلام ، وجّه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد. فخرج أبو الدرداء حتّى قدم الكوفة ، وبها يومئذٍ الحسين بن عليّ. فبدأ أبو الدرداء بزيارة الحسين احتراماً منه لمكانته. فسلّم عليه الحسين وسأله عن سبب مقدمه إلى الكوفة. فقال أبو الدرداء:

وجّهني معاوية خاطباً على ابنه يزيد زينبَ بنت إسحاق.

وأخبرَه بفصول الحادثة واحداً واحدا. فقال له الحسين:

لقد كنتُ أردتُ الزواجَ من زينب بنت إسحاق ، وقصدتُ الإرسالَ إليها إذا انقضتْ عدُّتها ، فلم يمنعني من ذلك إلّا انتقاء مِثْلِك. فقد أتى الله بك. فاخطبْ زينب عليّ وعلى يزيد لتختار هي نفسها مَن اختاره الله لها. وهي أمانةٌ في عنقك حتّى تؤدّيها إليها. وأُعطيها من المهر مثلَ ما بذل معاويةُ عن ابنه. فقال أبو الدرداء: أفعلُ إن شاء الله.

فلما دخل أبو الدرداء على زينب ، قال:

أيتها المرأة إنّ الله قد خلق الأُمور بقدرته وكوّنها بعزّته ، فجعل لكلّ أمرٍ قدَراً ، ولكل قدر سبباً. وليس لأحدٍ من أمر الله مهرب. فكان ممّا قُدِّر عليك فراق عبد الله بن سلام إيّاك. ولعلّ ذلك لا يضرّك. وقد خطبَك يزيدُ بن معاوية والحسين بن عليّ ، وقد جئتك خاطباً عليهما فاختاري أيّهما شئتِ!

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٢٢٠، النصائح الكافية لمحمد بن عقيل ص١٢٩.

فسكتتْ زينب طويلاً، ثم قالت:

لو أنّ هذا الأمر جاءَني وأنت غائب لأشخصتُ فيه الرُسلَ إليك ، واتبعتُ فيه رأيَك. فأمّا إذ كنتَ أنت المرسل ، فقد فوّضتُ أمري بعد الله إليك وجعلتُه في يديك فاخترْ لي أرضاهما لديك. فقال:

أيتها المرأة ، إنّما عَليّ إعلامك ، وعليك الاختيار لنفسك. قالت: عفا الله عنك! إنّما أنا ابنة أخيك ولا غِنى لي عنك.

فلمّا لم يجد بدّاً من القول والإشارة ، قال إنّ الحسين أحبّ إليّ وأرضى عندي!

قالت: قد اخترتُه ورضيته.

وهكذا زوّجتْ نفسها من الحسين. وساق لها الحسين مهْرَها. وبلغ ذلك معاوية فعظُم لديه الأمر ، ولام أبا الدرداء لوماً شديداً ، وقال: مَن يُرسل ذا بَلَهٍ يركب خلاف ما يهوى!

ثمّ عزل معاوية عبد الله بن سلام عن العراق ، وقطع عنه جميع روافده ، لِما بلَغَه من أنّه يسيء فيه القولَ ويتّهمه بالخداع والاحتيال. وضاقت الحال بابن سلام في الشام وقلّ ما في يده. فرجع إلى العراق وكان قد استودع زينبَ قبل الطلاق مالاً كثيراً. وظنّ أنّها ستجْحده لسوء فعْله بها وطلاقها من غير شيءٍ كان منها.

ولمّا قدم العراق لقي الحسين فسلّم عليه ثم قال:

قد علمتَ ماكان من خبري وخبر زينب ، وإنّي كنتُ قد استودعتُها مالاً ولم أقبضه. ثم أثنى عليها وقال له: أُذكرْ لها أمري واطلبْ إليها أنْ تردّ عليّ مالي.

فلمّا انصرف الحسين إليها ، قال لها: قد قَدِم عبد الله بن سلام ، وهو

يُحسن الثناء عليك ويمتدح حسن صحبتك وسموّ نفسك وما آنسَه قديماً من أمانتك. فسرّني ذلك منه وأعجبني. وذكرَ أنّه كان قد استودعك مالاً ، فأدّي إليه أمانته وردّي عليه مالَه ، فإنّه لم يقلْ إلّا صدقاً ولم يطلب إلّا حقاً.

فقالت: صدق ، استودعَني مالاً لا أدري ما هو. فادفعْه إليه بطابعه! فأثنى عليها الحسين خيراً ، وقال بأدبه الجمّ: ألَا أدخِله إليكِ حتى تتبرّئي إليه من ماله كما دفَعه إليك؟ ثم لقي عبد الله بن سلام ، فقال: ما أنكرتْ مالك ، وأنّها زعمتْ أنه ما يزال بطابعك ، فادخلْ إليها وتسلّم مالك منها.

فخجل عبد الله بن سلام من نفسه وقال للحسين: أوَما تأمر مَن يدفعه إليّ؟ قال: لا! بل تقبضه منها كما دفعتَه إليها.

ودخل عليها الحسين وقال: هذا عبد الله قد جاء يطلب وديعته. فأخرجتْ إليه أكياس المال فوضعتْها بين يديه ، وقالت: هذا مالك! فشكرَ وأثنى!

وخرج الحسين عنهما وخلّاهما وحدهما. وفضّ عبد الله بن سلام أحدَ الأكياس وأفرغ لزينب ممّا فيه وقال: خذي ، فهو قليلٌ منّي! فاستعبَرا جميعاً حتى عَلَتْ أصواتُهما بالبكاء أسفاً على ما ابتُليا به. فدخل الحسين عليهما في الحال ، وقال برقّةٍ وعطف:

أُشهد الله أنّي طلّقتُها! وأُشهد الله أنّي لم أتزوّجها رغبةً في مالها ولا جمالها ، ولكني أردتُ إحلالَها لزوجها.

وعرف عبد الله بن سلام منهما أنّ الحسين لم يتزوج زينب إلّا زواجاً صُوَريّاً يقصد منه إبعادَها عن يزيد بعد خدعة أبيه ، ثم جعْلَها حلالاً لزوجها ابن سلام ؛ لأنّ الأحكام تقضي بألّا تعود إليه بعد طلاقها إلّا إذا زوّجتْ بسواه ثم طلّقتْ من جديد.

وهكذا بقيت زينب لزوجها ـ الذي خُدع ـ عفيفةً كما تركها لم يمسسْها

أثناء غيابه بشر.

وسأل عبد الله بن سلام زينبَ أن تصرف إلى الحسين ماكان قد ساقه إليها من مَهر ، فأجابته على ذلك ، فلم يقبل الحسين وقال: الذي أرجوه الثواب خيرٌ لي!(١)

قال عليّ بن أبي طالب الهاشمي: «**فواللهِ ماكنزتُ من دنياكم تبراً ، ولا ادّخرتُ من غنائمها وفْراً ، ولا أعددتُ لبالي ثوبي طِمرا. ولو شئتُ لاهتديتُ الطريقَ إلى مصفّى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذاالقزّ ، ولكنْ هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة! ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القُرص ، ولا عهد له بالشبع. أوَ أبيت مبطاناً وحولي بطونٌ غرثى وأكبادٌ حرّى! أأقنع بأن يُقال أمير المؤمنين! ولا أشاركهم مكارةَ الدهر؟**»(٢).

وقال عليّ في رسالةٍ منه إلى عامله على الأهواز: «**وإنّي أُقسم بالله صادقاً ، لئن بلغني أنك خُنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً ، لأشدّنّ عليك شدّةً تدعك قليل الوفْر ، ثقيلَ الظهر ، ضئيلَ الأمر!**»(٣).

أمّا معاوية بن أبي سفيان الأُمويّ ، فيقول: «الأرض لله وأنا خليفة الله! فما آخذُ من مال الله فهو لي ، وما تركتُه منه كان جائزاً لي!!»(٤).

وأمّا معاوية وابنه يزيد ومروان بن الحكم الأُمويّون ، فيُنهبون أنصارَهم أموالَ الشعب تدعيماً لنفوذ وتشييداً لمُلك ، ويقطعون الرقاب. ولهم جنودٌ من العسل المداف بالسمّ ، أو من السمّ دون العسل!!

وللفريقين أنصار!

---

(١) النصائح الكافية لابن عقيل ص١٣٠، الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ٢١٧/١ ـ ٢٢٣.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٤٥ ـ ١٤.

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب: ٢٠.

(٤) النصائح الكافية لابن عقيل ص١٣١.

أنصار الفريقين

ـ واللهِ لو قــاتَلونا بســلاحهم وأوصـلونا إلى سعَفات هجَر ؛ لَعلمْنا أنّنا على حقّ وأنّهم على باطل!

عمّار بن ياسر

ـ نــــموت مــــعك!

أنصار الحسين بن عليّ

ـ كــم تــهب لنــا؟

أنصار يزيد بن معاوية

كان أبرز ما يميّز أنصارَ الطالبيّين ، وأظهر ما يجمع صفاتهم في واحدة: تلك الأرْيحيّة التي تسمو بالطبائع وتجعل الحياة معنىً من معاني الجهاد في نصرة مظلوم وتغليبِ عقيدةٍ وفدْيةِ حقّ. ولا يعيب هؤلاء أنّهم قليل ، فأصحاب الأريحيّة قليل ، ونتاج الأريحيين عظيمٌ جليل! وكثيراً ما تكون القلّة في العدد أدلّ على جلال الهدف وسموّ الغاية. وقد تُطيق النفس الواحدة من جلائل الأُمور ما لا تطيقه النفوس في الألوف من الأفراد! ذلك ما تشير إليه حقيقةُ أعوان الطالبيّين الثابتين في ما اقتنعوا به وعقدوا عليه النيّة.

فهؤلاء محبّو عليّ بن أبي طالب يُغريهم معاوية بما يغري به أعوانَه من مالٍ ونفوذ ليجاروه في سبّ عليّ وبنيه، فيأبون(١) وإنْ عظُم الإغراء. ثمّ ها هو يتوعّدهم بأشدّ العقاب إن لم يفعلوا ، لَعلّ في العقاب ما هو أشدّ من الإغراء حمْلاً على السباب ، فيأبون كذلك وإن عظم العذاب!

جلس معاوية بن أبي سفيان يوماً وعنده وجوه الناس ، وفيهم

---

(١) يأبون: يرفضون ويأنفون ويترفّعون. المنجد: ٢، مادة «أبى».

الأحنف بن قيس سيّد تميم. فدخل رجلٌ من أهل الشام ، فقام خطيباً ، فكان آخر كلامه: أن لَعَنَ علياً على عادة أهل الشام في ذلك الزمان ، وقد أرادها معاوية ومَن حوله ، فأطرق الناس جميعاً. وتكلّم الأحنف قال: يا معاوية! إنّ هذا القائل لو علم أن رضاك في لَعْن المرسلين لَـلَعنهم ، فاتّقِ الله ، ودعْ علياً ، فقد لقي اللهَ وكان واللهِ ـ ما علمنا ـ الطاهرَ في خُلقه ، الميمون النقيبة ، العظيم المصيبة.

قال معاوية: يا أحنف! لقد أغضيتَ العين على القذى ، وقلتَ بغير ما ترى ، وايم الله لَتصْعَدنّ على المنبر فلتَلعنّنه طائعاً أو كارهاً!

فقال الأحنف: إن تعفني فهو خيرٌ ، وإن تجبرني على ذلك فواللهِ لا تجري به شفتاي!

فقال معاوية: قمْ فاصعدْ! قال: أمَا واللهِ لأنصفنّكَ في القول والفعل!

قال معاوية: وما أنتَ قائلٌ إن أنصفتَني؟ قال: أصعد فأحمد الله وأثني عليه ، وأُصلّي على نبيّه ثم أقول: أيّها الناس! إنّ معاوية قد أمرني أنْ ألعن علياً ، ألا وإن علياً ومعاوية اختلفا واقتتلا وادّعى كلّ واحدٍ منهما أنه مبغيّ عليه وعلى فئته ؛ فإذا دعوتُ فأمّنوا رحمكم الله. ثم أقول:

اللهمّ العنْ أنت وملائكتك وأنبياؤك ورسلك وجميعُ خلقك ، الباغيَ منهما على صاحبه ، والفئةَ الباغية على المبغيّ عليها. آمين يا رب العالمين!

فقال معاوية: إذن نعفيك يا أبا بحر!(١)

وقد يلحّ معاوية على أنصار عليّ في التنكّر له فلا يطيقون على إلحاحه صبراً فيشتمونه هو وبنيه ؛ وعليٌّ في الرمس ومعاوية مـلِكٌ شديد البأس

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه ٢ / ١٤٤، المستطرف في كل فن مستظرف ١ / ٥٤، الغدير ١٠ / ٢٦٢.

طويل اليد.

ويذكر التاريخ ، باشمئزاز كثير ، أنّ معاوية هذا قـتل حُـجرَ بـن عـديّ الكندي وأصحابه ؛ لأنهم كانوا ينكرون سبّ عليّ وأبنائه على المنابر ، على ما سيجيء الكلام عنه.

ويشتدّ أنصار عليّ في رعاية عواطف النبل الإنسـاني التـي بـذرَها فـي نفوسهم وتعهّدها وأنماها ، لا فـرقَ فـيهم بـين رجـلٍ وامـرأة أو بـين كـبيرٍ وصغير. فحين حجّ معاوية في سنةٍ من سنيه سأل عن امرأة من بني كِنانة يقال لها: دارميّة فأخبر بسلامتها ، فبعث إليها فجيء بها ، فقال: أتدرين لِمَ بـعثتُ إليك؟ بعثتُ إليك لأسألك: علامَ أحببتِ عليّاً وأبغضتِني ، وواليتِه وعاديتِني؟ قالت: أوَ تعفيني يا أمير المؤمنين! قال: لا أعفيك. قالت: أمّا إذْ أبيتَ ، فإني أحببتُ علياً على عدله في الرعية ، وقسْمه بالسويّة. وأبغضتُك على قتال من هو أولى منك بالأمر! وواليتُ علياً على حبّه المساكين ، وعاديتك على سفكك الدماء وشقّكَ العصا وجورك في القضاء وحكْمك بالهوى.

قال: فلذلك انتفخ بطنك ـ وكانت دارمية كثيرة اللحم ـ فقالت: يا هذا، بهند والله كان يُضرب المثل في ذلك لا بي. وهند أُمّ معاوية!

فقال لها: يا هذه، هل رأيتِ عليّاً؟ قالت: إيّ والله لقد رأيتُه. قال: فكيف رأيتهِ؟ قالت: رأيتُه واللهِ لم يفتنه المُلك الذي فتَنك ، ولم تشغله النـعمة التـي شغلتْك. قال: هل سمعتِ كلامه؟ قالت: نعم والله ، كان يجلو القلوب من العمى، كما يجلو الزيت من الصدأ.

قال: صدقتِ ، فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم. قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلُها وراعيها. قال: فإنْ أعطيتُك ذلك فهل أحُلّ عندك محلّ عليّ؟ قالت: فتىً ، ولا كمالِك ، سبحان الله! تريد تفضيل عليّ

عليه؟ فأعطاها معاوية ما أرادت ، ثم قال لها: أمَا والله لو كان عليّ حيّاً ما أعطاكِ منها شيئاً. قالت: لا والله ولا وَبرَةً واحدة من مال المسلمين!

ودخل عديّ بن حاتم الطائي على معاوية بن أبي سفيان وهو خليفة في دمشق ، فقال له معاوية: ما فعلت الطرفات ـ يعني أولاده ـ فقال عديّ: قُتلوا مع عليّ بن أبي طالب. قال معاوية: ما أنصفك عليّ ، قتَل أولادك وأبقى أولاده! قال عديّ: ما أنصفك عليّ إذ قُتل هو وبقيتَ أنت! فقال معاوية: أمَا أنّه قد بقيتْ قطرةٌ من دم عثمان لا يمحوها إلّا دمٌ شريف من أشراف اليمن ـ يعرّض بعديّ بن حاتم ـ فقال عديّ: واللهِ إنّ قلوبنا التي أبغضناك بها لَفي صدورها ، وإنّ أسيافنا التي قاتلناك بها لعَلى عواتقنا. ولئنْ أدنيتَ لنا من الغدر فتراً لندنو إليك الشرّ شبراً. وإنّ حزّ الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهوَن علينا أنْ نسمع منك المساءَة في عليّ بن أبي طالب ، فسلّم السيف يا معاوية لباعث السيف! قال معاوية: هذه حكمةٌ فاكتبوها(١). وسكت!

وخرج معاوية للحجّ ، فلمّا كان في المدينة دعا إليه سعد بن أبي وقّاص لمصاحبته ، فلبّى دعْوتَه. وإذ انتهيا من أعمال الحجّ دخلا دار الندوة وراحا في حديثٍ طويل ، وشاء معاوية أن يعرف إلى أيّ مدىً يسايره هذا الصحابيّ في موقفه من عليّ ، وكان قد غرّه فيه أنْ لبّى دعوته وخرج معه إلى الحجّ ، فشرع في سبّ الإمام ، وقال لسعد «متلطّفاً»: ما يمنعك أن تسبّ أبا تراب ـ يعني عليّ بن أبي طالب ـ؟ فتجهّمتْ أسارير سعد وقال في حدّةٍ وغضب:

«أجلستني في سريرك ثمّ شرعتَ في سبّ عليّ! واللهِ لأن يكون لي خصلةٌ واحدة من خصالٍ كانت لعليّ أحبّ إليّ مما طلعتْ عليه الشمس.

(١) مروج الذهب للمسعودي ج٣ ص١٣، اختيار معرفة الرجال ، للطوسي ١ / ٢٥٥.، تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٤.

لا أدخل عليك داراً بعد اليوم!»[١].

قال ذلك ونفض رداءَه غضباً واستنكاراً وخرج!

ومن أنصار الطالبيّين عمرو بن الحَمِق الذي قتلَه زياد بن أبيه بموالاته لعليّ ، وبعث برأسه إلى معاوية، فكان أوّلَ رأسٍ أُهدي في الإسلام. وكـذلك امرأةُ عمرو هذا وقـد أسـمعت مـعاوية،كـلاماً قـاسياً فـي سـياسته وأُسـلوبه بأخذ الناس.

ومنهم البطل الشهيد ميثم التمّار وكان ميثم هذا قد عايشَ ابنَ أبي طالب ، وأدرك مكانته بين صنوف الرجال. وممّا رُوي أنّ عـليّاً كـان يـقضي بـعض أوقاته في دكان ميثم، فإذا غاب ميثم لحاجةٍ لم يجدْ عليّ ما يمنعه من أن يبيع له التمر حتى يعود. ولمّا قُتل عليّ وابنه الحسين وخلا الجوّ في الكوفة للمجرم عُبَيْد الله بن زياد هدّده بالموت إنْ هو ظلّ على ولائه لابن أبي طالب ، وقال فيه خيراً وفي عدالته ، وأغراه بالخيرات على أيدي أسياده الأُمـويّين إنْ هـو مشى في ركابهم. وكان أنْ تكلّم ميثم مرّةً وابن زياد لا يعرفه فأعجب بمنطقه وسداد رأيه وناصع حجّته ، فقال له متملّقٌ يدعى عمرو بن حريث: أتعرف هذا المتكلّم أيها الأمير؟ فقال زياد: ومَن هو؟ قال: هذا ميثم التّمار الكذّاب مولى الكذّاب عليّ بن أبي طالبّ فاستوى ابن زياد جـالساً وقـال لمـيثم: مـا يقول؟ فقال ميثم:كذبٌ ، بل أنا الصادق مولى الصادق عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين حقاً! فغضب ابنُ زيـاد وقـال له: لَـتبرأنّ مـن عـليٍّ ولتـذكرنّ مـن مســاوئه ، وتــتولّى عـثمان وتـذكر مـحاسنه أو لأُقـطعنّ يـديك ورجـليك ولأصلبنّك! فماكان من ميثم التمّار إلّا أن امتدح عليّ بن أبي طـالب وبكـى

---

(١) اختيار معرفة الرجال ١ / ١٩٨.

لذكراه ، ولِماكان من عدله وسماحه وحبّه الصادق العظيم للناس. ثم هاجم ابنَ زياد والأُمويين بقولٍ عنيفٍ يشتدّ بالنقمة على الجور وأهْله. فامتلأ ابنُ زياد غيظاً ثم قال له: والله لأقطعنّ يديك ورجليك ولأدَعنّ لسانك حتى أُكذّبك وأُكذّب مولاك! وأمر به في الحال فقُطعتْ يداه ورجلاه ، ثم أُخرج فأمرَ به أن يصلَب بعد ذلك. فماكان من ميثم إلّا أن نادى بأعلى صوته يقول: أيّها الناس! من أراد أن يسمع حديثاً عن عليّ بن أبي طالب فلْيأتِ إليّ . فاجتمع الناس إليه فراح يحدثّهم عن عليّ. وفيما هو كذلك خرج المتملّق الحقير عمرو بن حريث وهو يريد منزله ، فقال: ما هذه الجماعة؟ قالوا: ميثم التمّار يحدّث عن عليّ بن أبي طالب. فانصرف ابنُ حريث مسرعاً حتى بلغ مكانَ ابن زياد فقال له: أصلح الله الأمير ، بادِرْ فابعثْ إلى هذا مَن يقطع لسانَه فإنّي أخشى أن يغيّر قلوبَ أهل الكوفة فيخرجوا عليك! فالتفتَ عبيد الله بن زياد إلى حرّاسٍ فوق رأسه قائلاً لهم: اذهبوا فاقطعوا لسانه! فأتاه الحرّاس فقالوا له: يا ميثم! أخرج لسانك فقد أمَرَنا الأمير بقطعه! فقال ميثم: ألَا زعمَ ابنُ الفاجرة أنّه يكذّبني ويكذّب عليّ بن أبي طالب؟ هاكم لساني فاقطعوه!»(١).

ومات ميثم بعد ذلك بقليل ، فأمرت الخسّة في نفس ابن زياد بصلبه بعد أن كان قد مات وقُطعتْ يداه ورجلاه ولسانه.

ومن سلسلة الذين استشهدوا للحقّ وأنكروا الدنيا مع الباطل رشيد الهجري أحد أصحاب ابن أبي طالب. وقصّته لا تختلف كثيراً عن قصّة ميثم التمّار. فقد دعاه عبيد الله بن زياد إلى البراءَة من عليّ ، فأبى أن يتبرّأ منه ، فقال له: فبأيّ ميتةٍ تريد أن تموت؟ ثم أمرَ به فقُطعت يداه ورجلاه.

---

(١) الاختصاص، للمفيد ص٧٦، اختيار معرفة الرجال ١ / ٢٩٧، بحار الأنوار ج٤٢ ص١٣٢.

ويكفيك من أنصار عليّ ومن معنى انتصارهم له أنّهم والوه راضين مختارين ، وهم لا يطلبون على ذلك أجْراً إلّا أنْ يكونوا مع الحقّ ، وأن يموتوا عليه ، شأنُهم في هذا الموقف من عليٍّ شأنُ المسلمين الأُول من المهاجرين والأنصار من محمد بن عبد الله. وقد عبّرَ واحدٌ من كبار أنصار عليٍّ ، وأعني به عمّار بن ياسر ، عن حقيقتهم جميعاً ، إذ قال قبل لقاء الأُمويين وأنصارهم بصفّين وهم جيشٌ كثيف: «والله لو قاتلونا بسلاحهم وأوصلونا إلى سعفات هجَر لَعلمْنا أنّنا على حق وأنهم على باطل!»[1].

ولا يختلف أنصار الحسين عن أنصار أبيه في معنى الانتصار له وفي غايته.

فهذا الحسين يقيم ليلتَه الأخيرة في كربلاء وهو لا ينتظر إلّا الموت بعد ساعات ، فيقول لأصحابه القليلي العدد أنْ يفارقوه ، فلماذا يموتون! ويرغب إليهم في أنْ يُخلّوه تحت جنْح الليل ويتّخذوا من الظلمة ستاراً دون كلّ عين فلعلّهم يخجلون أن يبتعدوا عنه في ضوء النهار أو لعلّهم يخشون مَن يخشون ، وفي ذلك ما فيه من سموّ نفس الحسين. فيأبون جميعاً إلّا أنْ يموتوا دونه وكأنهم ينزعون عن قلبٍ واحدٍ ولسانٍ واحد. ويجيبه مسلم بن عوسجة الأسدي بقوله: «أنحن نتخلّى عنك ولم نُعذَر إلى الله في أداء حقّك؟ أمَا والله لا أُفارقك حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما بقيَ قائمهُ بيدي. ولو لم يكن معي سلاحي لقذفتُهم بالحجارة دونك حتى أموت معك!»[2].

---

(١) الاختصاص ص١٤، أمالي الطوسي ص١٤٣، الاحتجاج للطبرسي ١ / ٢٦٨، الجمل لابن شدقم ص١٢٧، بحار الأنوار ٤٢ / ٢٦٦، مناقب الخوارزمي ص١٢٦.

(٢) الارشاد للمفيد ٢ / ٩٢، تاريخ الطبري ٤ / ٣١٨، اللهوف لابن طاووس ص٥٦.

وبرّ بقسمه ومات مع الحسين راضياً مختاراً!.

وهذا حبيب بن مظاهر يدنو من مسلم بن عوسجة وهو ـ أي مسلم ـ يجود بنفسه فيقول له: «لولا أنّي أعلم أنّي في أثرك لاحقٌ بك لأحببتُ أن توصيني حتى أحفظك بما أنت له أهل!» فيجيبه مسلم بهذه الكلمات التي كانت آخر ما قاله: «أُوصيك بهذا، رحمك الله، أنْ تموت دونه!». وأشار بيده إلى الحسين![1]

وهذا الحرّ بن يزيد الرياحي يتيقّظ ضميرُه، ويرغب عن أمجاد الدنيا ساعةَ يستعرض مساوئ يزيد بن معاوية وأنصاره، ونبلَ الحسين وإيمانَ أنصاره وإيثارَهم وفداءَهم. وقصّة ذلك أنّ الحرّ بن يزيد كان من قوّاد بني أُمية الذين وُعدوا بالخيرات إذا هم اشتركوا في قتال الحسين وقضوا عليه وعلى أنصاره.

ووكّل إليه، بالذات، عبيدُ الله بن زياد والي الكوفة أنْ يقوم بهذه الجريمة البشعة. فما كان منه إلّا أن أخذ يقترب من معسكر الحسين اقتراباً راب أصحابَه. ثمّ ضرب فرسه وحثّ السيرَ حتى دنا من الحسين يقول له: «.. وإني قد جئتك تائباً ممّا كان منّي إلى ربّي، مؤاسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك!».

ومات بين يديه!

وهؤلاء هم أنصار الحسين جميعاً بِضْع عشرات من الرجال، يقفون في وجه أربعة آلاف، ويلحّ عليهم العطش والضيق، وينتظرون الموت واحداً واحداً وكلّهم اطمئنانٌ إلى نبل الموت وجلال الشهادة!

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٣٣٢، البداية والنهاية لابن كثير ٨ / ١٩٧.

وقُتل الحسين بن عليّ! واستتبّ الأمر ليزيد بن معاوية وأعوانه!

وذهب الأمل في دولة الطالبيّين، وفي خيرات الأرض تأتي الناسَ على أيديهم. ولكنّ يقظة الروح الشريف لدى أنصارهم لم تخمد ، بل ازدادت وتعاظمت. من ذلك أنّ الحسين بن عليّ يوم نُعي في الكوفة ، نهض واليها عبيد الله بن زياد ونادى إلى الصلاة الجامعة. ولمّا صعد المنبر ، خطب فقال: «الحمد لله الذي أظهر الحقَّ وأهله ، ونصَر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزْبَه ، وقتَل الكذّابَ ابن الكذّاب الحسينَ بن عليّ وشيعتَه!».

فما أتمّ هذا الكلام حتى نهض من جانب المسجد شيخٌ عجوز هو عبد الله ابن عفيف الأزدي، صاحب عليّ بن أبي طالب في موقعتَيْ الجمل وصفّين ، وصاح بالوالي وهو في يوم زهوه وكبريائه وانتصاره على الطالبيين: «يا ابن مرجانة! أتقتل أبناءَ النبيّين وتقوم على المنبر مقامَ الصدّيقين؟ إنّما الكذّاب أنت وأبوك والذي ولّاك وأبوه!»[1].

فما كان الصباح إلّا والشيخ العجوز مصلوب في ساحة الكوفة!

وهذا الفرزدق الشاعر، يصعق بني اُميّة بقصيدته الشهيرة في زين العابدين بن الحسين ، وبنو اُميّة في ذروة سلطانهم ، ولا يخشى عقاب الموت! وهو لم يمدح زين العابدين والطالبيين بقصيدته إلّا مدفوعاً بعاطفة الإعجاب بهم ، والتشيّع لهم دون أجرٍ من الدنيا أو ثواب.

وقصّة ذلك أنّ هشام بن عبد الملك الاُمويّ حجّ على عهد أبيه ، وطاف بالبيت وجهِدَ أن يستلم الحجَر الأسود فلم يتمكن لكثرة الزحام ووفرة الناس ، ولأن الناس لم يُسلكوه إليه طريقاً ؛ وكلّهم كارهٌ لبني اُميّة. وفيما هو

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٣٥٠، كتاب المحبّر ص ٤٨٠.

كذلك إذ أقبل زين العابدين علي بن الحسين ، فطاف بالبيت حتّى إذا انتهى إلى الحجر الأسود انشقّت له الصفوف وطأطأ القوم رؤوسهم إجلالاً ، ومكّنوه من استلام الحجر، فقال رجلٌ من أهل الشام لسيّده هشام بن عبد الملك وليّ عهد أبيه: «مَن هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟» وكان هشام يعرف «من هذا» ولكنه لم يجرؤ على ذكر اسمه أمام أصحابه خوفاً من أنْ يرغّبهم فيه ، فتَجاهل وقال: «لا أعرفه!» ووقعتْ هذه الكلمة في أُذن الفرزدق الشاعر، فقال من فوره: «أنا أعرفه!» ثمّ وقف على مكانٍ مرتفع والحماسة تتلظى في نفسه ، وقذف كلمتَه الخالدة في تاريخ الشعر العربي ومطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطْأتَه والبيتُ يعرفه ، والحِلُّ ، والحرَمُ

فغضب هشام بن عبد الملك فحبس الشاعر بين مكة والمدينة ، فهجاه الشاعر وعرّض ببني أُميّة دون أن يخشى على ذلك عقاباً. وممّا قاله في هشام:

يقلّبُ رأساً لم يكن رأسَ سيّدٍ وعينٌ له حولاءُ بادٍ عيوبُها(١)

هذا قليلٌ جدّاً من أخبار أنصار الطالبيّين في العهود الأُولى للإسلام. ولكنّه قليلٌ يعطيك صورة جليّة عن حقيقة هؤلاء الأنصار الذين صهر نفوسهم الفداءُ والاستشهاد، فكانوا مَن كانوا في مقياس الكرم الإنساني!

أمّا أُولئك ، أعوان الأمويّين ، ففريقان: فريق اجتذبتْه الرشوة وما أرخصها ثمناً للضمائر التي تباع! وفريقٌ تمرّس بالخسّة وكرْهِ الخيّرين من الناس انتقاماً لنقائصَ في الطبيعة والمزاج ، وتلبيةً لنداء الجريمة المتأصّلة في بعض النفوس!

---

(١) الإرشاد ٢ / ١٥١، الاختصاص للمفيد ص١٩١، الأمالي للمرتضى ١ / ٤٨، عيون المعجزات لابن عبد الوهاب ص٦٣، الخرائج والجرائح، للراوندي ١ / ٢٦٧، مناقب ابن شهرآشوب ٣ / ٣٠٦، العمدة، لابن البطريق ص٢٥٣، بحار الأنوار ٤٦ / ١٢١.

من الفريق الذي اجتذبتْه الرشوة كان أنصار أبي سفيان بن حرب عـلى تباينٍ في مفهوم الرشوة لدى الأفراد المختلفين ، وعلى تبايُن في نوع الوعود المقطوعة للمرتشين. فمنهم من كان أبو سـفيان وصـحبه يـرشونه بـالعطاء. ومنهم من رشوه باعتاقه مـن العـبودية كـوحشيّ الحـبشي قـاتل حـمزة بـن عبد المطلب ، وقد مرّ ذكره. ومنهم من وُعد بخيرات الجاهلية إذا هو أعانهم في محاربة محمد فقتلوه وقتلوا أصحابه وثبَت فيهم السلطان!

ومن هذا الفريق أيضاً عمرو بن العاص يـد مـعاوية اليـمنى فـي قـتال عليّ بن أبي طالب، وسوف يأتي عنه الكلام في فصلٍ آت.

ومن هذا الفريق جند أهل الشام الذين سيّرهم معاوية لمحاربة عليّ في صفين. وكان هَمّ هؤلاء أن ينصروا من يُجري عليهم الأرزاق من مال الشعب الذي يجمعه وُلاة بني اُميّة اغـتصاباً وجـوراً، ومَـن يـمنّيهم بـالوعود إذا هـم انتصروا على عليّ وجيشه.

ومن هذا الفريق أيضاً جند يزيد بن معاوية الذين رشاهم يزيد وعملاؤه إمّا بالعطاء وإمّا بالتأمين على حياتهم. فإنّ الكثيرين منهم كانوا مسوقين سوقاً إلى مقاتلة الطالبيّين خوفاً من العقاب إذا هم أحجموا ، وليس لكلّ الناس قوّةٌ على التضحية والفداء، والأخبار عن هذه الحقيقة تملأ كتب التاريخ. من ذلك أنّ الحسين بن عليّ سأل الفرزدق الشاعر فيما كان في طريقه مـن مكـة إلى الكوفة ، قال: كيف أحوال الناس في الكوفة؟ فقال الفرزدق: قـلوب النـاس معك وسيوفهم مع بني اُميّة !

وسأل الحسين مثل هذا السؤال مجمعاً بن عبيد العامري ، فقال مجمع: أمّا أشراف الناس فقد اُعـظمتْ رشْـوتُهم ومُـلئتْ غـرائـرهم ، فـهم ألب واحـد عليك. وأمـا سـائر النـاس بـعدهم فـإنّ قـلوبهم تـهوي إليك وسـيوفهم غـداً

مشهورة عليك![1].

* * *

أمّا الفريق الثاني من أعوان بني أُميّة ، وأعني بهم أُولئك الذين تمرّسوا بالخسّة وكرْه أهل الخير من الناس انتقاماً لنقائص في الطبيعة والمزاج ، وتلبية لنداء الجريمة المتأصلة في النفوس ، فهم كُثْر.

هذا الفريق من المجرمين كان لهم بعض العذر في محاربة الطالبيين وموالاة بني أُميّة لو أنهم قاتلوا مع أسيادهم في النطاق الذي يفرضه الميدان على المقاتلين. ولكانوا إذذاك شيئاً من الفريق الأول ، عبيد الدنيا. غير أنّ ما يؤخذ عليهم هو تلك القسوة التي تترفع عن مثلها الوحوش الضواري وذلك الروح الانتقامي الفظيع الذي لا موجب له إلّا ما في نفوسهم من حقارة ، وما في قلوبهم من شهوات تنتكس جريمةً مرعبة ، وذلك التمثيل الذي تعفّ عنه حيوانات الدنيا ، وتلك الدناءَة في التشفّي من الأطفال وإذلال النّسْوة المُعْوِلات!

وفي طليعة هؤلاء الجلّادين أو كلاب الطراد كما أسماهم بعضُ المؤرّخين ، السفّاحُ الحقير بُسْر بن أرطأة. وقد ينتفع القارئ بأنْ يعرف قليلاً من سيرة هذا المخلوق الذي يجسّم نفسيّةَ الفريق الثاني من أنصار الأُمويّين تجسيماً حيّاً ويمثّل نَمَطاً من الخلق الدنيء اعتاد المؤرّخون في هذا الشرق التّعِس أن يروه عظيماً ، ويعبّر بما عملَ وبما كوفئَ عن حقيقة سيّده وآمرِه معاويةَ تعبيراً أكيداً.

أُولى الصفحات التي خطّها بُسْر بن أرطأة في تاريخ أنصار الأُمويّين

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٣٠٦، البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص١٨٨، مقتل الحسين، لأبي مخنف ص٨٨.

كانت يوم بعثَه معاوية إلى اليمن في جيشٍ كثيفٍ ، وأمَرَه أن يقتل كلّ مَن كان في طاعة عليّ بن أبي طالب أيّةً كانت حاله في الشقاء والنعيم. وكان ذلك في العهد الذي بدأ معاوية فيه يبعث أنصاره ليُغيروا على أطراف دولة ابـن أبـي طالب ، فيروّعوا الناس ويحملوهم على طاعة والي الشام. فامتثل بُسـر لأمـر معاوية وأغار على اليمن فقتل خلقاً كثيراً ، وقلّ أنْ نجا من أهله طفلٌ صغيرٌ أو شيخٌ بائسٌ أو امرأةٌ شقيّة. ومن دناءَاتـه التـي تـعفّ[1] عـن مـثلها الوحـوشُ الضواري أنه فيما كان عائداً من اليمن إلى الشام التقى طفلين وحيدين ، فسأل مَن يكونان؟ فقيل له: إنهما ابنا عبيد الله بن عبّاس عمّ النبيّ وعليّ وكان عبيد الله عاملاً لابن أبي طالب على اليمن، فهجم عليهما وذبحهما ذبْحاً بيده!

وممّا كان يفخر به بُسر هذا أن يروي لمـعاوية أخـبار فـتْكه بـالشيوخ العاجزين والأطفال. وممّا رواه له على أثر غزوةٍ من غزواته أنه قتل في غزوةٍ واحدة ثلاثين ألفاً وحرق مثْلَهم بالنار! وقد قيل في جرائم هذا السـفّاح شـعرٌ كثير ، وممّا قاله يزيد بن مفرغ مشيراً إلى التقتيل والتحريق:

إلى حيثُ سار المرءُ بُسْرٌ بجيشهِ   فقَتَلَ بُسْرٌ ما استطاع ، وحَـرّقا[2]

أمّا سائر الصفحات التي خطتها بسر في تاريخ أنصار الأُمـويين ، فـهي إعادةٌ لهذه الصفحة القاتمة السواد.

ومن هؤلاء المجرم زياد ابن أبيه الذي أطلق لنفسه العـنان فـي سـياسة التقتيل بالعراق على صورةٍ هائلة مريعة. وقد ولّاه معاوية البصرة بعد أن والاه فاستلحقَه بنسبه وأسماه زياد بن أبي سفيان ليستميله أبداً. فهو ما كان يُـقدم على البصرة حتى ألقى في الناس خطْبَته المعروفة بالبتراء. ثمّ جدّ في تشديد

---

(١) تعفّ: تترفّع ، تأبى. المنجد: ٥١٤، مادة «عفّ» .

(٢) الغارات للثقفي ٢ / ٦٤٠، شرح نهج البلاغة ٢ / ١٧.

أمرُ الأُمويين ، وقتَل بالظّنة وعاقب على الشبهة. وما من أمرٍ كان أسهل على أنصار بني أُمية وهم وُلاةٌ من تقطيع أيدي المعارضين وأرجُلهم وصلْبهم على جذوع النخل ، أو سجْنهم ونهْب أموالهم وهدْم دورهم ، وتشريدهم وامتهانهم أحياءً وأمواتاً. ولم يكن بين ولاة بني أُميّة مَن فاق زياد بن أبيه في ذلك إلّا الحجّاج. ومن خطبته البتراء الدالّة على أُسلوبه في أخْذ الناس هذه الكلمات العِجاب:

«وإنّي لأُقسمُ بالله لآخذنّ الوليّ بالمولى(١) والمقيمَ بالظاعن(٢) والمُقبل بالمُدبر والمطيعَ بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتّى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: «انجُ سعْدُ فقد هلك سعيد(٣) أو تستقيم قناتُكم».

«حرامٌ عليّ الطعام والشراب حتى أسوّيها(٤) بالأرض هدْماً وإحراقاً! إيّاي ودلَجَ الليل فإنّي لا أُوتى بمُدلجٍ إلّا سفكتُ دمَه! وايمُ الله ، إنّ لي فيكم لصَرْعى كثيرةً ، فليحذرْ كلّ امرئٍ منكم أن يكون من صرعاي!»(٥).

وفي اليوم الأوّل الذي ولِيَ فيه زياد أمرَ الكوفة ، بعد البصرة ، قطع أيدي ثمانين رجلاً من الكوفيين وهو جالسٌ في مكانه على باب المسجد. وراح زياد يتقرّب من معاوية ورهطه بأعمال البطش والتقتيل والتقطيع يصيبُ بها أنصارَ عليّ بن أبي طالب في الكوفة. يقول المدائني: «إنّ زياد بن سميّة ـ يريد زياد ابن أبيه ـ كان يتتبّع شيعةَ عليّ في الكوفة ، وهو بهم عارفٌ لأنه كان منهم أيّامَ عليّ ، فقتَلهم تحت كلّ حجَر ومدَر ، وأخافَهم ، وقطع الأيدي

(١) الولي: السيّد ، والمولى: العبد. المنجد: ٩١٨ ـ ٩١٩، مادة «ولي».
(٢) الظاعن: الراحل. النهاية في غريب الحديث: ٣/١٥٧، مادة «ظعن».
(٣) مثل يضرب في تتابع الشر. النهاية في غريب الحديث: ٢/٣٦٧.
(٤) يقصد البصرة.
(٥) شرح نهج البلاغة ١٦ / ٢٠٣، تاريخ الطبري ٤ / ١٦٧.

والأرجل ، وسمل العيون ، وصلَبَهم على جذوع النخل ، وطردَهم وشرّدهم عن العراق فلم يبقَ به معروفٌ منهم!

أمّا خبر زياد مع حجر بن عديّ فسوف نرويه في خاتمة هذا الفصل.

ومن كلاب الطراد هؤلاء عبيد الله بن زياد ابن أبيه «بطل» واقعة كربلاء ، وقاتل عمرو بن الحمق وميثم التمّار والشيخ العجوز عبد الله بن عفيف الأزدي والاُلوف من الخلق على الصورة التي ذكرناها. فإنّ ابن زياد هذا لم يكن أهوَن لديه من تقطيع الأيدي والأرجل والصلب والتقتيل والتمثيل بسببٍ وبغير سبب. يقول مسلم بن عقيل بن أبي طالب فيه: «ويقتل النفسَ التي حرّم الله قتْلَها على الغضب والعداوة وسوء الظنّ ، وهو يلهو ويلعب كأنّه لم يصنع شيئاً»(١). وقد تمثّلتْ وحشيّة هذا الجلّاد على أبشع صوَرها يوم تصدّى لمقاتلة الحسين بن عليّ ، تمثّلتْ وقاحتُه ودناءَته على أبشع ما يكون بعد مقتل الحسين!

أمّا شمر بن ذي الجَوْشن ، فلا يقلّ خسّةً عن صاحبه ومولاه عبيد الله بن زياد. فقد تميّز هذا المخلوق بما يحمل في نفسه من حقد على جميع الناس الطيّبين ، وبانحطاط اُسلوبه في الانتقام الذي لا سبب له إلّا وحشيةٌ أصيلةٌ في نفسه. فقد أمات هذا الوحش عدداً من أطفال الطالبيين عطشاً والماء يجري تحت أنظارهم. وأمر رجاله أنْ يطأوا بخيولهم جثّةَ الحسين تنفيذاً لتواطؤٍ بينه وبين ابن زياد على التمثيل الشنيع بابن عليّ بن أبي طالب. فوَطِئُوها مُقْبلين ومُدْبرين حتى رضّوا صدرَه وظهره ، بعد أنْ خطفوا ماكان عليه من كساءٍ مزّقتْه الطعونُ حتى كادوا يتركونه عارياً! وتنفيذاً لأوامر شمر بن ذي الجَوشن

(١) الإرشاد للمفيد ٢ / ٦٢، تاريخ الطبري ٤ / ٢٨٣، البداية والنهاية ٨ / ١٦٨.

هذا كان الطفل ما يكاد يخرج من خيمته في معسكر الحسين حتى يبادره فرسان الأُمويين تمزيقاً بالرماح والسيوف.

وماذا تقول بالحصين بن نمير؟ فإنّه حين اشتدّ عطش الحسين في كربلاء بعد أنْ منعوا عنه الماء، دنا من الفرات الجاري أمام عينيه ليطفئ غلّته، فما كان من الحصين هذا إلّا أنْ رماه بسهمٍ وقع في فمه، حتى امتلأ فمه وراحتاه بالدم الغزير، وانثنى يقهقه بوقاحة المجرمين!

ومن هؤلاء عمر بن سعد بن أبي وقّاص الذي أطاع سيّده المجرم عبيد الله ابن زياد في وقعة كربلاء، وكان أميناً في تنفيذ أوامره وبيده ألّا ينفّذ وألّا يطيع. وساق نساء الطالبيين، بعد مقتل الحسين، على جثث القتلى المطروحة في العراء، بعد أن أشهد الجنود على أنّه أول من رمى أبناء عليٍّ بسهم.

وهذا أحد أصحاب يزيد من أهل الشام، ينظر إلى فاطمة بنت الحسين هي من أجمل خَلْق الله وأرفعهم خُلقاً، وكانت في الذين ساقهم عبيد الله بن زياد إلى قصر الخلافة الأُموية بعد مأساة كربلاء، ويقول ليزيد بوقاحة سافرة: «هب لي هذه الجارية!»(١).

ومن أنصار الأُمويّين السفّاح مسلم بن عقبة الذي ارتكب من الفظائع والمنكرات ما لا مزيد عليه. فقد أرسله يزيد بن معاوية على رأس جيشٍ إلى الحجاز، فأطلق العنان لحقده ووحشيّته، وراح يُعمل السيف في أهل المدينة جزْراً كأنهم الأغنام؛ حتّى غرقت الأقدام في الدماء. وأباح المدينة ثلاثة أيام، وهتَك حرماتها وقتل رجالها وفتك بنسائها وحطّم عظامَ الأطفال تحت أعين

---

(١) الإرشاد، للمفيد ج٢ ص١٢١، الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٣٨، مثير الأحزان، للحلي ص٨٠.

الأُمّهات ، وحزّ الرقاب على صورةٍ هائلة ، ونهَبَ المتاع وهدّم الدور ، ولم يُبقِ على أحدٍ ممّن أدركَه من أبناء المهاجرين والأنصار من صحابة محمد. وقد بلغ مجموع القتلى في هذه الأيام الثلاثة ألفاً وسبعمائة من الأنصار والمهاجرين وعشرة آلاف من سائر الرجال ، هذا عدا الأُلوف من النساء والأطفال! وإليك فقراتٍ قلائل من الكتاب الذي أرسله مسلم هذا إلى يزيد بعد انتهاء المجزرة في المدينة الحزينة ، وفي هذا الكتاب يفخر مسلم بما جنت يداه ، وسوف يلاحظ القارئ عظيمَ نفاقِه ساعةَ يعزو أعماله هذه إلى إرادة ربّ العالمين. قال:

«فإنّي أُخبر أمير المؤمنين ـ أبقاه الله ـ أنّي خرجت من دمشق ونحن على التعبئة التي رأى أميرُ المؤمنين يوم فراقنا بوادي القرى ، فرجع معنا مروان بن الحكم وكان لنا عوناً على عدوّنا! وكان ، أكرم الله أميرَ المؤمنين ، من محمودِ مقامِ مروان بن الحكم وجميل مشهده وشديد بأسه وعظيم نكايته لعدوّ أمير المؤمنين ما لا إخال ذلك ضائعاً عند إمام المسلمين وخليفة ربّ العالمين إن شاء الله! وسلّم الله رجالَ أمير المؤمنين فلم يُصَبْ أحدٌ منهم بمكروه ، ولم يقُم لهم عدوّهم ساعةً من ساعات نهارهم ، فما صلّيتُ الظهر إلاّ في مسجدهم بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم ، وأوقعْنا بهم السيوفَ وقتلْنا مَن أشرفَ لنا منهم واتبعْنا مُدْبِرَهم وأجهزْنا على جريحهم وانتهبناها ـ أي المدينة ـ ثلاثاً كما قال أمير المؤمنين أعزّ الله نصرَه... فالحمد لله الذي شفى صدري بقتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما عتَوا وقديماً ما طغوا!»(١).

(١) الإمامة والسياسة ١ / ٢٤٠ و ١ / ١٨٦.

أمّا سيّد هؤلاء المجرمين من أنصار بني أُميّة فالحجاج بن يوسف... ابن جَلَا وطلّاعُ الثنايا!

سار الحجاج إلى الحجاز بأمرٍ من الخليفة الأُموي عبد الملك بن مروان ؛ لمقاتلة عبد الله بن الزبير وأنصاره. وكان من شأنه أنْ حاصرَ مكة وعبد الله فيها ، ثم قصَفها بالمنجنيق ورماها بالنيران حتّى هدم جانباً من الكعبة. ولمّا ظفر بخصوم بني أُميّة احتزّ رؤوس كبارهم وبعث بها إلى دمشق. ثم صلب جثمان عبد الله بن الزبير بعد أنْ قتَله واحتزّ رأسه إمعاناً في التنكيل وتفجيراً لِمَا يتأجّج في نفسه الشرّيرة المرّةِ في شرّها من براكين الفظاظة والقسوة والحقد على الآدميين. ولم يكتفِ بذلك بل خلّى الجثمان على الصليب أياماً طِوالاً ، فجاءَته أُم عبد الله بنت أبي بكر وكانت عجوزاً مهدّمةً حزينة لا تكاد تبصر ، فقالت له وهي تشير إلى ابنها المعلّق على الصليب:

أمَا آن لهذا الفارس أن يترجّل؟

فعبس الحجّاج وبَسَر[1] ، ونهَر العجوز المسكينة بخشونة ووقاحة ، وبالغ في تأنيبها وتوبيخها.[2]

ومكافأةً له على هذه «المآثر» ولّاه عبد الملك بن مروان الحجاز. فراح يمعن في أهله انتقاماً وتنكيلاً وتعذيباً وإذلالاً ، على صوَرٍ مريعةٍ رهيبة ، تجعلك تدهش من هذا التصلّب العجيب أمام العذاب الإنساني والمآسي البشرية! والحجاج بن يوسف ـ كما يصف نفسه ـ «لجوجٌ لدودٌ حقودٌ

(١) بَسَرَ : كَلَحَ وجهه. الصحاح: ٥٨٩/٢، مادة «بسر».

(٢) الكامل لابن الأثير ٤ / ١٣٦، تاريخ الإسلام للذهبي ٣ / ١١٤، المستدرك للحاكم ٣ / ٥٥٢، تاريخ مدينة دمشق ١٢ / ١٢٠، و ٢٨ / ١٧٢.

حسود»[١] يكره الجنسَ الآدمي ويتميّز بشعورٍ همجيّ قد يحار العلمُ في تفسيره لو سعى فيه.

ثمّ إنّ عبد الملك ما لبث أنْ ولّاه العراقَ ورمى أهلَهم به لتوطيد «الأمن» وإقرار «السلام». فقدم الحجّاج إلى الكوفة في قليلٍ من الجند لا يتعدّون الاثني عشر. وقبل أن يدرك المدينة العلوية بعثَ أحدَ رجاله يخبر أهلها بقدومه. فما كان منهم إلّا أن هرعوا إلى المسجد ينتظرونه. وكان اليوم من رمضان.

وفيما كانوا يتحدثون عن استيائهم من قدوم هذا الطاغية إليهم، أدركهم وعلى رأسه عمامة خزّ حمراء؛ حجبتْ أكثرَ وجهه ومعه سيفٌ وقوس. وواصل سيره ببطءٍ وهو صامتٌ والقوم صامتون، حتى بلغ منبر المسجد فاعتلاه ثم قال: «عليّ بالناس!» فاجتمع الكوفيّون في المسجد ولبثوا ينظرون إليه باهتمامٍ وصمتٍ شديدين. وأطال الحجاج السكوت وأطال القوم الانتظار. ثم راحوا يتهامسون بكلمات الاستنكار. وتناول أحدهم حصىً يريد أن يرميه بها، فإذا بالحجاج يتكلم، وإذا بالحصى تتناثر من يد حاملها وهو لا يشعر مخافةً ورعباً. قال الحجاج وهو يحسر اللثام عن وجهه، والعيونُ شاخصةٌ إليه:

أنا ابن جَلا وطلّاع الثنايا متى أضَع العمامة تعرفوني[٢]

«إنّي، والله، لأرى أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورؤوساً قد أينعتْ وحان قِطافُها، وإني لَصاحبُها. وكأنّي أنظر إلى الدماء ترقرَقُ بين العمائم واللحى.

ألَا وإنّ أمير المؤمنين نثر كِنانتَه وعَجَمَ عيدانَها فوجدني أصلبها عوداً،

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٢ / ١٦٧، البداية والنهاية ٩ / ١٥١.

(٢) ابن جلا: رجل يُضرب به المثل في شدّة البأس. والثنايا جمع ثنية وهي العقبة في الجبل: كناية عمّن يقدم على الأُمور الصعبة والمشقّات دون أن تؤثّر في عزمه وعورة المسلك!

وأشدّها مكْسراً ، فوجّهني إليكم ، ورماكم بي...

أمَا واللهِ يا أهلَ العراق! ومعدنَ الشّقاق والنفاق ، ومساوئ الأخلاق لألحونّكم(١) لحْوَ العصا ، ولأضربنّكم ضرْبَ غرائب الإبل. فإنكم لكأهل قريةٍ كانت آمنةً مطمئنّة يأتيها رزقُها رَغَداً من كلّ مكان فكفرتْ بأنعُم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.»

«يا أهلَ العراق ، عبيدَ العصا وأولاد الإماء! أنا الحجّاج بن يوسف. واللهِ ما أحلِفُ إلّا ما وفَيتُ ، فإيّاي وهذه الجماعات! أما والذي نفْسُ الحجّاج في يده ، لَتستقيمُنّ على طريق الحقّ ، أو لأدَعَنّ لكلّ رجلٍ منكم شغلاً في جسده. فاقبلوا الإنصاف ، ودعوا الإرجاف(٢) قبل أن أُوقع بكم إيقاعاً: يترك النساء أيامى ، والوُلْدان يتامى. وإنّي أُقسم بالله لا أجد رجلاً تخَلّف بعد ثلاثةٍ من بَعْث المهلب إلّا سفكتُ دمه وأنهبتُ ماله ، وهدمتُ منزله...»(٣).

أرأيت هذا الأسلوب في التهديد والوعيد ، وإلى هذه الخطّة في المبادرة التي اعتمدها الحجّاج ساعةَ وطئتْ قدماه أرضَ الكوفة؟ ثم إلى هذا الإعلان عن سفك الدماء وإنهاب المال وهدْم المنازل ، وقطْف الرؤوس التي حان قطافها ؛ حتى لكأنّ صاحبنا ينظر ، منذ اللحظة الأولى ، إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى .

ثم هل أمعنتَ النظر في هذه المبادرة لإذلال النفوس ، ومحاولة تحطيم كلّ مقاومة معنوية في قلوب أهل العراق «معدن الشقاق والنفاق ومساوئ

---

(١) لألحونّكم لحو العصا: لحا العصا لحواً: قشّرها. ولحا فلاناً: لامه وعذله ولحا الله فلاناً: قبّحه ولعنه. ولاحاه: ملاحاة: نازعه وخاصمه ولامه. المنجد: ٧١٧، مادة «لحي».

(٢) الإرجاف: واحد أراجيف الأخبار. وقد أرجفوا في الشيء ، أي خاضوا فيه. لسان العرب: ١١٣/٩، مادة «رجف».

(٣) الفائق للزمخشري ج ٣ ص ٤٢٤، شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٣٤٣، تاريخ دمشق ج ١٢ ص ١٣١، تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤١، البداية والنهاية ج٩ ص ١٣، غريب الحديث لابن قتيبة ج٢ ص ٣٢٣.

الأخلاق ، وعبيد العصا وأولاد الإماء؟».

ولعلّ أكثر من هذاكلّه في مجال الاستهانة والإذلال والنكـاية المـرّة ، دعوة أهل الكوفة للالتحاق بجيش المهلّب بن أبي صفرة للمحاربة دفاعاً عن بني أُميّة وتوطيداً لعرشهم... حتّى إنّ مَن تخلّف عن الالتحاق بجيش المهلّب بعد مضي أيامٍ ثلاثة على بعثه سُفك دمُه وأُنهب ماله وهُدمتْ داره!

أمّا هذا التهديد فقد نفّذه الحجاج كلاًّ ، وزاد عليه!

واشتدّ أمر الحجّاج على المعارضة. يقول المؤرخون: «وأتى الحجاج بعد عبيد الله بن زياد قاتل الحسين وآله ، فقتلهم ـ أنصارَ عليّ ـ كلَّ قتلة وأخذهم بكلّ ظنّة وتهمة ، حتّى إن الرجل ليقال له زنديق وكافر أحبّ إليه من أن يقال له من أنصار عليّ.[1]

وعلى هذا المبدأ أخذ الحجّاج يعمل. ولم يكن هنالك ما يـروي ظـمأه الشديد الملحّ للتنكيل بالناس وسفْك دمائهم وإهدار كراماتهم.

شغل الطاغية أهلَ الكوفة بالاستعداد للقتال أياماً ثلاثة ، حتّى إذا انقضتْ بعَثَهم إلى الغزْو دون أن يستثني حتّى المراهقين من الصبيان. فكانت المرأة تجزع فتجيء إلى ابنها الصبيّ فتضمّه وتقول له: «بأبي» لشدّة خـوفها عـليه. فسُمّي ذلك الجيش «جيش بأبي». وفي هذه الأثـناء جـاء الحـجاجَ عـميرُبن ضابئ الحنظلي فقال له: أصلح الله الأمير! أنا شيخٌ كبيرٌ ضعيف ، وابـني هـذا أشبُّ منّي وأتمّ أداةً! فقال الحجّاج: هذا خيرٌ لنا من أبيه. ثم سأله: ومن أنت؟ قال: أنا عمير بن ضابئ الحنظلي. قال الحجاج: ألست الذي غـزا عـثمان بـن عفان؟ قال: بلى! قال الحجاج: يا عدوّ الله! وما الذي حملك على ذلك؟ قال: إنّه

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١ / ٤٤، الدرجات الرفيعة لابن معصوم ص٦، ينابيع المودة ٣ / ٢٧٨.

حبس أبي وكان شيخاً كبيراً ضعيفاً ، ولم يطلقْه حتّى مات في سجنه. فقال الحجاج: أو لستَ أنت القائل:

هممتُ، ولم أفعلْ، وكدتُ، وليتني   تركتُ على عثمانَ تبكي حلائلُهْ

إنّي لأحسب أنّ في قتلك أيّها الشيخ صلاحَ المِصرَين! إنّ عذرك لواضح ، وإنّ ضعفك لبيّن ، ولكنّي أكره أن يجترئ بك الناس عليّ[١]. ثم أمر به فضُرب عنقه وأُنهب ماله وهُدمتْ داره!

وانتشر الخبر في الكوفة فذُعر أهلها وهرعوا إلى المعسكرات مزدحمين حتّى ضاق بهم جسرٌ على الفرات مرّوا عليه، فسقط منهم خلقٌ كثير في مياه النهر. وحتى راحوا يرسلون إلى ذويهم من المعسكرات قائلين: «زوّدونا ونحن في مكاننا»[٢].

واستعمل على الكوفة رجلاً دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الخيانة ، اسمه عبد الرحمن بن عبيد التميمي. ولمّا اطمأنّ إلى الحالة في الكوفة سار منهم إلى البصرة وكانت المعارضة فيها قويّة. فلمّا بلغها خطَبَ أهلَها وتوعّدَهم بخشونةٍ وعنف إنْ هم لم يلحقوا بالمهلّب بعد ثلاثة أيام، على نحو ما فعل بالكوفة. ولمّا نزل عن المنبر حدَثَ أنْ جاءَه شيخٌ عجوز يدعى شريك بن عمرو اليشكري وكان أعور وبه فتق ، فقال له: أصلح الله الأمير! إنّ بي فتقاً ، وقد عذرَني بشرُ بن مروان ـ شقيق الخليفة ووالي البصرة ـ قبل الحجاج. فأجابه الحجاج: إنّك عندي لصادق. ولكنّه ما لبث أن

(١) شرح نهج البلاغة ٤ / ١٨٢، تاريخ مدينة دمشق ١٢ / ١٣٢، الكامل لابن الأثير ٣ / ١٤٦، تاريخ الطبري ٥ / ٤٤.

(٢) البداية والنهاية ٩ / ١٤ وفيه: فخرج الناس حتى ازدحموا على الجسر فعبر عليه في ساعة واحدة أربعة آلاف..

أمر بضرب عنقه. فلم يبقَ بالبصرة كبيرٌ ولا صغيرٌ إلّا لحقَ بجيش المهلّب.

ثم إنّ الحجاج كان جالساً إلى مائدته ، ذات يوم ، يتغذّى مع نفرٍ من جماعته. فإذا بأحد رجال شرطته قد أتاه بحائكٍ من البصرة ، وقال له: أصلح الله الأمير! هذا رجلٌ عاصٍ! فجعل الحائكُ يرتجف خوفاً وهلعاً ، وقال للحجاج: أُنشدك الله أيها الأمير في دمي فواللهِ ما قبضتُ ديوناً قطّ ، ولا شهدتُ عسكراً ، وإنّي لحائكٌ أُخذتُ من تحت الحفّ ـ يعني قصبة الحياكة(١). فلم يتردد الحجاج لحظةً في أنْ يأمر بضرْب عنق الحائك الذي سجد ساعة أحسّ بالسيف يعلو رقبتَه ، فلحقه السيف وهو ساجد. وتابع الحجاج غداءه. فيما توقّف مؤاكلوه وامتنعوا عن الطعام استنكاراً واشمئزازاً ؛ وقد صفرتْ أيديهم واصفرّتْ وجوهُهم وحدّت أنظارُهم. فالتفت إليهم الحجاج وقال بلهجةٍ غاضبة: «ما لي أراكم صفرتْ أيديكم واصفرّت وجوهكم ، وحَدّ نظركم مِن قتْل رجل واحد؟ إنَّ العاصي يجمع خِلالاً تخلّ بمركزه... والوالي مخيّرٌ فيه ، إنْ شاء قتَل ، وإنْ شاء عفا...»(٢).

على هذه الصورة كان الحجّاج يرى «صلاح المصرين». وما هذه النماذج التي أعطيناها عن أُسلوبه في التنكيل بالمعارضة إلّا من الأشياء العابرة البسيطة التي لا تُذكر في حياة الحجّاج إلى جانب تقتيله الجماعات. فلمّا كانت ثورة ابن الجارود عليه ، وكان هو السبب فيها ، اعتقل معظمَ الثائرين بعد أن ظفر بهم ، وقطَع رؤوسهم وأرسلَها إلى المهلّب ليعرضها على الناس ؛ ترهيباً لكلّ مَن تحدّثه نفسه بأنْ يعصي له أمراً. ثم إنّه راح يجنّد عشرات الأُلوف من الكوفة والبصرة ليقاتل بهم ، دون جُنْد الشام ، أعداء بني أُميّة في كلّ مكان ، فينتقم

(١) شرح نهج البلاغة ج٤ ص١٨٤.
(٢) شرح نهج البلاغة ج٤ ص١٨٤.

من شيعة عليّ ، ويستخدمهم لأغراضه في وقتٍ معاً. حتّى لم يكن في المدينتين صبيٌّ طَرّ شاربُه إلّا وكان مُعَدّاً لأن يُقتل بسيف الحجّاج أو بسيوف خصومه!

وتوالت ثورات العراقيين على الحجّاج وفظائعه ، ولكنّها كانت ضعيفةً متقطعة لا يلبث القائمون بها أن يقعوا في يد الحجّاج فريسةً للتعذيب والتنكيل والتقتيل. وامتدّ سيف الحجّاج إلى الجماعات يستعرضها ويحصد منها الأُلوف تلو الأُلوف. وفاضت سجون العراق بالرجال والنساء حيث يقيمون على المهانة والعذاب انتظاراً لأنْ يأتي دورهم فيجزرهم سيف الطاغية. وراح الجوع يفتك بمن لم تقع عليه عينُ الحجّاج وجنْدِه بعد. وعاش العراق المعارض في جوٍّ رهيبٍ من الكآبة والمذلّة واليأس.

وازداد هذا الجوّ عبوساً بعد انتصار الحجّاج على ابن الأشعث في معركة الزاوية التي أسر بها الحجّاج أحدَ عشر ألفاً من العراقيين ، خدَعَهم بإعطائهم الأمان ، ثم قتَلهم عن بكرة أبيهم. وفي معركة «دير الجماجم» التي وهنتْ بها عزائم أهل العراق واشتدّ بهم الجوع وانتشر بينهم الطاعون، فوقع الثائرون في قبضة الطاغية فلم يرحم منهم رجلاً واحدا.

ومع ذلك فإنّ «الأمن» لم يسد بالكوفة والبصرة. ولم يركن العراق إلى الهدوء لِما أصابه من وهنٍ بفعل هذه المظالم. فراح الحجّاج يمعن في التنكيل بمن بقي في عداد الأحياء ، ويضيف إلى صرعاه ضحايا جديدة في كل يومٍ وكلّ ساعة. وكان للحجّاج شغفٌ بربريٌّ عجيبٌ في إذلال العراقيين وتحقيرهم وسَحْق معنوياتهم قبل أنْ يضرب أعناقهم. وبالَغَ في هذا الإذلال كما بالغ في إراقة الدماء ، حتى بات الناس ولا حديث لهم ساعةَ يتلاقون في المساجد أو المحافل أو الأسواق إلّا في مَن قتَلَ أمسِ ، وفي مَنْ يصلب اليومَ ، وكيف ذُبح

فلان ، أو كيف أُهين قبل مصرعه.

وكانت الكلمة المأثورة عن الحجّاج في أمصار العراق ، تلك التـي كـان ينطق بها أبداً ويردّدها فـي كـل سـاعة كـلما نـادى إليـه رجـلاً مـن العـراق: «يا حرسيّ»، اضربْ عنقَه!»[1].

وبلغ به حبُّ الانتقام من أنصار عليّ بن أبي طالب ، أنّه كان يأمر بقتل كلّ مَن دُعي عليّاً أو حسيناً أو سمّي باسمٍ طالبيّ، حتى إنّ البائسين من هؤلاء كانوا يأتونه فيعتذرون له عن أسمائهم. من ذلك أنّ رجلاً وقف للحجّاج فـقال له: أيّها الأمير! إنّ أهلي عقّوني فسمّوني عليّاً ، وإني فقيرٌ بائس ، وأنا إلى صـلة الأمير أحْوَج!

وضُرب المثل بجور الحجّاج. وكان الشيعة بصورة خاصة موضوع هـذا الجور. وأُحصيَ مَنْ قتَلَهم مدّةَ ولايته فكانوا مائةً وعشرين ألفـاً، وكـان فـي سجونه ساعةَ موته خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة!

أمّا الخليفة الأُمويّ عبد الملك بن مروان ، فقد قال لبنيه ساعةَ حـضرتُه الوفاة: «أكرِموا الحجّاج فإنّه الذي وَطّأ لكم المنابر ، ودوّخَ لكم البلاد وأذلّ الأعداء.»[2] وحُفظتْ الوصيّة ، فأقرّه الوليدُ بن عبد الملك بعد موت أبيه على إمارته في العراقين والمشرق!

* * *

ولن نختم هذا الفصل قبل أنْ نروي حادثةً غريبةً في بابها ،كثيرةً في ما تحمل مِن خصائص الأُمويّين والطالبيّين ، وأنصارِ أُولئك وشيعةِ هؤلاء فـي وقتٍ معاً. وقد خطّتْ هذه الحادثة في التاريخ العربيّ صفحةً هي العظمة كلّها

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٢ / ١٨١ و ٥٦ / ٣٥٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٣ / ٥٨، الإمامة والسياسة ٢ / ٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٦٣ / ١٧١.

لِما حملت مِن معاني السموّ لدى أنصار عليّ بن أبي طالب ، وهي الصّغار كلّه مِن حيثُ ما جمَعتْ من صُوَر الانحدار لدى أنصار الأُمويّين.

وموجز هذه الحادثة: أنّ حُجْرَ بن عُدَيّ الكنديّ أبى إلاّ أنْ يظلّ على حبّه لعليّ بن أبي طالب ولِما يمثّله من عظمة الإنسان الحقّ. ولمّا كانت خلافة معاوية اضطرّ حُجر إلى مبايعته ؛ أُسوةً بمن حُملوا على المبايعة من الناس. غير أنّ ذلك لم يكن يضطرّه إلى التنكّر لعليٍّ أو إلى التبرّؤ منه ولا سيّما وهو يسعى لأن يسير في الناس سيرةَ ابن أبي طالبٍ نفسِه ، فكان صادقاً صريحاً حرّاً محبّاً للسلم كارهاً للقتال ، راغباً في العدالة الاجتماعية إلىٰ أقصى حدودها. ثمّ إنّ السلطان لم يكن في نظره أكثرَ من وسيلةٍ لخدمة الجماعة على نحو ماكان في نظر استاذه العظيم عليّ بن أبي طالب، فإنْ كان كذلك ماشاه وإنْ اختلفَ إلى الفساد والمُنكر عاداه أشدّ عداء ، وسخط عليه أشدّ سُخْط! وكان من الطبيعيّ لرجلٍ كهذا الرجل أنْ يُنكر ما يلجأ إليه بنو اُميّة من شتم عليٍّ على المنابر ، وأنْ يُعلن عن إنكاره عليهم ولو أدّى ذلك إلى ما يريده به السلطان! ويُروَى أنّ المغيرة بن شعبة وقف ذات مرّةٍ على منبر الكوفة يشتم عليّاً وأصحابه بعد موت الحسن. فماكان من حُجر إلاّ أن نهض وراح يغلظ له القولَ في وجهه ، ويطالبه بأنْ يُنصف الناس ويعدل فيهم ويؤدّي إليهم ما أخّر من عطائهم عوضاً عن أن يتابع سيرتَه المنكَرة في شتْم علي وأصحابه. وآزر حجراً في ذلك كثيرٌ من الناس ، فاضطرّ المغيرة إلى قطْع حديثه والنزول عن المنبر.

وظلّ الأمر كذلك حتى مات المغيرة ، فخَلفَه زيادُ بن أبيه والياً على الكوفة مِن قِبَل معاوية. وكان زياد وحُجْر بينهما صداقة. إلاّ أنّه حدث ما أفسد هذه الصداقَة بينهما. وخلاصة ما حدث أنّ عربياً مسلماً قتلَ ذميّا ، فلمّا رُفع الأمر إلى زياد بن أبيه رفض أن يقتصّ للذميّ القتيل من المسلم، بل اكتفى بأن

يقضي بالدّية. فنفر أهلُ القتيل من ذلك وأبَوا قبولَ الدية وقالوا: كنا نُخْبَرُ أنّ الإسلام يسوّي بين الناس ، ولا يفضّل عربيّاً على غير عربي. ولمّا كان حجرُ بن عديّ مسلماً مؤمناً بنُبل الرسالة التي يقول صاحبها: **«الخلقُ كلّهم عيال الله»**[1] و **«الإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره»** و **«لا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى»**[2]. ولمّا كان مؤمناً كذلك بضرورة العدالة التي استشهد علي في سبيلها ، بعد أن اتّخذ منها دستوراً لحياته الخاصّة والعامة ، فقد أنكر أشدّ إنكارٍ هذا الاسلوبَ في القضاء ، وغضبَ حتّى لا يستطيع السكوت، وأبى إلّا أن يُعامَل المسلم كغير المسلم لا فرقَ بينهما وهما من عيال الله. وساندَه في هذه الغضبة معظم المسلمين من شيعة عليّ ، وراحوا يعدّون للثورة عدّتَها حتى يُعدَل فيُساوَى بين الناس في كلّ حال ؛ وفْقاً للحقيقة الإسلامية ولوصايا النبيّ والإمام. وخشي زياد وصحْبُه الفتنةَ ، فأمرَ بمعاقبة القاتل مكرَهاً . ثم كتب إلى معاوية يشكو حُجْراً ومؤازريه من أنصار عليّ. فأجاب معاوية يأمر زياداً بأنْ ينتظر بحُجْرٍ وبأصحابه أوّلَ حجّةٍ تقوم عليه وعليهم.

ويطول الحديث في ماكان بعد ذلك من أمْر زياد وحُجر وأصحابهما ، وماكان من إنذار زياد وتحذيره ، ومن معارضة حجْر وجماعته لتصرّفات زياد، ومقاطعتهم إيّاه في كلّ خطبةٍ يخطبها. ثم كثرتْ بين الجماعتين التناوشات ، إلى أنْ أمَرَ زياد جماعةً من أهل الكوفة أنْ يأتوا حُجْراً فيردّوه عن طريق المعارضة ويسيروا به في سبيل الموالاة. فعادوا إلى زياد يخبرونه بأنهم لم يتمكنوا ، ولن يتمكنوا ، من أنْ يزعزعوا في حُجْرٍ عقيدةً يعتقدها أو رأياً يراه. إذذاك أرسل زياد مَن يدعو حجَراً إليه ، فامتنع حجر. فأمَرَ الشرطة

(١) المعجم الكبير للطبراني: ١٠ / ٨٦ الحديث رقم ١٠٠٣٣.
(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٥ / ٤١١.

أن يأتوه به ، فامتثل الشرطةُ لأمرِه ، وكان بينهم وبين أصحاب حُجْرٍ قتال ، ولكنّهم لم يظفروا به وقد استخفى عنهم. فثقُلَ الأمرُ على زياد ، فأخذ محمد بن قيس بن الأشعث وهو كبير أنصار حُجْر ووجيه كندة ، فتوعّده بالسجن ، وبأنّه سيمثّل به ثم يقتله إذا هو لم يَسعَ في أن يُؤتى بحُجر إليه.

وأبى حُجْر أن يمثّل بصاحبه هذا ، فأقبل على زياد بعد أنْ أُخِذ له الأمان على نفسه ووُعد بأن يُرسَل إلى معاوية فيتقاضيا! وما كاد حجرُ أن يقف بين يدَي زياد حتّى أمرَ بسجنه ، ثم بطلب ذوي الرأي والقيادة من أصحابه. فاستطاع أن يقبض على بضعة عشر من هؤلاء بعد تنكيلٍ وتقتيل. ثم طلب من أهل الكوفة أن يشهدوا على هؤلاء بشهادةٍ تؤذيهم، ولجأ إلى الترهيب في طلب هذه الشهادة. فشهدَ بعضُهم أنّ حُجْراً وأصحابَه يوالون عليّاً ولا يوالون سواه ، وأنّهم يعيبون عثمان بن عفان ويذمّون معاويةَ بن أبي سفيان. غير أنّ هذه الشهادة لم يكتفِ بها زياد، فهو يريدها أقطَعَ وأشدّ مَجْلبَةً للمكروه. فشهد أبو بُردة بن أبي موسى الأشعري بأنّ حُجْراً وأصحابه «خلعوا الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، وبَرِئوا من خلافة معاوية ، وهمّوا بإعادة الحرب»[1]. ولمّا كتب ابن أبي موسى هذه الشهادةَ طلب زياد إلى أهل الكوفة أنْ يمضوها ، فمضاها نحو سبعين منهم. ولم يتورّع زياد من الكذب والتزوير إذ أضاف إلى هذه الأسماء ، أسماءَ جماعةٍ لم يشهدوا ولم يكونوا حضوراً ، ومن هؤلاء شريح القاضي العادل الذي مرّ ذكرهُ في مكانٍ سابق ، والذي ما لبث أنْ بعثَ إلى معاوية يبرّئ نفسه من الشهادة المزوّرة ، بل ويشهد أنّ حُجْراً رجل صالحٌ من خيار الناس.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٣١، البداية والنهاية ٨ / ٥٢.

وسيقَ حجْر وأصحابُه إلى معاوية وقرأ كتابَ زياد إليه وشهادة الشـهود في حُجْر، ثم كان أن قُرئ الكتاب والشهادة على الناس. ونصح بعض الناس إلى معاوية أن يكتفي بحبْسهم ، وأشار آخرون عليه بأن يفرّقهم فـي قـرى الشام فلا يعودوا إلى العراق. واستأنى معاوية وكاتَبَ زياداً في أمرهم ، وفـي جملة ما قاله زياد: إنْ كانت لك حاجةٌ بالعراق فلا تردّهم إليّ[1].

وبعد زمنٍ قليل أرسلَ معاوية إلى حجْر وأصحابه مَن يعرض عليهم أنْ يتبَرّأوا من عليّ بن أبي طالب ويلعنوه ، ويتولّوا عثمان بن عفّان ، فمَن فعلَ ذلك منهم بات آمناً على حياته ومَن أبى منهم قُتل.

وعُرضتْ على هؤلاء البراءة من عـليّ فأبـوا بـعنادٍ وإصـرار ، فـراحـوا يقتلونهم واحداً واحدا في قصّةٍ طويلةٍ ترويها كتبُ التاريخ بدموعٍ وآهـات. وفي تفاصيلها ما يرفع من قيمة الإنسان ومن شرفه ، إذ يأبى أنْ يـتبرّأ مِـن ضميره ولو لدقائقَ معدودات أمامَ حفرة الموت ، وكان جماعة مـعاوية قـد حفروا لكلٍّ من رهْط حجْر بن عديّ حُفرة بمقياس جسمه أمامَ عينيه يُقتَل ثم يُطرَح فيها إنْ لم يتبرّأ من عليّ. وممّا جاء في رواية مقتل هـؤلاء أنّ اثـنين هـالَهما مـا رَأيَـا مـن «السيوف المشـهورة والقـبور المـحفورة والأكـفان المنشورة»[2] فطَلبا أنْ يحملا إلى معاوية فإنّهما يرَيان رأيَه في عليّ وعثمان كما أظهرا. فحُملا إلى معاوية فيما قُتل الآخرون. أمّا أحدهما فقد أظهر البراءة من عليٍ بلسانه دون قلبه ، وأما الآخر فإنّه لمّا كان أمامَ معاوية وجها لوجه ، امتدح عليّاً وأصحابَه وشتمَ معاوية وأصحابَه، وأسمعَه في عثمان ما لا يُطيق.

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٥٢.

(٢) هذه الكلمات من وصف حجر بن عدي لما أعدّ له ولصحبه.

تاريخ مدينة دمشق ٨ / ٢٦.

فأمرَ معاوية بأنْ يُساق إلى زياد بن أبيه ، ثم بعث إلى زياد يأمره بأن يقتله قتْلَةً لم يُقْتَلْها أحدٌ في الإسلام. فما كان من زياد إلّا أنْ أمرَ به فدُفن حيّاً!

وأمّا حُجر بن عُدَيّ فقد قال حين قُدّم إلى السيف: «الله بيننا وبين اُمّتنا ، شهدَ علينا أهلُ العراق وقتَلَنا أهلُ الشام!»[١].

لقد كان الاُمويّون مِن أبرز مَن يمثّلون الملوكَ في التاريخ وميلَهم إلى الحكم الفردي الاستبدادي ، وخصائصَهم في الاستئثار والاحتكار، وجعْل الأرض والناس منهبةً لهم وعبيداً. وكان عليّ بن أبي طالب وبنوه الأوّلون من أبرز مَن يمثّلون إنسانيّةَ التفكير ، وخيريّة العمل وديموقراطية الحُكم ، وإباحة الأرزاق للشعب وحدَه، دون الوجهاء والزعماء والمتنفّذين والمترهّلين. ومن طبيعة الفريقين كانت طبيعة أنصارهم ومحبّيهم. فمال الوجهاء والمستنفعون إلى بني اُمية؛ طمعاً بما يصْبُون إليه من مغانمَ مادّية ومكاسب معيّنة. ومال معهم مِن الناس خلقٌ كثيرٌ. لأنّ الناس في ذلك الزمان لم يكونوا قد بلغوا المستوى الذي يمكّنهم مِن معرفة ما ينفعهم أو يؤذيهم في المدى الطويل البعيد ، فإذا هم يميلون إلى ما يحسبونه نفعاً لهم ، وما كان نفعاً إلّا في المدى القصير القريب ، فلا يغيب عنهم رجلٌ خذَلوه وأنكروه كابن أبي طالب ، ولا تظهر لهم حقيقةُ مَن والوه ونصروه من خصومه ، حتى يندموا على ما فعلوا ندماً كثيراً ، ولات ساعةَ مندم... فقد غاب وجهُ العدالة الاجتماعية الصافية ، وظهرتْ عليها وجوهٌ من المكر والحيلة والجور والحكم الاستبدادي المقيت! ومال إلى ابن أبي طالبٍ وبنيه أنصارٌ ومحبّون ،كانوا من طبيعتهم ومن خُلقهم ، فظلّوا على الحقّ وظُلموا ولقُوا من الحكّام والنافذين وأنصارهم

(١) تاريخ مدينة دمشق ٨ / ٢٣، تاريخ الطبري ٤ / ٢٠٣ وفيه: شهد علينا الأعداء والأظناء...

الأغبياء كلّ مُرٍّ من العيش ، وكلَّ مظلمٍ قاتمٍ كـليالي البـؤس وسُـحْبِ الشـقاء الطويل ، واستشهدوا في هذه الطريق مجرّدين إلّا عـن رغـبتهم فـي العـدالة الاجتماعية اُسوةً بأُستاذهم العظيم عليّ بن أبي طالب.

فكما سمتْ بهذه النـفوس إلى الآفـاق الصـافية مـن التـجرّد والشـهامة والحنان والرغبة في ديموقراطية الحكم وعدالة النظام نـصْرة عـليّ بـن أبـي طالبٍ وبنيه السابقين،كذلك هبطتْ بأُولئك الوجهاء إلى الأغوار المرذولة من الأنانيّة والروح التاجرة والقسوة الفاجرة ومساندة الاستبداد والأَثَرة نصْرةُ بني أُميّة!

* * *

واُشير هذه المرّة أيضاً إلى «آراء» بـعض الكـتّاب العـرب فـي أحـوال تاريخنا ورجاله ، دون أن نردّ عليها ؛ لأنّ في ما ذكرناه بهذا الفصل ردّاًكثيراً. وقد اخترتُ محمدكرد عليّ نموذجاً لهـؤلاء الكـتّاب ، واخـترتُ رأيَـه فـي الأُمويّين وأنصارهم ؛ نموذجاً لآرائهم في معنى البطولة والعظمة.

يقول محمدكرد عليّ: في معاوية وفي السفّاحين الذيـن بـعَثَهم لتـقتيل الناس ، ونهْب أرزاقهم وتهديم دورهم ، وذبح أطفالهم وتـحريق نسـائهم ، توفيراً للمال ينفقه على نفسه وعلى أنـصاره ثـمّ عـلى جـنوده الذيـن يُكـثر عطاءَهم من دم الملايين ليـحافظوا عـليه وعـلى ابـنه يـزيد ونسـيبه مـروان وأعوانهم النافذين المجرمين ، ويساعدوهم على قتْل عـليّ بـن أبـي طـالب والحسين بن علي وعمّار بن ياسر وحُجْر بن عدَيّ وغيرهم من شرفاء الخلق:

«... وأهمّ ما قام به ـ معاوية ـ تنظيم الجيش فضاعَفَ عطاءَه... ووُفِّق إلى استخدام أكبر رجال الإدارة وأعظمهم: زياد بن أبيه ، والمغيرة بـن شـعبة ، والضحّاك بن قيس ، ومسلم بن عقبة ، وبسر بن أرطأة!».

ينعت محمد كرد عليّ هـؤلاء السفّاحين بأنـهم «أكـبر رجـال الإدارة وأعظمهم» في كتاب ألّفه وأسماه «الإسلام والحضارة العربية» ومن حقّه أنْ يُظهر براءة الإسلام من أمثال هؤلاء، وبراءة كلِّ حضارةٍ عربيّة كانت أو غير عربيّة منهم. يقول هذا القول العجيب دون أن يـحاسب نـفسَه عـمّا يـقول، ودون أن ينتصف للقرن العشرين من ظُلُمات التاريخ ودون أن يأبَـه لهـذه العبارة التي ذكَرَها في الصفحة التالية إذ قال: «إنّ أحد الصّلَحاء سئل أيّام معاوية كيف تركتَ الناس؟ فقال: تركتُهم بين مظلومٍ لا يُنتَصَف وظالمٍ لا ينتهي!».

ولكنْ لماذا يحاسب نفسَه وينتصف للقرن العشرين، ويأبه لهذه العبارة وهو الذي يعود فيعلّق على رأي صاحبها، قائلاً: «...كأنّه يريد أن تكون إدارة المُلك على عهد معاوية بن أبي سفيان كما كانت على عهد عمر بن الخطّاب، وفاتَه أنّ لكلّ عصرٍ طريقتَه ورجالَه»(١).

وفات الناس أن أكثر الباحثين في موضوعات الحضارة في أيامنا هذه هم من العصور الخوالي!.

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ج٢ ص١٦١.

الذين قتلُوا عثمان!

ـ أيّما عاملٍ لي ظلَم أحداً فبلغتْني مظلمتُه فلم اغيّرْها فأنا ظلمتُه! (١)

عمر بن الخطاب

ـ وصادَرَ ابنُ الخطّاب عمرَو بن العاص ، وأبا هريرة ، وخالدَ بن الوليد ، وردّ الأموال في بيت مال الشعب.

لو تجرّد المرءُ عن كلّ هوىً مع الإسلام أو عليه ونظرَ في الأُمور نظَراً إيجابيّاً خالصاً، لو ثِقَ أنّ الإسلام إنّماكان باعثاً على يقظةٍ عظيمةٍ بعد غفلة عاش فيها العرب ، فظلّوا ناسين منسيّين أجيالاً طِوالاً. وأنّه ما تمكّن من هذا البعث إلّا لأنّه كان ثورةً اجتماعيّةً في الدرجة الأُولى. أمّا أبرز ما في هذه الثورة من الناحية الاجتماعية فذلك النظر الكثير الذي نظرَه الإسلام في حال الطبقاتِ غنيِّها وفقيرِها ، عزيزِها وذليلِها ظالمِها ومظلومِها ، فاجتثّ من أسباب هذا التفاوت ما تَقْبله المرحلة التاريخيّة التي كان فيها يومذاك وما يَقْبله الإطار المكانيّ كذلك ، وخفّفَ من وطأة الاستغلال على العرب ما هو في نطاق زمانه ، ودرّبَهم على أن يشعروا بأنّهم أُخوةٌ متعاونونَ متكافلون في مجتمعٍ كبيرٍ يضمّهم إلى غيرهم من الشعوب، ويجعلُ لواحدهم من الفضل على الآخر بمقدار ما يعملُ وما يُحسن.

(١) كنز العمال ١٢ / ٦٥٩، الطبقات الكبرى ٣ / ٣٠٥.

ولو تجرّد المرءُ عن كلّ هوىً مع المسلمين أو عليهم في عهدهم الأول ، ونظرَ في أحوالهم نظراً إيجابيّاً خالصاً ، لوثِقَ أنّ ذلك العهد القصير إنّما كان من أغنى عهود الإنسانية في شرف النفس والضمير ، وفي المشاعر الحيّة التي تجعل من الإنسان الفرد وحدةً كاملة تجسّ وتفكّر وتقول وتعمل ، فلا تجد العملَ والقولَ والتفكيرَ والإحساسَ إلّا وحدةً لا تتجزّأ، ثم في الإخلاص لمبادئ تلك الثورة الاجتماعية إخلاصاً يبلغ حدّ التضحية في أغلب الأحيان.

ولمّا كانت قضية عثمان مرتبطة أشدّ ارتباط بالجانب الاجتماعي من أحوال المسلمين في عهده وقبلَ عهده ، فقد بات من العبث أن نحاول إدراك الأسباب الحقيقية في الفتنة ، وفي ما كان لها من ذيولٍ وما استَتْبعتْ من مآسي ، خارجَ هذا الجانب الاجتماعي،كما أنّه من العبث ومن الكذب على التاريخ والحقيقة أنْ نحصر أسبابَ تلك الفتنة وتلك المآسي في عوامل دينيّة خالصة. فإنّ وقائع التاريخ ، وشروط الحياة ، وأحوال النفوس ، تدلّنا على أنّه ليس ثمّةَ من حركةٍ عامّةٍ قامت باسم دينٍ من الأديان أو ضدّه إلّا وكان لها مضمونٌ اجتماعي سواءٌ أكان هذا المضمون واضحاً بيّناً أو مطويّاً خفيّاً.

في السنوات الأُولى لبدء الدعوة الإسلامية يبرز أمرٌ شديد الجلاء ، هو أنّ أكثريّة المسلمين كانوا من الطبقات المغلوبة على أمرها في الجاهلية ، وأن أشدّهم حماسةً للدعوة الجديدة كانوا المرهَقين والمستضعَفين والمظلومين ، إلى جانب نفرٍ ممّن مدّهم الله بنور الوجدان فأنصفوا وسانَدوا محمداً وهم غير مستضعَفين ، كما يبرز أمرٌ آخرُ شديد الجلاء أيضاً ، هو أنّ أكثرية خصوم الدعوة كانوا من الطبقات الغالبة المستغلّة التي يسوؤها أن تتبدّل الحال ، فتُحْرَمَ أمجادَها وما هي فيه من استعلاء المترَفين ، وأنّ أشدّ الناس حماسةً ضدّ الدعوة الجديدة كانوا أكثرهم مالاً وجاهاً ونفوذاً واستبداداً. وفي موقف

النبيّ من أُولئك الذين جعلوا «**مالَ الله دُوَلاً وعبادَ الله خوَلاً**» وبـطِروا وأنِـفوا أنْ يكونوا ناساً كسائر الناس لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. وفـي مـؤاخـاة النـبيّ لأُولئك المسـتضعَفين الذيـن أرادهـم أن يكـونوا بشـراً يَـحيون فـي الأرض ويُرزقون من خيراتها ، لا آلاتٍ يـملكها أسـيادٌ تـافهون ويسـيّرونها وفْـق مآربهم ، وفي حبّه واحترامه للعاملين المنتجين ، في كـلّ ذلك مـا يـفسّر لنـا موقفَ المضطَهدين من دعْوته وموقفَ أصحاب الوجاهات. فقد هالَ هؤلاء وطاب لأُولئك من النبيّ أنْ يقول: «**الناس كلّهم سواسيةٌ كأسنان المشط**»[1] ، وأنْ يرفع من شأن العبيد والمستضعَفين والمظلومين ويساويهم بالأسياد في كـلّ حقٍّ وكلّ واجب.

وفي فصلٍ عقدناه بعنوان «قبل الإمام» إيضاحٌ موجز لحقيقة الإسلام من الناحية الاجتماعية ، ثم لموقفه الثوري من نظُم عصره وأحـوال المسـتبدّين والوجهاء والمستضعَفين والفقراء ، فإنْ شئتَ فارجعْ إليه. وخلاصة ذلك :

إنّ النبيّ طلع على الناس يومذاك بما لم يعرفوه من قبلُ، فمن سُنَن رسالته أنّ الأسود والأحمر سواء وكذلك العربيّ والأعجمي ولا فضل إلّا بالعمل. وأنّ المسلم وغير المسلم سواءٌ كذلك ، لأنّ كلّ مَن آمن بالله فهو مسلمٌ على لسان محمد. وفي قلبه لذلك كان خصْماً لكلّ مَن آذى ذمـيّاً أو أسـاء إلى إنسـانٍ ، والإنسان أخ الإنسان أحبّ أم كره. ومن سُنَن هذه الرسالة الأسـاسية رعـايةُ الحقّ وانتهاجُ كلّ سبيلٍ إلى العدالة الاجتماعية، فلا ظالم في الناس ولا مظلوم ولا قاهر ولا مقهور ، ولا غنيّ متخَم ولا فقير محروم ، وما آمَن ـ في مذهب محمد ـ مَن بات شبعانَ وجاره جائع! والمال في سنّته مال الأُمة.

(١) المبسوط للسرخسي ٥ / ٢٣، مسند الشهاب ١ / ١٤٥، كنز العمال ٩ / ٣٨ الحديث ٢٤٨٢٢ و ٢٤٨٢٣.

وقد عاش النبيّ هذه المبادئ الرفيعة لا يحيد عنها قيدَ شعرة. وكثيراً ما كان يأخذ الأموال التي في قبضة الأغنياء فيوزّعها على المعْوزين توزيعاً عادلاً. وكان يمنع على عمّاله أن يقبلوا هديّةً أو يرتشوا بدرهم ، ويقدّم الضعيفَ على القويّ في كلّ ما يعرض له من شؤونه وحاجاته ، ويسفّه الظالمين ويأخذ على يدهم ويجعلهم عبرة المعتبرين ، ويحطّ مِن شأن المنافقين، ويدعو الناس جميعاً إلى التعاون في الاقتصاد تعاوناً تخفّ به عنهم وطأةُ العوَز والحاجة.

وقد أثّرتْ سيرة النبيّ بأصحابه وعمّاله تأثيراً عظيماً ، حتّى لترى عجباً في أخبار أُولئك الذين نشأوا في الجاهلية على سنّة آبائهم في أن يُجيزوا لأنفسهم الاستئثارَ بكلّ ما طالتْه أيديهم ويطلبوا المزيد، فإذا هم من أعدل الناس ومن أشرفهم نفوساً تحت عين محمد وعلى نور مسلكه. فهذا عبد الله بن رَوَاحة يبعثه النبيّ إلى خيبر وفيها عشرون ألف مقاتل ليقدر عليهم تمْرَهم ، فيحاول الخيبريّون أن يرشوه فلا يشتدّ عليهم في ما يقدّر من تمورهم ، فيستأثروا به وحدَهم دون فقراء الناس ، فإذا هم يحملون إليه حَلْياً من حلي نسائهم فيقولون: هذا لك وخفّفْ عنّا وتجاوزْ في ما تقدّر. فيقول عبد الله: يا أهل خيبر! إنكم لمن أبغَض خلق الله عليّ ، وماذاك بحاملي على أنْ أحيف عليكم وأظلمكم. وأمّا ما عرضتم عليّ من الرشوة فإنّها السحت وإنّا لا نأكلها فيقول أهلُ خَيْبَر: بهذا قامت السماوات والأرض![1]

وتوفّي النبيّ والناس بين وجيهٍ يحنّ إلى وجاهته في الجاهلية فلا يستطيع إلى العودة إليها سبيلاً ، وراضٍ مطمئنٍّ إلى إنسانية هذه الثورة وإلى نتائجها

(١) عون المعبود: ١٩٧/٩ .

العملية يجاهد في سبيلها ولا يتطلع إلى الوراء.

واستخلف أبو بكر الصدّيق فظهرتْ في أيّامه نتائج الحنين إلى الوجاهات التي حطّمها الإسلام، كما ظهرتْ نتائج الرضى والاطمئنان. فثار وجهاء القبائل مرتدّين فحارَبهم أبو بكر بالراضين المطمئنّين. فتغلّب عليهم وقضى على أحلامهم في العودة إلى ما اعتادوه من حياة الاستغلال والنفوذ والحصول على العيش بدون أيّ نصيبٍ من الجهد. وسار أبو بكر في الناس سيرةً ركّزتْ في قلوبهم وأذهانهم كثيراً من معاني الخير في رسالة محمد. ونهَجَ منهجاً لا يختلف عن منهج أُستاذه الرسول فكان يقول: «فإنْ أحسنتُ فأعينوني وإنْ أسأتُ فقوّموني. الصدق أمانة والكذب خيانة. ولكم عليّ إذا ما وقع في يدي ـ المال ـ ألّا يخرج منها إلّا في حقّه. ولكم عليّ ألّا أُلقيكم في المهالك. وإذا رغبتم في البعوث فأنا أبو العيال!»[1].

أجل إنّه أبو العيال. وقد بلغ به صدقُ هذا الشعور حدّاً كان معه يحلب للضعفاء ممّن حوله أغنامهم ، حتّى إذا تولّى شؤون الخلافة سمع ابنةً لبعض هؤلاء تقول: اليومَ لا تُحلَب لنا منائح دارنا! فقال لها في الحال: بلى لعمري لأحلبنّها لكم[2]! وظلّ يحلبها. أمّا مسكنه المتواضع فقد أبى أن يتركه بعد أنْ وليَ أمرَ الجماعة ، كما أبى أن يغيّر شيئاً من محتوياته القليلة ، بل إنّه زاد على ذلك فكان يوزّع ماله الخاصّ على الناس، فلا يستبقي لنفسه منه شيئاً. وكان يأمر ولاته بمثل هذا الأمر الذي وجّهَه إلى خالد بن سعيد: «فثبّتِ العالم ، وعلّم

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٦ ص ٢٠ وج١٧ ص١٥٩، الدر المنثور ج١ ص ٢٢١، الثقاة لابن حبان ج٢ ص١٥٧، تاريخ الطبري ج٢ ص ٤٥٠.

(٢) كنز العمال ج٥ ص ٦١٠ الحديث ١٤٠٧٧، تاريخ الطبري ج٢ ص ٦٢١، الطبقات الكبرىٰ ج٣ ص١٨٦.

الجاهل ، وعاتب السفيه المترَف»(١). وكان يهدّد بالعزل كلّ مَن تُداخِله نخوةُ الشيطان من الولاة والقواد. وممّا قاله ليزيد بن أبي سفيان لمّا وجَهه إلى بعض البقاع السورية: «إني قد ولّيتك لأبلوك واجرّبك واخرّجك ، فإن أحسنتَ رددتُك إلى عملك وزدتُك ، وإن أسأتَ عزلتُك!»(٢).

ولم تطل أيام أبي بكر ، فخَلِفَه عمر بن الخطّاب. والناس آخذون بالتعوّد على أنّ الخلافة إنّما قامت لمصالحهم وللانتصاف من الظالم، ثمّ لإشاعة العدالة في كلّ أرض. كما أنهم آخذون بالتعوّد على أنّ الإسلام ثورةٌ مستمرّةٌ لا يمكن أنْ يوقَف مجراها أو تُحوَّل عن طريقها. وفي عهد عمر اتّسعتْ رقعة الدولة ، فاتّسعتْ أعمال الإدارة وعظمتْ المهامّ ، وكثُر بالضرورة عدد الولاة والعمّال وبعدتْ مراكزهم عن عاصمة الخلافة. غير أنّ ابن الخطّاب كان علمُه بمن نأى عنه من عمّاله ورعيّته ـ كما يقول الجاحظ ـ كعلمه بمن بات معه في مهادٍ واحد وعلى وسادٍ واحد. فلم يكن له في قطرٍ من الأقطار ولا ناحية من النواحي عاملٌ ولا أمير جيش إلّا وعليه له عينٌ لا يفارقه ما وجَدَه. فكانت ألفاظ مَن بالمشرق والمغرب عنده في كلّ مُمْسَى ومُصْبَح. وأنت ترى ذلك في كتبه إلى عمّاله وعمّالهم. وكان يشيّع عمّاله وهو يقول لهم: «إنّما استعملتُكم لتقضوا بين الناس بالحقّ و تقسموا بينهم بالعدل»(٣).

وكان عمر يثير المظلوم على ظالمه حتّى ليجعل طلبَ الاقتصاص من الظالم واجباً من واجبات المظلوم، فكان يقول: «مَن ظلَمَه عاملُه بمظلمةٍ فلا إذنَ له عليّ إلّا أنْ يرفعها إليّ حتى أقصّه منه». فيقال له: أرأيتَ إنْ أدّب أميرٌ

(١) تاريخ مدينة دمشق ج١٦ ص٨٣.
(٢) كنز العمال ج٥ ص٦١٨، الحديث رقم ١٤٠٨٩.
(٣) تاريخ الطبري ٣ / ٢٧٣.

رجلاً من رعيّته أتقصّه منه؟ فيقول: «وما لي لا أقصّه منه وقد رأيت رسول الله يقصّ من نفسه!»[١] ويُروى أنّ رجلاً قال مرّةً لعمر: إنّ عاملك فلاناً ضربني مائة سوط. فسأل عمر العاملَ قائلاً: فيمَ ضربتَه؟ فأجاب العامل بـما لم يـقنع عمر ، فماكان منه إلّا أن قال للرجل: قمْ فاقتصّ منه![٢]

وكان عمر يقول: «أيّما عاملٍ لي ظلَم أحداً فبلغتْني مظلمتُه فلم أُغـيّرها فأنا ظلمتُه!»[٣].

وحرّم عمر الهدايا يُؤتى بها إلى العمّال كما حرّمَها النبي. وكتب مرّةً إلى عمّاله يقول: «أمّا بعد ، فإيّاكم والهدايا فإنّها من الرّشا!»[٤] وكان لا يستعمل رجلاً لمودّةٍ أو لقرابة ، وكان يقول: «مَن استعمل فاجراً وهو يعلم أنّـه فـاجر كان مثلَه!»[٥] واشتدّ عمرُ بن الخطّاب على القرشيّين لِـما يـعرف مِـن مـيلِ الأكثرية فيهم إلى الاستئثار ومِن حبّهم للثروة ، فـحبَسهم فـي أمـاكـنهم لا يخرجون منها ولا يطلبون مالاً ووجاهة!

ولمّاكان عمر على مثْل هذه الشدّة فقدكان معظم عمّاله على سيرته إلّا من أبى خدمةَ الحقّ ؛ فإنّ عمر لا يتلكأ في عزله عندذاك.كماكان بعض هؤلاء العمّال يخطبون الناسَ بما يخطبهم به ابنُ الخطّاب نفسه ، ويُضمر من الميل إلى رعاية العدالة مثْلَ ما يُضمر مولاه. فهذا عمير بن سعيد عاملُ الخليفة الثاني على حمص يعتلي منبراً ويخطب الناسَ يقول: «وليس شـدّة السـلطان قـتلاً

---

(١) مسند أحمد ١ / ٤١، المستدرك ٤ / ٤٣٩، وفيه أن السائل عمرو بن العاص، السنن الكبرى ٩ / ٤٢.
(٢) كنز العمال ١٢ / ٦٥٩ الحديث رقم ٣٦٠٠٧ الطبقات الكبرىٰ ٣ / ٢٩٤.
(٣) كنز العمال ١٢ / ٦٥٩ الحديث رقم ٣٦٠٠٨، الطبقات الكبرىٰ ٣ / ٣٠٥.
(٤) شرح نهج البلاغة ١٢ / ٩٣.
(٥) كنز العمال ٥ / ٧٦١، وفيه: فهو مثله الحديث رقم ١٤٣٠٦.

بالسيف ولا ضرباً بالسوط ولكنْ قضاءً بالحقّ؟»[١].

وكيف يرى شدّة السلطان بالقتل والضرب مَن يسخط على نفسه إن هو آذى إنساناً بكلمةٍ قالها في غير مكانها. فهذا عمير يخلّي حمصَ ، ويُقبل على ابن الخطّاب فيسأله عمّا عملَه فيقول: بعثتَني حتى أتيتُ البلدَ ، فجمعتُ صلحاء أهله فولّيتهُم جبايةَ فيْئهم ، حتّى إذا جمعوه وضعتُه مواضعَه، ولو نالك منه شيءٌ لأتيتُك به. فيقول عمر: فما جئتَنا بشيء؟ فيقول: لا! فيقول عمر: جدّدوا لعمير عهداً. فيقول عمير: لا عملتُ لك ولا لأحدٍ بعدك ، واللهِ ما سلمتُ بل لم أسلم. لقد قلتُ لنصرانيّ: أخزاك الله! فهذا ما عرّضتَني له يا عمر! وإنّ أشقى أيامي يوم خلقتُ معك يا عمر!»[٢].

وكان عمر يقول للعامل العادل: «أنت أخي وأنا أخوك!» ومَن كانت هذه حقيقته فإنّه يأبى طبعاً أنْ يستبدّ بالرأي والعمل دون سواه من الناس ؛ ذلك لأنّ غايته أن يعمل فيُفيد لا أن يقال إنّه عمِل. هكذا كان ابن الخطَّاب يطلب المشورة في كلّ ما يحتمل الخطأ والصواب. وطالما استنجد بعليّ بن أبي طالب يستشيره فيشير عليه. وأخبارُه في الاستعانة بعليّ مشهورة. وكذلك أخباره في استشارة أصحابه جميعاً ، وقد قال يوماً لهم: أشيروا عليّ ودلّوني على رجل أستعمله في أمرٍ قد دهَمَني فقولوا ما عندكم ، فإني أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرَهم كان كأنّه أميرهم ، وإذا كان فيهم هو أميرهم كان كأنّه واحدٌ منهم! فقالوا: نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثي ؛ فنشير على أمير المؤمنين به. فأحضره وولّاه ، فوفق في عمله ، فشكر عمر لمن أشاروا عليه

(١) الطبقات الكبرىٰ ٤ / ٣٧٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٦ / ٤٨٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٤٦ / ٤٩٠، مجمع الزوائد ٩ / ٣٨٣، شرح نهج البلاغة ١٢ / ١١٥، كنز العمال ١٣ / ٥٥٨ الحديث رقم ٣٧٤٤٥.

بولاية الربيع!»[١].

ولطالما شهد عمر بن الخطّاب بماكان لمشورة عليّ وآرائه من فضلٍ عليه في تدبير الأُمور ومواجهة الصعاب. أوَ ليس هو القائل: «لولا عليّ لهلك عمر!»[٢] و «لابارك الله في معضلةٍ لم تحكم فيها ، يا أبا الحسن!»[٣].

ويعرف الناس نصائح عليّ لعمر في الشدائد خصوصاً وفي الوقائع الخطيرة ، منها هذه النصيحة التي توجّه بها إلى الخليفة الثاني قبَيْل وقعة «نهاوند» نثبتها هنا شاهداً على مقدار ماكان لعليّ من عظيم الشأن في معاونة عمر ، ثم لِمَا فيها من منطق عليّ السديد ونفاذ بصيرته في كلّ معضلة من المعضلات التي يواجهها رجال الدولة وقوّاد الجيوش في الأزمات. قال عليّ يخاطب عمر ، وكان عمر عازماً على أن يسير بنفسه بالجيش إلى محاربة العجم في وقعة نهاوند:

«إنك إنْ أشخصتَ أهل الشام سارت الرومُ إلى ذراريهم. وإن سيّرتَ أهلَ اليمن خلّفتَ الحبشة على أرضهم. وإن شخصتَ أنت من هذا الحرَم انتفضت عليك الأرض من أقطارها ، حتّى يكون ما تدع وراءك أهمّ إليك ممّا قدّامك. وإن العجم إذا رأوك عياناً قالوا: هذا مَلِكُ العرب كلّها ، فكان أشدّ لقتالهم. اكتب إلى الأمصار يشخص الثالث منهم ويقيم الثلثان!».

فقال عمر: هذا هو الرأي![٤] وعمل بنصيحة عليّ.

وكان همّ عمر ألّا يُفتَح للناس بابٌ للشكوى وألّا يُغْني أفراداً ويُفقر أُمّة.

---

(١) كنز العمال ٥ / ٧٦٣ الحديث رقم ١٤٣١١، الطبقات الكبرىٰ ٦ / ١٥٩.

(٢) ينابيع المودة للقندوزي: ١٧٢/٢، نهج السعادة: ١٤١/٧.

(٣) نهج السعادة: ١٤١/٧.

(٤) مناقب ابن شهرآشوب ١ / ٤٠٦، شرح نهج البلاغة: ١٠٠/٩، الأخبار الطوال للدينوري: ١٣٤، وفيها: يشخص الثلث.

لذلك نراه يصادر عمّاله الذين كانوا يستأثرون بشيء من مال العامّة، أو يؤثرون قوماً بالعطاء دون قوم. من ذلك أنه صادر عمرو بن العاص عامِلَه على مصر حين بلغَه أنّ عمراً يقتني من المتاع والآنية والرقيق والخيل وغيرها ، ممّا لم يكن له حين وليَ مصر ، فادّعى عمرو إدّعاءً لم يقتنع به ابنُ الخطّاب ، فصادَره وأخذ منه كلّ ما فاض عن حاجته. وصادرَ كذلك أبا هريرة عامِلَه على البحرين ، والنعمانَ بن عديّ عامِلَه على ميسان ، ونافعَ بن عمرو الخزاعي عامِلَه على مكّة ، ويعلي بن منيّة عامِلَه على اليمن ، وسعد بن أبي وقّاص عامِلَه على الكوفة ، وخالد بن الوليد عامِلَه على الشام. واشتدّ على خالد بن الوليد ، وكان عمر قد أمرَه بأن يجعل المالَ من نصيب أهل الحاجة ، فأعطاه خالدُ أصحابَ النفوذ وأصحابَ الوجاهة وأصحابَ الفصاحة والشاعرية ، فغضب عمرُ على خالد ؛ ودعا إليه الذين حصلوا على المال فأخذه منهم وردّه في بيت مال الأُمة.

وكان عمر يُطعم أهلَ الحجاز بمال الشام وأهلَ الشام بمال الحجاز إذا دعت الحاجة إلى مثل هذا التدبير. من ذلك ما حدث أيام المجاعة في عام الرمادة ، إذ رأى عمرُ أن الحجازيين يهلكون جوعاً ، فأمَر عمّاله في مصر والشام والعراق أن يوافوه بكلّ ما في بلادهم من مطعم ، فأتته القوافل تحمل المآكل وغيرها من الضرورات ، فوسّع على أهل الحجاز وأنقذَهم من الهلاك جوعاً، وكان قد قطع الطعامَ عن نفسه أُسوةً بالناس.

ولم يكن عمر يُقيم وزناً لمظاهر العبادة إلّا إذا رافقَها العمل الاجتماعي الصالح ، بل إنه كثيراً ما كان يقيم وزناً لعمل المرء، وإنْ هو لم يتعبّد ولم يُراعِ السنّةَ العامّة في أشكال العبادة. وإليك هذه الرواية نسوقها دليلاً على موقف عمر الصريح هذا:

شهد عند عمر شاهدُ مرّةً في إحدى القضايا وكانت الشهادة ضرورية للوصول إلى الحكم الصريح. فلمّا مثلَ الشاهد بين يديه سألَه عمر: ائْتِني بمن

يعرفك فأتاه الشاهد برجل ، فأثنى الرجل عليه كثيراً ، فقال له ابنُ الخطاب: أنت جارُه الأدنى الذي يعرف مدخلَه ومخرجَه؟ قال الرجل: لا! قال عمر: كنتَ رفيقَه في السّفَر الذي يستدَلّ به على مكارم الأخلاق؟ قال الرجل: لا! قال عمر: فعاملتَه بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورَع الرجل؟ قال: لا! قال عمر: أظنّك رأيتَه قائماً في المسجد يهمهم بالقرآن يُخفي رأسه تارةً ويرفعه أُخرى؟ قال الرجل: نعم! فقال عمر: اذهب ، فلستَ تعرفه! ثمّ قال للشاهد: اذهب فائتِني بمن يعرفك!(١)

وكان عمر يسعى أبداً في تحطيم الفوارق بين الناس سواءٌ أكانت فوارق مادّية أو وراثيّة. وقد خطبَ مرّةً يقول: إنْ رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوّموني. فأجابه رجلٌ من العامّة قال: لو وجدْنا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بحدّ سيوفنا. فنظر إليه عمر وقال: الحمد لله الذي جعل في رعيّة عمر مَن يقومه بحدّ سيفه!(٢)

أمّا قصّة «إضربْ ابن الأكرمين» فأشهر من أنْ نضطرّ إلى ذكرها في هذا المقام. وغيرها من القصص المعبّرة عن معنى الولاية أيّام عمر.

وإليك الآن بعض أخباره التي تدور جميعاً حول محورٍ واحدٍ من الاهتمام بالناس المتساوين بالحقّ ، والواجب في دولة ابن الخطّاب القائل: «لو ماتت شاةٌ على شاطئ الفرات لظننتُ أنّ الله سائلُني عنها!»(٣) والقائل: «لا يقعدنّ أحدُكم عن طلب الرزق ويقول: اللّهمّ ارزقْني! فقد علم أنّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضّة ، وإنما يرزق الله الناسَ بعضَهم من بعض!»(٤).

* * *

(١) المجموع ، للنووي ٢٠ / ١٣٤ ، سبل الإسلام ، للعسقلاني ٤ / ١٢٩.
(٢) القول منسوب لأبي بكر.. ولم نعثر على من نسبه إلى عمر.
(٣) الجرح والتعديل للرازي ١ / ١٩٣ وفيه لو هلكت شاة على شاطئ الفرات ضياعاً ظننت أن الله عزّوجلّ سيسألني عنها.
(٤) تاريخ مدينة دمشق ٧٠ / ١٥٩ والحديث لأُم الدرداء..

رأى عمر في السوق إبلاً سِماناً فقال: لمن هذه الإبل؟ فقالوا له: لعبد الله ابن أمير المؤمنين. فقال: يا عبد الله بن عمر! بخٍ بخٍ[١] ، ابن أمير المؤمنين!! فسعى ابنُه عبد الله إليه فقال له عمر: ما هذه الإبل؟ قال عبد الله: إبلٌ اشتريتُها وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون. فقال له عمر: يقال ارعوا إبلَ ابن أمير المؤمنين ، اسقوا إبلَ أمير المؤمنين. يا عبد الله بن عمر! اغدُ على رأس مالك واجعلْ باقيَه في بيت مال المسلمين[٢] ففعل ذلك عبد الله ، وضمّ جميع أرباحه إلى بيت المال.

وشدّة عمر بالحقّ على أهله وذويه من خصاله المشهورة. فقد كان يجمعهم لدى كلّ مسألةٍ ينهى الناس عنها قائلاً لهم: إني نهيتُ الناسَ عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظرَ الطير إلى اللحم ، وأُقسم باللهِ ، لا أجد أحداً منكم فعَلَه إلّا أضعفتُ عليه العقوبة!

ومن أخبار عمر أخبارٌ تزخر بالرفق بالناس. من ذلك: أنّه استعمل رجلاً من بني أسد على عملٍ ، فجاء الرجل يأخذ عهده ليذهب إلى حيث ولّاه ، فلمّا كان بين يديه أقبل أحد أولاد عمر ، فأخذه عمر فقبّلَه بحنان ، فقال الرجل الأسدي: أتقبّل هذا يا أمير المؤمنين؟ واللهِ ما قبّلتُ ولداً قطّ! فقال عمر: فأنت واللهِ بالناس أقلّ رحمةً ، هاتِ عهدَنا لا تعمل لي عملاً أبداً!»[٣] واسترد عهده ودفَع الرجلَ الأسدي عن ولاية الناس.

ولكنّ عطف عمر على أبنائه ، هذا العطف لم يكن ليحمله على أنْ

---

(١) بخٍ بخٍ: بوزن بل، و (بخْ) كلمة تُقال عند المدح والرضا بالشيء ، وتكرّر للمبالغة ، فإن وصلتَ خفَفْتَ ونوّنتَ فقلتَ: بخٍ بخٍ. الصحاح: ٤١٨/١، مادة «بخخ».

(٢) السنن الكبرىٰ ٦ / ١٤٧.

(٣) السنن الكبرىٰ ٩ / ٤١ ،كنز العمال ٥ / ٧٦٧ الحديث رقم ١٤٣٢٦.

يخالف عدالةَ الإسلام في شيء ممّا يعني هؤلاء الأبناء. وقد رأى النـاس فـي عهده أمراً عجباً كان تجسيماً لهذه العدالة وما تقتضيه. فإنّ أبا لؤلؤة ماكاد يغدر بعمر بن الخطاب حتّى سار عُبَيد الله بـن عـمر إلى بـيت الهـرمزان الفـارسي فوجدَه فيه فقتَله في الحال. وكانت حجّته في ذلك أنّه علِم بأنّ أبا لؤلؤة كان على صلةٍ وثيقةٍ بالهرمزان ، وكان كثيرَ الدخول إلى داره كثيرَ الخروج منها ، فهما إذاً متّفقان على قتْل عمر. فلمّاكان عمر في حالةٍ بين الموت والحياة وبلغَه ما فعله ابنُه عبيد الله ، دعاه إليه ووبّخَه ثمّ أمَرَ الناس بأن يُقاد للهرمزان من ابنه إذا ما مات. أي أنّه أمرَ بأنْ يُقتَل ابنُه ؛ لأنّه اعتدى فقتَل رجلاً من الناس لم تثبتْ عليه تهمةٌ ولم يُدِنْه قضاء.

وكان عمر من الرفق بحيث رأى أنّ للحيوان ـ بوصْفه كائناً حيّاً ـ حقّاً على الناس ، يوجب عليهم أنْ يخلّوا عنه فيأكل من نـبْت الأرض عشـباً أخـضر ويرتوي ماءً طيّباً. وكان لا يرى مانعاً من أنْ يعاقب رجلاً شرساً حمّل بهيمة ما لا تطيقه من الأحمال الثقيلة. ولمّا وفدَ الأحنف بن قيس على عمر مـرّةً ، أتى عمر مناخ رواحل الوفد وجعل يتفقّدها ويقول: «ألا اتّقيتم الله في ركابكم هذه؟ أما علمتم أنّ لها عـليكم حـقّاً؟ ألا خـلّيتم عـنها ، فأكـلتْ مـن نـبت الأرض؟»[1].

وقضى عمر الشطرَ الأكبر من أيّام خلافته في تفقّد أحوال النـاس فـي أخبارٍ هي المودّة والحنان الخالصان ، وهي رعاية الأب لأبنائه وهي شـرَف الحاكم ومعناه. ولمّاكانت هذه الأخبار كثيرة لا يتّسع لها المجال في هذا الفصل رأينا أن نوجزها بخبرٍ واحدٍ يدلّ على روحها جميعاً:

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٢ / ١٩، كنز العمال: ١٢ / ٦٧١، تاريخ ابن عساكر: ٤٤ / ٢٩١.

روى العبّاس بن عبد المطّلب عم النّبيّ ، قال :

خرجتُ في ليلةٍ حالكة قاصداً أميرَ المؤمنين عمرَ بن الخطّاب. فما وصلتُ إلى نصف الطريق إلّا ورأيتُ شخصاً أعرابيّاً جذَبني بثوبي وقال: «ألزمْني يا عبّاس!». فتأمّلتُ الأعرابيّ فإذا هو أمير المؤمنين عمر وهو متنكّر. فتقدّمتُ إليه وسلّمتُ عليه وقلت له: «إلى أين يا أمير المؤمنين؟!» قال: «أُريد جولةً بين أحياء العرب في هذا الليل الدامس» ـ وكانت ليلةَ قرـ فتبعتُه فسار وأنا وراءَه وجعل يجول بين خيام الأعراب وبيوتهم ويتأمّلها ، إلى أن أتينا على جميعها وأوشكْنا أن نخرج منها، فنظرْنا وإذا هناك خيمةٌ وفيها امرأةٌ عجوز ، وحولها صِبْيةٌ يعْوِلون عليها ويبكون. وأمامها أثافيّ عليها قدْرٌ وتحتها النار تشتعل وهي تقول للصِّبْيَة: «رويداً رويداً بَنِيّ! قليلاً وينضج الطّعام فتأكلون!».

فوقفنا بعيداً وجعل يتأمّل العجوز تارةً وينظر إلى الأولاد أُخرى. فطال الوقوف. فقلت له: «يا أمير المؤمنين! ما الذي يوقفك؟ سرْ بنا» فقال: «واللهِ لا أبرح حتى أراها قد صبّت للصّبْيَة فأكلوا واكتفوا».

فوقفنا وقد طال وقوفنا جدّاً ، ومللْنا خوفاً أن تستريب بنا العيون، والصّبْيَة لا يزالون يصرخون ويبكون ، والعجوز تقول لهم مقالَها: «رويداً رويداً بَنيّ ، قليلاً وينضج الطعام فتأكلون».

فقال لي عمر: «ادخلْ بنا عندها لنسألها» فدخل ودخلتُ وراءَه، فقال لها عمر: «السلام عليك يا خالة» فردّت عليه السلام أحسنَ ردّ، فقال لها: «ما بال هؤلاء الصّبْيَة يتصارخون ويبكون؟» فقالت له: «لِما هم فيه من الجوع»، فقال لها: «ولِمَ لمْ تطعميهم ممّا في القدر؟» فقالت: «وماذا في القدر لأطعمهم؟ ليس هو إلّا علالة فقط إلى أن يضجروا من العويل فيغلبهم النوم. وليس لي شيءٌ لأطعمهم» فتقدّم إلى القدر ونظر إلى ما فيها فإذا هي حصباء وعليها الماء

يغلي. فتعجّب من ذلك وقال لها: «ما المراد بذلك؟» فقالت: «أُوهمهم أنّ فيها شيئاً يُطبَخ فيُؤكَل ، فأعلّلهم به حتى إذا ضجروا وغلب النوم عيونهم ناموا. فقال لها عمر: «ولماذا أنتِ هكذا؟» فقالت له: «وأنا مقطوعة لا أخ لي ولا أب ولا زوج ولا قرابة» فقال لها: «لِمَ لمْ تعرضي أمرك على أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب فيجعل لك شيئاً من بيت المال؟» فقالت له: «لا حَيّا الله عمرَ ، واللهِ إنّه ظلمَني». فلمّا سمع عمر مقالَها ارتاع من ذلك وقال لها: «يا خالة! بماذا ظلمَك عمر بن الخطاب؟» فقالت له: «نعم واللهِ ظلمَنا ، إنّ الراعي عليه أن يفتّش على حال كلٍّ من رعيّته لعلّه يجد فيها مَن هو مثلي ، ضعيف اليد كثير الصّبْيَة ، ولا معين ولا مساعد له ، فيتولّى لوازمَه ويسمح له من بيت المال بما يقوته وعيالَه أو صِبْيَتَه». فقال لها عمر: «ومن أين يعلم عمر بحالك وما أنت به من الفاقة مع كثرة الصّبْيَة؟ كان يجب عليك أن تتقدّمي وتُعلميه بأمرك» فقالت: «لا والله ، إنّ الراعي يجب عليه أن يفتّش على احتياجات رعيّته» فقال عمر: «صدقتِ يا خالة! ولكنْ علّلي الصّبْية والساعة آتيك».

ثمّ خرج وخرجتُ معه وكان قد مضى من الليل ثلثُه الأخير ، فمشينا والكلاب تنبحنا وأنا أطردها وأذبّها عني وعنه ، إلى أنْ انتهينا إلى بيت الذخيرة. ففتَحه وحده ودخل ، وأمرني فدخلتُ معه. فنظر يميناً وشمالاً فعمد إلى كيس من الدقيق. فقال لي: «يا عبّاس! حمّلْه على كتفي» فحمّلْتُه إيّاه ، ثم قال لي: «احملْ أنت هاتيك ، جرّةَ السمن». وأشار إلى جرّةٍ هناك فحملتُها وخرجْنا ، وأقفلَ الباب ، وسِرْنا ، وقد انهار من الدقيق على لحيته وعينيه وجبينه!

فمشينا إلى أنْ أنصفْنا ، وقد أتعَبَه الحمْلُ لأنّ المكان كان بعيداً ، فعرضتُ نفسي عليه وقلت له: «بأبي وأمّي يا أمير المؤمنين! حَوِّل الكيسَ

عنك» فقال: «لا والله ، أنت لا تحمل عنّي جرائمي وظلمي يوم الدين. واعلمْ يا عبّاس! أنّ حمْلَ جبال الحديد وثقلَها خيرٌ من ظلامةٍ كبرتْ أو صغرتْ ولا سيّما هذه العجوز تُعلّل أولادَها بالحصى. يا له من ذنبٍ عظيم. سرْ بنا وأسرعْ يا عبّاس قبل أن تضجَرَ الصّبْيَةُ من العويل فيناموا كما قالت».

فسار وأسرع وأنا معه ، وهو يلهث من التعب إلى أن وصلْنا إلى خيمة العجوز. فحوّلَ كيس الدقيق عن كتفه ووضعتُ جرّةَ السمن أمامه. فتقدّمَ وأخذَ القدر وكبَّ ما فيها ، ووضعَ فيها السمنَ وجعل بجانبه الدقيق. ثمّ نظر فإذا النار كادت تُطفأ. فقال للعجوز: «أعندكِ حطب؟» قالت: «نعم يا ابني». وأشارت له إليه. فقام عمر وجاء بقليل منه ، وكان الحطب أخضر ، فوضع منه في النار ووضع القدر ، فواللهِ إني رأيتُ دخانَ الحطب يخرج من خلال لحيته ، ولم يزل هكذا حتى اشتعلت النار وذاب السمنُ وبدأ غليانه. فجعل يحرّك السمنَ بعودٍ في يده الواحدة ، ويخلط من الدقيق مع السمن في يده الأخرى إلى أن نضج ، والصِّبْيَة حوله يتصارخون.

ثم طلب من العجوز إناءً فأتتْه به. فجعل يصبّ الطبيخ في الإناء وينفخه ليبرّده ويُلقم الصغار. ولم يزل يفعل هكذا معهم واحداً بعد واحد حتى أتى على جميعهم وشبعوا واكتفوا. وقاموا يلعبون إلى أن غلب عليهم النوم فناموا. فالتفتَ عمر عند ذلك إلى العجوز وقال لها: «يا خالة ، أنا في قرابة أمير المؤمنين عمَر وسأذكر له حالك. فأتيني غداً في دار الخلافة فتجديني هناك ، فارجي خيراً».

ثم ودّعها عمر فخرج وخرجتُ معه ، فقال لي: «يا عبّاس! والله إنّي حين رأيتُ العجوز تُعلّل صِبْيَتَها بالحصى أحسستُ أنّ الجبال قد زلزلتْ واستقرّتْ على ظهري. حتّى إذا جئتُ وأطعمتُهم بما طبختُه لهم واكتفوا وجلسوا يلعبون ويضحكون ، فحينئذٍ شعرتُ أن الجبال قد سقطتْ عن ظهري».

ثم دخل عمر داره وأمرني فدخلتُ معه وبتنا ليلتنا. ولمّا كـان الصـباح أتتْ العجوز فجعل لها ولصِبْيتها راتباً من بيت المال تستوفيه شهراً فشهراً.(١)

هذه السيرة التي سلكَها النبيّ في الناس ، وسلكَها مِن بعده أبو بكر وعمر ابن الخطاب ،كانت هي الطعنة القاتلة التي وُجّهتْ فيما بـعد ـ بـصورة غـير مباشرة ـ إلى سياسة عثمان بن عفّان وإلى حكمه. ومعنى ذلك أنّ الناس قـد تعوّدوا أن يروا حقوقَهم تصير إليهم ، وأن يشهدوا مصيرَ الظالمين من العمّال والوُلاة ، وكيف يُصادَرون ويُؤخَذ منهم ما ليس لهم فيُردّ على أصحابه ، وأنْ يشعروا بأنّ الحاكم إنّـما هـو راعٍ لمـصالحهم لا مسـتأثر ولا مسـتغلّ، وبأنّ القريب والبعيد في الحقّ سواء. ثمّ إنّهم تعوّدوا أنْ يرواكبار الصحابة كعليّ بن أبي طالب وأبي ذرّ الغفاري وغيرهما منائرَ حقٍّ وهدايةٍ يـلجأون إليـها فـي الصعاب ، فإذا جميع المسلمين يتعاونون على رفْع العوَز عنهم ، ورفْع الحَيْف واحترامِ حقوقهم في الحياة. فلمّا آلت الخلافة إلى عثمان بـطُلَ الحـق وسـاد الجَوْر ، وجاعت أُمّةٌ ليبطر في خيراتها الأهلُ والوجهاء ، فرأى الناس غيرَ ما عهدوا وغيرَ ما يحبّون وأحسّوا أنّ ذهنيّة جاهليّةً لا تعرف من الإسلام شيئاً قد طغتْ واستحكمتْ ، فثاروا.

ولكـنْ ، إلامَ صـارت أحـوالُ النـاس عـلى أيـدي وجـهاء الزمـان فـي عهد عثمان؟

---

(١) لم نوفّق للعثور علىٰ هذا النص ، لا في أبواب الفضائل من الصحاح والمسانيد ولا في كتب التواريخ المعروفة ، والمعتبرة..

وهناك رواية مشابهة ينقلها ابن شهرآشوب في مناقبه: ٢ / ١١٥ ، ولكن عن الإمام علي (عليه السلام) فيها أنه خدم امرأةً ذات صبيان وحمل لها زنبيلاً ، فقيل له ، أعطنا نحمله عنك ، فقال: من يحمل عني وزري يوم القيامة.. إلىٰ آخر الرواية..

وجهاء الزّمان

ـ لقد فتَنَتِ الغنائمُ العرب.(١)

أبوبكر

ـ كأنّي بك قد حملتَ بني أُميّة على رقاب الناس.(٢)

عمر

ـ سيولّون عثمانَ وليحدثنّ البِدَعَ والأحداث.(٣)

علي

ـ إذا التاجرُ الهنديُّ جاء بفأرةٍ
من المِسْك راحت في مَفارِقِهم تجري(٤)

شاعرمجهول

من هذا الاستعراض الخاطف لحقيقة بني أُميّة وحقيقة الطالبيّين ، ثمّ لأنصار الفريقين سواءٌ أكان ذلك في الجاهلية أو الإسلام ، يبدو لنا أنّ شهوة الرئاسة والمُلك والاستئثار لها أُصولٌ وفروع في الأُسرة الأُموية وامتداداتٌ بعيدةٌ في أنصارها وأعوانها، ومَن هم مِن طينة أُميّة ومن مذهبها.

وقد تَبيّن لنا من قبل أنّ الأُمويين وأنصارهم إنّما كانوا حرباً على النبيّ

(١) شرح نهج البلاغة: ١ / ١٧٩ ، الدرجات الرفيعة لابن معصوم: ٣٥١.

(٢) فتح الباري لابن حجر: ٧ / ٥٥ ، المصنف لعبد الرزاق: ٥ / ٤٨١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١ / ١٩٢ ، بحار الأنوار: ٣١ / ٣٩٧.

(٤) المغني لابن قدامة: ٤ / ٢٧٧ ، الفائق في غريب الحديث للزمخشري: ١ / ٣٨٤.

ودعْوته ، بذهنيّة الوجهاء الذين يأبون أن يزحزحهم الجديدُ عن عاداتهم وعن نُظُمهم الاجتماعية التي كانت لا تفيد إلّا أصحاب التجارات والأموال، وكانت تقهر الطبقات الشقيّة البائسة.

وفي أثناء الدعوة ، منذ انطلاقها حتّى فتْح مكة ، أسلم وجهاء قريش على اختلاف مهودهم ورغائبهم جميعاً، وكانوا بإسلامهم ثلاثة أقسامٍ فيما نرجّح وفيما تبرّره الحوادث:

قِسماً رأى في الإسلام حقّاً وعدلاً فأسلم راضياً مختاراً ، وهو القليل القليل بين هؤلاء الوجهاء. ومن هذا القسم طلحة والزبير ، وعثمان بن عفّان ، الذي كان إسلامه طعنةً موجّهةً إلى وجهاء قريش عامّةً والأُمويين منهم بصورة خاصّة.

وقسماً كان مُعدّاً لأنْ يرقب كفّةَ النّصر وكيف تميل: فإنْ كانت مع قريش كان معها ، وإن مالت مع المسلمين لجأ إليهم وقال ما يقولون ، فكأنّه بذلك يريد الإسلام مغْنَماً له كما أراد الجاهلية ، ومن هذا القسم عمرو بن العاص الذي سنروي خبرَ إسلامه في فصلٍ آتٍ نريد به الحقيقةَ عن موقفه من عليٍّ ومعاوية.

وقسماً ثالثاً لم يُسلم إلّا مُكْرَهاً معزولاً عن وجاهاته متربّصاً بالإسلام مترقّباً العودةَ إلى الجاهلية. ويمثّل هذا القسمَ من الوجهاء أبو سفيان بن حرب والد معاوية ، وزعماء القبائل التي ارتدّتْ بعد موت النبيّ، فحارَبهم أبو بكر حرباً ظافرة.

أمّا القسم الأول من هؤلاء الوجهاء فقد ظلّ على إسلامه وعلى عهده. ولكنّه كان يخلط بين إسلامه وما في نفسه من رسوبات الوجاهة خلْطاً لا يعيهِ ولا يعنيه فيلتبس عليه الأمر، فهو بهذا غير ملومٍ إلّا قليلاً.

أمّا القسمان الآخران فقدكان الجانب الاقتصادي وامتداداتُه الاجتماعية المحْوَرَ الذي دارت عليه سياستهما القريبة والبعيدة. فوجهاء هذين القسمين لم يكونوا مرّةً إلّا لمصالحهم وحدَها. فإمّا أن تتّفق مصالحُهم فيتساندوا جميعاً ويتعاونوا ، وإمّا أن تختلف هذه المصالح فيعمل كلٌّ منهم عندذاك على حِدَة.

أمّا في موضوع الفتنة وفي أسبابها فإنّ المسؤولية تقع على هؤلاء الوجهاء جميعاً بأقسامهم الثلاثة، وإنْ كان نصيب القسمين الأخيرين منها أوفرَ وأعظم. فقدكان من طبيعة هؤلاء أن يستسنحوا الفرصة للمغنَم والمكسب دونما نظرٍ إلى الرسالة الملقاة على عاتق المسلمين يومذاك. وقد بدتْ بوادر هذا الميل إلى المغنم لدى الوجهاء منذ استخلاف أبي بكر. ومن الحوادث والكلمات المعبّرة عن هذه الحقيقة تعبيراً صريحاً ما فعلَه خالد بن الوليد وما قاله أبو بكر وعمَر في خالد، وخلاصة الخبر:

إنّ خالداً قتل مالكَ بن نوَيرة في بعض حروبه اعتداءً وظلماً ، ورغبةً في مغْنَمٍ غير مشروعٍ وغير مشرّف ، فهال الخبرُ أبا بكر وآذاه فقال كلمتَه المشهورة: «لقد فتنت الغنائمُ العرب ،وتركَ خالدٌ ما أمرتُه!» ثمّ قدمَ خالدٌ وفي عمامته ثلاثةُ أسهُم فلمّا رآه عمر بن الخطّاب قال: «أرياءً يا عدوّ الله! أمَا واللهِ إنْ أمكنَني الله منك لأرجمنّك!» ثمّ تناول عمَرُ الأسهُمَ الثلاثةَ من عمامة خالد فكسّرها تحت عينيه ، وخالدٌ ساكت لا يجرؤ أنْ يردّ عليه ، ظنّاً منه أنّ ذلك عن أمر أبي بكر وعن رأيه. فلمّا دخل خالدٌ إلى أبي بكر وحدّثه صدّقه أبو بكر فيما حكاه وقبِلَ عذرَه ، فراح عمرُ يحرّض أبا بكر على خالد ويشير عليه أنْ يقتص منه بدم مالك بن نُوَيرة ، فقال أبو بكر: «إيهاً أيا

عُمَر! ما هو بأوّل مَن أخطأ!»[(١)]

وقد حاول وجهاء العرب الذين فتنتْهم الغنائم أن يكونوا لأنفسهم ومطامعهم وحدَها في عهد عمر بن الخطّاب ، والأدلّة على ذلك كثيرةٌ لا تحصى ، ويكفيك منها الآن ما بعَثَ به أحدُ الشعراء إلى ابن الخطّاب يخبره فيه بأن الوجهاء في بعض الأمصار والأقاليم يستأثرون بكلّ مغْنَم ويسعون في إخفاء ذلك عنه ، وأنّ العامّة مستاؤون من هذا الاستئثار ولهم في كلّ مالٍ حقٌّ فوقَ حقّ الوجهاء فيه. وممّا قاله الشاعر لهذه الأبيات الكثيرة للتعبير عن أحوال الوجهاء أيامَ الفتوحات ، وعمّا في نفوس العامّة منهم ، والدالّة على ثقة هؤلاء العامّة بأن الانتصاف من الجائر والمستأثر أمرٌ ممكِن ، بل إنّه ضرورةٌ وحقّ:

نحجُّ إذا حجّوا ، ونغزو إذا غزَوا … فأنّىٰ لهم وفْرٌ ولسنا بذي وفْرِ؟
إذا التاجرُ الهنديُّ جاء بفأرةٍ … من المسك راحت في مفارقِهم تجري
فدونك مال الله حيثُ وجدته … سيرضون إنْ شاطرتَهم منك بالشطرِ![(٢)]

أقول: إنّ وجهاء العرب الذين فتنتْهم الغنائم حاولوا أن يستأثروا وأن يجوروا في عهد ابن الخطّاب ، غير أنّ ابن الخطّاب لم يكن ممّن يجوز في عهدهم مثلُ هذا البَطَر ، فأمعنَ في الوجهاء حبساً وعزلاً ومصادرةً ، واشتدّ عليهم فباتوا لا يجرؤون على استغلالٍ أو ظلمٍ أو مُنكَر ، على ما بيّنّاه في الفصل السابق.

---

(١) شرح النهج: ١ / ١٧٩ ، الكنىٰ والألقاب للقمي: ١ / ٤٣.

(٢) كنز العمال ، للمتقي الهندي: ٥ / ٨٥٣، لسان العرب: ٤ / ٤٠٦ ، وفيه أن الأبيات للشاعر أبي المختار الكلابي.

وكانت خلافة عثمان فاستشرى داءُ الوجاهة ، وأفلتت المطامعُ من عِقالها ، وتَناصَر الوجهاء بزعامة الأُمويين التي كانت تستتر حيناً وتنكشف أحياناً، فعَمّ البلاء من كلّ جانب. ورأى العامّة من وجهاء الزمان في عهد عثمان ما لم يألفوه في عهود السابقين أيامَ النبيّ وأبي بكر وابن الخطّاب، وما الذي هالَ الناسَ في عهد عثمان وأثار النفوس.

لا بأس أنْ نعود قليلاً إلى كلمةٍ قالها عمر بن الخطّاب لعثمان ، لنرى مقدارَ ما كان العارفون ينتظرون من وقوع الشرّ والفتنة على أيدي الأُمويين وأنصارهم، ومقدارَ ماكانوا يعرفون من حقيقة هؤلاء فيما إذا وُلّوا على الناس.

أقبل عمرُ مرّةً على عثمان فقال له: «هيهاً إليك! كأنّي بك قد قلّدتْك قريش هذا الأمرَ ، فحملتَ بني أُميّة وبني أبي معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفيء فسارت إليك عصابةٌ من ذئبان العرب ،فذبحوك على فراشك ذبحاً! واللهِ لئن فعلوا لَتفعلنّ ولئنْ فعلتَ ليفعلُنّ!» ثم أخذ بناصيته فقال: «فإذا كان ذلك فاذكروا قولي فإنّه كائن!»(١).

ولا بأس أن نعود كذلك إلى كلمةٍ قالها عليّ بن أبي طالب في عثمان والأُمويين قبل أن يُستخلف عثمان ؛ إظهاراً للحقيقة ذاتها التي رمى إليها عمر بن الخطّاب. فمرّةً قال عليّ لعمّه العبّاس: «أمَا إنّي أعلم أنّهم سيولّون عثمان ، وليحدثنّ البِدَعَ والأحداث ، ولئن بقيَ لأُذكّرنّك وإنْ قُتِل أو مات ؛ لَيتداولنّها بنو أُميّة بينهم!»(٢).

فإلى أيّ حدٍّ صدَق قولُ ابن الخطّاب وابن أبي طالب في أيام عثمان؟

* * *

(١) شرح نهج البلاغة: ١ / ١٨٦.

(٢) المصدر السابق: ١ / ١٩٢.

فأوّل ما وليَ عثمان أمرَ الجماعة اصطدم بقضايا معقّدة غايةً في التعقيد ، فما كان من الأُمويين إلّا أنْ زادوها تعقيداً ، عوضاً عن أن يساعدوا في حلّها لو صفَتْ لهم نيّةٌ ، أو أجمعوا الرأي على خدمة الإسلام. وزادوا على ذلك أنّهم استثمروا ما في نسيبهم الخليفة من لينٍ في الجانب ، فراحوا يعملون على أساس من العصبيّة العائليّة والنفوذ الشخصيّ ، والاستهتار بالمصالح العامّة واستخدام مرافق الدولة لمنافعهم في الرئاسة والمال ، وتحويل أنظمة الإسلام الاشتراكية إلى نظامٍ رأسمالي خالص ، يجعل من الشعب أداةَ إنتاجٍ لهم وموضوعَ استغلال ، ويحوّل الخلافةَ إلى مُلك ، ويُلقي إمكانات هذا المُلك في أيديهم وأيدي أعوانهم وعبيدهم خالصةً صريحة. وإليك هذه الحادثة التي تدلّ ـ في جملة الحوادث ـ على موقف الأُمويين من الناس في عهد عثمان ، وعلى نظرهم لحال الدولة:

بدأ عثمان خلافتَه بأنْ راح يوطّئ بني أُميّة رقابَ الناس ، ويولّيهم الولايات ويُقطعهم القطائع ، ثم يحمي مصالحهم ومصالحَ أنصارهم ومَن والاهم حمايةً سافرة ، ويجعل المالَ دُوَلَةً بين الأغنياء على أُسلوب خالصٍ لمصلحة الطبقيّة المادّية التي دكّها الإسلامُ في حدود زمانه ، فإذا الوجهاء ينمون نموّاً ماليّاً غير مألوف ، وإذا بالعامّة تنوء تحت أثقالهم وفي أغلالهم.

فها هو يفتح أرمينية فيأخذ الخمسَ كلّه فيهبه لنسيبه مروان بن الحكم ، فيستنكر الناس هذه البدعة. ويقول فيها عبد الرحمن بن حنبل قولاً ينزع به عن رأي العامّة:

أَحلِفُ بالله ربِّ الأنام ما ترك الله شيئاً سُدَى

ولكـــنْ خـــلقتَ لنـــا فـــتنةً لكـــــي نـــبتلي بك أونُـــبتلَى
فـــإنّ الأمـــينين(١) قـــد بَـــيّنَا مـــنارَ الطـــريق عـــليه الهـدى
فـــما أخـــذا درهـــماً غِـــيْلةً ولا جـــعلا درهـــماً فـــي هـــوى
وأعـطيتَ مـروانَ خُـمسَ البـلاد ، فـهيهاتَ سـعْيُك مـمّن سَـعى(٢)

ثم أقطع مروان فوق ذلك «فَدكا» وهي كلّ إرث فاطمة ابـنة النـبيّ مـن أبيها. وزاده فأعطاه مائة ألف درهم من بيت مال العامَّة. وطلب منه عبد الله بن خالد بن أُسيد الأُموي صلةً فأعطاه أربعمائة ألف درهم ، دون مبرّر لمثل هذا الإسراف في العطاء. ووصل نسيبَه الحكَم بن العاص ـ وكان من أعداء الإسلام وطرَداء النبيّ ـ بصلةٍ بلغتْ مائة ألف درهم. وكان في المدينة سـوقٌ تُـعرف بسوق «نهروز» وقَفَها النبيّ على فقراء المسلمين، فأقطعَها عثمان الحرَثَ بن الحكَم شقيقَ مروان. وكان حول المدينة مراعٍ خضراء أباحَها النبيّ وأبو بكر وعمر لمواشي المسلمين جميعاً، فانتزعها عثمان من أيدي المسلمين ومـن أفواه مواشيهم، وحَماها وجعَلها وقْفاً على ماشية بني أميّة وحـدهم. وأعـطى عبد الله بن سرح جميعَ ما هو فيمُلك المسلمين من فَـيْء أفـريقياكـلّها مـن مصرَ إلى طنجة مِن غير أنْ يُشرك فيه أحداً سواه. وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال في اليوم الذي أمَرَ فيه لمـروان بـن الحكـم بـمائة ألف ، فجاءه زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ، فوضعَها بين يدي عثمان باكياً فقال عثمان: أتـبكي أنْ وصـلتُ رحـمي؟ فـقال زيـد: واللهِ لو أعطيتَ مـروان مـائة درهـم لكـان كـثيراً! فـقال عـثمان: ألقِ المـفاتيح فـإنّا

(١) الأمينان: أبو بكر وعمر.
(٢) الاستيعاب (المطبوع بهامش الاصابة): ٢ / ٤١٤، أُسد الغابة: ٣ / ٣٣٥، تاريخ ابن عساكر: ٣٤ / ٣٢١.

سنجد غيرك![1]

وأتـته مـن العـراق أمـوالٌ كـثيرة فـوزّعها عـلى بـني أُمـيّة. ولمّـا زوّجَ الحرثَ بن الحكم ابنتَه عائشة أعطاه مائة ألف فوق ماكان قد أعـطاه سـابقاً. وقدمتْ إبل من إبل الصّدَقة من بعض الولايات فوهبَها لصهره الجديد. ثم ولّاه صدقات قضاعة فبلغتْ ثلاثمائة ألف ـ أي ثلاثة ملايين ـ فوهبَها له أيضاً[2].

وكلّمَه مرّةً في ذلك نفرٌ من كبار الصحابة في طليعتهم عليّ بن أبي طالب ، فقال: إنّ له قرابةً ورحماً. فقالوا: أفَما كان لأبي بكر وعُمَر قرابةٌ وذوو رحم؟ فقال عثمان: إنّ أبا بكر وعُمَر كانا يحتسبان في منْع قرابتهما ، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي! فقالوا: فهَدْيُهما واللهِ أحبّ إلينا من هَدْيك[3]!

وانتهز الوجهاء هذه الفرصة للإثراء على حساب الجماعة «بل ذُلّلتْ لهم في كثيرٍ من الأحيان هذه الفرَص على عمْدٍ ؛ ليُشرَكوا بالأوزار ويُقْعَدوا عن المعارضة»[4].

فهذا طلحة بن عبيد الله قد ابتنى بالكوفة قصراً منيفاً ، عُرف عند العرب بعد ثلاثة قرون بدار الطلحتين على ما جاء في مروج الذهب للمسعودي. وكانت غلّته من العراق وحده كلّ يومٍ ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك.كان ذلك بالكناس ، أمّا بناحية سراة فأكثر ممّا ذكرنا على رواية المسعودي أيضاً. أمّا بالمدينة فقد شيّد طلحة داراً تشبه دار عثمان.

وهذا عبد الرحمن بن عوف يـبتني دوراً فـيوسعها ويـوقف عـلى كـلّ

(١) شرح نهج البلاغة: ١ / ١٩٩ ، الاستغاثة: ١ / ٥١.
(٢) نهج البلاغة: ١ / ٩٨.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٣٥/٣، بحار الأنوار: ٢١٩/٣١ .
(٤) حليف مخزوم لصدر الدين شرف الدين: ١٧٣.

مربطٍ له مائةَ فرس ، ويملك ألف بعير وعشرةَ آلاف من الغنم ، وتبلغ ثروته النقدية ما يوازي الملايين الثلاثة من الدنانير.

أمّا زيد بن ثابت فيخلّف وراءه من الذهب والفضة ما يُكسّر بـالفؤوس على ما جاء في مروج الذهب ، ويخلّف من الأموال والضياع ثروة ضخمة.

وهذا يعلى بن اُميّة لا يموت إلّا عن خمسمائة ألف دينار ، وعن ديونٍ على الناس الفقراء وعقارات!

أمّا الزبير بن العوّام فيذكر المسعودي أنّه كان يملك في عهد عثمان ألف عـبدٍ وألف أمَـة. ويـبتني القـصور الشـاهقة بـالبصرة والكـوفة ومـصر والإسكندرية ؛ وحيثُ طالت له باع. أمّا ثروته النقدية ، وأمّـا خـيله وإبـله ، فحدِّثْ عنها ما يطيب لك الحديث! ويعلّق المسعودي على هذا بقوله:

«وهذا بابٌ يتّسع ذكره ويكثر وصفُه ، في مَن تملّك من الأمـوال فـي أيّامه ـ أي أيام عثمان. ولم يكن مثل ذلك عصرُ عمر بن الخطّاب. بل كانت جادّة واضحة وطريقة بيّنة!»[1]

ولم يبقَ أحدٌ من الذين رضي عنهم عثمان والاُمـويّون إلّا أثـرى عـلى حساب الجماعة ، بل على فقرها وبؤسها. فاقتنى هؤلاء من الضيّاع والأموال ما لا عهد للناس بأن يروه في حوزة الفئة القليلة. وكان لعثمان نـفسه مـن هـذه الممتلكات نصيبٌ عظيم. فلقد وجد الناس له عند خازنه ـ وذلك بعد مقتله ـ خمسين ومائة ألف دينار وألف درهم. وكانت قيمة ضياعه بـوادي القـرى وحنين وغيرهما مائة ألف درهم. وخلّف إبلاً وخيلاً كثيرة[2]. أمّا الجـواهـر

(١) مروج الذهب للمسعودي: ١ / ٤٣٣.

(٢) راجع كتاب عثمان لصادق عرجون.

والحلي الكسرويّة التي كانت في بيت المال وهي ممّا أفاءت الفتوح على عمر بن الخطاب ، فقد رآها الناس تتوهّج في ضوء الشمس كالجمر المتّقد ، ولكنْ على صدور بنات عثمان! ورأوا بها حقوقهم مجمّدة في تجسيدٍ هازئٍ مخيف في أيدي الأُسرة الحاكمة[١].

وممّا جاء في مروج الذهب للمسعودي هذا القول في عثمان: «كان عثمان في نهاية الجود والكرم والبذل... فسلك عمّالُه وكثيرٌ من أهل عصره طريقتَه. وبنى داره في المدينة وجعل أبوابها من الساج والعرعر ، واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة»[٢].

وأطلق عثمان لأنسبائه بني أُميّة يأمرون وينهون ويولّون ويعزلون ويجمعون الأموال ويثرون، ويجعلون من أرجاء الدولة الواسعة ميادينَ لنفوذهم وأماكن لتأسيس دولتهم. وكان عنصر السوء الأوّل في ما لجأ إليه عثمان من تدابير مستشاره ووزيره مروان بن الحكم.

وهكذا كانت سياسة عثمان الماليّة ـ والإدارية ومستلزماتها ـ تشطر الناس شطرين على ما لا عهدَ لهم به: الحكّام والأنسباء وحصّتُهم الثراء والطغيان. والعامّة ونصيبُها الحرمان واحتمال الجور. وقد تركّزتْ هذه السياسة الرأسمالية الخالصة بعد اقتراح عثمان بنقل الفيء إلى الناس حيث أقاموا من بلاد العرب. فكان الترف والتبطّل من نصيب الأثرياء الذين أفادوا من هذا التدبير. يقول طه حسين:

«ونشأ عن ذلك أوّلاً ، أنْ ظهرتْ الملكيّات الضخمة في العراق وغيره

(١) حليف مخزوم: ١٦٥.

(٢) مروج الذهب ، للمسعودي: ١ / ٤٣٣ ، وعنه الغدير للأميني: ٨ / ٢٨٦.

من الأقاليم. فالذين استطاعوا أن ينتفعوا بهذا الاقتراح إنّما هم أصحاب الأموال الضخمة ، الذين كانوا يستطيعون أن يشتروا من أصحاب الملكيّات الصغيرة ما يملكون. فاشترى طلحة ، واشترى مروان بن الحكم ، وكثر النشاط المالي في ذلك العام من بيع وشراء ، واقتراض واستبدال ومضاربة. ثم لم يقتصر ذلك على الحجاز والعراق ، وإنّما شمل بلاد العرب كلّها من جهة، والأقاليم المفتوحة كلّها من جهة أُخرى. فوجدت الإقطاعات الكبيرة الضخمة والضياع الواسعة العريضة من جهة، وقام فيها العاملون من الرقيق والموالي والأحرار من جهة أُخرى. فظهرت في الإسلام طبقة جديدة من الناس هي: طبقة البلوتوقراطية التي تمتاز إلى ارستقراطيتها التي تأتيها من المولد بكثرة المال ، وضخامة الثراء وكثرة الأتباع أيضاً.

ونشأ عن ذلك ثانياً أن الذين اشتروا الأرض في بلاد العرب عامّة وفي الحجاز خاصّة قد أرادوا أن يستغلّوا أرضهم. فاجتلبوا الرقيق وأكثروا من اجتلابه. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتّى استحال الحجاز إلى جنة من أجمل جنّات الأرض وأخصبها وأحسنها ثمراً وأعوَدها على أهلها بالغنى ، وما يستتبع الغنى من الترف والفراغ. وما هي إلّا أن تنشأ في الحجاز نفسه ، في مكة والمدينة والطائف ، طبقةٌ من هذه الارستقراطية الفارغة التي لا تعمل شيئاً ، وإنّما يعمل لها ما جلبت من الرقيق، والتي تنفق وقتها في فنون اللهو والعبث والمجون. وكانت الفنون التي تنشأ عن الترف والتبطّل ، فكان الغناء والإيقاع والرقص والشعر الذي لا يصوّر جدّاً ولا نشاطاً ، وإنّما يصوّر بطالةً وفراغاً وتهالُكاً من أجْل ذلك على اللذّة ، أو عُكوفاً من أجل ذلك على النفس وتعمّقاً لما ينتابها من الهمّ. وإلى جانب هذه الطبقة الارستقراطية الفارغة

عاش الرقيق الذين كانوا يملكون سادتهم ويدبّرون حياتهم. وما يكون في هذه الحياة من النشاط الباطل ، وما يكون فيها من العواطف والأهواء. ثم إلى جانب السادة الأرقّاء ، والأرقّاء السادة ، عاشت طبقةٌ أُخرى من العرب البادين المحرومين، لم تملك قطّ أرضاً في الحجاز لتبيعها بأرضٍ في العراق، ولم تملك قط أرضاً في العراق لتشتري بها أرضاً في الحجاز.

ونتيجة هذا كلّه أنّ النظام الذي استحدثه عثمان عن رأيه هو ـ أو عن رأي مشيريه ـ لم يكن له نتائجه السياسية وحدها من نشأة هذه الطبقة الغنيّة المسرِفة في الغنى ، التي استهوت الناس وفرّقتْهم أحزاباً وتنازعت السلطان فيما بينها بفضل هذه التفرقة ، وإنّما كانت له نتائجه الاجتماعية أيضاً: فقد بلغ نظام الطبقات غايتَه بحُكم هذا الانقلاب فوُجدتْ طبقة الارستقراطية العليا ذات الثراء الضخم والسلطان الواسع. ووُجدتْ طبقةُ البائسين الذين يعملون في الأرض ويقومون على مرافق هؤلاء السادة. ووُجدت بين هاتين الطبقتين المتباعدتين طبقةٌ متوسطة هي طبقة العامّة من العرب ، الذين كانوا يقيمون في الأمصار ويُغيرون على العدوّ ويحمون الثغور، ويذودون عمّا وراءهم من الناس وعمّا وراءهم من الثراء.

وهذه الطبقة المتوسطة هي التي تنازعها الأغنياء ، ففرّقوها شيعاً وأحزاباً. والذي يتتبع تاريخ المسلمين يلاحظ أنّ الصراع الأوّل إنّما كان بين الأغنياء، ثم بين هذه الطبقة الوسطى وهؤلاء الأغنياء. فأمّا الطبقة الثالثة: طبقة العاملين في الأرض والقائمين على المرافق المختلفة ، فلم يظهر أمرُها إلّا

بعد ذلك»[1].

وكان العرب حتّى ذلك الحين ما تعوّدوا الأَثَرة تطغى على الحكّام وتُوجّه سياستهم وأحكامهم، بل كان ما تعوّدوه تغليب المصلحة العامّة في قلوب ذوي السلطان على المنافع الخاصّة.

كانوا قد تأثّروا بسيرة النبيّ وعدْله وإيثاره الآخرين على نفسه ، وتمرّسوا بتعظيم شأن السلطة على أنّها سلطة العامّة لا الخاصّة ، وسلطة العدل دون الجور، وسلطة مَن يُعينون الشعب على مكاره الدهر لا مَن يُعينون على الشعب. وكان تمرّسهم بهذه المفاهيم على أيدي الخليفتين السابقين: أبي بكر وعمر بن الخطاب ، وعَوْنهما العظيم عليّ بن أبي طالب، ولم يكن قد استُخلف بعد. ولعلّه كان من سوء حظّ عثمان أنّه جاء وهو على هذه السيرة ، بعد عمر بن الخطاب مباشرةً ، وكان الناس ما يزالون يذكرون ـ في ما يذكرون ـ أن عُمَر حَجّ مرّةً فأنفقَ في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً ، فقال لولده عبد الله: لقد أسرفْنا في نفَقتنا في سفَرنا هذا! فلما طلع عليهم عثمان بهذه السياسة هالهم الأمر. وشكوا الخليفة وكرّروا الشكوى. وأظهروا استياءهم من وُلاته وعمّاله الأُمويّين ومَن نهَج نهْجَهم. وعالَنوا عثمان بأنّهم لن يتمكنوا من احتمال مظالم هؤلاء الوُلاة وهذه السياسة. وقد يندم عثمان لبعض أعماله ويُصغي إلى شكايات المتذمّرين ، ويعِدُهم بإقصاء أعوانه وعمّاله. فلا يلبث أعوانه أُولئك أن يغلبوه على مشيئته ، فيبقوا حيث هم ويُمنعوا في سلب الأموال وفي الاستئثار ، ثم في التنكيل بالخصوم

---

(١) عثمان ، صادق عرجون : ١٠٥ ـ ١٠٩.

نكاية وانتقاماً.

وكثيراً ماكان الولاة يقتلون أعضاء الوفود التي تشكوهم إلى الخليفة ساعةَ تعود هذه الوفود إلى ديارهم. وقد أخذتْ وعوداً بالإصلاح فيعود مَن بقوا أحياءاً مِن هؤلاء ويشكون جَوْر الوُلاة إلى أجلّاء الصحابة فينصرهم الصحابة عند الخليفة ، فيأمر الخليفة بتعيين والٍ جديدٍ مكانَ الوالي الجائر. فإذا سار هذا الوالي إلى استلام منصبه ، سار قبله رسولٌ يحمل كتاباً للوالي المعزول ، فيه أمرٌ بقتل الوالي الجديد ساعة يصل ، وفيه أمرٌ بقتل الوفد الذي شكاه إلى الخليفة! فيثبت الوالي القديمَ في مكانه وينفّذ ما أمَرَ به مِن قتْل ، ثم يمعن في مظالمه ونكاياته.

وهكذا سارت سياسة عثمان بوحي الوجهاء وفي مصلحة الوجهاء. وقهرت العامّة قهراً كثيراً راح خلالها العامّة يعبّرون عنه بكظم الغيظ حيناً وبالقول أحياناً. وكان للشعر نصيبٌ في تصوير حالة البائسين هذه وأحوال المترفين. وكان في الناس نفرٌ ممّنْ اجتمعَ لهم صفاءُ الوجدان وذكاء القلب وبلاغة اللسان وجلال المكانة في قلوب المسلمين ، فهالَهم ما هال العامّة مِن بؤس السواد الأعظم ، وترَف الفئة القليلة، فراحوا يعارضون سياسة البلوتوقراطية هذه التي انتهجَها عثمان والأُمويّون وأنصارهم. وكانت معارضتهم نزيهةً شريفةً تترفّع عن كلّ مطمع وكلّ هوى. فماذاكان من شأنهم في عهد الوجاهات؟

التنكيل بالمعارضة

ـ إذا اختلف الناس كان عمّار مع الحقّ![1].

النبي

ـ يا أمير المؤمنين! إنّ هذا العبد ـ يعني عمّاراً ـ قد ألّبَ عليك الناس! وإنّك إنْ قتلتَه نكّلتَ به مَن ورائه[2].

مروان

ـ ما أظلّتِ الخضراء ولا أقلّتِ الغبراء مِن ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذَرّ![3].

النبي

ـ أشيروا عليَّ في هذا الكذّاب ـ يعني أبا ذَرّ ـ إمّا أنْ أضربه أو أحبسه أو أقتله![4].

عثمان

رأينا أنّ أعوان عثمانَ وبطانته من الأُمويّين وسائر الوجهاء وعلى رأسهم مروان ، هم المسؤولون عن كافّة السيئات في الحُكم وأساليبه ، وفي السياسة الماليّة في عهد عثمان. وعلى عثمان نفسه مثلُ هذه المسؤولية أيضاً ، إذ لجأ إليهم ورضيَ عنهم وأمرَ بما يأمرون به ونهى عمّا ينهون عنه ،

---

(١) مناقب أمير المؤمنين ، لمحمد بن سليمان الكوفي: ٢ / ٣٥٣، مجمع الزوائد للهيثمي: ٧ / ٢٤٣، شرح نهج البلاغة: ٣ / ٩٨.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١ / ٥١.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٥ / ١٩٧ ، مجمع الزوائد للهيثمي: ٩ / ٣٣، وهذا الحديث متواتر لدىٰ جميع المسلمين.

(٤) أنساب الأشراف: ٥ / ٥٢ ، طبقات ابن سعد: ٤ / ١٦٨ ، مروج الذهب: ١ / ٤٣٨ ، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٤٨ ، شرح نهج البلاغة: ١ / ٢٤٠ ، فتح الباري: ٣ / ٢١٣.

فكانوا عليه أرصاداً وكان لهم مطيعاً. وقد مثّلَ عليّ بن أبي طالبٍ حقيقةَ عثمان مع بطانته تمثيلاً لا أصدقَ منه ولا أحكمَ في المنطق ، إذ أنزلَ الخليفةَ الثالث مِن بِطانته منزلةَ مَن غصّ مِن طعامه وشرابه بالماء. والغاصّ بالماء كيف يتأتّى له أنْ تساغ غصَّتُه والماءُ آخر علاجٍ في مثل هذه الغصّة؟ قال عليّ: «**إنّ مَن فسدت بطانتُه كان كمن يغصّ بالماء فإنّه لو غصّ بغيره لأساغ الماءُ غصّتَه!**»[1].

وكما أطلقَ عثمان أيدي الأُمويّين في استغلال النفوذ وأيدي الوجهاء في الاستئثار والاحتكار وجمْع المال، أطلقَ أيدي مستشاريه منهم في تكبيل حرّية المعارضين: من أجلّاء الصحابة والداعين إلى العدالة الاجتماعية بين الناس ، وسانَدهم وماشاهم ، وكثيراً ما كان يكفيهم التنكيلَ بأصحاب الفكر الحرّ فيُلحق بهم الأذى بمشورة مروان وعن رأيه ، ولا ينظر إليهم إلّا كأعداء يريدون أن يُقصوا عنه خيرَ مروان وخيرَ أخيه الحرَث! لقد عمل عثمان بآراء مستشاريه الأُمويين خاصَّةً في كلّ صغيرةٍ وكبيرة ، حتّى كان ضحيّتهم ، وهم الذين استغلّوه في الحُكم راضياً أو غير راضٍ ، وتربَّصوا به وألّبوا عليه سرّاً ؛ لعلّ الخلافة تكون من نصيب سواه من الأُمويّين الطامحين إليها. وساعدَهم في ذلك أنصارُهم جميعاً. وتخلّوا عنه كما تخلّى عنه أنصارهم ساعةَ نوى الثائرون أن يفتكوا به.

لقد أقصى عثمان عنه كلّ مَن تصلح بمشورته الأُمورُ ويستقيمُ أمرُ الخلافة بالحقّ ، وارتضى لنفسه بطانةً راحت تستشيره ثم تشير عليه بالتنكيل بالمصلحين الذين تُلبسهم ثوباً من العداء للخليفة لم يختاروه ولم يلبسوه.

ففيما كان رجلٌ مسيءٌ كمروانَ أثيراً لدى عثمان ، لم يكن لمثل

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٠ / ٣٠٨، تاريخ ابن عساكر: ٢٤ / ٣٤٧.

عليّ بن أبي طالب شيءٌ من الحظوة لديه. وهـو لو كـان له رأيٌ فـي سياسة الخلافة عندذاك لاستطاع بنافذ بصيرته وقوّة حُكمه على الأُمـور أنْ يـجنّب الخليفة سياسةَ الأَثَرة والاصطناع ، ويسيّر الدولة على أساسٍ أثبت وأجـدى يقوم على تغليب المنافع العامة ورفْع الجور عن الناس. وقد بلغ من آثار هذه الحظوة التي كانت لمروان لدى عثمان ، أنّه لم يكن ينتهي من تدبير مؤامرةٍ أو ارتكاب جريمة ، حتّى يعود إلى الخليفة ليُفرغ في نفسِه أنّ عليّ بن أبـي طالب وغيره من كبار الصحابة إنّما هم الذيـن يكـيدون له ويـثيرون النـاس عليه ، وأنّ السبيل الوحيد إلى توطيد الأمْن وسلامة الخلافة هو أن يقتل عثمانُ هؤلاء الصحابة وفي طليعتهم عليّ ، ويحصر الأمـرَ كـلّ الأمـر فـي عشيرته الأُموية، فهُم أقرب الناس إليه وأشدّهم غيرةً على سلطانه.

وفي المؤتمر الذي عقده عثمان للتشاور في شأن الاصلاح بعد أن طغى الفساد لم يدعُ إليه إلّا الأُمـويين وأنـصارهم مـن الذيـن يشكـونهم الصـحابة وسائرُ الناس. وحين أدلى كلٌ منهم برأيه في كيفية الوصـول إلى الإصـلاح ، تَبيّنَ أنّهم بين راغبٍ في بقاء الحال على ما هي عليه ؛ تيسيراً لتنفيذ مؤامـرةٍ يدرسها ، أو توسيعاً لفرجةٍ يريد اجـتيازها إلى مأربٍ له ، وبـين راغبٍ فـي الإصلاح على أساسٍ من الاحتفاظ بولايته ونفوذه. وكان المؤتمرون جميعاً ، من خصوم عليٍّ والمؤلّبين عليه الذين يخشون عدلَه على جورهم ، وصـدقَه عــلى حــيلتهم ، وزهــدَه عـلى تـرَفهم واسـرافـهم ، وديـموقراطـيّتَه عـلى أرستقراطيتهم. ويكفي أنْ يكون فيهم معاوية بن أبي سـفيان ومـروان بـن الحكم وعمرو بن العاص.

غير أنّ عليّ بن أبي طالبٍ لم يكن ليقف عند مثل هذه الأُمور من إبعاده أو تقريبه. فالذي يعيره عليٌّ اهتمامَه هو أنْ يستقيم الأمر بالعدل، ولو وقف

منه الخليفةُ وأعوانه موقفَ المخاصمين. وقد ظلّ عليّ حتّى الساعة الأخيرة من أيام عثمان ينصح له بأن يعدل فيستقيم له الأمر. فحين اجتمع الناس مرّةً بالسخط على عثمان لم يجد عليّ بدّاً من أنْ يرفق بهؤلاء الناس وبالخليفة في وقتٍ واحد، فأهملَ ما كان من أمر عثمان والأُمويّين معه، ودخل على الخليفة وقال له:

«الناس ورائي وقد كلّموني فيك. والله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلّك على أمر لا تعرفه. إنك لتعلم ما نعلم. ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكَه، وما خُصصنا بأمر دونك.

وقد رأيتَ وسمعت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلّم ونلت صهره. وما ابن أبي قحافة ـ يعني أبا بكر ـ بأولى بعمل الحقّ منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيءٍ من الخير منك. وإنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً. ولقد نلت من صهر رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ما لم ينالا؛ ولا سبقاك إلى شيء. فاللهَ اللهَ في نفسك؛ فإنّك، واللهِ، ما تُبَصّرُ من عمىً ولا تُعَلّم من جهل، وإنّ الطريق لواضحٌ بيّن. تعلمُ يا عثمان! أن أفضل عباد الله عند الله إمامٌ عادل، هُديَ وهَدى. وإنّ شرّ الناس عند الله إمامٌ جائر، ضلّ وضُلّ به. وإني سمعت رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) يقول: (يُؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصيرٌ ولا عاذر، فيُلقى في جهنّم)»[1].

فلم يستطع عثمان أن يردّ على منطق عليٍّ بمنطقٍ مثله، بل اكتفى بأن يعتذر بأنّه ما جاء منكراً إذا هو وصل رحماً وقرّب قريباً وأغدق المال على نسيب.

واختلط الحقّ بالباطل والخير بالشرّ. وأمعن الأُمويون في الاساءات واستسلم لهم عثمان. وقد أوجز الإمام عليّ ـ فيما بعد ـ واقعَ الخلافة آنذاك

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٦٤ ـ ٨.

بقوله في عثمان: «**استأثر فأساء الإثرة**»[١] ثم في أنسبائه الأُمويّين: «**وقام معه بنو أُميّة يخضمون مالَ الله خضْمَةَ الإبل نبتةَ الربيع**»[٢].

وهكذا أعدّ الأُمويّون وجماعتهم مصيراً محتوماً لشهيد أثَرَتِهم عثمان. ولم يكن ذلك ليخفي على السيدة نائلة زوج عثمان. ولم يكـن خـافياً عـليها كذلك أنّ عليّ بن أبي طالب إنّما هو أصفى نيّةً وأشدّ إخلاصاً وأرجح عـقلاً وأحسن توجيهاً ونصحاً. وكانت إذا طلبتْ إلى الخليفة أن يستشير عليّاً ويعمل برأيه، انبرتْ بطانةُ السوء تلتفّ حول عثمان وتزيّن له عكس رأيها ، وتقنعه بألّا يعير المرأةَ انتباهاً فهي ضعيفة الرأي. وقد قال مروان مرةً لعثمان: «واللهِ لَإقامةٌ على خطيئةٍ تستغفر الله منها ، أجملُ من توبةٍ تخوّف عليها»[٣].

إذاً، فالخطيئة موجودة فـي سـياسة الخـلافة بـاعتراف مـروان نـفسه ، ولكنّها أيْسَر من التوبة وأجمل. ثم إنّ النصيحة يجب ألّا تبلغ أُذنَي الخليفة إلّا إذا جاءت على لسان مروان. ولم يكن مروان هذا ليكلّم الناس إلّا باسم الخليفة. ولم يكن ليكلّمهم باسم الخليفة إلّا زجراً ونهراً وإصراراً على مُنْكر. وفي بعض ذلك ما يكفي لإذكاء الفتنة على عثمان. وقد قال مرّةً لقوم حاصروا الدار: «ما شأنكم قد اجتمعتم كأنّكم جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا؟!»[٤].

في هذا القول أيضاً ما يدلّ على حـقيقة مـروان والأُمـويين فـي عـهد عثمان. فالقوم لا يجتمعون ، في نظر مروان ، إلّا لنهْب! أمّا المطالبة بـحقّ ، وأمّا الرجاء بالحكم العادل ومنْع الاغتصاب وإقـامة الحـدود عـلى الظـالمين والعابثين بحقوق الناس ، أمّا هذه الأُمور التي من أجـلها اجـتمع النـاس فـلا

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٣٠ ـ ٢.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٣ ـ ١١.

(٣) الجمل ، للمفيد: ١٠٣.

(٤) المصدر السابق.

يمكن أن تكون موضوعاً ذا خطر في نفس مروان وعلى لسانه. ثم إنّ هـذه الخلافة مُلكٌ وسلطان ؛ لا رعايةُ شعب ولا محافظةٌ على رسالة. وهـي إلى ذلك مُلكٌ في بني أُميّة طالما استسنحوا الفرصة ليصير إليـهم ، فـيستعيدوا بـه أمجادهم الضائعة ؛ فما لهؤلاء القوم يريدون انتزاع الملك من... مروان؟!

* * *

ثمّ إنّ جميع الذين عارضوا الأُسلوب الأُموي في الحكم وسياسة المال معارضةً نزيهة خالصة تعرّضوا لغضب عثمان ونقمته بتأثير مروان بن الحكم وغـيره مـن رجـال الحـاشية. مـن هـؤلاء الصـحابيّ الجـليل عـبد الله بـن مسعود. ولكي تدرك ما كان للإساءات التي ألحقها الأُمـويّون بـابن مسـعود من أثرٍ في نفوس الناس، لابدّ من أن نـعرّف بـه تـعريفاً مـوجزاً قـبل ذكـر هذه الإساءات:

كان عبد الله بن مسعود من أوّل الناس إسلاماً حتّى رُوي أنّه سادس ستّةٍ أسلموا، وهاجر الهجرة الأُولى إلى أرض الأحابيش في مَن هاجر إليـها، ثـمّ الهجرة الثانية إلى المدينة. ولازم النبيّ فكان في النّفَر الذين أحبّهم محمّد حبّاً كثيراً وأكرمهم لمَا هم عليه من صدقٍ وإيمانٍ بالخير. وعَدّه المسلمون الأوّلون من كبار علمائهم ممّا حمل عمرَ بن الخطّاب أيامَ خلافته على أنْ يـبعثه إلى الكوفة معلّماً وهادياً بالرغم من حاجته إليه المدينة. وممّا كتَبهُ عمرُ إلى أهل الكوفة يومَ أرسلَه إليهم: «إنّي بعثتُ إليكم عبد الله بن مسعود معلّماً ووزيراً ، وآثرتُكم به على نفسي ، فخذوا عنه!»[1] فأخذ عنه كثيرٌ من الكوفيين ، ولَزِمَه تلاميذ له يتعلمون عنه العلمَ ويهتدون به ، وقدكثر عددهم وعظُم شأنُهم حتى قال فيهم سعيد بن جُبير: «كان أصحاب عبد الله بن مسعود سُرُجَ هذه القرية ـ

---

(١) طبقات ابن سعد: ٦ / ٩.

يعني الكوفة ـ!»[1] وقد أقرّ له المسلمون بوافر علمه حتّى إنّهم جعلوه مرجع أهل الكوفة في الفتوى والاجتهاد أيّام عُمَر لا يرجعون إلى سواه.

وكان ابن مسعود مرجعاً في التفسير ،كذلك في درجة عبد الله بن عباس في ما يلي درجة عليّ بن أبي طالب. ولابن مسعود تلاميذ في التفسير ، اشتهر منهم فيما بعد قَتادة بن دعامة السّدوسي ومسروق بن الأجدع.

وفي القرن الأول والثاني للهجرة اشتهرت في العراق «مدرسة الرأي». وكان كثيرٌ من التابعين وتابعيهم من هذه المدرسة ، ومنهم الحسن البصري. وكان لوجود عبد الله بن مسعود في العراق أثر كبير في خلق التيّارات الحرّة التي أوجدتْ هذه المدرسة فيما بعد ، وذلك لِمَا عُرف به من ميلٍ ضدّ الجمود في التفكير ، خلقَ في تلاميذه وتابعيهم جنوحاً إلى الأخْذ بالرأي المصيب. ولبعض الباحثين قولٌ يجعل من ابن مسعود أصْلاً من أُصول المعتزلة ، وهم يحتجّون لذلك بأنّ له قولاً يدلّ على أنّ الإنسان حرّ في إرادته يرى الحُسن والقبح العقليّين فيحكم برأيه. وعلى كلّ حال فقد كان عبد الله بن مسعود في زمانه من أكبر الشخصيّات تأثيراً في الأمصار ، ومن أجلّ الصحابة في قلوب المسلمين الذين يعرفون ماكان له من منزلة كريمة في نفس النبيّ.

هذا الصحابيّ الجليل ماذا فعل به عثمان؟

كان ابن مسعود ممّن عارضوا سياسة الأُمويّين في عهد عثمان وأعلنوا عن استيائهم لا يتهيّبون ولا يتردّدون. وكان يقول بالكوفة كلّ يوم جُمُعة: «إن شرّ الأُمور مُحْدَثاتها وكلّ محدَثٍ بِدْعةٍ وكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في

---

(١) مسند ابن الجعد: ٢٦٥ ، طبقات ابن سعد: ٦ / ١٠ ، تاريخ مدينة دمشق: ٣٣ / ٥٤ ، والقول فيه: لعلي بن أبي طالب عليه‌السلام.

النار»[١] معرّضاً بعثمان وما أحدَثه من أُمورٍ تخدم الأُمويّين والوجهاء والأغنياء ولا تخدم المسلمين. ومن أقواله فيه كذلك: «ما يزن عثمان عند الله جناحَ ذباب»[٢] وحديث ما رُوي عنه في عثمان يطول. وغضب الوليد بن عقبة ممّا جاء على لسان ابن مسعود في عثمان. وكان الوليد فاجراً خليعاً، ولاّه عثمان الكوفةَ على كرهٍ من أهلها ومن كافّة المسلمين، وهو أخوه لأُمّه! فكتب إليه فيه، فكتب عثمان يستقدم ابنَ مسعود عليه. ورُوي أنّه لمّا خرج من الكوفة إلى المدينة خرج معه الناس يشيّعونه وهم يقولون له: «ارجعْ فإنّا لا نأمنه عليك» فيقول ابن مسعود: «أمرٌ سيكون»[٣].

ودخل ابن مسعود المدينة ليلةَ جُمُعة، فلمّا علم عثمان بدخوله جمع إليه الناس في المسجد وقال: أيّها الناس، إنّه قد طرقكم الليلةَ دوَيْبة ـ يقصد ابنَ مسعود ـ... الخ»[٤] فردّ عليه ابنُ مسعود وردت عليه عائشة وردّ عليه آخرون. ثم أمر به عثمان شُرطتَه وعبيدَه فأخرجوه من المسجد إخراجاً عنيفاً فأخذوه حتّى بلغوا به بابَ المسجد فَجَلَدوا به الأرضَ جلْداً شديداً، وأمعنوا في ضربه حتّى حُمل إلى البيت مكسّرَ الأضلاع مهشّماً. ولم يكتفِ عثمان بهذا المقدار من إهانة الصحابيّ الجليل ومن تكسير أضلاعه على باب المسجد، بل أتبع ذلك كلّه بقطع العطاء عنه. وأمعن في الانتقام منه فحرّم على الناس عيادتَه في البيت؛ حتّى إذا مات وصلّى عليه عمّار بن ياسر ودَفَنه سرّاً، وعلم عثمان بذلك، غضب غضباً كثيراً.

---

(١) أنساب الأشراف: ٥ / ٣٦، حلية الأولياء: ١ / ١٣٨ (بتفاوت يسير)، سبل السلام لابن حجر: ٢ / ٤٨، نيل الأوطار للشوكاني: ٣ / ٣٣٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٤٢، مجمع النورين، للمرندي: ٢٦١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٤٢.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٤٢، الغدير: ٩ / ٤ نقلاً عن الواقدي.

ومن هؤلاء الذين تصدّوا لغضب عثمان وسائر الأُمويّين عمّار بن ياسر وهو من أجلّ مَن عرف التاريخ العربيّ قيمةً إنسانيةً وخُلقاً كريماً. وقد عرف النبيّ قيمةَ عمّار وما هو عليه من عظيم الصفات، فأثنى عليه بما يستحقّه وقال في جملة ما قاله فيه: «**إذا اختلف الناس كان ابن سميّة ـ يعني عمّاراً ـ مع الحقّ!**»(١) واختلف الناس كثيراً في صدر الإسلام الأوّل ، فكان عمّار مع عليّ بن أبي طالب ، وما رآه النبيّ في عمّار رأى مثْلَه عليّ. وأحبّ المسلمون عمّاراً حبّاً لا ريبة فيه ، وعاداه الأُمويون ومَن كانوا على مذهبهم.

كان أوّل ما نقمَه عمّار بن ياسر على عثمان أنّه: «جَعَل المال دُوَلَةً بين الأغنياء». كما قال ، فكان يختلف إليه فينصح له بأن ينهج في الشعب نهجاً عادلاً سليماً ، وأن يكفّ عن الانقياد للعصبيّة العائلية وتوطئةِ الأهل والأقربينَ رقابَ الناس. فيخذله عثمان كما يخذل غيرَه من المصلحين. وممّا رُوي أنّه كان في بيت المال بالمدينة سفْطٌ فيه حليٌ وجوهر ، فأخذ منه عثمان ما حلّى به بعضَ أهله ، فأظهر الناسُ الطعنَ عليه في ذلك ، وكلّموه فيه بكلّ كلامٍ شديدٍ حتّى أغضبوه ، فَخطَبَ فقال: لنأخذنّ حاجتَنا من هذا الفَيْء وإن رغمتْ به أُنوفُ أقوام! فقال له عليّ بن أبي طالب: إذاً تُمنَع من ذلك ويحال بينك وبينه! فقال عمّار بن ياسر: أُشهِد اللهَ أنّ أنفي أوّل راغمٍ من ذلك! فقال عثمان لعمّار: أعلَيّ يا ابن ياسر تجترئ؟ خذوه!

فما كان من مروان بن الحكم إلّا أنْ وقف بين عمّار والخليفة قائلاً لعثمان:

ـ يا أمير المؤمنين! إنّ هذا العبد قد ألّبَ عليك الناس ، وإنك إنْ قتلتَه

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٩٨، كنز العمال: ٧٢١/١١.

نَكّلتَ به مَن وراءَه![1]

فسرعانَ ما رأى عثمان رأي مروان ، فأخذ عصاه وضرَب بها عـمّاراً ضرباً موجعاً ، ثمّ أعانه على الرجل غلمانٌ له والحاضرون من بني أُميّة ، فمدّوا عمّاراً على الأرض وأوسعوه ضرباً شديداً ، ثم وَطِئَه عثمانُ امتهاناً واستخفافاً وضربَه برجليه. ولم يكفّوا عنه حتّى مزّقوا جـنابَه وأطـرافَـه ، وفـتقوا بـطنَه وألقوه على جانب الطريق تحت المطر والصقيع والزمهرير والرياح! فإذا هو بين الموت والحياة ، أو هو إلى الموت أقرب!

ومِن أجلّاء الصحابة الذين تـعرّض لهـم عـثمان والأُمـويّون بـالأذى الشديد المصلحُ العـظيم: أبـو ذَرّ الغـفاري أحـد أعـلام الحـرّية والعـدالة فـي التاريخ ، وصديق التاعسين والمستضعَفين ، والثائرُ الخيّر ، ونصيرُ عليّ بـن أبي طالب ورأسُ شيعته.

وإليك هذه النبذة اليسيرة من تاريخ رجلٍ عظيم مِن أجلّ مَـن حـملتِ الأرضُ على ظهرها ، توضيحاً لحقيقة من خاصم سياسةَ عثمان ؛ ثم توضيحاً لسيرة بني أُميّة في عهده.

كان أبو ذرّ الغفاري من فقراء الناس في الجاهلية ، وإنْ كان سيّد قومه. فلمّا بلغتْ أُذنيه أخبارُ النبيّ محمد وأخبار الدعوة ، هـبط مكّـةَ وهـو مـتلفّعٌ بعباءَةٍ ممزّقة ، وجعل يطوف في أحيائها إلى أنْ أعـياه السـير ، فـاتّخذ عـن عمامته وسادة واضطجع على الأرض في مكان قريبٍ من الكعبة. فمرّ عليّ بن أبي طالب على مقربةٍ منه فشاهده ، فرقّ لحاله ، فمظهره يدلّ على أنّه فـقيرٌ غريب لا يعرف من الناس أحداً ولا يعرفه أحد. فتعارفا ، ثم تحادثا ، فدعاه عليّ إلى منزله ، ثمّ سار به إلى النبيّ ؛ فسـارع أبـو ذرّ لقـبول الدعـوة فكـان

---

(١) الإمامة والسياسة: ١ / ٥١.

خامس المسلمين.

وكان أبو ذرّ من الإخلاص والجرأة بحيث وقف فـي الكـعبة وأعـداءُ الرسالة من قريش مجتمعون فيها ، فسخر مـن آلهـتهم ودعـاهم إلى الديـن الجديد. وماكان للمسلمين يومذاك مثلُ هـذه الجـرأة الغـريبة عـلى قـريش. فتَدافع القوم إليه حتى أمسكوا به وانقضّوا عليه ضـرباً مـبرّحاً وتـركوه عـلى الأرض طريحاً مُثْخناً بالجراح. ثمّ إنّه كان من أقرب الصحابة إلى النبيّ بفضل عـلمه الواسـع ، ورأيـه المـصيب ، وحـبّه للإصـلاح ، ومـيله إلى الفـقراء والمستضعَفين ، ودفاعه عنهم.

وظلّ أبو ذرّ موضع الثقة العامّة كماكان مـوضع ثـقة النـبي. واحـترمه الصحابة وأجلّوه. ورفع عليّ شأنه حـتّى قـال فـيه: **«إنّـه رجـل وعـى عـلماً عـجزَ عنه الناس»**[1].

ولمّا آلت الخلافة إلى عثمان هـال أبـا ذرّ الأمـرُ. إذ كـيف يُستخلف عثمان وعلى رأس المسلمين عليّ بن أبي طالب العالم العادل الزاهـد إلّا فـي الحق؟ غير أنّه لم يأتِ أمراً وعليٌّ لا يريد الفتنة. ثـم مـا لبث أن رأى عـامّةَ الناس فقراءمهْمَلين. ورأى الأُمـويّين الأرسـتقراطـيّين فـي نـعيم. وأدرك أنّ عثمان يستأثر بحقوق الجماعة ، على النحو الذي ذكرنا في أكثر من مكان. فأنكرَ على هؤلاء جميعاًكنز الأموال واحتكارَ المـنافع والغـرقَ فـي التّـرف فيما يبيت السواد الأعظم من الناس على الطِوى. ثم أعلن عن غضبته على هذه السياسة المنكرة التي ينهجها الأُمويّون ، فتزيد في ثـراء المـترفين وتـقضي على الفقراء بالموت جوعاً ؛ وتقسّم المـجتمع العـربي إلى طـبقتين. وانـطلق يخطب الناس قائلاً:

---

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة: ٤ / ٦٤، بحار الأنوار: ٢٢ / ٤٢٠، الغدير: ٨ / ٣١١.

«لقد حَدَثَتْ أعمالٌ ما أعرفُها. واللهِ ما هي في كتاب الله ، ولا سنّة نبيّه. والله إنّي لأرى حقّاً يطفأ وباطلاً يحيا وصدقاً مكذّباً ، وأثرَةً بغير تقى! يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء! وبشّر الذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار ، تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم اتخذتُم ستورَ الحرير ، ونضائدَ الديباج ، وأَلِفْتم الاضطجاع على الصوف الأذربيّ ، وكان رسول الله ينام على الحصير. واختُلِفَ عليكم بألوان الطعام ، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير»(١).

وراح أبو ذرّ يطالب بإنصاف الفئة المحرومة من الفئة الحاكمة الباغية ، ويحرّض الفقراء على استرجاع حقوقهم بالقوّة ويحثّ الناس على أن يرفعوا الحاجة عن مجتمعهم ويقضوا على الفقر: أساس الرذيلة وعدوّ الفضيلة. وكان يردّد هذه الكلمات الروائع: «عجبتُ لمن لا يجد القوتَ في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه»(٢). و«إذا ذهب الفقر إلى بلدٍ قال له الكفر: خذني معك!»(٣).

وقد بلغ كرهُه للأثرَة الأُمويّة أنْ تَرَكَ الحجاز ، وجاء إلى الشام كي لا يرى بعينيه إسرافَ عثمان ومروان ؛ فإذا به يرى من أمر معاوية ما يهون لديه أمر الخليفة ومستشاره. رأى أنّ معاوية مُطْلَق اليد في أموال الخزينة ، وجهود الشعب ورقاب الناس ، فازداد سخطاً وثورة. ولمّا بنى معاوية قصر الخضراء في الشام بعث إليه أبو ذرّ يقول: «يا معاوية! إنْ كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الإسراف»(٤).

---

(١) أنساب الأشراف: ٥ / ٥٣، شرح نهج البلاغة: ٣ / ٥٥.

(٢) بحار الأنوار: ٧٠ / ٢٤٧، وفيه: كيف لا يخرج على الناس بالسيف.

(٣) الإمام الصادق عليه السلام ، لعبد الحليم الجندي: ٣٦٥.

(٤) أنساب الأشراف: ٦ / ١٦٧، تاريخ مدينة دمشق: ٦٦ / ١٧٤.

مثل هذا الرجل الحرّ لم يكن الأُمويون ليرضوا عنه ، أو يحتملوا وجوده بين الناس. وقد بـلغ الأمـرُ بـمروان أنْ راح يـحرّض عـليه عـثمانَ ويُـغريه بالتخلّص منه. وبلغ بعثمان أنْ وكلَ إلى معاوية أمرَ «تأديب» أبي ذرّ. وبـلغ بمعاوية أنْ أخرجه من مجلسه ، ونهى الناس عن الاجتماع به ، وأنْ خـاطَبه بمثل هذا القول العجيب: «يا عدوّ الله! تؤلّب الناس علينا وتصنع ما تصنع! فلو كنتُ قاتلاً رجلاً من أصحاب محمد من غير إذنِ أمير المؤمنين ، لقتلتُك»(١).

فقال أبو ذرّ: «ما أنا بعدوٍّ لله ولا لرسوله ، بـل أنت وأبـوك عـدوّان لله ولرسوله ، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر»(٢).

ولم يأبهْ أبو ذرّ لتهديد معاوية ووعيده، بل واصل نشاطه الإصلاحي في الشام عـلى صـورةٍ أخـافت مـعاوية وأقـضّتْ مـضجعه(٣). وتأذّى الوجـهاء والأغنياء بالشام ،كما تأذّوا بالمدينة وخافوا على منهوباتهم من أبي ذرّ ومن دعوتِه ، وكثرت عليهم سلاطةُ الفقراء والمحرومين ، فباتوا لا يجدون خلاصاً إلّا أنْ يذهب عنهم أبو ذرّ ، ويحبس لسانَه عـن مـخزياتهم. وجـاء مـخلوقٌ يُدعى جندب بن مسلة الفهري إلى معاوية ، فقال له بلسان النـاصح المُشْـفِق ونفسيّة العبد الأمين:

ـ «إنّ أبـا ذرّ لَـمُفْسِدٌ عـليكم الشـامَ ، فـتدارَكْ أهـلَه إنْ كـانت لكـم حاجةٌ فيه!»(٤).

فتَرَدَّد في خاطر معاوية أن يقتل أبا ذرّ ، ولكنّه خشيَ غضبة الناس إنْ هو فعل. فإنّ ابن أبي سفيان الذي «لم يغمدْ سيفَه وفي قلبه حقدٌ على أحد» كما

(١) شرح نهج البلاغة: ٨ / ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أقضّت مضجعه: أقلقت مضجعه ، موضع هجوعه. لسان العرب: ٧/٢٢١، مادة «قضض».

(٤) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٥٥.

يقول عنه الحسن البصري ، لم يُحجم عمّا حدّثته به نفسُه من قتْل هذا العظيم إلّا خشيةَ المسلمين ، لا خشيةَ عثمان كما ادّعى! فكتب إلى عثمان يشاوره في أمره ، فأجابه عثمان قائلاً: «احملْ أبا ذرّ على أغلظِ مركبٍ وأوعرِهِ ، ثم ابعثْ به مَع مَن ينخش به نَخْشاً عنيفاً حتّى يقدم به عليّ!»(١).

فعمل معاوية بأمر عثمان ، وأركب أبا ذرّ على قتَبٍ(٢) بدون وطاء. فلم يبلغ المدينة إلّا وقد أكل القتب لحمَ فخذيه وانكسر ظهره من السير الطويل الحثيث يحمله عليه من دمشق إلى المدينة حرّاسٌ غِلاظ الأكباد ، أجلافٌ لم يأذنوا له ، على بُعد المسافة ، أن يستريح من حَرٍّ أو من عياء ، في نهارٍ أو ليل!

دخل أبو ذرّ منهوكاً واهن القوى على عثمان ، فقال له عثمان في الحال: أنت الذي فعلتَ وفعلت! فقال أبو ذرّ: نصحتُك فاستغْشَشْتني ، ونصحتُ صاحبَك ـ يعني معاوية ـ فاستغَشّني. فقال عثمان: كذبتَ ، ولكنّك تريد الفتنة وتحبّها وقد أنغلتَ الشامَ علينا! فقال أبو ذرّ ببساطةٍ وهدوءٍ وثقة: اتبعْ سنّة صاحبيك ـ يعني أبا بكر وعمر ـ لا يكنْ لأحدٍ عليك كلام! قال عثمان: مالك ولذلك لا أُمّ لك؟ فقال أبو ذرّ: واللهِ ما وجدتُ لي عذراً إلّا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكَر. ثم كثر القول بين الرجلين ، وأبو ذر يشير إلى أنّ عثمان راكبٌ هواه عاصٍ ربّه مسيءٌ إلى عباده. فصرَخ عثمان يقول لمَن في مجلسه:

«أشيروا عليّ في هذا الشيخ الكذّاب إمّا أن أضربه أو أحبسه أو أقتله ، فإنّه فرّق جماعة المسلمين ، أو أنفيه من أرض الإسلام!»(٣).

فامتعض عليّ بن أبي طالب وكان في المجلس. وهالَه أن يوجّه عثمان

---

(١) شرح نهج البلاغة ، ٣ / ٥٥ و ٨ / ٢٥٨.

(٢) القتب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير. (ج) أقتاب. المعجم الوسيط، مادة «قتب».

(٣) أنساب الأشراف: ٥ / ٥٢، طبقات ابن سعد: ٤ / ١٦٨، فتح الباري: ٣ / ٢١٣.

نفسه مثل هذا القول للمصلح الكبير والصحابيّ الجليل على رقّة سنّه. فنظر إلى عثمان قائلاً: يا عثمان ، سمعتُ رسول الله يقول: «**ما أظلّتِ الخضراء ولا أقلّتِ الغبراء من ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذرّ!**»(١).

وراح عثمان ينكّل بأبي ذرّ فحظر على الناس أن يجالسوه أو يكلّموه. ثم خطر له أن يسترضيه ، فحاول ذلك على اُسلوبٍ اُمويٍّ خالص: إذ بعث إليه بمائتي دينار يستعين بها على فقره. فقال أبو ذرّ لرسول عثمان: «هل أعطى من المسلمين أحداً مثلَ ما أعطاني ؟» فقال الرسول: لا! فقال أبو ذرّ: «فإنّما أنا رجلٌ من عامّة المسلمين يسَعُني ما يسَعهم!»(٢). وردّ الدنانير إلى عثمان!

ولم يكن في بيت أبي ذرّ حينذاك إلّا رغيفا شعيرٍ ، قد أتت عليهما أيّام!

وعرض عثمان أبا ذرّ الغفاري على الجلّادين. ثم ارتأى أنْ ينفيه إلى «الربذة» وهي مكانٌ قفْرٌ لا يعيش فيه حيٌّ من إنسانٍ أو حيوانٍ أو نبْت ، اللهمّ إلّا ماكان من نبت العَبَب(٣). ولمّاكان موعد رحيله عن المدينة أمَر عثمان بألّا يودّعه أحدٌ ، إمعاناً في الإهانة والإيلام. فما جَرُؤَ على توديعه إلّا خمسةٌ هم: عليّ ابن أبي طالب ، وأخوه عقيل ، والحسن والحسين ابنا عليّ ، وعمّار بن ياسر. وكان مروان بن الحكم ـ مصدر المساوئ ورأس الشرور ـ هو الذي راقب ترحيل أبي ذرّ إلى منفاه ، ونفّذ أمْر عثمان بمنع الناس من تكليمه أو توديعه أو توديع أحدٍ من زوجته وبنيه. وقد بلغ بمروان الأمرُ أنْ حاول منْعَ عليٍّ ومَن معه مِن توديع أبي ذرّ. فنَهره عليٌّ وطَردَه إذ بادَرَهُ بالسوط وهتَفَ يقول: تنَحّ ، نحّاك الله إلى النار! ثم نظر إلى أبي ذرّ وقال له مودّعاً:

---

(١) سبق تخريج الحديث وهو متواتر لدى المسلمين.

(٢) نهج الصياغة: ١١ / ٣٥ نقلاً عن رجال الكشي.

(٣) العبب: نبات ذو حبّ ينبت في القفار.

«يا أبا ذرّ! إنّك غضبتَ لله فارجُ من غضبتَ له. إنّ القوم خافوك على دنياهم، وخفتَهم على دينك، فاتركْ في أيديهم ما خافوك عليه، واهربْ بما خفتَهم عليه. فما أحوَجَهم إلى ما منعتَهم، وما أغناك عمّا منعوك! وستعلم مَن الرابح غداً! ولو أنّ السموات والأرض كانتا على عبدٍ رَتقاً ثم اتّقى الله لَجَعَلَ الله له منهما مخرجاً! ولا يؤنسنّك إلّا الحقّ، ولا يوحشنّك إلّا الباطل! فلو قبلتَ دنياهم لأحبّوك، ولو قَرَضتَ منها لأمِنوك!».

ثم قال عليّ لعقيل وعمّار: «**ودّعا أخاكما!**» وقال لولديه الحسن والحسين: «**ودّعا عمّكما!**»(١).

وبلغت الحادثة عثمان، فغضب على عليّ!

* * *

وهنا يتساءل المرء، ومن حقّه أنْ يتساءل: لماذا سكت عليٌّ عن مثل هذا الجَور الذي يصيب أبا ذرّ رأس شيعته العظيم وكبير أعوانه الثائرين في سبيل الحقوق العامّة؟ وفي استطاعة عليّ أن يمنع عثمان من نفْي أبي ذرّ. وفي استطاعته أن يُشعلها ثورةً لاهبة على بني أُميّة وهو صاحب الرأي الوجيه في المسلمين والقول المسموع؟ ثم، ما هو عذره في مثل هذا السكوت؟ وجواباً عن مثل هذا التساؤل الذي توجهتُ به إلى نفسي، كما تَوجّه به الكثيرون غيري إلى أنفسهم على ما أُرجّح، لابدّ من القول: إنّ في الأمر ما هو واضحٌ كلّ الوضوح، وإنّ فيه ما هوَ غامضٌ كلّ الغموض:

أمّا ما هو غامضٌ، فمردّه إلى عصر عليّ وما فاض به من ملابساتٍ خفيّة، هي من الدقّة بحيث يعسر علينا في القرن العشرين أنْ نُحكِم رأينا فيها، وأنْ نعرف نسيجها خيطاً خيطا. وبحيث يصعب النظر فيها نظَراً صادقاً سليماً إلّا إذا كان الناظر مندمجاً فيها اندماجاً واعياً كلّ سببٍ فيها وكلّ نتيجة.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٣٠، شرح نهج البلاغة: ٨ / ٢٥٢.

وهذا ما لا يتيسّر لنا في هذا الزمن. وما لا يدرك كُنْهَه الباحثون والدارسون قديماً وحديثاً على كثرة ما بحثوا وما درسوا، فقد خفي على هؤلاء جميعاً ما لم يخفَ على عليّ بن أبي طالب من دقائق الشؤون في زمانه ، فتصرّف بمقتضياتها تصرّفاً يعرف ـ هو ـ أسبابه ونتائجه.

أمّا ما هو واضحٌ كلّ الوضوح فخلاصته: أنّ عليّاً مفطورٌ على التضحية بكلّ ما هو خاصّ في سبيل ما هو عامّ. تنبئنا بذلك سيرتُه صفحةً صفحة ، وتخبرنا به حياته طوراً طورا. وكان به من روح المحافظة على الرسالة الإسلامية ما يجعل كلّ أمرٍ ـ مهما بلغتْ خطورتُه ـ هيّناً لديه إزاء ما قد يسيء إلى الرسالة في معنى الاستمرار والانتشار. وهو يعلم من سيرة بني أُميّة في الجاهلية والإسلام ما يجعله يتحفّظ في أنْ يعلن ثورةً عليهم أو يأمر باشتباكٍ معهم ؛ دفْعاً لِمَا قد يصيب المسلمين على أيديهم عندذاك من انشقاق.

وهو يعلم علْمَ اليقين أنّ من نوايا الأُمويين في خلافة عثمان التخلّص من الفئة التي قام بها الإسلام الصحيح واستمرّ في عافية. أو لم يكن مروان بن الحكم يشير على عثمان ، بمناسبة وبغير مناسبة ، أنْ يقتل عليّاً وأبا ذرّ وغيرهما من عظماء المسلمين، الذين لا يستطيع مروان ورهطه أنْ يعبثوا ويفسدوا وهم على قيد الحياة؟

ثم ، ماذا يُلمّ بالمجتمع العربي من طغيان وفساد إذا تمّت مشيئة مروان؟ أفلَيس من المنطق ـ إذاً ـ أنْ يكتفي عليٌّ بموقفه هذا من قضية أبي ذرّ ، وهو الذي وقف من قضاياه الخاصَّة مثل هذا الموقف ؛ محافظةً على وحدة الصفوف وعلى ثقة الناس بعضهم ببعض؟

ألم يسبق له من قبل أن رضيَ من عمر بن الخطاب بعد بيعة السقيفة أن يدخل عليه ، وبيتُه كعبة الناس ، فيأخذه بحمّالة سيفه إلى بيت الخلافة

لمبايعة أبي بكر الصدّيق، والناسُ حولَه بين متعجّبٍ ومتذمّر وساخط وكلّهم رهنُ إشارةٍ منه؟ أوَ لم يكن باستطاعته عندذاك أن يُشعلها ثورةً لاهبة دون هذه المعاملة يبادَر بها وهو ركنُ الإسلام وحصنُ العدالة وقبلة الناس؟ ولكن، ماذاكان من أمره عندذاك؟

لقد دهش الناس ساعةَ رأوا أنّ عمر يأخذ علياً بحمالة سيفه إلى دار الخلافة. ولكنّ دهشهم كان أعظم ساعة نظروا إلى وجه عليّ فإذا هو منبسطٌ مطمئنّ، لا يأمر بفتنةٍ ولا يحدّث باشتباك! بل إنّ دهَشهم تعاظم ساعةَ راحوا يصغون إلى ابن أبي طالب يجادلُ القومَ هادئاً رصيناً يُثير ولا يثور، فلا تثبت أمام منطقه للقوم حجّةٌ، ولا يصمد لهم برهان. إذاً، فهو على حقٍّ في الموقف الذي اتّخذه. وهو مدركٌ كلّ الإدراك ما له وما عليه. فلماذا يرضى بمثل هذه الحالة ومثل هذه المعاملة؟ حقّاً إنّ دهَش أصحابه لَعظيم! غير أنّ أمراً واحداً فاتَهم عندذاك، وهو الأمر الذي لم يفتْ علياً، بل كان مرتكز تفكيره، والعلّة الأُولى في انبساط وجهه واطمئنانه: لقد ساهم في بناء الإسلام أجلّ مساهمة، فهو لذلك مطمئنّ. وها هو اليوم يدفع من ذاته ثمناً جديداً يقي الرسالة خطراً عظيماً، فيما إذا انشقّت الصفوف واشتبك الناس بعضهم ببعض، فهو لذلك مرتاح. وماذا عليه وهو من طينة العظماء الحقيقيّين أهل التضحية، إنْ هو قام بتضحيةٍ جديدة في سبيل الرسالة؟ أمّا موقفه من قضية أبي ذرّ ساعةَ نفاه عثمان، فمن الواضح أنّه أشبه بموقفه هذا من قضيّتهِ هو.

* * *

وماذاكان من أمر أبي ذرّ في منفاه؟

لقد مات الشيخ الجليل جوعاً هو وامرأته وبنوه، على صورة مروّعة فاجعة، هي أحقّ بأن تُبكي الجمادَ وتستثير عطفَ الجلمود!

ويُروى من خبر مأساته في ذلك الفقر: «أنّه بقي ورفيقته ، بعد موت أولاده ، أيّاماً لا يأكلان شيئاً. ثم قال لها: قومي بنا إلى الكثيب نطلب العَبَب. فصارا إلى الكثيب ، والريح تئنّ وتصفر ، فلم يجدا شيئاً. فأصاب أبا ذرّ الذهولُ، وطفق يمسح العرق الذي ينضح رغْمَ البرد الشديد. ونظرتْ إليه زوجته وإذا بعينيه قد انقلبتا ، فبكتْ! قال: ما يبكيكِ؟ فقالت: ما لي لا أبكي وأنت تموت في فلاةٍ من الأرض وليس عندي ثوبٌ يَسَعُنا كَفَناً لي ولا لك، ولابدّ لي من القيام بجهازك. فأشفق الشيخ عليها وقال لها وقلبه يقطر أسىً: فابصري الطريق لعلّ هنالك أحداً من المؤمنين. فقالت: أنّى ، وقد ذهب الحاجّ وتقطّعتِ الطريق! فقال ، وقد ذكَرَ كلمةً قالها له الرسول: اذهبي فتبصري ، فإنْ رأيتِ أحداً فقد أراحكِ الله من القلق والعذاب ، وإن لم تري أحداً فمدّي الكساء على وجهي ، وضعيني على قارعة الطريق ، وقولي لأوّل رَكبٍ يمرّ بك: «هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله قد قضى نحْبَه ولقيَ ربّه فأعينوني عليه!» فأنشأتْ تهرع إلى الكثيب فتنظر ثم ترجع إليه فتمرّضه. فبَينَا هي ترسل نظرها الحزين في الأُفق الغائم ، إذا برجالٍ على رحالهم كأنّهم الرّخم تنحب بهم رواحلُهم فألاحَت ثوبَها ، فأقبلوا حتّى دنَوا منها فقالوا: يا أمَةَ الله! مالك؟ قالت: امرؤٌ من المسلمين تكفّنونه وتُؤجرون فيه. قالوا: ومَن هو؟ قالت: أبو ذرّ الغفاري! قالوا متسائلين ، وقد أنكروا لأوّل وهلةٍ أنْ يموت ذلك الصحابي الجليل وحيداً في الفلاة: «صاحب رسول الله؟» قالت: نعم! فقالوا: بآبائنا وأُمهاتنا هو! لقد أكرَمَنا الله بذلك». ثم وضعوا سياطهم في نحورها ، وأسرعوا إليه حتّى دخلوا عليه.

فتفرّس الشيخ المحتضر في وجه القوم وقال لهم: «والله ما كذبت ، ولو كان عندي ثوبٌ يسَعُني كفناً لي ولامرأتي لم أُكفّن إلّا في ثوب هو لي أو لها.

وإني أنشدكم الله أنْ لا يُكفّنني رجلٌ منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً». فنظر القوم بعضهم إلى بعض حائرين ، إذ لم يكن فيهم أحدٌ إلّا وقد قارف من ذلك شيئاً ، إلّا فتىً من الأنصار قال له: أنا أكفّنكَ يا عمّ في ردائي هذا الذي اشتريتُه بمالٍ كسبتُه بعمَلي ، وفي ثوبين من غزْلِ أُمّي حاكتْهما لي كي أُحرم فيهما. فقال: أنت الذي تكفّنني ، فثوبك هو الطاهر الحلال»(١).

وكأنّ أبا ذرّ قد اطمأنّ إلى هذا القول وسكن ، فأغمض عينيه ، ولفظ أنفاسه الطاهرة في هدوء وتسليم. بينما كانت السحب تتراكض في السماء كأشباحٍ هائمة والرياح تلعب بالرمال السوافي ، كأنّ بَلْقَع «الربذة» الخاوي قد تَحوّل إلى بحرٍ عاصف. ووقف الفتى الأنصاري على قبره فقال: «اللهمّ هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله ، عَبِدَك في العابدين ، وجاهد فيك المشرِكين ، لم يُغيّر ولم يبدّل ، لكنه رأى مُنْكَراً فغَيّرَه بلسانه وقلبه حتّى حُفِيَ(٢) ونُفي ، وحُرم واحتُقر ، ثم مات وحيداً غريباً.. اللهمّ فاقصمْ مَن حَرَمه ونفاه مِن مَهاجره وحرم رسول الله!» فرفعوا أيديهم جميعاً وتمتموا بحرارة وخشوع: آمين(٣).

مات هذا العظيم وهو يقول: «ما ترك الحقّ لي نصيراً»(٤).

وسلامٌ على أبي ذرّ يومَ ثار ويوم مات ويومَ آمنَ بالإنسان وحقّهِ ، عظيماً كريماً لا يهوله موتٌ ولا تُغريه حياة!

* * *

وكانت مأساة أبي ذرّ وزوجته وأولاده هذه ، التي حرّكت القلوب بالعطف على البيت المنكوب ، من الأسباب التي أوغرت الصدور على

---

(١) رجال الكشي: ١٧ ، صحيح ابن حبان: ٥٨/١٥ ، بحار الأنوار : ٢٢ / ٣٩٩.

(٢) حُفي: جفي من الجفاء.

(٣) مسند أحمد: ٥ / ١٦٦ ، شرح نهج البلاغة: ١٥ / ١٠٠.

(٤) نهج السعادة للمحمودي: ١ / ١٥٩ ، كشف الخفاء: ٢ / ١٨٣ وفيه: صديقاً.

عثمان ، فتعاظمتْ نقمة الناس عليه وعلى أنسبائه بني أُميّة.

أضفْ إلى ذلك أن الناس لَيَهولهم هذا التنكيلُ بـمَن عـارَضوا سـياسة الأَثَرة والانتفاع العائليّ ، فيلقى عظيمٌ كأبي ذرّ مثْلَ هـذا المـصير الرهـيب ، ويهان الصحابيّان عبد الله بن مسعود وعمّار بن ياسر ويُضرَبان ويُـحرَمان ، فيما يستولي القاسطون من بني أُميّة وذويهم ومَن سار فـي ركـابهم عـلى مـا أظلّت السماء من رزقٍ ومال وجاه ؛ وفيما يُكرّمون مِن حقّهم أن يُبعَدوا.

ومن التنكيل الذي لحقَ بالمعارضة ما جرى للذين جاءوا إلى المدينة يشكون إلى الخليفة أمرَ الوليد بن عقبة. وخبرُ ذلك: أنّ عثمان خلع الصحابيّ سعد ابن أبي وقاص عن ولاية الكوفة، وبعثَ بدله والياً عليها الوليد بن عقبة أخا عثمان لأُمّه. فاستعظم الناس ذلك ، حتّى لتقول الرواية: إنّ الوليد لمّا دخل الكوفة مَرّ على مجلس عمرو بن وزارة النخعي ، فـوقف عـمرو هـذا فـقال: يا معشر بني أسد! بِئْسَما استقبَلَنا به ابنُ عفّان! أمِن عدْله أنْ ينزع عنّا سعدَ بن أبي وقّاص الهيّنَ الليّنَ السهلَ القريب ، ويبعث بـدله أخـاه الوليـد الأحـمق الماجن الفاجر قديماً وحديثاً؟! وقال أهلُ الكوفة بعد أنْ وُلّي عليهم الوليـد: «أراد عثمان كرامةَ أخيه بهوان أُمّة محمد»[1]!

واستُعْتب عثمان في أخيه كثيراً فلم يعزله، ولم يأبه للعاتبين وأكثرهم من الصحابة المصلحين. وكان شأنه مع الوليد شأنه مع سائر أنسبائه لا يرضى فيهم عتباً ولا يقبل رأياً. وفي هذا الرفض كثيرٌ من تصلّب عثمان في خـدمة ذويه ، ومـن إنكـاره حـقّ المـعارضين فـي أنْ يُسـمَع لهـم قـولٌ أو يُـعمَل برأيٍ يرونه.

وفي العقد الفريد لابن عبد ربّه عن سعيد بـن المسـيب أنّـه قـال: «إنّ

(١) أنساب الأشراف: ٥ / ٣٢، شرح نهج البلاغة: ٣ / ١٧.

عثمان لمّا وليَ كره ولايتَه أصحابُ رسول الله ؛ لأن عثمان كان كثيراً ما يولّي بني أُميّة. وكان يجيء من أُمرائه ما يكره أصحابُ رسول الله ؛ فكان يُسْتَعْتَب فيهم فلا يعزلهم»(١).

ولم يسلم الوليد من لسان الحطيئة ، فقال في هجْوه كثيراً جاء في بعضه:

شهدَ الحُطيئةُ يومَ يلقى ربّه أنّ الوليد أحقّ بالغدْرِ
نادى وقد نفذتْ صلاتُهُمْ أأزيدكم ، ثمِلاً ، ولا يدري؟(٢)

وجاء عثمانَ شهودٌ من الكوفة ، يشهدون على أخيه الوليد بأُمورٍ أتاها وهي تسيئُهم ، فأوعدَهم عثمان وتَهَدّدهم عوضاً عن أن يصغي إلى شكواهم. وضرب الشهود بالسياط ، وما من ذنبٍ اقترفوه إلّا لأنّهم عرضوا له قضيّةً وبسطوا له رأياً وشكوا إليه ما أنكروا من أخيه.

أمّا أشدّ ما سعى الأُمويون في أنْ يُلحقوه من الأذى بالمعارضين ، أو مَن أُنزلوا منزلةَ المعارضين لأنّهم أرادوا أنْ تكون الخلافة للناس جميعاً لا لأُميّة دونهم ؛ فهو ما جرى لابن أبي بكر والمصريّين وهم في طريقهم إلى مصر. وسوف نرجئ الكلام على هذه القضيّة إلى فصلٍ آتٍ ، لأنّها تتعلّق مباشرةً بالفتنة ؛ ثمّ لأنّ لبعض الكتّاب رأياً خاصّاً فيها سنعرضه ونقول رأينا فيه.

---

(١) العقد الفريد: ٣٦/٥ ـ ٣٧ ، مقتل عثمان بن عفان. وراجع في أنساب الأشراف: ٥ / ٢٦ ، وتاريخ ابن عساكر: ٣٩ / ٤١٦.

(٢) الأغاني للأصفهاني: ٤ / ١٧٦ ، تهذيب الكمال: ٣١ / ٥٨.

الحقيقة عن مقتل عثمان

ـ إنّ البلاد قد تمخّضتْ عليك[1].

علي

ـ واللهِ لأطرحنّ هذه الجامعة في عنقك، أو لتتركنّ بطانتك هذه الخبيثة: مروانَ وابنَ عامر وابنَ أبي سرح[2].

جبلة بن عمرو

ـ إنْ كنتم تريدون الجهاد فهلمّوا إلينا، فإنّ دين محمد قد أفسدَه خليفتُكم، فاخلعوه[3]!

أهل المدينة

انقضت إحدى عشرة سنة وبضعة أشهر والناس في نقمة على سياسة عثمان. وتعاظَم استياء الفئات الشعبيّة في الأمصار حتّى غدا ثورةً مكظومة. وهالَ المسلمين أنْ يجدوا المفاهيم والمقاييس التي أحسّوها وأحبّوها في عهد النبيّ وخليفتَيه الأوّلَين تنقلب رأساً على عقب. ففيما تعوّدوا أن يروا في الخليفة حامياً لحقوقهم، مدافعاً عنهم، منصفاً لهم من العمّال إذا جاروا أو أساءوا، إذا بهم يفاجَأون بعثمان يسدل الستار على ما ألِفوه من فصول تلك السياسة العادلة، ويضع لسياسة الأثَرة أُسُساً لم يعرفوها من قبل، ولم

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٥، تاريخ الطبري: ٣ / ٣٩٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٩، تاريخ الطبري: ٣ / ٤٠٠، البداية والنهاية: ٧ / ١٩٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٩، تاريخ الطبري: ٣ / ٤٠١، الكامل في التاريخ: ٥ / ٧٠.

يستسيغوها من بعد.

هال الناسَ استئثارُ البطانة والوجهاء بالمنافع ، واحتكارُهم للأرزاق. وهالَهم هدْرُ الحقوق العامّة وازدراء الوفود الشاكية أفراداً وجماعات. وأنفوا أن تجري تحت أعينهم فصولٌ من إذلال عظماء الصحابة: كأبي ذرّ وعمّار وابن مسعود. وأنِفوا كذلك أنْ يُرغَموا على القبول بوُلاةٍ جائرين، ويُنزَع من بينهم قسْراً وُلاةٌ أحبّوهم ووثِقوا بعدلهم. ولم يرضَ طيّبو المسلمين ـ فوق ذلك ـ أن يُجار على أهل الذمّة على أيدي وُلاة عثمان(١) وهم منهم ناسٌ في الناس أُخوةٌ متفاهمون. ولم يرضوا كذلك عن تسمّم المجتمع في عهد عثمان بالأَثَرة والأنانية، وتفضيل مَن أسمَوه مشروفاً على مَن أسمَوه شريفاً.

وبدأ الناس يجرأُون على عثمان في آخر عهده جرأةً ستدفعهم للثورة عليه ولا شكّ ؛ لأن أسبابها قائمةٌ في سياسته وكذلك أهدافُها. وكان أوّل وهَنٍ دخل عليه بسبب هذه السياسة: أنّ عثمان مرَّ برجلٍ يُدعى جبلّة بن عمرو الساعدي وهو في نادي قومه وفي يده جامعة، فسلّم عثمان فردّ القوم عليه، فقال جبلّة: «لِمَ تردّون على رجلٍ فعلَ كذا وفعل كذا؟» ثمّ التفتَ إلى عثمان يقول له: «واللهِ لأطرحَنّ هذه الجامعةَ في عنقك ، أو لتتركنَ بطانتَك هذه الخبيثة: مروانَ وابن عامر وابن أبي سرح!»(٢).

ومن جرأة الناس على عثمان في آخر عهده ما رواه ابنُ أبي الحديد، إذ قال: إنّ الخليفة الثالث خطب يوماً وبيده عصاً ،كان النبيّ وأبو بكر وعمر يخطبون عليها ، فأخذها رجلٌ يُدعى جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته. ولم يكن طمع الناس في عثمان على هذه الصورة إلّا بداية الثورة على

(١) راجع التشريع الإسلامي لغير المسلمين: ص١١٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٠٠، البداية والنهاية: ٧ / ١٩٧.

سياسته ، بعد أنْ تكاثرت أحداثُ مروان وغيرِه من البطانة.

ثـمّ مـا لبـثتْ هـذه الجـرأة أنْ خـرجتْ مـن نـطاق الأفـراد إلى النـطاق الجماعي ، فكتبَ أهل المدينة إلى مَن بالآفاق يـقولون: «إن كـنتم تـريدون الجهادَ فهلمّوا إلينا، فإنّ دين محمد قد أفسدَه خليفتُكم فاخلعوه!»(١).

واختلفتْ قلوب العامة على عثمان في كلّ أرض. فلم تدخل سنة خمسٍ وثلاثين للهجرة، حتى تكاتَبَ أهلُ الأمـصار يـحرّض بـعضُهم بـعضاً عـلى التخلّص من الأُمويين وخلْع عثمان وعزْل عمّاله حيث كـانوا. واتّـصل ذلك بعثمان ، فكتب إلى أهل الأمصار يسترضيهم. ثم استقدم نفراً من عمّاله فلمّا قدِموا عليه جمَعَهم واستشارَهم. فكان فيهم مَن نصح له بأنْ يعدل فيلزم طريق أبي بكر وعمر. وكان فيهم مَن حاور وداور فلم يُعطِ الخليفةَ نصيحةً واضحة ، كمعاوية. وكان في هؤلاء مَن لا يستحقّ أن يُدلي برأيٍ لِما في رأيه من هوىً وهوَس ، ومن هؤلاء سعيد بن العاص الذي أشار على عثمان ، يقول: «وهذه أُمورٌ مصنوعة تُلقى في السرّ فيتحدّث بها الناس ، ودواء ذلك السيف!»(٢).

وانتهى الاجتماع دون أن يُسفر عمّا يعالج الحالةَ من رأيٍ أو نهْج؛ ذلك لأنّ عمّال عثمان إنّما كان هواهم في سياسته الراهنة لِما يصيبهم بها من مغانم فلم يُخلصوا النصيحة.

أضفْ إلى ذلك أنْ نفراً من هؤلاء كانوا يسعون في التخلّص من عـثمان بالسرّ حيناً، وبالجهر على ما سنرويه ونبيّن أسبابَه في فصلٍ آت. ثمّ إنّ مروان كان بالمرصاد لكلّ مَن يشير على الخليفة بـتبديلٍ أو تـعديل. فـلو أخـلص الناصحون لعثمان لَمَا أجدتِ النصيحة وفي البطانة مروان.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٠١، الكامل: ٥ / ٧٠، شرح نهج البلاغة: ١٣٧/٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٣٧.

وكانت الثورة!

ففيما كان الناس في الأقاليم والأمصار في سخطٍ شديد على سياسة الخلافة التي يضع مناهجَها ويوجّهها مروانُ ومَن إليه ، أقبل أهلُ مصر على عثمان وهو بالمدينة يشكون له الكثيرَ من عامله على مصر عبد الله بن أبي سرح. فقبل عثمان شكواهم وتَلوّمَ على ابن أبي سرح، ووعد القومَ بإنصافهم منه. ثم كتب إلى عامله ينهاه عن أن يعود إلى تصرّفاته السابقة مع أهل مصر ، ويتهدّده إنْ هو لم يفعل بما جاءه من أمر. وكان ذلك على كرهٍ من مروان الذي خرج من دار الخلافة وردّ القومَ ردّاً عنيفاً ؛ ثم راح يحوّل عثمان عمّا أعطى من عهد.

وغضب ابن أبي سرح لدى قراءته كتاب عثمان وأبى أن يفعل بما جاءه من أمر. وبلغ به الغضب أنْ قتَل أحدَ أعضاء الوفد المصري الذي حمل الشكوى إلى عثمان. وكان في صلة عبد الله بن أبي سرح بالخليفة ما يَسّرَ له مثلَ هذا التمرّد ، ومثلَ هذا التصرّف. فهو أخوه من الرضاعة ، وبهذه الأُخوّة ولّاه مصر.

سخط المصريّون أشدّ سخطٍ على ابن أبي سرح بما جرُؤ عليه ، وبما جنَتْ يداه. فألّفوا وفداً جعل بعضُهم عددَه ألفاً للخروج إلى المدينة ثانيةً. فدخلوا المدينةَ محتلّين ونزلوا المسجدَ ونادى مناديهم في أهل المدينة: «مَن لزِمَ دارَه فهو آمن ، ومَن كفّ عنّا أذاه فهو آمن!». ثم اجتمع رؤساؤهم إلى أجلّاء الصحابة يشكون ما جرّه عليهم ابنُ أبي سرح من ويلات ، ويأخذون عليه عنْفَه وقساوتَه وقتْلَه رجلاً منهم لا ذنبَ له، إلّا أنّه كان في وفْدٍ يطالب بحمايةٍ وعدلٍ وحقّ. فدخل على عثمان بعضُ الصحابة فكلّموه في شأن أهل مصر. ثم دخل عليه قومٌ كثير،كان على رأسهم عليّ بن أبي طالب الذي خاطبَ

عثمان يقول بمنطقه العادل الحكيم:

«إنّما سألوك رجلاً مكانَ رجل ، وقد ادّعوا قِبله دماً ، فاعزلْه عنهم واقضِ بينهم وبينه ، فإنّه قد وجب عليه حقٌّ ، فأنصِفْهم منه!».

فأكّد عثمانُ العهدَ للقوم ، وطمْأنَهم إلى أنّه داخلٌ في رضا العامّة. ثم قال لهم: اختاروا رجلاً أُوَلِّه عليكم مكانَ ابن أبي سرح ، فنظر القوم في الأمر ثم أشاروا عليه قائلين: وَلِّ محمد بن أبي بكر. فولّاه ، وأخرجه إلى مصر في جماعةٍ من المهاجرين والأنصار ومعه العهدُ بالولاية(١).

وفيما كان محمد بن أبي بكر ومرافقوه من المهاجرين والأنصار في بعض طريقهم إلى مصر وقد خلّوا المدينة من ثلاثة أيّام، لحظَ أصحابُ محمدٍ غلاماً أدكنَ اللون على ظهرِ بعيرٍ يخبط الأرض على غير هدىً ،كأنه هاربٌ أو طالب. فاستغربوا شأنَ الغلام فسألوه قائلين: ما شأنُك ياغلام؟ فظلّ البعيرُ يخبط الأرض والغلام على ظهره لا يسمع ولا يقول. فكرّرَ أصحابُ محمدٍ السؤالَ. فقال: أنا غلام أمير المؤمنين وجّهَني إلى عامل مصر. فقال أصحاب محمد:

ـ هذا عامل مصر معنا! قال:

ـ ليس هذا أُريد!

وبلغ محمداً ماكان من خبر هذا الرسول وأصحابهِ ، فنادى به ، فأقبل عليه فقال له محمد:

ـ غلامُ مَن أنت؟ فقال:

ـ غلام أمير المؤمنين! ثم أنكر قولَه الأوّل ، مجيباً:

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٣٩ / ٤١٦، تاريخ المدينة ، للنميري: ٤ / ١١٥٨، الإمامة والسياسة: ١ / ٣٩، الثقاة لابن حبّان: ٢ / ٢٥٧.

ـ بل غلام مروان!

ثم راح يُنكر قولاً بقول ، فيزعم مرّةً أنّه غلام عثمان ومرّةً أنّه غلام مروان! وسأله محمد:

ـ إلى مَن أُرسلتَ؟ قال:

ـ إلى عامل مصر؟

ـ وبماذا أُرسلتَ إلى عامل مصر؟

ـ برسالة!

ـ وهل تحمل كتاباً بما أُرسلتَ به؟

ـ لا!

وأمر محمد بتفتيشه ففتّشوه ، فوجدوا في أحد مطاويه كتاباً من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح عامله على مصر ، فدفعوا الكتاب إلى محمد ، فجمع محمد القوم وفتَح الكتاب على مشهدٍ من أصحابه جميعاً وقرأ:

«إذا جاء محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاحتَلْ لقتْلهم وأبطِلْ كتابَهم، وقرّ على عملك حتى يأتيك رأيي. واحتبسْ مَنَ جاء يتظلّم منك ليأتيك في ذلك رأيي إن شاء الله»[1].

وساد القومَ الصمتُ واعتراهم الوجوم هل يبيّت أميرُ المؤمنين لرعاياه وعمّاله وأنصاره ومهاجريه وأصحابه مثْلَ هذه الرغبة في مثل هذا المصير؟ وهل يجوز القتلُ في قومٍ لم يأتوا عملاً مُنْكَراً؟ وهل باتت حياة الناس ـ وفيهم الأخيار والطيّبون ـ رهينةً بزَوْغةِ جنانٍ وفلتةِ لسانٍ وصرّةِ قلمٍ على قرطاس؟

---

(١) الثقاة ، لابن حبان: ٢ / ٢٥٧ ، تاريخ ابن عساكر: ٣٩ / ٤١٦ ، تاريخ المدينة: ٤ / ١١٥٨ ، الإمامة والسياسة: ١ / ٣٩.

وختم محمد بن أبي بكر الكتاب بخواتمِ مَن معه مِن المهاجرين والأنصار ثم ارتأى أنْ يعودوا جميعاً إلى دار الهجرة حيث يواجهون الصحابة بحقيقة الأمر. فلمّا كانوا في المدينة قرأوا الكتاب عليهم وفيهم عليّ بن أبي طالب. فأقام الصحابةُ على حزنٍ كثيرٍ من هذا الكَيْد للناس وللإسلام. وأخبر أهلُ المدينة بخبر الغلام والكتاب فلم يبقَ فيهم أحدٌ إلّا سخط على عثمان ومروان. فلقد تعوّدوا غيرَ هذا في خلافة الصدّيق وابن الخطّاب. وتعوّدوا غيرَ هذا ممّا لقّنَهم إيّاه الإسلامُ الصحيح وهم حديثو عهدٍ بصاحب الرسالة. لذلك سخطوا كثيراً وأمعنوا في السخط، وتنادوا يتباحثون ويتشاورون ويتذمّرون. وزادهم سخطاً ما كانوا يعرفونه من شؤون دار الخلافة في ذلك العهد. ثم زادهم سخطاً كذلك ما تذكّروه عندذاك مما أصاب أبا ذرّ الغفاري وعبد الله بن مسعود وغيرهما من أجلّاء الصحابة.

وألّف أصحابُ النبيّ في الحال وفداً فيه عمّار بن ياسر وسعد بن أبي وقاص وعلى رأسه عليّ بن أبي طالب الذي دخل طليعة القوم على عثمان وفي يده الكتابُ ومعه الغلام وبعيره ، فقال لعثمان: هذا الغلام غلامك؟ فقال عثمان: نعم! قال: وهذا البعير بعيرك؟ قال: نعم! قال عليّ: وهذا الخاتم خاتمك؟ قال عثمان: نعم! قال عليّ: فأنت كتبتَ الكتاب؟ قال: لا! ثم أطلقَ القسَم قائلاً: واللهِ ما كتبتُ هذا الكتاب ولا أمرتُ به ولا وجَهتُ هذا الغلام إلى مصر قطّ!

وأدرك الصحابةُ أنّ عثمان لا يقول باطلاً. وأمعنوا النظر في الخطّ فإذا هو خطّ مروان لا يقلّ ولا يزيد. وطلبوا إلى عثمان أنْ يُريهم وجهْ مروان ؛ ليجادلوه في الأمر ويمتحنوه ويعرفوا خبر الكتاب. فأبى عثمان أن يجيبهم إلى هذا الطلب وكان مروان عنده في دار الخلافة. ولم يجرء مروان فيندفع من

نفسه إلى مجادلة القوم ، ورفْع غضبهم عن الخليفة الذي يحميه. وخرج الصحابة من دار الخلافة وهم ساخطون على مروان ، ناقمون على عثمان ، متحقّقون من أنّ الخطّ إنّما هو خطّ مستشار الخليفة لا خطّ سواه. وعزموا على ألّا يُبرّئوا الخليفة إلّا أن يدفع إليهم مروان حتى يمتحنوه ويعرفوا حقيقة هذا الكتاب ، وكيف يأمر صاحبُه بقتْل رجالٍ من أصحاب النبيّ بغير حقّ. وقالوا: فإنْ يكُ عثمان كتبَه عزلناه ، وإنْ يكُ مروان كتبَه على لسانه نظرنا في أمره.

وألحّ الثائرون بصورةٍ خاصّة في مطالبة عثمان بأنْ يسلّمهم مروان ليتحقّقوا ممّا هو فيه. فأبى عثمان ذلك. وتلاحقت الحوادث سريعةً على ما هو معروف في كتب التاريخ. وشاء عليّ بن أبي طالب أن يحسم الخلاف بين الثائرين والخليفة وأن يحقن الدماء. فدخل ثانيةً على عثمان ، فأشار عليه أنْ يتكلّم بكلامٍ يسمعه الناس منه ، ليسكنوا إلى ما يعدهم به من إصلاح ، وقال له: «إن البلاد قد تمخّضتْ عليك ولا آمَن أن يجيء ركبٌ من جهةٍ أُخرى فتقول لي: يا عليّ ، اركبْ إليهم!» فخرج عثمان فخطب خطبةً وأعطى الناسَ من نفسه التوبة ووعدهم بأن ينزل عند إرادتهم ؛ وأن ينحّي مروان وذويه. فرقّ الناس له وبكوا حتى خضَلوا لحاهم وبكى هو أيضاً.(١)

فلمّا نزل عن منبر المسجد وجاء بيتَه وجد مروانَ وسعداً ونفراً من بني أُميّة في منزله قعوداً لم يكونوا قد شهدوا خطْبتَه ولكنّها بلغتْهم. فلمّا جلس قال له مروان: يا أمير المؤمنين! أأتكلّم أم أسكت؟؟ فقال عثمان: تكلّم! فقال مروان وكأنّه يوبّخ: ما زدتَ على أنْ جرّأتَ عليك الناس! فقال عثمان وكأنّه يندم: قد كان من قولي ما كان ، وإنّ الفائت لا يُرَدّ. قال مروان: إنّ الناس

(١) تاريخ المدينة: ٤ / ١١٥٩ ، تاريخ ابن عساكر: ٣٩ / ٤١٧.

قد اجتمعوا ببابك أمثال الجبال، أنت دعوتَهم إلى نفسك فهذا يذكر مَظْلمة ، وهذا يسأل عن نزْعِ عاملٍ من عمّالك عنه ؛ هذا ما جنيتَ على خلافتك ، ولو استمسكتَ وصبرتَ كان خيراً لك. فقال عثمان: فاخرجْ أنتَ إلى الناس فكلّمْهم فإنّي أستحي أن أُكلّمهم وأردّهم!

وهكذا أفسد مروان ما أصلحَه عليّ. فإنّ هذا الحوار ماكاد ينتهي حتّى خرج مروان إلى الناس ، وقد ركب بعضهم بعضاً من شدّة الازدحام فقال:

«ما شأنكم قد اجتمعتم كأنّكم جئتم لنهْب؟! شاهت الوجوه! أتريدون أن تنزعوا مُلْكنا من أيدينا؟ اغربوا عنّا ، واللهِ إنْ رُمْتمونا لَنُمرّنَ عليكم ماحلاً ، ولَنُحلّنّ بكم ما لا يسرّكم، إرجعوا إلى منازلكم فإنّا والله غير مغلوبين على ما في أيدينا»[1].

فرجع الناس خائبين يشتمون ويهدّدون. وأتى بعضهم عليّاً فأخبره الخبر. وكان باستطاعته ألّا يعود بالمشورة على عثمان عندذاك وقد ترك قولَه وسمع قول مروان. ولكنّ عطفَه على الخليفة الشيخ ، ورغبته في صلاح ذات البين بين الناس ، وما بقيَ في نفسه من أملٍ في عودة عثمان إلى الصواب، أُمورٌ دفعتْه إلى أنْ يعود فيدلّ الخليفةَ على الطريق من جديد. فلمّا جاءه عثمان ليلاً ، برأي زوجته العاقلة السيدة نائلة ، ليعتذر إليه ويعِدَه من نفسه الجميل ، قال له عليّ: «أبَعْدَما تكلّمتَ على منبر رسول الله وأعطيتَ من نفسك، ثمّ دخلت بيتك فخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك؟» فلام عثمان نفسَه. وعاد عليٌّ إلى نصْحه قائلاً له: «والله إنّي لأكثر الناس ذبّاً عنك. ولكنّي كلّما جئتُ بشيءٍ أظنّه لك رِضا، جاء مروان بغيره فسمعتَ قوله

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٦.

وتركتَ قولي!».

وصدق قول عليّ. فقد جاء مروان هذه المرّة أيضاً بما أفسدَ على الخليفة كلّ شيء.

وعاد الثائرون إلى المطالبة بتحقيق ماكانوا قد وُعدوا به ، فأبطَلَه مروان. وعادوا إلى المطالبة بتسليمهم مروان ليقاضوه. فتصلّب عثمان في دفاعه عن ابن الحكم ، وتصلّب الثائرون وأبوا إلّا امتحان الرجل ومقاضاته. فلمّا تعاظمتْ ثورة الثائرين هنا ، وثبتَ عثمان في موقفه هذا عازماً على ألّا يسلمهم مروان ، حاصر الساخطون دار الخلافة وأطالوا الحصار. ومنعوا الخليفة الماء أو يذعن لِمَا يريدون ، فأطلّ الخليفة عليهم قائلاً: أفيكم عليّ؟ قالوا: لا! قال: أفيكم سعد؟ قالوا: لا. قال: ألا أحدٌ يُبلغ عليّاً فيسقينا ماءً؟ فلمّا بلغ ذلك عليّاً اندفع بشهامته المعروفة ، وتحدّى الثائرين في سبيل مَن منعوا عنه الماء ، وبعث إليه مع قومٍ من أنصاره وإخوانه ثلاثَ قِرَبٍ مملوءَةٍ ماءً ، وأمرَهم أنْ يوصلوها إلى عثمان ولو دفعوا حياتهم ثمناً لذلك. فصارع حاملوها الثائرين وجرح بعضهم بعضاً حتى أوصلوها[1].

وهكذا أضاف الإمام فصلاً جديداً من الشهامة العلوية إلى فصول حياته. هذه الشهامة التي جعلتْه في الذروة من السخط على الاحتكار والاستثمار والظلم ، وجعلتْه كذلك في الذروة من العطف على الآدميّين ومنهم عثمان: الإنسان الذي أوقعَه الأُمويّون في أشراكهم ، فأضلّوا سبيلَه إلى القلوب ، وألقوا في طريقه إلى الانصاف كلّ ما يصعب اجتيازُه من عقبات، فإذا هو محاصرٌ في داره يبتغي القومُ قتْله ويمنعونه الماء الجاري في جنبات الأرض.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٨، تاريخ الطبري: ٣ / ٣٩٧.

إنّهم يريدون دمَ عثمان هذا ما بلغ عليّاً. فإذا به يخرج من منزله على عجل ، ويسوق أمامَه ولديه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر بن الخطاب ونفراً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم، حتى إذاكانوا جميعاً على مشهدٍ من الثائرين خطَبوهم ووعدوهم وفرّقوهم. ثم دخلوا على عثمان لعلّهم يتّفقون على حلّ لهذه العقدة. ولكنّهم لم يتّفقوا. فخرج عليّ من دار الخلافة إلى المسجد الجامع يريد الصلاة. فناداه الناس: يا أبا الحسن! تقدّمْ فصلِّ بالناس. فقال: «لا أُصلّي بكم والإمام محصور ، ولكني أُصلّي وحدي»[١].

ثم غادر المسجد إلى بيته ، بعد أن أمر ولديه الحسن والحسين بأن يحرسا دار الخلافة على رأس نفرٍ من أبناء الصحابة ذوي المكانة في قلوب الناس. وقال للحسن والحسين: «إذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان، فلا تدَعا أحداً يصل إليه بمكروه!»[٢].

ولم يكن في نيّة الثائرين أن ينالوا عثمان بمكروه. وإنّماكانت غايتهم ساعتذاك أن يستتيبوه فيتوب ، ويسوموه أن يخلع نفسَه. يدلّك على ذلك أنّ رجلاً يقال له: نيار بن عياض وكان من الصحابة ، وقف في الصفّ الأمامي من الثائرين وأسمَعَ عثمانَ صوتَه وهو يناشده أن يخلع نفسه فيسلم ، فبينا هو يسومه خلْعَ نفسه رماه كثير بن الصلت الكندي وكان من اصحاب عثمان من أهل داره بسهمٍ فقتلَه. فصاح المصريّون وغيرهم من الثائرين قائلين: ادفعوا لنا قاتل ابن عياضٍ. فقال عثمان: لم أكن لأدفع إليكم رجلاً نصَرني فثاروا إلى الباب فأغلق دونهم، فجاءوا بنارٍ فأحرقوه وأحرقوا السقيفة التي عليه[٣]. ثم راحوا يرمون دارَ الخلافة بالسهام من كلّ مكان ، حتى خضب الحسن بن عليّ

---

(١) الغدير: ٩ / ٢٣٨، نقلاً عن الرياض النضرة، وتأريخ الخميس.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٣٩ / ٤١٨، تاريخ المدينة: ٤ / ١٣٠٤، الإمامة والسياسة: ١ / ٥٩.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٥٥.

بالدماء وهو على باب الدار يمنع القومَ عن ولوجها بأمر أبيه. وشجّ رأس آخرين من أنصار عليّ. وخشي الثائرون أمرَ بني هاشم ومَن يواليهم من القرشيين إذا هم آذوا الحسن والحسين ، وقال نفرٌ منهم: «إذا جاءت بنو هاشم فرأوا الدماء على وجه الحسن والحسين كشف الناس عن عثمان وبطل ما نريد، ولكن مرّوا بنا حتى نَتسوّر عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم أحد»(١).

وعملوا بما أجمعوا عليه الرأي فتسوّر محمّد بن أبي بكر وإثنان من أصحابه دار الخليفة من بيت رجل ، يقال له محمد بن حزم الأنصاري ، حتى إذا بلغوا مكانه وجدوه وإلى جانبه امرأته نائلة ، فوجأه صاحبا ابن أبي بكر بنصالٍ حادّة حتى قتلاه. ثم خرج الثلاثة من حيث دخلوا ، وصاحت نائلة: لقد قتلوا أمير المؤمنين! وبلغت الصيحة الحسن والحسين ومن معهما من أبناء الصحابة فدخلوا الدار فإذا الخليفة مقتول ، فأكبّوا عليه يبكون.

أمّا عليّ ، الذي لم يكن أقدر على دفع الناس عن عثمان من عثمان نفسه لو استمع إلى نُصح ، فإنّه ساعةَ بلغه الخبر راعه ذلك وصاح في المخبر: «تبّاً لكم آخر الدهر!» وهرع إلى دار الخليفة القتيل ، غاضباً ساخطاً حتى إذا التقى ولديه الحسن والحسين قال لهما: «كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟» ثم أشبعهما لطماً وضرباً، وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير ومَن إليهما من أبناء المهاجرين والأنصار. فبادَره طلحة قائلاً: «مالك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين؟! لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفَع مروانَ ما قُتل!»(٢).

* * *

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٣٩ / ٤١٨ ، تاريخ المدينة: ٤ / ١٣٠٤.

(٢) تاريخ المدينة: ٤ / ١٣٠٥ ، تاريخ مدينة دمشق: ٣٩ / ٤١٩.

وهكذا فالذين قتلوا عثمان قسمان: قسمٌ ثار للحقّ واستتباب الرجلَ فأبى أن يتوب فحصره في داره ثم قضى عليه، وهو يتألف من الكافّة في الحجاز ومصر والعراق وسائر البلاد. وقسمٌ آخر فتنتْه الغنائم فكان معه إماماً مطاعاً، وخذَله مهيضَ الجناح[1] محاصَراً. أمّا القسم الأول فقد سبقَ الكلام عليه، وأمّا القسم الثاني فسوف نُرجئ الحديثَ عنه إلى مطلع باب «المؤامرة الكبرى»، لاتّصال ما فعل وما أحدث بالكيد لعليٍّ وللمغلوبين على أمرهم الذين جاء الإسلام ليرفعهم ممّا كانوا فيه من غبْنٍ، فأبى الوجهاء. فاستمرّت الثورة.

أمّا الآن فلنقفْ قليلاً مع نفرٍ من المؤلّفين المعاصرين لنسمعهم يقولون ويَسمعونا في أُمورٍ وأحداثٍ تتعلّق بأسباب الفتنة ومعناها.

---

(١) مهيض الجناح: مكسور الجناح. المنجد: ٨٨١ مادة «هيض».

أقوال وردود

ـ وفي الشرق كتّابٌ لا يعنيهم من التاريخ واقعٌ ولا من الحياة حالٌ أو ظرف، فإذا بهم يعلّلون ثورةَ المظلومين على أيّام عثمان، ويحصرون أحداثَ عصرٍ بل عصور، بإرادةِ فردٍ يطوّفُ في الأمصار والأقطار، ويؤلّبُ الناسَ على خليفةٍ ودولة.

تلك هي الأسباب الحقيقيّة في ثورة الجماهير على عثمان وبطانته. وتُضحكك ـ ولا شكّ ـ تعليلاتُ بعض الباحثين، إذ يرمون بأبحاثهم إلى رفْع كلّ مسؤوليّة عن كلّ مسؤول حقيقيّ في مقتل الخليفة الثالث لئلّا يأخذ الناسُ عليهم مأخذاً في الإيمان! فإذا هم كالذين يسعون في تحويل مجاري المياه من تحت إلى فوق. وأمثال هؤلاء كثير. ومعظمهم يجيزون الغفلة في قرّائهم، وإلّا لَما أجازوا المنطقَ الساذج والرأي المسكين. من هؤلاء مؤلّفُ «عائشة والسياسة»[1] فإنّ صاحبنا هذا وضع كتاباً طويلاً عريضاً ليُقنع قارءه في فصولٍ طويلةٍ عريضة بأنّ السبب الأوّل والأخير في ما آلت إليه أحوالُ العالم العربي في عهد عثمان وفي مصرع الخليفة الثالث، ثمّ في ما حدث بعد ذلك من أحداثٍ جِسام إنّما هو محصورٌ في وجود رجلٍ يدعى عبد الله بن سبأ وفي تصرّفاته!

والنتيجة العملية لمثل هذا الزعم وهذا الافتراء هي: أنّ الدولة في عهد

---

(١) راجع كتاب عائشة والسياسة لسعيد الأفغاني.

عـثمان ووزيـره مـروان إنّما كـانت دولةً مـثاليّة ، وأنّ الأُمـويّين والولاة والارستقراطيين إنّما كانوا رُسُلَ العدالة الاجـتماعية ، والإخـاء البشـري فـي أرض العرب. غير أنّ رجلاً فرداً هو عبد الله بـن سـبأ أفسـدَ عـلى الأُمـويين والولاة والارستقراطيين صلاحَهم وبرّهم ، إذ جعل يطوف الأمصارَ والأقطار مؤلِّباً على عثمان وأُمرائه ووُلاته الصالحين المُصلحين. ولولا هذا الرجل الفرد وطوافُه في الأمصار والأقطار لَعاش الناس في نعيمِ مروان وعدْل الوليد وحلم معاوية عيشاً هو الرّغادة وهو الرخاء.

وفي مثل هذا الزَّعم افتراءٌ على الواقع واعتداءٌ عـلى الخَـلق ، ومسـايرةٌ ضئيلة الشأن لبعض الآراء ، يلفّ ذلك جميعاً منطقٌ سـاذج وحـجّةٌ مـصطنعة واهية. وفيه ما هو أخطر من ذلك: فيه تضليلٌ عن حـقائق أسـاسية فـي بـناء التاريخ ، إذ يحاول صاحب هذا المسعى الفـاشل أنْ يـحصر أحـداثَ عـصرٍ بكامله ، بل عصورٍ كثيرة بإرادة فردٍ يطوف في الأمصار ويؤلّب الناسَ عـلى دولةٍ فيثور هؤلاء الناس على هذه الدولة لا لشيء إلّا لأنّ هذا الفرد طاف بهم وأثارهم.

أمّا طبيعة الحكم وسياسة الحاكـم وفسـاد النـظام الاقـتصادي والمـالي والعمراني ، وطغيان الأثَرة على ذوي السلطان ، واسـتبداد الولاة بـالأرزاق ، وحمْل بني أُميّة على الأعناق ، والميل عن السياسة الشعبية الديموقراطية إلى سياسة عائلية ارستقراطية رأسمالية ، وإذلال مَن يضمر لهم الشـعبُ التـقديرَ والاحترامَ الكثيرين ، أمثال أبي ذرّ وعمّار بن ياسر وغيرهما ، أمّا هذه الأُمور وما إليها جميعاً من ظروف الحياة الاجتماعية فليست بذات شأن في تحريك الأمصار وإثارتها على الأُسرة الأُمويّة الحاكمة ومَن هم في ركابها فـي نـظر المؤلف المذكور! بل الشأن كلّ الشأن في الثورة على عثمان لعبد الله بن سبأ

الَّذي «يلفت الناسَ عن طاعة الأئمّة ويُلقي بينهم الشرّ» كما يـقول المـؤلِّف مستشهداً بقول سِوَاه!(١)

أليس من الخطر على التـفكير أن يـنشأ فـي هـذا الشـرق مَـن يـعلِّلون الحوادث العامّةَ الكبرى ، المـتّصلةَ اتِّـصالاً مُـحْكَماً وثـيقاً بـطبيعة الجـماعة وأُسُس الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية بإرادة فردٍ من عامّة الناس ، يطوف في البلاد «باذراً للضلالات والفسـاد فـي هـذا المـجتمع السـليم» كـما يـقول المؤلِّف المذكور ، ويعني بـ «هذا المجتمع السليم» مجتمع مروان بن الحكم؟

أليس من الخطر على التفكير أنْ نعلِّل الثورات الإصلاحية فـي التـاريخ تعليلاً صبيانياً، نستند فيه إلى رغبات أفـرادٍ فـي التـاريخ شـاؤوا أنْ يُـحدثوا «شغَباً» فطافوا الأمصارَ وأحدثوه؟

انظرْ كيف يتحدّث مؤلِّف كتاب «عائشة والسياسة» عن خطر عبد اللهبن سبأ ، أو ابن السوداء كما يسمّيه ، وكيف يسعى بصورةٍ لا شعوريةٍ في تعظيم معاوية على ضآلة شأنه في مقاييس الرجال ، وفي تحطيم أبي ذرّ الغفاري على عظمة شخصيته في كلّ مقياس. وهو بذلك ينزع عن لسانِ أكثر البـاحثين ، الذين يطلبون الجنّة بما يؤلِّفون ، يقول:

«لقد طاف ـ عبد الله بن سبأ ـ أقطار المسلمين قطراً قطرا. بدأ بالحجاز باثّاً ضلالاته كما تقدّم ، ثم انعطف إلى الشام ، والشامُ يومئذٍ بيد بصير بأمر معاوية ابن أبي سفيان الذي فطن إلى خطره فأبعده، إلّا أنّه على حَذَرِه قد أصابه رشاشٌ من إفساده... لقد قدر ، وزرع ، وحرّك على معاوية صحابيّاً جليلاً أذعنَ عامّةُ الشاميّين لأقواله ، وضاق به ذرعاً مـعاويةُ الداهـيةُ الحـليم ، واضـطرّ إلى أنْ

---

(١) للمزيد يراجع كتاب عبد الله بن سبأ للسيد مرتضى العسكري.

يـطلب مـن الخـليفة عـثمان إخـراجَـه مـن الشـام ، ذلك هـو أبـو ذرّ ، وحادثه مشهور!».

فالذي يُستخلَص من هذا القول أنّ ولايات الدولة العربية في عهد عثمان كانت في نعيم ، وخصوصاً ولاية الشام التي كانت يومذاك بيد «بصير بأمره» هو معاوية. وأنّ أبا ذرّ الغفاري المصلح العظيم لم يكن شيئاً مذكوراً، لولا أن يأتيه عبد الله بن سبأ ويوقظه. ثم إنّ عبد الله بن سبأ لم يوقظ أبا ذرّ إلّا عـلى إفسادٍ وتضليل وتخريب! ذلك لأنّ عبد الله كان ـ في زعـم المـؤلِّف ـ أصـل الفساد والخراب ، ولم تكن له رغبة من «طوافه في أقـطار المسـلمين قـطراً قطراً» إلّا فيهما. فبات من الطبيعي عـندذاك أن يسـعى أبـو ذرّ فـي مـا أراده عبد الله بن سبأ وهو بثّ الضلالات وإلقاء الشرّ بين الناس والميل بـهم عـن طاعة الأئمّة.

ويشفق المؤلِّف على العرب ، والمسلمين ، والتاريخ ، من مساعي أبي ذرّ في «تأليب الفقراء على الأغنياء وخوف معاوية عـلى الشـام مـنه» حـتى «ضاق معاوية الحليم ذرعاً بأبي ذرّ» فأخـرجـه مـن الشـام رحـمةً بـالعرب ، والمسلمين ، والتاريخ.

وبعد ، أفلا يذكّرك منطقُ هذا المؤلف الذي يخاف على الشام من أبي ذرّ فوق ما يخاف منه معاوية ، وعلى الأغنياء من الفقراء ، وعلى سلامة المجتمع البشري من عبد الله بن سبأ ، بمنطقِ حكّامِ التاريخ وأصحاب الذهـنيّة التـي تزن الوجودَ بميزان الفرد ، وتحصر هذا الفرد بشخص الحاكم ، وتخشى على الحاكم من هينمات النسيم ولمْس الورود ، فكل مَن طالَب بحقّ الجماعة في الحياة هو في نظر هذا الحاكم ومَن يليه مُفسِدُ مُشاغب يبثّ الشرّ ويُلفت الناس عن طاعة الأئمّة؟.

أفلا يدهشك أنْ يدرك المؤرّخون القدامى من أسباب الفتنة ما لا يدركه المحْدَثون، وآلةُ هؤلاء من ثقافة العصر تفوق آلة أُولئك ، وعدّتُهم أيسَر من عدّة السابقين؟ فإذا بصاحب «عائشة والسياسة» يسند أسبابَ الثورة على عثمان إلى طواف ابن سبأ في الأمصار ويقول فيه ما ذكرناه ، وإذا بالطبري ومَن هم دونَه وفوقه وفي مستواه يعلّلونها تعليلاً صحيحاً ، ويسندون أسبابَها إلى عواملَ مادّيةٍ سليمة الشروط ، فيقول الطبري في جملة ما يقول: «إنّ الذين لا سابقةَ لهم في الإسلام ولا قدمة لا يبلغون مبلغَ أهل السابقة والقدمة في المجالس والرئاسة والحظوة. ثم إنّهم ـ وهم السّواد الأعظم ـ كانوا يعيبون العطاء ويجعلونه جفوةً لأنّ نصيبهم منه قليل. فكان إذا لحق بهم لاحقٌ من ناشئ أو أعرابي أو محرَّر ، استحلى كلامَهم ، فكانوا في زيادة ـ يقصد الطبقات الناقمة على عثمان ـ وكانت الطبقة الراضية في نقصان حتى غلب الشرّ»[1].

ومن الغريب حقّاً! أنْ يقع في مثل هذه الأغلاط في النظر والرأي باحثٌ معاصرٌ آخر كأحمد أمين، إذ يرى في أبي ذرّ الغفاري رجلاً ساذجاً يقوده عبد اللهبن سبأ ويغريه بآراء مزدكيّة[2] لكي يعينه على خراب البلاد. ومن الأغرب أن يستشهد أحمد أمين على اقتناع أبي ذرّ بآراء ابن سبأ المزدكيّة بهذا القول الذي رواه الطبري قال: «قام ـ أبو ذرّ ـ بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء! واسوا الفقراء ، بشِّر الذين يكنزون الذهب والفضة...الخ»[3]. فكيف يرى أحمد أمين أنّ مطالبة الأغنياء بمؤاساة الفقراء رأيٌ مزدكيّ، ولا يرى أنّها رأي إسلامي خالص؟ ثمّ ، ألا يرى اللحمة والانسجام بين قول أبي ذرّ:

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٣٣/٣.

(٢) المزدكية: فرقة منحرفة اسم مؤسسها «مزدك».

(٣) راجع فجر الإسلام ص ١١٠.

«يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء!» وبين ما يليه من قول: «بشِّر الذين يكنزون...الخ»[1] وهو آية قرآنية؟! أو لم يكن أبو بكر وعمر يعلمان ما يقوله أبو ذرّ فيؤاسيان الفقراء، ويأخذان على أيدي الأغنياء؟ فلماذا لم يخترع لهما أحمد أمين مزدكيّاً غير ابن سبأ ؛ ليقول إنّهما تتلمذا له وأخذا عنه آراء مزدكيّة؟

ويؤكّد أحمد أمين في مكانٍ آخر من فجر الإسلام: أنّ عبد الله بن سبأ «هو الذي حرّك أبا ذرّ الغفاري للدعوة الاشتراكية ، وهو الذي كان مِن أكبر مَن ألّبَ الأمصار على عثمان»[2] وفي مكان آخر يقول: «وحاول أن يفسد على المسلمين دينهم وبثّ في البلاد عقائدَ كثيرةً ضارّة. وكان قد طوّف في بلادٍ كثيرة: في الحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر ، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقّى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن، واعتنقها أبو ذرّ حسن النية في اعتقادها»[3].

كلّ هذا ولا يخطر لمؤلّف فجر الإسلام أن يطرح على نفسه هذا السؤال: ما هو الجديد الطارئ في آراء أبي ذرّ على الإسلام؟ أفليس من تعاليم الإسلام أنّ للفقراء حقوقاً على الأغنياء ، وأنّ المسلمين سواء، وأنّ كانزي الذهب والفضَّة إنّما يكنزون ما تُكوى به جباههم وجنوبُهم وظهورُهم في جهنّم[4] كما تقول الآية القرآنية؟ فأيّ جديدٍ مزدكي على المسلمين في هذه الآراء التي حمَلها أبو ذرّ ودافعَ عنها ؛ وهو إنّما يدفع بذلك شرّ الذين حارَبهم الإسلامُ

---

(١) إشارة إلى الآية ٣٤ من سورة التوبة.

(٢) فجر الإسلام: ص٢٦٩.

(٣) فجر الإسلام: ص ١١٠.

(٤) إشارة إلى الآية ٣٥ من سورة التوبة.

وأنذرَهم بنار جهنّم؟

ثمّ ما الذي يُعْوِزه رجلٌ كأبي ذرّ كان خامسَ المسلمين ، وصاحبَ النبيّ ورفيقَ الخليفتين الأوّلين ، ورأسَ شيعة عليّ ؛ لكي يُدرك أنّ المال للجماعة يعيشون به لا للأفراد يكنزونه ، وأنّ هذا المبدأ حقٌّ وواجب؟

وما الذي يعْوزه رجلٌ كأبي ذرّ لكي يدرك أنّ مال الجماعة قد استأثرت به القلّةُ القليلة في عهد عثمان ، وأنّ للجور دولةً وسلطاناً ، وأنّ الإسلام غـيرُ هذا، فعلى المسلمين أنْ يغيّروا في أرضهم أشياء؟

وأخيراً ، هل كان أبو ذرّ بحاجةٍ إلى عبد الله بن سـبأ ، لأن يـدلّه ويـدلّ المسلمين على أنّ عثمان سلك طرقَ القياصرة والأبـاطرة فـي إيـثار أقـاربه وأنصاره بالحكم والنفوذ والمال ، فيُدرك أبو ذرّ أنّ الحاكمين قد ضلّوا ويدرك المسلمون أنّهم محرومون مغبونون فيثور الغفاري ويثور معه الناس؟!

لقد فطن هؤلاء المؤلّفون لعبد الله بن سبأ والمزدكية ، ولم يفطنوا لأبي ذرّ والإسلام. وهالَهم «تأليب ابن السوداء الناسَ على الأئمّة» فراحوا يجدون فيه سببَ النقمة على عثمان ، ولم يهلْهم ما أنكرَه المسلمون عـلى عـثمان ومـا ينكره كلُّ شعبٍ على كلّ حاكمٍ في كلّ عصرٍ من إيثار الفئة القليلة على الجماعة الكثيرة ، ومن استئساد هذه الفئة برأي الحاكم وبعَونه ؛ لهذا راحـوا يسألون الساقيةَ الناضبة البعيدة عن مصدر الغيث ، ولم يسألوا البحر المحيط القريب.

* * *

ويختلف الباحثون في كثيرٍ من الحوادث التي آلت إلى مصرع عـثمان. وأبرز هذه الحوادث التي يختلفون فيها: قصَّة محمد بن أبي بكر ، والكتاب الذي وُجّه من المدينة إلى مصر وفيه أمرٌ للوالي القديم بقتل الوالي الجديد وقد ذكرناها بالتفصيل.

ولنتوقّفْ قليلاً ، لكي نرى رأياً في هذه القصَّة التي أثبتها قومٌ وأنكرها آخرون واطمأنّ إلى صحّتها باحثون واستغرب وقوعَها باحثون. وأجلّ الآراء التي عرضَها منكرو هذه القصَّة رأي الأُستاذ الكبير: الدكتور طه حسين صاحب النظرات القيّمة في تاريخ الإسلام والعرب، بل أجلّ مَن رأى وعرَض رأياً في مشكلات الأوّلين. يقول طه حسين في كتابه الفذّ عثمان:

«وهنا تأتي قصّة الكتاب الذي يقول الرّواة إنّ المصريين قد أخذوه أثناء عودتهم إلى مصر فكرّوا راجعين. فهذه القصَّة فيما أرى ملفّقة من أصلها. وليس أدلّ على ذلك ممّا يقول الرواة أنفسهم: من أنَّ أصحاب النبي لم يكادوا يجادلون القوم في كتابهم هذا ، ويسألونهم كيف علمَ أهلُ الكوفة وأهلُ البصرة بأنّكم قد أخذتم هذا الكتاب، وقد ذهب كلّ فريقٍ منكم إلى وجه؟ حتى عجزوا ولم يعرفوا كيف يجيبون ، وقالوا: ضعوا هذا الأمر كيف شئتم ، فلا حاجة لنا بهذا الرجل. وليس بمعقولٍ ولا بمقبول أنْ يكيد عثمان للمسلمين هذا الكيد ، فيعطي فريقاً منهم الرضا ، ثم يرسل إلى عامله سرّاً مَن يُبلغه الأمر أن يبطش بهم ويرهقهم من أمرهم عسراً. وليس بمعقولٍ ولا مقبول أن يجترئ مروانُ على الخليفة فيكتب هذا الكتاب ويُمضيه بخاتمه ويرسله مع غلامه على جملٍ من إبله. والأمر أيسرُ من هذا. تلقّى أهلُ الأمصار وعْداً من إمامهم فاطمأنوا إليه ، ثم تبيّنوا أن الخليفة لم يصدق وعده ، فأقبلوا ثائرين يريدون أن يفرغوا من هذا الأمر وألّا يعودوا حتّى يفرغوا منه ، فلما بلغوا المدينة وجدوا أصحاب رسول الله قد تهيّأوا لقتالهم ، فكرهوا هذا القتال وانصرفوا كائدين ، حتّى إذا عرفوا أنّ هؤلاء الشيوخ قد ألقوا سلاحهم وأمنوا في دورهم كرّوا راجعين فاحتلوا المدينة بغير قتال!».

ليس من قضيّة في التاريخ أثبتَها قومٌ بما رُويتْ عليه وهم مُغالون

وأنكرها قومٌ ولو قامت عليها البيّناتُ وهم مُغالون كذلك ، إلّا وجاز في أمرها الشكّ والارتياب. وأخصّ بالذكر تلك القضايا التي تخدم أغراضاً حزبية أو تؤيد مذاهب دينية لدى هذا الفريق من الخَلق أو ذاك. ولا يزول هذا الشكّ إلّا بشاهدٍ من التاريخ نفسه لا يمكن إنكارُه، أو بتعليلٍ معقولٍ يقوم بنفسه شاهداً ودليلاً. وقضيّة الكتاب المذكور جديرة بأن تثير لدى الأُستاذ الجليل طه حسين فكرةَ الارتياب بصحّتها. ومستند الارتياب لديه جديرٌ بأن يُسلّم به لولا أُمورٌ في الخاطر تعترض مثلَ هذا التسليم.

أمّا ما يراه الأُستاذ الجليل من عجز القوم عن أن يجيبوا كيف تَأتّى لأهل الكوفة وأهل البصرة أن يعلموا بأنهم قد أخذوا هذا الكتاب وقد ذهب كلّ فريقٍ منهم إلى وجه ، فليس حجّةً كافية لإنكار خبر الكتاب من أساسه ، وكان في كلّ روايةٍ السببَ المباشر في عدول محمد بن أبي بكر وأصحابه عن متابعة الطريق إلى مصر والعودة إلى المدينة، وقد بعدوا عنها مسيرَ ثلاثةِ أيام أو ما ينيف. وأنْ يكون القوم قد عجزوا عن أن يجيبوا إجابةً شافية وهم في حنقٍ وسخط واضطراب وثورة ، ليس بأمرٍ ثابتٍ كذلك.

أمّا الأمر الثابت في كلّ رواية وفي منطق الحوادث وتسلسلها ، فهو: أنّ عثمان ولّى محمد بن أبي بكر وأخرجه إلى مصر في قومٍ من المهاجرين والأنصار. وأنّ محمداً وأصحابه وثقوا بما أعطاهم عثمان من عهد وساروا في طريقهم، ثم ما لبثوا أنْ قفلوا راجعين قبل أنْ يبلغوا إلى أرض مصر. فلماذا عادوا؟ ولماذا عادوا حانقين ، واضطرّوا إلى المداورة كي يتمكنوا من دخول المدينة من غير قتال؟

لا يحدّثنا التاريخ ولا الحوادث ولا مُنكرو حدوث القصة عن سببٍ غير هذا الكتاب في عودتهم هذه. ثم إنّ المهاجرين والأنصار الذين أوفدهم

الخليفة مع محمد بن أبي بكر كي ينظروا بين أهل مصر وابـن أبـي سـرح ، ويمهّدوا الطريق لابن أبي بكر ، لم يكونوا بحكم المنطق إلّا ممّن اجـتمعوا على طاعة عثمان. وهم إنْ لم يكونوا كلّهم من عثمان بمنزلةِ الأنصار والأعوان فقليلُهم كان منه ، ولا ريب بهذه المـنزلة. وإذا كـانوا كـذلك ، وهـم كـذلك ، فكيف يُجمعون على تزوير كتابٍ بلسان الخليفة وهو منهم بـراء؟ وإذا كـان غيرهم قد زوّره فكيف يجمعون على الاعتراف بصحته؟

وإذا كانت قصّة الكتاب ملفّقةً من أصلها ، فلم يكن هـنالك كـتابٌ ولم يرجع محمد بن أبي بكر وأصحابه إلى المـدينة بسـببه ، بـل اخـترع قـصّتَه المخترعون من الذين حازَبوا على عثمان بعد مقتله، فكـيف يـعترف الرواة والمؤرخون وفيهم الدكتور طه حسين نفسه ، بأن أصحاب النبي جادلوا القوم في كتابهم هذا؟ وسألوهم: كيف علم أهل الكوفة وأهل البصرة بـالأمر وقـد ذهب كلُّ فريقٍ منهم إلى وجه؟

فالكتاب موجودٌ باعتراف طه حسين نفسه، إذ يقرّ بأنّ أصـحاب النـبي جادلوهم في أمره وأطالوا الجدل.

ولكنْ ، مَن دسّ هذا الكتاب وكاد هذا الكيدَ لمحمد بن أبي بكر ومَـن معه مِن المهاجرين والأنصار وكلّ من يناصره ويغاضب ابنَ أبي سرح مـن أهل مصر؟

يستغرب الدكتور طه حسين أنْ يصدر مثل هذا الأمر عن عثمان نـفسه فيقول: «وليس بمعقولٍ ولا بمقبول أن يكيد عثمان للـمسلمين هـذا الكـيدَ فيعطي فريقاً منهم الرضا، ثم يرسل إلى عامله سرّاً مَن يُبلغه الأمر أنْ يبطش بهم ويرهقهم من أمرهم عسراً».

هذا قولٌ حقّ، فليس بمعقولٍ ولا بمقبول أنْ يكيد عثمان للمسلمين هذا

الكيد، ولكنّ مزاج عثمان الليّن كان يدفعه أكثر الأحيان لأن يعمل بإرادة بني أبيه بني أُمية، وهُم مَنْ هُم في الكـيد والافـتراء والاجـتراء. ويُـخبرنا تـاريخ عثمان أنّه كان يُفتي بعمل معيّنٍ ثم يعود ويندم حتّى يبكي ندماً ، ممّا يـدل على أن القوم من بني أُمية كانوا يلحّون عليه حتى يُخرجوه عن طبعه السـليم وخُلقه الرحيم ، فيفعل ما لا يلبث أن يندم على فعله. من ذلك أنّه أساءَ إلى أبي ذرّ أشدّ إساءة، ثمّ سعى جاهداً في أن يبذل له أبو ذرّ رضاه. ثمّ ما برح أن نقم على أبي ذرّ فنفاه وأماته وزوجَه وأولاده الميتةَ المريعة التي تحدّثنا عنها في فصل سابق.

ومن ذلك أنّه أهان الصحابيّ الجليل عبد الله بن مسعود ، وأمَرَ به فضُربتْ به الأرض فدُقّتْ ضلعهُ، وقُطع عنه العطاء. ثم ما لبث أن اعتذر له واستغفر.

ومن أخباره أيضاً أنّه كان يأمر عليّاً بمغادرة المدينة ، ثم يطلب إليه أن يعود إليها ويلزمها ، ويفعل ذلك مراراً حتى يقول عليّ: «ما يريد عثمان إلّا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب أُقبلُ وأدبر: بعثَ إليّ أن أخرُجْ، ثم بعث إليّ أن أقدِمْ، ثم هو الآن يبعث إليّ أنْ أخرج!»[١].

وها هو يُطلق يدَ عبد الله بن أبي سرح في مصير أهل مصر ، فيقسو ابنُ أبي سرح ويُسيء، فيُقبل المصريون عليه في المدينة ويشكون عاملَه عليهم ، فيخطب عثمانُ الناسَ ويثني على أهل مصر ، ويعطي التوبةَ ويستغفر ويبكي ويعطيهم العهدَ بعزل الوالي الجائر. ثم يعود إلى دار الخلافة ، فإذا بمروان يلوي به عمّا عقد عليه النيّة وعما بذَله من رضا، وإذا الخليفة لا ينفّذ شيئاً مما أعطى من عهد.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٤٠، شرح نهج البلاغة: ١٣ / ٢٩٦.

وليس أمرُ أبي ذرّ وعبد الله بن مسعود بأيسر لديه من أمر محمد بن أبي بكر. وليست دعوتهما للإصلاح بأثقلَ على بطانته من تمرّد المصريين على دار الخلافة بالمدينة ، ودار الولاية بمصر مرّةً بعد مرّة. ثم إنّ ابن أبي بكر من المشنّعين على سياسة عثمان ، وابنُ أبي سرح من العاطفين عليها. واتّجاه المصريين إلى هنا أو هناك ، بسياسة العامل ، يقوّي عثمان أو يُضعفه. فليس من المستغرَب على ضوء هذه الحقائق أنْ يندم عثمان على تولية ابن أبي بكر مكان ابن أبي سرح ، وأنْ يعطي المصريين عهداً وهو خارجٌ من إرادة مروان، ثم ينقض هذا العهد بتأثير مروان ومَن إليه مِن بطانته وذويه. ويعرف العارفون أن نصائح مروان ورهطِهِ للخليفة تكاد تنحصر في دائرةٍ من التعنيف والنفي والتشريد والتقتيل، سواءٌ في ذلك الثائرون والمتمردون من أصحاب محمد وعامّة الناس.

نسوق هذا الحديث لا تبريراً لمن يزعمون أنّ عثمان هو في الواقع صاحب الكتاب ، بل توضيحاً لواقع عثمان بين طبعه الرقيق وعاطفته الليّنة الطيّعة وبين كيد مروان وآل الحكَمَ ، القابضين منه على اليد والعصا. فإذا لم يكن بمعقولٍ ولا بمقبول أن يكيد عثمان للناس على هذه الصورة، فإنّ المعقول والمقبول أن يحمله مروان حملاً على ما يريد ويشتهي.

كلّ هذا ولا نزال نرفض أن يكون عثمان صاحب الكتاب؛ ذلك لأسبابٍ كثيرةٍ منها: أنّا نستبعد أن يُذعن لمشورة مروان في مثل هذا الأمر. ومنها أنّ الأدلّة التي تدين مروان نفسه أثبَت وأوضح. ولنعدْ إلى حديثنا مع الأُستاذ الجليل طه حسين: يرى طه حسين ـ كما تبيّن ـ أنّ قصة الكتاب هذه ملفّقة من أصلها للسببين اللّذين تحدثنا عنهما، ثم لسببٍ ثالث نراه نحن أضعف الأسباب الثلاثة في الإقناع بأنّ القصة مخترَعة. ويقوم هذا السبب بإنكاره

روايةَ مَنْ يسندون هذا الفعلَ لمروان بـن الحكـم؛ لأنّـه «ليس بـمعقولٍ ولا مقبولٍ أن يجترئ مروان على الخليفة فيكتب هذا الكتاب ويمضيه بـخاتمه ويرسله مع غلامه على جَمَلٍ من إبله!».

ليس غريباً أن يجترئ مروان على الخليفة فيكتب هذا الكتاب ويرسله مع غلامه. ولكن الغريب! أن يستبعد المرءُ مثل هذا الاجتراء من مروان. هذا إذا صحّ أن نسمّي هذا العملَ اجتراءً بالنسبة لمروان الذي يرى الملكَ ملكَه ، والدنيا دنياه ، والناسَ عبيدَه ومواليه يُحيي منهم مَن يشاء ويُميت من يشـاء بغير حساب. ولكي نرى رأيَنا في استغراب الدكـتور طـه حسـين الروايـاتِ القائلةَ بأنّ الكتاب إنّما هو من صنع مروان ، وأن المؤامرة إنّما هي نتاج منهجه في السياسة وأُسلوبه في الحكم ـ وكان هو الحاكم الفعلي في عهد عثمان ـ لا بدّ من الاستناد إلى أُمور ثلاثة:

أما **الأمر الأوّل:** فالأسانيد التاريخية التي أجمعتْ ـ على اختلاف مذاهبَ أصحابها في شؤون الخلافة ـ على أنّ عليّاً دخل على عثمان على رأس وفدٍ من الصحابة ، فيهم عمّار وطلحة والزبير وسعد ، وهو يحمل بيده الكتاب ومـعه الغلام وبعيره ، فجادل الخـليفة الثـالث فـي شأن الكـتاب وبـعد حيـنٍ تَـبيّن للصحابة هؤلاء أنّ الخطّ لمروان ، فطلبوا أنْ يمثل مروان أمامهم لامتحانه ، فلم يُجبْهم عثمان إلى ما طـلبوا فـخرجـوا مـغْضَبين. وقـد رويـنا هـذا الخـبر بالتفصيل في ما سبق فارجع إليه إذا شئت.

أمّا **الأمر الثاني:** فجلاء نظرة مروان إلى خلافة عثمان. هل كان عثمان في نظر ابن الحكمَ خليفةً كأبي بكر وعمر ، أم أُمويّاً لابدّ أن يستعيد بنو أُميّة على يديه ما أفقدهم إيّـاه الإسـلام مـن السـلطان عـلى الرقـاب واسـتعباد النـاس واسترقاق بني آدم، فما على الفرصة أن تـفوتهم وقـد آل إليـهم الأمـر بـعد

انتظار طويل؟!

إنّ تاريخ مروان يفيض بهذه الروح الأُموية التي تدور في نطاقٍ من خصائصها الجاهلية الخالصة، كما تفيض الإسفنجة في قعر اليمّ بالماء. فقضيّة الخليفة في قلبه وعلى لسانه، وفي مدى تصوّره، ليست قضية عثمان القرشي المهاجر، الذي والى النبيّ وأخلص للرسالة، واختاره عمر بن الخطاب واحداً من ستّة هم أهل الشورى، ثم انتخبه المسلمون، في ظرف خاص، ليكون الخليفة الثالث، ويسير على نهج سلفَيه ما استطاع إلى ذلك سبيلا. بل إنّ قضية عثمان في قلب مروان وعلى لسانه، وفي مدى تصوّره، هي قضية عثمان الأُموي المنحدر من أُسرةٍ يجب ألّا تغرب شمسُ أمجادِها بعدَ اليوم.

وقضيّة الخلافة في قلب مروان وعلى لسانه، وفي مدى تصوّره، ليست حُكماً بعدلٍ، وانصافاً للمظلوم من الظالم، وسهراً على الحقوق العامة واستمراراً لسيرة النبيّ والصدّيق وابن الخطّاب في الناس، بل هي ملك «أضاعه» أبو بكر وعمر فلم يورثاه وُلْدهما، وعلى عثمان الأُموي ألّا «يرتكب الغلطة ذاتها» فيشعر الناسَ بأن الخلافة منهم وإليهم، وأنّ وجوده إماماً لهم إنّما هو مرتبطٌ بمقدار ما يُبيح للناس من الحريّة، وما يحفظ لهم من حقوق ويرفع من كرامات. بل عليه أن يقف منهم موقف «الملك» الحازم من عبيده ورعاياه، فلايترك لهم مجالاً لأن يتذمروا من نقصٍ أو يطمعوا في مزيد! وهو إنْ عجز عن مثل هذا التسلط بحكم إيمانه ورقّة مزاجه، فمروان له ينصحه ويُشير عليه لا يترك كبيرةً ولا صغيرة من شؤون «الملك والرعيّة» إلّا وتمرّ بين يديه. وقد أفضْنا في الحديث عن حقيقة مروان وعن مدى تصوّره لشؤون زمانه في فصلَي «بيتا قريش» و«الحقيقة عن مقتل عثمان» فلسنا بحاجة هنا لأن نردّد ما أوضحناه، وإنّما هي الإشارة اللازمة في هذا المقام. وما

فاتنا أنّ الرجل قال لمن حاصروا دار الخلافة: «ما شأنكم قد اجتمعتم علينا ، كأنكم جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا؟».

لقدكانت الخلافة ملك مروان الأُموي... فليس من حقّ «الرعية» أن يرفعوا وجوههم ليقاضوا «مَلِكهم» في أُمورِ معاشِهم وحرّيتهم. فهو ملِكٌ من أُميّة وهم ناسٌ عبيد!

ومَن كان ينظر إلى الخليفة والخلافة هذه النظرة ، ويصدر بأحكامه عن مثل هذا التصوّر ، هل يرضى بأن يُطمِع «الناسَ» في ملك نسيبه عثمان أو ملكه هو لا فرق ، فيرضخ[1] «الملك» لِما يريدون ، ويعزل عاملاً موالياً للأُمويين ومُلكهم عن ولايةٍ ذات شأنٍ في المال والرجال وسعة الأرض ، مستبدلاً به محمد بن أبي بكر الناقمَ عليهم في جملة الناقمين، الموالي لعليّ بن أبي طالب زعيم الفئة الخيّرة التي هالَها أن تنحرف حاشيةُ عثمان هذا الانحراف عن مبادئ العدالة الاجتماعية؟ ثم إننا لا ننسى أنّ الثائرين والمستائين مِن الصحابة ومَن وراءهم هم الذين أشاروا على عثمان بتولية ابن أبي بكر، دون أن يُؤخَذ في أمره رأيُ مروان. وماكان مروان ليرضى بهذا «الاعتداء» على سلطانه!

وحين يبدو لنا أن حقيقة النظرة المروانية إلى الخلافة تدور في مثل هذا النطاق، فلا تجوز نظرَ الأُمويِّ الجاهلي إلى مجدٍ انتُزع منه ثمّ أُعيد إليه. وحين يبدو لنا أنّ حقيقة النظرة المروانية إلى عثمان إنّما هي نظرةُ مَن يرى في الخليفة الثالث ممثّلاً للعنصرية الأُموية والزعامة الأُموية، يصبح من السهل علينا أن نقبل اجتراء مروان على نسيبه وحاميه عثمان. نقبل هذا الاجتراء على

(١) فيرضح ، رضخ: انصاع ، خضع، أذعن. المنجد: ٢٦٥، مادة «رضخ».

أنّه في قلب مروان وفي منطقه وعلى لسانه ، ليس اجتراءً ولا افتراء ، بل حقّاً يمارسه أُمويٌّ جاهليّ لم يوغل الإسلام في نفسه كثيراً ولا قليلاً ، ويوجّهه في الإشارة على نسيبه الخليفة، وفي النصح له على ما يراه ويرغب فيه.

والشواهد التي تدلّ على ما يسمّيه الأُستاذ الجليل «اجتراءً» من مروان على عثمان ، أكثر ممّا نحتاج إليه في هذا الحديث. فهو الذي اجترأ على أصحاب النبيّ وعلى عثمان ساعةَ أسدى إلى الخليفة نصْحه بقتل هؤلاء جميعاً، وفيهم عليّ بن أبي طالب وعمّار بن ياسر وأبو ذرّ الغفاري وغيرهم. وهو الذي اجترأ على ابن مسعود وعثمان ساعةَ أصدر أمرَه إلى الخليفة مشيراً إلى ابن مسعود يقول: إنّه أفسد عليك الكوفة ، فلا تدعْه يفسد عليك الشام! فاستجاب عثمان لقوله دون معارضة أو جدال. وهو الذي اجترأ على أبي ذرّ وموّدعيه عليّ وابنيه وأخيه ورفيقه، فما كفّ عن اجترائه حتى لعنَه عليٌّ وساط راحلتَه وكاد يسوطه. وهو الذي اجترأ على عثمان في أحرج ساعاته بأنْ قام يردّ الوفود عن دار الخلافة نهْراً وزجْراً وتعنيفاً على هواه والخليفة سامعٌ ناظر، وهو الذي اجترأ على عمّار وعثمان ساعةَ أمرَ عثمانَ بقتْل عمّار أمراً صريحاً.

ومن اجتراء مروان على الخليفة الثالث أكثرُ من ذلك أيضاً. لقد اجترأ مروان على السيدة نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان ، وعثمان يرى ويسمع. وخبرُ ذلك: أنّ نائلة كانت عاقلةً حكيمة تسوؤها سياسةُ مروان، وتدفع زوجها إلى الأخذ بنصيحة عليّ بن أبي طالب. ولمّا كانت خطبة عثمان التي أظهر فيها التوبةَ لوفود الأمصار المتذمّرة الشاكية ، وأعطاهم العهد على الإصلاح ، جاءه مروان يريد منه أنْ يرجع عمّا أعطى وأنْ يردّ ما فات ، فبدأ كلامَه بهذا السؤال: يا أمير المؤمنين! أأتكلّم أم أسكت؟ فقالت نائلة: (لا بل تسكت!

المحرّضون على عثمان

ـ إنّهم لَيطلبون حقّاً هم تركوه ، ودماً هم سفكوه! (١)

عليّ

ـ ويلي من طلحة! أعطيتُه كذا وكذا ذهباً وهو يروم دمي! (٢)

عثمان

ـ ولكنّك ، يا معاوية! أردتَ أنْ أُقتَل فتقول: أنا وليّ الثأر! (٣)

عثمان

ـ أُقتلوا نعثلاً (٤)! (٥)

عائشة

ـ واللهِ إنّي كنت لألقى الراعي فأحرّضه على عثمان! (٦)

عمرو بن العاص

رأينا أنّ الثورة على عثمان بدأت في صفوف العامّة بالمدينة والأقاليم والثغور على السواء ، وأنّها كانت أوّل الأمر تذمّراً تتبعه الشكوى، ثم تحوّلت إلى عصيانٍ فحصارٍ فمأساة. ورأينا أنّ الذين عارضوا سياسةَ عثمان ومستشاريه من كبار الصحابة ، فنكّلَ بهم الخليفة وعمّاله وذووه ، إنّما

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٢ ـ ٢ و ١٣٧ ـ ١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٩ / ٣٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٧٥.

(٤) نعثلاً ، النعثل: الشيخ الأحمق. كتاب العين: ٣٤١/٢، مادة «نعثل».

(٥) فتوح ابن أعثم: ١ / ٦٤ ، الجمل لضامر المدني : ص٢٤ ، الفتنة ووقعة الجمل لسيف: ص١١٥ ، تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧٧ ، الإمامة والسياسة: ١ / ٧٢.

(٦) أنساب الأشراف: ٥ / ٧٤، الكامل في التاريخ: ٣ / ١٦٣.

عارضوا نفوراً من الأَثَرة ، وميْلاً إلى العدالة ودفاعاً عـن الإسـلام. ولم يكـن هؤلاء يعارضون طموحاً إلى حكمٍ ، أو طمعاً في مالٍ أو رغبةً في جاه ، فهم صفْوة المسلمين في أسلم عهدٍ من عهود الإسلام ، يشعرون بمسؤليّاتٍ هـي في نفوسهم أشبهُ بمسؤليّات أصحاب الرسالات ؛ أو هي هذه المسؤوليات في الذات. فماكانت معارضة عليّ لسياسة الإقطاع التي انتهجها عثمان مع أقاربه وذويه ، لطمعٍ منه في أرضٍ يقتطعها لنفسه ، وهو الذي كانت في يديه فَدَكٌ مِن كلِّ ما أظلَّته السماء ، فشحّتْ عليها نفوسُ قومٍ فأخذتْ مـنه فـقال: **«وما أصنَعُ بفدَكٍ وغير فدكٍ والنفس مظانّها في غدٍ جـدَثٌ تـنقطع فـي ظـلمته آثـارُها وتـغيب أخبارها!»**[1] ولم تكن معارضته لسياسة عثمان الماليّة منفذاً يريد ولُـوجَه إلى مالٍ أو ثراء ؛ وهو مَن عرفْنا زهدَه بالمال فلا حـاجة بـنا للـمزيد. ولم تكـن معارضتُه لسياسة الإيثار العائلي التي سار عليها عثمان ، وللذهنيّة الأُمويّة التي تبرز من خلالها ثأراً لمجدٍ عائليّ يريده ؛ وهو ركن الإسلام وابن عـم النـبيّ وصهرُه ووالد سِبْطَيه ، ثم صاحب هذا القول الذي يمحو به كلَّ مـجدٍ يـرثُه المرء من عائلة أو قبيلة: **«قيمة كلّ امرىءٍ ما يُحسنُه»**[2].

أمّا معارضة أبي ذرّ وعمّار ومَن هم على نهجهما ، فلم تكن لتختلف في موضوعها وغايتها عن معارضة ابن أبي طالب ، لذلك لم يكن لهؤلاء رأيٌ في معارضةٍ تنتهي بمصرع مَن يعارضون ، وإنّما كان لهـم رأيٌ فـي مـعارضةٍ ، تُنصف المظلوم وترفع الحَيْفَ وتوجّه الحاكمَ في الطريق المستقيم ؛ فلا يَقتُل ولا يُقتَل بل يكون للناس أباً ويكونون له أبناء.

وكان من الطبيعيّ في دولةٍ مترامية الأطراف كالدولة الإسلامية في عهد

---

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٤٥ (من كتاب له عليه‌السلام إلىٰ عثمان بن حنيف الأنصاري).

(٢) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، رقم ٨١.

عثمان أن تنشأ معارضةٌ من نوعٍ آخر ، هي معارضة الطامحين إلى الحكم ، والراغبين في مزيدٍ من النّعَم ، والطامعين بدائرةٍ للنفوذ أوسع فيما إذا وَلِيَ الأمرَ غيرُ واليهِ. وهذا النوع من المعارضة عرفتْه كلّ بلدان الأرض في عصور التاريخ جميعاً. وأصحابه لا يزالون يبدلون نهجاً بنهجٍ وموقفاً بموقف ويلبسون لكلّ حالةٍ لبوسَها حتى يستقيم لهم الأمر. وهم في أحوالها هذه لا يجدون شرّاً في ارتكاب جريمةٍ ثمّ في نسبةِ ما ارتكبوه إلى خصومهم ومَن يخشون خطرَهم.

هذا النوع من المعارضين سواءٌ الكاسبونَ أيامَ عثمان والساخطون لمغْنمٍ لم يُصيبوه ، والأُمويّون من بطانة عثمان ومن عمّاله ، وأنصاره الذين وطّأهم رقابَ الناس ، وعثمان نفسه ، هم الذين قتلوا الخليفة الثالث.

أمّا كيف أعان عثمانُ على نفسه وكيف أعان عليه مروانُ وسائر مستشاريه، فقد مرّ عليه الكلام. وقد أدرك هذه الحقيقةَ أقربُ الناس إلى عثمان وأعرفُهم بحاله. فإنَّ محمد بن مسلمة كان يموت فيقول له أحدُهم: «عثمان مقتول» فيجيب: «هو قتلَ نفسَه»[١]. وإنّ نائلة زوجة عثمان تخاطب مروانَ ومَن وراءه من البطانة بهذه العبارة: «فأنتم واللهِ قاتِلوه ومُيتّمو أطفاله»[٢] ، وتخاطب عثمان قائلة: «فإنّك متى أطعتَ مروان قتلَك»[٣].

وأمّا الأُمويّون من عمّاله ، وأنصارُه الذين وطّأهم رقابَ الناس ، والمعارضون الكاسبونَ والساخطون ، فسوف نتحدّث عنهم واحداً واحداً لاشتراك العدد الأكبر منهم في المؤامرة الكبرى على عليّ بن أبي طالب ، التي

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/٢٨.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٥.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٧ ، تاريخ الطبري: ٣ / ٣٩٧ ، البداية والنهاية: ٧ / ١٩٣.

لم يشهد تاريخُ المؤامرات في الشرق لها مثيلاً ، والتي حاكها المحرّضون على عثمان والمؤلّبون عليه وقاتِلوه ؛ إذ اتّهموا عليّاً بقتل عثمان فحملوا قميصَ ضحيّتهم وراحوا يتظاهرون بأنّهم يثأرون له من عليّ.

* * *

كان معاوية بن أبي سفيان المطالب بدم الخليفة الشهيد ـ على زعمه ـ جاهداً في توطيد ملك له ولبنيه على الشام ثم على سائر الأمصار ، لا يعنيه من أمر عثمان حيّاً وميتاً إلّا أن يمدّه بالقوّة ، ويخلق له الفرصةَ المؤاتية لتحقيق حلمه هذا. لم يكن يعنيه من أمر عثمان وهو خليفة إلّا أنْ يُطلق يده في كلّ ما يعمل ، وإلّا أنْ يكون ستاراً لرغائبه في الرئاسة والاستقلال بالحكم. وهو ، إذا قُتل عثمان ، لا يعنيه من أمره كذلك إلّا انتهاز الفرصة ؛ ليرث الخليفة الراحل ويتخلّص من الخليفة الجديد.

فهو حين صار الملك إليه ، فماذا كان من شأنه مع قاتلي عثمان؟ إنّه لو كان من الذين آذاهم مصرع الخليفة لَنفّذ العقاب بهؤلاء القَتَلة ، وفي يده أن يعاقب. نسي معاوية قصّة عثمان ساعة آل إليه المُلك ،كما نسي أن يقتصّ من قتَلة الخليفة وهو من أجل هذا الاقتصاص ـ كما يزعم ـ ثار وأراق الدماء وخرج على الخليفة الجديد. وأكثر من ذلك أيضاً، لقد كان باستطاعة معاوية وهو صاحب الجند الكثير في الشام وصاحب الرأي فيها أن يجهّز جيشاً يحمي به الخليفة في أيام الحصار الأربعين وقبل الحصار، بل كان باستطاعته أن يسدي إليه نصْحاً يقيه خطرَ الانزلاق في معاندة الرأي العام وهو على ذلك قدير. ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ؛ لأن طمعه في أن يصيّر المُلك إليه بعد عثمان كان محْورَ تفكيره ومدارَ أعماله وتدبيراته.

فمنذ اليوم الذي جمع فيه عثمانُ أخصّاءه وفيهم معاوية لمعالجة الحال

وانتهى الاجتماع إلى غير نفْع، أنشب معاوية أظفارَه في الخلافة؛ لأنّه غلَب على ظنّه قتْلُ عثمان. ورأى أنّ الشام بيده وأنّ أهلها يطيعونه ، وأن له حجّةً يحتجّ بها عليهم ويجعلها ذريعةً إلى غرضه ، وهي قتْل عثمان إذا قُتل ، وأنّه ليس في أُمراء عثمان أقوى منه ولا أقدر على تدبير الجيوش ، واستمالة الوجهاء والنافذين بالعطاء وبالتهديد، فبنى أمْرَه من هذا اليوم على الطمع في الخلافة. ألَا ترى إلى قوله لأحد الناس مِن قبلُ: «إنّه ليس أحدٌ أقوى منّي على الإمارة ، وإنّ عمر استعملني ورضي سيرتي»[١].

لقد كان معاوية من المؤمنين بضرورة تواري عثمان عن الأنظار، وقد أصبح له من القوة في الشام ما يجعله جديراً بأن يفكّر في تحقيق ما يطمع فيه. ويذكر اليعقوبي في تاريخه ما خلاصته: إنه حينما اشتدّ الحصار على الخليفة الثالث كتب إلى معاوية إلى الشام يطلب تعجيل القدوم عليه. فتوجّه إليه معاوية في قومٍ كثير، ثم قال لهم: «كونوا مكانكم في أوائل الشام حتى أتي أميرَ المؤمنين لأعرف صحة أمره» فأتى عثمانَ ، فسأله عن العدّة ، فقال: «أتيتُ لأعرف رأيك وأعود إليهم ـ أي إلى القوم ـ وأجيئك بهم» فقال له عثمان: «لا إله إلّا الله! ولكنّك يا معاوية أردتَ أنْ أُقتل فتقول: أنا ولِي الثأر! ارجعْ فجئْني بالناس!»[٢] فرجع ولم يعدْ إليه.

وحين زار معاوية المدينة بعد مقتل عثمان دخل بيتَ الخليفة القتيل فسمع هذه الصيحةَ من عائشةابنته تبكي وتقول: «واأبتاه!». فقال ـ يعزّيها ـ : «يا ابنة أخي! إنّ الناس أعطونا طاعةً وأعطيناهم أماناً. وأظهرْنا لهم حلماً تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعةً تحتها حقد. ومع كلّ إنسانٍ سيفُه وهو يرى مكانَ

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٧٥.

أنصاره. فإنْ نكثْنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا. ولأنْ تكوني بنت عمّ أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين»[١].

إذاً، فقصّة عثمان تنتهي في نفس معاوية وفي كلامه ، بأن يصير الحكم إليه هو ، وبأن تصبح بنت عثمان ابنة عمّ أمير المؤمنين! وما كان أشدّ العقدةَ والخلافةُ في يد عليّ! لقد بلغ معاوية ماكان يصبو إليه من تحقيق وصيّة أبيه أبي سفيان ، إذ قال يوم صارت الخلافة إلى عثمان: «يا بني أُميّة ، تَلَقّفوها تلقّفَ الكرة! فَوَالذي يحلف به أبو سفيان ما زلتُ أرجوها لكم ، ولتصيرَنّ إلى صبيانكم وراثة!»[٢].

وغداً ستصير الخلافة من بعد معاوية إلى صبيّهِ يزيد ، ثمّ إلى سائر الصبيان!

وفي الكتب التي بعث بها عليٌّ إلى معاوية إشاراتٌ صريحة إلى قعود معاوية عن نصرة عثمان لمّا استنصرَه فتراخى عنه ، ولم يبعث إليه أحداً رغبةً منه في أن يُقتَل عثمان فيصير الأمر إليه من بعده. وممّا جاء في كتابٍ منه إلى معاوية جواباً:

«ثمّ ذكرتَ ماكان من أمري وأمر عثمان ، فلكَ أنْ تجاب عن هذه لرحِمِك منه[٣]. فأيّنا كان أعدى له[٤] وأعدى إلى مَقاتله ، أمَن بذَل له نصْرتَه فاستقعدَه[٥] واستكفّه؟ أم مَن استنصرَه فتراخى عنه وبَثّ المنونَ إليه[٦] حتى أتى قدَرُه عليه؟»[٧].

---

(١) شرح الأخبار للنعمان المغربي: ٢ / ١١٤ ، ضعفاء العقيلي: ٣ / ٤٢١ ، تاريخ مدينة دمشق: ٥٩ / ١٥٥.
(٢) مروج الذهب: ٢ / ٣٤٢ ، اختيار معرفة الرجال ، للطوسي: ١ / ١٢٨.
(٣) يقول: لقرابتك منه يصح الجدال معك فيه.
(٤) أعدى: أشدّ عدواناً.
(٥) من بذل النصرة: علي نفسه. واستقعده عثمان: طلب قعوده ولم يقبل نصرته.
(٦) يقول إنّ عثمان استنصر معاوية فلم ينصره بل خذله وخلّى بينه وبين الموت فكأنما بثه عليه.

وممّا جاء في كتابٍ آخر: «**فإنّك إنّما نصرتَ عثمان حيث كان النصر لك، وخذلتّه حيث كان النصر له**[٨]»[٩].

* * *

وما يقال في الأُمويّين بصدَد مقتل عثمان ومَثَلُهم جميعاً مَثَل معاوية ومروان، يقال في سائر الذين أشرنا إليهم، بل يقال في خصوم عليٍّ جميعاً والمتآمرين عليه فيما بعد. فالمسؤولية في ذلك تنالهم دون الخليفة الرابع. وإن لم يكن التحريض السافر لينال بعضَهم، فالرغبة والرّضا.

فهذا عمرو بن العاص أحد الشركاء الكبار في تلفيق التّهمة ضدّ عليّ وفي المؤامرة عليه، يحرّض على عثمان ويُغري به؛ لأن عثمان عزَله عن ولاية مصر. ويشتدّ في التأليب عليه ويعترف هو بذلك فيقول والقسَمُ ملْءُ شفتيه: «والله إنّي كنت لألقى الراعي فأُحرّضه على عثمان، فضْلاً عن الرؤساء والوجوه!»[١٠]. فلمّا سعر الشرُّ بالمدينة خرج عمرو إلى منزله بفلسطين. وفيما هو بقصره ومعه إبناه عبد الله ومحمد، مرّ به راكبٌ من المدينة فسألوه فقال: قُتل عثمان. فقال عمرو: «أنا عبد الله، إذا نكَأتُ[١١] قرحةً أدميتُها»[١٢] يريد بذلك أنّه حرّض على عثمان فلقيَ تحريضُه الصدى الذي يريده بمقتل الخليفة.

أمّا طلحة بن عبيد الله الذي بايع لعليٍّ مكرَهاً، ثمّ ثار عليه ليطالبه بدم

---

(٧) نهج البلاغة، الكتاب: ٢٨ ـ ٢٤.

(٨) يقول: انتصرت لعثمان بعد أن قتل لأن في هذا الانتصار له فائدة لك إذ تتّخذه ذريعة لجمع الناس إلى غرضك. أما وهو حي وكان انتصارك يفيده، فقد خذلته وأبطأت عنه.

(٩) نهج البلاغة، الكتاب: ٣٧ ـ ٢.

(١٠) أنساب الأشراف: ٥ / ٧٤.

(١١) (نكأت) نكأ القرحة ـ نكئاً: قشّرها قبل أن تبرأ فندَيت. لسان العرب: ١٧٣/١، مادة «نكأ».

(١٢) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٤، جواهر المطالب لابن الدمشقي: ٢ / ٢٢٤.

عثمان كما زعم، فإن له عملاً كثيراً في تحريض الناس على قتل عثمان. ويحدّث الرواة أنّ عثمان كان يستعين على طلحة بعليّ، وأنّ عليّاً كان يستجيب له فيعينه على طلحة. من ذلك أنّ عليّاً ذهب مرّة إلى طلحة وكان عثمان قد استعان به عليه ، فرأى عنده حشداً عظيماً من الثائرين ،فأدرك أنّ لطلحة في حصار عثمان أثراً كبيراً ، وأنّ طلحة راغبٌ في التخلّص من الخليفة ، فوبّخه يقول: يا طلحة! ما هذا الأمر الذي صنعتَ بعثمان؟ وسعى في أن يردّه عن خطّته هذه ، فأبى ، فما كان من عليّ إلّا أن أتى بيتَ المال فقال: افتحوه. فلم يجدوا المفاتيح ، فكسر الباب وفرّق ما فيه من المال على هؤلاء الذين جمعهم طلحة لقتل عثمان ، فانصرفوا من عند طلحة حتّى بقيَ وحده. فسرّ عثمان بذلك وأدرك ، متأخراً ، أنّه ما مِن ناصحٍ له مشفقٍ عليه مصلحٍ لأمر الجماعة إلّا عليّ. وقد أراد طلحة بعد هذه الحادثة أن يعتذر فدخل على عثمان، قائلاً: «يا أمير المؤمنين! أستغفر الله وأتوب. أردتُ أمراً فحال الله بيني وبينه ، وقد جئتُك تائباً» فقال عثمان: «إنّك واللهِ ما جئتَ تائباً ، ولكنّك جئتَ مغلوباً، الله حسيبك يا طلحة!»(١).

ويروي الطبري: أنّ الثوّار ما كادوا يحاصرون عثمان في داره حتّى راح طلحة يعدّ نفسه ليكون خليفة ، فكان أوّل ما لجأ إليه أن اتّخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيحَ وحرّاساً.

وكان عثمان يقول في أشدّ أيام الحصار: «اللهمّ اكفني طلحة، فإنّه حمل هؤلاء القوم وألّبَهم عليّ. والله لأرجو أنْ يكون منها ـ يقصد الخلافة ـ صفراً يُسفك دمه»(٢). وفي هذا القول ما يدلّ على أن عثمان كان واقفاً على رغبة

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٨ و ١٠ / ٨، تاريخ المدينة: ٤ / ١١٩٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٣ / ٤١١.

طلحة في الخلافة بعد التخلّص من الخليفة الثالث. ولَطالما أطلق عثمان يدَ طلحة في بيت المال، ولكنّ الرجل لم يكن ليرغب في ما هو أقلّ من الخلافة. وكان عثمان في الأيام الأخيرة من الحصار يردّد قوله هذا: «ويْلي من طلحة! أعطيتُه كذا وكذا ذهباً وهو يروم دمي!»[١]. وقد حدّث بعضهم أنّه رأى طلحة يوم مقتل عثمان يرمي دارَ الخليفة ويقود بعضَ الثائرين إلى منافذَ يهبطون منها إلى مقرّه!

وقال عليٌّ مرّةً لطلحة: **أنشُدُك الله ألاّكففتَ عن عثمان!** وكان يقول بعد مقتل عثمان: **لحَا الله ابن الصعبة** ـ يعني طلحة ـ **أعطاه عثمان ما أعطاه وفعل به ما فعل!»**[٢].

ولابن أبي طالبٍ في طلحة كلامٌ يشير إلى أنّه كان أشدّ الناس تحريضاً على عثمان، وأكثرَهم حرصاً على أنْ يُقتَل، قال:

«... واللهِ ما استعجل متجرّداً للطلب بدم عثمان[٣] إلّا خوفاً مِن أن يطالَب بدمه لأنّه مَظنّته، ولم يكن في القوم أحرصُ عليه منه[٤]؛ فأراد أن يغالط بما أجلبَ فيه ليُلبِس الأمرُ[٥] ويقعَ الشكّ!»[٦].

أمّا الزبير بن العوّام، فيروي الرّواة أنّه لم يكن له نشاطٌ ملحوظ في ردّ الثائرين على عثمان. ويزيدون قائلين: إنّ هواه كان معهم، وإنّ الملحوظ إنّما كان ميله إلى التخلّص من عثمان لعلّ الأمر يصير إليه من بعده. وقد صارح عليّاً بأنّه يريد الأمر لنفسه يوم التقاه قُبَيل معركة الجمل، فسأله عليّ: ما جاء بك؟

(١) شرح نهج البلاغة: ٩ / ٣٥.
(٢) الجمل، لابن شدقم المدني: ص١٩، شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٦١.
(٣) متجرّداً: كأنه سيف تجرّد من غمده.
(٤) لم يكن في القوم أحرص على سفك دم عثمان من طلحة.
(٥) يلبس الأمر: يشتبه فلا ينجلي.
(٦) نهج البلاغة، الخطبة: ١٧٤ ـ ٢.

«فقال الزبير: أنت ، ولا أراك لها أهلاً ولا أولى بها منّا!»(١).

وهذه عائشة زوج النبيّ تبالغ في التحريض على قتل عثمان. فقد طالما توجّهتْ إلى الخليفة الثالث بالنقد الموجع، وطالما ألّبت القومَ عليه. فإنّها يومَ نقص عثمان عطاءها غضبتْ وتربّصتْ به(٢) حتى رأته يخطب الناسَ فنهضت وهي تحمل بيدها قميصَ النبي ونادت تقول: «يا معشر المسلمين! هذا جلباب رسول الله لم يبل ، وقد أبلى عثمان سُنّتَه!»(٣) ويروي ابنُ أبي الحديد عن معاصري عائشة أنّها كانت تستقبل كلّ مَن تراه بالتأليب على عثمان ، فيقول:

أخرجتْ ثوباً من ثياب رسول الله فنصبتْه(٤) في منزلها ، وكانت تقول للداخلين عليها: «هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلّم لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنّته»(٥).

ويروي البلاذري: أنّ عبد الله بن عباس مرّ بعائشة مرّةً ، وقد ولّاه عثمان موسمَ الحجّ بمكّة ، فقالت له عائشة هذا القول الصريح: «يا ابن عبّاس! إنّ الله قد آتاك عقلاً وفهماً وبياناً ، فإيّاك أنْ تردّ الناسَ عن هذا الطاغية!»(٦). وينسب البلاذري إلى عائشة قولاً في عثمان إن صَحّ كان دليلاً على كرهٍ قلّما حَمَل مثلَه إنسانٌ لإنسان. قالت عائشة لمروان:

«يا مروان! وددتُ واللهِ لو أنّه ـ أي عثمان ـ في غرَّةٍ من غرائري هذه

---

(١) تاريخ الطبري: ٤ / ٥٠٩، وعنه الغدير: ٩ / ١٠١.
(٢) تربصت به: انتظرته. لسان العرب: ٣٩/٧، مادة «ربص».
(٣) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٩، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٧٥.
(٤) نصبته: أقامته ، ونشرته. المنجد: ٨١١ مادة «نصب».
(٥) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٩.
(٦) أنساب الأشراف: ٥ / ٨٨.

وأنّي طُوّقتُ حمله حتى ألقيه في البحر!»(١). وكثيراً ماكانت تردّد هذا القول: «اقتلوا نعثلاً ـ أي عثمان ـ فإنّ نعثلاً قد كفر!»(٢).

لقد كان هوى عائشة في قتل عثمان من القوّة بحيث راحت تأمر بقتله جهراً على ما رأيت؛ ذلك لأنّها كانت تعتقد أنّ الأمر سيصير من بعده لطلحة دون عليّ. وممّا يؤيّد هذا الزّعم أنّها يوم بلغَها نبأُ مقتل عثمان وهي بمكّة ، قالت من فورها: «بُعْداً لنَعْثل! إيه يا صاحب الأصبع! إيه يا أبا شبل! إيه يا ابن عمّ! لَكَأنّي أنظر إلى إصبعه وهو يُبايَع له حثْوَ الإبل!»(٣). وصاحب الإصبع كنية طلحة منذ قُطعتْ إصبعُه في موقعة أُحُد. وكان محمد بن طلحة يُشرك أباه وعائشة في دم عثمان حين يُسأل رأيَه في المأساة ، وعلى ما يقوله صاحب البدء والتاريخ: «كان أشدّ الناس على عثمان طلحة والزبير وعائشة!»(٤).

وغير هؤلاء اشتركوا في دم عثمان تحريضاً وتأليباً، منهم عبد الرحمن ابن عوف الذي ضوعف ثراؤه في عهد عثمان ، ثمّ سمعَه عُوّادُه يقول: «عاجِلوه ـ أي اقتلوه على عجل ـ قبل أن يتمادى(٥) في مُلكه!»(٦). ومنهم مُعظمُ مَن خاصموا عليّاً فيما بعد وطالبوه بدم الخليفة القتيل.

«فالأشدّاء من قريش على عثمان رجعوا إليه بعد مصرعه. ولعلّ موقف عائشة في هذه المأساة أوضح صورةٍ ؛ للتناقض الغريب المدهش في موقف قَتَلَة عثمان من هؤلاء القرشيين الطامعين. قتلتْه عائشة بتحريضها العنيف

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٦ / ٢١٥.

(٤) نقله عنه العلّامة العسكري في أحاديث أُم المؤمنين عائشة: ١٦٠/١، وراجع أنساب الأشراف: ٥ / ٢٠٥، وشرح نهج البلاغة: ٢١٥/٦ .

(٥) يتمادى: يبلغ في ملكه مداه.

(٦) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٢٨ ، جواهر المطالب: ٢ / ١٧٦.

السافر وسعْيها الحثيث النشيط ، وهي تأمل عودةَ الحكم إلى تَيْم[١] في شخص ابن عمّها طلحة. وقتله طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص بأموالهم ودسائسهم. وقتله معاوية وحزبه بتخلّيهم عنه. وقتله مروان وآل الحكم ورفاقهم من آل أبي معيط بأنانيّتهم واستخفافهم. فلمّا قُتل وصار الأمر إلى عليّ بإجماع المسلمين انقلب هؤلاء جميعاً دون توطئة ولا تمهيد ، فإذا عثمان الظالم الكافر أمس ، شهيدٌ مظلومٌ اليوم»[٢].

وإليك ما قاله سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة حين التقيا الجموعَ الزاحفة من مكّة إلى البصرة لمقاتلة عليّ في مكانٍ من خيبر، وفي قولَيهما اعترافٌ بأنّ طلحة والزبير مسؤولان عن قتل عثمان. أمّا سعيد فحين أشرف على الجيش قال لعائشة: أين تريدين يا أُمّ المؤمنين؟! فقالت: أُريد البصرة ، قال: وما تصنعين بالبصرة؟ قالت: أطلب بدم عثمان. قال: فهؤلاء هم قَتَلة عثمان معك. ثم قال لمروان بن الحكم: وأنت ، أين تريد أيضاً؟ قال: البصرة، قال سعيد: وما تصنع بها؟ قال مروان: أطلب قَتَلة عثمان، قال: فهؤلاء قَتَلة عثمان معك ، إنّ هذين الرجلين ـ طلحة والزبير ـ قتَلا عثمان وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلمّا غُلبا عليه قالا: نغسل الدمّ بالدم والحوبة بالتّوبة».

أمّا المغيرة بن شعبة فقد قال للناس: إنْ كنتم خرجتم مع أُمّكم فارجعوا بها خيراً لكم، وإنْ كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان، وإن كنتم نقمتم على عليٍّ شيئاً فبيّنوا ما نقمتم عليه. أُنشدكم الله ، أفِتْنَتَين في عامٍ واحد؟»[٣].

* * *

(١) عائشة بنت أبي بكر ، وأبو بكر قرشي من قبيلة تيم.
(٢) حليف مخزوم: ص١٨٣.
(٣) الإمامة والسياسة: ١ / ٨٢، وعنه في الغدير: ٩ / ١٠٧.

هذا ما كان من أمر المحرّضين على عثمان وقاتليه الذين حملوا قميصَه فيما بعد مطالبين بدمه عليّاً. أمّا عليّ فقد مرّت بنا أحاديث تدّل على حقيقة موقفه من الفتنة.

علمْنا أنّ عليّاً لم يكن ذا حظوةٍ عند الخليفة القتيل. وأنّ مروان كان ينصح سيّده بقتل عليّ والصحابة إذا أمكن، تخلّصاً من الضمائر السليمة التي تراقب الأُمويّين والوجهاء في ما يعملون؛ وتنكيلاً بمن وراءهم من الخيّرين. غير أنّ النّبل الذي يتميّز به عليٌّ كان يرتفع به عن مخاصمة الآخرين إذا كان هو بالذات موضوع الخصومة. فليس أبعد عن رجلٍ كابن أبي طالب من أن يغضب على الخليفة بعلّةٍ الإبعاد، أو يميل إليه بسبب التقريب. فالإبعاد والتقريب سيّانِ في قلب عليّ، وهما لا يعدّلانِ ما في طبيعته من السّماح والحبّ والميل إلى الخير من حيثُ أتى وكرْه الاشتباك إلّا إذا كان الاشتباك دفْعاً لظلمٍ وتوطيداً لعدل! لذلك لم يكن عليٌّ ليبخل على عثمان بالنصح ساعةَ يمكن النّصح، ولو على غير رغبةٍ من أصحاب الخليفة. ولا بالدفاع عنه ساعةَ يجب الدفاع عن نفسٍ يهدّدها خطر الموت.

وكثيراً ما كان يدفع عنه القومَ، حين يتخطّون الخليفةَ إليه ليعرضوا الخلافة عليه، ويلقاهم بالتهديد والإنذار. وكثيراً ما كان يتّهم المتألبين على عثمان بإفساد الأرض دفاعاً عن الخليفة الذي تركّز السوء في بطانته، وفتحاً لفرجةٍ من الأمل في الاصلاح في تلك الغيوم الدكناء من الأَثَرة والاستهتار، أو من اليأس والقنوط. من ذلك أنّ الثوّار لمّا جاؤوه يحملون إليه دليلَ التّهمة التي يتّهمون بها حاشيةَ عثمان ومستشاريه ـ وهو الرسالة التي وجدوها في طريق مصر مع غلام عثمان على ما رأينا ـ وقف عليٌّ يريد أنْ يجعل التهمةَ والمسؤولية فيهم، امتحاناً لهم من جهة، وتخفيفاً لسورة الغضب في نفوسهم

من جهة ، قائلاً لهم: **وما الذي جمّعكم في طريقٍ واحد، وقد خرجتم من المدينة متفرّقين كلٌّ منكم إلى جهة؟** وقد مرّت بنا نصيحة عليّ لعثمان ساعةَ اجتمع الناس عليه فعالجه بالنصح على كرهٍ من مستشاري الخليفة، وأوّلها: «**الناس ورائي وقد كلموني فيك...الخ**»(١).

وكانت غاية عليّ من ذلك ألّا تتسع شقّة الخلاف بين الشعب ومركز الخلافة ، فتكون البادرة التي لا تعود على المسلمين بالخير. وكان إيمانه وطيداً بأنّ الاصلاح أمرٌ ممكن دون معالجة الفساد بإهراق الدم وتفريق الكلمة.

وبلغت الشهامة من نفس عليّ مبلغاً قلّما تدركه النفوس، فإذا هو يتغلب على تلك الحيرة التي اشتدّت عليه لِماكان من أمره وأمر عثمان ، حين جعل الخليفة يأمره بمغادرة المدينة حيناً وبالعودة إليها أحياناً، فيمتثل لأمره دون أن يسأل توضيحاً لِمَا يريد في مثل هذا التصرّف.

ومحور الشهامة في موقف عليّ هو رغبته في الإحسان إلى الآخرين ، وإقامته على أساسٍ من الرأفة بهم والعطف عليهم يوم تشتدّ عليهم الحال. فلَطالما امتثل لإرادة عثمان ساعة كان يأمره بمبارحة المدينة ؛ ليغيب عن أنظار محبّيه ومريديه ، فلا يعودون إلى الهتاف باسمه. ولطالما امتثل لأمره كذلك ساعة يعود ويستدعيه إلى المدينة ليخطب الناسَ ويدفعهم عنه. وقد تَكرّر ذلك ، حتى إذا جاء ابنُ عبّاس عليّاً مرّةً يحمل إليه أمرَ عثمان بمغادرة المدينة ـ على ما مرّ بنا ـ قال: «**يا ابن عبّاس! ما يريد عثمان إلّا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب** ـ أي الدّلو ـ **أُقبل وأُدبر ، بعثَ إليّ أن أخرُجْ. ثم بعث إليّ أن أقدمْ. ثم هو الآن يبعث إليّ أن أخرجْ! والله لقد دفعتُ عنه ؛ حتى خشيتُ أن أكون آثماً!**»(٢). ويروي

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٣٧٦، البداية والنهاية: ٧ / ١٨٨.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٤٠، العقد الفريد: ٢ / ٢٧٤.

وظلّ يأبى إلى أنْ كان يومٌ اجتمع فيه الناس إليه وألحّوا عليه وهم يزدحمون ، حتّى ظنّ أنّ بعضَهم قاتلُ بعضٍ ، وقالوا له: «لا نجد غيرك ولا نرضى إلّا بك. فبايعْنا لا نفترق ولا نختلف»(١). ثم أخذ الأشتر النخعي بيده فبايعه وبايعه الناس وكلّهم يقول: «لا يصلح لها إلّا عليّ!»(٢).

وهتف الناس باسم عليٍّ على عادة الناس إذ يُولّون عليهم خبيراً بحاجاتهم ، مؤمناً بحقّهم خالصاً لهم ، عالماً حكيماً، أباً كريماً. وسُرّوا بقبوله الولايةَ حتى لَكأنّهم يُطلّون على أملٍ لا ينتهي ، بعد أنْ عاشوا طويلاً في ظُلُماتٍ دامساتٍ أُمويّاتٍ من المهانة والحرمان.

وقد وصف هو نفسه بَيْعتَه بالخلافة وصْفاً جميلاً ، قال:

«وبلغ من سرور الناس بَبيعتهم إيّاي أنِ ابتهجَ بها الصغير ، وهدَج إليها الكبير ، وتحاملَ نحوها العليل ، وحسَرتْ إليها الكِعاب(٣)»(٤).

فلمّا كان يوم الجُمُعة وصعد عليّ على المنبر بايعه مَن لم يبايعه بالأمس ، وكان أوّل مَن بايعه طلحة ، ثم الزبير ، وقد قال كلٌّ منهما بعد المبايعة: «إنّما بايعتُ عليّاً واللجّ على عنقي»(٥).

وماذا يعني قول طلحة والزبير هذا؟ إنّه يوجز رأيَ الجانب الأكبر من القرشيين وأصحاب الوجاهات والطامعين بالحكم في انتهاء الأمر إلى عليّ. فهم يحقدون عليه إمّا حسداً وإمّا انتقاماً ؛ لزعامةٍ ونفوذٍ وجاهٍ يرغبون فيها ولا

---

(١) الغارات: ١ / ٣١٠.

(٢) البداية والنهاية: ٧ / ٢٥٤.

(٣) هدج: مشى مشية الضعيف. والكعاب جمع كاعب وهي: الجارية إذا بلغت ونهد صدرها. وحسرت: كشفت عن وجهها. يقول: كشفت الكعاب النواهد عن وجهها متوجهة إلى البيعة لتعقدها بلا استحياء.

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٢٩ ـ ٢.

(٥) الفتنة ووقعة الجمل ، لسيف: ص١٢٢ ، تاريخ الطبري: ٣ / ٤٥٧ و ٤٨٠ ، البداية والنهاية: ٧ / ٢٥٤.

سبيلَ لها على يديه. فعليٌّ لن يضع المعروف في غير حقّه، وعند غير أهله. ولن يساير هؤلاء وهؤلاء على حساب الجائع والعاري. أضف إلى ذلك أنّ النافذين منهم ـ جميعاً ـ يطمحون إلى الخلافة، ولا سيّما طلحة والزبير. وقد أشار عليّ أكثر من مرّة إلى معاداة قريش له إشارة صريحة لا تحتمل تأويلاً، وأعلن عن موقفه منهم قائلاً:

«مالي ولقريش! واللهِ لقد قاتلتُهم كافرين، ولأُقاتلنّهم مفتونين. وإنّي لَصاحبُهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم!»[١].

إن القرشيين في مُعظمهم يكرهون عليّاً. وكم من قرشيّ انتضى عليه سيفَ عداوته[٢] ـ كما يقول ـ وكم من باغٍ نصب له شراكه! غير أنّهم ـ وفي طليعتهم طلحة والزبير ـ لم يجدوا مفرّاً من مبايعة عليّ، لأنّ الرأي العام في المجموعة العربية وفي الأقطار المفتوحة ولا سيّما مصر لم يكن يجيز استخلاف أحدٍ سوى ابن أبي طالب؛ ذلك لأنّ صفاته هي الصفات التي تنشدها الثورةُ الاجتماعية في شخصيّة الخليفة. فالثورة تنشد العدلَ في الأمصار والرأفةَ بالمستضعفين، وتأميمَ بيت المال ومنْعَ الاحتكار في المنافع العامّة، وجعْلَ الحكم توجيهاً وتطبيقاً لمفاهيم العدالة. وماكان لذلك غير عليّ.

أمّا أشدّ منافسي عليّ طمعاً بالخلافة! وأعظمهم أملاً ببلوغها، فهما طلحة والزبير. وهذان لم يتوفّر فيهما شيءٌ من صفات الحاكم الذي تريده الثورة. فهما يُشبهان بطانة عثمان في أكثر ما تَمرّدَ عليهم من أجله المستضعَفون والمحرومون. فقدكانا من الراغبين في الملك والمال والجاه. وقد مرّ بنا قول عثمان في أحدهما طلحة: «ويلي من طلحة! أعطيتُه كذا وكذا ذهباً وهو

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٣٣ ـ ٥.

(٢) انتضىٰ عليه سيف عداوته: سلّ عليه سيف عداوته. المنجد: ٨١٥ مادة «نضي».

يروم دمي!»[١].

وأدركت العامّةُ هذه الحقيقة عن المرشّحين للخلافة إدراكاً عفوياً مباشراً ، فكانوا إلى جانب عليّ ، وحملوا طلحة والزبير قسْراً على مبايعته.

يقول عليّ في مبايعتهما إيّاه ثم في خروجهما عليه ، وذلك قُبَيْلَ موقعة الجمل: «**لقد دخلا بوجهٍ فاجر وخرجا بوجهٍ غادر**»[٢]. إشارةً إلى أنّهما لم يدخلا في ما دخل به الناس ، عن رغبة في الإصلاح الذي تجنّد له عليّ ، وإلى أنّهما لم يخرجا عليه إلّا غدراً به وبمسلكه القويم.

وبدأ عليّ من يومه الأوّل يجنّد قواه للإصلاح، ويقوّم ما اعوجّ من شؤون الناس. فإذا هو يعزل الولاة الذين ظلموا وخرجوا على القواعد الإنسانية التي يدين بها ، ويعاقب الذين استباحوا جهودَ الناس واحتكروا الثروات وأطمعوا محاسيبَهم في دم الشعب. سار على هذه السياسة النافعة، لا يحابي ولا يساير ولا يأبه لسُخط أصحاب الوجاهات ، ولا يُعير النافذين الناقمين إلتفاتاً.

لقد استقبل عليّ عهدَ خلافته بأيّامٍ مظلمةٍ كثيفةِ الظلمة. فالنافذون قد أجمعوا الرأي على معاداته ، وكذلك المستنفعون ، وهم كثيرون. وبات عليه أن يحارب على جبهتين تتّسعان ، وتبعد أطرافهما وتثقل عليهما وطأةُ اللّيل: بات عليه أن يُشيع العدل في الناس ويرفع عنهم الجورَ ، ويبني دولةً تقوم على أُسُسٍ اقتصاديةٍ واجتماعيةٍ وأخلاقية صحيحة، وأن ينظر في أمر مُعاديهِ الكثيرين من النافذين وأصحاب الولايات والجيوش والأموال. ودخَل المعركتين بهمّةٍ لا تعرف المللَ ، وصبرٍ لا يعرف الحدودَ ، وإيمانٍ لا تزعزعه النكبات. وعقد العزم على أن يجلو الظلمات واحدةً واحدة، ويُسقِط

(١) شرح نهج البلاغة: ٩ / ٣٥.

(٢) مناقب ابن شهرآشوب: ٢ / ٩٨.

نورَ الشمس على كلِّ سهلٍ وجبل. وكيف كان ذلك؟

ماكادت الثورة الاجتماعية تختار عليّاً زعيماً لها ، وقائداً يسلك بها الطريقَ المستقيم إلى غاياتها الطيّبة ، حتى جمع بنو اُميّة ما لَهم من رجالٍ وأموالٍ وسلاح في المدينة وغيرها من الأمصار، واختفوا عن الأنظار. هربوا بأموالهم وأنصارهم وأسلحتهم إلى مكّة ، حيث يستطيعون أن يعملوا في الخفاء لإحباط أمْر عليّ ، وتأليبِ الناس عليه واللّحاق بمعاوية في الشام إذا أعْوَزَهم ذلك ، ولم يكونوا في حاجةٍ لمثل هذا التدبير لو أخلصوا النيّة ورغبوا عن المُلك في سبيل المنفعة العامّة. غير أنّ رغْبتَهم في المُلك وأملهم في أنْ يصير الأمر إليهم ولا يخرج منهم إذا هم استطاعوا إبعادَ عليّ عن الخلافة ، أمران جعَلاهم يلجأون إلى ما لجأوا إليه. ثم إنّ الأموال الضخمة التي حصلوا عليها في عهد عثمان تغريهم بأن يحملوها ويهربوا بها عن الخليفة العادل فيزدادوا بها منعةً وقوّةً عليه.

وأدرك عليّ ما يبيّته له الاُمويّون وما يعني هربُهم إلى مكّة بالمال والسلاح ، فاشتدّ على القرشيين ومنَعَهم من الخروج، يريد بذلك أنْ يدفع خطرَهم عن العهد الفتيّ.

وفيماكانت الأزمة على حالٍ من الشدَّة ، دخَل على عليّ بعضُ الصحابة وفيهم طلحة والزبير فقالوا له: «يا عليّ! إنّا قد اشترطنا إقامةَ الحدود ، وإنّ هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل ـ يقصدون عثمان ـ وأحلّوا بأنفسهم». فقال عليّ: **«يا إخْوَتاه! إنّي لستُ أجهل ما تعلمون ، ولكنّي كيف أصنع بقومٍ يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عُبدانُكم ، وثابت إليهم أعرابُكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا. فهل ترون موضعاًلقدرةٍ على شيءٍ ممّا تريدون؟»** فقالوا: لا. قال: **«فلا واللهِ لا أرى رأياً ترونه إنْ شاء الله. إنّ الناس من هذا الأمر إن حُرِّك على اُمور: فرقةٌ ترى ما ترون ، وفرقةٌ ترى ما لا ترون ، وفرقةٌ لا ترى هذا ولا هذا ؛ حتى**

يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعَها وتُؤخذ الحقوق. فاهدأوا عنّي ، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا!»[١].

لقد جاؤوه يحملون الشكّ في حقيقة أمره وأمر الناس فجاءهم بما يزيل هذا الشكّ ويستبدل به الخبرَ اليقين.

جاؤوه يشترطون عليه إقامةَ الحدود على قومٍ لا يملكهم ولا يملكونهم ، وفيهم عبدانهم ومواليهم وأعرابهم ، فجاءهم بالحجّة التي انتزعت اعترافَهم بأنّه يعلم فوق ما يعلمون ، ويسعى فوق ما يسعون ، ويأبه للأمر فوق ما يأبهون[٢]، ولكنهم ضلّوا حيث اهتدى وتعجّلوا في موقف التريّث والتبصّر.

جاؤوه يشركون الناس جميعاً في حالٍ واحد من النظر إلى مقتل الخليفة الشهيد ، جاءهم بفضلٍ من علمه ، يريهم أنّ الناس فِرَقٌ وشيَعٌ وليسوا على ما يحسبون.

جاؤوه بعواطف وأهواء ، وجاءهم بمنطقٍ ودليل.

جاؤوه يقولون: يا عليّ! وفي القول اجتراءٌ وقسوة ، وجاءهم يقول: يا إخوتَاه! وفي القول لينٌ ورحمةٌ وحبٌّ كثير.

جاؤوه يطالبون بدم عثمان وفيهم مَن أعان عليه ، وجاءهم بالسماح والعفو ينبعانِ من قلبه ويجريان على لسانه، وهو مِن كلّ مُنْكَرٍ براء.

وعاد يشتدّ على قريش من جديد فلا يُفسح لهم في مجال الفتنة، وكان في موقفه حصافةٌ[٣] وسَداد.

* * *

---

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٥٨ ، ونهج البلاغة ، الخطبة: ١٦٨ ـ ٥.

(٢) يأبهون: تأهب: تعظم. المنجد: ٢، مادة «أبه».

(٣) حصافة: حصف الشيء حَصافةً: كان مُحكماً لا خلل فيه ، ويُقال: حَصُف فلان: استحكم عقله ، وجاد رأيه ، فهو حصيف. لسان العرب: ٤٨/٩، مادة «حصف».

وراح عليّ يعزل عمّال عثمان واحداً بعد واحد ، وهو لا يرى فيهم من يصلح للبقاء في عمله ، بعد أن طغى جورهم وفسادهم واستهتارهم، حتّى كانت الثورة على عثمان. وأبى أن يُبقيهم لحظةً واحدة في مناصبهم ؛ والحقّ لا يسايَر بالباطل ، والجور لا يُدفَع بالإبقاء على علّته. ونصَح له ابنُ عباس ونصح له كثيرون أنْ يُقرّهم على أعمالهم إلى أن تستقرّ به الحال ثمّ يكون من أمره معهم ما يكون. فأبى أن تكون الاجتهادات السياسية مرجعاً في إدارة الدولة المثالية ، وأبى كذلك أن يجعل من رضى المستنفعين سبيله إلى الاستقرار ، فاعتصم بذمّته وعقله وسيفه، وأصرّ على أن يجلو هذه الغمراتِ واحدةً واحدة.

وأهمّته ولاية الشام ، وكان من أمره وأمر معاوية ما ذكرناه. فأصرّ عليّ على عزله وأصرّ معاوية على ألّا يبايع. ودخل على عليّ زياد بن حنظلة يريد أن يعرف ماذا سيقضي في أمر معاوية لتبليغ إرادته إلى الناس ، فما هي إلّا فترة تنقضي حتّى قال عليّ لزياد: تَيَسّرْ يا زياد! فقال: لأيّ شيء يا أمير المؤمنين؟! قال عليّ: **«نغزو الشام»** ، قال زياد: الرّفق والأناة أمثل. قال عليّ:

متى تجْمعِ القلبَ الذكّي ، وصارماً وأنفاً حميّاً تجتنبْك المظالمُ[1]

وعَبّأ عليّ جيشه استعداداً لغزو الشام وتأديب معاوية. وتَحرّك الناس بموقف عليّ بين مؤازرٍ له ومحازبٍ عليه. وجاءه طلحة والزبير فقالا: «يا أمير المؤمنين! إئذنْ لنا إلى العمرة فإن تقم إلى انقضائها رجعْنا إليك، وإن تسِرْ نتبعك» فنظر إليهما عليّ قليلاً ثم قال: **«نعم ، والله ما العمرة تريدان. إمضيا إلى**

(١) الفتنة ووقعة الجمل ، لسيف: ص١٠٧ ، تاريخ الطبري: ٣ / ٤٦٥.

شأنكما!»[١] وانصرف طلحة والزبير إلى مكّة.

* * *

راح الأُمويون وطلحة والزبير يأتمرون بمن حملتْه الثورة الاجتماعية إلى الخلافة ، ويكيدون له ويبذلون المالَ في التأليب عليه ، يعاونهم في ذلك عمّال عثمان الذين عزلَهم عليّ ، فاتّخذوا مكة مقرّاً لهم ؛ وقد حملوا إليها ما تحت أيديهم من مالٍ وسلاح. وكانت عائشة بنت أبي بكر وزوج الرسول ، الباعثَ النشيط على الصراع الرهيب ، الذي بدأ يوم استُخلف عليّ ولم ينتهِ في قرون طوال. وإليك كيف تلقّت عائشة خبر استخلاف عليّ: لقيَها رجلٌ من أخوالها من بني ليث يقال له: «عبيد بن أبي سلمة» ، فسألتْه ، فقال لها: اجتمعوا على عليّ بن أبي طالب ، فقالت: «ليت هذه انطبقت على هذه ـ تريد الأرض والسماء ـ إنْ تمّ الأمر لعليّ!»[٢] وكانت إذذاك خارجةً من مكّة ، فارتدَّت إليها وهي تقول كلمتها: قُتِلَ ، واللهِ ، عثمانُ مظلوماً. والله لأطلبنّ بدمه! فسألها عبيد: ولِمَ؟ فواللهِ ، أنَّ أوّل مَن أمال حرفَه لأنتِ! كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً[٣] فقد كفر! فأجابت: إنهم استتابوه ثم قتلوه. وقد قلت وقالوا: «وقولي الأخير خيرٌ من قولي الأوّل»[٤]. وهنا يروي الطبري أبياتاً قالها عبيد لعائشة ، وفيها يُلقي التبعة عليها في مقتل عثمان:

فمنكِ البداءُ ، ومنكِ الغيَرْ   منك الرياحُ ، ومنك المطرْ

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١ / ٢٣٢ ، الإمامة والسياسة: ١ / ٧١.

(٢) الجمل لابن شدقم المدني: ص١٢٨.

(٣) نعثلاً: النعثل: الذكر من الضِباع. والشيخ الأحمق. والنعثلة: الحُمقى. لسان العرب: ٦٦٩/١١، مادة «نعثل».

(٤) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧٧.

وأنت أمـــرتِ بـــقتل الإمـــام   وقـــلــت لنـــا إنــــه قـــد كــفر
فـــهبنا أطـــعناكِ فـــي قـــتلِهِ   وقـــاتلُهُ عـــندنا مَـــن أمَـــر
ولم يســقط السـقفُ مــن فـوقنا   ولم تــنكسفْ شــمسُنا والقــمر(١)

وسارت عائشة إلى مكّة لا تلوي على شيء. فلمّا بـلغتْها لقـيها طـلحة، فأخبرها بما كان من أمر عليّ وأمْره مع الناس قائلاً: «بايعوا عليّاً ثـم أتـوني فأكرهوني حتى بايعت». فقالت: «وما لِعليٍّ يستولي على رقـابنا؟ لا أدخـل المدينة ولعليّ فيها سلطان!»(٢). وهناك جعلت تثيرها فتنةً طاغية على ابن أبي طالب، وتحرّض الناس على قتله إثّاراً لعثمان. والذي يتابع سيرة عائشة في هذه المرحلة يدرك أي كره هو ذاك الذي كانت تضمره لعليّ. ولكي يـنجلي موقفها أكثر لا بدّ من الإشارة إلى أسباب ما تحمل في نفسها من عليّ.

إنّ كرْه عائشة لعليّ قديمٌ يعود تاريخه إلى اليوم الذي دخلتْ فـيه بـيتَ الرسول على ما يذكر أكثر المؤرخين. ومن أسباب كـرْهها لعـليّ مـنذ تـلك الساعة: أنّه زوج فاطمة، وفاطمة بنت خديجة التي شغلتْ وجدانَ النبيّ بنبلها وسموّ أخلاقها، شغلتْ وجدانَه في حياتها وتركتْ فيه بـعد مـوتها مكـاناً لم تستطع عائشة بكلّ ما فيها من مزايا أن تزاحمها فيه. وقـد جـاء فـي «مـجلة الأزهر» هذا القول:

«وكانت ـ عائشة ـ رضوان الله عليها إلى ما خصَّها الله به: بعيدة الهـمّة، طمّاحة(٣) إلى ذِروة المجد. لم يكفها أن حظيتْ بأسمى مكانة من صواحـبها لدى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، حتّى رغـبتْ أن تـحتلَّ مـن قـلبه المكـانَ الأوّل، مكـان

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧٧.
(٢) الإمامة والسياسة: ١ / ٦٦، الصراط المستقيم للعاملي: ٣ / ١١٩.
(٣) طمّاحة: شرهة. الصحاح: ٣٨٨/١، مادة «طمح».

الصــديقة الأُولى ـ أي خـديجة ـ والحـبيبة الفـضلى ، التـي لا يـفتأ يـذكرها ويبشّرها ، ويكرم من أجلها خلائلها ، ويثني عليها ثناءً كريماً يسابق الدهر. وعبثاً حاولت الصديقة بحسن الدلّ ، ولطف الحَيل ، وفنون الذكاء والنبل ، أن تُقنع سيّد الأوفياء ، وأكرم النبلاء ، بأن الله أبدله خيراً من خديجة.. فلتلق السلم إذاً ، ولا تجادل في الحقّ بعدما تَبيّن ، ولتعلمْ أنّ المجادلة والمنافسة والغيرة من أعقل العقائل وفضلى الفواضل ، ومَن لهـا قِـدَمُ الصـدق وفـضلُ السـبق، لا تزيد صاحبتَها التي لم ترَها إلّا صدقاً مِن عاطر الثناء وخالد الذكر»[1]. وعن عائشة أنّها قالت:

«ما غرتُ على أحدٍ من نساء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ما غـرتُ عـلى خـديجة ، ومـا رأيتُها ، ولكنْ كان النبيّ يكثر ذكرها، وربّما ذبح الشاة ثم يقطّعها أعضاء ثم يبعث بها في صدائق خديجة. فربّما قلتُ له: كأنّه لم يكن في الدنيا امـرأة إلّا خديجة! فيقول: إنها كـانت ، وكـانت ، وكـان لي مـنها ولد»[2]. فـإنّ عـائشة تعترف بأنّ النبي كان يُؤثِر خديجة على زوجاته جميعاً. وإنّه لمن الطبيعي أن يُؤثّرَ ذلك في نظرتها إلى فاطمة بنت خديجة ، ثم في موقفها من عـليّ زوج فاطمة ووالد سِبْطي الرسول حفيدَي خديجة.

ومن أسباب كرهها الشديد لعليّ أيضاً ما يعود إلى موقفه منها يوم كانت قصّة الإفك وأشار على الرسول بطلاقها. ثم إنها كانت ترغب فـي أن تـؤول الخلافة إلى طلحة بعد مقتل عثمان، على ما تَبيّن لنا بصورة قاطعة. وقد مرّ بنا ما كان من اغتباطها بمصرع عثمان وأملها أن يُستَخلف طلحة.

وجمعتْ عائشة الجموع لدى وصولها إلى مكّة. واشتدّ ساعد الأُمـويّين

---

(١) مجلة الأزهر: الجزء العاشر ـ المجلد السابع والعشرون ـ ١١ مايو ١٩٥٦ ص ١٠٦٣ ـ ١٠٦٤.

(٢) البداية والنهاية: ٣ / ١٥٨.

وطلحة والزبير ومَن والاهم بهذا الموقف العدائي الصريح الذي تقفه عائشة من عليّ وخلافته، فإذا هم كتلةٌ واحدة في الخروج على ابن أبي طالب. ورفع رأسه كلُّ مَن كان قد استتر من بني أُميّة في الحجاز وغيره. واستغلّوا خروج المثلّث القرشي النافذ على الخليفة الجديد ، فضموا أصواتهم إلى صوته وبذلوا الأموال التي كانوا قد نهبوها من الأمصار والولايات تأييداً للمعارضة، وإفساداً لأمر عليّ. وأقبلوا من كلّ حدبٍ وصوب إلى مكة يعينون عائشة في إثارة الجماهير، ويحتجّون في ذلك بدم شهيد أثَرتهم عثمان. وطفق معاوية بصورة خاصة يستسنح هذه الفرصة كي يُضعف عليّاً ويبلغ مأربه عن طريق خصوم الخليفة، وإن اختلفتْ غايته وغاية طلحة والزبير من حيث إنّ كلّاً منهم يريد الأمر لنفسه فيما إذا تمّ لهم النصر على عليّ.

وتمّ لعائشة جيشٌ في مكّة عدّتُه بضعة آلاف. واختلف رؤساء القوم في طريق الزحف وكيف يتّجهون أوّل الأمر؟ ومَن تتبّع أخبار زعماء المعارضة في هذه المرحلة ، وتقصّى ما يريد كلّ منهم بهذا الزحف الذي يتشاورون فيه ،أدرك أنّ هؤلاء لم يجتمعوا للمطالبة بدم عثمان كما يزعمون ، ولا لإصلاح الأمر الذي لم ينهض عليّ لإصلاحه كما يدّعون ، ولا لشيء يتظاهرون به، وبه يخطبون الناسَ ويؤلّبون الجماهير ، بل اجتمعوا وكلٌّ منهم ينظر إلى الأمر من جهته الخاصة ، يريد انتقاماً لأملٍ ضائع في الخلافة ، أو لرأيٍ شخصيٍّ يراه في عليّ ، أو لمجدٍ عائلي يراه قد انهار ولا سبيل إلى استعادته وعلي هو الخليفة.

أمّا عائشة ، فقد كان هواها في أن يتّجهوا توّاً إلى المدينة عاصمة الخلافة لتقويض خلافة عليّ قبل أن يتمكن من تعبئة جيشٍ يقابل به جيشَ مكّة. واعترض بعضهم قائلاً: بل نقصد الشام ، فاندفع بنو أُميّة صفّاً واحداً في إسقاط

هذا الرأي؛ ذلك لأنّ الأُمويّين جميعاً ينزعون عن رأي واحد، هو إبعاد الخطر عن الولايات التي تثبت بها أقدامهم. فهم يعلمون أن الأمر مستتبّ لمعاوية في الشام ، لذلك يسعون في ألّا يجعلوا أرضَ الشام موطئاً لسنابك الخيل ، وفي أن يبقوا عليها موئلاً لهم إذا هم انهزموا أمام عليّ في المعركة المقبلة. ومعاوية ــ على كلّ حال ـ يضع الحجر الأساسي للمُلك الأُمويّ ، فلماذا يعرقلون مسعاه؟ ولماذا لا يشغلون عليّاً وخصومه من أهل الحجاز والعراق بمواقع دامية تبعد عن جنان دمشق ودسائس ابن أبي سفيان؟

أمّا طلحة والزبير فقد كان هواهما في ترك المدينة والشام والاتّجاه إلى البصرة ، وحجّتهما في هذا المذهب: أنّ لهما في البصرة وشقيقتها الكوفة أنصاراً وأعواناً ، فهما أصلح الأمصار، وهما بهذا التوجيه يصدران عن حقيقة موقفهما من الموقعة التي يتهيأون لها ومن نتائجها البعيدة فيما إذا تمّ لهما النصر. فإنّ المعارضة إن انتصرت على أيدي أهل البصرة ، أو الكوفة آل الأمر إلى أحدهما لا شكّ: إلى الذي يكثر في هذا النصر أوذاك أعوانُه ومريدوه.

ووافق هذا الرأي هوى الأُمويين ، فأيّدوه وجاءوا جميعاً يعرضون الأمر على عائشة، قائلين: «يا أُمّ المؤمنين! دعي المدينة فإنّ من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها ، واشخصي معنا إلى البصرة فإنّا نأتي بلداً مضيعاً ، وسيحتجّون علينا فيه ببيعة عليّ بن أبي طالب ، فتُنهضنهم كما أنـهضتِ أهل مكة ثم تقعدين. فإن أصلح الله الأمر كان الذي تريدين، وإلّا احتسبْنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضي الله ما أراد!»[1].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧٠.

وبذل بنو أُمية المال بسخاء لهذا الخروج ، ونادى المنادي يقول: «إن أُمّ المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المُحلّين والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركبٌ ولم يكن له جهاز، فهذا جهاز وهذه نفقة!»(١).

* * *

لمّا عزمتْ عائشة أن تسير بهذا الجيش إلى البصرة أقبلتْ عليها أُمُّ سلمة تنصح لها، قائلة: «إنّك كنت بالأمس تحرّضين على عثمان وتقولين فيه أخبث القول ، وما كان اسمه عندك إلّا نعثلاً!»(٢) ثم دعتْها إلى لزوم دارها دون الخروج على عليّ. فلمّا استحال عليها أن تقنع عائشة بالقعود عن هذا الزحف أرسلت ابنها عمر إلى عليّ بن أبي طالب حاملاً إليه هذه الرسالة: «يا أمير المؤمنين! لولا أن أعصي الله عزّوجلّ وأنّك لا تقبله منّي لخرجتُ معك. وهذا ابني عمر ، والله لهو أعز عليَّ من نفسي: يخرج معك فيشهد مشاهدك!»(٣).

وسعت عائشة في أن تصطحب معها أزواج النبي إلى البصرة. فرغبن جميعاً عن هذا الخروج إلّا حفصة بنت عمر التي مالت إلى مسايرة عائشة في محاربة عليّ ، فجاءها أخوها عبد الله بن عمر ، وطلب إليها أن تلزم بيتها فلا تخرج أُسوةً بغيرها من أزواج الرسول. فعملتْ برأي أخيها معتذرةً إلى عائشة تقول: «إن عبد الله حال بيني وبين الخروج!»(٤).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المعيار والموازنة ، للإسكافي: ص٢٧ ، بحار الأنوار: ٣٢ / ١٦٩.

(٣) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧١.

(٤) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧٠ ، الثقاة لابن حيان: ٢ / ٢٨٠.

وسارت الجموع تحت لواء عائشة في اتّجاه البصرة. ولماكانوا في بعض الطريق إليها ، على مقربةٍ من خيبر، التقاهم سعيد بن العاص الأُموي والمغيرة بن شعبة فخطباهم بما مرّ الكلام عليه. ثم سعى ابن العاص ، بعد ذلك ، في إثارة المعارضين بعضهم على بعض عملاً بالخطّة الأُمويّة العامّة التي كانت ترمي إلى إضعاف أنصار عليّ وخصومه على السواء ؛كي يصير الأمر إلى الأُسرة الأُمويّة دون سواها. فقد خلا سعيد بن العاص إذذاك بطلحة والزبير وسألهما، قائلاً: إن ظفرتما فلمَن تجعلان الأمر؟! اصدقاني! قالا: لأحدنا ، أيّنا اختاره الناس، قال سعيد: بل اجعلوها لوُلْد عثمان فإنّكم خرجتم تطلبون بدمه، قالا: ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم، قال سعيد: لا أراني أسعى لأُخرجها من بني عبد مناف»[1]. وسعى مروان في مثل ما سعى به ابن العاص من إلقاء بذور الخلاف بين المعارضين، بطريقةٍ فيهاكثيرٌ من المداورة والدهاء، وبلغ علياً أنّ جيشاًكثيفاً قد تحرّك من مكة إلى البصرة للطلب بدم عثمان. فآلمه أن تكون الكلمة قد أشرفت على التفرّق، وآلمه أن يكون في هذا التفرّق ما يعوق حركة الإصلاح عن أن تستمرّ وتسير إلى غاياتها ، فإنّ في خروج أهل مكّة عليه لإيثاراً للفوضى ، وإيذاناً بحركة عصيانٍ واسعة النطاق قد يلجأ إليها العمّال المتمرّدون في بعض الأمصار أُسوةً بمعاوية. وهو ما بلغه الخبر حتّى جمعَ أهلَ المدينة فخطبَهم، قائلاً:

«إن الله ، عزّوجلّ ، جعل لظالم هذه الأُمّة العفوّ والمغفرة ، وجعل لمن لزم الأمرَ واستقامالفوزَ والنجاة. فمَن لم يسعْه الحقّ أخذ بالباطل. ألا وإن طلحة والزبير وأُمّ المؤمنين قد تمالأوا على سخْط إمارتي ، ودعوا الناس إلى الإصلاح. وسأصبر ما لم أخفْ على

---

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧٢.

جماعتكم ، وأكفّ إنْ كفّوا وأقتصر على ما بلغني عنهم!»[١].

وشاء أن يقضي على الفتنة قبل أن يستفحل خطرها ، فرأى أنّ الحؤول دون وصول المكّيين إلى المدينة أجدى في قمع الفتنة وحقن الدماء ، فاستخلف على المدينة سهل بن حنيف ، وخرج في اتّجاه مكّة بجيشه الذي كان قد أعدّه لغزو الشام. ولحق به قومٌ كثير من أهل البصرة والكوفة. فلمّا بلغ بجيشه قفر الربذة ، اُخبر أنّ جنود المثلّث القرشي قد غادروا مكّة ، وفاتوا المكان الذي هو فيه ، وأنّ هدفهم إنّما كان البصرة. فأقام قليلاً حيث هو يُحْكم أمره ويسعى في إصلاح ما فسد من رغبات القوم. وبعث إلى عائشة يقول:

«أمّا بعد ، فإنّك خرجت من بيتك عاصيةً لله ولرسوله ، أتطلبين أمراً كان عنكِ موضوعاً ، ثم تزعمين أنّك تريدين الإصلاح بين الناس؟ فخبّريني: ما للنساء وقَوْد العساكر؟ وزعمتِ أنّك طالبة لدم عثمان وعثمان رجل من بني اُميّة، وأنت امرأة من بني تيم بن مرّة! ولعمري إن الذي عرضك للبلاء وحمَلك على المعصية لأعظم إليك ذنباً من قتَلة عثمان ، وما غضبتِ حتّى اغضبتِ ، وما هجتِ حتى هُيّجتِ. فاتّقي الله يا عائشة ؛ وارجعي إلى منزلك واسبلي عليك سترك ، والسلام!»[٢].

أراد عليّ أن يعذر عائشة لخروجها عليه وقَوْدِها العساكر فأشار إلى أنّها «اُغضبت وهُيّجت» وفي ذلك ما فيه من مراعاة شعور المرأة واحترام جانبها. ثم وجد لها مخرجاً ممّا حُملتْ عليه من المعصية ـ على حدّ تعبيره ـ فخطّأ الذي عرضها للبلاء وحملها على الخروج من بيتها، وجعَلَه أعظم ذنباً من قتَلة عثمان. ثم نصح لها بأنْ تتّقي الله وترجع إلى منزلها ففي ذلك أمنٌ للبلاد ورضا للناس.

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٦٩ ـ ٤.

(٢) مناقب ابن شهرآشوب: ٢ / ٣٣٨ ، مناقب الخوارزمي: ص١٨٤ ، الإمامة والسياسة: ١ / ٧٠.

غير أنّ عائشة لم تلتفت إلى هذه النصيحة ، بل مضت في ما هي ماضيةٌ فيه ، وبعثتْ إليه بهذه الكلمة الموجزة التي حدّدتْ بها موقفها منه ، وأعلنت عن عدائها الشخصيّ له ، وكانت القولَ الفصل في الحرب والسلم: «يا ابن أبي طالب! جلّ الأمر عن العتاب ، ولن ندخل في طاعتك أبداً ، فاقضِ ما أنت قاض ، والسلام!»[١]. وجاءه مثل هذا القول من طلحة والزبير!

* * *

لمّا كان جيش عائشة على مقربة من البصرة تشاور قادة الرأي في أمر دخول المدينة. فهم مدركون أنّ في البصرة أنصاراً لابن أبي طالب غير قليل. فمن الحكمة أن يتشاوروا في أمرهم ، ويراسلوهم ليقفوا منهم على مبلغ طاعتهم للإمام عليّ. وأجمعوا الرأي على أن يؤلّبوا رؤوسَ أهل البصرة على عليّ قبل أن يدخلوها ، فكتب طلحة والزبير إلى القاضي كعب بن سور: «أمّا بعد ، فإنّك قاضي عمر بن الخطاب ، وشيخ أهل البصرة وسيّد أهل اليمن. وقد كنت غضبتَ لعثمان من الأذى ، فاغضبْ له من القتل والسلام» فأجابهما، قائلاً «فإن يكُ عثمان قُتل ظالماً فما لكما وله؟ وإن قُتل مظلوماً فغيركما أولى به! وإنْ كان أشكل على مَن شهِدَه فهو على مَن غاب عنه أشكَل!»[٢]. وكتبا معاً إلى المنذر بن الجارود:

«أمّا بعد ، فإنَّ أباك كان رئيساً في الجاهلية وسيّداً في الإسلام ، وإنّك من أبيك بمنزلة المصلى من السابق: يقال: كاد أو لحق ، وقد قتَل عثمان مَن أنت خيرٌ منه ، وغضبَ له مَن هو خيرٌ منك والسلام!»[٣]. فأجابهما يقول:

---

(١) الإمامة والسياسة: ١ / ٥٥ ، جمهرة رسائل العرب: ١ / ٣٧٩ ، فتوح ابن أعثم: ٢ / ٣٠٢.
(٢) الإمامة والسياسة: ١ / ٨٠.
(٣) المصدر السابق.

«أمّا بعد ، فإنّه لم يُلحقني بأهل الخير إلّا أن أكون خيراً من أهل الشرّ ، وإنّما أوجب حقّ عثمان اليوم حقّه أمس ، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه فمتى استنبطتم هذا العلم وبدا لكم هذا الرأي؟»[1]. وكتبت عائشة إلى زيد بن صوحان: «من عائشة بنت أبي بكر أُمّ المؤمنين حبيبة رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان ، أمّا بعد: فإذا أتاك كتابي هذا فأقدِمْ فانصرْنا على أمرنا هذا ، فإنْ لم تفعل فخذل الناس على عليّ!» فكتب إليها يقول:

«من زيد بن صوحان إلى عائشة بنت أبي بكر حبيبة رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، أمّا بعد: فأنا ابنك الخالص إن اعتزلتِ هذا الأمر ورجعتِ إلى بيتك ، وإلّا فأنا أوّل مَن نابَذَك[2]!»[3]. وفي العقد الفريد وجمهرة رسائل العرب ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد أنّ الجواب كان على هذه الصورة:

«سلامٌ عليك ، أمّا بعد ، فإنّ الله أمرَك بأمرٍ وأمَرَنا بأمر: أمرَكِ أن تقرّي في بيتك ، وأمرَنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة. فتركتِ ما أُمرت به وكتبتِ تنهيننا عمّا أُمرنا به. فأمرُك عندي غير مطاع ، وكتابك غير مُجاب ، والسلام».[4]

أمّا الأُمويون فلم يكونوا ليراسلوا أنصارهم جهاراً كما فعل طلحة والزبير وعائشة ، بل راحوا يكاتبون سرّاً كلّ من يرجونه في أن يعين على الإمام عليّ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نابذك: حاربك. كتاب العين: ١٩١/٨، مادة «نبذ».

(٣) تاريخ الطبري: ٤٩٢/٣.

(٤) العقد الفريد: ٦٣/٥، جمهرة رسائل العرب: ٣٧٩/١، شرح نهج البلاغة: ٦ / ٢٢٦.

ويزعزع أركان خلافته. وكأنّ في هذه المراسلة السرّية دلائل نفسيّةً تفضح حقيقة أمرهم في حكم التاريخ. فلو أنّهم خرجوا على عليّ للطلب بدم عثمان كما يزعمون ، لَمَا وافقَهم أن ينفردوا بمراسلة أنصارهم سرّاً. ولو أنّهم خرجوا على عليّ نصرةً للمثلث القرشي في خروجه على الخليفة ، لمَا نظروا في أُمورهم على حدةٍ من حيث لا يشعر الناس. لقد كانوا يعملون على توجيه الأمر ناحيتَهم وحدهم ، ويتّصلون بمن يرجون على يده نصرَتَهم وحدهم ، فكان من ثَم هذا العمل السرّي.

ففيما كان رؤساء جيش عائشة يراسلون أهل البصرة على النحو الذي أعطيناك صورةً عنه. كان ابن أبي سفيان في دمشق ينظر في أحوال الثائرين على عليّ جميعاً ، وفي أحوال الذين لم ينهضوا لمحاربته جميعاً ، فيجعل لكل من هؤلاء حساباً ، ويهيّء لكلٍّ من أُولئك مصيراً ، وينزع في الحالتين عن رغبة خالصة في أن يوهيَ الثائرون أمرَ عليٍّ فيمكنوه آنذاك ، وهو أقوى الأُمويّين من أن يتّجه بالتاريخ العربي اتّجاهاً أُمويّاً خالصاً.

راح ابن أبي سفيان يستنهض سرّاً كلّ من لم ينهض لمعارضة عليّ ، وهو يعلم أن طلحة والزبير ورؤوس المعارضة جميعاً ، لن يلبثوا أن يختلفوا ساعةَ يتمكّنون من التغلّب على ابن أبي طالب ، لأنّه يدرك الغايَة التي تجمعهم فيخلو عند ذاك الجوّ للأُمويّين ، وهو يعسوبهم. وقد كتب معاوية في ما كتب إلى سعد بن أبي وقّاص يقول:

«إنّ أحقّ الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا حقّه واختاروه على غيره. وقد نصرَه طلحة والزبير وهما شريكاك في الأمر ونظيراك في الإسلام، وخفّت له أُمّ المؤمنين. فلا تكرهنّ ما رضوا

ولا تردّنّ ما قبلوا!»[١].

فانظر إلى هذا الدهاء ، وإلى هذه المراوغة في دغدغة عواطف سعد ، أحد أصحاب الشورى الستّة الذين رشّحهم عمر بن الخطاب للخلافة، ثم إلى هذا الاحتيال في إخفاء الغاية التي يهدف إليها ابن أبي سفيان من استنهاض الناس على الإمام. غير أنّ سعد بن أبي وقّاص لم يخْفَه هذا الدهاء وهذا الاحتيال ، ولم تفتْه الغاية التي يرمي إليها معاوية بهذه الرسالة ، وهو القرشي الخبير بأحوال الأُمويين في الجاهلية والإسلام ، الواقف على أهدافهم القريبة والبعيدة ، وعلى وسائلهم المختلفة بين اللّين والشدّة ، والممالأة والتعنيف ؛ لبلوغ هذه الأهداف. ولم يفتْه كذلك أن يَجْبَهَ معاوية بما لم يكن ينتظره من تعظيم شأن عليّ ، وإيثاره على مَن عاداه ، والتصريح بأنّ عليّاً فيه من الفضائل والمزايا ما ليس في خصومه والموالين له جميعاً. فكتب إليه بذلك ، وزاد خبراً بأنّه أدرى الناس برغبة معاوية في تأليب الناس على ابن أبي طالب كي يصير الأمر له، ولكن الأمر لن يصير له ، لأن الخلافة لا تحلّ لمثله ، وقد رأى عمربن الخطاب قبله هذا الرأيَ فما أدخله في أصحاب الشورى. قال سعد في جوابه:

«وأمّا بعد ، فإن عمر لم يُدخل في الشورى إلّا مَن تحلّ له الخلافة ، فلم يكن أحدٌ منا أحقّ بها من صاحبه إلّا باجتماعنا عليه، غير أنّ عليّاً قد كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه. وأمّا طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيراً لهما. والله يغفر لأُمّ المؤمنين!»[٢]. وفي هذا الجواب أيضاً رأيُ سعد في أصحاب

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٨٧ ، وقعة صفين: ص٧٤، الإمامة والسياسة: ١ / ١٢٠ ، جواهر المطالب: ٢ / ٣٦، النصائح الكافية لابن عقيل: ص٣٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٨٧ ، وقعة صفين: ص٧٥.

الفتنة المؤلّبين على عليّ!

من هذه الرسائل وهذه الأجوبة التي تبودلت بين أصحاب الجمل وأهل البصرة ، وبين الموالين لأهل الجمل في بعض الأمصار وغير الموالين ، يتبيّن لنا نظرُ أبناء ذلك العصر إلى أسباب الفتنة الحقيقية من جهة ، وإلى شخصية الإمام عليّ من جهة ثانية ،كما تتبيّن لنا صورٌ من العطف الشديد ؛ يوليه ذوو النيّات السليمة ابنَ أبي طالب ويحيطون به نظرَهُ الحقّ وقولَه الحقّ! ويتبيّن لنا كذلك أمرٌ ذو بال ، وهو: أنّ أنصار عليّ لا يألون جهداً في أن ينصحوا لأصحاب الجمل بالكفّ عن الفتنة ، وفي أن يدعوهم لأن يلزموا العافية ويتدبّروا بالتي هي أحسن ، فكأنّهم ينزعون جميعاً عن جنان الإمام[1] وعن لسانه ؛ وقد علّمهم كثيراً بالسيرة وبالقول أنّ الفتنة من عمل الشيطان وأنّ السلم أولى. وكأنّهم يصدرون جميعاً عمّا يرونه حقّاً في موقف الإمام من شؤون زمانه قبل الولاية وبعدها! فماذا يأخذ هؤلاء القوم على الإمام وما استوت له قدمٌ بعد؟ ماذا يأخذون عليه وقد بدأوه العداء الشديد ، وألّبوا عليه الجماعات منذ اللحظة التي بلغهم فيها نبأ استخلافه؟ ماذا يأخذون عليه وهم لا يثبتون لحجّته لو أنّهم أخذوا المنطقَ دليلاً ومُشيراً؟ ماذا يأخذون عليه في مقتل عثمان وهم قاتِلوه؟

إنّ هذه الأسئلة تطوف أبداً في رسائل ذوي النوايا السليمة إلى أصحاب الجمل. وهي تطوف كذلك على ألسنة وفود البصرة إليهم. فإنّ جيش عائشة ما كان ينزل بجوار البصرة ، وإنّ رسائلها ورسائل طلحة والزبير ماكادت تتزاحم في طريقها إلى البصريين ؛ حتى خفّ عاملها عثمان بن حنيف إلى أبي الأسود

---

(١) جَنان الإمام: قلب الإمام. المنجد: ١٠٢، مادة «جنّ».

الدؤلي وعمران بن حصين يرسلهما إلى عائشة ، فينظران في ما أخرجـهما على الإمام عليّ وينصحان لها بالخروج عمّا هي سائرة فيه. ثم أرسل وفـوداً أُخرى إلى طلحة والزبير.

غير أنّ المثلّث القُرشي لم يقل إلّا بمقالته الأُولى. وأبوا إلّا دخول البصرة عنوة ، فأبى عثمان بن حنيف عليهم ذلك ، فعبّأ الناس وألبسهم السلاح ، ثم خرج على رأس من أراد الخروج معه إلى مـحلة المِـربَد حـيث كـان جـيش عائشة عندذاك. فتكلّم طلحة وتكلّم الزبير ، فقال مَن هم في صفّهما: «صَدَقا وَبرّا وقالا الحقّ وأمرا بالحق!» فأجابهم مَن هم في صفّ بن حـنيف «فَـجَرَا وغَدَرَا وقالا الباطل وأمَرَا به ، قد بايَعَا ثم جاءا يقولان ما يقولان!». وتراشق الفريقان بالقول ثم تحاصبوا(١). فماكان من عائشة إلّا أن خـطبت الفـريقين تقول:

«كان الناس يتجنّون على عـثمان ، ويُـزرون عـلى عـمّاله ، ويأتـوننا بالمدينة ليستشيروننا ، فننظر في ذلك فنجده بريئاً نقيّاً وفيّاً ، ونجدهم فَجَرَة كَذَبَة ، يحاولون غير ما يُظهرون. فلمّا قووا على المكاثرة كاثروه ، فاقتحموا عليه داره ، واستحلّوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا عذر!»(٢).

وقاطعها أهل البصرة بالتذمّر والجـلبة ، فـصاحت بـهم: «اسكـتوا أيّـها الناس»!. ولمّا سكت الناس تابعتْ تقول:

«إنّ أمير المؤمنين عثمان كان قد غيّر وبدّل ، ثـم لم يـزل يـغسل ذلك بالتوبة حتّى قُتل مظلوماً تائباً. قتلوه محرماً ، ذبْحاً كما يذبَح الجـمل. ألَا وإنَ قريشاً رمتْ غرضَها بنبالها ، وأدمتْ أفواهَها بأيديها ، وما نالت بقتلها إيّـاه

(١) تحاصبوا: رمى كلّ فريق الفريق الآخر بالحصباء. النهاية في غريب الحديث: ٣٧٩/١، مادة «حصب».
(٢) تاريخ الطبري: ٤٨١/٣ .

شيئاً ولا سلكتْ به سبيلاً قاصداً. أمَا واللهِ ليرونها بلايا عقيمة تُنبّه النائمَ وتُقيم الجالس ، وليُسلطنّ عليهم قومٌ لا يرحمونهم ، يسومونهم سوء العذاب!

ألّا إنّ عثمان قُتل مظلوماً فاطلبوا قَتَلَته ، فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم ، ثمّ اجعلوا الأمرَ شُورى بين الرّهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر ، ولا يدخل فيهم مَن شرك في دم عثمان.

وفي هذه الخطبة تقول: «وبايعتم عليّ بن أبي طالب بغير مشورة من الجماعة ، ابتزازاً وغصباً!»(١).

وهكذا راحت عائشة تحرّض الجموع المحتشدة على قتل عليّ. فهي ترىٰ أنّ مبايعة الناس إيّاه «بغير مشورة الجماعة» ليست إلّا ابتزازاً وغصباً ، وأنّ عليّاً شرك في دم عثمان فلابدّ أن يُقتل ، وهو على كلّ حال لا يجوز له أن يدخل ـ من جديد ـ في أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر ، لشركه في دم عثمان.

وهال أمرها كثيراً من السامعين. فتصدّى لها بالسؤال المحرج قومٌ كثير بينهم الأحنف بن قيس ، وبينهم جارية بن قدامة السعدي الذي أقبل عليها بعد أن أنهت خطبتها قائلاً لها:

«يا أُمّ المؤمنين! واللهِ لقتْلُ عثمان بن عفان أهوَن من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضةً للسلاح! إنه قد كان لك من الله سترٌ وحرمة ؛ فهتكتِ سترك وأبحتِ حرمتك: إنّه مَن رأى قتالك فإنّه يرى قتلك. إن كنت أتيتنا طائعةً فارجعي إلى منزلك ، وإن كنتِ مستكرهةً فاستعيني بالناس!»(٢).

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٩ / ٣١٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٨٢ ، تاريخ ابن خلدون ، القسم الثاني: ٢ / ١٥٦.

وتصدّى كذلك قومٌ كثير لطلحة والزبير فأحرجوهما. وكان حوار طويل لم ينتهِ إلّا ليزيد المعارضين الثلاثة غيظاً وميلاً إلى القتال.

وكانت عائشة هي القائدة العليا للجيش الذي تقدّمته وهي راكبة جملاً أُعطِي اسمه للموقعة فيما بعد،كانت هي التي تصدّر الأوامر ، وتعيّن القادة الثانويين ، وتوجّه الرّسُل بكتبها إلى هذاوذاك ؛ ممّن تبغي عندهم أن يناصروها على عليّ ،كما مرّ معنا. وكانت كتبها إلى هؤلاء مصدّرة بالعبارة التالية: «من عائشة ابنة أبي بكر ، أُم المؤمنين ، حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى ابنها الخالص فلان: أمّا بعد ، فإن أتاك كتابي هذا فأقدم فانصرنا ، فإن لم تفعل فخذّل الناس عن عليّ!»[1]. ولبّاها قومٌ كثير. وأحجم عن تلبيتها قومٌ كثير.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٩٢.

اللهمّ اشهَد!

ـ اقتلوه ـ تريد ابنَ حنيف ـ![1]

عائشة

ـ ألاَ ألف فارسٍ أسيرُ بهم إلى عليّ لعلّي أقتله قبل أن يصل إلينا![2]

الزبير

ـ دعوتُكم لتشهدوا معنا إخوانَنا ، فإنْ يرجعوا فذاك ما نريد ، وإنْ يلجّوا داويناهم بالرّفق![3]

عليّ

ـ أتريد أنْ تقتلني يا أبا اليقظان؟!

الزبير

ـ لا يا أبا عبدَ الله[4]

عمّار

ـ وحمَل عليٌّ على الفئة الباغية كأنّه مارجٌ من نار.

دخل جيش عائشة البصرة في ليلةٍ باردة وقتلوا قوماً من البصريّين في المسجد. دخلوا دار عثمان بن حنيف عامل عليّ على البصرة فأساؤوا إليه وحقّروه وضربوه وأمعنوا في الإساءة والتحقير والضرب. واستاء طلحة والزبير ممّا فعله الجيش بابن حنيف وهو من أصحاب محمد ، فأخبرا عائشة

---

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٨٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٤ / ١٤، تاريخ الطبري: ٣ / ٤٩١.

(٣) تاريخ الطبري: ٣ / ٥٠٢.

(٤) البداية والنهاية: ٧ / ٢٦٧.

بما ساءهما ، فما كان منها إلّا أنْ أمرتْ به تقول: «اقتلوه!» فاستعظمتْ إحدى النساء هذا الأمر وقالت لعائشة: «نشدتُك الله يا اُم المؤمنين في عثمان بن حنيف وصحبته لرسول الله! فبدّلتْ عائشة أمرها، قائلة: «احبسوه ولا تقتلوه». وأمر أحدُ الرؤساء في جيش عائشة قائلاً: «اضربوه وانتفوا شعر لحيته»(١) فضربوه ضرباً موجعاً كثيراً ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه ثم حبسوه!

وفي جماعةٍ من الصفّين عاد طلحة والزبير من جديدٍ إلى الكلام تأليباً على عليّ. وفيما كان الزّبير يتكلّم نهض له رجلٌ من عبد القيس فأسكتَ الزبير وخاطب المهاجرين من أصحاب الجمل بقولٍ أراد فيه إلقاء التبعة عليهم في اختيار عثمان، ثم في إنكارهم عليه أشياء ، ثم في قتله. وسألهم بعد ذلك ما الذي نقموه على عليّ فيقاتله إلى جانبهم هل استأثر عليٌّ بفَيء؟ أو عمل بغير الحقّ؟ أو عمل شيئاً ينكرونه فيكون هو وأهل البصرة معهم عليه؟ وختم الرجل العبدي كلامه الحقّ بقوله: «وإلّا فما هذا؟» فهَمّ أصحاب الجمل بقتله فنهضت لهم عشيرتُه ، فاقتتلوا ، ففتكَ أصحابُ الجمل بسبعين رجلاً من عبد القيس ، واستولوا على بيت المال وأرزاق المدينة ؛ وقسّم الزبير وابنه عبد الله الرزق على أصحابهما.

وكان أشدّ الناس جزعاً لهذه الأعمال حكيم بن جبلة وهو موالٍ لعليّ ، فجمع أنصاراً كثيرين وقاتَل بهم أصحابَ الجمل وهو يقول في طلحة والزبير: «إنّا خلّفنا هذين الرجلين وقد بايعا عليّاً وأعطيَاه الطاعة ، ثم أقبلا مخالفين محاربين يطلبان بدم عثمان، ففرّقا بيننا ونحن أهل دارٍ وجوار. اللهمّ إنهما لم

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٨٥.

يريدا عثمان!»[١].

وقُتل حكيم وابنه وأخوه. ثمّ أمر طلحة والزبير بعدد هائل ممّن غزا المدينةَ من قبائل البصرة ؛ فقُتلوا قتلاً مريعاً.

وأقام أهل الجمل بالبصرة وقد صار أمرها إليه. وبايع أهل البصرة مختارين أو مكرَهين ، لطلحة والزبير. وعاش الجميع في نشوةٍ من استيلائهم على البصرة ، فلمّا بويع لطلحة والزبير قال الزبير: «ألا ألف فارس أسير بهم إلى عليّ ، لَعَلّي أقتله قبل أن يصل إلينا!»[٢].

وكتبت عائشة إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكانت حفصة بالمدينة ، تبشّرها بهذا النصر وتتحدّث عمّا تراه من أمر عليّ وعمّا هو صائر إليه: «أمّا بعد ،فأخبرك أنّ علياً نزل ذا قار ، وأقام بها مرعوباً خائفاً لِما بلغه من عدّتنا وجماعتنا. فهو بمنزلة الأشقر ، إن تقدم عُقر ، وإنْ تأخّر نُحِر!»[٣].

واستخدم الزبير وطلحة ضدّ عليٍّ أسلوبَ الدعاية الذي تلجأ إليه المؤسّساتُ الحديثة ؛كما لجأتْ إليه المؤسّسات القديمة. وقِوامُ الدعاية أنْ يُظهَر الشيء المدعو له كما يريده الداعي أنْ يظهر. فإنْ كان باطلاً أظهرَه حقّاً ، وإنْ كان شرّاً أظهرَه خيراً ؛ وإن كان لا شيء أظهره شيئاً كثيراً. وأشدّ الأُمور حاجةً للدعاية ، الأُمورُ الكاذبة لحاجتها إلى الطلاء والتمويه. وأكثرُ الرجال عوزاً إلى الدعاية ، المُبْطلون والمستنفعون بالبُطْل ، والذين لا قيمة حقيقيّة لِما يفعلون ؛ والذين ينساهم الناس حالَ انتهاء الدعاية لهم. ذلك لأنّ الطبيعة لا تقبل غشّاً والحياة لا تستقيم بالخداعِ ، والزمانُ لا يهضم إلّا الحقّ والحقّ أكبر!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٨٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٩١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٤ / ١٣ ، جواهر المطالب: ١ / ٣٢٤.

ومن الدعاية التي استخدمها الرجلان ضدّ عليّ تأليباً للبصريّين عليه ما نقلَه ابنُ أبي الحديد عن المدائني والواقدي من أنّ طلحة والزبير قاما في الناس فقالا: إنّ عليّ بن أبي طالب إنْ يظفر فهو فَناكم يا أهل البصرة! فاحموا حقيقتكم فإنّه لا يُبقي حرمةً إلّا انتهكَها، ولا حريماً إلّا هتكَه ولا ذرّيةً إلّا قتَلَها ، ولا ذواتِ خدرٍ إلّا سَباهنّ! فقاتِلوا مقاتَلَةَ مَن يحمي عن حريمه ويختار الموتَ على الفضيحة يراها في أهله![1].

* * *

إزاء هذا التحدّي السافر وهذه الحملة المنظّمة ، وقف عليٌّ يترقّب ما يكون من أمر عائشة وطلحة والزبير وجيشهم لعلّ الرغبة عن القتال تعود إلى قلوب هؤلاء الذين خرجوا عليهم وحجّتهم في الفتنة أوهى من خيط العنكبوت. ولعلّهم يدركون أنّ في هذا القتال الذي يبادرون إليه مأساة الخلافة، وخيبة الشعب الذي علّقَ الآمال العِظام على عدالة عليّ وزهده واستقامته وتقواه!

وراح يبعث بالكتب ويرسل السفراء من الربذة إلى الكوفة يستنفر أهلها على أصحاب الجمل، إلّا إذا نهجوا غير هذا النهج. فقعد عاملُه عليها أبو موسى الأشعري عن نصرته، بل طفق يثبّط همّةَ الناس عن اللحاق به. فعزَلَه عليّ عن الولاية في الحال. أمّا قبائل عبد القيس فكانت قد خرجت من البصرة بعد أن احتلّها أصحابُ الجمل، وأَقامت في مكانٍ بين ذي قار والبصرة تنتظر قدوم عليّ لتنضمّ إليه. ونهض من الكوفة للسير تحت لواء ابن أبي طالب تسعة آلاف مقاتل. فلمّا وافوه إلى ذي قار خطبَهم طويلاً، ثم قال:

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١ / ٢٥٦.

«يا أهل الكوفة! دعوتكم لتشهدوا معنا إخوانَنا من أهل البصرة: فإنْ يرجعوا فذاك ما نريد، وإنْ يلجّوا داوَيْناهم وبايَنّاهم حتى يبدأونا بظلم. ولن ندع أمراً فيه صلاح إلّا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله!»[1].

وإني لأسألك، وأُريدك أن تتساءَل معي: أي فرق بين هؤلاء المتخاصمين تلقاه ممّا أظهرناه لك من موقفِ كلٍّ منهم منذ دخول أصحاب الجمل البصرة حتى خطبة الإمام هذه؟ قد يكون لكلٍّ منهم عذرٌ يرتضيه لنفسه في ما أقدم عليه من عملٍ وقول. فللحوادث منطقها الخاصّ، ولمواقف الرجال من هذه الحوادث منطقٌ خاصٌ كذلك، تفرضه أحوالٌ وشؤون لا يمكن حصْرها في واحدة، وقد يكون ما استتر منها أشدّ توجيهاً للرجال مما ظهر.

بيد أنّ للإنسانية الخالصة مقاييسها التي لا ترضى عنها بديلاً. وبهذه المقاييس تحكم للرجال أو تحكم عليهم. وهي وحدها القولُ الفصلُ في قيمة العمل والقول والهوى. وهي وحدها الميزان الأبدي لما يتصارع في النفوس من معاني الجمال والقبح. ولو لم تكن هذه المقاييس لَما كان لإرادة الخير من معنى، ولَما كان لتربية القلوب على الأخلاق العظيمة من قيمة، ولفَقَدتِ الرسالات الإنسانية الكبرى كلّ هدفٍ عظيم ترمي إليه، وهي القائمة على ثورات تعصف بإرادة الشرّ، وتضع أُسُساً وأَركاناً لبناء الخير والحقّ، إستناداً إلى هذه المقاييس.

لولا هذه المقاييس لاختلط شرّ الحياة بخيرها، وضاع حقّها بباطلها. وقد يقسو منطقها أشد قسوة، وقد يثقل على بعض النفوس أكثر ما يمكنه أن يثقل. ففيما يُصعّب عليك الصعودَ تراه يسهّل عليك البقاء حيث أنت. والناس

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٥٠٢، البداية والنهاية لإبن الأثير: ٧ / ٢٦٤، تاريخ ابن خلدون: ٢ / ١٦٠، ق ٢.

في معظمهم يؤثرون البقاء السهل على الصعود الصعب، ومن ثَمَّ كان الصاعدون قليلا!

قلنا: لكلٍّ من هؤلاء المتخاصمين عذراً يرتضيه لنفسه في ما أقدم عليه من عمل وقول، وإنّ لهم في مواقفهم من الحوادث منطقاً خاصّاً. بَيْدَ أنّ المقاييس الإنسانية الثابتة هي التي تحدّد القيمة الحقيقية لهذا العذر وهذا المنطق. وهي التي تشير إلى هذا الفرق بين عليّ ومخاصميه في موقفين متباينين تجاهَ قضية واحدة.

فهناك جماعة اتّهموا رجلاً بما حقّ أن يتّهموا به أنفسهم وهو منه براء، ثم خرجوا عليه بهذا الاتّهام ومن حقهم أن يطيعوه، وألّبوا الناس عليه وكانوا قد دخلوا في طاعته، وأقبلوا بهم إلى إحدى عواصمه، فأهانوا عامله عليها ونتفوا لحيته وضربوه وحبسوه وأخرجوه، ونكّلوا بأنصاره ومحبّيه وقتلوهم شرّ قتلة وهم لا مأخذَ لهم على هؤلاء القتلى ولا على إمامهم الغائب، وقسّموا الأرزاق على ذويهم وهي من حقّ الجماعة دون تمييز وتفريق. ثم ماكادوا يصنعون ما صنعوا حتى تمنّوا ألف فارس يريدون أنْ يهاجموا بهم الرجل فيقتلوه.

وهنا إمامٌ بايَعه الناس فأبى عليهم وأبَوا عليه، ثم ازدحموا عليه وهم يقولون: لا نجد غيرك ولا نرضى إلّا بك، فبايِعْنا لا نفترق ولا نختلف. فبايَعهم ودعَوا إلى بيعته، فمَن بايع طائعاً قَبِل منه ومَن أبى تَرَكه. ثم ما لبث أن رأى نفراً منهم يحرّضون الجماعات عليه، ويشتّتون كلمةَ أنصاره ويُفسدون عليه جماعَته ظلماً، ويقومون على عمّاله وخزّان بيوت أمواله، ويثبون على شيعته فيقتلون طائفة غدراً -كما يقول - وطائفة صبرا، ثم يتربّصون به ليخلعوه ويقتلوه جوراً وعدواناً فيبلغه ذلك، فلا يضمر لظالميه انتقاماً، ولا يبيّت حقداً،

ولا تأخذه الجفوة التي تأخذ المظلوم من ظالميه، بل يجمع قومَه ويخطبهم قائلاً هذا القول الذي ينبثق عن إنسانية لا تسمو عليها إنسانيةُ الأنبياء في كثيرٍ أو قليل: «**يا أهل الكوفة! دعوتُكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة**».

ولم يكتفِ عليّ بهذا المقدار من كرم المبادرة، بل راح يغفر للقوم ما وسعتِ الإنسان الطاقةُ على أن يغفر. فأرسل إلى طلحة والزبير بالبصرة سفيراً يسألهما الكفّ عن العدوان والتعاون في سبيل الخير والعافية. ثم أرسل سفراء آخرين يدعونهما وعائشة إلى الأُلفة والجماعة.

وإليك هذا الخبر الذي يدلّك على نظرة عليٍّ إلى مخاصميه هؤلاء، وإلى نفسه فيما يتعلّق بشؤون الخلافة:

لمّا قرب عليّ من البصرة، أرسل قوم من أهلها بعض العرب واسمه كليب الجرمي، ليعلم لهم من الإمام حقيقة حاله من أصحاب الجمل، لتزول الشبهةُ من نفوسهم. فبَيّن له الإمام من أمره معهم ما علِم به أنّه على الحقّ، ثم قال له: **بايعْ!** فقال الرجل: إني رسول قوْم ولا أُحْدِث حدَثاً حتى أرجع إليهم. فقال الإمام بمنطقه المحكم: **أرأيتَ لو أنّ الذين وراءَك بعثوك رائداً تبتغي لهم مساقطَ الغيث، فرجعتَ إليهم وأخبرتهم من الكلأ والماء، فخافوا إلى المعاطش والمجادب**[1] **ما كنتَ صانعاً؟** قال الرجل: كنتُ تاركهم ومخالفهم إلى الكلأ والماء! فقال الإمام: **فامددْ إذاً يدك!** فقال الرجل: «فوالله ما استطعتْ أن أمتنع عند قيام الحجّة عليّ، فبايعته عليه السلام»[2].

---

(١) مساقط الغيث: الأمكنة التي تسقط فيها الأمطار. المعاطش: أمكنة العطش. المجادب: أمكنة الجدب، وهو القحط والمحل. النهاية في غريب الحديث: ١/٢٣٥، مادة «جدب».

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٧٠ - ١.

ولمّا جمحت[١] النفوس في جيشه يريدون معالجةَ أصحاب الجمل خطبَهم عليّ، قائلاً: **«يا أيّها الناس! املكوا أنفسكم،وكفّوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم فإنّهم إخوانكم، واصبروا على ما يأتيكم. وإيّاكم أن تسبقونا فإن المخصوم غداً من خصَم اليوم!»**[٢].

وظلّ عليّ ينزع إلى السلم على هذا الأُسلوب. وبهذه الرغبة سار على رأس جيش عُدتُه عشرون ألفاً إلى البصرة لمواجهة القوم، وحملهم على الأُلفة. ولبثتْ أحاسيسُ الخير في نفسه تدفعه إلى تجنّب القتال حتى ساعة التقى الجيشان أوكادا يلتقيان، وقد استحال أمرُ المصالحة، فخرج إلى طلحة والزبير حاسراً لا يحتمي بدرعٍ ولا سلاح تدليلاً على نوايا السلم والخير التي يضمر. ونادى: يا زبير! أُخرجْ إليّ فخرج الزبير إليه مدججاً بالسلاح. وسمعت عائشة فصاحت: واحرباه! وذلك لم يخالجها[٣] شكّ في أنّ الزبير لا محالة مقتول، فخصم عليّ مقضيّ عليه بالموت إذا نازله مهماكان حظّه من الشجاعة عظيماً. ولشدّ ما دهشت عائشة ومن حولها وهم يرون إلى عليّ يعانق الزبير!

عانَقه طويلاً لأن أسباب المودّة لا تنطقع في القلب الكبير!

وعاد عليّ يسأل الزبير بلهجة الصداقة والإخاء: ويحك يا زبير! ما الذي أخرجك؟ قال: دم عثمان، قال عليّ: **«قَتَلَ الله أولانا بدم عثمان»**[٤].

كلّ هذا وعليّ يعلم من أمر الزبير وصاحبه طلحة ما يعلمان من حالهما وما يعلمه عبد الله بن عباس، الذي كان قد جاءه بعد استخلافه، يشير عليه أن

(١) جمحت: أسرعت. ومنه قوله تعالى: يجمحون. النهاية في غريب الحديث: ٢٨١/١، مادة «جمح».
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٠٩، الفتنة ووقعة الجمل، لسيف بن عمر: ١٥١.
(٣) يخالجها: يخامرها، يشك فيها. المنجد: ١٩١، مادة «خلج».
(٤) جواهر المطالب: لابن الدمشقي: ٢/ ٣١، النصائح الكافية لابن عقيل: ٤٨.

يكتب لطلحة بولاية البصرة، ولابن الزبير بولاية الكوفة، ولمعاوية بإقراره في ولاية الشام؛ حتى تسكن القلوب ويهدأ غضب قاتلي عثمان وحاملي قميصه.

كلّ هذا وعليّ ما يزال في مسمعيه قولُ طلحة وقولُ الزبير له بعد استخلافه: نبايعك على أنّا شركاؤك في هذا الأمر(١).

فأيّ دم هذا الذي يطلبان، إنْ لم يكن الحيلة والوسيلة؟

وقبل أنّ يلتقي الجيشان وجهاً لوجه أمر عليّ أصحابه أن يصطفّوا. ففعلوا فقال لهم: «**لا ترموا بسهم، ولا تطعنوا برمح، ولا تضربوا بسيف، واعذروا**»**!** وما هي إلا دقائق حتى رمى رجلٌ من عسكر القوم بسهم فقتل رجلاً من أصحاب عليّ: فصاح عليّ: «**اللهم اشهدْ**» ثم أُصيب رجلٌ آخرً فقُتل، فقال عليّ: «**اللهم اشهدْ**» وأُصيب عبد الله بن بديل فأتى به أخوه يحمله فقال عليّ: «**اللهم اشهد!**» ثم كانت الحرب(٢).

حمل عليّ على الفئة الباغية وكأنّه مارجٌ من نار، فأزاح جيش قريش من أماكنه وزعزع أركانه وصدّع صفوفه. فانهزم الرجالة وكان عليهم الزبير، فالتقاه أصحاب عليّ فأفرجوا له ولم يقتلوه. وحمل عليه عمّار بن ياسر حملةَ شديدة، فلمّا أصبح تحت رحمة عمّار، قال: «أتريد أن تقتلني يا أبا اليقظان**!**» فابتعد عمّار عنه وهو يقول: «لا يا أبا عبد الله**!**». وأنّ موقف عمّار هذا من الزبير لأشبه بموقف أُستاذه عليّ من عمرو بن العاص في معركة صفّين المقبلة، ذلك لأنّ المدرسة الإنسانية المثالية التي يتزعمها عليّ إنّما تُعجَن فيها النفوس عجناً، وتُصهَر فيها الأخلاق صهراً، وتُحتَرم فيها الحياة وتُقدّس؛ حتى في مواقع القتال التي تهون فيها الحياة على القاتل والمقتول معاً. فلقد عزّ على عمّار بن ياسر ألّا يستجيب لنداء الحياة في شخص خصمه الزبير وهو تحت

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار، رقم: ٢٠٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٩/ ١١١.

سيفه، كما سيعزّ على ابن أبي طالب مثْلُ هذا النداء في شخص خصمه عمرو بن العاص، فإذا بعمّار يرفع عن الزبير سيفه ويجيبه بهذه البساطة العظيمة: «لا يا أبا عبد الله»(١)!

واعتزل الزبير القتالَ منحازاً إلى مكانٍ يدعى وادي السباع. وكان في نيّته اعتزال القتال قبل وقوعه على ما يذكر بعض الروّاة، وذلك على أثر ما استيقظ في نفسه من شعورٍ بالإنصاف بعد أنْ دعاه عليٌّ إليه، وعانَقه، وذكّرَه المودّات القديمة، وسألَه عمّا يريد بهذا القتال. ولكنّ عائشة وابنه عبد الله عيّراه هذه الرغبة في الاعتزال، فاضطرّ إلى البقاء في المعركة، حتى كان من أمره مع عمّار ماكان، وخلّى الناس منحازاً إلى وادي السباع!

كانت عائشة تعمل على إلهاب نار الحماسة والانتقام في صدور عسكرها، وكان عددهم قد بلغ ثلاثين ألفاً إذذاك، على صورةٍ عنيفة. وجعلت تخاطب قوّاد القبائل والعشائر الموالية لها واحداً واحدا، وتمتدح شجاعتهم وبأسهم، وتُذكي في نفوسهم حبّ القتال؛ حتى غدا جيشها جحيماً ناره الحماسة والاندفاع.

وكان لواء عائشة يخفق على خطام جملها يحمله اللاحقُ من أفراد جيشها بعد أن يُقتَل السابق وكلّهم من قريش. واستبسل جيشها كما استبسل جيش عليّ؛ حتى كانت المعركة رهيبةً مخيفة. وكان للشعر نصيبٌ عظيم في إذكاء نار الحماسة في المعسكرين وفي تصوير أفكار الفريقين في هذا القتال. وتُروى في ذلك رواياتٌ منها ما يذكر أنّه إذا قال من جيش عائشة قائلٌ:

يا أُمّنا! يا زوجةَ النبي!
يا زوجةَ المبارك المهديّ!

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٢٦٧، صحيح الترمذي: ٥/ ٦٦٩، مناقب عمار، الحاكم في المستدرك: ٣/ ٣٨٩.

نـــحن بـــنو ضـــبّةَ، لا نـــفرُّ
حـــتى نـــرى جـــماجماً تـخرّ

سمع من جيش عليّ من يناجزه قائلاً:

يـــــا أُمّـــنا! أعـــقّ أُمّ نـــعلمُ
والأُمّ تـــغذو ولداً، وتـــرحـــمُ
أَمَـــا تـرين كـم شـجاعٍ يُكـلّمُ
وتـــختلي مـــنه يـدٌ ومـعصمُ[1]

وإذا استبسل محاربٌ أزديّ من جيش عائشة وتقدّم ليمسك خطام جملها بعد أن قُتل زميله، داس في طريقه جثّةَ صريع من جيش عليّ وهو يقول:

أســـامعٌ أنتَ! مـــطيعٌ لعـــلي
مـن قـبل أن تـذوق حـدّ المشـرفي
وخـاذلٌ فـي الحقّ أزواجَ النبي!

ثم خلص بعد ذلك إلى عائشة، هاتفاً:

يـا أمّـنا، يـا عَـيْشَ، لا تـراعـي!
والأَزْدُ فـــيها كـــرَمُ الطـــباع!

تَلقّاه من أصحاب عليّ مَن جَندَلَه وهو يرتجز:

جـرّدتُ سـيفي فـي رجـال الأَزْدِ
أضـــربُ، فـي كـهولهم والمُـرْد
كـل طـويلِ السـاعدين، نـهد[2]

(١) شرح نهج البلاغة: ١/٢٦٤، تاريخ الطبري: ٣/ ٥٢٦، البداية والنهاية: ٧/ ٢٧١.
(٢) الفتنة ووقعة الجمل لسيف عمر: ص ١٦٠، تاريخ الطبري: ٣/ ٥٢٥.

ومن الشعر الكثير الذي قيل في هذه الموقعة ما يُظهر جانباً من رأي المقاتلين في عثمان وعهده. فهذا رجلٌ من أصحاب عليّ يدخل المعركة وهو يرتجز معرّضاً بحكم عثمان:

لَحُكْمُهُ حكمُ الطواغيتِ الأُوَلْ
آثَرَ بالفَيْءِ وجافى في العملْ
فأبدلَ اللهُ به خيرَ بَدَلْ(١)

ومن هذا الشعر أيضاً ما يدلّ على تأثر البصريّين بحملة الدعاية التي قام بها طلحة والزبير ضدّ علي، إذ قالا: إن ابن أبي طالب سينتهك الحرمات إن دخل البصرة، ثم طلبا إلى أهلها أن يختاروا الموت على الفضيحة يرونها في أهلهم.

ومن أخبار الراجزين في هذه الموقعة: أنّ محارباً من أصحاب الجمل راح يقول:

إنْ فاتَنا اليومَ عليٌّ، فالغَبَنْ
أو فاتَنا ابناهُ الحسينُ والحسنْ
إذاً أمُتْ بطولِ همٍّ وحَزَنْ

ثم تقدّم فضرب بسيفه فقُتل. وانبرى صنديدٌ آخر فقال:

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٥٤، شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٨٥.

أضـــــربُهم ولا أرى أبـا الحسَـنْ
هـا إنّ هـذا حَـزنٌ مِـن الحـزَنْ(١)

فشدّ عليه عليّ بالرّمح فطعنه وقال: قد رأيت أبا الحسن، فكيف رأيته**!** ولعلّ أجمل ما تركته هذه الموقعة من أراجيز واحدةٌ للأشتر النخعي أحد قوّاد في الجمل وصفّين وعامله على مصر:

إنـي إذا مـا الحـربُ أبـدتْ نـابها
وأغـلقتُ يـومَ الوغـى أبـوابَـها
ومـــزّقتْ مـــن حـــنَقٍ ثـيابَها
كـــنّا قُـــدامـــاها ولا أذنـابَها
ليس العـــدوّ دونـــنا أصـــحابَها
مَـــن هـابَها اليـومَ فـلن أهـابَها
لا طـعْنَها أخشـى ولا ضِـرابَـها(٢)

وكثر القتلى حتى ملأوا الأرض، فهال الأمرُ عليّاً فلجأ إلى خطّة يُنقذ بها من بقي حيّاً من الفريقين، فأمَر بأن يُعقر جملُ عائشة، فعُقر**!** وانهزم جيش المثلّث القرشي، وصُرع طلحة والزبير. أما مصرع الزبير ففيه رواياتٌ كثيرة، منها: أنّ عمرو بن جرموز لحق به إلى وادي السباع فطعنه من خلفه فقتله. فلمّا بلغ الخبر عليّاً حزن كثيراً ولعن قاتله. وأمّا طلحة، فقدكان مروان بن الحكم – وهو حليفه على عليّ – صاحب دمه إذ راشه بسهمٍ فقتله وهو يقول: «لا أنتظر

(١) أنساب الأشراف: ٣٧٣ ترجمة الإمام علي. شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٥٦.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٦٠.

بعد اليوم بثأري من عثمان»[١]. ومن عرف نفس مروان وأخباره أدرك أنّه بعمله هذا إنّما ينفّذ فصلاً من المشروع الأُمويّ العامّ، الذي يرمي إلى التخلّص من كل مَن له مطمعٌ إلى الخلافة؛ كي يخلو لأُمية وجهُ الأرض! وأمّا مروان هذا فقد وقع في قبضة عليّ فرجاه أن يعفو عنه، فعفا.

وانكشف القتال عن مشهدٍ مريعٍ حقّاً: سبعة عشر ألف قتيل من أصحاب الجمل طُرحوا في عراء الأرض وألفٌ وسبعون من أصحاب عليّ؛ ولا ذنب لهم جميعاً إلا أطماع بعض المحرّضين على الإمام وحاول بعض أصحاب عليّ أن يقضوا على عائشة، فماكان منه إلّا أن أسرع إلى إنقاذها، ونادى في جيشه يقول: «**لا يُجهَزُ على جريح، ولا يُتبعَ مُولٍّ، ولا يُطعنَ في وجه مُدبْر، ومن ألقى السلاحَ فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن!**»[٢].

أَوَرأيتَ في تاريخ القتال، في كلّ عصرٍ وفي كلّ بلد، موقفاً لرجل أعظمَ وأنبلَ من هذا الموقف لابن أبي طالب؟!

ووقف عليّ بعد انتصاره ينظر إلى جثث القتلى التي تغطّي الأرض!

وعصر الحزن قلبه لهول المأساة التي حاول أن يتلافى وقوعها لما أفلح!

ودمعت عيناه! وأشاح بوجهه عن المشهد المريع، وهو يقول: «**اللهم اغفر لنا ولهم! إنما إخواننا بغَوا علينا!**»[٣].

وراح في صلاةٍ صادقة على القتلى من الفريقين!

وأعاد عليّ عائشة مكرّمةً إلى المدينة على نحو ما تقدم معنا في مكان سابق من هذا الكتاب.

---

(١) جواهر المطالب لابن الدمشقي: ٢/ ١٧ وفيه: ما أنتظر بعد اليوم بثأري في عثمان. مصنف ابن أبي شيبة: رقم ١٠٦٢٦.

(٢) أمالي المفيد: ص ٢٦، تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٨٣.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي: ٨/ ١٧٣ و١٨٢، النصائح الكافي: ٥٠.

مُعَاوية وابْن العَاص

ـ فدع عنك قريشاً فإنّهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله قبلي[1].

عليّ

ـ ولئن كان ما بلَغني عنك حقّاً، لجَمَل أهلِك وشِسعُ نعلِك خيرٌ منك[2].

عليّ

ـ قرأت كتابَ المتحابّين في عمل المعصية[3].

عليّ

ـ وماكان من طبائع الناس كلِّ الناس أنْ يتحمّلوا الحقَّ وأن يقولوه ويفعلوه.

لم تكن حدود المؤامرة على عليّ بن أبي طالب لتنتهي عند هزيمة خصومه في موقعة الجمل؛ ذلك لأن أسبابها البعيدة ما تزال في نفوس المؤتمرين به في الحجاز والشام وما زال لهؤلاء جُندٌ كثير. ففي الحجاز أنصارٌ لعائشة وأعوانٌ لطلحة وحزب للزبير. ومعظم من كانوا على رأس هؤلاء الأنصار هم من الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان، واحتكروا أسباب الترف والثروة. وليس لهم جميعاً أملٌ في الانتفاع والاحتكار وعليّ أمير المؤمنين.

أمّا الذين كانوا لعليّ من أهل الحجاز فالفقراء والمستضعفون والصحابة

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٣٦ - ٤.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٧١ - ٣.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٧٧.

والأتقياء والعاقلون، حتى لكأنّ سيرة عليّ في أهل الحجاز هي سيرة ابن عمّه النبيّ فيهم لا فرق بينهما إلّا في ماكان من عمل الظرف والمناسبة. ويؤكّد هذه المشابهة أنّ خصوم عليّ كانوا القرشيين، وهم خصوم النبيّ من قبل. يقول عليّ: «**فدع عنك قريشاً وتركاضَهم في الضلال وتجوالَهم في الشّقاق وجَماحَهم في التّيه، فإنّهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله قبلي!**»[1].

أمّا في الشام فإنّ معاوية يكيد للخليفة ويسعى بدهائه إلى تأليب الناس عليه. ثم إنّه ينفق أموال الولاية وينثر الوعود بِنعَم الأرض حيث لا ينفع إلّا المال والوعد. وكان له جيشٌ هو قائده وصاحب الرأي فيه. وهو جيش لا يصحّ نعته إلّا بأنّه من المرتزقة والأغبياء، ومعاوية صاحب رزقه والساهر على أن تكون فيه غباوة. وإليك هذه الحادثة التي توجز ـ على بساطتها ـ الحقيقة عن جيش معاوية. وعن ثقة ابن أبي سفيان بأنّ خصمه على حقّ، وبأنّ انتصاره على هذا الخصم قد يمكن؛ لأنّه يحاربه بقومٍ جهلة ليس في مقدورهم أن يميّزوا بين ظلم وعدل، أو بين معاوية وعليّ:

دخل رجلٌ من أهل الكوفة على بعيرٍ له إلى دمشق بعد أن انصرف جيشُ عليّ من صفّين. فتعلّق به رجلٌ من دمشق فقال له: هذه ناقتي أُخذت مني بصفّين! فارتفع أمرهما إلى معاوية، وأقام الدمشقيّ خمسين رجلاً من أهل الشام يشهدون أنها ناقته. فقضى معاوية على الكوفيّ وأمره بتسليم البعير للدمشقي. فقال الكوفيّ لمعاوية: أصلحك الله! إنّه جملٌ وليس بناقة! فقال معاوية: هذا حُكمٌ قد مضى. ثمّ دسّ إلى الكوفيّ بعد أن تفرّقوا من أحضره إليه ثانيةً. فسأله عن ثمن بعيره فدفع إليه ضعفه، وأحسن إليه. وقال له: «أبلغ عليّاً

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٣٦ - ٤.

أني أقابله بمائة ألف رجلٍ ليس فيهم من يُفرّق بين الناقة والرجل!!»[١].

ويؤكّد الجاحظُ كلام معاوية في أهل الشام بزمانه، ويذكر بعض الأسباب في طاعتهم له، يقول: «العلّة في طاعة أهل الشام أنّهم ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأيٍ واحد، لا يرون النظر ولا يسألون عن مغيب الأحوال!»[٢].

قلنا إنّ حدود المؤامرة لم تكن لتنتهي بانتهاء موقعة الجمل، بل إن الموقعة هذه كانت إحدى حلقات المؤامرة الكبرى على الإمام وحكومته. فإن عليّاً ما كاد يقضي على جيش عائشة وطلحة والزبير؛ حتى أخذ يعدّ العدّة لتأديب معاوية. كان همّ عليّ يومذاك أن يتّجه بالناس، ما أمكن الإتّجاه، نحو المُثل الإنسانية الطيبة، ويرفع عن الشعب جور النافذين، وينظم الدولة على أساسٍ من رعاية الحقوق العامّة. فطريقه غير طريق الذين يتزلفون إلى الأقوياء بالمداراة ويستنصرون البُغاة بالصفح عن سيئاتهم، ويستنجدون بالناقدين في سبيل حكومةٍ أو مُلك.

وقد تبيّن مَعنا في الفصول السابقة كيف أنه لم يكن ليطلب من الناس أجراً على خدمة إلّا أن يطيعوه بالحقّ. وكثيراً ما كان يردّد هذا القول: «**... كيْلاً بغير ثمن لو كان له وعاء**»[٣] ويريد بذلك أنه يكيل للقوم العلم والحكمة والعدل كيْلاً لا يريد له ثمناً، لو وجد نفوساً قابلة وعقولاً عاقلة!

ولم يكن معاوية بالوعاء الذي يستوعب هذا الكيْل. ولم تكن العدالة والحقوق العامّة على يديه في عافية. لذلك لم يُثبته عليّ على الشام، وكان باستطاعته أن يصطنعه لو شاء أن يساوم في الحقّ ويعمل بغير ما يوحي به

(١) الغدير: ١٠/ ١٩٦، عن مروج الذهب: ٢/ ٧٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/ ٣٤٣.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٧١ - ٤.

قوّة إلا بالله»(١).

فردّ معاوية يقول:

«سلامٌ عليك. أمّا بعد، فلعمري لو بايعك الذين ذكرت وأنت بريءٌ من دم عثمان لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان. ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف. وقد أبى أهل الشام قتالك حتّى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين. وإنّما كان الحجازيّون هم الحكّام على الناس والحقّ فيهم، فلمّا فارقوه كان الحكّام على الناس أهل الشام. ولعمري ما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على طلحة والزبير، إن كانا بايعاك فلم أُبايعك أنا. فأمّا فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلّم فلست أدفعه... الخ»(٢).

ومن رسالة معاوية هذه تبدو نواياه على حقيقتها. فهو يخلق الصعاب والعراقيل الواحدة بعد الأُخرى ليمتنع بها عن مبايعة عليّ. وهي إن أُزيحت إحداها ثبتت الأُخرى لا يمكن أن تزاح، فمعاوية يعرف الإباء في عليّ والثقة بالنفس، والبراءة ممّا ينسبه إليه، فيصدمه بأن يحاول حمله على الشكّ في حقيقة موقفه من عثمان، وفي مساواته بأبي بكر وعمر من حيث حقّه بأن يخلفهم. ثم بأن يطلب إليه أن يسلّمه قَتَلة عثمان لأنّ عليّاً نفسه متّهم في رسالة معاوية، بأنه المحرّض على الخليفة الثالث .

ثم إن معاوية لن يُذعن لأمر عليّ ولن يبايعه ولو ثبتت براءته، لأنه يدعو المسلمين، في ردّه هذا، لأن يعيدوا النظر في خلافة علي ويحتكموا إلى الشورى من جديد!

---

(١) نهج السعادة: ٤/ ٩٠ ـ ٩١، شرح نهج البلاغة: ٧٥/٣، تاريخ ابن عساكر: ٥٩/ ١٢٨ .

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١٢١، جواهر المطالب: ١/ ٣٧.

أضف إلى ذلك أن الشورى ـ كما يريدها معاوية ـ لن تكون هذه المرّة في أهل الحجاز أو أهل العراق؛ لأن الحقّ قد خرج منهم جميعاً وأصبح في أهل الشام. فلأهل الشام وحدهم أن يختاروا الخليفة لأنّهم الحكّام على الناس! ومن يكون الخليفة عندذاك غير معاوية بن أبي سفيان؟

وقف عليٌّ من أمره وأمر الناس موقفاً موجعاً، ولكنّه لا يدعو إلى تردّد وإحجام. فقد انقسم العرب قسمين لن يكون الواحدُ منهما إلا غالباً أو مغلوباً وإن عظُم الفرق بينهما في كلّ مقياس. فهنا المظلومون والمستضعفون والطامحون إلى طمأنينة العيش تلفّهم وتلفّ إخوانهم جميعاً، ولا تأتيهم إلا عن طريق الإنصاف والتّسوية في كلّ حقّ، وأصحاب النبي الصادقون الذين أرادوا الحياة كرماً وإخاءً وبلداً طيباً يجمع الناس لا محروم فيهم ولا حارم. وهناك المستنفعون بالظلم والوجهاء والطامحون إلى الرّاحة تأتيهم عن طريق الغصب والنهب والتّحالف على الشعب الجائع الظمآن.

وكان على رأس الفريق الأوّل عليّ بن أبي طالب، وكلّ مَن رغب في عدلٍ وحق والاه. وكان على رأس الفريق الثاني معاوية بن أبي سفيان، وكلّ مَن طاب له أن يمشي على الأرض جوراً ماشاه. وكان جزاء أُولئك من النفس والوجدان. وكان جزاء هؤلاء من كفّ ابن أبي سفيان، وتبادل الناس مطارحهم فسار من جماعة معاوية إلى عليٍّ قومٌ عادلون. وخلّى عليّاً إلى معاوية الوجهاء والمستنفعون. وإليك أخبار نفرٍ ممّن آثروا معاوية على عليٍّ ومنها تدرك الطبائع الغالبة على أُولئك الناس، كما تدرك العلّة العميقة في مفارقتهم ابن أبي طالب وانتصارهم لابن أبي سفيان:

استعمل عليّ رجلاً يدعى يزيد بن حجبة التيمي على الريّ ومقاطعة

أُخرى، فجمع منهما مالاً كثيراً واحتجنه لنفسه(١). فبلغ الأمر عليّاً، فحبسه وجعل عليه حارساً اسمه سعد. وكان أن نام سعدٌ فقام يزيد إلى ركائبه ودفع نفسه في طريق دمشق ملتحقاً بمعاوية، وقال:

وخادعتُ سعداً وارتمتْ بي ركائبي … إلى الشام واخترت الذي هو أفضلُ
وغادرتُ سعداً نائماً في غيابةٍ … وسعدٌ غلامٌ مستهامٌ مضلّلُ(٢)

وبعث يزيد بن حجبة إلى العراق بشعرٍ يهجو به عليّاً ويخبره أنّه من أعدائه. وأجزل له معاوية العطاء فمدحه ومدح أهل الشام ورأى أنّ أرضهم مقدسة، وأنّهم هم أهل اليقين والإيمان:

أحببتُ أهل الشام من بين المَلا … وبكيتُ من أسفٍ على عثمان
أرضٌ مقدّسةٌ، وقومٌ منهم … أهلُ اليقينِ وتابعو الفرقان(٣)

واستعمل عليٌّ رجلاً آخر يدعى القعقاع بن شور على كسكر، فراح القعقاع ينهب المال من الناس نهباً ويختزنه لنفسه أو ينفقه في سبيلها. ومن إنفاقه أنّه تزوّج امرأة فأصدقها مائة ألف درهم. ولمّا أُخبر أنّ عليّاً علِمَ بأمره خشي العتاب والعقاب، فجمع ما سرقه من أموال الشعب وهرب به إلى معاوية.

وحدّ عليٌّ النجاشي بن كعب في إثمٍ أثمه وكان النجاشي من أنصار عليّ، فما أطاق أن يجري عليه ما يجري على سائر الناس من عقاب على الإثم، فلحقَ معاوية لأنّه أمّنه، وهجا عليّاً لأنّه يخشاه إنْ أخطأ. ومما قاله:

---

(١) إحتجنه: ضمّه إليه، إقتطعه وسرقه. المعجم الوسيط، ص ١٥٨.
(٢) الغارات، للثقفي: ٢/ ٥٢٦.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٦٣.

ألا مـــن مـــبلغٌ عـــنّي عـــليّاً بأنّـــي قـد أمـنتُ فـلا أخـافُ[١]

وغضبت للنجاشي اليمانية لأنهم منهم وانحرف منهم كثيرٌ عن عليّ. وكثر عدد المنحرفين بمعاوية بكثرة الذين يريدون الدنيا لأنفسهم وحدهم. وماكان من طبائع الناس كلّهم أن يتحمّلوا الحقّ وأنْ يقولوه ويفعلوه. ولاكان من طبائعهم كلّهم أن يوالوا عليّاً الذي يشتدّ بالحقّ على نفسه وذويه والخلق جميعاً؛ فلا ينحرف عنه ببعض ما يرضيهم. وإنْ خصصتُ بالقول فئةً من الناس فإنّما أخصّ الوجهاء والأثرياء والمستنفعين. فكيف لا يلحق معاوية ويترك عليّاً ذلك الوالي الذي يبعث إليه عليٌّ يقول: «**وإنّي أُقسم بالله صادقاً، لئن بلغني أنك خنتَ من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً، لأشدّنّ عليك شدّةً تدعك قليل الوفر، ثقيل الظهر، ضئيل الأمر!**»[٢] أو ذاك الآخر الذي يتلقّى من عليّ مثل هذا الكتاب: «**بلغني أنّك جرّدت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إليّ حسابك!**»[٣].

كيف يستطيع العاديون من الخلق أن يرتفعوا إلى هذا المستوى العظيم من صفة الإنسان الحق؟ فيقبل وجيههم أو واليهم أن يقول له عليّ: «**ولئن كان ما بلغني عنك حقاً، لجَمَلُ أهلك وشسع نعلك خير منك!**»[٤].

كيف يرضى الأثرياء والمتنفذون وكانزو الفضّة والذهب والظالمون وشركاؤهم والراضون بالظلم أن يكون الأمر لعليٍّ؟ وهو الذي يريد المال لمنافع الناس كلّ الناس، ويريد النفوذ للكفاءة وفي سبيل العامّة؛ ويحارب

(١) الغارات، للثقفي: ٢/ ٥٣٧.
(٢) نهج البلاغة، الكتاب ٢٠: ٣/ ١٩.
(٣) نهج البلاغة، الكتاب ٤٠: ٣/ ٦٥.
(٤) نهج البلاغة، الكتاب ٧١: ٣/ ١٣٢.

الظالمين وشركاءهم ويثير عليهم الناس ويلعن الراضين بالظلم ولو قليلاً.

وكيف يرضى الغاصبون أن يحكمهم مَن يقول: **«والله لأن أبيتُ على حسك السعدان مسهّداً وأُجرّ في الأغلال مصفّداً، أحب إليّ من أن أكون ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيءٍ من الحطام»؟**(١). كيف لا ينحرفون عن رجلٍ يعلن على مسامعهم: أنّه مسؤول عن محاربة الظلم والظالمين والآخذين بغير الحقّ؟ وأنه لولا هذه المسؤولية التي يحسّها واجباً يحيا من أجله، لأرسل الأمور تجري كما تشاء وترك الناس لأنفسهم وهم بين آكلٍ ومأكول. ويقول عليّ: **«ولولا ما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالمٍ ولا سغب مظلوم، لألقيتُ حبلها على غاربها** ـ أي لتركتُ الأُمور كما هي ـ **ولسقيتُ آخرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز!»**(٢).

كيف يرضى الغادرون أن يولّوا أُمورهم من يقول فيهم وهم أبناء زمانه: **«ولا يغدر من علم كيف المرجع. ولقد أصبحنا في زمان قد اتّخذ أكثر أهله الغدر كَيْساً ـ عقلاً ـ ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن حيلة»**(٣).

لذلك كان المنحرفون عنه من أصحاب الوجاهات والثراء غير المشروع، والراغبين في أن يُطلق معاوية أيديهم في بيوت الأموال وجهود الناس. أمّا غير هؤلاء من المنحرفين عنه، فقد كانوا ممّن لا يقدّرون مصالحهم في المدى البعيد، ومن أهل الغباء الكثير. وقد سبق لنا أن تحدّثنا عن تنظيم أحوال الناس فيما بينهم يومذاك، فقلنا إنّهم كانوا مقسّمين شيَعاً تأتمر كلّ شيعةٍ منهم بنافذ أو وجيه، وقد لا تُسأل هذا الوجيه فيم غضب وفيم رضي. وقد أكثر عليّ من

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٣، وهي المعروفة «بالشقشقية».

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٤١.

وصف هذا النمط من الناس في زمانه وصفاً فيه التوجّع وفيه الألم، وفيه سخط الأب الحكيم المحبّ على الأبناء الأغبياء المنحرفين عن خيرهم إلى ما فيه هلاكهم، وهم يعلمون أو لا يعلمون. يقول عليّ في أبناء عصره: «**إلى الله أشكو من معشرٍ يعيشون جهّالاً!**»(١).

ويخاطبهم قائلاً:

«**ولا يُنام عنكم وأنتم في غفلة ساهون!**»(٢).

ويتحدّث عنهم ساعة يدعوهم للثورة على أهل البغي، يقول: «**فمنهم الآتي كارهاً، ومنهم المعتلّ كاذباً، ومنهم القاعد خاذلاً!**»(٣).

ثم يقول فيهم أيضاً: «**سائلهم متعنّتُ، ومجيبهم متكلّف، يكاد أفضلهم رأياً يردّه عن فضل رأيه الرّضا والسخط، ويكاد أصلبهم عوداً تنكأه اللحظة وتستحيله الملمّة الواحدة**»(٤).

وفي هذه العبارة الأخيرة لابن أبي طالب وصفٌ رائع لطبائع الفئة المنقادة من ناس زمانه. فإن كان فيهم ذو رأي -كما يقول- غلبه على رأيه هواه إن سُخطاً وإن رضاً. فإذا رضي حكم لمن استرضاه بغير حقّ، وإذا سخط حكم على من أسخطه بباطل. أمّا أصلبهم عوداً فتأخذ بقلبه نظرةٌ واحدةٌ إلى ما يشتهيه فتحوّله عمّا هو عليه، ويميل إلى موافقة الباطل ومؤازرة الجائر بكلمةٍ من نافذ أو راشٍ أو وجيه.

لمّا انتقل مركز المؤامرة على ابن أبي طالب إلى الشام بعد هزيمة

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٧.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٣٤.
(٣) نهج البلاغة، الكتاب: ٣٥.
(٤) نهج البلاغة، الكلمات القصار: ٣٤٣.

أصحاب الجمل، راح يعسوب الأُمويّين معاوية بن سفيان يشتدّ في تأليب النافذين على عظيم الكوفة، بصورةٍ أرادها عاجلةً وحاسمة. فهو ماكاد يطّلع على أوّل كتابٍ من عليّ إليه؛ حتى أخذ يبعث إلى من يرجو مناصرتهم أن يوافوه على عجلٍ إلى الشام. وكان أخطر هؤلاء شأناً عمرو بن العاص، لذلك بعث إليه معاوية من ليلته الأُولى أن يأتيه وكتب إليه: «أمّا بعد، فإنّه قدكان من أمر عليّ وطلحة والزبير وعائشة ما قد بلغك، فقد سقط إلينا مروان من رافضة أهل البصرة وقدم عليّ جرير بن عبد الله في بيعة عليّ، وحسبتُ نفسي عليك حتى تأتيني على بركة الله تعالى!»[1].

فلمّا انتهى الكتاب إلى عمرو بن العاص دعا ابنيه عبد الله ومحمداً فاستشارهما، فقال له عبد الله: «إن رسول الله قُبض وهو عنك راضٍ. ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان، فانّك إن تفسد دينك بدنيا يسيرة تُصيبها مع معاوية فتضجعان غداً في النار»[2]!

ثم إلتفت عمرو إلى ابنه محمد فقال: ما ترى؟ فقال: «بادر هذا الأمر فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنباً». فلمّا أصبح عمرو دعا وردان مولاه وقال له: إرحل يا وردان؟ ثم قال: حطّ يا وردان! فحطّ ورحل ثلاث مرّات، فقال وردان: «لقد خلطت يا أبا عبد الله! فإن شئت أخبرتُك بما في نفسك: عليّ معه آخرة بلا دنيا ومعاوية معه دنيا بلا آخرة. والرأي أن تقيم في منزلك فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يُستغنَ عنك»[3].

غير أنّ وعود معاوية كانت تغري عمرو فوق ما تقنعه نصيحة مولاه

---

(١) نهج السعادة، للمحمودي: ١/ ٤٣٥.

(٢) أنساب الأشراف: ٢٨٥ وفيه: فاياك أن تفسد دينك...، تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٨٤.

(٣) أنساب الأشراف، ص ٢٨٥، نهج السعادة: ٢/ ٦٣، تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٨٥.

وردان وابنه عبد الله؛ فكان أن انضمّ إلى معاوية والأُمويّين ضدّ عليّ. ولمّا كان ابن العاص مساوياً لابن أبي سفيان من حيث الخطورة في المؤامرة على عليّ، فقد بات ضرورياً أن نلم بعض الإلمام بأخباره لندرك الأسباب البعيدة التي دفعته إلى محالفة معاوية؛ ثم لندرك قيمة هذا التحالف بالمقياس الإنساني.

كانت روح المساومة للمنفعة أوّل ما ظهر من سياسة ابن العاص قبل إسلامه. ولا يمكن نقض هذه الحقيقة عنه، وهو نفسه الذي يخبرنا بها إذ يقول: «لمّا انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق؛ جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون منّي فقلت لهم: تعلمون ـ والله ـ إنّي أرى محمداً يعلو الأُمور علوّاً منكرا. وإني لقد رأيتُ أمراً فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قلت: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنّا عند النجاشي، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلّا خير. قالوا: أنّ هذا لرأي! قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له...الخ»(١).

وظلّ حبّ الانتفاع بالظرف والمناسبة متأصّلاً في نفس عمرو، شأنه في ذلك شأن معظم الوجهاء الذين حاربهم أبو بكر وعمر وعليّ. وقد مرّ بنا أنّ عمر صادَرَ ابن العاص في كلّ ما أفاده من مال مصر، فاعتلّ عمرو بعلّة لم تقنع ابن الخطاب الذي كتب إليه يقول: «ولكنكم معشر الأُمراء قعدتم على عيون الأموال ولن تعدموا عذراً، وإنّما تأكلون النار وتتعجّلون العار! وقد وجهّتُ إليك محمد بن مسلمة فسلم إليه شطر مالك!». فلمّا قدِمَ محمد صنع له عمرو طعاماً ودعاه فلم يأكل، وقال: «هذه تقدمة الشر، لو جئتني بطعام الضيف لأكلت. فنحّ عني طعامك وأحضر لي مالك!». فأحضره، فأخذ شطره، فلمّا رأى عمرو كثرة

---

(١) البداية والنهاية: ٤/ ٢٧، سيرة النبي ﷺ لابن هشام: ٣/ ٧٤٨، السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٤٤٧.

ما أخذ منه قال: «لعن الله زماناً صرتُ فيه عاملاً لعمر! والله لقد رأيت عمر وأباه على كل واحدٍ منهما عباءة قطوانية لا تجاوز ركبتيه، وعلى عنقه حزمة حطبٍ، والعاص ابن وائل ـ والد عمرو ـ في مزرّرات الديباج!»[1].

ففي هذا الخبر شيءٌ كثيرٌ من ميل عمرو إلى الانتفاع المادّي بالنفوذ والسلطان. وفيه عدا ذلك شيءٌ كثيرٌ من ذهنيّة الوجهاء ومقاييسهم الملتوية. فهو لم يجد في عمر بن الخطاب مطعناً إلّا أنّ عمر وأباه كانا فقيرين لا يملكان ما يستتران به، وأنّهما كانا يعملان بأيديهما فيحملان على عنقيهما حزم الحطب. وهو لم يجد في أبيه العاص بن وائل فضيلة أجلّ من أنّه كان مزرّراً بالديباج! وهو في الحالتين لو أنصف وخالف النظر الجاهليّ إلى الأُمور، لرأى أنّ ما ظنّه مَطعناً في ابن الخطاب إن هو إلا الشرف والنبل الكثيران. وأنّ ما ظنّه فضيلةٌ في العاص بن وائل إن هو إلّا خرافةٌ قديمة.

ولا يظنّن القارئ أنّ هذا القول نزوةٌ من ابن العاص في موقفٍ له من ابن الخطاب. فإنّ مدلوله أمرٌ ثابتٌ في نفسه. ففي الناس لديه شريفٌ ومشروف. ولا يكون هذا «الشرف» إلا نتيجةً للنسب، لا لشيءٍ سواه. والشريف له من الحقوق ما ليس لغير الشريف، وعلى الناس من الطاعة له فوق ما لبعضهم على بعض. وقد اتّفق المؤرِّخون على أنّه «كان من رأي عمرو بن العاص في ساسة مصر أنّ الذي يُصلح هذه البلاد وينمّيها ويُقرّ قاطنها فيها، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها[2].

وهكذا كانت تتمازج في نفسية عمرو أهواء قديمة، تحكم لصاحب النسب بحقّ في الاستئثار والاستعلاء ليس لسائر الناس، وميولٌ إلى الانتفاع

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٧٥.

(٢) الإسلام والحضارة العربية: ٢/ ١٢٥.

بالظرف المؤاتي والمناسبة الطارئة. وقد يضطرب خاطره بين حالين من الرضا بسلامة الوجدان وتعطيل هذا الوجدان في سبيل المنفعة. ولكن سرعان ما تتغلّب الحال الثانية فإذا هو عازمٌ على أن ينتفع. من ذلك ما رأيناه من اضطرابه ساعة دعاه معاوية إليه، ثم ماكان من عزمه على الرحيل إلى الشام. وينسب الروّاة إلى ابن العاص قصيدة قالها وهو في طريقه إلى معاوية، وفيها إعلانٌ عن رأيه في كل من عليّ ومعاوية؛ فإذا عليّ في رأيه شيءٌ كثير وإذا معاوية شيءٌ آخر. وإذا له نفسان واحدةٌ تعفّ عن اللحاق بمعاوية وأُخرى تأمر بهذا اللحاق. وإذا به يختم قصيدته قائلاً:

فاخترتُ من طمعي دنيا على بصرٍ ... وما معي بالذي أختارُ برهانُ
إنّي لأعرفُ ما فيها وابصره ... وفيّ أيضاً لما أهواهُ ألوانُ
لكنّ نفسي تحبّ العيش في شرفٍ ... وليس يرضى بذلّ العيش إنسانُ[1]

والعيش في شرفٍ لا يراه ابن العاص اليوم إلّا في المغانم المادّية والوعود الأُموية، كما أنّه لم يرهُ بالأمس في عهد ابن الخطاب إلا في مزرّرات الديباج على أبيه العاص بن وائل. وذُلّ العيش لا يراه اليوم إلا في نصرة عليّ الذي لا يساوم ولا يساوَم، كما أنّه لم يره بالأمس إلّا في العباءَة الفقيرة التي يلبسها ابن الخطاب وأبوه.

وحين بلغ ابن العاص دار معاوية، قال له يعسوب بني أُميّة: «يا أبا عبد الله! إنّي أدعوك إلى جهاد هذا الرجل ـ يعني علياً ـ الذي عصى الله وشقّ عصا المسلمين وأظهر الفتنة وفرّق الجماعة... الخ». فقال عمرو: فما تجعل لي إن شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الخطر؟ قال معاوية: حكمك! قال:

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٦٤، وقعة صفّين: ٣٦، مناقب الخوارزمي: ٢٠٢.

تعطيني مصر طُعمة[١]. وجرت بين معاوية وعمرو مكايدات كثيرة يريد كل منهما أن يخدع الآخر؛ مستهدفاً ما ينفعه دون رفيقه في المؤامرة. وانتهت هذه المكايدات بالمساومة التي انكشفت عن مبايعة عمرو لمعاوية بالخلافة، وعن إعطاء معاوية مصر وأهلها طُعمةً لعمرو؛ لا يسأل عن أمره في أرضٍ ولا سكّان. وكانت هذه المساومة على حساب عليّ الذي لخّص هذا اللقاء بين الرجلين وكيف انتهى، بهذه الكلمات: «ولم يبايع ـ يعني عمراً ـ حتى شرط أن يؤتيه ـ معاوية ـ على البيعة ثمناً. فلا ظفرتْ يد البائع وخزيتْ أمانةُ المبتاع. فخذوا للحرب أهبتها وأعدّوا لها عدّتها»[٢]. وقال عليٌّ في هذا الموضوع أيضاً: **«لقد نمي إلي أن عمراً لم يبايع معاوية حتى شرط عليه أن يأتيه أتاوةً هي أعظم ممّا في يديه من سلطانه ـ** يقصد ولاية مصر **ـ فصفرت يد هذا البائع دينه بالدنيا، وترِبَت يد هذا المشتري نصرة غادرٍ فاسق بأموال الناس!»**[٣].

ولم يكتف عمرو بهذا القدر من العمل لمنفعة نفسه وحسب، بل إنه راح يوجّه معاوية في دعاية منظّمة ضدّ عليّ؛ استعداداً للمعركة المقبلة. وممّا أشاره عليه: «فابعث ثقاتك فليفشوا في الناس أنّ عليّاً قَتَل عثمان!»[٤]. هذا وهو يعلم أنّ عليّاً بريءٌ من دم عثمان، كما يعلم أنّ له هو اليد الطولى في قتله على ما رأيناه في فصل «المحرّضون على عثمان». ولمّا طلب معاوية إلى عمرو أن يسوّي صفوف أهل الشام عند بدء معركة صفّين، لم يشأ عمرو أن يلبّي الطلب قبل أن يستوثق من حصوله على الثمن، فقال لابن أبي سفيان: «على أنّ لي

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٦٤، وقعة صفّين: ٣٧.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٦، الغارات: ١/ ٣١٧، شرح النهج: ٢/ ٦٠.
(٣) الإمامة والسياسة: ١/ ١٧٨.
(٤) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٧١، أنساب الأشراف: ٢٧٦، وقعة صفّين: ٤٤.

حكمي إن قتل علي ّ بن أبي طالب واستوثقتُ لك البلاد!»[١]. وممّا يدلّ أيضاً على ما تميّز به عمرو من روح المساومة طلباً للمنفعة، أنّه حين اجتمع إلى أبي موسى الأشعري يوم التحكيم المشهور، وأخذ فريقٌ من المجتمعين مع الرجلين يُدْلون بآرائهم في من تجب أن تؤول إليه الخلافة؛ راح أبو موسى يوجّه أنظار القوم إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ويذكر أنّه أجدر بالمبايعة. وقال غير مرّة: «والله إن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب». فقال له عمرو بن العاص: «إن كنت إنّما تريد أن تباع ابن عمر لدينه، فما يمنعك من ابني عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه؟»[٢].

وهكذا ساوَمَ عمرو مساومةً وجّهَها ضدّ معاوية نفسه؛ وهو قائدُ جنده في المعركة، وآخذ العهد منه بحكم مصر، ووكيله في هذا المؤتمر، وصاحب الحيلة في خير التحكيم.

لقد كان كلٌّ من معاوية وعمرو على ثقة بأنّه يتجنّى على عليّ، مؤمناً في أعماق نفسه بأنّ عليّاً أفضل من صاحبه؛ ساعياً لنفسه دون شريكه. وكان الرجلان على وفاقٍ ظاهراً، ولكنّهما يتباغضان سرّاً؛ وهذه طبيعة الشركاء في العدوان. وقد ظهر على صفحات وجهيهما وفلتات لسانيهما ما يؤكّد ذلك. قال معاوية لجلسائه مرّة بعد موقعه صفين: «ما أعجب الأشياء؟» فأدلى كلٌّ من الجالسين برأيه، حتى إذا كان دور عمرو بن العاص، قال: «أعجب الأشياء أنّ المبطل يغلب المحقّ» معرّضاً بمعاوية وعليّ! فقال معاوية من فوره: «بل أعجب الأشياء أن يعطى الإنسان ما لا يستحق إذا كان لا يخاف». معرّضاً بعمرو بن العاص وولايته على مصر!

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٨٩.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٥٣، تاريخ الطبري: ٤/ ٥٠، وقعة صفّين: ٥٤٢.

ودليل آخر يعطيه عمرو نفسه على حقيقة رأيه في كلٍّ من عليّ ومعاوية؛ فيظهر لنا إلى أي مدى خدع ذاته وزيّف رأيه ساعة ماشى ابن أبي سفيان وعادى علياً. كما يظهر لنا ضآلة المعاني الإنسانية لدى أعوان معاوية؛ ومقدار ما هم عليه من خيانة لحقيقة الرأي الذي يرون. فإن معاوية ما استتبّ له الأمر أوكاد، بعد مقتل علي؛ حتى تلكأ في تولية عمرو بن العاص على مصر. فطالبه عمرو بالوفاء بما قطع له من عهد، فظلّ معاوية على تلكّئه أيضاً. فبعث عمرو له بقصيدةٍ طويلة يقول فيها:

معاويةُ، الفضل لا تنس لي ... وعن منهج الحقّ لا تعدلِ
نصرناك من جلهنا، يا ابن هند! ... على السيّد الأعظمِ الأفضلِ
وما كان بينكما نسبةٌ ... فأين الحسامُ من المنجل؟
وأين الثريّا وأين الثرى ... وأين معاوية من علي[1]؟

وعلى أثر هذه القصيدة أعطاه مصر.

ومن الأدلة الساطعة على هذا التنافر بين الرجلين اللّذين لم تجمع بينهما إلّا مصالح متبادلة، أن عمراً هجا معاوية بشعرٍ معروفٍ على أثر كلمة سمعها منه، فآذته ساعة أوفد معاوية لإحكام مؤامرة التحكيم واستغلال غباوة أبي موسى الأشعري؛ فإذا بمعاوية يأمر صاحبه عبد الرحمن بن أمّ الحكم بالردّ على عمرو وبهجوه. فهجاه عبد الرحمن، وهدّده، ولعنه، وعيره بفراره من عليّ يوم صفّين، قال:

دعِ البغيَ الذي أصبحتَ فيه ... فإنّ البغيَ صاحبُه لعينُ!
ألم تهرب بنفسك من عليّ، ... بصفّين، وأنت بها صنينُ؟

---

(١) أنساب الأشراف: ٣٢٩، الغدير: ٢/ ١١٨.

حــــذاراً أن تـــلاقيك المـــنايا، وكــل فــتىً ســيدركه المــنونُ![1]

وماذا يقول القائل بهذين الرجلين اللّذين يتفاهمان بمثل هـذا التـهديد وهـذا الشـتم وهـذا التـعبير «اثّـئاراً» للـخليفة «الشـهيد» وانـتقاماً مـن عـليّ «الظالم؟»).

أمّا السابقون لهذه الفِتن والأحداث فقد أدركوا حقيقة معاوية وحقيقة عمرو في مجال الأطماع والميل إلى المغانم. من ذلك ما أدركَه عمر بن الخطاب بفهْمه الألمعي لطبائع الرجال، إذ حذّر الناس من معاوية وابن العاص قبيل موته بساعات، قال: «يا أصحاب محمد! تناصحوا فإنّكم إن لم تفعلوا غلبكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان»[2]. وأمّا اللاحقون فقد تأكّدوا من صحّة نظر ابن الخطاب، فكان فيهم قومٌ يحتكمون في كثيرٍ من الأُمور إلى العقل والوجدان، فخوّنوا معاوية وعمراً في موقفهما من عليّ، كما فعل المعتزلة، أجرأُ الفِرَق الإسلامية على تحليل أعمال الرجال ونقدهم، فإنّ «أكثرهم تبرّأ من معاوية وعمرو بن العاص» على ما يقول صاحب المنية والأمل؛ وقد نسبوهما إلى سرقة أموال العامّة[3].

لقد كان معاوية ـ كما وصفه عليّ ـ «رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد»[4]. وكان عمرو بن العاص «يقول فيكذب ـ كما يصفه عليّ أيضًا ـ ويعِد فيُخْلف، ويَسأل فيلحق، ويُسأل فيبخل، ويخون العهد!»[5]. فهذه الصفات في الرجلين هي التي قرّبتْ بينهما. فالبلعوم إذا كان رحباً يأكل ما

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق: ٤٦/ ١٧٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٩٩، بحار الأنوار: ٣١/ ٥٤.

(٣) راجع فجر الإسلام: ٢٩٤.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ٥٧.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة: ٨٤ الاحتجاج للطبرسي: ١/ ٢٦٩، شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٨٠.

يجد ويطلب ما لا يجد، لا يعنيه من المأكول والمطلوب ما كان حلالاً أو حراماً، ولا يفقَهُ من معاني العدل والجور ما يأخذ منها في سموٍّ أو انحدار. والرجل إذا كذب وأخلف وسأل وألحف وبخل ونقض العهد، فما يفعل إلّا ابتغاءً لمنفعةٍ يراها في بعض هذه الأُمور أو فيها جميعاً. فالمنفعة ـ كما يُستخلص من كلام عليّ ـ هي مْحوَر أعمال الرجلين. فما عليهما لو اتّفقا على غدرٍ، وفي هذا الاتّفاق ما يفيدان منه وإن كان واحدهما لا يودّ الآخر؟ وفي مثل هذا المعنى يقول عليٌّ: **«وقرأت كتابَ الفاجرَين المتحابّين في عمل المعصية... الخ»**[١]. ويقصد معاوية وابن العاص.

لقد أحكم القومُ المؤامرة على عليّ إحكاماً واعياً منظّماً، وكُثرَ المتآمرون، فاختلفَ بعضُهم عن بعضٍ بالهدف والغاية، ولكنّهم اتّفقوا جميعاً على ألّا يساقوا بعصا الحقّ في يد عليّ. وكان معاوية صاحب اليد الطولى في هذه المؤامرة وفي إحكامها، وما الآخرون إلا أعوانٌ وأنصار. وهنالك ما يرجّح أنّ معركة الجمل لم تكن لتقع، لولا معاوية الذي كان يحركها من وراء الستار. ودليلنا على هذا أنّه لمّا بويع عليّ أسرع معاوية إلى رجلٍ من بني عميس وبعثه إلى الحجاز ومعه هذا الكتاب إلى الزبير: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان: سلامٌ عليك، أمّا بعد، فإني قد بايعتُ لك أهلَ الشام فأجابوا واستوسقوا كما يُستوسق الحليب. فدونك الكوفة والبصرة! لا يسبقك إليهما ابنَ أبي طالب، فإنّه لا شيء بعد هذين المصرين. وقد بايعتُ لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظهرا الطلبَ بدم عثمان، وادعُوَا الناس إلى ذلك! وليكنْ منكما الجدّ والتشمير. أظفركما الله

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٧٧، نهج السعادة: ٥/ ١٣٠.

وخذَل مناوئكما!»[١]. فلمّا وصل هذا الكتاب إلى الزبير سُرّ به وأعلم به طلحة وأَقرأَه إيّاه، وخُدع الرجلان بنصح معاوية لهما، وأجمعا الرأي عندذاك على خلاف عليّ. فكانت وقعة الجمل؛ وكان لمعاوية ما أراد من إضعاف الخليفة والطامحين إلى الخلافة جميعاً. وما انتهتْ المعركة على ما انتهت عليه، حتى راح يبذل الوعود والأموال للنافذين والزعماء، ويضاف الأعْطيات حيث يتوسّم مناصرةً؛ أو يرجو غضّ طرْفٍ عمّا سيكون من أمره وأمر عليّ. وراح يغدر ويضلّل حيث لا يرجو المناصرة ولا السكوت عن الإثم. وكان رأس مناصريه في هذه المؤامرة عمرو بن العاص، الذي ما علم عليٌّ بأمره مع معاوية؛ حتى أكبرَ نفسَه عن مداراته واسترضائه، كما كان يُكْبِرها أبداً عن كلّ مواربة مهما قستْ الأحداث ومهما عظُمت المصيبة، فكتب إليه يقول:

«فإنك قد جعلتَ دينك لدنيا امرىءٍ ظاهرٍ غيُّه، مهتوك ستْرُه، يشين الكريمَ بمجلسه ويسفّه الحليمَ بخِلْطته، فاتّبعتَ أثَره وطلبتَ فضلَه اتّباع الكلب للضرغام: يلوذ إلى مخالبه وينتظر ما يلقي إليه من فضل فريسته، فأذهبتَ دنياك وآخرتَك، ولو بالحقّ أخذتَ أدركتَ ما طلبت، فإن يمكنّي الله منك ومن ابن أبي سفيان أجزِكما بما قدّمتما، وإن تُعجزاني وتَبقيا فما أمامكما شرٌّ لكما! والسلام»[٢].

(١) شرح نهج البلاغة: ١ /٢٣١، نهج السعادة: ١/ ٢٨٥، الغدير: ١٠/ ٣٢٧.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب ٣٩: ٣/ ٦٤ وفيه: فإنك جعلت دينك...، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٦٠.

الرّياح السافيات

ـ أَلا إنّــه عـليّ بـن أبـي طـالب الذي تـتمزّق بسـيفه الظّـلُمات، وتـنقضُّ عـلى عـدوهِ الرعـودُ القـاصفات، وتذروهم الرياحُ السافيات، فإذا به هولٌ يـدفعُ هـولاً وفي عينيه دموعٌ تَحوَّلتْ شرراً، وفـي حـناياه عـطفٌ توَقّد ناراً!

ـ أَلا إنّه مَخْبَأُ الفقير من الريح، وسترةُ الضـعيف مـن السيل، ومَوْئِلُ العاجزِ من الزوبعةِ المُهْلكة، وصاحبُ الظلّ في الظهيرةِ المحرِقة،كالليل!

ـ أَلا إنّه عليّ بن أبي طالب الذي سيقول فـيه الدهـرُ وفي سيفه مع القائلين:

ـ لا سيف إلا ذو الفقارِ، ولا فتىً إلا علي!

وبعد زمنٍ كان معاوية في ما يزيد عن مائة وعشرين ألف مقاتل من أهل الشام يقطع الأرض إلى العراق. ونزلوا عند نهر الفرات في وادي صفّين على مقربة من الرقّة؛ سبْقاً إلى سهولة الأرض وسَعَة المناخ. وصفّين وادٍ تفصله عن شاطىء الفرات أرضٌ مستنقعة يكثر فيها الشجر والعيون.

وقدمَ عليّ بجيشه من الكوفة مجتازاً بالمدائـن والرقّـة، وقـصْده تأديب معاوية بالحسنى إذا أمكن، وإلّا فبالسيف. فلمّا أدرك صفّين وجد فَيْلقاً من جند معاوية قد عسكروا إلى جانب المياه؛ ليحولوا بينها وبين جـيشه. فـبعث إلى معاوية يقول: «**إن الذي جئنا له غير الماء، ولو سبقناك إليه لم نمنعك منه!**»(١).

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٢٥ وعنه مواقف الشيعة للميانجي: ١/ ١٢٥.

وحاول عمرو بن العاص إقناع معاوية بألا يحاول أن يمنع عليّاً وجيشه من الماء لأن عليّاً ذو بأس، وهو لن يظمأ وبيده أعنّة الخيل. فقال معاوية: «هذا، واللهِ، أوّل الظفر. لا سقاني الله من حوض الرسول إن شربوا منه حتى يغلبوني عليه»[١]. وقد بلغت الحال بعصابة معاوية أو واجهوا عليّاً بهذا القول الصريح : «ولا قطرةً حتى تموتَ عطشاً!»[٢]. وكان عليّ في موقفٍ غير ملائم من الناحية العسكرية، ولكنه أرسل عليهم الأشتر النخعي فاستبسل هذا حتّى أجلاهم عن الماء ووضع سنابك خيله بالفرات، فشمت عمرو بن العاص بمعاوية على ما يرويه ابن قتيبة وقال: «ما ظنّك إن مَنَعك عليّ الماءَ كما منعتَه أنت؛ أتراك ضاربهم كما ضربوك؟ ولكنّ عليّاً لا يستَحلّ منك ما استحللت منه!»[٣].

وحاول بعض أصحاب عليّ إقناعه بأن يعامل معاوية وجيشه كما عاملوه فيمنعهم من الماء؛ فأبى الرجل العظيم على أصحابه هذه المحاولة، وأتاح لخصومه ورودَ الماء أُسوةً بأصحابه. قالوا له: «امنعْهم الماءَ يا أمير المؤمنين كما منعوك! ولا تسقِهم منه قطرة، واقتلْهم بسيوف العطش وخُذْهم قبْضاً بالأيدي، فلا حاجة لك إلى الحرب!» فقال: «**لا والله لا أُكافئهم بمثْل فعْلهم. أَفسحوا لهم عن الشريعة!**»[٤] ولو كان في جيش معاوية قَبسٌ من الخلق الكريم لأدركوا بهذا الحادث حقيقة كلٍّ من معاوية وعليّ، ولَعرفوا لأيّة طائفةٍ من الخلق ينتمي كلٌّ من الرجلين، ولوَثِقوا أنهم بمناصرتهم معاوية على عليّ إنّما يناصرون إنتهازياً على نبيّ!

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٢٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٣.

(٣) الإمامة والسياسة: ١/ ١٢٦.

(٤) المصدر السابق.

أمّا عمرو بن العاص فكان قد باع ـ منذ زمن ـ كلّ قيمة وكل خير بولايته على مصر، وإلا فكيف نفسّر بقاءَه على موالاة الرجل الذي لا يراه إلا ضئيلاً قليلاً إلى جانب الإمام العملاق؟

وسبّ أهلُ الشام عليّاً سبّاً لا يليق، وكان ذلك على مسمع من معاوية ورضىً. بل وربّما كان معاوية هو الذي أوحى به أو أمَرَ، على نحو ما فعل فيما بعد.

وفي كلا الحالين ما يعيبُ معاوية ويجعل شأنه غضيضاً في مقاييس الرجال. وسمع أهلُ العراق السبابَ فجاؤوا بمثله ردّاً على أهل الشام. فبلغ ذلك عليّاً فرأى به منقصةً على جيشه وأمراً يَشينُ الكرامات، فخطب أصحابه بهذه الكلمات التي تضاف إلى دستوره في مخالقة الناس لا فرقَ فيهم بين صديق وعدوّ، قال: «**إنّي أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنّكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم، كان أصوبَ في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إيّاهم: اللهمّ احقنْ دماءَنا ودماءَهم وأصلحْ ذات بَيننا وبَينهم، واهدِهم من ضلالتهم حتى يعرف الحقّ مَن جَهلَه، ويرعوي عن الغيّ والعدوان مَن لهج به!**»[1]. وسعي عليّ كما هي عادته أبداً أن يقطع أسباب القتال بخطوات جريئة يخطوها نحو السلام، فما أفلح في ما سعى إليه. وظلّ أياماً يفتح أبواب المروءَة فلا يبلغ من أهل الشام عقلاً أو ضميراً. واستبطأ أصحابُه إذنَه لهم في القتال، فقال:

«**أمّا قولكم أكلّ ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أُبالي، أدخلتُ على الموت أو خرج الموت إليّ! وأمّا قولكم: أشكّاً في أهل الشام؟ فوالله ما دفعتُ الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحقَ بي طائفةٌ فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي**[2]**، وذلك أحبّ إليّ من أن أُقاتلها على**

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٠٦.

(٢) تعشو إلى ضوئي: تقصد ضوئي. لسان العرب: ٥٩/١٥، مادة «عشا».

ضلالها وإنْ كانت تبوءُ بآثامها!»[١].

ولمّا تأكّد لعليّ أن أهل الشام لن يتراجعوا عن غيّهم ولن يأنفوا الفجور بل إنهم موغلون[٢] فيه، وأنّ الحرب واقعةٌ لا محالة؛ قال على مسمع من أصحابه وأصحاب معاوية: «**اللهمّ إنك تعلم لو أنّي أعلم أنّ رضاك في أن أضع ظبّةَ سيفي في بطني ثم أنحني عليه حتّى يخرج من ظهري لفَعلت! اللهمّ إني أعلم ما علّمتَني أنّي لا أعلم عملاً صالحاً هذا اليومَ هو أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلمُ اليوم عملاً هو أرضى لك منه لفَعلت!**»[٣] ثم قال:

«**اللهمّ ربّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام، ومدْرجاً للهوامّ والأنعام، وما لا يُحصى مما يُرى وممّا لا يُرى، وربّ الجبال الرواسي التي جعلتَها للأرض أوتاداً وللخلق اعتماداً، إن أظهرْتَنا على عدوّنا فجنّبنا البغي وسَدّدنا بالحقّ! وإنْ أظهرتَهم علينا فارزقْنا الشهادة واعصمْنا من الفتنة!**»[٤]. وقُبيَل بدء المعركة ارتجز عمرو بن العاص نظماً يذكر فيه دهاءَه، وبعث به إلى عليّ وممّا جاء فيه:

لا تأمَنَنّا بَعدَها، أبا حَسَنْ إنّا نُمِرّ الأمرَ إمرارَ الرّسَنْ

فأجابه من أهل العراق مجيبٌ، قال:

ألا إحذروا في حربكم أبا حسنْ ليثاً أبا شبلَينِ، محذوراً فطنْ
يدقّكم دَقّ المهاريس الطحنْ لَتُغْبَنَنْ يا جاهلاً أيّ غَبَنْ
حتى تعضّ الكفّ أو تَقرعَ سِنّ![٥]

وكانت قبائل ربيعة في معظمها بجانب عليّ. فتنادَوا قائلين: «ويْحكَم، أما تشتاقون إلى الجنّة!؟». وشدّوا شدّةً عظيمةً واحدة على صفوف أهل الشام

---

(١) نهج السعادة: ٢/ ١٥٨.
(٢) سائرون.
(٣) تاريخ الطبري: ٤ / ٢٦، المعيار والموازنة للإسكافي: ١٣٦، شرح نهج البلاغة: ٥/ ٢٥٣.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٧١.
(٥) شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٩٥، وقعة صفّين: ٢٤٣.

فنقضوها وألقوا الذّعرَ فيها. وقال محرز بن ثور أحدُ الراجزين من ربيعة:

أَضـــــــربُهم ولا أرى مـــعاويَهْ الأبــرحَ العــينِ، العـظيمَ الخـاويهْ
هــوتْ بــه فــي النــار أمٌّ هــاويهْ جـــاوَرَهُ فـــيها كــلابٌ عــاويهْ
أغوى طغاماً! لا هدَتْه هاديهْ[1]

وكانوا على ثقةٍ بأنّهم يناصرون الحقّ، وفي ذلك يقول قائلهم:

قــد ســارعتْ فــي نـصْرها ربـيعَهْ فــي الحــقّ، والحـقّ لهـا شـريعَهْ[2]

وكان بين الفريقين قتالٌ فيه الفناء. وانصبّ عليٌّ على أهل الشام انصبابَ الموت الصاعق لا يضربُ إلا أوردَ النار، ولا يـطعنُ إلا وتَـطعنُ الأقـدار ولا يستقبل أحداً من ضواري الفتنة إلا ولّى عنه جباناً حَتْفُه مِن فوقِه وعُودُه هَشٌّ خَوّار.

وأقسم بالحقِّ ليتركنّ فريقَ الشيطان بقايا سيوفٍ وفضَلاتِ رماح! وكأنّ شجاعته الفائقة تتفجّر آنذاك رافداً رافداً، فإذا هـوَ الدرعُ والحـصنُ والمِـجَنّ، بشَعر صدرِه الأسودَ يستقبلُ الضربَ والطعنَ، وبـنور جـبينه يـصعقَ الفـجّار ويُنكّس الأبصار، فإذا بالمغاوير يتشذرون بين مرعوبٍ ومستطار.

وكأنّي بجواده الأشهب ماكَرّ إلا انبسط له من كل جنْبٍ جَناح، وما وضع على الأرض سُنْبُكاً إلا ثبتَ في الأرض كأنّه قاعدةُ عمودِ النار.

وكأنّي بيمناه ما ارتفعتْ بذي الفقار إلا لتمتدّ وتأخذَ في الفـضاء حتّى تطال الأُفقَ البعيد فتحفر فيه بنور الحقّ آية وآيات.

وكأنّي بعملاق القتال وأخي غمَرات الموت ما ضربَ أو طعنَ أو كرّ إلا ودوّت في جنباتِ الأرض ألف صَيْحةٍ هنا، وألف صيحةٍ هـناك تـنطقُ مـن

(١) شرح نهج البلاغة: ٥/ ٢٤٠، وقعة صفّين: ٣٠٥.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٥/ ٢٣٤، وقعة صفّين: ٢٩٩.

حناجرَ وأفواهٍ وكلّها تقول:

ألاَ إنّه عليّ بن أبي طالب بطلُ معركة الإسلام، ومعركةِ الحقّ، ومعركة العدالة الإنسانية.

ألاَ إنّه عليّ بن أبي طالب صارعُ عمرو بن ودّ أسد الجزيرة المخيف ـ يومَ كانت الجنّة تحت ظلال السيوف ـ وهو صبيٌّ إلّا بإيمانه!

ألاَ إنّه عليّ بن أبي طالب الذي تخلّعتْ بيديه أبوابُ القلاع والأبطالُ يهلعون ويُزلزَلون، فَتَترّس بها وهي على كفّه أخفّ من ريشةٍ في جنح طير.

ألاَ إنّه عليّ بن أبي طالب الذي لو لقي الآدميين واحداً وهم ملءُ الأرض كلّها لما بالى ولا استوحش ولا حدّثته نفسه إلا بصادق البأس.

ألاَ إنّه علي بن أبي طالب الذي ما يبالي أدَخَل على الموت أو خرَجَ الموت إليه.

ألاَ إنّه علي بن أبي طالب الذي تيسّر له في معنى القتال ما لم يتيسّر لبشرٍ سواه، إذ فتح له الزُهد بابَ الجهاد، وما فتح الزهدُ لغيره إلا بابَ الانكفاء، وخلّعَ له العطفُ على المستضعفين مغاليقَ الحصون، وَدكّ به الحبّ صروح البغضاء، ودفعَه حبّ الناس دفعاً إلى هذا الصراع الرهيب.

ألاَ إنّه عليّ بن أبي طالب الذي تتمزّق بسيفه الظلمات، وتنقضّ على هام عدوّه الرعودُ الصاعقات، وتذروهم الرياح السافيات، فإذا به هولٌ يدفع هولاً وفي عينيه دموعٌ تحوّلت شرراً، وفي حناياه عطفٌ توقّدَ ناراً.

ألاَ إنّه عليّ بن أبي طالب الذي ما امتشق سيفَه في وجهِ جائرٍ إلا ضحِك السيفُ ضحكَ العفِّ من متهتكٍ أثيم.

ألاَ إنّه عليّ بن أبي طالب الذي ما تَوامض سيفه في الفضاء وهوى إلّا وصاحَ معذّبٌ في الحجاز، أو العراق، أو أرض الشام يقول: بأبي أنت! سيفَ

الحقّ ومُنصفَ المظلوم والمحروم.

ألاَ إنّه عليّ بن أبي طالب مخبأ الفقير من الريح، وسترة الضعيف من السيل، ومَوئل العاجز من الزوبعة المهلكة، وصاحب الظلّ في الظهيرة المحرقة، كاللّيل.

ألاَ إنّه عليّ بن أبي طالب الذي تخضرّ الأرض حيث حطّت له قدمٌ، ويسقط الغيث. فمِن وجهه مياهُ النهر، ومن حبّه أمواجُ البحر عجيجاً.

ألاَ إنّه علي بن أبي طالب الذي تنبسط له القلوب إمّا صَفَتْ وطابت، وتنقبض عنه إمّا خلتْ من صفاء.

ألاَ إنّه عليّ بن أبي طالب الذي سيقول الدهر فيه، وفي سيفه، مع القائلين:

لا سيف إلا ذو الفقارِ ولا فتىً إلا علي

ألاَ إنّه عليّ بن أبي طالب فانهزموا يا ضواري الفتنة وإلا فما تَعصِمُكم سهولٌ ولا جبال!

وكان ما قالت جنباتُ الأرض أمراً محتوماً. فقد أصيب أهل الشام بالإيمان والشجاعة يأتيانهم ضرباً وطعناً من جيش العراق وكأيما أُصيبوا بزلزال. فكلّ من صودف منهم طُعن وكلّ من انحاز سقط بالسيف. ولم يبقَ لهم صفّ إلّا أنهار ولا جمرةٌ إلّا أُطفئتْ! إنّهم المعتدون القاسطون، يريد قائدهم أن يختويَ نفسَ الجائع ويمنع العطشان أن يشرب.

وكان المقام بصفّين مائةَ يوم وعشر أيام. والوقائع بين الفريقين تسعين وقيعة. ويشمل هذا مدّة القتال الطويل في جوار صفّين، وليس مدة المعركة الكبرى التي دامت نحو أسبوعين كاملين، وهي الوقيعة الدامية الرهيبة المعروفة بوقعة الهرير؛ والتي بلغ عددُ القتلى فيها من الجانبين مائة وعشرين ألف قتيل. وكان في المحاربين من الفريقين إخوانٌ أشقّاء وأبناءُ عمٍّ قتل

بعضُهم بعضاً. وممّا قاله الأزديّون في هذه الموقعة: «وما هي إلّا أيدينا نقطعها بأيدينا وما هي إلّا أَجنحتنا نحذفها بأسيافنا»(١). وبلغ أصحابُ عليّ خلالَ القتال خباءَ معاوية أربعَ مرّات، وكادوا يقبضون عليه، ولمّا تَبَيّنَ لابن أبي سفيان أنّ جيشه لا محالةَ مهزومٌ أَقعى وزاغ واسترختْ يداه وارتاع، وما استطاع لجأشه(٢) تخفيضاً إلّا بأنْ يتوارى خلفَ سترٍ جديدٍ من الحيلة، فدعا بفرسه لينجو عليه هارباً، وابن أبي طالبٍ يضرب بسيفه لا يستقبل جماعةً إلا تضعضعتْ أركانُهم وزُلزلت أقدامُهم فولّوا هاربين!

ثم إنّه أمر أصحابَه بمواصلة القتال فلعلّ الشيطان يوسّع له ولابن العاص في الحيلة، فاصطدم الفريقان في ملحمةٍ جديدة أسرفا بها في القتل وأيّامُها ثلاثة. ويروي المؤرخون أنّه لم يكن في الإسلام بلاءٌ ولا قتلٌ أعظم منه في تلك الأيام الثلاثة!

ويحدّث ابن قتيبة: أنّ عليّاً نادى بالرحيل في جوف الليل. فلمّا سمع معاوية رغاءَ الإبل دعا عمرو بن العاص فقال: ما ترى ههنا! قال: أظنّ الرجل هارباً! فلمّا أصبحوا إذا عليّ وأصحابه إلى جانبهم قد خالطوهم. فقال معاوية:

لقد زعمتَ يا عمرو أنّه هارب؟ فضحك وقال: من فعلاته والله. فعندما أيقن معاوية بالهلكة ونادى أهل الشام: كتاب الله بيننا وبينكم!(٣)

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٥/ ٢٠٩، تاريخ الطبري: ٤/ ١٨ وفيه: نجدّها بأسيافنا...، وقعة صفّين: ٢٦٢.

(٢) أقعى: نكص على عقبيه، أو أقعى فرسه: ردّه القهقري. المنجد: ٦٤٥، مادة «قعي».

زاغ: مال. الصحاح: ١٣٢٠/٤، مادة «زيغ».

جأشه: جأش القلب وهو رواعه إذا اضطرب عند الفزع، يقال: فلان رابط الجأش، أي يربط نفسه عن الفرار بشجاعته. الصحاح: ٩٩٧/٣، مادة «جأش».

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢١٢، الأخبار الطوال: ١٨٩، أنساب الأشراف: ٣٢٣، وقعة صفّين: ٤٧٨، الإمامة والسياسة: ١/ ١٤٤.

ويومئذٍ استبان ذلّ أهل الشام ورفعوا المصاحف على رؤوس الحراب، ثم ارتحلوا فاعتصموا بجبلٍ منيف، وصاحوا: «لا تردّ كتاب الله يا أبا الحسن! فإنّك أولى به منّا وأحقّ مَن أخذَ به»[١]. وكان صاحب هذه الحيلة عمرو بن العاص. وكان أصحاب عليّ يكرهون ابن العاص كرهاً شديداً لأنّه ـ كما وصفه اليعقوبي ـ : باع دينه مع عليّ بدنياه مع معاوية[٢].

ورفض علي التحكيم وهو يعرف القوم وما هم عليه من مراوغة واحتيال. واختلف أصحابه اختلافاً شديداً، أيقبلون هذا التحكيم وهم إنّما يحاربون لإعلاء كلمة الله وقد دُعوا إليها، أم يرفضون وقد شعروا بالخدعة بعد أن تمّ لهم النصر أو كاد؟ وأصرّ كلٌّ من الفريقين في جيش العراق على رأيه. أمّا عليّ، فإنّ مصيبته بأنصاره كانت أَشدّ من مصيبته بخصومه لأنّه كان ـ كما يقول جبران ـ : نبيّاً في غير قومه وغير زمانه؛ فلم يفهمه حتى أقرب الناس إليه. فقد كان في جيشه ـ أبداً ـ قومٌ مشاكسون يخونون عهده ويشغبون عليه سواءٌ في ذلك المغالون في حبّه والكارهون لانتصاره. من هؤلاء الأشعث بن قيس وكان صاحب مطامع؛ فقد ساءَت نوايا الأشعث هذا وغدر بعليّ وأصحابه أكثر من مرة! ولكنّ غَدْره في أيام صفّين كان أظهر!

ذهب الأشعث إلى عليّ بعد رفع المصاحف فقال له: «ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن. فإن شئت أتيتُ معاوية، فسألته ما يريد، فنظرت ما يسأل!»[٣].

وكثر الجدال بين الفريقين. وعاد الأشعث إلى عليّ ينادي بالتحكيم

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٤٧.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ١٨٥/٢.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦.

وعليّ وأصحابه لا يقبلون. ثمّ كثر أنصار التحكيم؛ وكان منهم أن أجترأوا على ابن أبي طالب فلم يبالوا بأن يخاطبوه متوعّدين قائلين:

«يا عليّ! أجبْ إلى كتاب الله عزّ وجلّ إذ دعيت إليه، وإلّا ندفعك برمّتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفّان. إنه عرض علينا أن نعمل بما في كتاب الله عزّ وجلّ فقبلناه. واللهِ لَتفعلنّها أو لنفعلنّها بك»[(١)].

وبلغ موقف عليّ الغاية القصوى من الدقة: أيرضى بالفتنة في جيشه أم ينزل عند رأي هؤلاء القوم؟!

وازداد موقفه حرجاً حين ألحَّ عليه المعارضون بزعامة الأشعث بن قيس أن يستدعي قائدَه الأشتَر النخعي من جبهة القتال، وإلا اعتزلوه أو غدروا به! وردّ عليّ قائد جيشه كارهاً. وقبِل التحكيم كارهاً كذلك!

واختار معاوية ومَن معه من أهل الشام عمرو بن العاص. فقال الأشعث لعليّ: إنّا قد رضينا أبا موسى الأشعري ممثلاً لك![(٢)].

وكان عمرو بن العاص داهية. وكان أبو موسى الأشعري فيه غفلة! وعليّ يعرف الرجلين حقّ المعرفة. فقال للأشعث: **«إنه ليس لي بثقة. وقد فارَقني وخذَل الناس عني؛ ثم هرب مني حتّى أمّنتُه بعد شهر. ولكنْ هذا ابن عباس نوليه ذلك!»**[(٣)].

فقال الأشعث ومَن معه: لا نريد إلّا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحدٍ منكما بأدنى إلى الآخر[(٤)].

وفي هذا القول ما فيه من نيّة الغدر بعليّ، وكأنَ قائليه يرغبون في مناصرة معاوية، أو يعملون له.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٢٨، الأخبار الطوال: ١٩٢، تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٢٨.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٢٨، الأخبار الطوال: ١٩٢، تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦.

وظلّ عليّ على إصراره في إبعاد أبي موسى الأشعري عن تمثيله، فقال: فإنّي أجعل الأشتر النخعي!

غير أن الأشعث كان كثير الحسد للأشتر. ففي الأشتر من الوفاء والعزيمة وحسن الرأي والبلاء في الحرب ما ليس له، وهو لذلك في مكانةٍ من نفس عليّ لم يبلغها الأشعث وسواه من أنصاره. فأبَى وقال لعليّ: وهل نحن إلّا في حكم الأشتر؟

ومَلّ أنصار عليّ وتكاثر معارضوه. وربّما كان للحرب الطويلة يدٌ في تغيير هؤلاء وميلهم إلى وقف القتال، فوقفوا من عليّ هذا الموقف وناصروا الأشعث عليه، فلمّا رأى ابن أبي طالب منهم هذا الإصرار، ورأى قلّة أنصاره، قال: **فقد أبيتُم إلا أبا موسى؟** قالوا: **نعم!** قال: **فاصنعوا ما بدا لكم!**[١]

أمّا الذين لم يقبلوا التحكيم من جيش عليّ، وأبَوا إلّا مواصلة القتال، فقد أبدوا نفورهم من أن يحكم أحد في كتاب الله. ورأوا أن فكرة التحكيم إنّما هي فكرة خاطئة، ففيم التحكيم والأمر واضحٌ جليّ؟ فليس من شك في أنّ عليّاً هو المحقّ، وأنّ معاوية وأصحابه على بُطل وضلال. ولقد حاربوا ـ هم ـ وكثُرَ قتْلاهم، وكلّهم مؤمن بأنّه على حقّ في مناصرة عليّ، فلمَ يشكّ عليٌّ في حقّه ويقبل التحكيم؟

وصاغ أحدُهم هذه الجملة التي توجز مختلف آرائهم في قضية التحكيم: ولا حكم إلا لله! وسرتْ سيرَ البرق إلى كلّ مَن يعتنق هذا الرأي في جيش عليّ. وأصبحت شعارهم، وبوحيها بدأوا يعملون!

وكاشفوا عليّاً العداء. وطلبوا إليه أن يقرّ على نفسه بالخطأ بل بالكفر لقبوله التحكيم، وأن يرجع عن الشروط التي أبرمها مع معاوية، فإنّه إنْ فعل عادوا إليه وحاربوا معه، وإلا فهم خوارج عليه!

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦.

وأبى عليّ أنْ يسايرهم في ما رأوه. فكيف يرجع عن عهد قطَعه وهو الوفيّ الذي لا ينكث اتّفاقاً أمضاه؟ وكيف يقرّ على نفسه بالكفر وهو لم يشرك بالله ولم يأت منكراً ولم يُسئ إلى إنسان؟ ولو كان عليّ ممّن لا عهد لهم، كمعاوية أو كعمرو بن العاص، لرضيَ بما عرض عليه الخوارج، فاستمالهم وواصل بهم قتال معاوية، ولانتصر!

وفي مثل هذا الوضع ـ بمجمله ـ ينظر ابنُ أبي طالب في أمره وأمر الناس؛ لينطلق لسانه بهذا القول وفي قلبه حسرةٌ محرقة: «**أيّتها الأمة التي خُدعتْ فانخدعتْ، وعرفتْ خديعةَ مَنْ خدَعها فأصرّت واتّبعت أهواءَها وخبطتْ في عشواء غوايتها، وقد استبان لها الحقّ فصدّت عنه، والطريق الواضح فتنكّبته! أمَا والذي فَلَقَ الحبّة وبرَأَ النسمة، لو اقتبستم العلم من معدنه، وادّخرتم الخير من موضعه، وأخذتم الطريق مِن أوضَحه، وسلكتم الحقّ من نهجه؛ لابتهجتْ بكم السبل، وبدت لكم الأعلام، وما عال فيكم عائل**[1]**، ولا ظُلم منكم مسلم ولا معاهد!**»[2].

ولمّا كانت نتيجة التحكيم المعروفة، وكان تمرّدُ الخوارج وعصيانهم، أبى عليّ قتالهم حتى ييأس من أخذهم سلماً، كما هي عادته مع مخاصميه. فإنّ الخوارج اجتمعوا واتّفقوا فيما بينهم قائلين: «إن هذين الحكمين ـ عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري ـ قد حكما بغير ما أنزل الله. وقد كفر إخواننا – من جيش عليّ – حين رضوا بهما وحكّموا الرجال في دينهم، ونحن على الشخوص من بين أظهرهم. وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحقّ من بين هذا الخلق»[3].

---

(١) أي: ما افتقر منكم أحد.

(٢) الكافي، للكليني: ٨ / ٣٢ وفيه: وبدت لكم الأعلام وأضاء لكم الإسلام، فأكلتم رغداً، وما عال فيكم عائل....

(٣) الأخبار الطوال، ص ٢٠٣.

بينَ الخَطأ وَالصَّوَاب

ـ أمّا الآخذون عليه هذه المآخذ، فما أراهم يـقيسون أعماله إلّا بـما انـحدرتْ إليـه المـقاييس التـي تـنفي الأمانة والصدق وعملَ الوجدان من حساب السـياسة ومن أُصولها!

وقبيل مواصلة الحديث عمّا كان من أمر هؤلاء والإمام لابدّ من الإلماع إلى حادثتين اثنتينَ جرَتا أيامَ صفّين، وفي زعمنا أنّهما أدلُّ على معنى النصر وروحه من النصر ذاته، ذي البنود والأعلام. وماكنتُ لأخصّها بقول لولا أنّ محبّي الإمام ومقدّري صفاته يرون أنّه لم يساير مصلحتَه فيهما، وهذا مـا لا يريدون. فلربّماكان كَفِل لنفسه النصر بغير قتال، أو بأيسر ما يكون من القتال لو أنّه سلكَ فيها مسلكاً آخر!

أمّا هاتان الحادثتان، فأُولاهما: ما رويناه من أنّ عليّاً أباح لجيش الشام وخيلها مياهَ الفرات بعد أن كان الشاميون قد منعوه منها وقالوا له: «ولا قطرةً حتى تموت عطشاً!». وبعد أن كان معاوية قد قال في احتلاله جوانب المياه: إنّه أوّل الظفَر، وأنّه لن يدع أهل العراق يشربون من الفرات حتّى يـغلبوه عـلى الماء، وأقسمَ على ذلك مشدّداً. فلمّا أزاحهم عليّ عن الماء مستبسلاً دعاهم إلى وروده أسوةً بنفسه وبأصحابه.

وأمّا الحادثة الثانية: فهي تلك البادرة مـن عـليّ سـاعةَ عـفّ عـن قـتل

عمرو بن العاص أثناء المعركة وهو بين يديه. وخلاصة ذلك:

إن علياً لمّا رأى كثرة القتال والقتل في الناس علا فوق التلّ ونادى بأعلى صوته: يا معاوية! فأجابه معاوية، فقال عليّ: علامَ يقتتل الناس؟ أبرزْ إليّ ودَعِ الناس فيكون الأمر لمن غلب. فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أنصَفك الرجل يا معاوية! فضحك معاوية وقال: طمعتَ فيها يا عمرو! يريد أنّه إنْ هو بارز علياً مقتولٌ لا محالة، فعندذاك يرث عمرو مطمَعه فيها ـ أي في الخلافة ـ. فقال عمرو: والله ما أراه يجمل بك إلّا أن تبارزه! فقال معاوية: والله ما أراك إلا مازحاً، نلْقاه بجمْعنا[1]! يريد بذلك أنّ علياً لا يجرؤ الأفراد على مبارزته، بل الجماعات!

وهنا يذكرون أنّ عمرو بن العاص قال لمعاوية: أَتجبُنُ عن عليّ وتتّهمني في نصيحتي إليك؟ والله لأُبارزنّه ولو متُّ ألفَ موتة!

وبارز عمرو علياً فما هي إلا لحظة حتى طعنه عليّ فصرَعه، ثم ومَض[2] سيفه كشعلة النار فوق هامة عمرو، فاتّقاه هذا بعَوْرته؛ فانصرف عنه عليّ وولّى بوجهه دونه. وكان عليّ لا ينظر لعورة أحدٍ حياءً وتكرّماً!

ربّما يقول القائلون من محبّي عليّ والراغبين له في النصر: إنّه لم يساير مصلحته في كلا الحالين: لم يسايرها ساعة أباح لمقاتليه الماء، وهو لم يفعل لكانت له حجّةٌ مزدوجة حجّة عسكرية خالصة، وتقوم بمنع العدّو عن الماء إلى أن يستسلم أو يخلّي القتال أو يرتبك ارتباكاً يحول بينه وبين النصر. وقد أدرك معاوية هذه الحقيقة ساعة كان هو على الماء، فقال: «إنّه أوّل الظفر»[3].

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٢٦.

(٢) ومض: لمع، برق، كتاب العين: ٧/٧١، مادة «ومض».

(٣) شرح نهج البلاغة: ٣/٣٢٠، وقعة صفّين: ١٦٣، الإمامة والسياسة: ١/ ١٢٥، مناقب الخوارزمي: ٢٠٨.

وحجّةٌ أُخرى لها في شرائع الحرب أُصولٌ، وهي: أنّ عليّاً أجلى أهلَ الشام عن الماء بالقوّة، بعد أن منعوه عنه بالقوّة، فكان من حقّه الصريح أن يعاملهم بشريعتهم وشريعة القتال.

ولم يساير مصلحته كذلك ساعةَ عَفّ عن عمرو بن العاص القائد القدير والسياسيّ الداهية وخصمه ومؤلّب الناس عليه، بعد أن أصبح ذو الفقار فوق هامته وهو صريعٌ بطعنة سابقة من كفّ عليّ. فإنّ عليّاً لو قتَله آنذاك لكان له في قتله حججٌ ثلاث: أمّا الحجّة الأُولى فعسكرية خالصة، وهي: أن مصرع عمرو بن العاص يعني دبّ الذعر في جيش الشام وفتْحَ الباب الواسع أمامه للهزيمة، ثم القضاء على ساعد معاوية الأيمن وصاحب الحيلة الأوّل في أصحابه وذي القول النافذ في كثيرٍ من المقاتلين.

وأمّا الحجّة الثانية، فهي: أنّ ابن العاص قائد جيش المتمردين على عليّ، وطالِب دمه ودم أصحابه في قتالٍ طويل رهيب.

وأمّا الحجّة الثالثة، فهي: أنّ عمراً ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ هو الذي طلب عليّاً إلى المبارزة ليخرج منها قاتلاً أو مقتولاً. فلو أنّه من أكفاء عليّ في القتال وهيّأ له الظرفُ أن يعلو بسيفه هامةَ خصمِه، لَما عفّ ولَما نجا عليّ. إذاً، فليس عليّ بملوم إذا قتل هذا الخصم.

أمّا أنْ يكون عليٌّ القائدُ ملوماً بهاتين الحادثتين إذ أتاح للنصر أن يفوته في حالتين، فممّا يحكم فيه خبراء القتال؛ وقد يكون حكمهم على جانبٍ من الصحّة.

ولكن، هل يكون عليٌّ القائدُ كلَّ عليّ بن أبي طالب؟

وهل بدا لنا، حتّى الآن، أنّ في عليّ ازدواجية في الشخصية، فإذا هو إنسانيّ النزعة شامل النظرة إلى الوجود وأشيائه ومعانيه هنا، وإذا هو جانبٌ من

إنسانٍ هناك، محدودُ النظرة قريبُ الغاية، تأخذه الساعةُ ويقوده الموقف ويلوي به حبّ النصر في المعركة عن الأخذ في كلِّ ما رحبَ من الآفاق وما سَلِمَ من المقاييس؟!

إنّ علياً لم يكن مرّةً إلّا هو نفسه، بكامل صفاته وأركان شخصيته وأُصوله الأخلاقية. وهو في معركة صفّين ليس إلّا هو في موقعة الجمل. وعليٌّ الذي أباح الماءَ لأعدائه وطالبي دمه ومانعيه عن الشرب «حتى يموت عطشاً»؛ إنّما هو عليّ الذي، قال: **«عاتب أخاك بالإحسان إليه، وارددُه بالإنعام عليه»**(١). و **«ما خيرُ خيرٍ لا يُنال إلّا بشرّ»**(٢). و **«خذ على عدوّك بالفضل فإنّه أحلى الظفرَين»**(٣)!

وعليّ الذي خلّى عمرو بن العاص وشأنه ـ على ما مرّ بنا ـ هو عليّ الذي قال فيما مضى: **«ما المجاهد الشهيد في سبيلِ الله بأعظم أجراً ممّن قدر فعَفّ، لَكاد العفيف أن يكون ملاكاً من الملائكة!»**(٤) و **«أولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة»**(٥). وهو عليّ الذي سيقول للناس بصَددِ قاتله فيما بعد: **«وإن تعفوا أقرب إلى التقوى!»**(٦). إنَّ علياً بطل هاتين الحادثتين هو عليّ الذي بكى أعداءَه: قَتلى وقيعة الجمل!

أجلْ، إنّ حدود الشخصية العظيمة ليست هذه الحدود التي يريدها لعليٍّ بعضُ محبّيه. إنّها ليست حدودَ القائد الذي يرتبط وجودُه ـ كلّ وجوده ـ بنصرٍ على عدوّ، لا حسابَ عنده لما هو أبعد من النصر وأسمى وأرفع شأناً: للقيم

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب القصار: ١٥٨ وفيه: وأردد شرّه بالإنعام إليه.
(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١.
(٣) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١.
(٤) شرح نهج البلاغة: ٢٣٣/٢٠.
(٥) نهج البلاغة: قصار الحكم، ٥٢.
(٦) البقرة ٢٣٧، وصوابه: ﴿وإن تعفوا أقرب للتقوى﴾.

الإنسانية التي لا تضبطها شرائع القتال ولا قوانينُ الناس، وتضبطها الضمائرُ الكريمة والأخلاق العظيمة.

أجلْ، إنّ حدود الشخصية العلوية لأقصى من أن تَدفع عليّاً لأن يمنع الآدميين من الماء ولو كانوا مقاتليه، ولو كان في منعهم منه نصرٌ له وهزيمة لهم! وهو إن أباحت له شرائع الناس في سلمهم وفي حربهم مثلَ هذا التدبير، فإنه ما أباحه لنفسه؛ لأنّ في نفسه من احترام الحياة والأحياء ما هو فوق شرائع الناس.

وإنّ حدود الشخصية العلوية لأكرم من أن تنحدر إلى المقاييس الحسابية الجافّة، فتهون على عليّ صرخةُ الحياة في خصمه عمرو بن العاص وهو تحت سيفه، فيقضي عليه! وأنّ حياء عليّ وتكرّمه لأجمل من أن يتقلّصا فيأذنا له بما يأباه الحياء والتكرّم وشرفُ النفس!

ثم إنّ عليّاً في الحادثتين هاتين، يُملي على التاريخ من أعمال الفروسية صفحاتٍ كلّها جمالٌ وبهاء. فالفروسية غير الشجاعة، لأنّها تحتوي الشجاعةَ بكامل حدودها، ثم تُضفي عليها من شرف النفس وكرم الخلق والعطف على الحياة والبِرّ بالأحياء، ما يجعلها على صعيد العبقريات الإنسانية ذات القيمة والوزن في كلِّ مقياس.

فالشجاعة إن اكتفتْ بالمبادرة والتغلّب فما كانت الفروسية لتكتفي بهما، بل تجعلهما في شروطٍ من التعفّف والحلم والعطف والتضحية. والشجاعة إن أَنكرتِ المقاييس في أُسلوب التغلّب والظفر، فإن الفروسية لتجعل هذا الأُسلوبَ أساساً في كلّ نصرٍ وغلبة. وما كان موت صاحب الفروسية بأعسرَ لديه من أن يأتيه نصرٌ لا حساب فيه لمكارم الأخلاق وصفاء الوجدان. ومزايا الفروسية هذه إن اجتمعت في شخصٍ فإنّما هي في شخص ابن أبي طالب

تجتمع.

ثم، واعَجباه! أيحرم ابنُ أبي طالب الآدميين ـ أيّاً كانوا ـ من الماء الذي يستقي منه الطير والعشب وبهائم الأرض!

أوَ يقتل ابنُ أبي طالب رجلاً رجاه في أن يظل حيّاً بين الأحياء، ينظر إلى الشمس والقمر ويأكل الخبز ويشرب الماء، أيّاًكان هذا الرجل!

وهاتان الحادثتان في حرب صفّين، ألاَ يراهما محبّوه منسجمتين كلَّ الانسجام مع ما يأخذه عليه الآخذون في سياسته، إذ يعلنون أنه أخطأ أكثر من مرّة بعزْله معاوية، ثم بمعاملته طلحةَ والزبير، ثم بتضييقه على الولاة والعمّال، فماكان ليطلق أيديهم في أموال الناس ورقابهم؛ احتفاظاً بمناصرتهم إيّاه وكسباً لموالاتهم له؟

أمّا هذه المآخذ على سياسة عليّ، فما أحسبها إلا من حسناته المنبثقة عن دقّة حسّه وسلامة ضميره. أمّا الآخذون عليه هذه المآخذ، فما أراهم يقيسون أعماله إلا بما انحدرتْ إليه مقاييس العصور التالية التي تنفي الأمانة والصدق وراحة الوجدان من حساب السياسة ومن أُصولها.

لقدكان عليّ من المهارة والمقدرة على الدهاء بحيث لم يكن غيره من مهَره العرب ودُهاتهم. وكان من بُعد الغَور وعمق النظر في أُمور السياسة والقتال، ومن سبْر النفوس وإدراك الدخائل، ومن معرفة النتائج قبل الوصول إليها، والبصر بأهواء الرجال ومطامعهم وأساليبهم في الحيلة بحيث لم يكن معاوية ابن أبي سفيان ولا عمرو بن العاص ولا غيرهما من أهل الدهاء والحيلة، ولكنّه كان يزدري الحيلة الملتوية ويمقت ما يسمّيه الناس استغلال الفرصة إذاكان فيه ما يُخجل الخلق. وكان يرفع نفسه عن المكر والكيد ولو جاءاه بالنصر، ويأبى إلّا الصراحة والصدق. أوَليس هو القائل بصدد ما شاع

في زمانه عن دهاء معاوية وقعوده ـ هو ـ عن مثل هذا الدهاء: «**والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى العرب!**»[١] وقد أشبعنا هذه الناحية درساً مباشراً أو غير مباشر فما بنا حاجة للعودة إليها الآن، وإنّما نذكرها بمعرض الحديث عن حادثَتي صفّين، لنرى إلى أيّ حدّ يعجز بعض خصومه وبعض محبّيه عن إدراك شخصيته إدراكاً صحيحاً شاملاً، فإذا بأُولئك يتّهمونه بالتقصير في الميدان السياسي، وإذا بهؤلاء يأسفون لفرصتين لم يستغلّها في الميدان الحربي. وكلّهم مخطئ بمقياس الشخصية العلوية؛ لأنّ مفاهيم السياسة وقواعد الحرب عند الإمام نابعةٌ من معين واحد لا يتجزّأ ولا يتقطع، هو الشخصية العلوية، أو قل الروح العلوية التي يُصدقُ بعضُها بعضاً وتستند مآتيها الواحد إلى الآخر، ولا مقياس لديها أجلّ وأعظم من الوجدان السليم والخلق الكريم اللذين يكمنان عنده وراء كلّ قاعدة وكلّ شريعة.

ثمّ إنّ قولاً غير هذا نرى من الخير أن نثبته في هذا المقام. تَحدّث إليّ مرّةً صديقٌ أديب يُعني بشؤون الإسلام قال ـ وكأنّه ينزع عن ألسنة سائر القائلين ـ:

لن تقنعني بأنّ عليّاً كان خبيراً بأحوال السياسة وأُمور الرجال، وبأنّه كان من الموهبة السياسية بحيث تقول. فسألتُه، قائلاً:

لنفرض أنّ الصدفة لم تسق عبد الرحمن بن ملجم إلى قتل عليّ، أو لنفرض أنّ الصدفة شاءَت أن يكون إلى جانب عليّ، صبيحة مقتله، رهطٌ من أنصاره فوَقَوه الضربةَ الغادرة، فنجا، ثم عاد ثانيةً لتأديب معاوية تنفيذاً لِما كان عازماً عليه، وانتصر على جند الشام في معركة السيف كما كان مرجّحاً أن يكون، أو لنفرض أنّ حيلة التحكيم في موقعة صفّين لم تنطلِ على قسمٍ من جيش عليّ، فتابعوا القتال وقبضوا على معاوية وعمرو بن العاص، وانتهى أمر

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢٠٠: ٢/ ١٨٠.

الموقعة كما انتهى أمر موقعة الجمل. أقول: لنفرض كلّ هذا أو شيئاً من هذا، وأن عليّاً انتصر أخيراً على معاوية كما انتصر على طلحة والزبير – وهو إن لم ينتصر فعلى الصدفة والقدر تقع المسؤولية – فماذا كنتَ تقول في سياسة عليّ عندذاك؟! وأيّ مطعن في كفاءاته كنت ترى؟! أمَا كنت تقول مع القائلين، إنّ عليّاً جمع إلى البلاغة والحكمة وشرف النفس وصفاء الوجدان، دهاءً فوق دهاء معاوية في السياسة، وطاقةً فوق طاقة عمرو بن العاص في مواجهة الأحداث ومعالجة المعضلات؟

وما يقال في شأن عليّ بهذا الصدد يقال في شأنه يوم أخذ عليه الآخذون عزْلَ معاوية عن الولاية، وعزْل غيره من الولاة الذين شاءَت الصدف وأحوال العصر وسياسة عثمان وأوضاع الناس أن تمدّهم بأسلحةٍ لا شأنَ في مقارعتها للخُلق السليم والإدراك العظيم والكفاءَة الخالصة. لقد تعوّد الناس ـ وفيهم الدارسون والمؤرّخون ـ أن ينساقوا في تيّار المألوف من النظر في الأُمور والحكم عليها، وفي مقدمّة هذا المألوف أن تقاس كفاءات الرجال في الصراع بمقياس الانتصار والانكسار دونما نظرٍ إلى الأُسلوب المتّبع في إدراك النصر، ودونما نظرٍ إلى احتمالاتٍ كثيرة يتعلّق بعضها بالأخلاق إذ تنحدر أو تعلو، ويرتبط بعضها بالصُدَف والتقادير التي لا يدَ في دفْعها لمنكسر، ولا يدَ في أعدادها وإنزالها منزلة السلاح القادر القاهر، لمنتصرٍ أو لذي دهاء.

وعلى كلّ حال، فإنّ هؤلاء يريدون من عليّ أن يوارب في السياسة، وأن يستغلّ الظرف في القتال، ويأبى هو ذلك!

إنّهم يريدونه أن يكون معاوية بن أبي سفيان، وهو عليّ بن أبي طالب!

وشاءت الأقدار

ـ وأبَى القدرُ إلا أنْ يرشقَ من كِنانته سهماً جديداً يصيب به علياً!

ولنعدْ إلى حديثنا الذي قطعناه: خرج الناقمون إلى قرية قريبة من الكوفة تدعى «حَروراء» وسُمّوا حينئذٍ بالحرورية نسبة إلى هذه القرية، كما سُمّوا بالمحكّمة، أي الذين يقولون لا حكم إلا للّه. على أنّ تسميتهم بالخوارج هي الأشهر.

ولقيهم عليّ بالجيش، غير أنّه آثر أن يستردّهم دون قتالٍ إذا أمكن؛ وأن يناقشهم في ما هم فيه. فاقترح عليهم أن يبعثوا إليه رجلاً منهم يسأله ويجيبه ويتوب إن لزمتْه الحجّة ويتوبوا إن لزمتْهم. فأخرجوا إليه إمامَهم عبد الله بن الكوّاء. وطال النقاش بين عليّ وعبد الله. وأفحمَه عليّ في كلّ ما سأل وأجاب: وأقام الحجّة على الخوارج في حوارٍ طويل. فعاد ابن الكوّاء إلى أصحابه الخوارج يبلّغهم أن الحقّ كان إلى جانب عليّ، وأن الحجّة كانت عليهم في ما دار بينه وبين الخليفة من نقاش. فأبوا أن تلزمهم الحجّة وأن يخضعوا لإرادة عليّ بعد أن كفّروه. وعابوا على إمامهم عبد الله بن الكوّاء أنّه ليس ندّاً لعليّ في المنطق والحجّة وصواب التفكير، وأنّه ليس له في مجال النقاش، وكلّهم يعلم أن أمثال عليّ في الدنيا قليل. وطلبوا إلى صاحبهم أن يكفّ عن مناقشة عليّ وعن التحدّث بما كان من أمرهم. وآثروا أن يعتصموا بعنادهم المقيت، وأن

يكون لهم من تهوّسهم ما يدفع عنهم حجّة عليّ وقصْده. ثم أصرّوا على تكفير عليّ دون أن يقيموا على ذلك دليلاً، كما أصرّوا على معاملة جيشه وأنصاره معاملة الملحدين المارقين.

وتألم عليّ لهذا الموقف يقفه منه أنصاره بالأمس. وتألم للحجّة الصحيحة لا تبلغ من نفوسهم مبلغاً، وللهوَس يقودهم ويعمي بصائرهم. وأيقن أنّ الحكَم لن يكون بينه وبينهم إلّا السيف، ولا سيّما بعد أن أمعنوا في استهتارهم بأرواح الناس فراحوا يفسدون ويخربون ويقتلون. غير أنّه لم يتنكّر لتاريخه في المبادرة بالحسنى، فقال لأصحابه: لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم! وصاح الخوارج صيحتَهم الشهيرة: «لا حكم إلا لِلّه[1]. وهجموا على عليّ وأنصاره هجمةَ رجل واحد، شرس، عنيد، لا يبطئ ولا يتراجع. فما كان من أمير المؤمنين وأنصاره إلّا أن تلقّوهم بالسيف. واشتدّ القتال واستمات الفريقان في معركة النهروان التي ما انجلتْ إلّا عن الخوارج وهم صرعى ما خلا أربعمائة رجل أُصيبوا بجراح كثيرة فعجزوا عن القتال. وهم لولا جراحهم لأبوا أن يرتدّوا إلّا غالبين أو مقتولين! فأمر عليّ أن يُرفَقَ بهم وأن يُحملوا إلى عشائرهم لينظروهم ويدركوهم بالعلاج.

وأَراد علي أَن يعود فيسير إلى الشام لتأديب معاوية من جديد. فتصدّى له الأشعث بن قيس للمرّة الثانية يحمله مُكرهاً على غير ما يريد. وتمكّن الأشعث من إقناع فريق كبير من جيش عليّ بالهرب من المعسكرات واللجوء إلى المدن القريبة. وحجتُه في ذلك أنّهم تعبوا من القتال الطويل فليستعيدوا قواهم ثم يعودوا إلى جيش أمير المؤمنين!

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ٢٢٨، الأخبار الطوال: ٢١٠، النصائح الكافية، لابن عقيل: ٢٠٣.

وسار عليّ إلى الكوفة ليعدّ العدّة من جديد، ثمّ يهاجم الشام.

أمّا معاوية، فقد خدمه جنده، وخدمه الخوارج غير عامدين، وخدمه الأشعث بن قيس عامداً ـ كما يقول بعض المؤرّخين ـ فعاد إلى الشام وقد رأى الحظّ يبسم له، وأقام على الإنتظار!

وهنا أبى القدر إلا أن يرشق من كنانته سهماً يصيب به عليّاً فتتمّ به مأساة الرجل العظيم، ويظفر خصومه بتوفيقاتٍ لم يكن لهم من يدٍ فيها ولا رأي! فقد اجتمع قومٌ من غُلاة الخوارج وتذاكروا القتلى من رفاقهم وذويهم، فأجمعوا رأيهم على أنّ وزْرَ هذه الدماء إنّما يقع على ثلاثة من المسلمين هم «أئمّة الضلال» كما يسمّونهم، يعنون بهم: عليّاً ومعاوية وابن العاص. نهض أحدُهم واسمه البرك بن عبد الله فقال: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان، وقال عمرو بن بكر: وأنا لعمرو بن العاص، وتكفّل عبد الرحمن بن ملجم بأن يكفيهم عليّاً!

واتّفق الثلاثة على أن يقتلوا عليّاً ومعاوية وعمراً في ليلة واحدة! وكان لهؤلاء من تهوّس العقيدة ومن الرغبة في الاثّئار حافزٌ على تنفيذ ما ائتمروا عليه، غير أن المصادفة العجيبة شاءت أن تخصّ عبد الرحمن بن ملجم بحافز آخر يدفعه دفعاً إلى قتلِ علي حتّى ولو تلكّأ صاحباه عن قتل معاوية وعمرو تنفيذاً لِمَا اتّفقوا عليه. فإنّ ابن ملجم هذا خرج من مكّة وسار حتّى قدم الكوفة، فزار فيها رجلاً من أصحابه، فصادف عنده قطام بنت الأخضر، وهي فتاة فائقة الجمال ليس في بنات عصرها من يفوقها بهاء. وكان أبوها وأخوها قد قُتلا بالنهروان. فماكاد ابن ملجم يراها حتّى أخذتْ قلبَه، فسألها أن يخطبها. فقالت له: ما الذي تسمّي لي من الصداق؟ فقال لها: احتكمي ما بدا لك. فقالت: أنا محتكمة عليك ثلاثة آلاف درهم، ووصيفاً وقَينة، وقتْل عليّ بن ابي طالب!

قال: لك ما سألت من ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة، أمّا قتل عليّ بن أبي طالب فأنّى لي به! قالت: تلتمس غرّتَه، فإن أنت قتلتَه شفيتَ نفسي ونفسك وهَنأك العيشُ معي طويلا(١)!

كان ابن ملجم يتردّد في ما عزم عليه من قتْل عليّ قبل أن يكون هذا الحوار بينه وبين قطام بنت الأخضر. فما هو بالسهل على المرء مهما تدنّى ضميرُه أن يقتل عليّاً بأُمورٍ لم يكن عليّ سبباً فيها. ثمّ ما هو بالسهل على المرء كذلك أن يغامر هذه المغامرة الرعناء التي قد يهوله بَعْدها المصير! ولكن القدر شاء أن يضاعف رغبة ابن ملجم في ما تَردّد فيه، ويدفعه في طريق الجريمة البشعة، ويطلق على يديه في صدر الإمام سهماً جديداً من كنانته! لذلك قادت الصدفةُ عبدَ الرحمن هذا إلى بيت صاحبه وقادت إليه في اللحظة ذاتها قطام بنت الأخضر. فكان بينهما ماكان من سؤال وجواب وتعاقُدٍ على هذا المَهْر العجيب. وفي ذلك قيل:

فلم أرَ ساقَه ذو سماحةٍ كمهْرِ «قطامٍ» من فصيحٍ وأعجمِ
ثلاثةُ آلافٍ، وعبدٌ، وقيْنةٌ وضربُ «عليٍّ» بالحسام المصمَّمِ!
ولا مهْرَ أَغلى من «عليٍّ» وإن علا ولا فتْك إلا دون فتْكِ ابنِ مُلجمِ!(٢)

لقد انتهى الحوار بين قطام وعبد الرحمن بقوله لها: ولكِ ما سألتِ من قتل عليّ بن أبي طالب!

وكان المؤتمرون الثلاثة قد خرجوا متواعدين إلى ليلةٍ واحدة يقتل كلٌّ

(١) مقاتل الطالبيين، ص ١٩، الإرشاد، للمفيد: ١/ ١٨، نهج السعادة: ٧/ ١٠٧، شرح نهج البلاغة: ٦/ ١١٥، أنساب الأشراف، ص ٤٩١.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٢٣، الإرشاد، للمفيد: ١/ ٢٢، شرح نهج البلاغة: ٦/ ١٢٥، الأخبار الطوال: ٢١٤.

منهم صاحبَه فيها.

وأمعنت الصدفة في الغرابة والقدر في الإساءة ممّا لا تُلقَى تبِعتُه على أحدٍ بعينه.

أمّا عمرو بن العاص فلم يظفر به صاحبه؛ لأن الصدفة شاءت ألا يظفر به. وقصة ذلك أن عمراً كان قد شكا وجعاً ألمّ به تلك الليلة فلم يخرج من بيته للصلاة أو غيرها، بل أمَر صاحب شرطته واسمه «خارجة بن حذافة» أن يخرج ويصلّي بالناس، فترقّب عمرو بن بكر دنوّه منه فلمّا دنا ضربه بالسيف ضربةً محْكَمة هو يحسبه عمرو بن العاص، فأرداه للحال. فلمّا جيء بالقاتل إلى ابن العاص قال له: أردتَني وأراد الله خارجةَ بن حذافة! وأمَر به فقُتل[1].

أمّا معاوية فقد قصده صاحبه البرك بن عبد الله فلمّا وقعتْ عينه عليه ضربه فما أصاب منه مقتلاً، بل وقعت ضربتهُ على إليته. وجاءوا بالبرك هذا إلى معاوية فقال له البرك: إن لك عندي بشارة. قال معاوية: وما هي؟ فأخبرَه بخبر صاحبَيه، وقال له: إن علياً يُقتَل في هذه الليلة فاحبسني عندك فإن قُتل فأنت وما تراه في أمري، وإن لم يقتل أعطيتُك العهود والمواثيق أن أمضي فأقتله ثم أعود فأضع يدي في يديك حتّى تحكم فيّ بما تراه، فحبسه معاوية عنده. فلما أتاه أنّ علياً قُتل خلّى سبيله. هذا ما يرويه أبو الفرج الاصفهاني في مقاتل الطالبيّين[2]. ومِن الرّواة من يجزمون بأنّ معاوية أمر بصاحبه البرك فقُتل في الحال.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٤/ ١٨٨، و ٧/ ٤٩٦، أُسد الغابة: ٢/ ٧١، تهذيب الكمال: ٨/ ٧، الإصابة: ٢/ ١٨٩، أنساب الأشراف: ٤٩١.

(٢) مقاتل الطالبيين: ١٨ .

لا تـزجرُوهنَّ، إنَّهنَّ نوائح!

ـ وراح الليـلُ هـزيعاً يلف هـزيعاً، وظلاماً يـدخلُ في ظلام!
ـ وحلّتْ على ابن ملجمٍ لعنةُ الله ولعنةُ اللاعنين ومَن وُلدوا ومَن ماتوا ومَن قال لهم اللهُ كونوا فكانوا!
وأهلكَه ألفُ شيطانٍ كبّوه على وجههِ في سَواء الجحيم وفيها لفْحٌ وفيها أفواهٌ من اللّهبِ ذاتُ أجيجٍ وذات صفير!
ـ وخلّى الإمامُ عَدوَّهُ في الإرضِ قوماً بُورا!

في جانب منَ الأرضِ غريبٌ كئيبةٌ غربتُه، وحيدٌ أوجعتْه الوَحدةُ القاسية كما لا يكون!

غريبٌ عن قومهِ ومن كلِّ بؤسٍ في قومه بؤسٌ في فؤاده وشجون!

غريبٌ عن زمانه وهو ملءُ كلِّ زمان!

في الأرض غريبٌ عن الأرض وهي واعيةٌ منه كلَّ قولٍ وشاهدةٌ كلَّ عملٍ عظيم!

في الأرض غريبٌ يُعطي ولا يأخذ. يُعتدَى عليه ولا يعاقب. يقدر فيعفو ويُكثر العفو. لا يُحيف على مَن أبغض ولا يأثَم في مَن أحَبّ. عَونٌ للضعيف أخٌ للغريب أبٌ لليتيم حَفيٌّ بمَن ضَيّقتْ عليهم الحياةُ، يرجونه لكلِّ كريهةٍ يأملونه لكلِّ شدّة. كثيرٌ علمُه عظيمٌ حلمُه. يملأ السهلَ والجبلَ وتملأ قلبَه دمعةُ

بائسٍ، أو حزين يفلق بسيفه هامَ الجنّ ويغلبُه عطفٌ على شقيّ. يعدل في الناس إمّا صحا النهارُ ويُقيم حدودَ الحقّ، ويبكي مصائرَ الخَلق إمّا استوتِ الظلمةُ وجُنّ الليل!

في الأرض غريبٌ ما همسَ إليه مظلومٌ بغبنٍ إلا جلجلَ بصوتهِ الرّعدُ يرجسُ في بيوت الظالمين! وما دعاه مستغيثٌ إلا تكشّفَ بسيفِهِ البرقُ يأكلُ غياهبَ الماكرين. وما ناداهُ محرومٌ إلّا فاض مِن قلبه الحنانُ غَيْثاً على البَلْقعِ اليابسِ والخَيْفِ الجديب!

في الأرض غريبٌ منطقُهُ الصواب وملبسه الخشونة ومشيُهُ التواضع، وما انحدرَ الناسُ إلّا ارتفع!

في جانبٍ من الأرض غريبٌ الناسُ منه في نعيمٍ وهو من نفسه في شقاء!

ومن يكون هذا الشجاع، العبقريّ، الغريب، الضارب بعينيه في كلِّ أُفق، المُتعَب الذي أشقاه مَن أراد لهم نعيم الأرض وجنّة السماء؟

من يكون هذا الشجاع، العبقريّ، الغريب، الذي أنكره أعداؤه حسداً وطمعاً، وخلاه محبّوه خوفاً وفزعاً، وظلّ وحدَه يحارب الفساد والبُطل، ويواجهُ الخلقَ على نهجٍ مستقيم وصِراط قويم، لا يُغريه انتصارٌ ولا يُؤذيه انكسار، لأنّه الحقّ لا تَعنيه إلّا حدودُه فَليُنكرْه قومٌ وَلْيَخْشَه آخرون؟!

من يكون هذا العبقري الغريب سوى «**ابنِ أبي طالبِ عليٍّ أمير المؤمنين**»، التعِسِ الحزين، الذي سيغدر به ماكرٌ خبيثٌ بصَدَاقِ ماكرةٍ خبيثةٍ نفَثَ على لسانها الشيطان؟

كان الليلُ بهيماً مُدْلهمّ الظنون، وكانت السماءُ غائمةً تتراجف في جنباتها سُحبٌ ثقيلةٌ بطيئة إلا ما تَمزّق منها بومضِ البروق فهو هِفٌّ خفيف! وكانت في أماكنها النسورُ القشاعم هاجعةً مطأطئةَ الرؤوس لن تحملها في غدٍ خوافٍ

ولا قوادمُ فهْيَ في جَزَعٍ على النسّر العظيم!

وأَرِقَ الإمام لا يذوقُ مناما! ففي الأرض معذّبون أَشقاهمُ الجَوْرُ وضَيّقتْ عليهم الحياة! وفي الأرض تافهون يعلون، وأقوياء يتجبّرون، وعُظماء يشرّدون، وضُعفاء يُؤكَلون، وخصومٌ يتعاونون على الشرّ، وفُجّارٌ يتحابّون في عمل المعصية، وأنصارٌ يتخاذلون عن الحقّ ويخذلون!

أَرِقَ الإمامُ لا يذوق مناما ! فالعدل مضامٌ والخير مضيّع، ومصير الناس مرهون بعبث العابثين، وكرامة الحياة والأحياء وقفٌ على إرادة مَن أفسدوا ويُفسدون، والنفاق في الأرض كثير.

أَرِقَ الإمامُ لا يذوق مناما! فهو مُذ كان على الأرض كان للعدالة نصيراً وركناً، وللبائسين والمعذّبين أخاً وحبيباً. وكان صاعقةً على رؤوس الطّغاة والظالمين يقول فيهم لسانُه قولاً كثيراً، وقول سيفه جهاد لا يلين.

لقد تيقّظتْ في خيالِه تلك الليلة صفحاتٌ من تاريخه القريب والبعيد، فإذا هو يتمثّل نفسَه طفلاً صغيراً يمتشق حسامَه على عجبٍ من قومه القرشيين، ويهزّه في وجوههم بشيراً ونذيراً وناصراً للرسالة. وإذا قومه ينكفئون ساخرين عابثين. وإذا هو ماضٍ في طريقه واقفٌ دمَه مِن دونهم على خدمة النور.

وتَمثّلَ نفسَه في فراش النبيّ ليلةَ الهجرة يرقدُ فيه تحت ظلال السيوف ولوافحِ النقمة؛ لَعلَّ أبا سفيان والمشركين وتجّارَ الأعناق يضلّون الطريق إلى صاحبِ الرسالة فينجو فيمزّقُ نورُه ظلمةِ الجاهلية.

وجدّ في استعادة ذكرياته الماضيات، فتمثّلَ نفسَه في معارك العدالة بطلاً حَطّم به الحبُّ كلَّ حصنٍ وقضى على كلّ خبيث، وحولَه أنصارهُ الفقراءُ والمستضعفون يقبّلون الأرض لدى كلِّ ضربةِ سيفٍ من كفّه، هم يرَون إلى

الطّغاة يفرّون مِن أمامِه كما يطيرُ الجرادُ في الريح الشديدة والهبوب.

وتَمثّل النبيَّ ابن عمّه، ينظر إليه برفقٍ وحبّ عظيمين، ويضمّه إلى صدره ويقول مشيراً إليه: **هذا أخي!**

وتَمثّل النبيَّ ابن عمّه مرّةً ثانية وقد دخلَ عليه فوجدَه نائماً، فذهبت فاطمةُ تنبّهُهُ، فقال لها أبوها: «**دعيه فربَّ سَهَرٍ له بعدي طويل!**» فبكت فاطمةُ وأمعنت في البكاء![1]

وتَمثّلَه فوق ذلك قائلاً له: «**يا عليّ! إنّ اللّه قد زيّنك بأحبّ زينة لديه، وهَبَ لك حبَّ المستضعَفين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً!**»[2] .

واستعاد في خياله ذكرى موت النبيّ بين يديه، وآخر نظرةٍ حطّها عليه، ووجومَ فاطمة وحزْنَها الكثير، حتى إذا مرّت أيامٌ لا تجوز الأربعين لحقتْ بأبيها العظيم وهي في الثلاثين، فأودَعها الأرض، وبكاها أحرّ بكاء، وعاد إلى بيته في أول الليل كئيباً، حزنُهُ سَرْمَدٌ وليلهُ مسهّد.

واستعادَ صورةَ ابن الخطّاب وهْو مقبلٌ عليه يقول له: «أمَا والله لئن وليتَهم لَتحملنّهم على الحقّ الواضح والمحجّةِ البيضاء!»[3] وصورَ الصحابة جميعاً وهم يردّدون: «كنّا لا نعرف المنافقين في عهد رسول الله إلا ببغض عليّ!»[4] والنبيّ، ألم يقلْ له مراراً: «**يا عليّ! لا يبغضك إلّا منافق**»[5].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٤/١٠٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١١/٢٣٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٨٦، تاريخ المدينة، لابن شبية: ٣/ ٨٨٢

(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٦٣٥، الحديث رقم: ٣٧١٧، ابن عساكر في ترجمة الإمام علي عليه السلام: ٢/٢١٨، الحديث رقم: ٧١٣، العمدة لابن البطريق: ٢١٨/ ٣٤٣، عيون أخبار الرضا، للصدوق: ٢/ ٦٧.

(٥) الغارات: ٢/ ٥٢، شرح النهج: ١/ ١٠.

وذكَر في ساعاته تلك رفاقَه في الجهاد أيّامَ كانوا يتعاونون ويتآخون في ظلّه وظلالِ النبيّ. فإذا همُ اليومَ بين محاربٍ له ومحازبٍ عليه وطامعٍ في ولاية صريعٍ بهذا المطمع أو غير صريع. أمّا الطيّبون فيهم، الأوفياء للحقّ والعدالة، المعاهدون على الخير، فوارحمتاه لهم! فإنّهم غرَباء عن هذه الدار. قَتَلَهم عدْلُهم ووفاؤهم، وأرخى عليهم الجورُ من سُدوله ألفَ ستار.

أمّا الغفاريُّ أبو ذرّ، الثائر على الاستهانة بالحياة، والعظيم الكريم الذي لم يترك الحقُّ له صديقاً إلّا عليّاً، فيالكآبة ما صار إليه!

إنّه يتمثّله الآن مُلْتَفِعاً بعباءته الممزّقة، وجارياً إلى النبيّ يعرض عليه نفسَه في خدمة الحقّ، ثم يظلّ للحقّ نصيراً يحياه بدمه وخفوق قلبه، إلى أن كانت ثورتُه في سبيل المظلوم والمحروم، ثم مأساتُه على يد عثمان ومروانِ ابنِ الحَكَم، فنُفيَ، فمات في مثل هذه الليلة، طريداً في فلوات الأرض، شريداً بعد أن مات أولادُه جميعاً أمام عينيه، ورأى رفيقتَه الطيّبة تنظر إليه؛ ولا تريده أن يموت قبلَها لئلّا تموتَ مرّتين!

مات أبو ذرّ على أيدي الأمويّين جوعاً وتحت أقدامهم ذهبُ الأرض.

وفي مثل هذه الليلة أيضاً، قبَيل ساعات، قُتِل بالأمس القريب نصيرهُ، بل أخوه، التعِسُ التقيّ الصادق البأس: عمّار بن ياسر! قتلتْه الفئة الباغية في أيّام صفّين.

أجل! أين إخوانه الذين ركبوا الطريقَ ومضوا على الحقّ وتعاقدوا على النيّة؟ فإذا هم لا يهجرون ولا يغتابون ولا يمكرون.

أين أولئك الأخيار؟ لقد ولّوا جميعاً. أمّا هو فما يزال في صراعٍ دامٍ رهيب مع الظلم والظالمين؛ ولو أمكنَه اللهُ من أهلِ البَغي لَيحرقنّ البغيَ حرقاً، ثم لَيَنْسِفنِ أهلَه في اليمّ نسْفاً.

إنّه صراعٌ يحمل فيه جانبَ الحقّ وحيداً، بعد أن كان له أنصارٌ ملءُ القلوب والأبصار.

صراعٌ ينازله فيه قومٌ صبيّهم غاوٍ، وشابّهم فاتكٌ، وشيخُهم لا يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنْكَر. قومٌ لا يهابون إلّا مَن يخافون لسانَه، ولا يُكرِمون إلّا مَن يرجون نواله، إنْ هو تركَهم لم يتركوه، وإن تابَعهم اغتالوه. يتصاحبون على غير هدىً، وإذا افترقوا ذمّ بعضُهم بعضاً!

صراعٌ يريدونه له عنيفاً كالتيّار لا يبالي ما غَرّق، أو كوقْع النار في الهشيم لا يحفل ما حَرّق!

صراعٌ بين مَن يريد للناس خصْبَ الأرض ونضْرةَ الدنيا، وبين مَن يقصون الناس عن الخضرة والنضرة إلى منابتِ الشيح ومهافي الريح!

يا للحياةالتي لم يعرفْها حتّى الآن إلّا جهاداً وشقاء!

ويا للخيّرين في الأرض وأهلِ الصدقِ، يُخلّونها واحداً واحداً فيكثر فيها البغيُ ويطغى الجور!

وتصوَّر العبقريُّ الغريبُ غدَ الناس آتياً قريباً. غداً أشدّ ظلمةً من ليالي البائسين، وأبرد زمهريراً من ضمائر الناكثين، ينوءُ بكلكلهِ الثقيلِ على أهلِ الشقاء، وما تسكنُ غداً الريحُ ولا يسكتُ لها عويل.

غداً يخفّ به الخَلقُ ميزاناً عند مَن نصَبوا أنفسَهم على الناس حكّاماً نفاقاً وزُوراً، فما يُقرَّبُ فيه إلّا الساعي والماكرُ وصاحبُ الفسادِ العريض، ولا يُسَوَّدُ فيه إلّا الظالم والجائر، ولا يُظرّف فيه إلا المائعُ التافهُ الثقيل، ولا يعيش ملءَ بُرْدَيْهِ إلّا الوقحُ الباردُ الدنيء، ولا يهون أمر امرئٍ إلّا إذا أنصفَ وأحبَّ، وكان عوناً للمظلوم وحرباً على الطغاة والطغيان، وإعصاراً يهبّ نحوَ كلِّ سماءٍ فيها بقيّةٌ من الظالمين.

غداً يا له من غدٍ أليمٍ يستَشِفّه عليٌّ بقلبه وعقله! فما بَعْدَ العشيّة من عظيمٍ يُؤْثر الصدقَ حيث يضرّه على الكذب حيث ينفعه! وما بعدَ العشيةِ من حاكمٍ أبٍ للناس يستحبُّ آلامَ الحقّ على لذّةِ الباطل! وما بعدَ العشيةِ من قلبٍ وعقلٍ يَعْدلانِ في الخَلق ويعملانِ بالحقّ، ولو زلزلتِ الجبال زلزالها وشُقّتْ صفحةُ الأرض فبعثرت قبورها!

غداً يا له من غدٍ! حَسْبُ البليد فيه أن يبرع في الظلم، حتّى يأتيَه السلطانُ مجرِّراً أذيالَه، مختالاً. وَحسْبُ الكريمِ فيه أن يقتلع مذاهبَ الظالمين من أُصولها ويُلقيها على قدَمَيْه هشيماً يابساً حُطاماً؛ حتّى تخرجَ أنفاسهُ ويذوق الويل.

إنّ أخا المظالم الذي قاتلَه بعقله وقلبه ولسانه وسيفه، وعَرّى عن غروره وجهله لن يكونَ إلّا سعيداً وقد جُعل النهارُ ليلاً والشمال يميناً.

وإنّ أخا العدالة الذي وَقاه بعقله وقلبه ولسانه وسيفه لن يكونَ إلّا شقياً مهاناً يهجمُ عليه البؤسُ مع كلِّ ريح.

وضرب بيده على لحيته الشريفة فأطال البكاء!

وبكى الليلُ بأنفاسه وهلّتْ مِن دموعِه عيناه!

وأخذ ابنُ أبي طالب النجومَ والسُّحْبَ بعينيه في ليلةٍ تجرفُ ظلمتُها قصورَ الطّغاة وخصاصَ الفقراء، وكيْدَ الكائدين ومآسي الطيّبين، سواءً بسواء.

ونظر إلى الدنيا بقلبه يقول: **«يا دنيا! يا دنيا، غرّي غيري!»**(١) وكبّ دنياه لوجهها.

وراح الليلُ هزيعاً يلفّ هزيعاً، وظلاماً يدخل في ظلام.

وأحسّ ابن أبي طالب وكأنّه قد بلغ من الأرض منزلَ وَحْدتِه، فيا للأرض

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٧٧ - ١، ص ٥٥٦.

من بيتِ وحدةٍ ومنزلِ وحشةٍ ودارِ غربة!

ورنّقت[١] عيناه قليلاً كأنّما يريد الإمتلاءَ بهواجس الليلة الرهيبة! وما هي إلّا غفوةٌ حالمة، حتى سنَحَ[٢] له الرسول، فقال له: يا رسول الله! ماذا لقيتُ من أُمّتك من الأوَد واللدَد؟ فقال الرسول: اُدْعُ عليهم! فقال: اللهمّ أبدلْني بهم خيراً لي منهم، وأَبدلْهم بي شرّاً لهم مني!

وأحسّ أرضَ الفقراء والمستضعَفين تميدُ[٣] بأهلها مَيدان السفينة تقصفُها القواصفُ في لُجَجِ البحار! وأحسّ مَن على ظهرها حيارى في زلزالٍ من الويل، في جانبٍ من الليل، تحفزُهم الرياحُ بأذيالها وتحملُهم على أهوالها! أمّا العُتاةُ فقد أخذوا بأطراف الأرضِ زحْفاً زحْفا، وصَفاً صفّا، بعضٌ مَلَكَ وبعضٌ أمَر.

في صبيحة تلك الليلة، وكان بعض الريح يمسح في الأديم مِثْلَ العيون التي تنظر فتدمع، مشى ابنُ أبي طالب بطيئاً وكأنّ وطءَ خُطاه على الأرض كلماتٌ تقول للأرض شيئاً في تلك الدقائق الواجمة، وكأنّ الطير بها مثلُ هذا الوجوم! فهو ماأدرك باحةَ المسجد حتّى أسرعتْ إليه الإوَزّات تُكأكِئ وتصيح وتتناوح معها الريح في الصبيحة الباردة!

وأقبل بعضُ الناس لا ينطقون ولا يمرَحون. وراحوا يزجرون الإوَزّاتِ من أمام جبلِ الحكمة الذي يمشي، والإوَزّات لا يقبلْن زجْراً ولا يرجعْن عن نواح، وكذلك الريح! فهل أدرك الطيرَ ماأدرك الريحَ من شعورٍ بما يُقبل عليه الإمامُ الأعظم من مأساةٍ تُنهي مآسيه بين الناس؟

---

(١) رنّقت: هوّمت. ورنّقت عيناه: كان منكسر الطرف من جوع أوغيره. المنجد: ٢٨٢، مادة «رنّق».

(٢) سنح: عرض. النهاية في غريب الحديث: ٤٠٧/٢، مادة «سنح».

(٣) تميد: تتحرّك. غريب الحديث: ٤٥٠/٢.

أمّا الإمام، فما به حينذاك إلا ميلٌ إلى سماع هـؤلاء الإوَزّاتِ النـائحات؛ فالتفتَ إلى الناس يقول بصوتٍ كأنّه خارجٌ من أعماقِ الفاجعة:

- لا تَزْجروهنّ، إنهنَّ نوائح!(١)

وعلامَ لا يَنُحْنَ؟ وعلامَ يزجرهنَ الناس؟ وعلامَ لا ينظر ابنُ أبي طالب إليهن. ثم إلى هذا الصباح، بقلبِهِ وعينيه؟ لقد رأى، قبل هـذه الدقـائق، ألفَ صباح وصباح، ولكنْ في هذه الصبيحة ما ليس في غيرها من شؤون! فهو لم يستشعر من الأحاسيس مثل ما يستشعر الآن! أَوَليس من حقّ هذا العظيم أنْ يسمع رثاءَه بنُواح الطير والريحِ ذاتِ الرنـين!؟ أوَليس مـن حـقّه أن يـودِّع الشمسَ والظلالَ التي لن يراها بعد اليوم؟ أوَليس من حقّه أن يُـلقي النـظرةَ الأخيرة على الربوع التي عاش بها فقيراً ليُغني الناس، والتي شهِدتْ فصولاً من بأسه؛ وفصولاً من عبقريّتِهِ وفصولاً من مآسيه، ورَوّاها بدمع عينيه في الليالي الطوال؟

إنّ دنياه هذه، لو أخذ ناسُها جانب الحقّ واعتصموا بذمّةٍ ووجدان؛ لَـما هالَه أن يودِّع ليلَها ونهارَها، فهي في زمانه أكّالةٌ غوّالةٌ اختلطَ حلالُه بحرامها. أمّا نفسه فقد نُزِّلت منه في البلاء كما نُزِّلتْ في الرخاء. ولولا الأجلُ الذي كُتب عليه لم تستقرّ روحُه في جسده طرْفةَ عين. غير أنّ الفاسقين وأهلَ الغدر ما يزالون تضجّ بهم الأرضُ؛ وتئن تحتَهمُ الرقاب وتزهق الأرواح. في العـراق والحجاز والشام ما يزال أهلُ الحرمان في غصَّةٍ يعيشون، وأهـلُ النـفاق فـي وسعٍ من نفاقهم يرتعون، فماذا على الدنيا لو خلّت لابن أبـي طـالب قـدَمين تستويان فيغيّر أشياء؟

وأبتِ الدنيا أن تُغيّر أشياء!

---

(١) شرح الأخبار، للقاضي المغربي: ج ٢/ ٤٣١، المسائل العكبرية للشيخ المفيد: ٧٠.

وأحسّ العبقريُّ أنّ رجليه تنقلانِه إلى غربةٍ بعيدة!

وقف العبقريّ الغريب على باب المسجد هنيهةً ينظر فيها إلى الإوَزّات النائحات، وإلى الناس يقفون بعيداً ولا يُبدون! وردّد يقول:

- لا تزجروهنّ، إنهن نوائح!

ودخل عليّ وجثا على ركبتيه أمام ربّ العالمين!

وأغمض عينيه على صورة الناس في دنياه وهم يفقدون ثلاثاً: درهماً حلالاً، ولساناً صادقاً، وأخاً يُستراح إليه!

وقال القدر كلمته الغادرة: فأتاه ابنُ ملجم بسيف مسموم يضرب رأسَه الضربةَ التي قال فيها الخبيثُ: إنها لو كانت بأهل المصْرَ جميعاً لأتتْ عليهم!

وحلّت على ابن ملجم لعنةُ الله ولعنةُ اللاعنين ومن وُلدوا ومن ماتوا ومَن قال لهُمُ الله كونوا فكانوا! لعنةٌ تُجفّف النبعَ وتخضِم الزرعَ وتُحرق النبتَ في الأرض وهو وسيم! وجَعَلَ اللهُ زفيرَ جهنّمَ وشهيقَها في أُصول تكوينه! وأهلكه ألفُ شيطانٍ كبّوه على وجهه في سواء الجحيم؛ وفيها لفْحٌ وفيها أفواهٌ من اللّهَب ذاتُ أجيجٍ وذاتُ صفير.

وتحرّكت الرياحُ العاصفات والزعازع الهُوجُ تُعْوِل وتئِنّ وتصفع ماترى وما لا ترى. وسَفَتِ الترابَ مِن كلّ صوبٍ وأخرجتْ ما تحته مدوّيةً هائجة،كأنها صواعقُ ترمي بها السماءُ الأرض.

وتكاثفت ظلمة النهار وادلهمّتْ لما تخرقها شمسٌ ولا يجلوها وميض، فإذا المشهد مفزعٌ رهيب: في الأرض إعوالٌ ورنين! وفي السماء غيوم تمزّقها بروقٌ ثائرات! ففي الرافدين على ابنِ طالبٍ حزنٌ عظيم عاشت فيه الطبيعة حيناً وسوف يعيش فيه الناس أجيالاً طوالاً!

أمّا الطير فقد هرعت إلى وُكُناتها تلفّ مناقيرها بأجنحةٍ يغبر

ريشُها ويسودّ!

أمّا أشجار الرافدين فحَسْبُها أنها تودّ لو انقلعتْ بعروقها، وجاءَت ولها دويٌّ شديدٌ وقصفٌ كقصفِ أجنحةِ الطير؛ وألقتْ على أقدام الشهيد أوراقَها اليانعات!

كلّ ما في الطبيعة كان يعصف بالثورة إلّا وجه ابن أبي طالب؛ فقد انبسط لا يحدّث بانتقامٍ ولا يُشير إلى اشتباك. فإنَّ العُوّاد وقفوا بباب الإمام وكلّهم جازعٌ متألّمٌ باكٍ يدعو إلى الله أن يرحم أميرَ المؤمنين فيشفيه ويشفي به آلام الناس، وكانوا قد شدّوا على ابن ملجم فأخذوا، فلمّا أدخلوه عليه، قال: «**أطِيبوا طعامَه وألينوا فراشه!**»[1].

ولكنّه انبساطٌ أجلُّ في معنى المأساة من صخَب الريح واصطراعِ الأشياء. إنّ وجهه آنذاك أشبه بوجه سقراط الذي أبى جهلةُ قومِه إلّا أن يسمّوه لضآلة شأنهم وتفاهة أخلاقهم أمام عظمة الحقّ، وبوجه المسيح بن مريم إذ يضربهُ تجّارُ اليهود بالسياط، ويوجه محمد بن عبد اللّه إذ يرجمه سفهاءُ الطائف ولا يعرفون أيَّ عظيمٍ يرجمون.

وجاؤوا الإمامَ بخير أطبّاء الكوفة وكان أعلمهم بالطب والجراحة «أثير بن عمرو بن هاني». فلمّا وقف «أثير» هذا على حقيقة الجرح في جبين الإمام قال له والغصَّةُ في قلبه واليأس في صوته: «إعهدْ عهدَك يا أمير المؤمنين! فإنّ اللعين ابن اللعين قد وصلتْ ضربته إلى أُمّ رأسك.» فلم يتأفّف الإمام ولم يتشكَّ بل أسلم أمرَه للّه وللمقادير. ثم دعا ولديه الحسن والحسين وأملى عليهما وصيّتَه وطلب منهما ألّا تُثار فتنةٌ بسبب مقتله وألّا يُهرقَ دم.

---

(١) وفيات الأئمة، ص ٦٠.

أمّا بشأن قاتله فقد قال: «**لأنْ تعفوا أقرب إلى التقوى!**»(١) وأمّا وصيّته التي أملاها فإليك بعضها:

«**اللّهَ اللّهَ في جيرانكم!**

اللّه اللّه في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم!

قولوا للناس حسناً، كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر!

عليكم بالتواضع والتباذُل والتبارّ، وإياكم والتقاطع والتفرّق والتدابر!»(٢).

وسأله الناس: أنبايع الحسن بعدك؟ فقال: «**لا آمرُكم ولا أنهاكم!**»(٣) لا يريد بذلك أن يفرض عليهم خليفةً له؛ ولا يريد كذلك أن ينهاهم عن استخلاف مَن يريدون. وفي ذلك إيمانٌ وتطبيقٌ وتعليمٌ واعترافٌ عميق بأنّ الناس أحرارٌ في من يولّون عليهم، فالولاية من الجماعة.

وبعد هنيئة التفتَ الإمام إلى الناس، جميع الناس، يقول لهم: «**أنا بالأمس صاحبُكم، وأنا اليومَ عِبرةٌ لكم، وغداً مفارقُكم، غَفَر الله لي ولكم!**»(٤).

لقد استغفر لنفسه قبل أن يستغفر للناس، تواضعاً لهم ولربّ العالمين.

كانت الضربة في فجر يوم الجمعة. ومكث الإمام بعدها يومين إثنين وهو يقاسي الألم فلا يبوح، ويعتصم بالله ويوصي بالإحسان إلى الناس وبالرفق بالمستضعفين. وتوفي ليلة الأحدِ لإحدى وعشرين مضت من رمضان عام أربعين للهجرة.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ١٢٠، مقاتل الطالبيين: ٢٣.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٤٧ - ٤.

(٣) هذا خلاف ما نقله المسعودي في المروج: ٢ / ٢٩١ من أن علياً أوصى الى الحسن والحسين لأنهما شريكاه في آية التطهير.. ونقل الكليني في الكافي: ١ / ١٧٩ وصية الإمام علي الى الإمام الحسن بطرق متعددة.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٤٩ - ٤، والكتاب: ٢٣ - ٢.

قضى العظيم الغريب الذي آذاه خصومُه وأنصاره على السواء، العظيم الغريب الذي عاش شهيداً ومات أباً للشهداء.

قضى شهيدَ الاستقامة والدعوة إلى الخير. شهيدَ العبقرية التي أبت وترفّعتْ ومضت في طريق الكرم الإنساني لا تُهادن ولا تلين!

قضى العظيم وما قامت له دولة، لتقوم بعد أجيال باسمه الدّول، ويتصافى باسمه الناس، ويُقاضوا المفسدين وقد أصبحوا في التراب تراباً.

قضى شهيداًليترك وراءَه أُسرةً من الشهداء.ليترك زينب الحزينة تُمزّقها الآلام ويقسو عليها الزمن،كما لا يقسو على إنسانوليترك الحسين بين أيدي خصمه ابن أبي سفيان ومن يليه من الخصوم المنتقمين.

وتمت الحلقة الأُولى من المؤامرة الكبرى على عليّ بن أبي طالب وعلى بنيه، لتعقبها الحلقة الثانية، فالثالثة، فالعاشرة، في سلسلة من المآسي أشدَّ هولاً، وأقسى وأرهب!

وزهت[1] القصور بمصرع الإمام كما يزهو السرابُ في الصحاري البِيْد، وقد جفّ فيها النبْعُ ومات الزرعِ! وقامت دولةٌ لأُولئك الذين تجاسروا على الذمم بحجّة تأسيس دولة؛ وبئسَ الدولةُ لا تقومُ إلّا بمصارع العظماء!

ولكن، ما يعدلُ الظالمون آهةً تثيرها مأساةُ العظيم في جنبات الصدر، فتنقلب الى ثورة يحيا بها الثائرون في دنيا العرب أجيالاً طوالاً، ولا غصةً في قلوب الطيّبين تتّسع وتشتدّ حتى تحرق الظالمين ومن والاهم وما أقاموا من دولٍ وشيّدوا من أمجاد.

ولكن، ما تعدل الدولُ، وهذا شأنها، دموعاً في عيون المستضعفين

---

(١) زهت: تزيّنت «فرحاً وابتهاجاً بهذا المصرع الذي صرعهم». المنجد: ٣١٠، مادة «زها».

والمشرَّدين الذين بكوا ابنَ أبي طالب؛ مكفكِفَ الدموع وأبا المشرَّدين والمستضعفين الطيّب الحنون!

ولكنْ، ما يعدل نضارُ الأرض جميعاً سيراً في حذاءِ عبقري فقير! وما يعدل المُلكُ والملوكُ كلمةً في نهجه، ولا صورةً في خياله، ولا عبرةً في قلبه غير مسكوبة.

ومات في الأرض عظيمٌ وقام في الناس من تعاظموا! فإذا هنا إنسان يموت فيعلو، وإذاهناك ناسٌ يعيشون فيصغرون!

وخلّى الإمام عدوَّه في الأرض قوماً بُورا!

صور من التاريخ

بعد الإمام

ـ وإنّه سيأتي عليكم مِن بعدي زمانٌ ليس فيه شيءٌ أخفى من الحقّ ولا أظهرُ من الباطل![1]

عليّ

ـ الأرض لله وأنا خليفة الله! فما آخذ من الله فهو لي، وما تركتُه منه كان جائزاً لي![2]

معاوية

ـ لآخذنَّ البريءَ بالسقيم، والصحيح بالسليم[3].

زياد

ـ لا يأمرني أحدٌ بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربتُ عنقه![4]

مروان

ـ أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه[5].

المنصور

لا بدّ من الكلام على ما صارت إليه أحوال المجتمع العربي في بعض وجوهه بعد أن آل الأمر إلى بني أُميّة فإلى بني العبّاس ومَن تلاهم في حكم الناس، وبعد أن تنكّر الحاكمون لدستور عليّ بن أبي طالب في الولاية، وساروا على الخط السفياني الذي أشرنا إليه في الفصل السابق في السياسة

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٤٧ - ٤، ص ٥٦٦.

(٢) النصائح الكافية لابن عقيل، ص ١٣١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٩٦ وفيه: لآخذن المحسن بالمسيء والحاضر بالغائب والصحيح بالسقيم.

(٤) الكامل في التاريخ: ٤/ ٥٢١.

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر: ٣١١/٣٢، عيون الأخبار: ٢/ ٢٥١، البداية والنهاية: ١٣٠/١٠.

والحكم، فأصبح الناس وراثةً للأُمويّين والعباسيّين ومَن إليهم، يملكونهم كما يملكون المتاع، بل قلْ أرخص المتاع، إلّا في ما شذّ من الحالات.

فلقد كانت خلافة عليّ في تلك الفترة بين أيّام عثمان وسلطان معاوية ومَن يليه، تمثّل الحقّ والعدالة إذ يشمخان بين سابقٍ من اللامبالاة وهدْرِ الحقوق العامّة، ولاحقٍ من الإمعان في الظلم، يشتدّ أو يلين بين حين وحين. فبعد أن عرفتَ ـ فيما سبق ـ ما كان من أمر الولاة والحكّام والأُرستقراطيين وبؤسِ الجماعة في أيّام عثمان ومستشاريه وأعوانه، لا بأس أن تعرف شيئاً عمّا كان من أحوال الملوك والناس في العهود الأُموية والعباسية وما يليها؛ لينجلي لك مقدار ما أساء الطغيان إلى الشعوب العربية عبر التاريخ. وبذلك يزداد النور الملقى على دستور عليٍّ سطوعاً، وتزداد الحقيقة العلوية جلاءً. فإذا ابن أبي طالب بين عينيك عملاقُ الفكر والضمير في كلّ صراع. وإذا سيفه يشقّ غبارين ممّا هاجتِ الأثرة وما إليها، متألقاً بيد الحقّ ضارباً عنق الباطل.

وسوف نعقّب هذا الفصل بحديث آخر، نتناول فيه أثر عليّ في التاريخ العربي وكيف جعَلَه الناس في الشرق عنواناً للكفاح ضدّ الطغيان والظلم، وضدّ نهْب الأرزاق واستعباد الأعناق، وكيف ثار باسمه الثائرون وتمرَّدَ المضطَهَدون، وكيف أطلّ الشعراء من خلال سيرته على آفاقٍ إنسانية هي من روائع التراث الأدبيّ الثوريّ الذي يمكن للعرب أن يعتزّوا به وأن يرتبطوا عن طريقه بما في أعماقهم من أُصولٍ إنسانية.

عرفنا أنّ الأُمويين استولوا على الخلافة بالخدعة، ثم بالقوّة، فحوّلوها إلى مُلكٍ فيه، وأقاموا هذا الملك على أُسُسٍ ليس فيها من العدل ظلٌّ كثير، أو قليل. وبمظالمهم هذه انهاروا.

وجاءت الدولة العباسية، فترحّمَ المنصفون على بني أُميّة. يقول أمين

الريحاني موجزاً:

«استولى العبّاسيون على الملك بمذبحةٍ تلتْها مذابح في سوريا وفلسطين والعراق؛ وعقبت المذابحَ الفوضى. وقد اقتدى أربابها بأبي العبّاس السفّاح:

هذا العُمَيْطر يدعو لنفسه بالشام، فبايعتْه اليمنية، وقاومتْه القيسية، ففتك بهم ونهب دورَهم وأحرقها.

وهذا ابن بَيهَس يحارب العميطر ثم يستولي على دمشق وينكّل بأهلها.

واستمرّت الفتن تضطرم ونار العصبيات تستعر في عهد العباسيين. وكانت الدوائر تدور كلّها، لا على الباغين - الظالمين والسفاحين - بل على الأهالي المساكين. على أُولئك الذين يدفعون الضرائب ويلبّون الدعوة للجهاد!»(١)

هذا ما يقوله أمين الريحاني في المجازر التي واكبت منشأ الدولة العباسية. وإليك صورة موجزة عن سائر الأحوال في العصر العباسي:

رأينا أنّ ملوك بني أُميّة، بعد خروج الأُمويين على إرادة عليّ بن أبي طالب وعلى دستوره العادل في الجماعة، قد أدركوا الحكم على أنه حقّ لهم لا يشاطرهم إياه أفرادٌ أو جماعات. ونهجوا فيه منهجاً فردياً خالصاً لا يقيم وزناً لحقوق الناس في كثيرٍ أو قليل. فلمّا ورث الناسَ بنو العبّاس، وطّد هؤلاء ملكهم الجديد على أساسٍ من هذا التصور للحكم. فإذا الملكُ هو ظلّ الله على الأرض. وإذا ولايته على الناس هي حقّ أتاه من الله لا يستطيع المخلوق له تغييراً ولا تفسيراً. وعلى هذه القاعدة وقف أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين يخطب في الناس، قائلاً:

---

(١) النكبات: ٧١ - ٧٢.

«أيّها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتأييده، وحارسُه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وقسّم أرزاقكم، وإنْ شاء أن يقفلني عليه قفلني!»(١) وعلى هذه القاعدة سار مَن خلِفَه من ملوك بني العبّاس، لقد كان كلٌ منهم «سلطان الله في أرضه».

سمع الناس من أبي جعفر المنصور مثل هذا القول، بعد أن كان آباؤهم الأوّلون يصغون إلى ابن أبي طالب يخاطبهم، قائلاً:

«وإنّ من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يُظَنّ بهم حبّ الفخر، ويوضع أمرُهم على الكبر. وقد كرهتُ أن يكون جال في ظنّكم أنّي أحبّ الإطراء واستماع الثناء. فلا تكلّموني بما تُكلّم به الجبابرة. وإنّه من استثقل الحقَّ أن يقال له، أو العدلَ أن يُعرَض عليه كان العمل بهما أثقل عليه. فلا تكفّوا عن مقالةٍ بحقّ، أو مشورةٍ بعدل، فإنّي لست في نفسي بفوق أن أخطئ!»(٢).

فهذا الاعتراف القديم من عليّ بأنّه ليس بـ«فوق أن يُخطئ» يقابله رأيُ المنصور في نفسه، وهو أنّه «سلطان الله في أرضه» وكيف يجرؤ عاديٌّ من الناس على نسبة الخطأ، أو الظلم إلى هذا «الظّل الإلهي» الواسع الأطراف؟

وانصرف المنصور، وهو ظلّ الله في الأرض، يسوس الناس على هواه وعلى هوى بطانته، وكلّهم ظلٌّ صغير للظلّ الأكبر. وانفرد بالسلطة دون أن يقبل محاسبةً أو مناقشة. وانفرد كلٌّ من بطانته بأُسلوبٍ يعالج به مصالحه الخاصّة في رعاية «الظلّ» الأكبر. وأمعن في الاستبداد والتقتيل وسوء التدبير.

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ١٣٠ وقد سبق تخريج النص.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢١٦ - ٢٤.

غير أنّ صيحة ابن أبي طالب الداعية إلى محاسبة الولاة، ومشاركتهم الرأي في أُسلوب الحكم، ومطالبة الرعيّة بألّا يكفّوا عن القول بالحقّ والمشورة بالعدل كانت ما تزال ذات أصداء في بعض القلوب والنفوس. فإذا أبو الفداء يخبرنا في تاريخه بما كان من أمر المنصور وأحد الشجعان من أفراد الرعيّة، إذ نهض هذا يحاسب الطاغية في حكمه المطلق ويُظهر له عيوبه واحداً واحدا. وها نحن نثبت بعض هذا الخبر لِما فيه من غايةٍ مزدوجة: التثبت من مفاسد الحكم المطلق الذي اتّجه إليه حكّام الشرق العربي بعد تنكّرهم لدستور عليّ، ثم الكشف عن هذه الومضات الخيّرة التي كانت تتألّق في نفوس السائرين على نهج عليّ في عهود الطغيان والاستبداد، وهي من روحه ومن دستوره. قال أبو الفداء:

«بينا الخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلاً إذ سمع قائلاً يقول: «اللهمّ! إنّي أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحقّ وأهله من الطمع. فخرج المنصور إلى ناحيةٍ من المسجد ودعا القائلَ وسأله عن قوله، فقال له: إنّ الذي دَخَلَهُ الطمعُ حتّى حال بين الحقّ وأهله هو أنت يا أمير المؤمنين! فقال المنصور: ويحك! وكيف يدخلني الطمعُ والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي؟ فقال الرجل: لأنّ الله استرعاك المسلمين وأموالهم فجعلتَ بينك وبينهم حجاباً من الجصّ والآجرّ، وأبواباً من الحديد، وحجّاباً معهم الأسلحة، وأمرتَهم أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان. ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف، ولا الجائع والعاري، ولا الضعيف والفقير. وما أحدٌ إلّا وله في هذا الأمرِ حقّ. فلمّا رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتَهم لنفسك وآثرتَهم على رعيّتك تجبي الأموالَ فلا تعطيها، وتجمعها ولا تقسّمها، قالوا: هذا وقد خان الله تعالى فما لنا لا نخونه وقد سخّر لنا نفسه؟ فاتّفقوا أن لا يصل إليك من

أخبار الناس إلّا ما أرادوا، ولا يخرج لك عاملٌ فيخالف أمرهم إلّا أقصوه ونفوه حتّى تسقط منزلتُه ويصغر قدره. فلمّا انتشر ذلك عنك وعنهم؛ عظّمهم الناسُ وهابوهم. فكان أوّل مَن صانعهم عمّالُك بالهدايا ليتقوّوا بهم على ظلم رعيّتك. ثم فعلَ ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيّتك لينالوا به ظُلْمَ مَن دُونهم. فامتلأت بلادُ الله بالطمع ظلماً وفساداً. وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل. فإن جاء متظلّمٌ حيلَ بينه وبين الدخول إليك. فإن أراد رفْع قصة إليك وجدك قد مَنعتَ من ذلك. وجعلتَ رجلاً ينظر في المظالم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه وهو يدافعه خوفاً من بطانتك. فإذا صرّح بين يديك ضُرب ضرباً شديداً ليكون نكالا لغيره. وأنت تنظر ولا تُنكر. فما بقاء الإسلام على هذا؟»(١).

ولم يذكر أبو الفداء شيئاً عن مصير هذا الرجل على يد المنصور!

* * *

ذلك كان شأن بني العباس ومَن جاء في ذيول دولتهم من أصحاب الإمارات والدويلات. فالعنف والقسوة شريعتان دوليتان، والملك منحةٌ من الله إذ كان الله رفيقاً ببعض عباده فوهَبهم إياه حليماً، كريماً، حكيماً. وعلينا الآن أن نذكر بعض نتائج هذا التصوّر للحكم، وهذه القسوة في الدفاع عنه، ولا سيّما فيما يتعلّق بما أصاب طبقات المجتمع من أحوال البؤس والرخاء.

زخرتْ خزائن بغداد عاصمة العباسيين بأموال الأرض وفاضت. غير أنّ هذه الأموال، كسائر الحقوق لم تكن إلّا من نصيب الخلفاء وأبنائهم ووزرائهم ومحظياتهم، وغير المغضوب عليهم. فيما كانت الجماهير وفيهم ذوو

---

(١) ونقلها أيضاً ابن أبي الحديد في شرح النهج: ١٨/ ١٤٥ نقلاً عن «عيون الأخبار لابن قتيبة».

الكفاءات والمواهب والجهود، وفيهم مَن لا يتزلّفون ولا يمرّغون جباههم على أعتاب السطان؛ في فقرٍ وعوز يختلفان بين العدم وبعضِ الكفاف. فنشأ عن ذلك طبقتان تتعاظم بينهما الهوّة وتزداد عمقاً: طبقة الموسرين حتّى حدود الإفراط في اليسر. وطبقة المعْوِزين حتّى ما يجاروا الموت. وبينهما طبقة راضية عن نفسها لولا ما قد ينتظرها من سقوط.

كانت أموال الدولة تُنفَق على قصور الخلفاء والأُمراء وملاهيهم، وعلى عمّال الدولة الموالين. وكان هؤلاء، في دورهم، ينفقونها أكياساً على المقرّبين والأتباع والجواري والخصيان. والخلفاء والأُمراء والعمّال هم طبقة المجتمع العبّاسي الأُولى من حيث اليُسْر. تليهم فيه طبقة التجّار، أمّا عامّة الشعب فلهم البؤس والدمار والموت المهين. فإذا بغداد تحفل بالأكواخ الهزيلة الحقيرة إلى جانب القصور المتعالية المتشامخة. وإذا بها، كالسماء، تحوي النعيم والجحيم جنباً إلى جنب. يقول أحد شعراء ذلك العصر في بغداد:

تصلحُ للموسرِ، لا لامرئٍ ... يبيت في فقرٍ وإفلاسِ
لو حَلّها قارونُ: ربُّ الغنى، ... أصبح ذا همٍّ ووسواس
هي التي نُوعَدُ لكنّها ... عاجلةٌ للطاعم الكاسي
حُورٌ ووِلْدانٌ، ومِن كلّ ما ... تطلبُه فيها سِوى الناس![1]

ويقول بعض أبناء الرغادة والنعيم:

أعايَنتَ في طولٍ من الأرض، والعرضِ ... كبغدادَ داراً؟ إنّها جنّة الأرضِ
صفا العيشُ في بغداد واخضرّ عودُه، ... وعيشُ سواها غيرُ صافٍ ولا غضٍّ
تطولُ بها الأعمارُ، إنّ غذاءها مريء؛ ... وبعض الأرض أمرَأُ مِن بعض[2]

(١) الأبيات للشاعر معدان التغلبي، نقلها عنه في معجم البلدان: ١/ ٤٦٧.
(٢) الأبيات لعمارة بن عقيل بن بلال الخطفي رواها الخطيب في تاريخه: ١/ ٨٩.

ولا بأس أن تكون بغداد في العصر العبّاسي، وفي كلّ عصر، جنّة الأرض ودنيا النعيم! ولا بأس أن يصفو بها العيش وأن يخضرّ عودها ويمرأ غذاؤها فتطول بها الأعمار! لا بأس بذلك جميعاً، فالإنسان يسعى أبداً في أن ينعم وأن يعيش في جنّة فيها حُورٌ وأزهار وأثمار وما خلق الله من طيّبات؛ ومن حقّه كلّ ذلك. لكنْ أنّى يكون ذلك والملايين من أبناء الشعب يجوعون ويعرون ويشرّدون فيموتون ولا يتمتّعون ببغداد وجمالات بغداد؟

من حقّ هؤلاء المترفين أن يكونوا كذلك شرط ألا يخاطب أبو العتاهية خليفةَ بغداد قائلاً، بلسان مئات الأُلوف من المشرَّدين:

مَن مبلغٌ عنّي الإمامَ نصائحاً متوالَيه
إنّي أرى الأسعارَ، أسعارَ الرعيّة، غاليه
وأرى المكاسبَ نزرةً وأرى الضرورة فاشيه
وأرى غمومَ الدهر رائحةً تمرُّ وغاديه
وأرى اليتامى والأراملَ في البيوت الخاليه
مِن بينِ راجٍ لم يزَلْ يسمو إليكَ، وراجيه
يشكونَ مَجْهدَةً بأصواتٍ ضعافٍ عاليه
يرجون رِفْدَكَ كي يرَوا، ممّا لقُوه، العافيه
مِن مُصبياتٍ جوّعٍ تمسي وتصبحُ طاويه
مَن للبطونِ الجائعات وللجسومِ العاريه؟
ألقيتُ أخباراً إليك من الرعيّةِ، شافيه[1]

(١) ديوان أبي العتاهية القصيدة رقم، ٦٣٢، ص ٤٣٦، طبعة دار الكتاب العربي ١٩٩٥.

وإليك ما جاء في «الأغاني» على لسان أحدهم، وقد دخل على الخليفة الواثق؛ فوصف بعض ما شاهده في أحد قصوره. يقول «بعض» ما شاهده في «أحد» قصوره:

«ولم يزل الخدَم يُسلّمونني من خدم إلى خدم، حتّى أفضيتُ إلى دار مفروشة الصحن، مُلبسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب، ثم أفضيتُ إلى رواقٍ أرضه وحيطانُه مُلبسه مثل ذلك، وإذا الواثق في صدره على سرير مرصَّع بالجوهر، وعليه ثيابٌ منسوجة بالذهب، وإلى جانبه «فريدة» جاريته، عليها مثل ثيابه، وفي حجرها عود.. الخ»[١].

وسرَتْ هذه العدوى إلى جميع الموسرين من طبقة الأقارب والأعوان والمتزلِّفين وبعض التجّار. أمّا اللهو والخلاعة والمجون، فلا تسأل عمّا كان من أمرها في القصور؛ وقد انقسم المجتمع إلى طبقتين، أو طبقات ثلاث كما تقدّم. أمّا اقتناء الجواري والأرقّاء، وأمّا «قيمة» الإنسان الذي يُشرى ويُباع بالدرهم والدينار، فاسأل عنهما أسواق الرقيق في كلّ بلد يومذاك، ولا سيّما «شارع دار الرقيق» في عاصمة بني العبّاس!

ثم اسأل النخّاسين وفي سلاسلهم مِن كلّ لونٍ أرهاط! فمنهم السود الأبنوسيون يدخلون المدن العباسيّة قوافلَ قوافل؛ يأتون من الجنوب ليباع واحدهم بمائتي درهم. ومنهم البيض من الترك والصقالبة المقبلون من مركز الرقيق الأبيض: سمرقند. ومن الجواري: الهنديات بنات قندهار. والسنديات ذوات الخصر النحيل والطرف الكحيل والشعر الطويل. ومولّدات المدينة[٢]؛

---

(١) الأغاني للاصفهاني: ٤/ ١١٦، طبعة مؤسسة جمال للطباعة / مصر.

(٢) الإماء اللواتي ولدن في المدينة ونشأن فيها.

وقد عُرفنَ بالدلال والفكاهة والمجون والشعر والغناء. ومولّدات مكّة[١] ذوات المعاصم الدقيقة والعيون النواعس. ومنهن المغربيات اللواتي يقول فيهنّ أبو عثمان الدلّال، وهو العارف الخبير: «وأن تكون - الجارية - من أصل بربري فارقتْ بلادها وهي في التاسعة من عمرها ومكثت ثلاث سنين في المدينة، ومثْلَها في مكّة، ثم رحلتْ إلى العراق في السادسة عشرة من عمرها لتتثقّف بثقافته. فإذا بيعتْ في الخامسة والعشرين كانت قد جمعت بين جودة الأصل، ودلال المدنيات، ورقّة المكيّات، وثقافة العراقيات!»[٢] ونسي أبو عثمان الدلّال، رحمه الله، أن يحدّد سعر هذه الجارية المشكّلة! ثم لا تسأل عن الحبشيات والتركيات والصقلبيات والروميات والأرمنيات! ولكلٍّ منهنّ صفاتٌ يُنسب في تعدادها أهلُ الاختصاص في ذلك الزمان.

وبات الناس، مع انقسام المجتمع العبّاسي هذا إلى طبقتين ـ أو ثلاث ـ؛ لا يطمئنون إلى سلامتهم وسلامةِ ما يملكون حتّى في يومهم الحاضر. فقد كانت الأرواح عرضة لأن تزهق في كلّ دقيقة بإرادة السلطان. وكانت الأموال عرضةً لأن تذهب في طرفة عين؛ ذلك لأنّ عطاء الخلفاء والأُمراء والوُلاة إذذاك كان لا يقف عند حدّ. ومصادرتهم للأموال لا تقف كذلك عند حدّ. قد يعجب أحدَهم نغمةُ المغنّي، أو بيتُ الشعر، أو الكلمة الطيّبة، أو الجوابُ الحسن؛ فيهب الأُلوف. وقد يكره ذلك فيهدر الدم ويصادر المال.

وصف العتّابي هذه الحالة في عصره، فقد سُئل: لمَ لا تتقرّب بأدبك إلى السلطان؟ فقال: «لأنّي رأيتهُ يعطي عشرة آلاف في غير شيء. ويرمي من في غير شيء. ولا أدري أيّ الرجلين أكون؟!». والمفضّل الضبّي يدعوه رسول

(١) اللواتي ولدن في مكّة.

(٢) ضحى الإسلام، الجزء الأوّل، ص ٨٨.

المهدي فيخاف ويتوهّم السعاية به، ثم يلبس ثوبين استعداداً للموت. فإذا مَثَلَ بين يديه سلّم فردّ عليه، فلمّا سكن جأشُه سأله عن أيّ بيتٍ قالته العرب أفخر؟ ثم سأله مسائل أُخرى. فلمّا أحسن الجواب سأله عن حاله فشكا إليه دَينه فأمر له بثلاثين ألف درهم.

«ولمّا قتل المأمون الفضلَ بن سهل؛ عُرضت الوزارة على أحمد بن أبي خالد فأبى وقال: لم أرَ أحداً تعرّض للوزارة وسلمت حاله»(١).

وكان من نتائج البؤس والترف، أو الجحيم والنعيم، أن كَثُر المجون بكثرة المال والجواري والخمر في هذا الجانب. وانتشر القمار على ما يروي الجاحظ. وبات الموسرون وهم الأقلّية الضئيلة يمعنون في ابتكار أساليب المتَع حتّى إذا ملّوا واحدةً منها مالوا إلى أُخرى. وحتّى «كان بعضهم يكاد ينطح العمود برأسه من حسن الغناء» كما يقول الاصفهاني، إمعاناً منه في ابتكار الجديد في التعبير عن المسرّة. وكان من نتائج ذلك أيضاً أن انتشرت الحاجة في طبقات الشعب انتشاراً مريعاً على ما تقدّم. فانغمس بعضهم في المتع الرخيصة انتحاراً. وتزهّد فتنكّروا للحياة وللمجتمع يأساً وتشاؤماً. ولسان حالهم يردّد مع أبي العتاهية:

رغيفُ خبزٍ يابسٍ   تأكلُه في زاويه
وغرفةٌ ضيّقةٌ   نفْسكَ فيها خاليه
أو مسجدٌ بمعزلٍ   عن الورى في ناحيه
خيرٌ من الساعات في   فَيءِ القصورِ العاليه
فهذه وصيةٌ   مخبرةٌ بحاليه

---

(١) ضحى الإسلام، الجزء الأوّل، ص ١٣٣ - ١٣٥.

طـــــوبى لمَـــن يســـمعُها تـــــلك لَــعَمْري كـــافيه
فـــاسمعْ لنُـــصح مُشـــفِقٍ يُـــدعى أبـــا العـــتاهيه![1]

وفي الحالتين هاتين: الانتحار بالخلاعة والانتحار بالزهد، انحرافٌ عـن الطبيعة المستقيمة، وهما من نتائج مفاسد الحكم العبّاسي ومساوئ الطبقية الاجتماعية.

* * *

هذا بعض ما كان من الأحوال العامّة في العصر العبّاسي الأوّل. أمّا ما كان في العصور العبّاسية التالية فأبلغُ في مقياس التفاوت الاجتماعي، وفي ما كان من ترف هؤلاء ولهوهم العابث، وبؤس هؤلاء وجدّهم العابس! فالحدود بين الطبقات ظاهرة واضحة. والمال مكـدّس هـنا والفـقر جـاثم هـناك. فـحيث اتجهتَ لا نعيمَ إلّا مفرطاً ولا بؤسَ إلّا مـفرطاً كـذلك، ولا رخـاء إلّا وتـقابله الحاجة إلى الرغيف والكساء!

أمّا الراتعون في اليسر فهم القليل القليل. وأمّا القابعون في العُسر والبؤس والشقاء فالكثير الكثير! وقد لا يتعدّى الأمان على المال والحياة نفراً من ذوي السلطان. أمّا الآخرون من الأغنياء فقد يغضب عليهم ذوو السلطان، فإذا مالهم مصادَر ورقابهم لا تثبت لحدّ السيف. وكان عهد المتوكّل بداية هـذا العـصر الذي أقام الفردوس قرب الجحيم.

أمّا طبقة المترفين فقد شق أبناؤها كـل إزار، وبـالغوا فـي التـهتك عـلى صورة لم يعرفها العهد السابق، فشربوا ولعبوا وطربوا وأقاموا مجالس اللهو في القصور، وأمعنوا في الصخب والعربدة حتّى كان فيهم من يشقّ إزاره من شدّة

---

(١) ديوان أبي العتاهية، القصيدة رقم ٦٣٣، ص ٤٣٩.

السكر والطرب، ومَن يضرب بنفسه الأرض، ومن يحملق عينيه، ومَن يستغيث ومَن يُحَوقِل ومَن يضيع في كلّ مذهب، ومَن يزلزل بقدميه الأرض وينهمل دمعه على ما يروي أبو حيّان التوحيدي صاحب الإمتاع والمؤانسة.

أمّا الجواري فقد كثرنَ في هذا العصر كما لا يكون. حتّى أنّ المتوكّل ذاك الذي اضطهد العلماء والمفكّرين والأحرار، وهدم قبر الحسين بن عليّ وأجرى عليه الماء، وأجاز أهل السفاهة والمهرّجين الذين يتهكّمون في مجلسه بعليّ بن أبي طالب ـ حتّى المتوكّل هذا كان يملك بضعة آلاف من السراري ـ ومن الخلفاء العبّاسيين مَن كان يملك بضعة عشر ألفاً منهنّ! ثمّ إيّاك أن تنسى الخصيان الذين كانوا يملأون القصور، ويستخدمهم الخلفاء والأثرياء للمحافظة على النساء! وقد كثر هؤلاء في عهد الأمين خاصّة. أمّا المقتدر فقد كان له أحد عشر ألف خادم خصيّ. وكثر الغلمان في الأوساط المستهترة وهي أوساط الأثرياء. وذلك من أظهر الدلائل على التفسّخ الأخلاقي الذي يُفضي بأسبابه الصحيحة إلى انقسام الناس إلى طبقتين، ثم إلى استغلال الإنسان للإنسان.

ولنعدْ قليلاً إلى توضيح مظاهر الترف المفرط والبؤس المفرط اللّذين عرفهما العصر العباسي هذا! الترف والبؤس اللذين لا يقومان في مجتمعٍ معظم أبنائه فقراء إلا على القاعدة التي كان عليّ قد أشار إليها بكلمته الرائعة: **«ما رأيتُ نعمةً موفورة إلّا وإلى جانبها حقّ مضيع»**[1].

أمّا القصور، وهي مجمع الثروات في البناء وما يحوي، فقد كانت في عجيبٍ من الثراء. فهذا المتوكّل يشيد من القصور ما لا طاقة لإنسان بوصفه من

(١) دراسات في نهج البلاغة، لمحمد مهدي شمس الدين: ٤٠.

حيث السعة والبذخ. وها هو يبني بُركة تسبح فيها جواريه حتّى لمرّ بها الشاعر البحتري فيخال أن الجنّ هم الذين بنوها لما فيها من الاتّساع والبساتين والمقاصير والألوان وعجيب الصنع، فيقول:

كأنّ جِنَّ سليمانَ الذين وَلُوا ... إبداعَها، فأدقُّوا في معانيها
فلو تمرُّ بها بلقيسُ عن عُرُضٍ، ... قالت: «هي الصّرح!» تمثيلاً وتشبيها[1]
إذا النجوم تراءت في جوانبها، ... ليلاً، حسبتَ سماءً رُكِّبت فيها
لا يبلغ السمكُ المحصورُ غايتَها، ... لبُعد ما بين قاصيها ودانيها[2]

وإليك ما يقوله ياقوت الحموي في «معجم البلدان».

«ولم يبنِ أحدٌ من الخلفاء بسامرّاء من الأبنية الجليلة مثل ما بناء المتوكّل فمن ذلك القصر المعروف بالعروس، أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم. والجعفري عشرة آلاف ألف درهم. والغريب عشرة آلاف ألف درهم. والشيدان عشرة آلاف ألف درهم. والبرج عشرة آلاف ألف درهم. والصبح خمسة آلاف ألف درهم. والمليح خمسة آلاف ألف درهم. وقصر بستان الإيتاخية عشرة آلاف ألف درهم». ثم يوالي تعداد هذه القصور التي بناها المتوكّل مضطهدُ المفكّرين والعلماء، إلى أن يقول: «فذلك الجميع مائتا ألف وتسعون ألف ألف درهم ـ أي نحو ثلاثمائة مليون درهم ـ». وقد قال عليّ بن

---

(١) بلقيس: ملكة سبأ وكانت معاصرة لسليمان الحكيم. وفدت عليه من اليمن لتسمع حكمته. وتقول الرواية العربية: إن سليمان كان يسخّر الجنّ فتطيعه. فأمرهم أن يبنوا له صرحاً يستقبلها فيه. فبنوا صرحاً من قوارير خضر، وجعلوا له طوابيق (قطع الآجر الكبير) من قوارير كأنّها الماء وجعلوا في باطن الطوابيق صوراً من أجناس سمك البحر ودوابّه ثم أطبقوه. فلمّا دخلت بلقيس، حسبته لجّة وماء فرفعت ثيابها. فالشاعر يشبّه بركة المتوكّل في جمالها ودقّة صنعها بصرح سليمان. عن عرض: عن جانب.

(٢) ديوان البحتري، القصيدة رقم ٩١٥: ٤/ ٢٤١٤، طبعة دار المعارف / مصر.

الجهم في وصف الجعفري أحد قصور المتوكّل(١) الذي تسافر فيه العيون:

بدائعُ لم ترَها فارسٌ ... ولا الروم في أطوَل أعمارِها
صحونٌ تسافرُ فيها العيون ... إذا ما تجلّت لأبصارِها
وقبّة مُلْكٍ كأنّ النجومَ ... تضيءُ إليها بأسرارها(٢)

وهذا ابن المعتزّ يبني قصراً يسمّيه «الكامل»، يُلبس سقوفه ذهباً، ويأخذ المسافات الشاسعة حوله تتعطّف فيها الأشجار وتتنفّس الصَبا، كما يقول صاحبنا البحتري:

لبستْ من الذهب الصقيل سقوفُه ... نوراً، يُضيءُ على الظلام الحافلِ
وتنفّستْ فيه الصبا، فتعطّفتْ ... أشجارُه، من حُوّلٍ وحواملِ
مشْيَ العذارى الغيد، رُحْنَ عشيّةً ... من بينِ حاليةِ اليدينِ وعاطلِ(٣)

أمّا «الثريّا» وهي أبنية الخليفة المعتضد، فإنّها السعة كلّ السعة، والترف كلّ الترف، حتى ليخصّها ابن المعتزّ في ديوانه بأوصافٍ تكاد تجعلها، هي أيضاً، من صنع جنّ سليمان.

وقد وصف الخطيب البغدادي قصر المقتدر بمناسبة زيارة رسولٍ من الروم له، فقال: إنّه كان للمقتدر أحد عشر ألف خادم خصيّ. وكذا من صقلبي ورومي وأسوَد ـ وهذا جنس واحد ممن تضمّه الدار ـ فدع الآن الغلمان وهم ألوف كثيرة والحواشي من الفحول. وقد أمر المقتدر أن يُطاف بالرسول في الدار. وفُتحت الخزائن والآلات فيها مرتّبة كما يُفعل الخزائن العروس. وقد علّقت الستور، ونظّم جوهر الخلافة في قلاّيات على دُرُج غشيت

(١) راجع ظهر الإسلام، الجزء الأوّل، ص ٩٩.
(٢) معجم البلدان: ٣/ ١٧٥.
(٣) ديوان البحتري، القصيدة: ٦٤١، ٣/ ١٦٤٦، طبعة دار المعارف / مصر.

بالديباج الأسود.

ولمّا دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثر تعجّبه منها؛ وكانت شجرةً من الفضّة وزنها خمسمائة ألف درهم، عليها أطيارٌ مصنوعة من الفضّة تصفّر بحركات قد جُعلت لها! فكان تعجّب الرسول من ذلك أكثر من تعجّبه من جميع ما شاهده. وكان عدد ما علّق في القصور من ستور الديباج المذهّبة بالطُّرَر الذهبية الجليلة، المصوَّرة بالجامات والفيَلة والخيل والجمال والسباع والطرد، والستور الكبار الأرمنية والواسطية والبهنسية السواذج والمنقوشة والديبقية المطرزة ثمانية وثلاثين ألف ستر.

وأدخل رسلُ صاحب الروم إلى الدار المعروفة بخان الخيل، وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهباً وفضّة بغير أغشية. ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطِّوال. وكلّ فرس في يد شكاريّ بالبزّة الجميلة. ثم أُدخلوا دار الوحش، وكان فيها من أصناف الوحش التي أُخرجتْ إليهم قطعانٌ تقرب من الناس وتتشمّمهم وتأكل من أيديهم. ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيَلة مزيّنة بالديباج والوشي، على كلّ فيل ثمانية نفرٍ من السّنْد والزرّاقين بالنار، فهال الرسلَ أمرها. ثم أُخرجوا إلى دار فيها مائة سبع: خمسون يمنة وخمسون يسرة. ثم أُخرجوا إلى الجوسق المحدَث، وهي الدار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قَلْعيّ ـ القلع نوع من المعدن يُنسب إليه الرصاص ـ حواليها نهرُ رصاص قلعيّ أحسن من الفضّة المجلوّة، طول البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة. وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيها نخل، وعدده أربعمائة نخلة، وطول كلّ واحدة خمسة أذرع، قد لُبّس جميعُها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى

حدّ الجمّارة بحلَقٍ من شبَهٍ مذهّبة. وفي جانب الدار، يمنة البركة، تماثيلُ خمسة عشر فارساً على خمس عشرة فرساً، قد أُلبسواالديباج وغيره. وفي أيديهم مطارد على رماح، يدورون على خطّ واحد في الناورد جنباً وتقريباً. فيُظنّ أن كلّ واحد منهم إلى صاحبه قاصد. وفي الجانب الأيسر مثل ذلك.

ثم أُخرجوا، بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصراً، إلى الصحن التسعيني؛ وفيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل. ثم وصلوا إلى الخليفة المقتدر وهو جالس في «التاج» ممّا يلي دجلة، بعد أن لُبِّس بالثياب الديبقية المطرّزة بالذهب، على سرير أبنوس قد فرش بالديبقي المطرّز بالذهب، وعلى رأسه الطويلةُ! ومن يمنة السرير تسعةُ عقود مثل السبُح معلّقة؛ ومن يسرته تسعة أُخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمةً غالبة الضوء على ضوء النهار(١).

وظل خلفاء بني العباس يتبارون(٢) في البذخ والإنفاق حتّى لا يخلف اللاحقُ السابقَ إلا ليفوقه درجاتٍ في الترف والبذخ. حتّى إذا جاء الخليفة المهتدي ونزع إلى الزهد(٣)، على سنّة الخليفة الأُموي عمر بن عبد العزيز وأُستاذه الأكبر عليّ بن أبي طالب، قبض عليه قومه وقتلوه.

ولم تكن ثروات نساء الخلفاء بأقلّ من ثروات الخلفاء أنفسهم. فهذي الخيزران أمّ الهادي والرشيد تحشد الأموال لنفسها فتجمع وحدها في أيّام الهادي نصف خراج المملكة العبّاسية. وقد أحصى جرجي زيدان ثروتها كما

---

(١) تاريخ بغداد: ١/ ١١٧.

(٢) يتبارون: يتعارضون، ويتنافسون، تبارى رجلان: تعارضا، وفعلا كلاهما مثلما يفعل صاحبه، وتنافسا. المنجد: ٣٦، مادة «باری»..

(٣) نزع إلى الزهد: اشتاق ومال إلى الزهد. الصحاح: ١٢٨٩/٣، مادة «نزع».

أخبر عنها المؤرخون فإذا به يقول: إنّ ثروة أكبر متموّلي العالم اليوم لا توازي ثلثَي ثروة الخيزران. وعندما آنستْ الخيزران في ابنها الهادي معارضةً لها في ما تجمع من الثروات، دسّتْ إليه مَن قتله. ولمّا جاء الرشيد الذي خلّف لأبنائه، بعد موته أكثر من خمسين مليون دينار؛ أطلق لنفسه العنان في تجميع جهود البشر بين يدي زوجته زبيدة التي تحدّثْنا عن بعض ثروتها في مكانٍ سابق. وهذي «قبيحة» أُمّ المعتزّ تترك من المخبّآت في الدهاليز ثروةً نقدية ضخمة، وتترك من التحف والجواهر والزمرّد واللؤلؤ الكبير والياقوت الأحمر ما لا يقدّر بثمن. وكانت مع ذلك قد عرّضتْ ابنَها للقتل من أجل خمسين ألف دينار[1].

وكان لأُمّ محمد بن الواثق ثروة توازي ثروة الخيزران. وكانت أُمّ المقتدر يُشتَرى لها ثيابٌ ديبقيّة يسمّونها ثياب النعال. وذلك أنّها كانت صِفاقاً تُقطع على مقدار النعال المحذوّة، وتُطلى بالمسك والعنبر المذاب وتُجَمّد، ويُجعَل بين كلّ طبقتين من الثياب من ذلك المطيّب ما له قوام! وكانت نعال السيدة من هذا المتاع، لا تلبس النعل إلا عشرة أيّام أو حواليها حتّى تخلق وتتفتّق وترمى. فيأخذها الخزّان وغيرهم، فيستخرجون منها العنبر والمسك[2].

«وقسْ على ذلك أُمّهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الإسلام. فقد كنّ يتمتّعن بالنفوذ، ويستولين على الأموال بالتواطؤ مع القوّاد ورجال الجند، بما يتاح لهنّ من إطلاق الأيدي في أُمور الدولة كما فعل المستعين العبّاسي فإنّه أطلق يد والدته ويد أتامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال وأباحهم فعْلَ ما أرادوا. فكانت الأموال التي ترد من الآفاق يصير

---

(١) تاريخ الطبري: ٧/ ٥٢٩.

(٢) ضحى الإسلام، الجزء الأوّل عن نشوار المحاضرة. [للقاضي التنوخي]

معظمها إلى هؤلاء الثلاثة»[١].

ويروي المؤرّخون أنّه كان بين رياش أمّ المستعين العبّاسي بساطٌ أنفقتْ على صنعه مائة وثلاثين مليون دينار، فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور وأجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر[٢]. وأنّ إحدى نساء الخلفاء حشتْ فمَ شاعرٍ دُرّاً فباعه بعشرين ألف دينار[٣].

ولم يكن الوزراء أقلّ من الخلفاء ونسائهم ترفاً وبذخا. فهذا الفتح بن خاقان وزير المتوكّل يبني من القصور ما تطال شرفاته السماء، فيقول البحتري:

ومِن شُرُفاتٍ في السماء كأنّها قوادمُ بيضانِ الحمامِ المُحلِّقِ

والوزير ابن مقلة يجمع في قصره من أصناف الطير والحيوان ما يُعجز بنفقاته خزانةَ الدولة. والوزير ابن الفرات يملك من الأموال والضياع ما لا يحصى «ويأكل بملاعق البلّور، وماكان يأكل بالمعلقة إلا لقمةً واحدة، فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة»[٤].

وكان الوزير المهلّبي كثير الشغف[٥] بالورد. روى من شاهده، قال: «شاهدتُ المهلّبي قد ابتيع له في ثلاثة أيّام وردٌ بألف دينار. فرش به مجالسه وطرَحَه في بُركةٍ عظيمة كانت في داره، ولها فوّارات عجيبة، يطرح الوردَ في مائها فتنفضه على المجالس فيقع على رؤوس الجالسين. وبعد شربه عليه، وبلوغه ما أراده منه، أنهبَه»[٦].

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ١٣١/٢، عن ابن الأثير: ٤٧/ ٧.

(٢) عن التمدن الإسلامي: ٢/ ١٣٢، عن المستطرف.

(٣) تاريخ بغداد: ٩/ ١٣٩، والشاعر هو سلم الخاسر.

(٤) مقاتل الطالبيين، ص ٨.

(٥) الشغف: الحبّ الشديد. لسان العرب: ١٧٩/٩، مادة «شغف».

(٦) ضحى الإسلام، الجزء الأوّل عن ياقوت.

ولم يشأ الوُلاة والعمّال أن يقصّروا عن الخلفاء والوزراء في مباراة البذخ وتجميع الثروات. فهذا عليّ بن أحمد الراضي والي جنديسابور والسوس وماذريا، يخلّف من الذهب والفضة والجواهر واليواقيت واللؤلؤ وألماس والبلّور والسلاح والمتاع والطيوب والأنسجة والأواني الثمينة والدور والقصور والخيول المطهّمة؛ ما لو وُزِّع على أفراد الشعب العبّاسي جميعاً لكفاهم الحاجة والعوز. ثم إنّه يخلّف من الغلمان والخصيان والخدم البيض والسودان جيشاً عرمرماً، لو غزا به مدينة محصّنة لاحتلّها. ونكتفي به مثلاً على ثراء الولاة والعمال؛ وتليهم طبقة الأثرياء من التجار.

أمّا رقاب الناس وحياتهم، فمرهونة بكلمة عابرة، أو بغمزة عين غاضبة، من أحد حجّاب الخليفة أو الوزير أو الوالي! فما إلى الأمن والسلامة من سبيل إلّا بعدم غضب الطبقة المسيطرة.

* * *

هذا من جانب، ومن جانب آخر كان البؤس والشقاء والموت يزيد في شقاء عامّة الناس نظامُ المال. فقدكان الخلفاء والوزراء والولاة يبيعون جباية الخراج وسائر الضرائب لأشخاصٍ على سبيل الالتزام ـ كما كان يحدث في بلادنا المسكينة في العهد التركي السعيد ـ فيعسف هؤلاء الاشخاص بالناس حتّى يبتزّوا منهم أضعاف ما دفعوا. واختلّ القضاء بتدخّل الحكّام وانتشار الرشوة(١). وإزداد الناس فقراً على فقر، وبؤساً على بؤس. حتّى لقد أصبح مِن حقّ مَن يموت منهم أن يُهنّأ لا أن يُعَزّى به. يقول ابن لنْكك البصري:

نحن، واللّهِ، في زمانٍ غشومٍ لو رأيناه في المنام فزعْنا

---

(١) ضحى الإسلام، الجزء الأوّل، ص ١٠٠.

يصبح الناس فيه من سوء حالٍ ... حقّ مَن مات منهمُ أن يُهنّا

ثم يسأل للناس صبر أيوب، ويبكي عليهم بكاء يعقوب:

نحن من الدهر في أعاجيبِ ... فنسأل الله صبرَ أيوبِ

أقفرَتِ الأرضُ من محاسنها ... فابكِ عليها بكاءَ يعقوبِ(١)

أمّا العلماء والمفكّرون وذوو القيمة، أُولئك الذين كان عليّ بن أبي طالب يوصي ابنيه الحسن والحسين بأن يعاشراهم، ويستمعا إليهم، ويُفيدا منهم، ويرفعا منزلتهم، ويوصي عمّاله ووُلاته بأن يستشيروهم في كلّ أمر، ويقرّبوهم، ويُجلّوا قدرهم لأنّهم نور الأُمة، أُولئك الذين قال عليّ فيهم: إنّهم باقون على الدهر، وإن علمهم هو الذي يحرسهم ويحرس الناس. أمّا العلماء والمفكّرون هؤلاء، فقد كانوا في عوَزٍ وشقاء كثير إلّا مَن تخلّى منهم عن ماء وجهه، فأراقه على أعتاب أُولئك القوم. فهذا أبو حيّان التوحيدي، ذو العلم الكثير والتآليف القيّمة، يقول في كتابه «الإمتاع والمؤانسة»: «ولقد اضطررتُ إلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء والنفاق، وإلى ما لا يَحْسُن بالحرّ أن يرسمه بالقلم»(٢). ثم إنّه اضطرّ في آخر أيّامه ـ وقد إزداد غيظه من دهره ودولته ـ إلى أن يحرق كتبه. وهذا أبو عليّ القالي يضطّر ـ هو أيضاً ـ إلى أن يبيع كتبه وهي أعزّ شيء عنده؛ وفي ذلك يقول:

أنِسْت بها عشرين حَولاً وبعتُها ... فقد طال وجدي بعدها، وحنيني

وماكان ظنّي أنّني سأبيعُها ... ولو خلّدتْني في السجونِ ديوني

---

(١) ابن لنكك: هو أبو الحسن محمد بن محمد المعروف بابن لنكك، الشاعر البصري الشهير، توفي ٣٦٠ هـ، راجع تاريخ بغداد: ١٣/ ٩٦.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ٢/ ١٤٣ وفيه: بيع الدين وأخلاق المروءة، وإراقة ماء الوجه....

ولكــنْ لجــوعٍ، وافــتقارٍ، وصبْيَةٍ صــغارٍ عــليهم تستهلّ جـفوني(١)

وهذا الخطيب التبريزي كان له نسخة من كتاب «التـهذيب فـي اللـغة» للأزهري في عدّة مجلّدات أراد تحقيق ما فيها وسماعها على عالم باللغة، فدُلّ على أبي العلاء المعرّي، فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى معرّة النعمان، ولم يكن له من المال ما يستأجر به ما يركبه، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثّر فيها البلل(٢). ومن قوله:

فــمَن يسأمْ مِــن الأسـفار يـوماً فــإنّي قـد سـئمتُ مـن المُـقامِ
أقــمنا بــالعراق عــلى رجـالٍ لئــــامٍ يــــنتمون إلى لئـــامِ

ويمجن الزمان، فيمعن في الإساءة إلى الأحرار وإلى الناس جميعاً، فيقول ابن لنْكك:

يــا زمــاناً ألبسَ الأحـرارَ ذلاً ومَــــهانَــــــــه
لستَ عـــندي بــزمانٍ إنّــــما أنتَ زَمــانَه
كيف نرجـو مـنك خيراً، والعــــلا فــيك مــهانه
أجـــنونٌ مـــا نـــراه مــنك يــبدو، أم مــجانه

ويقول آخر:

زمـــــانُنا زمـــــانُ ســــوءٍ لا خــــيرَ فــــيه ولا فــــلاحا
لا يُــــــبصُر الأشــــقياءُ فــيه لِـــلَيلِ أحـــزانِــهم صـــباحا
فكــــلُّهم مــــنه فـــي عـــناءٍ طـوبى لمـن مـات فـاستراحا(٣)

ومن انقسام المجتمع العبّاسي هذا إلى طبقتين متباينتين في أحوال اليُسْر

---

(١) الأبيات في المنتظم: ٨/ ١٧٤، معجم الأُدباء: ١٢/ ٢٢٨، وفيات الأعيان: ٣/ ٣١٦.
(٢) ضحى الإسلام: ١/ ١١٩.
(٣) بغية الوعاة للسيوطي، ص ٣٢٩ والشعر لابن الفنجكردي توفي ٥١٣ هـ.

والعُسْر، نشأت المفاسد الأخلاقية هنا وهناك على نحو ما كان في العصر العبّاسي الأوّل وأكثر! نشأ الإفراط في الترف والتفنن في اللذائذ والاستهتار وفساد النفس في قصور الموسرين. ونشأ الحقد والحسد والكذب والخديعة في أكواخ المعْسرين. وقد رافق انتشار الفقر أيضاً انتشارُ التزهد والتصوف على غيرِ رغبةٍ طبيعيةٍ أصيلة فيهما، بل نتيجةً للعجز والفشل واليأس! وكان من آثار ذلك أن عَمَّ الدّجَل والتخريف، فتعلّق الناس بالشعوذات والأسباب التافهة في الحصول على العيش بعد أن عزّ الحصول عليه بالأسباب الطبيعية.

وكان لهذه الحالة الاجتماعية أثرٌ واضح في الشعر خصوصاً. يقول أحمد أمين:

«إنّ غزارة الأموال في يد الخلفاء والولاة ومَن إليهم، ووفرة عطاياهم وقلّة الأموال في يد سواهم، جعلت الفنون الجميلة ولا سيّما الشعر لا تزهر إلّا في أحضان الخلفاء ومَن إليهم، وتذبل في غير جوّهم. لقد كان من المعقول أن يفيض شعور الرجل وتهيج عواطفه وتغلي نفسه، فينطق بالشعر يهدّئ من شعوره ويخفّف من غليانه، لا يرجو من ذلك إلّا إرواءً لعاطفته الفنّية، وهذا هو كلّ مطمحه في الثواب. وكان من المعقول أن يجيد الفنّانُ إشباعاً لنهمه الفنّي، في فقرٍ أو غنى، ورخاءٍ أو شقاءٍ! ولكنْ يظهر أنّ قليلاً كان عندهم هذا السمّو الفنّي، وأكثرهم رأى أنّ أبياتاً من الشعر إذا لوحظ فيها ذوق الممدوح - لا ذوق الفنّ - تدرّ عليه من الأموال ما لا يحلم به، وهو إذا أرضى عاطفتَه وفنّه عاش عيشة كفاف، فاندفع يطلب هوى الخليفة. وسال السيل كلّه وجرى التيّار كلّه، إلّا القليل النادر، نحو القصور. وأصبح الفنّانون أداةً من أدوات الزينة وطرفةً جميلة تُحلّى بها الدور والقصور... وكان من نتائج هذا أن أصبح أكبر مجرى يصبّ فيه الشعر هو المديح، وهو باب أبعد ما يكون في نظرنا عن

الشعر. وتعاقب الشعراء يصوغون معانيه السائغة وغير السائغة، حتّى ارتشفوا آخر قطرةٍ منها، بينما الأبواب الأُخرى من وصفِ عاطفةٍ سامية، وتحليلٍ لشعورٍ بجمال الطبيعة، ونحو ذلك، لم تمسَّ إلا مسّاً رقيقاً. وكان من نتائج هذا أيضاً، أنّ مؤرّخ الفنّ في هذا العصر يكاد لا يؤرّخ إلّا العراق. فأمّا مصر والشام والحجاز فأدبها أدبٌ خفيف، وشعرها لا يكاد يؤبه له، وكلّ نابغٍ في شعرٍ أو فنٍّ آخر لا يجد مشترياً لسلعته إلّا العراق»[1].

* * *

أمّا الدويلات التي نشأت في أعقاب العصور العبّاسية أو في توالي أيّامها، فقد كان فيها التميّز الطبقي أعظم وأعمق؛ وكانت المفاسد في الأخلاق الخاصّة والعامّة أوسع وأبعد. وكان الحكم فيها آلةً لسحْق الناس وتهديم القيَم الإنسانية التي دعا إليها الإسلام ومات في سبيلها عليّ بن أبي طالب؛ وشاءتْها الشعوب العربية جوهراً لقوميّتها ومظهرا.

فالدولة الأخشيدية ـ مثلاً ـ لم تذهب من مصر إلا والبلاد فريسة للبؤس والشقاء فيما كان آخر ملوكها «أبو المسك كافور الأخشيدي مهجوّ المتنبّي» يملك في أحد قصوره نحواً من ثلاثة آلاف مملوك بين عبدٍ وخصيّ وجارية. وكان زعماء هذه الدولة ينهبون كلَّ ما تطاله أيديهم، ويرهقون الشعب إرهاقاً بليغاً ويقتلون الناس عمداً ليصادروا أموالهم وديارهم. ويروي العيني في «عقد الجمان» خبرَ رقعةٍ وُجدت في قصر الأخشيد أيّام ذبول هذه الدويلة، كتبها المصريون لتكون شاهداً على ما لحقَ بالعشبِ المصري من ظلم وعدوان في عهد الأخشيديين. وممّا جاء فيها:

(١) باختصار عن ضحى الإسلام: ١/ ١٣٩ - ١٤١.

«وُلّيتم فظلمتم. وحكمتم فجُرتُم. وانعكفتم على الذات. فاعملوا ما شئتم فإنّا صابرون. وجوروا ما استطعتم فإنّا عليكم بالله مستجيرون!»[١]. وقد قيل في الأخشيد الأوّل: «إن في زوال ملكه فرحاً للعالم!».

والخلاصة أنّ الدولة الأخشيدية شيء تافهٌ جداً. ولو لم يشتم المتنبي أحدَ ملوكها كافوراً الأخشيدي ويهْجُهُ فيخلّده ويخلّد دولته؛ لَما استحقّتْ هذه الدولة لمظالمها سطراً واحداً في مجلّدات التاريخ الطويلة.

ولا تسألْ عمّا عرفتْه هذه العصور من الطغيان والفساد والانحلال والموت بأشكاله جميعا! ولا تسأل عن ملوك بعض الدويلات حين تألّهوا وادّعوا علمَ الغيب ومعرفة أحوال الكون! وقد حفظ لنا التاريخ بيتين من الشعر لظريفٍ من الظرفاء هالَه هذا الإدّعاء فتهكّم على المدّعي، وكتب البيتين المذكورين على قصاصة ورقٍ وعلّقها على باب المسجد. قال:

بالظلم والجَوْر قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقَهْ
إنْ كنتَ أُوتيتَ علْم غيبٍ ... بيِّن لنا كاتبَ البطاقَهْ[٢]

كما حفظ لنا التاريخ أيضاً أبياتاً لعددٍ من المتملّقين الذين يرضون عن الحماقات؛ ويتقرّبون إلى أصحابها منافقين. من هؤلاء مخلوقٌ يدعى محمد بن بديل قال في أحد الخلفاء:

حَلَّ برقاده المسيحُ ... حَلَّ بها آدمٌ ونوحُ
حَلَّ بها أحمدُ المصطفى ... حلّ بها الكبشُ والذبيحُ
حلّ بها اللهُ ذو المعالي ... وكلُّ شيء سواه ريحُ[٣]

(١) ضحى الإسلام: ١/ ١٣٩ - ١٤١.
(٢) وفيات الأعيان: ٥/ ٣٧٣، سير أعلام النبلاء: ١٥/ ١٦٩.
(٣) البداية والنهاية: ٣١١/١١ والأبيات لمحمدبن هاني الأندلسي...وليست في ديوانه يمدح بها المعز الدين الله.

ولا تسأل كذلك عمّا عرفتْه هذه العهود من القسوة المريعة والظلم الفظيع!

ومن ألوان هذه القسوة وهذا الظلم ما كان يحدث في جباية الخراج في مصر؛ إستناداً إلى نظام جائر هو نظام الالتزام. فقد كان كثيرٌ من الملوك يُلزمون جباية الخراج رجالاً يأخذون منهم ثمناً مقطوعاً، فيُطلق هؤلاء الملتزمون العنانَ لشهوات نفوسهم الخسيسة في الطمع وابتزاز الأموال، فيظلمون الناس ظلماً شنيعاً إذ يفرضون عليهم من أموال الخراج ما يقرّرونه هم. ولمّا كان تسعون في المائة من الناس فقراء معدمين لا يستطيعون أن يؤدّوا بعضَ ما يفرضه عليهم الملتزمون؛ كان هؤلاء يلجأون إلى وسائل بربرية لتعذيب الناس، أو يدفعوا ما فُرض عليهم. وهم على كلّ حالٍ لا يعرفون لماذا يُفرَض عليهم هذا المال؟ ومن وسائل هؤلاء الملتزمين الوحشية في تحصيل الخراج، أنّهم كانوا يضربون الفقراء بالسياط حتّى الموت. وكان من عادة أولئك الملوك أن يُصحبوا موظّفي الجباية برجلٍ فظٍّ غليظٍ تقوم وظيفته بأن يجُرّ الفقيرَ المطالَب بمال الخراج؛ ثم يسحبه على وجهه ويسوطه بشدّةٍ، ولا يفارقه حتّى تفارقه الحياة!

ومن ألوان هذه القسوة وهذا الظلم أيضاً ما كان يصيب البائسات من الجواري الرقيقات، حين تُجرى عليهم صنوف التعذيب للتسلية أو للمزاح... من ذلك ما يرويه السيوطي في «حسن المحاضرة» وغيرُه من المؤرّخين، من أنّ الملك الظاهر لإعزاز دين الله جمَعَ ألوفاً من الجواري، وبنى الأبواب عليهنّ حتّى متْنَ جميعاً ثم أضرم النار فيهن! ومن ذلك أيضاً ما رواه ابن إياس من أنّ الحاكم بأمره سمع يوماً ضجيجاً للنساء بحمّام الذهب، فأمر أن يُسد عليهنّ بابُ الحمّام بالحجر. واستمرّت النساء به حتّى متْنَ كذلك. ومنه ما ذكرناه سابقاً من أنّ المماليك قتل عدّة آلاف من الأرقّاء للتسلية والتحلية كما

يروي التاريخ.

* * *

ولا تسأل كذلك عن تستُّر عصابات الحاكمين في تاريخنا وراء ستارٍ مهلهل من الدفاع عن الدين لاستعباد الناس؛ شأنهم في ذلك شأن إخوانهم في سائر أنحاء الأرض. فلطالَما تخَلّص الحكّام في الشرق من المفكّرين والأحرار والخصوم عن طريق اتّهامهم بالكفر ومخالفة الشرائع. وطالما ساد الشرقَ جهلٌ أشدُّ حلكةً من دياجير الليالي المظلمات؛ فإذا بالطغاة والمستبدّين يستغلّون هذا الجهل الذي يسيطر على العامّة، فيدفعونهم في طريق التعصّب إذا انتفعوا هم به؛ أو يسايرون ما هم فيه من تزمّتٍ[1] مذهبيّ للانتفاع به أيضاً. ولابدّ من القول: إنّ المفكّرين الأحرار في الشرق كان يجري عليهم من المظالم باسم «الدفاع» عن الدين ماكان يجري على المفكّرين الأحرار في الغرب. فالفكر الحرّ واحد في كلّ زمان وكلّ شعب. والتعصّب واحد. وكذلك استغلاله لمنفعة الحاكمين والطبقات التي تؤيّدها.

«والذي حدث بالفعل هو أنّ رجال السلطة الزمنية في الإسلام قد استجابوا في بعض مراحل تاريخه لتزمّت المتعصّبين من أهله، أو انقادوا لتعصّبهم الذميم، أو لحرصهم على مصالحهم، أو لرغبتهم في تملّق الطبقات الدينية واكتساب مرضاة الجماهير. وانطلقوا باسم الدين إلى قتال بعض الطوائف والفرق الدينية ومناهضة رُوّاد الفكر. ومن هنا دخلت السياسة وتولّت باسم الدين - في كثير من الحالات - اضطهادَ الأحرار؛ فكانت مذابحُ وحروب تشبه ما عرفتْه المسيحية من مذابح وحروب»[2].

---

(١) تزمّت: تعصّب.

(٢) باختصار عن «الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام» للدكتور توفيق الطويل.

وقد مرّت بنا فصولٌ تحدّثْنا بها كيف استغلّ رجالُ الحكم في الشرق القديم الدينَ لمنافعهم وحدها؛ فآذوا باسمه الجماعات أشدَّ أذىً وطغوا وبغوا ونافقوا نفاقاً كثيراً. فمسلم بن عقبة يوم نكّل بالمدينة وقتل الألوف من الأبرياء قتلا فظيعاً، كان يدافع ـ فيما زعم ـ عن دين محمد القائل: «خير الأعمال بذل السلام للعالم». وزياد بن أبيه كان «يدافع» عن الإسلام أيضاً يوم راح يدعو لسيّده معاوية في أرض العراق، وينعت المعارضين بالإلحاد والزندقة، ويصلبهم أو يدفنهم أحياء ويقطع أرجلهم وأيديهم بما أُوتي من قسوة البرابرة. و«دفاعاً» عن الدين قضى عبيد الله بن زياد على الحسين، وجمَعَ العطشَ والقتْلَ على أنصاره ومَن معه، وهم قلّةٌ عدديّة معظمهم من النساء والأطفال. والحجّاج بن يوسف السفّاح الأكبر، لم ينقذ خطط الإجرام والتقتيل الجماعي في أهل العراق إلا دفاعاً عن دين أمير المؤمنين كما تزعم خُطَبُهُ ـ يعني عن سلطان عبد الملك بن مروان وعن أبنائه وأمواله وعمّاله ومحظياته ـ. وفي العهد الأُمويّ هذا ظهر بالشام رجلٌ يُدعى «نافع بن مروان»، كان ينظر في الأُمور ويرى فيها رأيه الخاصّ. فكان من القائلين بالقدر في ما يتعلّق بالجانب الديني من آرائه. وكان من مذهبه في الشؤون العامّة أنّ الخلافة تصلح في غير قريش إذا استوفى الخليفةُ الشروطَ المطلوبة. وهو إلى ذلك رأس المعتزلة في زمانه ومن نوابغ العلماء وأحرار الفكر الذين حاربوا الظلم والظالمين. فلاحقه هشام بن عبد الملك وآذاه، ثم قتله شرّ قتلة «دفاعاً» عن الدين!

واتّخذ أبو جعفر المنصور وعاملُه سفيانُ بن معاوية بن يزيد بن المهلّب من الاتّهام بالزندقة ذريعةً للانتقام من الأديب العبّاسي ابن المقفّع، وكان ابن

المقفّع يخاصم المنصور سياسياً، وينعي عليه ظلمه وجوره، وكان يخاصم سفيان شخصيّاً فيتهكّم به ويرميه بقوارص لسانه في المجالس العامّة فيُخزيه؛ فما كان من الخليفة والعامل إلا أن قتلاه - وهو في شرخ شبابه - قتلاً بشعاً بعد أن رَمَياه بالزندقة!

وقتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني مؤسّس الدولة العبّاسية، لأنّه خشِيَه على ملكه. وكانت التهمة الظاهرة أنّ أبا مسلم زنديق كافر!

واتّهم المهدي شريكاً القاضي بالزندقة لأنّه كان يكره العبّاسيين. وقتل صالح بن عبد القدوس على الشبهة متّهماً إيّاه بالزندقة. وقتل بشّار بن برد بدعوى الإلحاد والسببُ هجْوُه إيّاه. ويجمع المؤرّخون على أنّ هذا الخليفة تَوَفّر على تقطيع الفلاسفة والإمعان في قتال جميع الذين كانوا خطراً عليه. وكانت التهمة في ذلك كلّه الكفر أو الزندقة.

ومثلُ الذي جرى لأبي مسلم الخراساني على يد أبي جعفر المنصور؛ جرى للأفشين على يد المعتصم. وكان الأفشين قائد جيوش المعتصم وفاتح عمورية وأسر بابك الخرمي؛ وركن الخلافة العبّاسية في أيّامه. فلمّا أوجس المعتصمُ خيفةً منه لم يجد سبيلاً إلى إهلاكه أسهل عليه من اتّهامه بالزندقة. فألّف محكمةً قوامُها هو ووزيراه ابن الزيات وابن أبي دؤاد، وحاكموا الرجل، وسرعان ما «تَبَيّن» لهم أنّه زنديق! وكان في جملة التّهم التي استندتْ إليها هذه المحكمة الطريفة في إلصاق تهمة الكفر بالأفشين، وفي إدانته، أنّه رَفَضَ الاختتان... وهكذا جُعل الأفشين في الحبس حيث مات أبشع ميتة. فقد مُنع عنه الطعام والشراب إلى أن هلك. ولم يكتفِ المعتصم بالتنكيل بالرجل حيّاً وإهلاكه بالجوع والعطش تحت الأرض، بل بالَغَ في إظهار «إيمانه» هو

و«زندقة» الأفشين، فصَلَبه ميتاً ثم أحرقه بالنار وفي ذلك غلوٌّ بالإساءة.

ولم يكن «كفر» الأفشين في الحقيقة إلّا في إنطوائه على خلاف المعتصم. يقول التبريزي: «لم يكن الأفشين كافراً ولا منافقاً، وإنّما كان رجلاً من الفرس، اصطفاه المعتصم لحسن طاعته وخدمته، واعتمد عليه في مهامّ أُموره، حتّى وَكَّل إليه مقاتلة بابَك الخُرَّمي فمضى إليه في اُلوفٍ وأسَرَه. غير أنّ الحسّاد أفسدوا بينهما، فذكروا للمعتصم: أنّه منطوٍ على خلافك... فأخذه وصلبه وأحرقه!»[1].

والحسين بن الحلّاج ظلّ متمتّعاً بحريّته إلى اليوم ثَبَتَ فيه للخليفة أنّه كان بينه وبين رئيس القراطمة اتّفاقٌ سرّي على قلب الدولة، وعند ذلك قتَلَه متّهماً إيّاه بالإلحاد. والتهمة في جوهرها سياسيّة خالصة[2].

ويقول صاحبا «طبقات علماء أفريقيا وعلماء تونس»: إنّه قد دارت دوائرُ على ناسٍ كثيرٍ في أفريقيا من قتْلٍ وضربٍ كدائرة ابن عروس الذي خُلع لسانه من حلقه. وكأبي العبّاس بن التستري الشافعي الذي ظُلم وعُذّب وأُخذ ماله. ويحدّثنا كذلك عن رجلين من أهل الخير هما: أبو القاسم مولى مهرويه وعليّ السدري، اللّذان عُذّبا وقُتلا وصُلبا بكلامٍ حُفظ عليهما في السلطان. وكانت الحجّة الظاهرة ـ أبداً ـ الدفاع عن الدين!

أمّا الفقهاء فقد اضطُهدوا قليلاً وإنْ كان فيهم مَن هم مِن أهل البحث والنظر؛ ذلك لأنّ معظمهم كانوا متّصلين بأصحاب السلطان يتملّقونهم ويزيّنون لهم ما يفعلون ويُفتون بما يريدون. ويروي المؤرّخون أنّ كثيراً من

---

(١) عيون التواريخ: ٨ / ١٠٣، تاريخ الطبري: ٧/ ٣١٧.

(٢) الإسلام والحضارة العربية، ص ٧٥.

هؤلاء رأوا لصديقهم المتوكّل العبّاسي رؤى في المنام تذكر أنّ الله يـغفر له ما يصنع!

أمّا الذي لم يكن منهم ليوافقَ السلطانَ في كلّ ما يفعل ويقول؛ فكان يلقى جزاءه. من ذلك أن أبا جعفر المنصور ضربَ الإمام مـالك بـن أنس سـبعين سوطاً، ولم يرعَ له حرمةً، لأنّه لم يكن يرى ببيعته شيئاً صالحاً.

ولم يكن أصحابُ السلطان ليُفيدوا من هذه الاتّهامات لولا غباء العامّة؛ الذي كان يحملها على أن تتعصّب لمعتقداتها التي «يحميها» صاحبُ السلطة، فتؤيّده في الانتقام من أعدائه، وتبرّر جـرائـمه التـي يـرتكبها بـاسم الديـن والدفاع عنه.

وممّن نافقوا كـثيراً بـاسم الديـن الخـليفة المـتوكّل العـبّاسي الذي فـعل الأفاعيل «دفاعاً» عن المعتَقَد في الظاهر؛ ودفاعاً عن سلطانه في الحقيقة. وقد ذكر الطبري وابن الأثير وسواهما من المؤرّخين، أن المتوكّل هذا هدم قبر الحسين بن عليّ في كربلاء، وأجرى عليه الماء، ثم أمر بالمنازل والدور التي حوله فهدمتْ أيضاً؛ وعاد فحرث أرض كربلاء ومنع الناس الاقتراب مـنها. والسبب الحقيقي في هذا التعصّب على الطالبيّين هو أنّه ظنّ نفسه قادراً بذلك على استمالة السواد الأعظم من الناس إليـه، وهـم مـن غـير الطـالبيّين، وإلى استمالة الأتراك بصورة خاصة؛ تثبيتاً للمُلك العبّاسي الذي كان آخذاً بالانهيار في أيّامه.

ويروي ابن الأثير ما خلاصته أنّ المتوكّل كان ينادمه ويجالسه جماعةٌ؛ قد اشتهروا بالنصب والبغض لعليّ بن أبي طـالب. وأنّـه كـان قـد اتّـصل بـه يعقوب بن إسحاق النحوي المعروف بابن السكّيت، فسأله المـتوكّل: أيُّـهم

أحبّ إليك، المعتز والمؤيّد ـ ابنا المتوكل ـ أو الحسن والحسين؟ فتنقّصَ ابنُ السكّيت ابنَي المتوكّل وذكَرَهما باستخفاف، ثم ذكر الحسن والحسين بما هما أهلٌ له، وعظّم شأنهما، فأمر المتوكّلُ خدَمَه الأتراك فداسوا بطنَه، فحُمل إلى داره فمات[1] ولم يجد المتوكّل بداً من اتّهام الرجل بالخروج على الدين القويم...

وقد يصعب في بعض الحالات أن يَفصل المرء بين التعصّب بمعناه الموضوعي؛ والتعصب الذي يُخفى وراءه مقصداً سياسياً أو انتفاعياً معيّناً. ذلك لأنّ عصور الركود العقلي كانت تجمع بين الإيمان المتزمّت والنفوذ السياسي في يد واحدة. فكان المتزمّتون يخلطون في ضمائرهم، وفي أكثر الأحيان، بين أسباب الاضطهاد الناجم عن أُسلوبهم في الإيمان والاضطهادات الناتجة عن رغبتهم في التخلّص من أعدائهم السياسيّين أفراداً كانوا أو جماعات. بَيْدَ أنّ هذا الأمر وإن كان حقيقةً واقعة؛ لا يُلقي غطاءً على كلّ ما أُرتُكبَ من جرائم باسم الدين. فمِن هذه الجرائم ما اتّحد بأسبابه الإيمانُ المتزمّتُ والمنفعةُ الذاتية. ومنها ما أُرتُكبت باسم الإيمان دفاعاً عن منفعة. ومنها ما أدّى إليه التزمّتُ الناشىء عن التعاوُن بين جهل العامّة واستنفاع الحكّام.

فهذا رجل من الشام اسمه غيلان الدمشقي، يؤمن بما دلّته عليه تجاربه وبما هداه إليه عقله. وهذا القدر يسوق إليه جماعةً من أهل الشام فيتكلّم أمامهم ويجهر بما يرى، وكان مفوّهاً قادراً، فإذا بهم يذهبون من عنده ليُكثروا الوقيعةَ فيه والسعايةَ بسبب رأيه في القدر، وإذا بهشام بن عبد الملك ينزل عند رغبة هؤلاء الموقِعين الساعين «محافظةً» على الدين من جهة... وعلى موالاة

(١) تاريخ بغداد: ١٤/ ٢٧٣، بغية الوعاة: ٤١٨، تاريخ الخلفاء: ١٣٩، معجم الأُدباء: ٣٠٠/٧، وفيات الأعيان: ٥/ ٤٣٨.

القوم له مع عشرين جهة... فيُصدر أمرَه الشريف بأبشع ما يصدر به أمر: بقَطْع يديه ورجليه وقتْله وصلْبه وإحراقه. ولو عُرف الرصاص في عهد هشام لَرَماهُ بالرصاص أيضاً!

وها هم المؤرّخون يُجمعون على أنّ أظهر ما في تاريخ الخليفة المهدي كان تنكيله بمَن يخالف عقائده؛ والفحص عمّن طاب له أن يسمّيهم الزنادقة. وهو أوّل مَن أنشأ إدارةً خاصةً للبحث عن هؤلاء ومحاكمتهم. فقد عيّنَ رجلاً وكَّلَ إليه أمرَهم سمّاه «صاحب الزنادقة». يقول صاحب الأغاني: «لمّا نزل المهدي البصرةَ كان معه صاحبُ الزنادقة، فدَفَع إليه بشّار بن برد، وقال: «اضربْه حتّى التّلَف»»[١]. ويقول الطبري في إحدى سنّي هذا الخليفة: «وفيهما جَدَّ المهدي في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقَتْلهم، وولّى أمرَهم عُمَرَ الكلواذي»[٢]. ويقول المسعودي في المهدي: «إنّه أمعن في قتْل الملحدين والمداهنين عن الدين»[٣]. ويقول الطبري: «إنّ المهدي كان يضرب عنقَ الزنديق ويصلبه»[٤].

وهو لم يكتفِ بما أصاب هذه الفئةَ من الخلق على أيّامه الكريمة بل أمَرَ ابنه موسى الهادي أن ينكّل بهم إذا قُلِّدَ الأمرَ، قائلاً له: «فارفع فيها - أي في هذه الفئة - الخشبَ وجرّدْ فيها السيف!»[٥]. وكان الهادي على ما أراده أبوه، فلم تمضِ من أيّام خلافته أشهرٌ معدودة ويستتبّ له الأمر حتّى قال: «أمَا واللهِ

(١) الأغاني، لأبي الفرج الاصفهاني: ٣/ ١٣٥ - ٢٤٩.
(٢) تاريخ الطبري: ٦/ ٣٨٩.
(٣) مروج الذهب:
(٤) لم نوفق للعثور على هذا النص في تأريخ الطبري.
(٥) تاريخ الطبري: ٦/ ٤٣٤.

لئن عشتُ لأقتلنّ هذه الفرقة كلّها حتّى لا أترك منها عيناً تطرف!»[١]. واشتدّ في أخْذهم بالسيف والخشب، أي بضرب الأعناق والصلْب. غير أنّ أيّامه لم تطل، فلم يتمكّن من قتل «هذه الفرقة كلّها» كما أقسم!

ولمّا استخلف هارون الرشيد حذا حَذْو أسلافه في تعقُّب كلّ مَن فكّر تفكيراً حرّاً فتكرّم هو وسمّاه زنديقاً! وقد قتل من هؤلاء الناس خلقاً كثيراً. والمأمون نفسه، هو أكثر الخلفاء العباسيّين تسامحاً وأرحبهم أُفقاً، لم يخلُ تاريخه من مظاهر التزمّت المقرون بالمصلحة. فقد روى المسعودي أنّه أُخبر بوجود عشرةٍ من الزنادقة من أهل البصرة، فطلَبَهم إليه، ثم قتلهم جميعاً![٢]

وكان الواثق يقتل حتّى المسلمين إذا أُقيمت عليهم الحجّة في خلق القرآن ونفْي التشبيه. وممّن قتَلَهم هذا الخليفةُ: أحمد بن نصر من علماء عصره ومن أحراره. قَتَلَه وصَلَبَه ونسب قَتْله إلى إرادة إلهيّة جرياً على عادة زملائه خلفاء الله في الشرق والغرب ساعةَ يتعصّبون جهلاً وغباءً، أو انتفاعاً وإفادةً؛ فينسبون جرائمهم إلى الإرادة الإلهية وهم مطمئنّون.

وقد علّق الواثقُ في أُذن أحمد بن نصر بعد أن قتَلَه رقعةً، جاء فيها: «هذا رأس الكافر المُشرك الضالّ وهو أحمد بن نصر بن مالك مِمّن قَتَلَه اللهُ على يدَي عبد الله الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجّة في خلق القرآن ونفْي التشبيه. والحمد لله الذي عجّلَ به إلى ناره وأليم عقابه. وإنّ أمير المؤمنين قد سألَه فأقرّ بالتشبيه، وتكلّم بالكفر، فاستحلّ بذلك أميرُ المؤمنين دمَه ولعنه!» ثم أمرَ الواثقُ أن يُتْبع مَن وُسم بصحبة أحمد بن نصر ممّن كان مشايعاً له فوُضعوا في حبوسٍ مظلمة وضُيّق عليهم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الطبري: ٧/ ٣٢٩، البداية والنهاية: ١٠/ ٣٣٦.

وكان الخليفة المعتصم، قبل الواثق، قد أحضر أحمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن فلم يُجبْه إلى القول بخلقه، فجلَدَه حتّى غاب عن وعيه وتَقطّع جلدُه وقُيّد وحُبس.

وحُمل أبو يعقوب البويطي خليفةُ الشافعيّ في حلقته إلى بغداد مغلولاً مقيّداً، وأُريد على القول بخلق القرآن، فامتنع، فحُبس ببغداد إلى أن مات في القيد والسجن. وقُتل ابنُ حيّان البستي، وكان من أعلم أهل عصره، بدعوى أنّه يعرف بعض العلوم الرياضية! وضُرب خُبَيب بن عبد الله بن الزبير مائة سوط؛ وكان لقَي العلماء وقرأ الكتبَ على رواية الرواة. ثم ماكان من الوليد بن عبد الملك إلّا أن تكرّم وأمرَ به فبُرِّد له ماءٌ في جرّةٍ ثم صُبّ عليه منها في صبيحة باردة فكَزَّ وأصابه انقباضٌ شديد من البرد، فمات في الحال! وصلب محمدٌ بن سليمان بالكوفة رجلاً يدعى عبد الكريم بن العوجاء لأسباب تتعلّق بنظره في الدين!

ولعلّ الاعتداء على ابن رشد، أحد عظماء فلاسفة الدهور، وأحد أقطاب الخير والنبل الإنساني،كفيلٌ بأن يعطينا فكرةً عن اضطهاد المتعصّبين لحريّة الفكر، وعن مدى إساءتهم إلى جوهر الحضارة، ثم عن استغلال الدين لمنفعة طبقةٍ ثقيلة الظلّ من طبقات النافذين. جاء في كتاب «تاريخ فلاسفة الإسلام» لمحمد لطفي جمعة، عن كتب التاريخ، ما يلي:

«كان ابن رشد في السبعين من عمره. وتحرّكت أحقاد أعدائه، وقد رأوا الفرصة سانحةً بانصراف المنصور إلى مشايخ الطرق الصوفية، فتسلّح هؤلاء الأعداء وأنصارهم من حاشية الأمير -كعادتهم وعادة مَن مضى قبلهم ومَن أتى وسيأتي بعدهم من أعداء حريّة العقل الإنساني - بسلاح المدافعة عن شريعة الإسلام. وكان المنصور مقيماً بمدينة قرطبة، وقد امتدّ بها أمدُ الإقامة،

وانبسط الناس لمجالس المذاكرة، فتجدّدت للأعداء آمالهم وقويَ تألّبهم واسترسالهم، فأدلوا بحفيظتهم وأوضحوا للأمير ما شاؤوا من «سيّئات» ابن رشد في مؤلّفاته، فقُرئتْ في مجلس الأمير وتُدُولتْ أغراضُها ومعانيها وقواعدها؛ وتمكّن الأعداء والحسّاد من تخريجها بما دلّت عليه أسوأ مخرج. وقد ذيّلوها بمكرهم وسوء طويّتهم حتّى هيّجوا الأمير، وأيقظوا قوّة الشر الكامنة في نفسه بحجّة المدافعة عن شريعة الإسلام».

ويظهر أنّ وقيعتهم بابن رشد كانت علانية في مجلس الأمير، فإنّ أحد المؤرّخين يقول: «فلم يمكن عند اجتماع الملأ إلّا المدافعة عن شريعة الإسلام». ويظهر أيضاً أنّ أعداء ابن رشد طلبوا إلى الخليفة إهراق دمه لتنجو شريعة الإسلام من شرّ ابن رشد، وتعلو بخير هؤلاء المدافعين عن كيانها الذائدين عن حياضها!

فلما أخذ أعداء ابن رشد للحملة عليه عُدّتَهم، آثروا أن يحشروا معه فريقاً من أصدقائه ومريديه وتلاميذه؛ لتكون محنةُ الحكمة شاملة ونكبةُ الحكماء عامّة. وأشاروا على المنصور أن يصبغ غضبه بصبغة الدفاع عن الملّة لتكون النكاية بالحكماء أشدّ واللوم على الوقيعة بهم أخفّ. فأمر المنصور طَلَبَةَ مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين؛ وتعريف الملأ بأنّ ابن رشد ومن معه مرقوا من الدين وأنّهم استوجبوا اللعنة جهاراً(١).

وأُحضر ابن رشد وأصحابه وتلاميذه إلى المسجد الجامع بقرطبة حيث كان مجلس المحاكمة، ووقف الخطيب أبو علي بن حجّاج، يوجّه التهمة إلى ابن رشد وأصحابه، وخلاصتها: أنّ هؤلاء قد مرقوا من الدين وخالفوا عقائد

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة، ص ١٣٥ - ١٣٦.

المؤمنين باشتغالهم بالفلسفة وعلوم الأوائل. غير أنّ الخليفة المنصور آثر الرأفة بابن رشد وأتباعه من أحرار الفكر، فلم يقتلْهم عملاً بما طلب إليه «المدافعون» عن الدين.

وبهذا الصدد يقول مؤلّف «تاريخ فلاسفة الإسلام».

«... لكنّ هذا لا يقلّل من غضبنا على الذين حاكموا ابن رشد. فإنّ الاضطهاد مرذولٌ في كلّ زمان ومكان، وأنصارهُ محتقرون وملعونون بكل لسان ما داموا يتسلّحون بالدفاع عن الدين في محاربة العقل؛ لأنّ الدين لم يأمر بالتعذيب والقتل والنفي في سبيل نصرته. ولكنّ الجهّال وأهل الضلال والفتن هم الذين يشفون غليلهم ويثلجون صدورهم المتّقدة بنار الغيظ والحسد باسم الدين والملّة والشريعة وهي منهم بريئة»(١).

ومن الذين حفظ لنا التاريخ أسماءهم ومِن حقّهِ أن يطويها ويُلقي عليها ألف غطاء، مخلوقٌ يدعى الحاج أبو حسين بن جبير، كان في عداد الذين سخّرهم المتعصّبون والمستنفعون ضدّ حرية الفكر؛ لينتقموا من ابن رشد عن طريق الهجو والتعنيف والتشهير. ومن خزعبلاته هذه الأقوال:

الآنَ قد أيقنَ ابنُ رشدٍ ... أنّ تآليفه تؤالفُ
يا ظالماً نفسَه، تأمّلْ ... هل تجدُ اليومَ مَن توالفُ؟
لم تلزم الرشدَ يا ابن رشد، ... لمّا علا في الزمان جِدُّكْ
وكنتَ في الدين ذا رياء ... ما هكذا كان فيه جَدُّكْ
كان ابن رُشدٍ في مدى غيّهِ ... قد وضعَ الدين بأوضاعهِ
فالحمد لله على أخذِهِ، ... وأخْذِ مَن كان من أتباعهِ

ومنها:

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام، ص ٢٤٠.

نفذ القضاءُ بأخْذ كلّ مضلّلٍ   متفلسفٍ في دينه، متزندقِ
بالمنطق اشتغلوا فقيل حقيقةٌ،   إنّ البلاء موكّلٌ بالمنطقِ

وقال هذا المخلوق يمدح المنصور في ما أصاب المفكّرين الأحرار على يديه الكريمتين من نفيٍ وتعقّبٍ واضطهاد:

بلغتَ، أميرَ المؤمنين! مدى المنى   لأنّك قد بلّغتَنا ما نؤمّلُ
تداركتَ دينَ اللّه في أخْذ فرقةٍ   بمنطقهم كلُّ البلاء موكّلُ
أقمتَهُمُ للناس يُبْرَأُ منهُمُ،   ووجه الهدى، من خزيهم، يتهلّلُ
وأوعزت في الأقطار بالبحث عنهمُ
وعن كُتُبهم، والسعيُ في ذاك أجملُ
وقد كان للسيف اشتياقٌ إليهمُ
ولكن مقامُ الخزي للنفس أقتلُ
وآثرتَ درء الحدّ عنهم بشُبهةٍ
لظاهرِ إسلامٍ، وحكمُك أعدلُ

ونجا عمر الخيّام الشاعر الفيلسوف الفارسي من اضطهاد العامّة والملوك بشيء من التقية. «ولمّا قدح أهل زمانه في دينه، وأظهروا ما أسرّ من مكنونه، خشي على دمه، وأمسك في عنان لسانه وقلمه، وحجّ متاقاةً لا تقية»(١). وغريبٌ كيف نجا مثلُ أبي العلاء المعرّي على ما بدر في شعره ونثره من فلتاتٍ ينكرها فريق المتعصبين. ولعلّ الأصل في نجاته كونه زاهداً حقيقة، لا ينازع أرباب المذاهب الدينية في شيء من دنياهم...

ومأساة لسان الدين ابن الخطيب الشاعر الأندلسي المشهور، شاهدةٌ بهذا

---

(١) أخبار الحكماء، للقفطي: ص ٨٢.

النوع من التعصّب المقيت. فقد تتبّع أعداءُ هذا الشاعر كلماتٍ زعموا أنّها صدرت عنه في بعض تآليفه، فأحصوها عليه ورفعوها إلىٰ قاضي غرناطة فسجّل عليه بالزندقة. ثم أحضروه في مجلس الخاصّة وأهل الشورىٰ من الفقهاء، وعظّموا عليه النكير في ما كتب، ووبّخوه ونكّلوا به وامتحنوه بالعذاب. وأفتىٰ الفقهاء بقتله، فدخلوا عليه السجن فخنقوه وأحرقوه.

وأدهىٰ من مأساة ابن الخطيب مأساة ابن الراوندي الذي مجّد العقل كأعظم ما يكون التمجيد!

ولم يقتصر التعصّب في هذه العصور بالشرق على أصحاب السلطان وعلى العامّة؛ بل تعدّاهم إلىٰ كثيرٍ ممّن هم أرقى وأجلّ شأناً من الملوك ومن كافّة الأفراد، وأعني بهم بعض المفكّرين والفلاسفة.

فكما رأينا أن نابغةً أوروبياً كالفيلسوف توما الاكويني كان يجيز التعصّب للدين على حريّة الفكر؛ فإنّنا نرى كذلك نابغةً عربيّاً كالفيلسوف الغزالي يجيز مثل هذا التعصّب، فقد كفّر الغزالي الفلاسفة، ونَعَتَ مجهوداتهم العظيمة بأنّها «رذائل كُفرهم» قائلاً في كتابه المنقذ من الضلال: «.... إلّا أنّه[1] استبقى من رذائل كفرهم وبِدْعتهم[2] بقايا لم يوفّق للنزوع عنها. فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفين الإسلاميين كإبن سينا والفارابي وغيرهما».

ولم يجد الغزالي بدّاً، على جلال قدره في التفكير، من أن يصف العلوم الرياضية بأنّها من الآفات، فقال يزجر العامّة عن تعلّمها والأخذ بها: «فهذه

---

(١) الضمير يعود علىٰ ارسطو في كلام سابق .

(٢) يقصد سقراط وأفلاطون ومن قبلهما من فلاسفة الإغريق.

آفة عظيمة .... لأجلها يجب زجر كلّ من يخوض في تلك العلوم، فإنّها وإن لم تتعلّق بأمر الدين، ولكن لمّا كانت من مبادئ علومهم ـ أي علوم الفلاسفة ـ يسري إليه شرُّهم وشؤمهم، فقلَّ مَن يخوض فيه إلّا وينخلع من الدين وينحلّ عن رأسه لجام التقوىٰ»[1].

أمّا في كتاب «تهافُت الفلاسفة» فإنّ الغزالي يشنّ الغارة بعنفٍ أشدّ علىٰ الفلسفة والفكر الحرّ، ويكفّر الفلاسفة ويتوعّدهم بالنار ويستنزل عليهم سخط البشر ويثير عليهم الجمهور!

ولن نتحدث طويلاً عن أحوال العالم العربي في عصر الانحطاط؛ لأن الحديث مهما طال لا يمكنه أن يصف هذا العصر وأهواله. لذلك نكتفي بالقول بأنّه عصر التفرقة الطائفية بين الناس عن قصدٍ وتصميم، وعصر تقتيل العلماء، وإتلاف النفوس، وإقتراف المظالم، وارتكاب المحرَّمات، والتسابُق إلىٰ الترويع والتفظيع. ويلخّص محمد كرد علي أعمال التعصّب في عصور الانحطاط بقوله هذا:

« ... في هذه العصور قُتل الأذكياء والباحثون في أوقاتٍ مختلفة في فارس والعراق والشام ومصر وإفريقيا وغيرها، يُتّهم أكثرهم في دينهم، ويُسألون بضع مسائل ضئيلة الشأن، فإذا كان في أجوبتها بعضُ العهدة بحسب فهْم المسيطرين تُقطع أعناقهم، ويُصلَبون!».

وبهذا الهول الأكبر ـ أيّ التعصّب وآثاره المخزية ـ انقطعت الرغبات في البحث واستعمال الفكر إلّا في الدائرة المعيّنة الحدود والأوصاف التي

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالي : ص ٩١ .

الشخصية العربية والتاريخ العربي.

أمّا هذه المآسي الإجتماعية والإنسانية، فقد تقرّرت وخُطّتْ في لوح الوجود العربي، وانطلقت صورها وأشكالها، وأصبح لها في الشرق دولةٌ وسلطان، منذ اللحظة التي تجسّم فيها إثمُ النزعات الطبقية عدواناً مسلّحاً على ابن أبي طالب، وعلى دستوره الاجتماعي الجليل، إسكاتاً لصوت العدالة، وكبْتاً لثورة الضمير الحيّ، وإستعباداً لجهد الشعب؛ واعتداءً على إنسانية العبقريّة العربية الممثّلة بحكيم الكوفة العظيم!

جهلاً وإمّا انتفاعاً. وقد ينحاز إلىٰ الفئة الثانية بعضُ أُولئك لأصالةٍ في التفكير أو لصفاء في الوجدان أو لكلَيهما جميعاً، ولكنّ هذا الـ «بعض» ظلَّ في التاريخ بعضاً ولم يصبح كُلاً علىٰ الإطلاق.

ومن هذا الواقع يتّضح لنا أمرٌ لا يقبل الجدالَ فيما نرى، وهو أنّ هذا الصراع الطويل بين الفئتين، إنّما كان في أعماقه صراعاً إقتصادياً إجتماعياً؛ وإن كان ظاهره سياسيّاً في أغلب الأحيان ودينيّاً بعضَ الأحايين. ذلك لأنّ الغاية البعيدة في كلّ عملٍ سياسيّ إنّما هي غايةٌ إجتماعية، سواء أكانت واضحةٌ في ذهن صاحبها أو غير واضحة؛ وسواء إن اعترف بها لسانُه أو أنكرها.

وإذا صحّ هذا الرأي ـ وهو فيما نرىٰ صحيح ـ أدركنا وجوهَ الخطأ الكثيرة التي وقع بها بعضُ الباحثين في التاريخ العربي، ساعةَ تصدَّوا لدراسة الثورات التي قامت في العالم العربي باسم الدين، وهي في حقيقتها ثورات سياسيّة ذات أهداف إجتماعية. وساعةَ تصدّوا كذلك لدراسة أحوال العرب والموالي في المجتمعات العربية القديمة، فإذا بهم يقسّمون الناس تقسيماً عنصريّاً يبنون عليه ويستنتجون منه. وساعةَ رأوا في التشيّع لعليّ بن أبي طالب مظهراً مذهبيّاً لا علاقة له إلّا بالدين والعقيدة.

أمّا التشيّع لعليّ بن أبي طالب فهو ذو معنى أجلّ ممّا يشير إليه بعضُ الباحثين من معانٍ، لذلك سنخصّه ببحثٍ آت، نفصّل فيه معانيه ونُظهر مقدار إرتباطها بالإنسانية العربية. وأمّا الثورات التي قامت هنا وهناك وهي ثورات إجتماعية في معظم بواعثها، فسوف نشير إليها إشارةً تكفينا لأن نعرف مقدارَ ما يجري في عروقها من الدم العلويّ، ومقدارَ ما لنهجِ عليٍّ من أثرٍ في غاياتها.

وأمّا الصراع بين العرب والموالي، فهو ما نودّ أن نرىٰ فيه رأينا الآن، وأن نردّ مظاهره إلىٰ أُصولٍ نرجّح أنها الأُصول الصحيحة؛ لإبراز ما يختفي وراء هذه

المظاهر من عوامل إقتصادية وإجتماعية لا تمتّ في حقيقتها البعيدة بصلة إلىٰ الأوهام العنصرية التي يتحدّث عنها المتحدّثون.

وإنّما يعنينا هذا بالبحث في أحوال العرب والموالي، لارتباطه بأبحاثنا عن حقيقة القومية وما يُحييها ويُنميها أو يؤذيها ويسيء إليها، ثمّ للظلال الواسعة التي ألقتها شخصيّة علي بن أبي طالب علىٰ مدىٰ تاريخنا، فناضَلَ في أكنافها المناضلون ضدّ ألوان الظلم جميعاً وبها اهتدوا وإليها لجأوا، ثمّ للتفسيرات الخاطئة التي تبنّاها المفسّرون، فإذا هم لا يؤثرون من مسلك الحكّام العرب الأوائل إلّا الوجوهَ التي تُبعد عن العروبة مميزّاتِها الإنسانية، التي بها وحدها تستمرّ وتحيا. وإذا هم لا يريدون من المواطنين إلّا وأن يطرحوا من ذواتهم كلَّ كرامة وكلَّ رجاء، وأن يعملوا جاهدين ثمّ يتخلّوا عن لقمة الخبز، راضين مختارين؛ لتبتلعها أشداقٌ فاجرة تُمسك السلطان بيدٍ وتمسك بالأُخرىٰ رقابَ العباد.

ما هو الولاء ومَن هم الموالي؟

الولاء في اصطلاح السابقين: حالةٌ متوسّطة بين الرقّ والحريّة. فالرقيق إذا أُعتق لا يستردّ حريّته كاملةً بل يظلّ مرتبطاً بسيّده السابق ارتباطاً ليس ارتباطَ العبد بمولاه ولا ارتباطَ الحرّ بالحرّ، وإنّما هو صلةٌ بين الرقّ والحريّة، وهو بذاك صورةٌ من الرقّ مخفّفةٌ جدّاً.

والموالي في اصطلاح السابقين: هم الذين أسلموا من غير العرب. وهؤلاء إمّا أن يكونوا في السابق أسرىٰ حرب استُرقّوا ثم أُعتقوا إعتاقَ ولاء، وإمّا أن يكونوا من أهالي البلاد المفتوحة ومن أبنائهم، فإذا هم يوالون العربَ ويدخلون في طاعتهم ويصبحون موالي بهذه الموالاة وهذه الطاعة.

هؤلاء الناس الذين سمّاهم السابقون موالي ما لبثوا أن استعربوا ودخلوا

في صميم الوجود العربي، فعملوا مع العرب وخدموا الدولة العربية وأدخلوا علىٰ المجتمع العربيّ جديداً من العمران، وعلىٰ الفكر العربي جديداً من المعرفة، وأتقنوا العربية حتى أصبحوا أساتذتها، ونظموا الشعر وألّفوا في العلوم والفلسفات، وكانوا أسياداً وأغنوا الشخصية العربية بما أتقنوا ونظّموا وألّفوا وعملوا، وصهروا عقولهم ووجداناتهم بعقولٍ عربية ووجدانات عربية، وخلّفوا لنا تراثاً، هو في جملة التراث العربي لا ينفصل عنه ولا يمسخه، بل يتّحد به ويضيف إليه حسناً.

وهؤلاء الناس الذين سمّاهم السابقون موالي هم الذين تألّفت منهم فيما بعد المجموعة العربية، وهم اليوم أشدّ الناس حماسةً للقومية العربية ورغبةً في بعثها واصلاح حالها. وفي هذا ما يدلّنا على صحّة ما ذكرناه سابقاً من أنّ العنصرية لا تدخل في شيء من أشياء الوجود القومي. بل إنّ الشواهد كثيرةٌ علىٰ أنّ الدعوة إلىٰ الأخذ بالمبدأ العنصري في الحركات القومية إنّما هي سحقٌ لهذه الحركات، وتقويض لأركان القومية الصحيحة المعافاة. فماذا يحلّ بالقومية العربية اليوم ـ مثلاً ـ لو أنّ السوريين أو المصريين أو العراقيين أو غيرهم من أبناء الأقطار العربية راحوا يبحثون عن أُصولهم البعيدة، ليعرفوا أنّ بعضهم ينحدر من أصلٍ آشوري، وأن بعضهم من أصلٍ بابلي أو رومي أو فينيقي أو فرعوني أو عربي أو صليبي أو ما إلىٰ ذلك؟

إنّ طبيعة القومية السليمة قد حتمت علىٰ هؤلاء أن يشعروا بأنّهم عرب، فلغتهم واحدة وتاريخهم مشترك ومصالحهم الاقتصادية متعاونة، وآمالهم واحدة والمجاري الروحية التي تنظّم حياتَهم متشابهة ومصائرهم مترابطة، وهم بذلك كلّه أبناء قوميّة واحدة.

أوَ ليس بلال الحبشي أكرمَ عروبةً من سفيان بن حرب؟

أوَ ليس سلمان الفارسي أنبلَ عروبةً من زياد بن أبيه؟

أوَ ليس ابن المقفّع أشرفَ عروبةً من ألف سفّاحٍ كأبي العباس؟

أوَ ليس طارق بن زياد فاتح الأندلس أصدقَ عروبةً من سيّده العربي موسىٰ ابن النُّصَير، وقصّة الرجلين معروفة؟

أوَ ليس صلاح الدين الأيّوبي أروعَ عروبةً من ألف ملكٍ ينحدر من أصل عربيٍّ «عريق!»؟

أوَ ليس ابن الرومي أجملَ عروبةً من مليون مجرم، كمروان بن الحكم والمهدي والمتوكّل ومَن إليهم من العرب «الأقحاح»؟[1]

أوَ لم ينفع حمّادٌ الراوية العروبةَ بما حفظ لها من تراثها الأدبي القديم، فوق ما «نفَعَها» جميع «الغيورين» علىٰ العروبة من أولئك المنحدرين من أصل عربي، وهم بين جواريهم لاهون، ومن جهود الفقراء بالعُون؟

وفي الزمن الحاضر، هل تختلف هذه المقاييس؟

وعلىٰ هذا الضوء يمكننا أن نتحدّث عن الموالي في التاريخ العربي.

سيطر الموالي على الحركات الفكرية في البلاد العربية منذ الزمن الأوّل الذي بدأ فيه استعرابهم؛ ولا غرابة في ذلك فقد كانوا ورَثَة حضاراتٍ قديمة، لم يكن العرب المقبلون من الجزيرة قد عرفوها بعد. أمّا مظاهر نشاطهم في العمل الفكري فقد برزتْ في كلّ الميادين بلا استثناء. وإليك بعض أعمالهم في العلوم العربية الخالصة أوّلاً، ثمّ في ما يليها من مجالات النشاط الفكري:

عرفت البلاد العربية في إسلامها الأوّل طائفةً من علماء الموالي في الفقه والحديث؛ وقفوا في طليعة القوم ووُصفوا بالجلالة وكثرة العلم. من هؤلاء سليمان ابن يسار مولى ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج النبيّ، وقد عاش في

(١) الأقحاح: جمع القُحّ، الخالص في اللؤم والكرم، قُحٌّ: أي محض خالص. الصحاح: ٣٩٤/١، مادة «قحح».

المدينة وتوفّي في خلافة يزيد بن عبد الملك، وكانت له شهرة واسعة في العلوم العربية حتّىٰ عُدَّ في الدرجة الأُولىٰ بين الفقهاء السبعة. ومنهم نافع الديلمي مولى عبد الله ابن عمر، وكان عبد الله قد أصابه في إحدىٰ الغزوات. وممّن تتلمذوا علىٰ نافع هذا الإمام مالك بن أنس المعروف.

ومنهم ربيعة الرأي مولى آل المنكدر من تميم، وهو فقيه المدينة الأكبر في زمانه؛ وعليه تتلمذ الإمام مالك بن أنس فوق ما تتلمذ علىٰ سواه. ومن علماء مكة الموالي مُجاهد بن جبر مولىٰ بني مخزوم، وعكْرِمة مولى ابن عباس، وعطاء ابن أبي رَباح مولىٰ بني فِهْر، ومحمد بن مسلم بن تَدرُس مولىٰ حكيم بن خزام.

وممّن اشتهر من علماء الموالي الأوّلين في الكوفة: سعيد بن جُبَير مولىٰ بني والبة. وفي البصرة: الحسن بن يسار مولىٰ زيد بن ثابت، وابن سيرين الفقيه الشهير، والحسن البصري صاحب المكانة الجليلة في تاريخ العلوم العربية في زمانه.

واشتهر من أهل الشام مكحول بن عبد الله، وكان أبوه من أهل هَرَاة، وكانت أُمّه ابنة ملك من ملوك كابول. ومكحول هذا هو معلّم الإمام الأوزاعي، صاحب الفتاوى الشهيرة في ضرورة التآخي بين الناس، أيّةً كانت أجناسهم وأديانهم.

وممّن عُرف من العلماء الموالي في مصر يزيد بن حبيب مولى الأزْد، وكان صاحب الفتوىٰ في مصر. ويزيد هذا بربري الأصل، قال فيه الليث بن سعد: «يزيد عالمنا وسيّدنا»(١). وإنّما استحقّ ذلك لعلمه الواسع في التاريخ، ثمّ لمقدرته في الفقه وأبوابه. ثم إليك ما جاء في العقد الفريد بهذا الصدد:

---

(١) تذكرة الحفاظ، للذهبي: ج ١ ص ١٢٩ تحفة الاحوذي: ج ٤ ص ٥٣ سبيل الهدىٰ والرشاد: ج١ ص ١٧٠.

«قال ابن أبي ليلىٰ: قال لي عيسىٰ بن موسىٰ وكان ديّاناً شديد العصبيّة للعرب: مَن كان فقيه البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن. قال: ثمّ مَن؟ قلت: محمد بن سيرين. قال: فما هما؟ قلت: مَولَيان. قال: فمن كان فقيه مكّة؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار. قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالٍ. قال: فمَن فقهاء المدينة؟ قلت: زيد بن أسلم، ومحمد بن المنكدر، ونافع بن أبي نجيح. قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالٍ. فتغيّر لونه، ثمّ قال: فمَن أفقهُ أهل قُباء؟ قلت: ربيعة الرأي وابن أبي الزناد. قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي. فاربَدَّ وجهه، ثمّ قال: فمَن فقيه اليمن؟ قلت: طاووس وابنه وابن منبه. قال: فمَن هؤلاء؟ قلت: من الموالي، فانتفخت أوداجه وانتصب قاعداً، قال: فمَن كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراساني. قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولىٰ، فازداد وجهه تربُّداً واسوداداً حتّىٰ خِفتُه، ثمّ قال: فمَن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول. قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولىٰ. قال: فتنفّس الصعداء، ثمّ قال: فمَن كان فقيه الكوفة؟ قلت: فوالله لولا خوفُه لقلتُ الحكم بن عتبة وعمّار بن أبي سليمان، ولكن رأيتُ فيه الشرّ، فقلت: إبراهيم النخعي، والشعبي. قال: فما كانا؟ قلت: عربيّان. قال: الله أكبر. وسكن جأشه»(١).

ومن العلوم العربية الخالصة التي أتقنها الموالي وأصبحوا من سادتها في صدر الإسلام: علوم اللغة العربية نفسها. فمن اللغويين الموالي أبو بحر عبد الله بن إسحاق مولىٰ بني عبد شمس. وقد بلغ به تضلّعه من العربية أن راح يأخذُ مأخذَ لغوية علىٰ الفرزدق الذي قيل في شعره، لعروبته الصريحة، «لولا شعر

---

(١) الإمام جعفر الصادق للجندي: ص ٣١٥.

الفرزدق لَذَهب ثُلثُ لغة العرب»[١]. ومن شعر الفرزدق في هجو عبد الله هذا، قوله:

فلو كان عبد الله مولىً، هجوتُه
ولكنّ عبد الله مَولى مواليا[٢]

ومن اللغويين الموالي أيضاً عيسىٰ بن عمر النحوي مولىٰ خالد بن الوليد. وكان عيسىٰ هذا من أئمّة النحو؛ ألّف في أبوابه وأسراره نيّفاً وسبعين مصنّفاً.

وبرع الموالي كذلك في الرواية والأخبار ومعرفة أنساب العرب وأيّامهم وأشعارهم ولغاتهم. وفي طليعة هؤلاء حمّاد الراوية المشهور، الذي تدين له آدابنا العربية بحفظ أصدق ما في تُراثها الأدبي، وأشدّه لصوقاً بالحياة، وأدلّه علىٰ حقيقة الإنسان العربي والمجتمع العربي، في عهدٍ معيّن من عهود التاريخ، وأعني به: الشعر الجاهلي. ومثل حمّاد في الرواية: خلَف الأحمر وأبو عُبيدة.

واتّصال الموالي بقديمهم المدني أعدَّهم لألوانٍ أُخرىٰ من النشاط؛ لم يكن العرب قد عرفوها بعد. يدلّنا على ذلك أنّ الصحابة استكثروا من الموالي، يستخدمونهم في بيوتهم لمهارتهم في إدارة شؤونها، وفي أعمالهم لقدرتهم علىٰ تصريف هذه الأعمال. وقد أبدىٰ هؤلاء الموالي من المقدرة التجارية ما جعلَ مَن كان تاجراً من الصحابة أن يستخدمهم في أعماله؛ ويكل إليهم أُمورَه انتفاعاً بمعرفتهم وبما ورثوه من آبائهم من الحسّ التجاري.

والخلاصة أنّ الموالي كانوا متفوقّين على العرب في صدر الإسلام، في كثير من مجالات النشاط الفكري والعمراني والمدني. وقد اعترف الخليفة الأُموي سليمان بن عبد الملك بهذا التفوّق، قال: «عجبت لهؤلاء الأعاجم،

(١) رسالة في معنىٰ المولىٰ للمفيد: ص ٢٤.
(٢) تاج العروس: ج ١٠ ص ٣٩٩. لسان العرب: ج ١٥ ص ٤٠٩.

ملكوا ألف سنة؛ فلم يحتاجوا إلينا ساعة. وملكنا مائة سنة؛ فلم نستغنِ عنهم ساعة»[١].

وخاطبَ عمر بن عبد العزيز قوماً تذمّروا من تقدُّم الموالي عليهم في الفقه والقضاء واللغة والتاريخ وسائر علوم ذلك الزمان، قال: «ما ذنبي إنْ كانت الموالي تسمو بأنفُسها صُعُداً وأنتم لا تسمون!».

وهكذا مهّد الموالي الطريق إلى النهضة العلمية الواسعة في العصر العبّاسي؛ هذه النهضة التي كان الموالي أيضاً من أُسُسها وأركانها. والكلام على ما عمله الموالي بالعصر العبّاسي في مضامير الحضارة أكثر من أن يستوعبه مجلّد خاص. والفائدة التي جناها العرب من اتّحادهم بهؤلاء الأعاجم أجلّ من أن يُبحَث فيها بفصلٍ أو فصولٍ قلائل. والنصيب الذي أسهم به الموالي في التراث العربي الذي وصلَنا من آبائنا القدامیٰ، أوفر من أن يُحصیٰ هنا وأشهر من أن يُعرَّف. لذلك نكتفي بذكر بعض الأسماء التي برع أصحابها في مختلف ميادين النشاط الفكري، إشارةً إلیٰ قيمة ما أسهم به الموالي في التراث العربي.

ففي علوم اللغة نذكر من الموالي: قطرب، وابن الأعرابي، وأبا عليّ القالي، وأبا أحمد العسكري، والجوهري. وفي النحو: سيبويه، والكسائي، والفرّاء، وابن السكيّت، وأبا العباس ثعلبا، وابن خالويه، وابن جنّي، وابن دستوريه. وفي الرواية والخبر: معمر بن المثنّى، وأبا عبيد القاسم بن سلام، وأبا عمرو الشيباني، وفي السيرة والحديث: محمد بن إسحاق، وإبن جريج، وسفيان بن عيينة، والسمان، وابن نافع الصنعاني، والبخاري الشهير. وفي الفقه: الإمام الشهير أبا حنيفة، ومن أصحاب الأئمّة محمد بن الحسن الشيباني، وعبد الرحمن بن قاسم. ومن علماء الكلام: واصل بن عطاء مؤسّس المعتزلة.

---

(١) الحدّ الفاصل، للرامهرمزي : ص ٢٤٣.

وفي الفلك والرياضيات والطب والفلسفة نذكر: البيروني، وابن ماسويه، وابن سهل، والفارابي، وابن سينا، والرازي، والسرخسي، والخوارزمي.

وفي التاريخ والجغرافية نذكر: الاصطخري، وابن فضلان، والواقدي، وعمر بن شبة، ومحمد بن حبيب، وابن طيفور، واليعقوبي، وابن البطريق، وحمزة الإصفهاني، ومسكويه، والمقّري، وأبو الفداء، والطبري.

وفي الأدب نذكر : ابن أبي الدنيا، وقدامة بن جعفر، وابن عبد ربّه، وأبا بكر الصولي، وأبا بكر الخوارزمي، وابن رشيق القيرواني، وبديع الزمان الهمداني، وابن المقفع، وسهل بن هارون، والثعالبي، والجاحظ!

وفي الشعراء: والبة بن الحباب، وأبا نواس، وأبا دلامة، وأبا العتاهية، وبشار بن برد، وسلم الخاسر، ومروان بن أبي حفصة، وحمّاد عجرد، وحسين بن الضحّاك، وأبان بن عبد الحميد، وابن مناذر، والرقاشي، وديك الجنّ، والعكوك، ومحمد بن يسير الرياشي، والعتابي، وابن الرومي، وكشاجم، ومهيار الديلمي، والطغرائي.

ولا يستغربنَّ القارئ إذا قلنا: إنّ ما أنتجه هؤلاء والكثير غيرهم من موالي العصر العباسي، قد لا يُذكر إلىٰ جانب ما أفادته العروبة من مخالطة الأعاجم المستعربين في أطوارها الإنتقاليّة من البداوة إلى الحضارة. فجميع ما عرفه العرب من علوم الإغريق والهنود والفرس والروم والكلدان والمصريين القدماء وغيرهم، إنّما دخل عليهم عن طريق الأعاجم المستعربين. فالطب والجراحة والصيدلة وإنتاج العقاقير والهندسة والجبر والحساب والفلك ورصد النجوم والكيمياء وسائر علوم الطبيعة عند الأقدمين، إنّما نقلها الموالي إلى العربية وبرعوا فيها قبل أن يعرفها العرب الأصليون ويُسهموا في إتقانها. وأكثرها ما عرفه العرب من فلسفات الشعوب وأنظمتها وقوانينها إنّما عرفوه

عن طريق الموالي أيضاً. وكذلك القول في روح العمران وفي أشكاله. وقد أفادت اللغة العربية بفضل هؤلاء الموالي من المفردات الجديدة والتعابير المستحدثة ما جعلها أفضلَ وعاء لاستيعاب العلوم والمعارف في العصور السابقة. يقول أحمد أمين:

«ولو ظلّت الأُمّة الإسلامية أُمّةً عربية فقط، لرأينا فيها أمثال الخوارج وأمثال المرجئة، ولكن ماكنّا نرىٰ فيها المعتزلة ـ مثلاً ـ وأبحاثهم الفلسفية ومذاهبهم العميقة!»[1].

وأمّا ما جعل الموالي يتفوّقون على العرب في هذه المظاهر الحضاريّة بالعصرين الأُموي والعبّاسي، فلا يعني شيئاً إلّا ما أشرنا إليه من أسبقيّة هؤلاء الموالي إلى الأخذ بأسباب الحضارة. فهم أبناء شعوبٍ متحضّرة ـ نسبيّاً ـ مرّت بأطوارٍ كثيرةٍ من البداوة والغفلة قبل أن تتركّز علىٰ حبّ المعرفة وعلىٰ توجيه النشاط في طريق التمدّن. أمّا العرب فكانت صلتُهم بالبداوة ما تزال قريبة؛ لذلك لم تكن ملكة البحث العلمي وغيرها من الملكات التي لا تنشأ ولا تنمو إلّا في المجتمعات المتحضرة، قد شبّت لديهم ونمَتْ. وهم عندما استقرّوا في أواخر العصر العبّاسي وهُيّئت لهم الإمكانات الزمنيّة والمكانية؛ باتوا ينافسون الموالي في الإبداع الحضاري، وكثيراً ماكانوا يتغلبون عليهم. وهكذاكانت حالهم أيضاً عندما استقرّوا في الأندلس، فقد تركوا وراءهم تراثاً عظيماً يشير إلىٰ تمكّنهم من حمل رسالة المعرفة ومسؤولية الحضارة.

ولنعدْ إلىٰ واقع الموالي في العصور العربية القديمة.

هؤلاء الموالي أصبحوا مع الزمان عرباً تجتمع فيهم كلُّ الشروط الكافية، التي يصحّ بها انتسابهم للقومية العربية، أو للوطن العربي؛ بناء علىٰ ما تقدّم

---

(١) ضحىٰ الإسلام : أحمد أمين ج ١ (باب ثقافات العصر العباسي) .

البحثُ فيه من حدود القومية وشروطها ومعانيها. لذلك كان من الطبيعي ـ في منطق المصلحة العربية ذاتها ـ أن يقف هؤلاء المستعربون الراضون عن استعرابهم، مع العرب المقبلين من الصحراء، على قدم المساواة. لا يتأخّرون عنهم بأعجميّة أصلهم، ولا يتقدّمون عليهم بتفوقّهم في ألوان المعرفة. زدْ علىٰ ذلك أنّ الإسلام نفسه يأمر بهذه المساواة.

ولكن هل عاملَهم الحكّام العرب علىٰ أساسٍ من المساواة؛ التي لا يقوم بدونها مجتمعٌ ولا يعيش وطنٌ ولا تثبتُ قوميّةٌ ولا تصفو بين المواطنين قلوب؟

لم يكن الأُمويّون ليعترفوا للموالي بحقّ من الحقوق، التي يتمتّع العرب بنصيبٍ ضئيلٍ منها. ذلك لأنّ بني اُميّة سلكوا مع العرب مسلكَ اُسرةٍ تريد أن تحكم بالقوة كما رأينا، ومع الموالي مسلكَ المستعمرين الذين يأكلون المستعمَر ساعة يكون صالحاً لأن يُؤكَل، ويرمون به في عرض الطريق ساعةَ لا نفعَ منه يُرتجىٰ. وقد مرّ بنا قولُ معاوية في الموالي وهم مئات الأُلوف من البشر لهم عقولٌ وقلوبٌ وأبدان: «فقد رأيتُ أن أقتل ـ منهم ـ شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق». ولو لم يردّه الأحنف بن قيس عن هذه الفعلة لنفّذَ ما رأىٰ، ولقَتَل من الخلق عشرات الألوف.

وإليك فصولاً من معاملة الدولة الأُمويّة والمتأثّرين بها، لهؤلاء الموالي الذين أصبحوا عرباً وعملوا جاهدين في سبيل مجتمعهم الجديد.

عرفنا أنّ السياسة الأُمويّة أثارت العصبية القبلية الجاهلية بين العرب؛ على اُسلوبٍ يؤذي العرب وينتفع به بنو اُميّة علىٰ اُسلوبهم الخاص في الانتفاع. ولكنّ السياسة الأُموية أثارت من العصبية ما هو أشدّ وأدهىٰ على الموالي. ولمّا كانت العامّة لا تعي مصالحها الحقيقية يومذاك؛ فقد نجح الأُمويون نجاحاً

كثيراً في إذكاء هاتين العصبيّتين: العصبيّة القبليّة بين العرب، والعصبيّة العنصرية بين العرب ومواطنيهم الأعاجم المستعربين.

وأيسر دليلٍ على العصبيّة القبلية في العهد الأُمويّ ما يُروىٰ عن رجلٍ من قبيلة الأزْد: أنّه كان يطوف بالكعبة وهو يدعو لأبيه، فقيل له: ألا تدعو لأُمّك؟ فقال: إنها تميميّة! أمّا العصبيّة ضدّ الموالي فبَعْض مظاهرها أنّ فئاتٍ من العرب لم تكن تحسب الإساءة إليهم إلّا شيئاً عاديّاً لا يُحسب له حساب.

ففي الحروب التي كان الموالي يشتركون فيها مع العرب جنباً إلىٰ جنب، كان العرب يركبون الخيل ولا يسمحون للموالي بذلك؛ بل يرغمونهم على القتال راجلين. ومعنىٰ ذلك أنّهم يأنفون مساواة الموالي لهم حتّىٰ ساعةَ يقاتل الموالي في سبيلهم، وأنّهم يؤثرون أن يبيدوهم قبل أن يصاب عربيٌّ بأذىٰ. وقد حدث ذلك بالفعل في معارك كثيرة كانت تدور بها الدائرة على الراجلين وحدهم، وهم من الموالي، فيبادون عن بكرة أبيهم، فيما ينجو من الموت معظم الراكبين.

وذكر صاحب العقد الفريد: أنّ العرب في عهد بني أُميّة كانوا لا يكنّون الموالي ولا يدعونهم إلّا بالأسماء والألقاب. وأنّهم كانوا لا يمشون في الصفّ معهم ولا يؤاكلونهم، وإن حضروا طعاماً وجب على الموالي أن يقفوا علىٰ رؤوس العرب كالخدم. وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلىٰ نفسها ولا إلىٰ أبيها أو أخيها، وإنّما يخطبها إلى العربيّ الذي تنتسب له بالولاء. وإذا زوّجت فتاةٌ من الموالي بغير رأي أسيادها السابقين فُسخ عقدُ الزواج في الحال.

وكان العربيّ يتزوّج من بنات الموالي، ولكنه لا يزوّج الموالي من بنات العرب. وروى الجاحظ أنّ خالد بن صفوان زوّج مولى له من مولاة، فوقف في

هذا الزواج فقال: «أمّا بعد، فإنّ الله أعزّ وأجلّ من أن يُذكَر في زواج هـذين الكلبين. وقد زوّجنا هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة».

وإذا تجرّأ المولىٰ على الزواج بفتاة عربية وبلغ أمرُه إلى الوالي طلّقها منه في الحال، كما حدث لأعراب بني سليم في الروحاء؛ فإنّهم جاؤوا الروحاء فخطب إليهم أحدُ مواليها إحدىٰ بناتهم فزوّجوه. فوشىٰ محمد بن بشير الخارجي إلىٰ والي المدينة بذلك، ففرّق الوالي بين الزوجين وضرب المولىٰ مائتَي سوط، وحلق رأسه ولحيتَه وحاجبيه. وفي ذلك يقول محمد بن بشير يمدح هذا العملَ الحقير وهذا الوالي:

قضيتَ بسنّةٍ وحكمتَ عدْلاً
ولم ترِثِ الحكومةَ من بعيدِ
وفي المئتَين للمولىٰ نِكالٌ
وفي سلب الحواجبِ والخدود(١)

وكان بعض القادة العرب يقولون إذا بلغَهم نبأ يخبر بمقتل مولىً أو أكثر في معركة: قُتل كلب... أو كلبان... أو كذا كلاب! وكان العرب يقولون: لا يقطع الصلاة إلّا ثلاثة: حمار أو مولىٰ أو كلب. ثمّ يستعملون كلماتٍ شنيعة للحطّ من قدر الموالي. ووضعت السياسة الأُموية في أذهان العرب: أنّ الموالي إنّما خُلقوا لخدمتهم لا لشيء آخر. يدلّنا علىٰ ذلك: أنّ عربيّاً تخاصم مع أحد الموالي بين يدي ابن عامر صاحب العراق، فقال له المولى: «لا كثّرَ اللهُ فينا مثْلَك! فقال له العربي: بل كثّرَ اللهُ فينا مثْلَك. فقيل له: أيدعو عليك وتدعو له؟ قال: نعم، يكسحون طُرُقَنا، ويخرزون نِعالنا ويحوكون ثيابَنا!»(٢).

---

(١) المئتين: إشارة إلىٰ السياط المائتين. سلب الحواجب والخدود: إشارة إلىٰ نتف اللحية والحاجبين.

(٢) الموالي في العصر الأُموي: ص ٤٠.

وبالغ العرب في ازدراء الموالي إلى حدٍّ جعلَهم يحتقرون أولادهم إذا كانت أُمّهاتهم من الموالي، علىٰ نحو ماكانوا عليه في الجاهلية. وكانوا يرون في هؤلاء الأبناء نقصاً وعيباً لا لشيء، إلّا لأنّ أُمّهاتهم غير «أصيلات» أي غير عربيات. وكانوا يسمّونهم هُجَناء، إشارةً إلىٰ هذا «النقص». وأُريدك أن تستمع إلىٰ عبد الملك بن مروان ـ أحد فطاحل الخلفاء الأُمويين علىٰ زعم الزاعمين ـ كيف يهجو رعاياه من الهجناء، يقول:

ألم أنـهَكم أن تـحملوا هـجناءكم
علىٰ خيلكم، يومَ الرهان، فتُدْرَكُ
وما يستوي المرءان: هذا ابنُ حُرّةٍ
وهذا ابنُ أُخرى ظهرُها متشرّكُ
وتضعفُ عضداه، ويقصرُ سوطُهُ
وتقصر رجلاه فلا يتحرّك
وأدركه خلاتُه، فنزعْنَه،
ألَا إنّ عرق السوء لا بُدّ يُدرَكُ(١)

ولما تزوّج عليّ بن الحسين بن عليّ المعروف بزين العابدين امرأةً أعجمية؛ كتبَ إليه عبد الملك بن مروان يعيّره بذلك. فردّ عليه زين العابدين بما أفحمَه. وكان الحسين بن عليّ فيما سبق قد تزوّج بامرأة أعجمية كذلك، هي أُمّ زين العابدين المذكور، فكتب إليه معاوية يقول: «من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن عليّ. أمّا بعد، فإنّه بلغني أنك تزوّجت جاريتك وتركتَ أكفاءك من قريش ممّن نستحسنه للوُلْد ونمجّد به في الصهر، فلا لنفسك نظرتَ ولا لوُلْدك انتقيت!» فكتب إليه الحسين يقول: «... فلا لوم على امرئ

(١) الموالي في العصر الأُموي: ص ٤٠.

مسلم إلّا في أمرٍ مأثمَ، وإنّما اللوم لوم الجاهلية»[١].

«ولم تكن نظرة العربي للمولىٰ نظرةَ ازدراء فحسب. ولكنّها كانت ممتزجة بكثير من البغض والكراهية. ويروي ابن سعد في ذلك: أنّ الشعبي مرّ ومعه صالح ابن مسلم فوجدا حمّاداً بالمسجد وحوله أصحابه من الموالي ولهم ضوضاء وأصوات فقال: واللهِ لقد بغّض إليّ هؤلاء هذا المسجدَ حتّى تركوه أبغضَ إليّ من كناسة داري»[٢].

«وليس أدلّ علىٰ مدىٰ كراهيتهم للموالي من أنّ أصحاب مصعب بن الزبير قد اقترحوا عليه حينما استسلمتْ إليه جيوش المختار أن يقتل الموالي ويطلق سراح غيرهم. ولقد علّق بعض مؤرخي الفرنجة علىٰ هذا الحادث بقولهم: «ولا شكّ أن محاولة قتل الموالي من الأعاجم وإطلاق سراح العرب السجناء تدلّ على أنّ الصفة البارزة لهذا العصر تتجه نحو العصبيّة. ونحن نقرّ هذه الملاحظة ولا نرىٰ فيها شيئاً من المبالغة، حيث إنّ المصادر العربية الرئيسية كلّها تشير إلىٰ مثل ذلك»[٣].

وقد حملت العصبيّة أولياء الأمر من العرب إلىٰ اختلاق أحاديث تؤيّد هذه النزعة، فوضعوا ما وضعوه منها ونسبوه إلى الرسول القائل: **«الناس سواسيةٌ كأسنان المشط!»**[٤].

أمّا المسؤولية الأُولىٰ في خلق هذه العصبيّة ضدّ الأعاجم المستعربين وفي إذكاء نارها، ثمّ في محاولة توطيدها على أساسٍ من الأحاديث الموضوعة والمنسوبة زوراً إلى الرسول، وهو أجلّ وأعظم من أن تُنسَب إليه أحاديث تؤيّد العصبيّة. فواقعةٌ على السياسة الأُمويّة التي بدأتْ منهجَها ببعث

(١) تهذيب الأحكام للطوسي : ج ٧ ص ٣٩٧ كتاب الزاهد للكوفي : ص ٦٠.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ج ٦ ص ٢٥١.
(٣) الموالي في العصر الأُموي : ص ٣٨ - ٣٩، عن الطبقات الكبرىٰ لإبن سعد ، وعن الطبري.
(٤) من لا يحضره الفقيه: ٣٧٩/٤، كنز العمال: ٣٨/٩.

العصبيّة القبليّة القديمة بين العرب، هذه العصبيّة التي انطلقت من دائرة الأُسرة ومصالحها لتشتدّ بأنانيّتها على القبائل العربية البعيدة عنها، ثمّ لتشتدّ أكثرَ على الأعاجم الذين تودّ هذه الأُسرة أن تأخذهم بما يأخذ به الفاتحُ البلادَ المفتوحة، والمستعمرُ المستعمَرَ.

هذه المصلحة الأُموية، التي قسّمت العرب فيما بينهم أقساماً متناحرة متفانية، ثمّ قسّمت المجتمع العربي قسمين: عرباً وموالي، كانت شرّاً خالصاً على الفكرة القومية العربية ذاتها، إذ جعلتْ مصلحةَ طائفةٍ من المواطنين تقوم علىٰ بؤس طائفةٍ أُخرىٰ، ثمّ جعلتْ مصلحةَ الأُسرة الحاكمة تقوم علىٰ بؤس الطائفتين جميعاً، فاستوتِ القبائل العربية ببؤس القتال والعمل والفقر، واستوى العرب والموالي بهذا البؤس أيضاً؛ وإن كان نصيب الموالي من البؤس أوفر. وإليك نماذج من السياسة الاقتصادية والمالية التي اعتمدها الأُمويون لترىٰ فصولاً من الجور الذي لحق بالموالي وبالعرب جميعاً، ثمّ لترىٰ في هذه السياسة أُصولاً مباشرة، أو غير مباشرة لما أصاب الموالي من مظلمةٍ اجتماعية تحدَّثنا عنها منذ قليل.

كان محور السياسة الأُموية المالية: سرقة المجتمع العربي ونهب خيراته. ولم يدخل في هذه السياسة أيّ عنصرٍ من عناصر الإسلام، الذي يأمر بالعدل والمساواة، كما أنّه لم يدخلها أيّ مبدأ من شأنه أن ينفع العربَ ويُحسن إلىٰ فكرة القومية العربية. وأوّل ما يدلّك علىٰ سياسة النهب والاغتصاب هذه: إختيارُ الخلفاء عمّالاً أجلافاً قساةً تعشّش الجريمة في نفوسهم وعقولهم على السواء، وتمكّنهم من استعراض الآدميين استعراض الجزّارين للغنم. ونماذج هؤلاء العمّال السفّاحين: زياد بن أبيه عامل معاوية على العراق، وعبيد الله بن زياد عامل يزيد على العراق، والحجّاج بن يوسف عامل عبد الملك وابنه الوليد على العراق، وأخوه محمد بن يوسف عاملهما على اليمن، وخالد

القسري عامل هشام بن عبد الملك على العراق، وابنه يزيد بن خالد، ويزيد بن أبي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على أفريقيا، وغيرهم ممّن هم علىٰ سيرتهم.

وكان الخلفاء يُطلقون أيدي العمّال في نهب الناس؛ فيشتدّ هؤلاء على الموالي وعلى العرب وعلى أهل الذمة وعلى المسلمين جميعاً. وإن كانت محنة الموالي على أيديهم أقسىٰ وأرهب. وكانوا يمتدحون من هؤلاء الولاة أشدَّهم نكايةً وأكثرهم تقتيلاً، ويقرّبونه ويوصون به أبناءهم خيراً. وكانوا إذا أشار عليهم بعضُ العمّال بالتخفيف عن كواهل الناس لئلّا يموت الناس جوعاً، يوبّخونهم ويأمرونهم بالشدّة والحزم. مثال ذلك: ما فعله سليمان بن عبد الملك حينما استشاره أحد عمّاله بالتخفيف قليلاً عن الموالي وعدم إرهاقهم، فإنّه قال له في الحال: «احلبِ الدرَّ فإذا انقطع فاحلب الدم!».

وسياسة المال هذه هي التي دفعت عبيد الله بن الحبحاب متولّي الخراج علىٰ مصر مِن قبَل هشام بن عبد الملك، إلى أن يزيد الضرائب على أهل الذمّة في مصر؛ فما كان من هؤلاء ـ وكانوا ما يزالون هم السواد الأعظم ـ إلّا أن ثاروا، فحاربَهم الأُمويون وقتلوا منهم خلقاً كثيراً. «وقد حدث نحو ذلك علىٰ يد أُسامة التنوخي متولّي الخراج من قبَل هشام أيضاً. ولذا كثُر الالتجاء إلى الرهبنة في أيّامه فراراً من الضرائب القاسية. فأراد أن يمنع ذلك فأحصى الديور والرهبان كافّة ووسَم أيدي الرهبان بحلقةٍ من حديد فيها اسمُ الراهب واسمُ الدير وتاريخه، فكلّ مَن وجَدَه بغير وسم قطع يده. وألزم كلّ نصراني بمنشور يحمله يدلّ على أنه أدّى ما عليه. وكتبَ إلى العمّال بأنّ كلّ مَن وُجد من النصارىٰ وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير. ثمّ كبس الديارات وقبض علىٰ عدّة من الرهبان بغير وسم، فضرب أعناق بعضهم وضرب باقيهم

بالسياط حتّى ماتوا تحت الضرب»[١].

وهذا الأُسلوب في وسم الأيدي إنّما أخذه أُسامة بن زيد التنوخي عن الحجّاج بن يوسف الذي بدأت محنة الموالي تتّسع وتتّضح علىٰ يديه، وكانت سياسة الأُمويين الماليّة هي السبب في هذه البداية. فإنّ الحجّاج حين رأى سكّان ولاياته الأصليّين يُقبلون على اعتناق الإسلام كي تُرفع الجزية عن أعناقهم، خشيَ نقصَ الأموال من خزانة الدولة، تصرّف مع هؤلاء المسلمين الجدد تصرّفاً لا يأمر به الإسلام ولا يُقرّه؛ إذ ألزمهم بضريبة الجزية التي تسقط عن المسلمين، وألزمهم بضريبة الخراج، كماكان الأمر قبل إسلامهم. وكان يقول لهم: «أنتم علوج وأعاجم»[٢].

ثمّ وجّههم إلى القرىٰ والضياع، ونقش علىٰ يد كلٍّ منهم اسمَ البلدة التي وجّهه إليها. وكتب عمّال الحجّاج إليه أن الخراج قد انكسر وأنّ أهل الذمّة قد دخلوا في الإسلام ولحقوا بالأمصار، فوجّه إليهم أمراً يقول فيه: إنّ كلّ مَن أسلم منهم وله أصلٌ في قرية فليخرجْ إليها. ذلك كي يجبرهم على العمل في خدمة بني أُميّة؛ حيث يشتغلون ثمّ يدفعون إنتاجهم خراجاً وجزيةً إلىٰ مترفي بني أُميّة. فخرج الناس وجعلوا يبكون وينادون النبيّ كي يغيثهم وينشلهم من هذا الجور وهذا الاستبداد. وجعلوا لا يدرون ما يفعلون وأين يذهبون. فجعل قرّاء المدن يخرجون إليهم متقنّعين خشيةَ بني أُميّة فيبكون لما يسمعون منهم ويرون.

وكان أُسامة بن زيد التنوخي المشار إليه ظالماً حقيراً غاشماً معتدياً؛ يقطع الأيدي في خلاف ما يؤمر به. وكان يعاصره عاملٌ أُمويّ على إفريقيا

---

(١) الموالي في العصر الأُموي ص: ٥٣ - ٥٤ عن الخطط للمقريزي.

(٢) العلوج جمع العلج وهو في اللغة: الحمار، وقد أطلقه بعضهم على كفّار العجم. لسان العرب: ٣٢٦/٢، مادة «علج».

أشدَّ بغياً منه وأحقر، هو يزيد بن أبي مسلم الذي يروي المؤرخون أنّه كان بليد الذهن غليظ الكبد شديد الجور مخالفاً للحقّ، ويتظاهر مع ذلك بالصلاح ويُكثر الذِّكْرَ والتسبيحَ، ويأمر القومَ فيكونون بين يديه يُعذِّبون أبشعَ عذابٍ وهو يقول: سبحان الله والحمد لله! شدَّ يا غلام موضعَ كذا وكذا فكانت حالته تلك شرَّ الحالات.

وقد «اخترع» ولاة بني أُميّة شتىٰ أساليب الجور وألوان البغي في تحصيل الضرائب من الموالي الذين سقطت عنهم بالإسلام. ومن هذه الأساليب ماكان يلجأ إليه بعض العمّال مع موالي إفريقيا الفقراء. فإنّ مَن قصرت يداه من هؤلاء عن أداء ما فُرض عليه ظلماً وعدواناً؛ ألزَمَه الولاة بتسليم نسائه وأولاده وإخوانه لكي يبيعوهم في أسواق النخاسة لسداد الضرائب.

وماكان هؤلاء العمّال والولاة ليرتضوا بأن يستأثر ملوك بني أُميّة بأموال الناس من دونهم هم؛ لذلك راحوا يختزنون ثرواتٍ كثيرةً لأنفسهم، أُسوةً بأسيادهم الذين أطلقوا أيديهم في مصائر الموالي والعرب على السواء. ومن هؤلاء العمّال مَن لم تكن أموال الضرائب على كثرتها لتفي بمطابخهم ... كما يدلّنا كتابٌ بعث به أُميّة بن عبد الملك إلىٰ عبد الملك بن مروان قائلاً فيه: «إنّ خراج خراسان لا يفي بمطبخي»[1]. ولطالما ردّد عمّال بني أُميّة أمثالَ هذه العبارات: «السواد بستان قريش ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه ... وإنّما أنتم خزانة لنا ... الخ».

وأُصيب هؤلاء العمّال بنهمٍ عجيب في ابتزاز الأموال وفي الاستكثار منها، حتّىٰ باتوا لا يقضون لياليهم ولا همّ لهم إلّا «التفكير» في أساليب جديدة لامتصاص آخر قطرات الحياة من دماء الرعايا ... ومن هذه الأساليب أنّهم

(١) تاريخ الطبري : ج ٥ ص ٢٧٥ وفيه : إن خراج خراسان لا يقيم بمطبخي .

كانوا يفرضون على الناس أن يقدّموا لهم الهدايا من مختلف ما تحت أيديهم وفي كلّ المناسبات. ولم يكن صغار الوُلاة بأقلّ من كبارهم حرصاً علىٰ جمع المال وتذرّعاً بمختلف الوسائل للحصول عليه. وإليك إحدىٰ هذه الوسائل الطريفة:

وليَ أعرابيٌ البحرين فجمع يهودها وقال لهم: مَن قتل المسيح؟ قالوا: نحن قتلناه. فقال لهم: ومَن صَلَبه؟ قالوا له: نحن صلبناه. فقال الأعرابي: لا بأس عليكم، فهل دفعتُم ديتَه؟ فقالوا له: لا. فقال لهم: واللهِ لن تخرجوا من هنا أحياء إلّا إذا دفعتم ديتَه! ولم يمكّنهم من الخروج من عنده حتّىٰ دفعوا له ما أراد.

ونهجَ أُمويّو الأندلس مع مواليها نهجَ الأُمويّين في الشرق. وعرف موالي الأندلس من البربر المسلمين ما عرفه موالي الشرق من صنوف الازدراء والاحتقار والغصب والاستعباد. فقدكانت الحكومات العربية في الأندلس تؤثر العرب بسُكنى الأقاليم الخصيبة والأرض المنتجة وتمنع الموالي سُكناها، وتحملهم قسْراً على الإقامة في الأقاليم الشمالية المجدبة الموعرة الفقيرة المليئة بالأخطار والأهوال؛ حيث تغدو وتروج عصابات الأسبان المسلّحة. هذا مع أنّ الفضل الأكبر في فتح الأندلس هو لهؤلاء الموالي: لطارق بن زياد مولىٰ موسىٰ بن النُّصَير، ولجيشه من البربر.

بهذا الأُسلوب من العصبيّة الحمقاء أخذ الأُمويّون الموالي. وقد حاول بعض الباحثين أن يروا في هذه العصبيّة ميلاً من الأُمويين إلى إيثار العنصر العربي على المستعربين المنحدرين من عناصر أعجمية، وأن يروا في هذا الميل إعزازاً لفكرة العروبة أو القومية العربية.

أمّا الواقع الذي نراه نحن فذو وجهَين: أمّا **الوجه الأوّل:** فهو أنّ في هذه العصبيّة إساءةً كبرىٰ إلىٰ فكرة العروبة. فإذا اعتبرنا أنّ هؤلاء الموالي ليسوا

عرباً ـ وأنّنا لا نريد أن يكونوا عرباً ـ فليست القومية السليمة من هذا الجانب استعباداً ولا استعماراً ولا ظلماً ولا غصباً. بل هي تعاونٌ وأخذٌ وعطاء. والقومية التي لا تُعطي مكتوبٌ عليها الفناء، كتلك التي لا تأخذ سواء بسواء!

وإذا اعتبرنا أنّ هؤلاء الموالي عرب ـ وهم عربٌ استناداً إلى المفهوم الصحيح للقومية، كما رأيناه في الفصول السابقة، وإلىٰ حقيقة الموالي الذين اندمجوا بالشخصيّة العربية وأخذوا منها وأعطوها وساكَنوها العرب، وبنوا وإيّاهم مجتمعاً واحداً، ثم أنتجوا أروعَ ما في التراث الفكري العربي ـ فليست القومية من هذا الجانب استئساد فئةٍ من القوم على فئة، ولا استئثار طبقة من الناس بالخيرات دون طبقة، ولا تحكُّمَ قويٍّ بضعيف، ولا إقامةَ مجتمعٍ على أساسٍ من الآكل والمأكول.

وأمّا **الوجه الثاني:** فهو أنّ السياسة الأُموية في حقيقتها ليست سياسةً عربية، حتّىٰ ولا سياسةً قبليّة، وإنّما هي سياسةُ أُسرة من العرب، تريد أن تحكم العرب والموالي، وتنهب خيراتهم وتأكلهم جميعاً، فإذا هم متساوون من حيث إنهم أدوات إنتاج لهذه الأُسرة. وهي سياسةٌ تتركّز في الدرجة الأُولىٰ علىٰ جمع المال والقوة والسلطان في يدٍ واحدة، يُمكنها أن تسند مَن يواليها ويؤيّدها من العرب والموالي، وتبطش بمَن يعارضها، وتخنق المجموعة الفقيرة من الجانبين نهباً لما تحت أيديها من المال والغِلال. فهي من هذه الناحية سياسةٌ طبقيّة خالصة.

وإذا كان الأُمويون الحاكمون قد آثروا عربيّاً على أعجمي، فإنّما كانوا ينزعون عن مصلحتهم الطبقيّة لا عن شيء سواها، إذ حسبوا أنّ العرب أقربُ إلىٰ موالاتهم وتأييد ملكهم من هؤلاء الموالي، ذلك لأنّ العصبيّة القبليّة التي

كانت ما تزال قائمةً بروحها وجوهرها، والتي بعث الأُمويون ماكان قد خمد منها أوكاد، كانت كفيلةً باجتذاب هذه القبائل إليهم عن طريق زعمائها الذين يرشوهم الأُمويّون ويُطلقون أيديهم في ما يريدون؛ فإذا بهم يحملون قبائلهم وعلى أعناقهم السيوف لنصرة الخليفة وأُسرته. أمّا الموالي فقدكان الصعب اجتذابهم عن هذه الطريق لأنّهم لم يكونوا يتبعون نظاماً قبليّاً يسمح للأُمويين باستخدامهم عن طريق رؤسائهم وزعمائهم.

وعلىٰ كلّ حال، فإنّ مصلحة الأُسرة الأُمويّة وطبقة الولاة والعمّال والوجهاء وكبار الأثرياء، لم تكن لتتدعّم إلّا بإيثار فئةٍ من الناس على فئة تولّيها علىٰ رقابها، وتستأثر عن طريقها بالخيرات، وتحافظ بواسطتها على امتيازاتها. يؤيّد رأينا هذا في أنّ سياسة الأُمويّين إنّماكانت سياسةً عائلية طبقية محورُها اقتصادي، لا سياسة عربية في خدمة المجتمع العربي، أو العنصر العربي كما يلفّق الملفّقون؛ ما ذكرناه سابقاً من أنّ ملوك بني أُميّة وعمّالَهم كانوا يمدّون أيديهم إلى دهاقنة الفرس ويؤيّدونهم ويقدّمونهم على العرب، ساعةَ يضمن لهم هؤلاء الدهاقنة نهْبَ الطبقات الشعبية من الفُرس ومن العرب أيضاً، ويكفونهم «تعبَ» سلْب الأرزاق وابتزاز الأموال، فكان ملوك بني أُميّة وولاتهم والدهاقين الفرس، ينعمون بالامتيازات الاقتصادية والاجتماعية، ويثرون ويكنزون الأموال، ويتصرّفون بالأرزاق والأعناق، على حساب العامّة من الفرس والعرب.

وقد أدرك أحد الفرس الأذكياء هذه الطبقيّة التي تسيّرُ المجتمعَ الأُمويَ يومذاك، وتضع الخطوط العامّة والتفاصيل لهذه السياسة الطبقية ـ لا العربية ـ ، إذ وقف يحادث صديقاً عربيّاً له ويشكو كلٌّ منهما إلى الآخر فقرَه وفقرَ الجماعات، ويتكاشفان أخبارَ المصالح التي تجمع بين دهاقنة الفرس

ووجهاء العرب، فقال الأعجمي للعربي «الشريف من كلّ قوم نسيبُ الشريف من كلّ قوم!».

أمّا السبب الحقيقي فيما رأيناه من احتقار العرب للموالي؛ فلم يكن في نفوس العامّة من العرب. لأن العامّة في كلّ شعبٍ من الشعوب قومٌ طيّبون شرفاء يتوجّهون إلى الخير مُسرعين إذا وُجّهوا إليه. وهم في أكثر الأحيان يقبلون هذا التوجيه ويؤثرونه. وإنّما كان من خطّة القوّاد ورأي الوجهاء وسياسة الطبقة الحاكمة. فحين أبعدَ الأُمويون العامّةَ عن روح الإسلام الداعي إلى الإخاء والمساواة بين جميع الناس، وأثاروا في نفوسهم العصبيّة الجاهلية حتّى لا يعودوا يرون خيراً إلّا في الانتساب إلى قبائلهم وحدها، وأطمعوهم بالخيرات تأتيهم من الغزو والفتح، ولا تأتي الموالي وإن كانوا شركاءهم في القتال، رأوا من اليسير عليهم أن يسايروا رؤساءهم في احتقار الموالي كما يحتقرون فيما بينهم مَن لا ينتسب إلىٰ قبائلهم.

ولو سارت السياسة الأُموية علىٰ غير هذا الخطّ الذي صوّرناه لاتّجه العربُ غير هذا الاتّجاه مع الموالي، ويدلّنا علىٰ تأثير مثل هذا التوجيه في نفوس القوم الخبرُ التالي:

لمّا فتح الرسول مكّة أمر بلالاً الحبشي حتّى أذّن علىٰ ظهر الكعبة. فقال عتاب بن أُسيد هذا القول الجارح: الحمد لله الذي قبض أبي حتّى لم يرَ هذا اليوم! وقال الحارث بن هشام: أمَا وجد محمدٌ غير هذا الغراب الأسود مؤذّناً؟ وقال سهيل بن عمرو : إن يُرد الله شيئاً يغيّره. وقال سيّد الوجهاء أبو سفيان قولاً آخر. فزجرهم محمد عن التفاخر بالأنساب والتكاثُر بالأموال والازدراء بالناس وقال: «**إن أكرمكم عند الله أتقاكم!**»[1] فإذا بالعرب يُكرمون بلالاً الحبشي

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ٢٦٤ مجمع البيان للطبري : ج ٩ ص ٢٢٦.

ويحترمونه ويساوونه بأنفسهم أكرم مساواة.

لقد كانت «عروبة» بني أميّة كـ«فرنسية» لويس الرابع عشر، و «انكليزية» شارل الأوّل، و «روسية» قياصرة موسكو، و«إيطاليّة» آل مديتشي في فلورنسا، و«ألمانية» غليوم الأوّل! أمّا «إسلامهم» فأشبه ما يكون بـ«مسيحيّة» الكسندر بورجيا، وابنه قيصر، وشارل الخامس.

أمّا «القوميّة» عند هؤلاء جميعاً فلا تعني شيئاً، إلّا مجموعة من العبيد البائسين، تكدح في سبيل العلف لحصان الملك!

وأمّا «المسيحيّة والإسلام» عندهم فلا يعنيان شيئاً، إلّا خضوع هؤلاء العبيد البائسين، واستكانتهم الأبدية لظلّ الله على الأرض!

إنّ الاستبداد هو آفة القوميّة الكبرىٰ، لأنّه آفةٌ إنسانية. ولا يستطيع أن يكون قوميّاً مَن لا يكون إنسانيّاً! كما أنّه لا يكون إنسانيّاً مَن لا يكون قوميّاً! شريطةَ أن تكون ركيزة قوميّته الأُولىٰ: العمل من أجل رفع الحاجة عن الناس الذين يتألّف منهم القوم، تمهيداً لإشاعة الفضائل الإنسانية التي تعطي هذه القوميّة معناها الجميل وقيمتَها الصحيحة.

إنّ الذين اضطهدوا المجموعة العربية في التاريخ، سواءٌ فيها مَن انحدر من أصلٍ عربي أو غير عربي، قد أساؤوا كلَّ الإساءة للقومية العربية، وأبعدوها في عهودهم عن معانيها الأصيلة، وأنهكوها وأذلّوها، وأفقروها وأجاعوها وعرّوها من كسائها، وجرّدوها من خصائصها الإنسانية ـ المادّيّة منها والمعنوية ـ وجعلوها مغْنماً سهلاً لكلّ طامعٍ في أكلها، سواءٌ أكان هذا الطامع فرداً أو جماعة، عربيّاً أو أجنبيّاً.

ولعلّ أروع ما يصوّر لنا النهاية الفاجعة التي تصير إليها القوميّات ساعةَ تتولّاها العصبيّة، وتسيطر علىٰ مجتمعاتها طبقةٌ من المستبدّين المنتفعين بهذا

الاستبداد وهذه العصبيّة، الخبر التالي الذي نطق به الأُمويّون أنفسهم، وصاحب الدار أدرىٰ بالذي فيها.

أرِقَ عبد الملك بن مروان ذات ليلة فاستدعىٰ سميراً يحدّثه فقال السمير : يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومةٌ وبالبصرة بومة. فخطبتْ بومةُ البصرة بنتَ بومة الموصل لابنها، فقالت لها بومةُ الموصل: لا أُجيب خطبةَ ابنك حتّىٰ تجعلي صداقَ ابنتي مائةَ ضيعةٍ خربَة. فقالتْ بومةُ البصرة: لا أقدر علىٰ ذلك، ولكنْ إن دام وُلاتُنا سنةً آتيتُكِ بما تريدين!

وإلى المنتصرين للسياسة الأُمويّة الحمقاء، من الكتّابَ المعاصرين الباحثين في القومية العربية وأحوالها، نردّد ما قاله الموالي إلى أشرس بن عبد الله، أحد عمّال بني أُميّة على الناس:

- علىٰ مَن تجور في هذه الأرض وقد أصبح الناس عرباً؟[1]

إنّه يجور على العرب أنفسهم لمصلحة طبقةٍ من الحكّام والوجهاء، الذين تسمّموا بداء الوجاهة وداء العصبيّة الطبقية منذ أيّام عثمان.

وبهذا الجور آفة القومية! وبالثورة على الظلم انتقامٌ لشرف القوميّة ومعناها!

وبهذا الجور يبدأ الخطّ السفياني في فلسفة السياسة والحكم، وبه ينتهي! وبهذه الثورة يبدأ الخطّ العلوي ويستمرّ، لأنّ الحياة والوجود والأنظمة كلّها إنّما هي قوىً ثائرة أبداً، متطوّرة إلىٰ ما لا نهاية له!

---

(١) بحار الأنوار : ج ٦١ ص ٣٣٢ نقلاً عن (سراج الملوك) لأبي بكر الطرطوسي .

مع الثائرين

- والناسُ في آدم مستوون، وإنّ النفس لَتَلْتاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمدُ عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنّتْ! وقد بُني الإنسان على خصال، فمهما بُني عليه فإنه لا يُبنىٰ على الخيانة والكذب!

جعفر الصادق

- أنتِ، واللهِ، وأشباهك تُخرجوني غداً حتّىٰ يُسفَك دمي

محمد بن ابراهيم

- وعرف التاريخ في الشرق والغرب عهوداً لا همّ فيها للحكّام المنافقين، إلّا تحصيل حقّ الله القويّ من الإنسان الضعيف!
- لم يكن التشيّع في التاريخ مأوىٰ يلجأ إليه المخرّبون كما زعم بعض الكتّاب المعاصرين؛ وإنّما كان مَوئلاً يندفع إليه المضطَهدون ويجتمعون فيه، ويكافحون طغيان الحاكمين وطبقيّة المحتكرين، من أجلِ مجتمعٍ سليمٍ من العصبيّة، يكونُ لأبنائه جميعاً من غير تمييز. وهو بذلكَ تشيّعٌ ذو طابعٍ اجتماعيٍّ صريح!

بهذا الهول الأكبر اصطبغت حياة الموالي على أيدي الأُمويين في الشرق والغرب، فراحوا من الاحتقار والقسوة والاستبداد يتخبّطون في ظُلُماتٍ كثيفةٍ؛ أطبقتْ عليهم من كلّ جانب. فطفقوا يتلمّسون طريقاً للنجاة من هذه الدياجير علىٰ غير رجاء. وما أصابهم على أيدي الأُمويين أصاب السوادَ الأعظم من العرب وهم بستان قريش ... يُقتَلون وتُنهبُ أرزاقهم ويُباع أبناؤهم لتُملأ أشداقُ الولاة بأشلائهم وتظلّ مفتوحةً فاغرة.

وفيما كان الناس ووُلاتُهم في العصر الأُموي على نحو ما وصفَهم أحدُ

الشرفاء، إذ قال: «تركتُهم بين مظلوم لا يُنتَصف، وظالمٍ لا ينتهي»(١) أطلّ عليهم صبحٌ من الأمل، كان مبعثه ذلك الوجه العظيم عمر بن عبد العزيز الآخذ بنهج عليّ، وأحد الأُسُس العميقة الجذور في أرض القومية العربية المصفّاة من كلّ غشٍّ وكلِّ خداع.

وسمع الناس عمر بن عبد العزيز يقول: «وددتُ أنّ أغنياء الناس اجتمعوا فردّوا على فقرائهم حتّى نستوي نحن وهم، وأكون أنا أوّلهم! وددتُ أن نأكل من كسب أيدينا!».

ورأى الناس عمر بن عبد العزيز يعمل بما يقول. سمعوه يقول ما قاله عليّ ابن أبي طالب، ورأوه يعمل ما عمله. وذكروا أنّه كان يتأفّف من الإدارة الأُموية قبل أن يبايَع، وأنّه كان يراها ظلماً قائماً علىٰ ظلم، وأنّه قال مرّة لأُسامة بن زيد التنوخي وقد بعثه سليمان بن عبد الملك إلىٰ مصر وحثّه علىٰ توفير الخراج: «ويحك يا أُسامة! إنّك تأتي قوماً قد ألحَّ عليهم البلاء منذ دهرٍ طويل، فإن قدرتَ أن تُنعشهم فأنعشْهم!»(٢). ثمّ رأوه وقد وليَ أمرَهم، فتنفّسوا الصعَداء ولبثوا ينتظرون الخير علىٰ يديه!

ولم يخبْ أملُ المضطهَدين بهذا العظيم، فهو ما كاد يبايَع حتّى شرَعَ أمرَه بعزْل جميع العمّال الذين ولّاهم مَن كان قبله من بني أُميّة، ثمّ راح يردّ المظالم واحدةً واحدة، وأعاد كلَّ ما نهبَه أسلافُه إلىٰ بيت المال، ونزل عن أملاكه التي انتقلتْ إليه من أبيه بالإرث، وردّ جميع الأملاك التي اقتطَعها الأُمويون لأنفسهم، وردَّ ضياعَهم إلى أصحابها الأصليين، وأجبر أبناء الأُسرة المالكة من البيت الأُمويّ أن يعملوا عملاً يرتزقون به، وألقى إلى النار بجميع

---

(١) العقد الفريد: ج ٢ ص ٢٦٧ والقائل هو: أبو السمّال الأسدي.

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ج ٨ ص ٨٥.

السجلّات التي قُيّدتْ فيها الضياع والنواحي للأُمويين وعمّالهم. ووقف يخطب الناسَ وكأنّه ينزع عن لسان أُستاذه عليّ بن أبي طالب، يقول:

«أيها الناس! مَن صحِبَنا فلْيصحبْنا بخَمْسٍ وإلّا فلا يقربنا: يَرفع إلينا حاجةَ مَن لا يستطيع رفْعَها، ويُعيننا على الخير جهدَه، ويدلّنا من الخير علىٰ ما لا نهتدي إليه، ولا يغتابَنَّ عندنا الرعيّة، ولا يعترضَنَّ فيما لا يعنيه!»(١). وكتب إلىٰ عمّاله الجدد: «إنّ الناس قد أصابهم بلاءٌ وشدّة وجَور ... وسُنَنٌ سيّئة سنّتْها عليهم علماء السوء، قلّما قصدوا الحقّ والرفق والإحسان!»(٢).

وأبطل عمر هدايا النيروز والمهرجان، وكانت تُحمَل إلىٰ معاوية ومَن بعده وأقدارها باهظة، وهي من العادات الفارسية، التي أنستْ بها طبقة الحكّام العرب، أقرَّها معاوية ورضيَ بها، وأنكرَها عليٌّ ومنع الناس عنها. ثمّ حصر الضرائبَ وخفّفها عن الجميع، ورفَعها عن المعْوزين أُسوةً بأُستاذه العظيم. وأصدر أوامره بحبس كلّ مَن يحاول أن يسخّر إنساناً أو دابّة في عمل من الأعمال.

ولقيَ الناس من عمرَ ما هو أحبّ من ذلك وأجدر بصاحب السلطان. رأوا منه ما رأى السابقون من عليّ بن أبي طالب يوم راح يعطف على الحياة عطفاً هو فوق القانون. فقد كتب إليه عاملُه على العراق: أنّ أُناساً قبله قد اقتطعوا من مال الدولة مالاً عظيماً، ليس يقدر على استخراجه من أيديهم إلّا أن يمسّهم شيء من التعذيب والتنكيل. فهال أمرُ التعذيب والتنكيل عمرَ، فكتب إلىٰ عامله يقول: «أمّا بعد، فالعجب كلّ العجب من استئذانك إيّاي في عذاب البشر، كأنّي لك جُنّة ـ وقاية ـ من عذاب الله. وكأنّ رضاي ينجيك من سخط الله.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ج ٤٥ ص ١٦٩؛ تهذيب الكمال ج ٢١ ص ٤٤٢؛ البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٢٣.
(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٠٥.

فانظر فيما قامت عليه البيّنة فخذْه بما قامتْ عليه، ومَن أقرَّ لك بشيء فخذه بما أقرَّ به، ومَن أنكر فاستحلفْه بالله وخلِّ سبيله، فوالله لأن يلقوا اللهَ بخياناتهم أحبّ إليّ من أن ألقى الله بدمائهم»(١).

لقي الناس من عمر مثل هذه الرحمة وهذه الأُبوة بعد الذي ألفوا رؤيتَه من الازدراء بالحياة، وبَخْس ثمن الأحياء وإهلاك الآدميين وتعذيبهم تعذيباً فظيعاً في أقلّ شيء. وكان أقرب ما ألفوه من هذه الفظائع عهداً، أُسلوب عبد الملك بن مروان وأخيه بشْر في التنكيل والتعذيب. من ذلك أن عبد الملك استعمل أخاه بشْراً على الكوفة والبصرة وأمرَه بالشدّة والغلظة علىٰ مَن لا يرضى بسلخ جلده في سبيل الأُسرة الحاكمة. ومدَّه بأربعة آلاف جندي من أهل الشام. فكان من سياسة بشْر وسياسة دولته في أهل العراق، أنّه إذا فرَضَ البعْثَ علىٰ جنديّ أو على أحدٍ من الخلق، ثمّ وجده قد أخلّ بمركزه أقلَّ إخلال، أوقفَه علىٰ كرسي ثمّ سمّرَ يديه في الحائط تسميراً شديداً وهو يتوجّع ويصرخ ويستغيث، ثمّ انتزع الكرسيّ مِن تحت رجليه، فلا يزال الرجل يتخبّط على هذه الصورة الفظيعة حتّى يموت!

وكان ممّا ألِفوا سماعَه من هذه الفظائع أيضاً أُسلوب بعض الطامحين إلى الولاية، في معاملة كلِّ مَن يعوق هذا المطمَح، أو يُظَنّ به الانحراف. مثال ذلك ما كان يرويه الناس بعضهم لبعضٍ، ممّا وقع بين عبد الله بن الزبير وأخيه عمرو بن الزبير في مطلع العهد الأُموي. وذلك أنّ يزيد بن معاوية كان قد ولّى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينةَ، فسرّح منها جيشاً إلى مكة لحرب عبد الله بن الزبير وكان في هذا الجيش أخوه عمرو بن الزبير، وكان عمرو

(١) الفائق في غريب الحديث الزمخشري: ج ٢ ص ١٣؛ شرح نهج البلاغة: ج ١١ ص ١٠٠ و ج ١٧ ص ٢٠؛ غريب الحديث لابن قتيبة: ج ٢ ص ٢٥١.

منحرفاً عن عبد الله. وبعد قتالٍ عنيفٍ دارت الدائرة علىٰ جيش الوليد بن عتبة، وقبض القومُ على عمرو وسلّموه إلى أخيه عبد الله، فأقامه للناس بباب المسجد مجرّداً من ثيابه، وأبى أن يقتله إلّا بالسياط، فلم يزل يضرب أخاه بالسوط حتّىٰ فارق الحياة!

ولم يفرّق عمر بن عبد العزيز بين مسلم وغير مسلم. ولا بين عربي ومولىٰ. ذلك لأنّه كان مسلماً حقّاً وعربيّاً حقّاً! أمّا غير المسلمين فقد أمر بمساواتهم بالمسلمين في كافّة ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات. حتّى أنّ الرجل منهم إذا كبر وليس له مال يُنفق عليه، كان عمر يُنفق عليه من مال الدولة. وشكا نصارىٰ دمشق أنّ الوليد بن عبد الملك هدم كنيسة يوحنا وأدخلها في المسجد الأُموي، فأمر عمر بأن تُعاد إليهم علىٰ عجل، فأقبل المسلمون على النصارى فسألوهم أن يُعطَوا جميع كنائس الغوطة على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويُمسكوا عن المطالبة بها، فرضوا بذلك وأعجبهم وأخبروا به عمرَ فرضي بما أرضاهم.

وأمّا الموالي فلا يختلفون في شيء عن العرب في عهد عمر. وممّا قاله للذين اضطُهدوا أيّام سابقيه: «وما منكم مِن أحدٍ تبلُغُنا حاجتُه يتّسع له ما عندنا، إلّا حرصنا أن نسدّ حاجتَه ما استطعنا. وما منكم من أحدٍ تبلُغُنا حاجتُه لا يتّسع له ما عندنا إلّا تمنّيتُ أن يبدأ بي وبخاصّتي حتّى يكون عيشنا وعيشه سواء»(١). أمّا الهاربون من جَور أسلافه السابقين من الموالي والعرب جميعاً، فقد قال في إنصافهم: «إنّ الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاصٍ، ولكنّ الإمام الظالم هو العاصي!»(٢).

(١) تاريخ الطبري: ج ٥ ص ٣٢٣، تاريخ مدينة دمشق: ج ٣٥ ص ٣٧٣.
(٢) الحديث للنبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ذكره في كنز العمال ج ٣ ص ٢١٦، واستشهد به عمر بن عبد العزيز.

وأبطل عمرُ سَبَّ عليّ بن أبي طالب على المنابر، وأثنىٰ عليه وعظّم شأنه وأكرم ذكراه واقتدىٰ به قولاً وعملاً.

وبلغ عمرَ أن رسوباتٍ من العصبيّة المألوفة في عهد سابقيه، قد تحرّكتْ في نفس عامله في خراسان. وتأكّد هذا الخبر عندما جاءه من هذا العامل كتاب يقول فيه: إنّه لا يُصلح أهلَ خراسان إلّا السيف. فأنكر عمر علىٰ عامِله هذه العصبيّة وهذا النهج في أخذ الناس وعزَله مِن فوره.

وشغف عمر بعمران البلاد التي يحكمها شرطَ أن يكون هذا العمران للناس لا للوُلاة. وشرطَ ألّا يكون نعيمُ قوم علىٰ حساب قوم. لذلك أمر بوقف الفتوح كي لا تهرق دماء العباد، وكي يتعاطى الناس بالعمل والمحبّة لا بالغزو والغصب والبغضاء. ووضع الخطط والتصاميم كذلك لإجلاء العرب عن الأندلس والعودة بهم إلى بلادهم. ولعلّه أوّل ملك في الدنيا أمرَ هذا الأمر وفكّر هذا التفكير.

وسعى عمر في ألّا يظلّ في البلاد العربية فقير. وقد أثمر سعيُه إذ أنّ معظم الأمصار التي كانت قد خربتْ في عهود أسلافه عاد إليها عمرانُها وزهوُها، ولم يبقَ فيها فقير واحد. وفيما هو يستعدّ لإتمام ما بدأه من هذه السياسة الشريفة، ويسعىٰ في إجلاء العرب عن الأندلس؛ إذ وافتْه المنية بعد مضيّ سنتين ونصف السنة علىٰ ولايته. أمّا ما عمله في هذه المدّة القليلة ـ بعد ذلك الليل الطويل من مظالم السابقين ـ فمن أعظم ما عملَه عظيمٌ على الأرض.

ولمّا كان عمر علىٰ سرير الموت دخل عليه نسيبه مسلمة بن عبد الملك يعوده، فقال مسلمة: ألَا توصي يا أمير المؤمنين؟ فقال: فَبِمَ أُوصي، فواللهِ لا أملك مالاً ولا متاعاً! فقال مسلمة: هذه مائة ألف فمُرْ فيها بما أحببت. فقال عمر : أوَ تقبل؟ قال: نعم، قال عمر : تُرَدّ على من أُخذت منه ظلماً. فبكىٰ

مسلمة ثمّ قال: يرحمك الله، لقد ألَنْتَ منّا قلوباً قاسية، وأبقيتَ لنا في الصالحين ذكرا!».

ومات عمر فبكاه الناس، وبلغ امبراطورَ الروم خبرُ موته فنزل عن سريره وبكىٰ وقال فيه: «لقد بلغني مِن برّه وفضله ما لو كان أحدٌ بعد عيسى يُحيي الموتى لظننتُ أنّه يُحيي الموتىٰ. ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً، فلا أجد أمره مع ربّه إلّا واحداً، بل باطنُه أشدّ حين خلواته بطاعة مولاه. ولم أعجبْ لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربّه علىٰ رأس صومعته، ولكنّي عجبتُ لهذا الراهب ـ يعني عمر ـ الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها، حتّىٰ صار مثل الراهب »[1].

وكان أشدّ الناس حزناً لموته الموالي وشيعة الإمام عليّ، أي الفئات التي اضطُهدتْ أكثر من سواها في العهد الأُموي، لأسبابٍ تتعلّق بسياسة البيت المالك وطبقة الوجهاء، لا بالعنصر ولا بالدين كما يزعم الزاعمون!

وأطبق الظلام على الناس من جديد. فإنّ عمر بن عبد العزيز لم يكد يُقبض، حتى أفلتت الريح مِن عِقالها، وعادت الدولة إلىٰ سابق عهدها، فإذا بيزيد بن عبد الملك يُعيد سَبَّ عليٍّ على المنابر، ويعزل عمّال عمر جميعاً، وينعت الخليفة العظيم بأنّه كان مغروراً، ويكتب إلىٰ عمّاله الجدُد بنهب الناس والتنكيل بهم وإعادتهم إلى ما كانوا عليه سواء أظلّوا أحياء بهذا الظلم أو ماتوا، قائلاً: « ... وأعيدوا الناس إلى طبَقتهم الأولى، أخْصَبوا أم أجْدَبوا، أحبُّوا أم كَرِهوا، حَيُوا أم ماتوا!» وينهي هذا الكتاب بكلمة «والسلام!!!»[2]. وظلّ الموالي في بؤسهم قابعين. واستمرّ ظلم الولاة الأُمويين للناس

(١) مروج الذهب للمسعودي. وعنه شجرة طوبىٰ: ١ / ١٣٩.

(٢) العقد الفريد: ٤ /٤٤٢، الإمامة والسياسة: ٢ / ١٤١.

جميعاً.

وأقبل العصر العبّاسي فإذا بالسواد الأعظم من الناس يطلبون الرحمة للعهد الأُموي. وتسامح الخلفاء العباسيّون مع الموالي تسامحاً كثيراً، غير أن تسامحهم لم يكن ليحمل ما تستلزمه المفاهيم الإنسانية للمجتمع العربي،كذاك الذي عُرف به عمر بن عبد العزيز مثلاً. وإنّما هو تسامح حُملوا عليه توطيداً لمُلك الأُسرة العباسيّة لا لشيء آخر. وكان تقريبهم للموالي على أساسٍ من الانتفاع بهم، لا على أساسٍ من الرغبة في المساواة بين الناس.

وهم إذا قرّبوهم فإنّماكانوا يقرّبون منهم الوجهاء وأصحاب النفوذ، حتّى إذا ظنّوا بهم خطراً على عرشهم أو مصالحهم سجنوهم أو قتلوهم عن بكرة أبيهم،كما فعل الرشيد بالبرامكة ... أمّا العامّة من الموالي فكالعامّة من العرب يدفعون الخراج ويأكلون الكرباج،كما يقول أمين الريحاني. والصحيح هو أنّ السياسة العباسيّة سياسةٌ لا يعنيها عربٌ ولا موال، وإنّما يعنيها المحافظة على عرش الأُسرة الحاكمة، وابتزاز ما يمكن ابتزازه من أموال المجموعة العربية الفقيرة، بأساليب كانت أعنف وأثقل على الكواهل من أساليب بني أُميّة. وقد مرّ في باب «صورٌ من التاريخ» فصولٌ تحدّثنا بها عن انقسام الناس انقساماً طبقيّاً حاسماً في عصر بني العبّاس، وعن النعيم إلى جانب الجحيم، وعن الثروات الأُسطورية في أيدي الطبقات الحاكمة والمقرّبة إليها، وعن موت الجياع في الأزقّة والطرقات. ثم عن اليأس من صلاح الدنيا يغزو الناس الذين كانوا يأملون بتغيّر أحوال العيش بعد انهيار الدولة الأُموية، فإذا بهم يُرَدّون إلى ما هو أسوأ، فينفضون أيديهم من خير الحياة حتى يقول قائلهم:

عِشْ بالخداع فأنت في دهرٍ بَنُوه كأسْد بِيْشَه
واجنِ الثمارَ فإن تفُتْك فأرضِ نفسَك بالحشيشه
وأرحْ فؤادَكَ إن نبا دهرٌ، من الفِكَر المطيشَه
فتغايُرُ الأحداث يؤذِنُ باستحالةِ كلَّ عيشه

وحتّى ينفّر ابنُ المعتزِّ من التفكير بالثراء كلِّ مَن يرغب فيه من الناس، مشيراً إلى ما يمكن أن يصير إليه أبناؤه على أيدي رجال الدولة، بسبب هذه الثروة:

وويل مَن مات أبوه موسرا ... أليس هذا محكماً مشهَّرا؟
وطال في دار البلاء سجنُه ... وقال مَن يدري بأنّك ابنُه
فقال جيراني ومَن يعرفني ... فنتفوا سبالَه حتّى فني
وأسرفوا في لكمِه ودفْعِه ... وانطلقتْ أكفهم في صفعِه
ولم يزل في أضيق الحبوسِ ... حتّى رمى إليهُمُ في الكيسِ[1]

وأمّا حياة البشر، العرب والموالي على السواء، هؤلاء الذين يؤلّفون المجتمع العربي، ويفلحون ويزرعون ويعملون ويفكّرون وينتجون، فلا تساوي شيئاً على الإطلاق. فلربّما كانت دماء الناس مرهونةً بحدّةِ طبعٍ عابرة، أو بنكتةٍ تُضحك الأمير حتّى يستلقي على قفاه. مثال ذلك: أنّ الرشيد غضب مرةً على حميد الطوسي، فسرعان ما دعا له بالسيف والنطع لقطع رأسه. وأيقن حميد أن الأمر هو الجدّ وأن رأسه سيطير عن كتفيه بعد لحظات. فبكى وانتحب. فقال له الرشيد الذي تعوَّد رؤية المقبلين على الموت فما عادت تهزّه: ما يبكيك؟ فقال حميد: والله يا أمير المؤمنين! ما أفزع من الموت لأنّه لا بدّ منه، وإنّما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط

(١) ديوان ابن المعتز ص ٧٦٦ (طبعة دار الجيل).

عليّ. فضحك الرشيد حتّى استلقى على قفاه وعفا عنه؟!

ولم يكن هنالك ما هو أيسر على الخلفاء والولاة من التحدّث عن عشرات الأُلوف من الناس الذين قتلوهم. مثال ذلك: أنّه كان بين أحد الولاة وأبي جعفر المنصور جدالٌ محتدمٌ حول رجلٍ يريد المنصور تعذيبه وقتله، ويريد الوالي أن يجبره. فقال الوالي: «يا أمير المؤمنين! بالأمس بعثتَني إلى اليمن فقتلتُ في طاعتك في يومٍ واحد عشرةَ آلاف نفس! وفي مثل ذلك كثير! أما رأيتني أهلاً أن تجير لي رجلاً واحداً؟!».

وهنا هدأ غضبُ أمير المؤمنين! وقال: قد أجَرناه وأجَزناه!

«وقد أراد ولاة الحكم ـ في الدولتين ـ أن يدوم لهم النفوذ والسيطرة، والظلم والطغيان، فأوعزوا إلى أصحابهم أن يضعوا أحاديث، يصوغون للناس منها قيوداً وأغلالاً، تساعدهم على استعباد الأحرار واستغلال الجماهير، فلفّقوا أحاديث على لسان الأنبياء مرغّبين في الخنوع والخضوع والخدمة والاستسلام».

أمّا الذين لم يخنعوا ولم يخضعوا ولم يستسلموا، فقد وُسّعت أمامهم طريقُ الموت. ولعلّ ما لحق بالناس من تشريدٍ وتقتيلٍ وترويعٍ، في العصرين الأُموي والعبّاسي، كان النصيب الأوفر منه لاحقاً بطائفةٍ من الخلق؛ هي شيعة عليّ بن أبي طالب، سواء فيهم العرب والموالي. فقد أصاب هؤلاء من صنوف الأذى ما أصاب غيرهم، بحُكم السياسة الطبقيّة والعائلية التي سارت عليها الأُسرتان الحاكمتان، اللتان لم تقيما وزناً إلّا لمنافعهما وحدها. ثم أصابهم فوق ذلك ما «خُصّوا» به دون سواهم من ضروب الجور وأفاعيل الاستبداد. ذلك لأنّهم كانوا يؤلّفون الخطر المباشر على الأُسرتين لمطالبتهما بالحكم في العهدين، ثم لأنّهما النواة الثورية التي اجتمعت حولها طبقاتٌ من الناقمين

على الظلم، الساخطين على الاستبداد. وقد اتّسمت الحركة الشيعيّة في أوّل أمرها بطابع اجتماعي ديني في وقتٍ واحد، إذ أنّ الشيعة الأوائل هم الذين ناصروا عليّاً، إمّا لموقفه العادل الحازم من وجهاء زمانه، يريد أن يساويهم بسائر الناس في الحقوق والواجبات، ومن العامّة يريد أن يرفع عنهم العَوَز والحاجة. وإمّا لعاطفةٍ دينية تتّحد بمفاهيم اجتماعية.

وحافظ الشّيعة على طابعهم هذا قروناً طوالا. وراحوا يكيدون للحكم الظالم في عهود الدولتين، ويرضون عن الحكم المنصف في عهود الدولتين كذلك. يدلّنا على ذلك أنّ الشيعة استقبلوا سياسةَ عمر بن عبد العزيز الأُموي بالولاء والتأييد. وبكوه عندما مات بكاءَ المظلوم عندما يفارقه الصبح وتُطبق عليه الظلمات من جديد.

وعلى كلِّ حالٍ فإنّ شيعة عليٍّ كانوا يمثّلون المعارضة للحكومات الأُموية والعباسيّة. وهي حكومات ظالمة جائرة توجب على معارضيها أن يمشوا في طرقٍ تعادي الجور والظلم. وبذلك اكتسب التشيّعُ لعليٍّ، في العصور الأُموية والعباسيّة، صفةَ الدفاع عن المضطهَد والمستضعَف والمأكول حقّه، كما اكتسب هذه الصفة في بدء وجوده. ومن المقرَّر نفسيّاً أنّ الجماعة إذا تبنّت شعاراً واضطُهدت في سبيله؛ تزداد تعلّقاً به وتندمج بمعانيه، وتحيا به وجداناتها، وتنزع عنه بتصميماتها في القول والعمل. وهكذا وقف شيعة عليّ موقفَ المعارض العنيد لحكومات الجور في العهود العربية القديمة.

ولشيعةِ عليٍّ في تاريخنا القديم مواقفُ ضدّ الظلم بأنواعه جميعاً، هي الشرف كلّه وهي إرادةُ عليٍّ كلّها. وهي بذلك من صميم العمل القومي العربي، كما يجب أن يكون وكما يمكنه أن يستمرّ. أمّا موقفهم من التفرقة العنصرية بين أبناء المجتمع الواحد، فمعروف لا يحتاج إلى إيضاح، وهم بذلك ينزعون

عن موقف عليٍّ من الموالي وقد أوضحناه سابقاً.

وأمّا موقفهم من الاستبداد المذهبي فيحدّثنا عنه التاريخ حديثاً طويلاً، وهم بذلك ينهجون نهج عليّ القائل في غير المسلمين «**أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا**» والقائل أيضاً: «**كلّ إنسانٍ نظير لك في الخلق**» والقائل: «**لو ثُنيت لي وسادةٌ فجلستُ عليها؛ لحكمتُ في أهل التوراة بتوراتهم، وفي أهل الإنجيل بإنجيلهم، وفي أهل القرآن بقرآنهم، حتّى تركتُ كلَّ كتابٍ ينطق من نفسه**». لقد صدق عليّ! ويكفيك دليلاً على حقيقة موقف شيعة عليّ من الاستبداد المذهبي ما رويناه في فصلٍ سابق من قصة حجْر بن عديّ وزياد بن أبيه، وكيف مات حجر وأتباعه ميتةً مريعة في خبرٍ ينطلق من الدفاع عن حقِّ ذمّيٍّ أُسْوةً بالمسلمين.

وأمّا موقفهم من الفساد والظلم والحكم الجائر فتُنبئ عنه أجيالٌ كثيرة من معارضة الحكومات الفاسدة والنظم الجائرة، وسلسلةٌ طويلة من حلقات النضال الدامي ضدّ هذا الفساد وهذه النُّظم. ولرُبَّ باحث ـ كأحمد أمين مثلاً ـ يرى أنّ معارضة الشيعة للحكومات الأُموية والعباسيّة إنما كانت غايتها إيصال ولدْ الإمام علي إلى الحكم، وأنّ هواهم إنّما كان في هذه الغاية وحسب. وفي مثْل هذا الحكم نقول:

لا شكّ أنّ الجانب الديني كان له عملٌ في موقف الشيعة من حكام الدولتين. ولكنّه عملٌ جزئيّ لا كلّي، والدليل على ذلك ما ذكرناه من موالاة الشيعة كلَّ عادلٍ منصفٍ من ملوك الدولتين. ثم إنّ هذا الجانب الديني نفسه، وهو جزئيّ على كلّ حال، ما لبث أن بنى نفسه على أساسٍ اجتماعيّ وتبطّن جوهراً اجتماعيّاً كذلك. فصار الشيعة إن ذكروا أبناء علي في خواطرهم، يذكرون قوماً تجسّمَ الظلمُ في معاملة الحاكمين لهم، فطوردوا وشُرِّدوا وقُتلوا وماتوا في السجون وصُلبوا وأُحرقوا بالنار وذُرّي رمادهم في الريح. ويذكرون

أحراراً من الموالين لهم أصابَهم ما أصابهم من صنوف التعذيب والتنكيل. ويذكرون جماعات مؤلّفة من الأبرياء تُقطع أيديهم وأرجلهم ويُطرَحون في عراء الأرض حتّى يموتوا. ويذكرون بلاداً تخرب وشعوباً تهلك جوعاً في سبيلِ ملكٍ ووالٍ وعصابةٍ من مخنّثي القصور. فإذا بالجانب الديني من تشيّعهم يصطبغ بألوانٍ اجتماعية، ويتّحد بسائر جوانب التشيُّع وهي اجتماعية خالصة. وإذا بمآسي أبناء الإمام عليّ تمتزج بسائر مآسي الناس، وتؤلّف معها وحدةً لا تتجزّأ، وإذا بالتشيّع يصبح فكرةً اجتماعية وصيغةً لجهاد الظالمين، ورفْع الحيف اللاحق بالجماعات. ومن الروايات التي تُثْبت لنا شعورَ الشيعة بوحدة الظلم اللاحق بالجماعات. ومن الروايات التي تُثْبت لنا شعورَ الشيعة بوحدة الظلم اللاحق بأبناء عليّ وسائر الناس، وبأنّ التشيّع إنّما كان يعني في الدرجة الأولى مكافحة الظلم، الرواية التالية التي وقعت في العصر العبّاسي:

خرج الشاعر دِعْبِل مع جماعة في سفر. فلمّا صاروا في بعض الطريق اعترضتهم طائفة من اللصوص، الذين حملهم الظلم والتجويع على التشرّد وقطع الطريق. وأخذوا ماكان مع المسافرين حتّى الثياب التي علىٰ أبدانهم. وبعد أن استولىٰ اللصوص على الغنيمة تجمّعوا حول رئيسهم، فشرع هذا يُنشد قصيدة دعبل التائية التي يصوّرُ بها الظلم الذي لحق بأبناء عليّ، والمآسي التي ألمّت بهم. فتعجّب دعبل من اللصّ ينشد مديحَ المظلومين، وقاطعِ طريقٍ يبكي علىٰ المنكوبين. وقال لرئيس اللصوص: لمن هذه القصيدة؟ فقال له: ويلك! ما أنت وذاك؟ قال دعبل: لي فيه سببٌ أُخبرك به. قال: إنّ صاحبها أشهر من أن يُجهَل، هو دعبل الخزاعي جزاه الله خيرا. قال: أنا دعبل! وأنشده من شعره، وشهد أهل القافلة أنّه هو، فصاح الرجل بأصحابه: مَن أخذ شيئاً

فليردّه كرامةً لشاعر المشرَّدين والمظلومين![1]

ففي هذا الخبر ما يدلّ علىٰ أن الظلم الجاري علىٰ المضطهَدين من أبناء عليّ، وعلىٰ سائر الناس واحدٌ في شعور العامّة، وعلىٰ أنّ سخطهم وموالاتهم إنّما هما سخطٌ علىٰ ظالم وموالاةٌ لمظلوم.

أضف إلىٰ ذلك أمراً ذا خطر في صَهْر التشيّع في التاريخ بمصهرةٍ إجتماعية خالصة، مصدره أبناء عليّ أنفسهم. فهؤلاء كانوا ينشأون في عاطفتين تغمر وجدانهم وتوجّه مسلكهم، ألا وهُما: الشعور بالوراثة الروحية لما خلّفه عليّ بن أبي طالب من معاني النبل الإنساني، ومن آثارٍ فكريّة تحترم الجماهير وترعاهم بالعدل والمساواة والمحبّة؛ والشعور بالظلم الواقع عليهم وعلىٰ الجماعات بغير استثناء. وتحت تأثير هذين الشعورين كانوا يفكّرون ويعملون. فإذا بهم يلتقون بالجماهير الساخطة على الظلم التقاء عفويّاً، هيّأتْه الظروف الخارجية وأعدّتْه للظهور. فإذا بأبناء عليّ يجدون لأنفسهم مكاناً في قلوب العامّة. وإذا بالعامّة تجد بالتشيع لهم ملجأ ضد الظلم، كما وجد آباؤهم المستضعفون موئلا في عليّ وملاذا.

وهذا ما يفسّر لنا درجات تعلّق العامّة بأبناء عليّ. فالذي كان منهم أقرب إلىٰ عقلية عليّ وإلىٰ نفسيّته، كان تعلّق الجماهير به أشدّ. والذي كان تصيبه من الاضطهاد أكثر، كان تعلّق الجماهير به أكثر. والذي لم يكن له من هؤلاء صفة عامّة إلىٰ جانب كونه من أبناء عليّ، لم يكن ليجد حوله من المؤيّدين أحداً. وإليك بعض المبادىء التي أعلنها جعفر الصادق فتشيّع له الناس بها، لأنها وصاحبها بمثابة حبل النجاة للجماهير الغارقة في ظلم الحكّام، وظلمة الفقر،

(١) كشف الغمة للإربلي: ج ٣ ص ٥٦ (بتصرف).

وجور الطبقات الوارثة حسباً ومالاً، والمضيقة من الثروة طريفاً إلىٰ تليد[١]:

« أصل الإنسان عقله. والناس في آدم مستوون. إنّ النفس لتَلْتاث[٢] علىٰ صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنّت! وقد بُني الإنسان على خصال، فمهما بُني عليه فإنّه لا يُبنىٰ علىٰ الخيانة والكذب!»[٣]

لمثل هذه المبادئ كانت الجماهير تتشيّع!

وإليك خبراً ممّا يؤيّد رأينا هذا تأييداً قاطعاً: جاء في مقاتل الطالبيّين لأبي الفرج الأصفهاني: «إن محمد بن إبراهيم بن إسماعيل ... بن عليّ بن أبي طالب كان يمشي ذات يومٍ في بعض طرق الكوفة، وبينا هو يمشي إذ نظر إلىٰ عجوز تتَتبّع قافلةً عليها أحمالٌ من التمر فتلتقط ما يسقط منها فتجمعه في كساء عليها رَثٍّ. فسألها عمّا تصنع بذلك، فقالت: إنني امرأةٌ لا رجل لي يقوم بمؤونتي ولي بنات لا يعُدْنَ على أنفسهنّ بشيء، فأنا أتتبّع هذا من الطريق أتقوَّتُه أنا ووُلْدي. فبكىٰ محمد بن إبراهيم بكاء شديداً وقال: «أنت، والله، وأشباهك تُخرجوني غداً حتّىٰ يُسفَك دمي!»[٤].

وخرج على الدولة العباسيّة، وسُفك دمُه!

ولمثل هذا الرجل كانت الجماهير المظلومة تتشيع!

والجانب الإجتماعي في التشيّع برز بصورةٍ لا تقبل جدلاً في فلسفات الفرَق التي أخذت منه ينابيعها الأُولىٰ. هذه الفرق التي جمعت في صفوفها

---

(١) طريف : جديد، تليد : قديم. لسان العرب: ٢١٤/٩، مادة «طرف».

(٢) تلتاث : تلتفّ، تقوىٰ على صاحبها، تغلب صاحبها. مجمع البحرين: ١٥١/٤، مادة «لوث».

(٣)كشف الغمة : ٢ /٣٧٥، الدر المنثور للسيوطي : ٣ /٢٩١ عن الحلية لأبي نعيم .

(٤) مقاتل الطالبيين : ٣٤٦.

الطبقات الفقيرة المقهورة من المجتمعات العربية، إلىٰ أنماطٍ مختلفة من المفكّرين الأحرار، الذين آذاهم ظلم الطبقات الحاكمة للشعب الذي يعمل ولا يأكل. وأخصّ بالذكر من هذه الفرق الإسماعيلية التي هزّت الدولة العباسيّة هزّاً عنيفاً، والتي تضمّت برنامجها مطالب إجتماعية أهمّها: المساواة بين الرجل والمرأة، وإبطال ملكية الأراضي وتوزيعها من جديد إلىٰ المحتاجين إليها مجّاناً، ومقاومة العصبيّة العنصرية، والعصبيّة الدينية، دفاعاً عن فكرة الإخاء الحقيقي بين جميع الناس علىٰ إختلاف أجناسهم وأديانهم، أي علىٰ الإخاء المبني علىٰ ضوء العقل وعلىٰ الصفة الإنسانية في الإنسان. وقد مهّدت الإسماعيلية بذلك إلىٰ روّاد الفكر العربي الحرّ لأن يظهروا ويجرأوا على فضح الفاسقين الجائرين من أصحاب السلطة، وعلىٰ أن يقولوا ما يرونه بشأن المعتقدات،كما هيّأوا الناس إلىٰ قبول هذه الآراء والإصغاء إليها.

كما أخصّ بالذكر أيضاً جمهورية القرامطة، المنبثة عن الإسماعيلية. فكما التفّت الطبقات المضطهدة في العصر العبّاسي حول الإسماعيلية؛ التفّتْ كذلك حول القرامطة الذين أخذوا البرنامج الإجتماعي الإسماعيلي، وزادوا عليه متّجهين اتّجاهاً أوسع وأسرع إلىٰ الإشتراكية(١). وممّا فعلته حكومة القرامطة حين استولت علىٰ البحرين في جزيرة العرب: أنّها ابتاعت ما تحتاج إليه من الأراضي ووزّعته علىٰ الفلاحين، وألغت جميع الضرائب التي على الأراضي، ثم ألغت الرسوم التي كانت تُضيّق على الزُرّاع والعمال، وجعلت مال الدولة في خدمة الناس، فإذا أصاب أحدهم فقرٌ أو وقع تحت دينٍ لا سبيل إلىٰ وفائه؛كانت الحكومة تسلفه ما يحتاج إليه إلىٰ أن يصلح حاله.

---

(١) نسبة القرامطة الىٰ الإشتراكية فيه تسامح كبير !!

وعندما كان الغريب يدخل بلادهم وهو يعرف حرفةً ما، كانت الحكومة القرمطية تقدّم له ـ إذا أراد ـ مبلغاً كافياً من المال ينفقه علىٰ ابتياع أدوات حرفته، ويبقىٰ تحت تصرّفه إلىٰ أن يجمع مبلغاً يكفيه ويكفي أُسرته، فإنْ هو اشتغل وكسب ردّ ما إستلفه إلىٰ الحكومة.

وكان في بلادهم طواحين تطحن القمح للناس مجّاناً. وكانت الحكومة، بصورة عامة، مسؤولة عن رفع كلّ أذى عن الناس. ولكي تتمكن من القيام بهذه المسؤولية جعلت التجارة، ولا سيّما الخارجية في يدها؛ لتنفق أرباحها علىٰ الأعمال العمومية وتحسين أحوال المزارعين والعمّال[١].

وبعض العقائد الدينية الخاصة بالشيعة، وبالفرق المتشعّبة منها كالإسماعيلية والقرامطة، متأثّر إلىٰ حدٍّ بعيد بالمظالم التي عرفوها وعرفها الناس جميعاً في التاريخ، ثم بموقفهم من هذه المظالم. مثال ذلك: أنّ فكرة الإمام المنتظَر، بأسمائه المختلفة باختلاف هذه الفرق وفروعها، إنّما هي فكرة خلقَها تحشُّر الناس على العدل والمساواة، وما حلموا به من مجيء يومٍ قريب يعمّ فيه الرخاء؛ فلا يجور بعضُ الخلق فيه علىٰ بعض، ولا تُتْخَم فئةٌ علىٰ حساب فئة. ومن ثمّ كان هذا الإلحاح على خاصّةٍ أساسية يتميّز بها الإمام المنتظر صاحب اليوم المرجّو، وهي أنّه ما يكاد يظهر حتّىٰ يُقضي علىٰ الفساد والرشوة وتعذيب الحاكم للمحكوم والظلم بألوانه جميعاً؛ لِتسود العدالة والمساواة والصفاء بين البشر أجمعين.

إنّ الناظر في الأسباب البعيدة في أحداث التاريخ وأحوال الشعوب وحركات الناس، لابدّ له من الإعتراف، بأنّ العوامل الإقتصادية المتعلّقة

---

(١) باختصار وتصرّف عن كتاب «من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام» لبندلي جوزي، عن كتاب سفرنامه للكاتب الفارسي ناصر خسرو.

بالمعاش، والإجتماعية المتعلّقة بروابط الناس بعضهم ببعض، إنّماكانت ذات أثرٍ أساسي في خلق العقائد والمذاهب، وفي توجيه الفلسفات جميعاً. وقد ظهر أثر هذه العوامل في سياسة الدولتين الأُموية والعباسيّة، وفي إلتزام أصحابهما «سياسةً دينية» معيّنة،كما ظهر في سياسة المتشيّعين لعليّ بن أبي طالب، وفي ما اعتقدوه لأنفسهم. أمّا سياسة أُولئك فكانت ـ كما رأينا ـ تخدم الطبقات الحاكمة اقتصاديّاً واجتماعيّاً. وأمّا سياسة هؤلاء فكانت تخدم الطبقات المحكومة.

ورُبّ باحثٍ ـ كأحمد أمين مثلاً ـ يرىٰ أنّ الناس في المجتمع العربي لم يكونوا لينظروا في الدين إلّا إلىٰ جانبه الروحي فقط، وأنّ هذه النظرة الروحية الخالصة ـ في زعمه ـ هي التي حدّدتِ العقائد وأكّدت الجهاد وسيّرت أحوال الناس، وفي هذا نقول:

أوضحنا فيما سبق أنّ الإسلام، كسائر الأديان، ثمرة[1] طبيعية جغرافية واقتصادية واجتماعية معيّنة. وأنّ الجانب الإجتماعي فيه، وهو ثورةٌ علىٰ تجّار زمانه وطبقيّة ناسه، إنّما هو الذي حدّدَ خصومَه وأنصاره، لا الجانب الروحي الخالص، إذ أنّه ليس هنالك من جانبٍ روحيّ غير متأثّر بجملة الأوضاع الماديّة. فلقدكانت نقطة الإنطلاق عند النبيّ الكريم مسألةً اقتصادية واجتماعية في الدرجة الأُولىٰ، ممّا جعل الطبقات المضطهَدة والفقيرة تؤيّده بغيرِ تحفّظ، والطبقات المنتفعة بالأوضاع القديمة والثريّة تحاربه بغيرِ تحفّظٍ كذلك. وأوضحنا أيضاً أنّ نشأة النبيّ في محيطٍ فقير من الناحية المادّية، وملاحظته الدقيقة العميقة لأسباب الفقر في بيت أبيه وعمّه أبي طالب،

(١) الإسلام دين الله الذي أخذ بنظر الإعتبار الطبقية الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ... وليس ثمرة لهذه الطبائع .

ولأسباب الغنى في بيت عمّيه العباس وأبي لهب، دفَعتاه فيما بعد لأن يبدأ عمله الاصلاحي الكبير بمحاربة أسباب التفاوتُ الماديّ بين أبناء المجتمع الواحد، بل العائلة الواحدة. ثم بيّنّا بما لا يقبل الجدل أنّ إقبال العرب علىٰ دعوة النبيّ الكريم إنّما يتعلّق، **أوّلاً**: بما رأوا لديه من عبقريةٍ فهمت حقيقةَ أوضاعهم الماديّة، وسَعتْ في اصلاحها بما يرفع الغبن والحيف عن الطبقات الشعبية الفقيرة **ثانياً**.

وأوضحنا كذلك أنّ الأديان القديمة كلّها، كاليهودية والمسيحية والبوذية، إنّما كانت رسالات محدودة بأزمنة وأمكنة معينّة، وأنّ عبقريّتها توجز بأنّها رسالات اقتصادية واجتماعية مغلّفة بأشكالٍ روحية. وعلى هذا، لا يمكنك إدراك الحقائق العميقة في كلّ دين إن لم تعرف حقيقة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المحيط الذي نشأ فيه هذا الدين وصاحبه. ومن هنا كان أنصار أصحاب الرسالات في عهودها الأُولىٰ من الطبقات المضطهَدة. ومن هنا أيضاً كان أصحاب هذه الرسالات ثائرين علىٰ أسباب التفرقة بين الناس؛ وهي في جملتها أسبابٌ اقتصادية واجتماعية أيّةً كانت وسائلها وأعذارها وفلسفاتها. وقد تبيّن مَعَنا بصورةٍ خاصّة أنّ عبقرية محمّد إنّما ركّزت الإصلاح على أساسٍ من إلغاء ما يسمح الطورُ التاريخي بإلغائه من أسباب الطبقيّة الماديّة. وكذلك عبقريّة المصلحين من خلفائه.

واستقرّ الإسلام في البلاد العربية. وراحت كلّ طبقة أو فئة من الناس تفسّره، أو تفسّر بعض ما فيه، بما يتّفق ومصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أو يتّفق وما تنزع إليه إنطلاقاً من وضعها الذي هي فيه. فأصبح الإسلام في نظر معاوية مثلاً يعني التخلّص من عليّ. وفي نظر أبي ذرّ الغفاري رفع الفقر والحاجة عن كواهل الجماعات وإيقاف موجة الفساد والطغيان.

وأصبح الإذعان لأوامر الإسلام ونواهيه في نظر وُلاة بني أُميّة يعني: تأليفَ الجيوش في خدمة البيت الأُمويّ ومَن والاه وعمل له، وتقتيلَ مَن لا يرون حقّه في الخلافة، ثم جمع أكبر كمية ممكنة من مال الخراج والجزية وسائر الضرائب، بأعنف الوسائل على ما رأينا، ممّا اضطرّ عمر بن عبدالعزيز أن يقول لعمّال أميّة: «إن الله بعث محمداً هادياً لا جابياً!».

وعلىٰ هذا الأساس كانت وظيفة الله في نظر عبيدالله بن زياد هي مساعدته ومساعدة بني أميّة في قتل الحسين بن عليّ وصغاره ونسائه، فإذا «ساعده» الله في ذلك وقف في المسجد وشكره، قائلاً: «الحمد لله الذي أظهر الحقَّ ونصرَ أميرَ المؤمنين وحزبَه وقتل الكذّاب بن الكذّاب وشيعتَه!»(١). كانت وظيفة الله في نظر مسلم بن عقبة هي أن يبيح له نهبَ المدينة وإستعراض أهلها بالسيف علىٰ صورةٍ مروّعة، حتّىٰ إذا بلغ عدد القتلىٰ علىٰ يديه في الأيّام الثلاثة اثني عشر ألفاً من الرجال، وبلغ ضعفَ هذا العدد من النساء والأطفال، وقف يقول مطمئنَّ البال: «الحمد لله الذي شفى صدري بقتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم!»(٢).

وجاء العصر العبّاسي فأصبح خير الإسلام في نظر أبي العبّاس السفاح وأبي مسلم الخراساني أن يباد بنو اُميّة، ثم أن تُقتل الشيعة، ثم أن تستقرّ الأُمور لوُلْدْ ابن عبّاس وأن تصبح البلاد العربية بستاناً لهم، كما كانت بستاناً لبني اُميّة. وجُعلت وظيفة الله أن يرعىٰ الإسلام في وجهه العبّاسي هذا!

وهكذا راحت كلّ فئةٍ من الخلق تفسّر الدين ووظيفة الله بما يتّفق ومصالحها، أو بما يلائم الحال الذي هي فيه، أو بما يوجب تغييره وتبديله.

---

(١) الإرشاد للمفيد: ج ٢ ص ١١٧ تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٣٥١.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١ ص ٢٤٠.

ولم تشذّ عن هذه القاعدة في تفسير الدين بالمصلحة والهوى، حتّىٰ طائفة السكارى المدمنين. فهذا أبو نواس زعيم الطائفة المذكورة ولسانها، يفسّر الآية القرآنية القائلة: ﴿**لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**﴾ تفسيراً يوافقه ويُزيح من أمامه العراقيل، زاعماً أنّ المعنىٰ المقصود هو هذا: إذا كنتم في حالة سُكر فإيّاكم أن تصلّوا! وإستناداً إلىٰ هذا التفسير الطريف كان أبو نواس يدعو أصحابه إلىٰ معاجلة وقت الصلاة بالسكر حتى إذا حان وقتُها منعَهم سُكرُهم من المبادرة إليها. يقول:

إذا ما دنا وقتُ الصلاة رأيتهم يحثّونا[1]، حتّى تفوتَهُمُ سُكراً[2].

وعلىٰ هذا النحو راح يفسّر الآيات التي تمنعه من أن يمجن ويسكر. فإذا اعترضه معترض يلومه على «خطاياه» راح يستشهد بوسيع رحمة الله، لأنّ الله رحيم غفور:

تكثّرْ ما استطعتَ من الخطايا فإنّك بالغٌ ربّاً غفورا[3]

فإن زاده اللائم لوماً، زاده من منطقه قائلاً:

خُلِقَ الغفرانُ إلّا لامرئ في الناس خاطي[4]

وظلّت نظرةالأفراد والجماعات للدين متّصلةً اتّصالاً وثيقاً بأحوالها المادّيّة، ومنافعها الخاصّة، وأحوالها التي هي فيها، وهي ما تزال كذلك حتّى يومنا هذا، وكثيراً ماكان تذرُّع الطبقات الحاكمة بالدين في إغتصاب العامّة، حافزاً لهؤلاء لأن يعادوا الدين ويثوروا عليه؛ لأنّه في حالته هذه يخدم طبقةً معيّنة خدمةً سياسيةً واقتصادية واجتماعية، ولا يخدم العامّة. ولأنّه في حالته

---

(١) يحثّونها : حثّه حثّاً ، أعجله إعجالاً متصلاً. لسان العرب: ١٢٩/٢، مادة «حثث».

(٢) الإرشاد للمفيد : ج ٢ ص ١١٧ تاريخ الطبري : ج ٤ ص ٣٥١ .

(٣) ديوان أبو نؤاس : ص ٨٤ (طبقة دار صعب).

(٤) تاريخ مدينة دمشق : ج ١٣ ص ٦٢ والأبيات في ديوان أبي نؤاس (باب الزهد).

هذه يصبح ديناً تظاميّاً يعمل عملاً مادّياً خالصاً لمصلحة الهيئة المتذرّعة به. وفي هذا ما يدلّنا على العلاقة الكائنة بين الأوضاع المادية والدين في واقع الناس: فأُولئك يريدونه أن يساعدهم في حكم الجماهير، وهؤلاء يريدونه أن يخلّصهم من طغيان حكّامهم .

وفي الأدب العربي القديم آثارٌ تلقي نوراً ساطعاً على أثر الجانب الاقتصادي الاجتماعي في تقريب العامّة من الدين، أو في إيقافهم منه موقفاً سلبياً. فهذا أحمد بن محمد الإفريقي المعروف بالمتيّم يعترف بأنّه لا يريد أن يصلّي لله لأنّه إن صلّى وهو جوعان كان منافقاً، وهو ليس بمنافق. فليصلِّ له مَن يملكون القصور والخيل والحلى والأرض! أمّا هو فيقول:

فـوَالله لا صلّيتُ لله مُـفْلِساً يـصلّي له الشيخُ الجليل وفائقُ
لماذا أُصلّي؟ أين مالي ومنزلي؟ وأين خيولي والحلّى والمناطقُ
أُصلّي ولا فترٌ من الأرض يحتوي عليه يميني؟ إنّني لَمُنافقُ!

وفي هذا الأدب أيضاً آثار تدلّنا علىٰ أنّ علاقة فئاتٍ من الناس بالله ظلّت علاقاتٍ ماديّة خالصة، لا تحتوي أيّ معنى خارج عن المصلحة الاقتصادية، ولا تنطوي علىٰ أيّ اهتمام بالاعتبارات اللاهوتية. ومن هذه الفئةِ الأعرابُ الذين لم يكونوا ليروا في الله إلّا باعثاً للغيث ساقياً للأرض واقياً من الجدب. أمّا إذا أجدبت الأرض وجاعوا فإنّ واحدهم يخاطبه بهذه الصلاة الطريفة التي نقَلَها إلينا المبرّدُ في كتابه الكامل:

ربَّ العباد، ما لَنا وما لكا؟ قد كنتَ تسقينا، فما بدا لكا؟
أنزِلْ علينا الغيثَ لا أبَا لكا؟(١)

وعلى كلّ ما تقدّم، فإنّ الجانب الاقتصادي والجانب الاجتماعي يعملان

(١) الكامل للمبرّد ، شرح المرصفي : ج ٧ ص ١٤٥ ، شرح نهج البلاغة : ج ١ ص ١٨٣ .

في تكوين الدين عملاً كثيرا، ويعملان في حمل الناس على الإقبال عليه أو النفور منه، ويعملان كذلك في تفسيره على هذا الوجه أو ذاك. وفي هذا الواقع ما يوضّح لنا الأسباب التي حملت الأكثرية الساحقة من الناس، في المجتمعات العربية القديمة على التشيّع، أو على مسايرة الشيعة. فإنّ المظالم الاجتماعية الصارخة في العصرين الأُموي والعبّاسي، والأحوال السياسية التي كانت تزداد على كرّ الزمان سوءاً، وألوان الحرمان التي غاصت فيها الجماهير، ودأب الحكومات المتعاقبة على إفقار البلاد، أُمورٌ حملت المعارضين من الشيعة على أن يفسّروا الدين تفسيراً يخالف مصالح الطغاة ويلائم الشعب، فإذا المضطهَدون من العرب والموالي والمسلمين وأهل الذمّة؛ يسيرون وراء زعماء الشيعة من أبناء عليّ في انتظار الفرج القريب.

وعلىٰ هذا أيضاً، كان الشيعة في تلك العصور أصحاب مذهبٍ ثوريّ، يفسح في المجال أمام المجتهدين للانتقال به من حالٍ إلىٰ حال، ويأبى الانكماش والجمود. وانسجمت ثوريّة هذا المذهب مع أمانيّ المستضعَفين والمضطهَدين، ومع تعاليم عليّ بن أبي طالب والصورة التي احتفظ بها الناس لشخصيّته الديموقراطية الاشتراكية الفذّة، فإذا بعليّ عنوان كفاح هؤلاء المستضعَفين.

لقد تشيّع الناس لعليّ في زمانه لأسباب تُبطِّن معاني اجتماعية عميقة الجذور في حياة الأفراد والجماعات؛ وإن غُلّفت هذه المعاني بمظاهر دينية في أغلب الأحيان. وتشيّعوا له في العصور التالية لهذه الأسباب نفسها. فإنْ أنت أحصيتَ الثائرين على المظالم في العهد الأُموي والعبّاسي في الحجاز والعراق والشام وفارس وإفريقيا وغيرها؛ ألفَيتَ عليّاً إمامَهم، وألفيتَ نظرتَه الاجتماعية هي النقطة المشتركة التي يلتقي عندها الثائرون باسمه على الفساد

والطغيان. وإن أنت أحصيت غايات هذه الثورات، التي زلزلت الشرق قروناً طوالاً وقضَّت مضاجعَ الطغاة؛ ألفَيتَها الغايات الاجتماعية التي من أجلها كافح عليٌّ وإليها دعا وفي سبيلها استشهد. وهكذا التقى في حبّ عليّ بعصور الاضطهاد هذه: المسلم والمسيحيّ والعربيّ والمولى، وكلّ مَن هالَه أن يرى رزقه منهوباً وحقّه مغصوباً وعمره مسلوباً، في مجتمعٍ يتكدّس فيه التخنّث في قصور الطبقات الحاكمة المهترّئة، كما يتكدّس الجياع والعراة في الأزقّة والقفار!

أجل، لقد أصبح اسم عليّ في التاريخ العربي مبعثَ أملٍ لكلّ مغصوب، وصيحةً تتردّد على لسان كلّ مظلوم، وحصناً يفزع إليه كلّ مَن ضيّقتْ عليه الحياة. فما مِن طالبِ إنصافٍ في هذا التاريخ إلّا اسمُ عليّ مَلاذُه. وما من غاضبٍ علىٰ ظالمٍ إلّا واسمُ عليّ درعُه. وما من ساخطٍ على رشوةٍ أو فسادٍ أو جورٍ إلّا وله من عليّ وتراثِهِ حافزٌ على الثورة. فإذا اسمه يصبح مرادفاً للاصلاح الذي يريده الناس في موطن الفساد، وللخير الذي يتوقون إليه في معقل البغي. وإذا بالتشيّع له موئلٌ يلوذ به كلّ مضطهَد ومحروم، وينضوي تحت لوائه كلّ ثائرٍ في سبيل الحقّ المهدور، لا ملجأ لكلّ مَن أراد هدم العروبة والإسلام، كما يزعم أحمد أمين!

وإنّي لأعجب من هؤلاء الذين يخشون على العروبة والدين كلَّ جديدٍ وكلّ فكرةٍ تسير مع الزمان، فيؤثرون الدين والقومية في خدمة طبقةٍ حاكمة، تركن إلىٰ الجمود، وتريد لمنفعتها تجميدَ حركة الحياة، وتسميرَ الشمس والقمر في مكانهما من قبّة السماء، لقد شاء معظم الحكّام في التاريخ أن يكون الدين نظاميّاً؛ يخدم قصر الملك وأتباعه من أهل الفجور والوقاحة، وشاءه الثائرون فكرةً متطوّرة تخدم الجماهير بمقدار ما يمكن للدين أن يخدم

الجمهور في تلك العصور. فأيّ المشيئتين هي الاصلح في نطاق الدين ذاته؟

وشاء أُولئك الحكّام أن تكون العروبة مجموعةً من النخّاسين والأرقّاء، وشاءها الثائرون مجتمعاً تسوده العدالة، ويستوي فيه الناس جميعاً لا عصبيّة تفرّقهم ولا طبقيّة تباعد ما بينهم، فأيّ المشيئتين هي الأشرف في نطاق القومية السليمة؟

لقد تاجر المتاجرون بالعنصرية، فأغنوا أنفسهم وأفقروا شعوبهم وأساؤوا إلىٰ كلّ نافعٍ وجميل. وعرف التاريخ في الشرق والغرب كثيراً من الحكّام المنافقين، الذين جعلوا همّهم تحصيلَ حقّ الله القويّ من الإنسان الضعيف، فراحوا يفتكون بالأحرار والخيّرين، وحجّتهم أنّهم يدافعون عن الدين. فما بال كتّابنا في القرن العشرين قد نزعوا من رؤوسهم نورَ هذا العصر ليحشوها بظُلُمات التاريخ؛ عوضاً عن استخدام هذا النور في الكشف عن الحقيقة والواقع والإفادة من الماضي ومآسيه؟

ماكان مليون أبي جعفر المنصور ليخدم المجتمع العربيّ كابن المقفّع، ولن يكون! فما بالُ كتّابنا إذاً يُزَندِقون هذا العبقريّ ويرضون عن مصيره من أجل طغمةٍ من السفّاحين، يلوكون الناسَ بأشداقهم ثم يدّعون خدمتَهم وينافقون؟

وماكان مليون جامدٍ على صخرةٍ من عرشٍ، أو ذهبٍ، أو عقيدةٍ، أو سلطان لينفَع المجتمع العربيّ كثائرٍ واحدٍ يمشي مع الحياة، ولن يكون! بل إنّ أولئك هم الأذىٰ والفساد، وهذا هو الخير والعافية! فما بالهم إذاً يحسّنون الجمود وهو صورةٌ عن الموت، وينفرون من الحركة وهي صورة الحياة؟

لقد أساء طغاة القديم إلىٰ القومية العربية كلَّ ما يمكن للجور والفساد والقبح أن يسيئوا. وأحسنتْ إليها الشعوب العربية على اختلاف أُصولها

البعيدة ومذاهبها كلَّ ما يمكن للعمل والخير والطيبة أن يحسنوا.

وكان من الشعوب العربية ثائرون جمحتْ بهم الثورة حتّى دكّتْ عروشاً للطغيان، وزلزلتْ صروحاً للنفاق وعملت ما يمكنها أن تعمل في تلك العصور.

وكانت ثورةً مستمرّةً على الظلم، لذلك فقد كانت في خدمة القومية العربية.

وكان اسم عليّ بن أبي طالبٍ هو العَلَم الذي التفَّ حوله الثائرون. وكان دستورُ عليّ أبداً مع الثائرين.

أدَبُ التمرّد

ـ يا مُوقداً ناراً لغيرك ضوؤها
يا حاطباً في حبلِ غيرك تحطبُ
ـ أرعد وأبرق يا يزيدُ
فما رعيدك لي بضائر

الكُمَيت

ـ خليفةٌ مات لم يحزن له أحدٌ
وآخرٌ قام لم يفرَح به أحدُ

دِعْبِل

ـ أرىٰ الأيامَ تفعلُ كلّ نُكرٍ
فما أنا في العجائب مستزيدُ
ـ أليس قُرَيشُكم قتلتْ حسيناً
وكان على خلافتكم يزيدُ

المعرّي

ـ صلّى وصام لأمرٍ كان يطلُبُه
حتّىٰ حواه، فلا صلّىٰ ولا صاما

دخل عليّ في الأدب العربي من أبوابٍ كثيرة، فأغنىٰ هذا الأدبَ من حيث دخل، وأصبح مادّةً من مادّته، وروحاً من روحه. ومَدَّ بالنّفَس الثوريّ تراثاً هو من أجمل مميّزات الشخصية العربية الإنسانية، ومن أجلّ أركان القومية العربية.

أمّا **الباب الأوّل**: الذي صعد منه عليّ إلىٰ القمّة فاستوىٰ عليها سيّداً جليلا؛

فنتاجه الأدبي الذي تحدّثنا عنه بما ملأ المئات من صفحات هذا الكتاب، فلا حاجة بنا للعودة إليه. أمّا إذا شئتَ التخصيص فارجعْ إلىٰ باب «بلاغة الإمام في خدمة الإنسان».

وأمّا الأبواب الأُخرىٰ التي دخل عليّ منها في الأدب العربي فأغناه، فأوسعُها تلك القوىٰ الثورية الزاخرة الهائلة التي مدَّ بها الروحَ العربية علىٰ مدىٰ التاريخ. فإذا بأدب الثورة علىٰ الفساد والظلم والنفاق، شعراً كان هذا الأدب أم نثراً، يلتفتُ إلىٰ عليّ، ويناديه، ويدعو باسمه، ويستلهم تمرّدَه وثورتَه في معظم ما يهوي به علىٰ رقاب الظالمين من سياط الروح. فكما كان ابن أبي طالب صيْحةً ينادي بها الثائرون علىٰ المظالم، كان كذلك صيحةً في شعر هؤلاء الثائرين. وكما كان علَماً يلتفّ به الساخطون علىٰ الاستغلال كان كذلك في أدبهم.

والذي يفهم حقيقة الأوضاع العامّة في العصور العربية القديمة، ونوع الحكم فيها وعلاقة الحاكم بالمحكوم؛ يدرك من فوره أنّه يستحيل علىٰ أدب الثورة والتمرّد، في تلك العصور أن ينبع وأن يجري وأن يصبّ إلّا في إطارٍ من التشيّع. أمّا المتكلّون على نعمة السلطان، فلا أثر في أدبهم للتمرّد علىٰ الطغيان إلّا ما بَضّ منه قليلا.

وعلىٰ هذا يمكننا القول بأنّ أدب التمرّد والثورة عند العرب إنّما هو أدب شيعي، وذلك لتشيُّع المتمرّدين الثائرين لعليّ تشيّعاً أشبه بمذهبٍ ثوريّ؛ لا ينام علىٰ ظلمٍ ولا يرضىٰ بهوان. ثم لما نهلَهُ المتشيّعون من الخلق العلوي، والوجدان العلوي والفهم العلوي فضمّنوه شعرَهم علىٰ الأخصّ. ثم لأنّ الظروف والعوامل التي خلقتْ أدب الثورة في تلك العصور إنّما كانت هي نفسها كفيلة بأن تجعل من صاحب هذا الأدب شيعيّاً أو متشيّعاً، لتعلّقها بالعقل

والقلب والحسّ الإجتماعي في وقتٍ معاً.

أمّا العقل فقد دلّ ذويه علىٰ الإثم الذي يغوص به الإستبداد، وعلىٰ الأسباب التي دفعت الحكّام إلىٰ الاستئثار وإلىٰ توزيع الخير والشرّ علىٰ مَن يحبّون ويكرهون، ثمّ إلىٰ تقسيم الحياة والموت علىٰ مَن يوالون ويعارضون. كما دلّهم العقل علىٰ مكان الظلم الصارخ في إنفاق الحكّام مالَ الشعب إنفاقاً مبذّراً عقيما، وفي تجويع العامّة وإذلالهم وإضطهادهم وحصْرهم في جحيمٍ من الفقر المريع والبؤس الفظيع، ثمّ في تقسيم المجتمع العربي بحُكم هذه السياسة طبقتين تتفاوتان في كلّ حقّ: طبقة الحكّام ومَن يواليهم ويصانعهم ويستميت في مداهنتهم ومداراتهم، وهم الأقليّة على كلّ حال. وطبقة الشعب المحروم، وكان بأعماقه معارضاً ناقماً حزيناً كئيباً في وقتٍ واحد. وكان في طليعته معارَضةً ونقمةً وكآبةً وحزناً شيعةُ عليّ وأنصارُ بنيه؛ لأنّهم كانوا في طليعة مَن أُوذوا وشُرِّدوا وفُصلوا عن الحياة بالسيف أو بالجوع. وزادهم غضباً وتوجّعاً أن يقابلوا بين هذه الحياة البائسة الشقيّة التي يحياها أبناء عليّ وغيرهم من المفكّرين والأحرار، وبين الحياة البطِرة الجشعة التي يحياها المهرّجون والمنافقون والمستأسدون في الجور والأثرة والاستغلاء.

أمّا القلب فمن طبعه ومعنىٰ وجوده أن يحزن للأحرار المضطهَدين وللشعب المظلوم وللكرامات المهدورة والدماء المسفوكة، وأن يغضب ويثور.

هذا الواقع الذي دلّ عليه العقل وتوجّع له القلب وثار كان كفيلاً بأن يخلق الأُدباء الشيعيين أو المتشيّعين. ولا يعني التشيّع في هذا المقام إلّا الانتصار للمعاني الإنسانية، والسخط علىٰ ما تعانيه من إضطهادٍ وتنكيلٍ من قِبَل حكّام طغاة. وقد حمل هذا الواقعُ حتّىٰ أحمد أمين الذي عُرف بتحامله

علىٰ الحركات الفكرية الثورية في التاريخ العربي، وبتفسيرها تفسيراً لاهوتياً، لا يعني في حقيقته شيئاً كثيراً، علىٰ أن يعترف بهذه الحقيقة فيقول: «في الحقّ إنّ حركة التشيع أغنت الأدب العربي إلىٰ حدّ كبير. وكان الأدب الناتج عنها أدباً غزيراً قويّاً؛ وسبب ذلك أنّ الموقف الذي وقفه الشيعة من طبيعته أن يلهب العاطفة ويهيجها ويثيرها، والعاطفة أكبر دعامةٍ من دعائم الأدب، فإذا أُثيرت وهاجت وكان بجانبها لسان طلق وبيان ناصع؛ فهناك الأدب الحيّ والقول الساحر.

وكان للشيعة عاطفتان بارزتان قويّتان، يرجع إليهما النتاج الأدبي الشيعي: عاطفة الغضب وعاطفة الحزن. فأمّا الغضب فإنّهم اعتقدوا أنّهم سُلبوا حقّهم وغُصبوه، وأُخذ منهم ظلماً وعدواناً، فغضبوا لذلك، ودعتْهم سَورةُ الغضب أن يقولوا وأن يقولوا كثيراً في هجاء غاصبهم، وفي بيان حقّهم، وفي شرح مظلمتهم، وفي وجهة نظرهم، وفي إظهار حججهم، إلىٰ غير ذلك. وأمّا عاطفة الحزن، فإنّ الدولتين العباسيّة والأُموية أخذتاهم بالعنف، فمن حينٍ إلىٰ حين تُحدثان فيهم مجزرة، ولا يكان يجفّ منهم دم حتّىٰ يسيل دم، وتفنّنتا في ذلك، فقتلٌ وصلب، وإحراق وتذرية، وإماتة بطيئة في السجون بحرمانهم من النور والهواء، والأكل والماء، وكلّ هذا وأقلّ منه يستنزف الدمع ويذيب القلب، وكلّ هذا وأقلّ منه يُنطق الأبكم؛ فكيف إذا وقعت هذه الأحداث لنفسٍ ثائرة ولسانٍ طلق وبيانٍ جزل؟ لقد بدأت هذه الأحداث بمجزرة الحسين وآل بيته، فكانت القصائد الباكية، والخطب الرائعة، والأقوال الدامية، صدىٰ للدماء المسفوحة، والجثث المطروحة، وكانت ذكراها تبعث في كلّ جيلٍ حزناً، فيبعث الحزن أدباً. وتتابعت الأحداث فتتابع الأدب، فكان لنا من هاتين العاطفتين ـ الغضب والحزن ـ أدب حيّ غزير، فإن ثارت العاطفة

الأُولى أخرجت أدباً ثائراً. وإن ثارت الثانية أخرجت أدباً حزيناً باكياً. فاجتمع في أدبهم القوّة والضعف، واللين والعنف»[١].

أمّا الغضب، فقد بعث أدب التمرّد على الظلم. وأمّا الحزن، فقد بعث أدب الوفاء الإنساني.

يتلخّص أدب التمرّد هذا بإنكار الحقّ الذي يدّعيه الأُمويّون والعباسيّون في الخلافة وفي التحكّم بمصير الناس، وبالإحتجاج عليهم وتصوير ما يأتونه من مظالم، ثم بدعوة الشعب إلىٰ التمرّد علىٰ مضطهدي الجماهير، ومحتكري أسباب السلطان، وأسباب الثروة، وأسباب الحياة دون سائر البشر، وهو في العصور التالية يتلخّص كذلك بالثورة علىٰ الظلم، وبالنقمة علىٰ الغبن الإجتماعي أيّاً كان مصدره. وإليك تفاصيل هذه الثورة وهذه النقمة بأشكالهما جميعاً:

يثور الأدب الشيعي علىٰ الخلفاء الذين لا فرق عندهم بين البشر والسائمة، ويسمّيهم لا خائفاً ولا متهيّباً وهو في دولتهم وتحت سلطانهم، فيقول علىٰ لسان الكُمَيْت بن زيد الأسدي، في سياسة عليّ وأبنائه بموضع المقابلة مع سياسة الأُمويين:

ساسةٌ، لا كمن يرىٰ رِعْيَةَ   الناس سواءً ورِعْيَةَ الأنعامِ

لا كعبد المليك، أو كوليدٍ   أو سليمانَ بعْد ، أو كهشامِ[٢]

ويقول الكميت في هشام وبني مروان الذين يخاطبون الناس علىٰ المنابر بالعدل، وينزلون عنها فيعملون بالجور:

مصيبٌ على الأعواد يومَ ركوبها   بما قال فيها مخطئٌ حين ينزلُ:

(١) ضحىٰ الإسلام لأحمد أمين : ج ٣ ص ٣٠٠.

(٢) الهاشميات والعلويات : ص ١٤

كـلام النـبيّين الهُـداة كـلامُنا، وأفـعال أهـل الجـاهلية نـفعلُ[١]

ويـزداد عـنفاً سـاعةَ يـرىٰ إلىٰ الأحـرار وهـم طـرداء مشـرَّدون، وإلىٰ المتملّقين وهم في نـعيم الشـعب راتـعون، فـيخاطب الأُمـويين بـهذا القـول الجريء:

فقل لبـني أُمـيّة حيث كـانوا وإن خفتَ المـهنّد والقـطيعا

أجـاع اللهُ مَـن أشـبعتموه، وأشبعَ مَن بجورِكُمُ أُجيعا[٢]

ويمعن الأُمويّون في اضطهاد هذا الشاعر الثـائر، فـيسجنونه ويـعذّبونه وينكّلون به، فما يبادرهم إلّا بمثل هذا القول:

مـا أُبـالي ، ولن أُبـاليَ فـيهم أبـداً ، رغْـمَ سـاخطينَ رَغَـامِ

إن أمُتْ لا أمُتْ ونفسيَ نفسانِ من الشكّ فـي عـمىً أو تـعامي

وهدّده الأُمويّون بالقتل، ورعدَوا وأبرقوا، فقال:

أرعـــدْ وأبـــرقْ يـا يــز يدُ ، فما وعيدُكَ لي بضائر[٣]

وظل الكميت يحارب الأُمويين بالشعر وبالسيف حتّى قتل. ولم يتهيّب المتمرّدون من شعراء الشيعة أن يتوجّهوا إلىٰ الأُمويين بلهجة العنف لإغفالهم شؤون الناس، وانصرافهم إلىٰ أنفسهم وحدها. فهذا همام بـن عـبدالله، يـرى إهمال الحكومة الناس في عهد يزيد؛ فيبعث إليه بقصيدةٍ يقول فيها هذا القول اللامبالي:

خشينا الغيظَ حتّى لو شربنا دمـاءَ بـني أُمـيّةَ مـا رويـنا

---

(١) الهاشميات والعلويات : ص ٦١، شرح ابن عقيل : ج ١ ص ٢٣٤.

(٢) الهاشميات والعلويات : ص ٨٠، لسان العرب : ج ٨ ص ٦١.

(٣) رسالة في معنىٰ المولىٰ للمفيد : ص ٣٢، كتاب العين للفراهيدي : ج ٢ ص ٣٤، لسان العرب : ج٣ ص ١٨٠.

لقد ضاعت رعيّتُكم وأنتم تَصيدون الأرانبَ غافلينا

وهذا عبد المحسن الصوري يتّهم ملوك بني أُميّة باغتصاب أموال الناس لإنفاقها في غاياتٍ منافقة، فيقول لهم وهو تحت أعينهم:

نَفَرٌ من أُميّةٍ نَفَرَ الإسـ ـلامُ من بينهم نفورَ إباقِ
أنفقوا في النفاق ما غصبوه ، فاستقام النفاق في الإنفاقِ(١)

ومن جرأة شعراء الشيعة علىٰ ملوك بني أُمية، قول الفرزدق في هشام بن عبدالملك:

يقلّب رأساً لم يكن رأسَ سيّدٍ وعينٌ له حولاءُ بادٍ عيوبُها(٢)

وساعدتهم حالهم علىٰ التبصّر في أخلاق النافذين، الذين يتوسّلون إلىٰ مآربهم بكلّ وسيلة ممكنة،كما ساعدَهم تمرّدُهم علىٰ الجهر بما يرون ويلحظون، فإذا بهم يحذّرون الناس من صوم النافذين ومن صلاتهم، فيقول بعضهم في عبدالله بن الزبير الطامح إلىٰ الخلافة:

صلّى وصام لأمرٍ كان يطلبه ، حتّى حواه ، فلا صلّى ولا صاما(٣)

وجاء العصر العبّاسي فإذا بأدب التمرّد عند هؤلاء الثائرين على المظالم يزداد قوّةً وعنفاً؛ فلا يهادن ولا يلين. فهذا القاضي التنوخي عليّ بن محمد قاضي البصرة ثم قاضي الأهواز يُسأل رأيه في خلفاء بغداد، فيقول: إنّهم لاهون عابثون غادرون لا همّ لهم إلّا أنفسهم دون عامّة الناس، ثم ينشدهم قصيدةً له فيهم يقول بها في خليفةِ زمانه:

نَشَا بين طنبورٍ وزقّ ومزهرٍ، وفي حُجْرِ شادٍ أو علىٰ صدر ضاربِ

---

(١) الغدير : ج ٤ ص ٢٢٧ عن ديوان الصوري .
(٢) الأغاني للأصفهاني : ج ١٤ ص ٧٦ ج ١٩ ص ٤٠ .
(٣) شرح نهج البلاغة : ج ١ ص ٣٢٦.

ثم يخاطب الخلفاء جميعاً:

هو السّلَبُ المغصوبُ لاتملكونه وهل سالبٌ للغصبِ إلّا كغاصبِ
بنا نِلتُمُ مانِلتُمُ من إمارةٍ فلاتظلموا! فالظلم مرّ العواقبِ
ولمّا ملكتُم صرتُمُ بعد ذلّةٍ أُسوداً علينا داميات المخالبِ
وكم مثل زيدٍ قد أبادت سيوفُكم بلاسببٍ غيرالظنون الكواذبِ(١)

وعرف الشعر العبّاسي شاعراً ثائراً وقف شعره علىٰ المظلومين من الناس عامّةً، ومِن وُلْد عليّ خاصّةً، وذلك لما وقع علىٰ هؤلاء من ظلمٍ لم يقعْ علىٰ سائر الناس. هذا الشاعر هو دِعْبِل الخزاعي الذي نقم عليه العباسيّون وهدروا دمه لأنّه بسط فيهم لسانه، فهجا الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم وإبراهيم بن المهدي والواثق وسائر العباسيّين والوزراء والولاة جميعا. وما رَدعه عن هجْوهم ما أجْروا له من رزق، وما عرضوا عليه من ولاية أسوان وبعض بلدان فارس. فهو لا يُعجب بالكرَم يأتيه رشوةً، ولا يرضى عن حِيَل الظالمين، بل آثر أن يطوف في الأرض مستخفياً مشرّداً تحت كلّ سماء في صحبة اللصوص والصعاليك والشطّار. وأسلط على العباسيين لساناً من نار، حتّى إذا انتهى بهجائه إلى تمزيقهم ارتدّ إلى أعوانهم من الوزراء والولاة والقواد والصنائع يسخر منهم ويسوط جلودهم. فهم في نظره أُولئك النكرات الذين يقول فيهم:

إنّي لأفتَحُ عيني، حين أفتحُها، على كثيرٍ، ولكن لا أرىٰ أحدا(٢)

وكان الرشيد أوّل خليفة سلّط دعبل لسانه عليه. ثم هجا المأمون هجاءً موجعاً. وطمع إبراهيم بن المهدي في الخلافة، فبايعه العبّاسيون في بغداد، ثم

(١) معجم الأُدباء: ج ٤ ص ١٨١.
(٢) العقد الفريد: ج ٢ ص ١٤٠.

خُلع عن الخلافة، فقال فيه دعبل كثيراً، ومن ذلك قوله:

نَفَرَ ابنُ شكلةَ بالعراقِ وأهله ... فهفا إليه كلُّ أطْيَشَ مائقِ(١)
أنّى يكونُ، وليس ذاك بكائنٍ، ... يرثُ الخلافةَ فاسقٌ عن فاسقِ(٢)
إن كان إبراهيمُ مضطلعاً بها، ... فَلَتَصلَحن، من بَعده، لمُخارِقِ(٣)

وقال في بيعته أيضاً:

بَيعَةُ إبراهيم مشؤومةٌ ... يُقتَل فيها الخلقُ، أو يَقْحَطُ

أمّا النصيب الأوفر من نقمة الشاعر ومن نار هجائه، فقد انصبّ على المعتصم الخليفة العبّاسي الثامن. وكان المعتصم بدوره أشدّ الخلفاء نقمةً على الشاعر، كما كان من أشدّهم تنكيلاً بمعارضيه. وبلغ الشاعرَ أنّ المعتصم يريد قتله، فهرب في الجبال والقفار، وراح يهجوه ويندب حظَّ الناس في عهده، بمثل هذا القول الموجع:

وقام إمامٌ لم يكن ذا هدايةٍ، ... فليس له عقلٌ، وليس له لُبُّ
ملوك بني العبّاس في الكتْب سبعةٌ، ... ولم يأتِنا عن ثامنٍ لهُمُ كُتْبُ
كذلك أهلُ الكهْفِ في الكهْفِ سبعةٌ ... خيارٌ إذا عُدّوا، وثامنهم كلبُ(٤)

---

(١) نفر : صاح . شكلة : أُم إبراهيم . هفا : أسرع وذهب . المائق : الأحمق.

(٢) تاريخ بغداد : ج ٦ ص ١٤٢ ، ديوان دعبل : ص ٢٤٤ طبقة بيروت .

(٣) مضطلعاً بها : ناهضاً بها. مخارق : أحد المغنّين في صدر الدولة العباسية. وكان إبراهيم بن المهدي مشهوراً بالغناء والضرب على العود، فالشاعر يتهكم به ويقول: إذا صلحت الخلافة له، وهو مغنّ عوّاد، فأجدر بها أن تصلح لغيره من المغنّين فيكون مخارق وليّ عهده.

(٤) الكهف : المغارة. وأهل الكهف ورد ذكرهم في القرآن وهم سبعة شبّان لجأوا إلىٰ مغارة خوفاً من ملك اضطهدهم ، وكان معهم كلب ، فسدّ باب الكهف ، وأنزل الله عليهم سباتاً فناموا ثم بعثوا بعد زمن طويل . شبه الخلفاء العباسيين السبعة ، بالسبعة الفتيان من أهل الكهف ، ولم يشبههم بهؤلاء احتراماً لهم ، وإنما فعل ذلك لينعت ثامنهم المعتصم بالكلب بين أخويه وآبائه . والعربي يمضّه أن يكون نفاية أهل بيته .

وإنّــي لأُعـلي كـلبَهم عـنك رفـعةً ، لأنّك ذو ذنبٍ ، وليس له ذنبُ[١]

وكان دعبل يرىٰ أنّ رضا العامّة عن الحاكم هو المقياس الذي يقاس به خيره، وأنّ سخطهم عليه هو المعيار لمقدار شرّه. ولمّا كانت العامّة لا تحزن لموت أحدٍ من الخلفاء العباسيين ولا تفرح بقيام أحد؛ فإنّ ذلك يعني أنّ هؤلاء الخلفاء سواء في الجور والطغيان. يقول دعبل في موت المعتصم وقيام الواثق من بعده :

خـليفةٌ مـات ، لم يـحزن له أحـدٌ ، وآخــرٌ قـام ، لم يـفرحْ بـه أحـدُ[٢]

وهكذا أبى الشاعر الثائر إلّا مخاصمة من يطغى ويجور، فعاش عمره لا يُذعن ولا يساير ولا يلين، وظلّ مشرّداً في كلّ أرضٍ حتّى مات. وكان يقول: «إنّـي أحـمل صـليبي عـلى كـتفي مـنذ أربـعين سـنة؛ ولستُ أجـد أحـداً يصلبني عليه!»[٣]

ومن النقمة علىٰ الطغيان وعلى موالاة الطّغاة أيضاً، هذان البيتان الخالدان لشاعر المعرّة العظيم أبي العلاء، وكأنّه يسجّل بهما قصّة الطغيان مـن أجل الحكم في كلّ أدوار التاريخ، ويؤنّب الراضين به تأنيباً عنيفاً وإنْ غُلِّفَ باللين لاستتاره بالسؤال:

أرى الأيّـــام تــفعلُ كــلَّ نُكْــرٍ ، فما أنا ، فـي العـجائب ، مسـتزيدُ[٤]
أليس قــريشُكم قــتلتْ حُسَـيْناً ، وكــان عــلى خــلافتكم يــزيدُ؟

ومنها قولُ عظيمِ المعرّة أيضاً وقد هاله خداعُ النافذين وزيَفُ الوجهاء

(١) ديوان دعبل : ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .
(٢) ديوان دعبل : ص ١٤٩ البداية والنهاية : ج ١٠ ص ٣٤٠.
(٣) الأغاني : ج ٢٠ ص ٦٩ ، ص ٨١ طبقات الشعراء لابن المعتز : ص ١٢٥ .
(٤) الكنىٰ والألقاب : ج ١ ص ٩٢ نقلاً عن المسعودي .

ونفاقُ أصحاب المصالح، ثم ما يلقّنه السابقون للاحقين من شرائع يجعلها المستنفعون في خدمتهم:

أطاعوا ذا الخداعِ وصدَّقوهُ وكم نَصَحَ النصيحُ فكذَّبوهُ
وجاءتْنا شرائعُ كلِّ قومٍ على آثارِ شيءٍ رَتَّبوهُ
وغيّرَ بعضُهم أقوالَ بعضٍ وأبطلتِ النُّهى ما أوجبوهُ
فلا تفرحْ إذا كُرِّمْتَ فيهم فقد رفعوا الدنَّي وكرَّموهُ(١)

ومنها قوله أيضاً :

مُلَّ المقامُ ، فكم أُعاشر أُمّةً أمرت بغيرِ صلاحها أُمَراؤها
ظَلموا الرعيّةَ واستجازوا كَيْدها وعدَوا مصالحَها وهُمْ أجَراؤها(٢)

ومن الأدب العلويّ المتمرّد الذي يستثير النفوس، ويستنهض الهمم لدفْع الظلم وتحطيم الظالمين، هذه الأبيات للسيّد حيدر الحلّي :

إنلمأقفْحيثُجيشُ الموتِ يزدحمُ فلا مشَت بيَ في طُرْقِ العلى قَدَمُ
لابُدَّ أن أتداوى بالقنا ، فلقد صبرتُ حتّى فؤادي كلُّهُ ألمُ
عندي من العزم سرٌّ لا أبوحُ به حتّى تبوحَ به الهنديّةُ الخُذُمُ(٣)
مالي أُسالمُ قوماً جَورُهم دَأبٌ لا سالمتْني يدُ الأيّامِ إن سلموا(٤)

ووراء هذا الحزن وهذا التلوّع اللذين نحسّهما لدى شعراء الشيعة؛ إذ يرثون عليّاً، أو يبكون الحسين، أو يتفجّعون على وُلْد الإمام، وعلىٰ ما صارت

(١) اللزوميات : ج ٢ ص ٤٩٦ (دار الجبل).
(٢) اللزوميات : ج ١ ص ٥٦ (دار الجبل).
(٣) الخذم : جمع الخذوم وهو القاطع من السيوف .
(٤) ديوان السيد حيدر الحلي : ص ١٠٣ (طبقة مؤسسة الأعلمي) .

إليه حالهم من القتل والأسر والتحريق والصلب، تمتدّ آفاقٌ من السخط على الظلم قد تَخفى وقد تبين، وتنبعث أصداء من الثورة على الظالمين تحشُها تهدرُ خلفَ سُدولٍ من الدمع، وخلفَ ألسنةٍ من لَهَب القلب المتوجّع الحنون. وتكفيك دليلاً على صحّة هذا القول تائيّة دِعْبل، ولا نرىٰ فائدة مِن إثباتها هنا لشهرتها وكَثرة رُواتها. وتكفيك كذلك قصيدة ابن الرومي في التفجّع على يحيىٰ بن عمر حفيد الحسين[1]؛ فوراء ما فيها من الدموع والحسرات، سخطٌ عنيدٌ وثورةٌ عارمة على العباسيّين الذين يجسّمون أهلَ الظلم في قصيدة الشاعر، فإذا به يتوعّدهم بثائرٍ قد يأتي به الزمن فيُهلكم بظلمهم، ويُهلك أُمراء دولتهم؛ انتصافاً للمظلومين من أبناء عليّ، وهم كغيرهم ممّن ظُلِمَ يحقّ للشعر أن يستنفر القلوبَ والأيدي في سبيلهم. وفي هذه القصيدة يقول مخاطباً العباسيّين:

غُررتم لئِن صدَّقْتُمُ أنّ حالةً تدوم لكم، والدهرُ لونان، أخرجُ
لعلَّ لهم، في منطوي الغيب، ثائراً سيسمو لكم، والصبحُ في الليلِ مولجُ[2]

وكان هؤلاء الشعراء لا يذكرون مصرع واحدٍ من أبناء عليّ إلّا ذكروا مآسي عليّ نفسه علىٰ أيدي أهل الجور، وذكروا مأساة الحسين وذويه، وذكروا ما لحق بالرسول من الأذى على أيدي تجّار قريش. من ذلك ما يقوله أحدهم في مقتل يحيى بن عمر المذكور:

قَطّعتْ وجهَهُ سيوفُ الأعادي، بأبي وجهُهُ الوسيمُ الجميلُ

(١) قتل يحيىٰ في خلافة المستعين، وحمل رأسه ورؤوس من قتلوا من أنصاره إلىٰ بغداد. وقد روى ابن الأثير خبر مقتلهم بالتفصيل في ص ٤٨ من الجزء السابع من تاريخه «الكامل».

(٢) مقاتل الطالبيين: ص ٤٢٧.

قَـــتْلُهُ مُـــدْكــرٌ لقَـــتْلِ عــليّ وحسينٍ ، ويـوم أُوذي الرسـول[١]

والناظر في أدب الشيعة نظراً عميقاً يُدرك أنّ الحسين ـ مثلاً ـ أو غيره من المبكيّ عليهم من وُلْد عليّ لم يكونوا ليمثّلوا أشخاصاً معيّنين وحسب، بل كانوا يمثّلون فكرة معيّنة. فقد أصبح الحسين ـ مثلاً ـ في هذا الأدب رمزاً لمن تلحق بهم النكبات، وينكّل بهم الحكّام لمصلحتهم. وأصبح معاوية ـ مثلاً ـ أو يزيد رمزاً كذلك للمخادع الظالم الطاغي. لذلك ترى أنّ الشاعر إذا شاهد المظالم الواقعة على الناس في زمانه استعاد بخياله ذكرى كربلاء. وإذا ذكر سخط المظلومين على طُغاتهم استعاد ذكرى عاشوراء، فقال:

كأنّ كـــلّ مكـــانٍ كـربلاء لدى عـيني ، وكلّ زمانٍ يومُ عاشورا

وما تلقاه من أجيجِ الثورة على الظلم والسخط على الظالمين وراء الدمع والتفجّع في شعر الرثاء العلويّ، تلقاه كذلك في تلك القصائد والمقاطع التي يذمّ بها الثائرون الزمانَ. وما الزمان المذموم في شعرهم إلّا تعبيرٌ عن الفساد الذي في الزمان، وعن البغي الذي فيه. ومن نماذج هذا الشعر قول عليّ بن أحمد النيسابوري الذي عاش في القرن السادس للهجرة:

زمـــانُنا زمـــانُ ســوء لا خـــيرَ فـــيه ولا فـــلاحا

لا يُـــبصرُ المُـــبْلسون فـــيه ، للـــيلِ أحـــزانـــهم صـباحا[٢]

فكـــلُّهم مـــنه فـــي عـــناءٍ ، طـوبى لمـن مـات فـاستراحا[٣]

وواصل المتشيّعون لعليّ أدبَ الثورة هذا على مدى العصور العربية بعد الإسلام. وكان في هذا الأدب نواحٍ سلبيّة، وكان فيه نواحٍ إيجابية كذلك. وإنّي

---

(١) الكامل في التاريخ : ص ٤٨ ، الكنىٰ والألقاب : ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢) المبلسون : جمع المبلس ، وهو الفقير البائس المتحيّر. مجمع البحرين: ٢٤٠/١، مادة «بلس».

(٣) أعيان الشيعة : ج ٨ ص ١٥٦ .

لأشعر بأنّ القارئ يستزيدني من إثبات نماذج جديدة من هذا الأدب الثائر، الذي كانت شخصيةُ عليّ بن أبي طالب المحوَرَ الخفيّ الذي يدور حوله. وإنّي لأزيده من هذا الأدب الذي تتجلّى فيه رغباتُ القومية الصحيحة، في عصور الطغيان وإرهاقِ العامّة، فوق ما تتجلّى في سواه. وإليك هذه الأبيات الثائرة على الفقر، والداعية إلى جَعل الوطن لكلّ بنيه، وكأنّي أرى فيها كلمة عليّ بن أبي طالب القائل: **«خير البلاد ما حَمَلك،الفقير غريبٌ في وطنه، ومَن ضيّعَه الأقرب أُتيح له الأبعد!»**[1]، وكلمة الثائر العظيم أبي ذرّ الغفاري القائل: «عجبتُ لمن لا يجدُ القوتَ في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفَه!»[2]. وهي لعبدالرضا بن زين الدين العاملي المعاصر لبهاء الدين العاملي صاحب الكشكول:

لا أُحبُّ الفتى أراه، إذا ما عضَّه الدهرُ، جاثماً في الظلال
مستكيناً لذي الغنى، خاشعَ الطرفِ، ذليلَ الإدبار والإقبالِ
أين جَوْبُ البلاد شرقاً وغرباً، واعتسافُ السهولِ والأجبالِ؟
ذهب الناسُ فاطلب الرزقَ بالسيفِ وإلّا فمُتْ شديدَ الهُزال

وفي مثل هذا المعنى أيضاً يقول أحد الشعراء العامليين:

لمّا رأيتُ بلادي بلادَ فقرٍ وفاقَهْ
والدهر أخنى عليها مذ لازمتْه الحماقَهْ
والضيم ألقى عصاه فيها، ومدّ رواقَهْ
غادرتُها إذ ليس لي على المذلّة طاقَهْ[3]

ولعليّ بن طيّ ينظم ما قاله عليّ بن أبي طالب في هذا المقام:

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٤٤٢٠.

(٢) مستدرك سفينة البحار: ج ٧ ص ٤٨٦ دون أن يُنسب الىٰ أبي ذر.

(٣) لم نتبيّن اسم الشاعر.

فما العزّ إلّا حيثُ أنت موقّرٌ ، وما الفضل إلّا حيث ما أنت فاضلُ
وما الأهل إلّا مَن رأى لك مثلما رأيتَ ، وإلّا فالمودّةُ باطلُ
إذا كنتَ لا تَنْفي عن النفس ضيمَها فأنت لعمري القاصرُ المتطاولُ(١)

وللمتنبي :

وكلُّ امرئ يُولي الجميلَ محبّبٌ وكلُّ مكانٍ يُنبتُ العزَّ طيّبُ(٢)

فمن شروط محبّة الوطن في شعر التمرّد عند الشيعة أن تكون الأرض للشعب، لا للإقطاعي ولا للحاكم. وأن يكون المال للعامل لا للناهب. ولهذا يتحسّر أبو فراس الحمداني على حالة الناس في زمانه فيقول:

والأرض إلّا على مُلّاكها ، سعةٌ ، والمالُ إلّا على أصحابه ، دِيَم(٣)

ولهذا أيضاً يتحسّر الكُميت الأسدي على الشعب المأكولِ جهدُه؛ فيخاطبه مستنهضاً إيّاه:

يا مُوقداً ناراً لغيرك ضوؤُها يا حاطباً في حبلِ غيرك تحطبُ(٤)

وإليك أيضاً هذه الأبيات التي قالها أحد العامليين في ذمّ العشّارين والدفاع عن الفقراء، وتفضيل الجراد على الحكّام الذين لا همّ لهم إلّا نهب الناس:

وعاملةٍ بها عاثوا فساداً كأنّهُمُ بقايا قومِ عادِ
كأنّهُمُ بأموال البرايا رياحٌ عاصفاتٌ في رمادِ
من « التقدير » أهلُ المُلك أضحتْ تحيّي بالسلام على الجرادِ

---

(١) أعيان الشيعة للأميني : ج ٣ ص ١٤٨ ج ٨ ص ٢٩٥ .
(٢) ديوان المتنبي : ص ٤٦٨ (طبقة دار صادر) .
(٣) ديوان أبي فراس : ص ٢٨٩ (طبعة دار الجبل) .
(٤) الكميت ، شاعر العصر المرواني ، للصعيدي : ص ٧٥ (دار الفكر العربي) .

وإنّ بُكـا الأرامـل واليـتامى له لانَ الأصـمُّ مـن الجـمادِ
فكـم نـادت لرفْـع الظـلم عـنها «ولكن لا حـياةَ لمـن تـنادي»؟[١]

ومن الشعر الآخذ من النَّفَس العلويّ الثوريّ، تلك الروائع التي يترفّع بها الشعراء المتشيّعون عن صغر النفس والدنايا، ويأبون لقمة العيش إن لم تكن حقاً لهم في مجتمعٍ يرعى العدالة ويأخذ أبناءه بالمساواة فتكون جناتُهم لأفواههم، كما يقولُ ابنُ أبي طالب. أمّا معنى القناعة في مثل هذا الشعر، فليس ذاك الذي يعارض التفتّحَ والانطلاق ويدعو إليه الزاهدون، وإنّما هو مرادفٌ لإكرام النفس عن التوسّل إذا هي لم تبلغ مرادَها من العيش الكريم، عن طريقٍ مستقيم في مجتمع سليم، وقد قال عليّ بن أبي طالب: **«مَن كرُمتْ عليه نفسه هان عليه مالُه»**[٢]. والموت خيرٌ من ذلّ التوسّل! وإليك هذا المقطع من قصيدة لعليّ بن الحسين العقيلي، نرويه مصدّقاً لما نقول:

إذا مـا كـان فـي بـيتي رغـيفٌ فـذاك اليومُ عـندي يـومُ عـرسِ[٣]
فـإن قـصُرتْ يـدي عـنه لعُـدمٍ رجـعتُ بـها إلى زاد التأسّـي
ولم أسـحب لثـوب الذلّ ذيـلاً ولو سَحَبَ الطوى جسمي لرَمْسي
لأنّ المـوت أسـهلُ مـن مـقامٍ أُعـرّضُ للـتوسّل فـيه نـفسي

ومن روائع هذا النّفس العلويّ الثائر المترفّع الصابر، هذان البيتان الفريدان للقاضي عليّ بن عبدالعزيز الجرجاني، الذي تتبّع عليّ بن أبي طالب في كلّ ما قال وعمل، وتشيّع لأخلاقه وصفاته وموقفه من الدولة والمجتمع وتوزيع الثروة، وأخذ من نظرته إلى الأُمور، وقد قالهما في إقامةٍ له بأرض

(١) اقتباس من قصيدة «كثير» في رثاء صديقه، معجم البلدان: ج ٥ ص ٤٢٩.
(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢٠ ص ٣٢٧.
(٣) أعيان الشيعة: ج ٨ ص ١٦٨.

سَرنديب من بلاد الهند وفيها كثيرٌ من الأغنياء الذين أرادوا حمْلَه على التملّق لهم كي يكسب عيشه:

أمــطري لؤلؤاً جــبالَ سَــرَنْديـ ــب ، وفـيْضي آبـارَ تَكـرورَ تِـبْرا
أنـا إن عشتُ لستُ اعـدَمُ قُـوتاً ، وإذا متُّ لستُ أُعـــدَمُ قـــبرا(١)

ومنها أيضاً قولُ الجرجاني نفسه يردّ علىٰ بعض أصحابه؛ وقد لاموه على مجافاته الحكّام والنافذين والأثرياء، وعلى ترفُّعه عنهم، وأرادوه أن يتملّقهم ليُفيد من علمه على أيديهم. وكان الجرجاني تلميذاً لعليّ في نظرته إلى قيمة العلم الذي «يحرس أصحابه»، وإلىٰ كرامة العلماء ووظيفتهم التي تقوم بخدمة المجتمع وهداية الناس إلىٰ الخير، لا باستخدامه لمصلحة المنافقين:

يـقولون لي: فـيك انـقباضٌ! وإنّـما رأوا رجلاً عن مـوقف الذلّ أحـجما
إذا قيل : هذا منْهلٌ! قلت: قد أرى ، ولكــنّ نـفس الحـرّ تـحتملُ الظّـما
وكم طـالبٍ رِقّـي بـنُعماه، لم يـصل إليــه ، وإن كــان الرئـيسَ المـعظّما
ولم أبتذلْ في خـدمة العـلم مُـهجتي لأخدمَ ، مَـن لاقيتُ لكـنْ لأُخـدَما
ولو أنّ أهل العـلم صـانوه صـانَهم ، ولو عــظّموه فــي النـفوس لعُـظّما
ولكــنْ أهــانوه فـهانوا ودنّسـوا مـحيّاه بـالأطماع حـتّى تـجهّما(٢)

وفي هذه النماذج من الشعر الثوري مـا يكـفي للـدلالة عـلى مـا قـدّمه المتشيّعون لعليّ، المـعارضون للـفساد والظـلم والغـبن الإجـتماعي بأشكـاله وألوانه جميعا، من خدماتٍ للقيَم الإنسانية في الشـخصية العـربية، وعـلى مـا أرادوه من الخير للقومية العربية، إذ لا قومية إلّا حيث تُحفَظ كرامةُ القوم بالعدل

(١) كتاب الأُم ، للشافعي : ج ١ ص ١٤.
(٢) الخلاف للطوسي : ج ١ ص ٦٠٠ ، البـداية والنـهاية : ج ١١ ص ٣٣١ ، شـذرات الذهب : ج ٣ ص٥٦ ، طبقات الشافعية : ج ٢ ص ٣٠٨

والمساواة وبرفع الحاجة أوّلاً.

وكان عليّ بن أبي طالب، بآرائه ومبادئه وأقواله وأعماله وحياته وما خلّفه من ترغيب الناس في العدالة الإجتماعية، وبحُكم الظروف القاسية التي عاشها المتشيّعون له، الينبوعَ العميق الذي جرت منه هذه الثورة وهذا التمرّد وهذا الشعر.

أدبُ الوفاء الإنساني

ـ حبُّ عــليّ بــن أبــي طــالبٍ
للـــــناس مـــقياسٌ ومـــعيارٌ
يُــخرجُ مــا فــي نـفسهم مـثلما
يُـــخرجُ غشَّ الذهبِ النــارُ(١)

سيف الدولة

لم يــــعرفوهُ فـــعادَوهُ لجـــهلهِم
والناسُ كلهم أعداءُ ما جـهلوا(٢)

ابن السكون الحلّي

ـ لاتكـتسي وفـتاةُ الحـيّ عـاريةٌ
ولا تَعُبُّ ومهضومُ الحشا سَغِبُ(٣)

عبد المهدي مطر

قلنا إنَّ النقمة على الظلم والحزن على المظلوم والوفاء له،كانت في أساس أدب المتشيّعين لعليّ بن أبي طالب. فعن هذه العواطف انبثق، وفـي أرضـها نمَت دوحتُه وتعالت حتّى أظلّت التاريخ العربي بجملته. وقد أسمينا الأدب الذي يأخذ مجراه من السخط والنقمة أدب التمرّد. وكذلك أسمينا الأدب الذي

(١) مناقب آل أبي طالب ، ابن شهراشوب : ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ص ١٩٤ .

(٣) ديوان عبد المهدي مطر من قصيدته في تذهيب باب مرقد الإمام علي (عليه السلام) والتي مطلعها :
لعـــلع بــــباب عــلي أيّــها الذهبُ   واخطف بأبصار من ودّوا ومن غضبوا

إنْ لم يكــن مِن بـاطلٍ قـد جـمعَهْ أو حـــقٍّ ذي حـقٍّ فـقيرٍ مَـنَعَهْ
والمـوتُ مـن ذلّ السؤالِ أهـوَنُ هـــذا إذا جـار عـليك المـحسنُ
والفـــقرُ غـــربةٌ لمَـن تـوطّنوا كـــما الغــنى للــغرباء وطـنُ
وإنّــــما فـــضيلةُ الإنســـان بـــبذله للـــخير والإحســـان
وأفـــضلُ الجـميلِ والمـعروفِ إغـــاثة المكـــروب والمـلهوفِ
وقـــد غـــدا مـن شِـيَمِ الأبـرارِ أن يـحملوا النـفس عـلى الإيـثارِ
والشـــهم لا يشـمتُ بـالمصابِ كـــلّا ، ولا يـــنبزُ بـــالألقابِ
يـــعاملُ النـاس بـلينِ الجـانبِ يـــقدِّمُ الخـــيرَ لكـلِّ صـاحبِ
يـــعود بـالعفو عـلى مَـن ظَـلَمَهْ دوماً ، ويـعطي كـرماً مَـن حـرَمَهْ
يـــمحضُ للـمستنصح النـصيحة ويســـتر العـــورةَ والفـــضيحة
مـــا الفـــخرُ إلّا بـــعلوّ الهـممِ للــناس طـرّاً ، والوفـا بـالذممِ
والكـــذب مُـزْرٍ ويْكَ بـالإنسانِ وآفـــة المـــرء مـــن اللســـانِ
فـــلا تـــصاحبْ أبـــداً كـذّاباً ولا تكـــن فـــي أمـــره مـرتابا
يـــقرّب القـاصي البـعيد عـنكا ويُـــبعد الدانـي القـريبَ مـنكا
لو صُـــوِّرَ الصـدقُ لكـان أسَـدا والكـذبُ فـي صورة ثـعلبٍ بـدا
والعـــاقل المـــالكُ أمـــرَ لُـبّهِ لســـــانُه دوماً وراء قـــــلبهِ
واذكـــرْ أخـاك بـالذي تـرضاهَ إن قـــالَه فـــيك ، ودعْ ســـواهُ
وســـامعُ الغـــيبةِ كـالمغتابِ فـــي مـيله عـن سُـنن الصـوابِ
واكـرهْ لكـلِّ النـاس مـا تكـرهه مـــنهم ، فـذا بـذاك مـا أشـبهه
أحـــببْ لهـم مـثلَ الذي تـحبُّ فـــــغيره لا يـــــرتضيه الربُّ
وأدّبِ النـــفس بـــما تُـنكرُهُ مـــمّن ســواك ، وبـما تشكـرُهُ
ومـــــنكرٍ مـــعائباً يـــرضاها لنـفسه ، فـي الحـمْقِ لا يـضاهي

كـلُّ الذي لا يـنبغي فـي الجـهرِ   عـليك أن تـتركه فـي السـرِّ
إحـذرْ مِـن الفـعل الذي إن أظـهَرَه   صـاحبُهُ أزرى بـه وحـقّرَهْ
والمـدح للأطـماع والمـخافة   خـرافـةٌ لا شك أو سـخافة
وإنّـما إ ضـاعة الحـقوقِ   تـدعو إلىٰ إذاعة العـقوقِ
واعـلمْ بأنّ مـن شـروط الإلْـفة   بـين الأليـفين اطّراحَ الكـلْفة
وإنّـما الصـديق مَـن نـهاكـا   ليس الذي بـجهله أغـراكـا
وقـد روى الأخـيارُ فـي الأخبارِ   اسألْ عـن الجـيران قـبل الدارِ
ربّ عـدوٍّ فـي الأنـام عـاقلِ   أقـلّ ضـرّاً مـن صـديقٍ جاهلِ
وزارعُ الشـرور والعـدوانِ   يـحصدُ مـنه سـنبلَ الخسـرانِ
وإنّـما السـلطان بـالأعوانِ   وإنّـما الإنسـان بـالإخوانِ
ومَـن يسـوء فـعله في دولتِهْ   تـخذله أعـوانـه فـي نكـبته
ومَـن يـعرّج عـن طـريق العدلِ   فـليستعدّ لوقـوع العـزل
ولن تُـنال لامـرئ ريـاسَة   وتُـحمدَ السـيرةُ والسـياسة
إلّا إذا دان بـقول الحـقِّ   وكـان أيـضاً عـاملاً بـالصدقِ
يـدأب فـي إعـانةِ الضـعيفِ   دوماً ، وفـي إغـاثة اللـهيفِ
وأقـبحُ الظـلم يـقيناً فـاعلمِ   ظـلمُك للـضعيفِ والمسـتسلمِ
ودعـوة المـظلوم مسـتجابة   كـما روى الإمـامُ والصحابة
والكـبرُ أيـضاً أعـظم الذنـوبِ   لأهـله ، وأقـبح العـيوبِ
فـإنّه خـليقة الشـيطانِ   ومـنه كـان سـبب الخـذلانِ
والمسـتبدّ في الخطا وفي الغلط   والمسـتشير آمـنٌ مـن السّـقَط
ومَـن أتـى مِـن فـعلِه مـا شاءهُ   صـادَفَ مِـن أيّـامه مـا سـاءهُ
وكـلُّ شـخصٍ يـعمل اجـتهادَهُ   يـبلغُ مِـن مأمـوله مـرادَهُ

مـــطيّةُ الصـــبرِ بـــنا لا تكـبو   وحـــولها ســـهلٌ فســـيحٌ رحْبُ
وجـــزَعُ الإنســان فــي المـصيبة   مـــصيبةٌ أُخـــرىٰ له مــصيبة(١)

ثم إليك نموذجاً من الشعر أرقىٰ للشيخ محمد بن عبّاس صاحب «نزهة الجليس» في نظم كلمة ابن أبي طالب التي تبدأ بـ «**العلم يحرسك وأنت تحرس المال ... الخ**»:

العــلمُ يــحرسُ أهـليه ويكـلأُهم ،   والمــالُ يــحرسُهُ أصـحابُهُ جـزَعا
والعــلم يــزداد بــالإنفاق زائـدُهُ ،   والمالُ يـنقص مـهما زاد واتّسعا(٢)

وتنطوي الأجيال وشخصية ابن أبي طالب تـزداد وجـوداً فـي آداب العرب. ويتعاظم هذا الوجود ارتفاعاً واتّساعاً وعمقاً، ويخلّص الروح العربية من إنحرافات مَن استبدّوا وطغوا وأساءوا بـاسم العـروبة وهـي مـنهم بـراء، ويُضفي عليها قيماً إنسانيّةً خليقةً بأن تبقى وأن توجّه وأنّ تظلّ علَماً يعتصم به العرب في كلّ مكان.

ويأتي القرن العشرون، فإذا بالقِيَم والمعاني التي تمثّلها شخصية ابن أبي طالب ما تزال تسمو في النفوس وترتفع، وتنتج أدباً كثيراً، يتجسّم به الوفاء الإنساني كأكرم ما يكون تجسّمُ الوفاء، فإذا بشاعر لبناني(٣) يخاطبه قائلاً:

كـلّما بــي عــارِضُ الخـطْبِ ألمْ   وصَـــمَاني مِــن عَــنَا الدهــرِ ألمْ
رحتُ أشكـــو لعـــليٍّ عــلّتي ،   وعـــليٌّ مـــلجأٌ مِـــن كـلِّ هَـمْ
وأُنـــادي الحـــقَّ فــي أعـلامه ،   وعـــليٌّ عـــلم الحــقّ الأشَـمْ
كـــلّما عُـــذِّبَ بـالجور فـتىً ،   ودعـاهُ فـي دجـى الخـطب ، نـجمْ

---

(١) سلافة العصر : ص ٣١٠ ، أمل الآمل ج ١ ص ١٣٠ ، أعيان الشيعة : ج ٨ ص ٣٣٣ .
(٢) نزهة الجليس ، لمحمد بن عباس .
(٣) هو فؤاد جرداق الشقيق الأكبر للمؤلف .

فهو للظالم رعدٌ قاصفٌ ، وهو للمظلوم فينا مُعْتَصَمْ
وهو للعدل حميً قد صانَه خُلُقٌ فذٌّ ، وسيفٌ ، وقلمْ
مَن لأوطانٍ بها العسفُ طغى ، ولأرضٍ فوقَها الفقرُ جثَمْ
غيرُ «نهجٍ» عادل في حُكمِهِ يرفعُ الحيفَ إذا الحيفُ حَكمْ

وإذا بشاعر عراقيّ هو السيد عبد المهدي مطر يقول فيه هذا القول الجميل الذي يصوّر الأسباب العميقة في إجلال الناس إيّاه:

ما سَرَّهُ أن يرى الدنيا له ذهبٌ وفي البلاد قلوبٌ شَفّها السّغَبُ
ولا تَضَجّرُ أكبادٌ مُفَتّتةٌ حتّى يذوبَ عليها قلبُه الحدِبُ
إن يسقط الدمعُ مِن عينَي مولّهةٍ أجابَها الدمعُ مِن عينيه ينسكبُ
تهفو حشاهُ لأنّاتِ اليتيم بلا أُمٍّ تناغي، ولا يحنو عليه أبُ
هذي هي السيرةُ المُثلى تموجُ بها روحُ الإمام ، وهذا نهجه اللحِبُ(١)

ثم يقول :

هذي هي النفسُ قد روّضتَ جانحَها فراقَ للعين منها عيشُها الجشِبُ
فلا الخِوانُ لها يوماً ملوّنة منه الطعومُ ، ولا أبرادُها قُشُبُ
لا تكتسي وفتاةُ الحيّ عاريةٌ ، ولا تعُبُّ ومهضومُ الحشا سغِبُ
نفسٌ هي الطهر ما همّت بمُوبقةٍ ، وليس تعرفُ كيف الذنب يُرتكَبُ

ويقول أيضاً في القصيدة نفسها، مشيراً إلىٰ غلبة الحقّ في خاتمة كلّ حساب، والحقّ ممثّلٌ هنا في شخص ابن ابي طالب:

وتلك عُقْبى صراعٍ قد صبرتَ له وذا ، فديتُكَ مظلوماً ، هو الغَلَبُ
أبلغْ معاويةً عني مغلغلةً وقلْ له ، وأخو التبليغ يُنتَدَبُ:

---

(١) اللحب : الواضح. الصحاح: ٢١٨/١، مادة «لحب».

قمْ وانظر العدلَ قد شِيْدَتْ عمارتُه والجورُ عندك خزيٌ بيتُهُ خرِبُ
تبني على الظلم صرحاً رنّ معْوَلُهُ بجانبيه ، وهدّت ركْنَهُ النّوَبُ

ثم يختم قصيدته بهذين البيتين :

تَعيّفوا وركبْنا في سفينته ، فميّزَ اللجُّ مَن عافوا ومَن ركبوا
وساوَموا فاشترينا حبَّ حيدرةٍ ، ولا نبيعُ ولو أنّ الدُّنَى ذهبُ!(١)

أمّا لماذا لم يبيعوا حبَّ ابن أبي طالب بذهب الدنيا ومغريات الأرض؟ ولماذا آثروا الموت بهذا الحبّ على الحياة في موالاة أهل الطغيان؟ فلأنّ القِيَم مهماكثُرَ خصومها فإنَّ أنصارها أكثر. ثمّ لأنّ هذا الحبّ مقياسٌ من مقاييس المروءة الإنسانية، التي يتعاظم إخوانها مع الزمان عدداً وإن قلّوا في بعض الزمان.

ومِن أعمق ما يصوّر لنا قيمة هذا الحبّ الذي عاش طويلاً في قلوب العرب، ويصوّر مبدأه وغايتَه ومعناه؛ هذان البيتان الرائعان لسيف الدولة الحمداني، ملك الدولة الحمدانية في حلب:

حبُّ عليّ بن أبي طالبٍ للناس مقياسٌ ومعيارُ
يُخْرِجُ ما في أصلهم مثلما يُخْرِجُ غشَّ الذهب النارُ

وأعظِم برجلٍ يراه الناس مقياساً للناس، فإنْ والَوه وتشيّعوا له؛ والَوا الخيرَ والعدالةَ والحقّ والمروءات وتشيّعوا لها. وإن تعيّفوا هذه الموالاة؛ فإنّما يتعيّفون خيراً كثيراً.

هذا التمرّد على الإستبداد السياسي في التاريخ، وعلى الظلم الإجتماعي بأشكاله وأسمائه جميعا، هو مِن أجلّ ما تُمْهَر به القومية العربية.

---

(١) من قصيدته المذكورة سابقاً «لعلع بباب عليّ أيها الذهب».

وهذا الوفاء للقيمَ الإنسانية تتجسَّم في شخص، أو في جماعة، أو حيث تجسّمتْ، هو مِن أجلّ ما تُمْهَر به الشخصية العربية.

وهذا الأدب المتمرّد الوفيّ، إن هو إلّا صورةٌ عمّا لدى الإنسان العربي مِن إمكاناتٍ تجعله جديراً بأن يتمرّد على ما يسيء لأوطانه، وخليقاً بأن يحيا وفيّاً للقيَم التي يراها.

حُبٌّ وإجلال

المعرّي وَجبران وَنعيَمة يتحدَّثون عَنِ الإمام

ـ مات الإمامُ عليّ شأن جميع الأنبياء الباصرين الذين يأتون إلى بلدٍ، ليس ببلدهم، وإلى قومٍ ليس بقومهم، في زمنٍ ليس بزمنهم!

جبران

ـ إنّ علياً لمَن عمالقة الفكر والروح والبيان في كل زمان ومكان.

نعيمة

ـ إنّ في هذا الحبّ لَمَا يخلّصُ من الغَرَقِ ربّانَ سفينةٍ بُعِثَ عليها العذابُ من فوقها ومن تحتها، وتذاءَبَت عليها الرياحُ مِن كلِّ جانب!

ـ تكادُ هذه الأبياتُ تنطقُ بحزن الطبيعة ولوعةِ الدهر على كلِّ مأساةٍ وكلِّ فجيعةٍ، أُصيبتْ بها الإنسانية في تاريخها الطويل!

ـ لكأنّي أرىٰ سحاباتِ السماء الغائمة القاتمة تجري بطيئة كئيبة في رِحابِ الفلاة الباردة!

إنّ في هذا ـ حبّ عليٍّ للناس وفي حبّ الناس إيّاه ـ لشيئاً يصدِّقُ بعضُه بعضاً، وينطق بأنّ العظيم هو مَن أحبّ الخير ومات عنه شهيداً، وأنّ عليّاً هو ذلك العظيم الشهيد. وبأنّ في الناس خيراً كثيراً ورغبةً فيه ومَيلاً إليه، فإذا ظُلم الخير فإنّما هم الذين ظُلموا، وإذا عَظم شأنه فقد عظموا به وارتفع لهم شأن.

وإنّك ما ضربتَ بعينيك صفحات هذا التاريخ إلّا لتدرك حقيقةً حقّة، وهي

أنّك قلّما تجد في شخصياته العظيمة مـن أجـمع النـاسُ عـلى حـبّه وإجـلاله والانتصار له، اجماعَهم على حبّ عليّ بن أبي طالب، وعلى إجلاله والعطف على قضاياه. وفي مثل هذا الحبّ يستوي في القلوب ويزخر، مَنجاةٌ للضمير الإنساني من الانزلاق. وفي مثل هذا الحبّ تمرّدٌ على البُطل وخذلانٌ للجريمة. وفيه لجوء الى الحقّ واعتصامٌ بالوجدان. بل إنّ فيه لَما يخلّص من الغَرَق ربّانَ سفينةٍ بُعثَ عليها العذابُ من فوقها ومن تحتها وغرق مَن في ضمنها أوكاد، وتذاءبتْ عليها الرياح واضطرب هبوبها من كلّ جانب. فإذا به منتصبٌ على هامة التاريخ إمامَ حقٍّ وخيرٍ،كالجبل لا تحرّكه القواصف ولا تُزيله العواصف!

لقد ضلّ المتآمرون على ابن أبي طالب وضلّلوا، ثم راحوا فما بقيَ منهم ومِن مُلكهم وانتصاراتهم إلاّ نقمة الناقمين عليهم وسخط الساخطين ومنطقُ الضمير الإنساني الذي قضى عليهم بالزوال وصغّر من شأن ما يملكون! فإذا هم لا شيء إلّا إذا كانت الآثام شيئاً! وإذا ابنُ أبي طـالب وَهَـجٌ فـي القـلوب، وحرارةٌ في الأنفاس، ومنطقٌ في العقول، وقولٌ حكيم وخلقٌ عظيم! وماكان ربّك ليجعل السماء أرضاً والأرض سماءً، والتاريخُ على صحّة ذلك شهيد!

ويستمرّ إعجاب الناس بعليّ من كلّ سبيل، ويتّصل حبّهم له من كل وجه، فيكثر فيه القائلون وكلّهم معجبٌ محبّ. وإنّهم ليلتقون جميعاً عند حُكمٍ يكاد يكون واحداً وهو أنّ عليّ بن أبي طالب عملاق فكرٍ وبيان، وشخصيةٌ تتدفق بنور الوجدان. ومن ثمّ فهو جديرٌ بالإعجاب والحبّ العميقين.

وفي عداد هؤلاء من تتّسم نظرتُه إلى عليٍّ بطابع النبوّة.ولا غروَ في ذلك، فمن أظهر صِفات ابن أبي طالب ما يلتقي به والرجالَ القمم، وليست حدود أُبوّة هؤلاء العظماء بالحدود التي تنتهي عند الزواج والنسل. بل إنّ أُبوّتهم هي مـظهرٌ مـن إنـدماج الإنسـان بـالإنسان وصـلة الحياة بـالحياة! فـهي بـذلك

أشمل وأعمق.

ثمّ إنّ آباء الإنسانية هؤلاء هم أكبر من أن يُحصروا في نطاقٍ من الطائفية، أو العنصرية، أراد التاريخ أن يحصرهم فيه. لقد انطلقوا من كلِّ نطاقٍ وانزوى التاريخ! لذلك ترى أنّ صلة الكثيرين من العرب المعاصرين بالإمام، علىٰ إختلاف مهودهم المذهبية، إنّما هي صلة الابن بالأب يصطفيه ويرجوه وكأنّما يلجأ بذلك إلىٰ موئلٍ من القيَم الإنسانية التي تتجسَّم بشخصية ابن أبي‌طالب، وكأنّما يتعزّى عن مآسيه بشهادة أبي الشهداء. فهو العظيم الذي انتصر به نورُ الوجدان على ظلمة المطامع، وقد غرق فيها حكّام عصره ومعظم حكّام العصور.

العظيم الذي مدّ الأفكار والضمائر بما لا ينضب له معين وبما لا يؤثّر فيه زمانٌ ولا مكان؛ فإذا به ملاذٌ يلجأ إليه طلّاب الحقّ والعدل في الناس. وأبٌ يستظلّ بأفيائه الوارفة مَن شعروا بالظلم يجور على العدل، وبالقسوة تكتسح العطف، وبالشرّ يفترس الخيرَ، وبالإثم يعلو ويصبح له دولةٌ وسلطان.

أمّا شيعة الإمام السائرون على هدْيه في ظلمات التاريخ فإنّ حبّهم له لممّا يقصّر عن وصفه الواصفون. وأمّا استشهادهم في هذا الحبّ فممّا لم يروه الراوون. وأمّا نظرة الناس من غير شيعته إليه فهي موضوع حديثنا الآن. وإنّه لمن مفاخرنا، نحن العرب، أنْ يكون في تاريخنا أمثال عليّ، الذي أوحى مثل هذا الحبّ، وانطلق من نطاق المخصوصية إلى النطاق الواسع العام. فإذا أمرُه لا يعني حزباً من الأحزاب، أو طائفة من الطوائف أكثر مما يعني الناس جميعاً. وإذا سيرته مصدر أدب رفيع في كلّ عصر ومصر. وماذاك إلّا لأنّ الصفات التي تميّزت بها شخصية الإمام الظاهرة في أعماله وأقواله، هي صفاتٌ تجوز، بما فيها من إنسانيةٍ وعالميّةٍ، حدودَ الزمان والمكان، كما تجوز حدودَ

الأحزاب والطوائف. وبمثلِ عليّ يتوحّد الناس ويتداعون إلى التعاون من أجل الخير.

ولو شئتُ أن أسوق الأمثلة على إجلال الناس لعليّ لَما استطعتُ لها جمعاً، ولَما استطاع سواي، ولَما وعتْها المجلّدات. وسوف أتحدّث بهذا الفصل عن ثلاثةٍ من نوابغ العرب، لهم في الإمام الجليل آراء جليلة، وفي أقوالهم فيه حرارةٌ وحبّ .

أمّا هؤلاء الثلاثة، فقديمٌ، هو شاعر المعرّة وحكيمها وعظيمها أبو العلاء، ومعاصران، هما جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة.

* * *

لعلّ معظم ما قاله القدماء في عليّ، وفي الحسين صريع كربلاء، وهو امتدادٌ لشخصية أبيه في مقياس القيَم الإنسانية، لا يساوي من حيث المعنى الذي ينطوي عليه القول، ما جاء على لسان أبي العلاء المعرّي.

ذلك لأنّ المعرّي لم يسلك سبيل المجاملة في رأيٍ أو في قول. ولم يستوْحِ إلّا صفاءَ ضميره ودقّةَ حسّه وقوّةَ منطقه السليم. فهذا العظيم الذي لم يواربْ في رأيه في شؤون الناس وقضايا دينهم ودنياهم ومعتقداتهم، ونظرتهم إلى حوادث الماضي ووقائع الحاضر، لم يستطع إلّا أن يستجيب للنداء العميق المتجاوب في حنايا نفسه: أنِ انتصِرْ للإنسان العظيم يُصرَع بشهوةِ حاكمٍ عاديٍّ سقيمِ الهوى، وللقيمة تُطعَن في سبيل منفعةٍ تافهة، وللعواطف الإنسانية الكبيرة تُمزَّق بحراب المطامع الدنيا!

لم يستطع عظيمُ المعرّة إلّا أن يستجيب للنداء النابع من أعماق نفسه، لا من عاطفةٍ دينية أو من نظرةٍ سياسية. فإذا به يضع مأساةَ الشهيدين عليّ والحسين، في لوحةٍ فنيّة رائعة، لوّنها خيالٌ خصبٌ، وصبغتْها عاطفة قويّة،

وركّزها عقل فذّ، حتّى لَتكاد تنطق بحزن الطبيعة، ولوعة الدهر على كلّ مأساة، وكلّ فجيعةٍ أُصيبت بها الإنسانية في تاريخها الطويل!

فالمآسي الكبار حلقاتٌ متّصلة من سلسلةٍ واحدة، صاغها كفرُ العُتاة بالخير، وجحودُ الطغاة لقيَم الحياة التي لا تعْدِلُها قيمة. قال عظيمُ المعرّة:

وعلى الدهرِ من دماء الشهيدَينِ ... عليٍّ ونجْلِهِ، شاهدانِ
فَهُمَا، في أواخرِ الليلِ، فَجْرانِ، ... وفي أَوليَاته، شفَقانِ
ثَبَتَا في قميصه، ليجيءَ الحشْرُ، ... مُستَعدياً إلى الرحمانِ(١)

فانظر إلى مقدار العاطفة التي تتوهّجُ في قلب عظيم المعرّة، إذ يتحدّث عن الإمام عليّ وابنه الحسين. وإنّ العاطفة إذا اتّسعتْ وعمُقَتْ؛ لابدّ لها أن تُحيي مثلَ هذه اللوحة، التي شارك في تكوينها وتلوينها الخيالُ والعقلُ جميعاً.

فأيّة مأساة هي مأساة أبي الشهداء وإبنه؟ تلك التي وُضعت فصولُها في زمنٍ قديم، ثم راحت تعمّق عمقاً في قلوب الناس، وتمتدّ امتداداً، حتّى تشمل الزمان أو يشملها، حتّى يصطبغ بها اصطباغاً، وحتّى يكون لها في الأُفق حيّزٌ مكانيّ تملأُه وتفيض، فإذا هي كونٌ ملموسٌ، له حجمٌ وشكلٌ ولون: حجمٌ يملأ الزمان بما فيه من فجرٍ وشفَقٍ وليلٍ ونهار. وشكلٌ تتجسّم فيه مآسي الطيّبين جميعاً، ويثبتُ على حاله حتّى الحشْر، يومَ تزول الجريمة بالنار، ويُثاب المظلوم بحقّه. ولونٌ هو من ألوان الشمس طائفةٌ تصبغ قميصَ الدهر، في أواخر كلِّ ليلٍ وأولَيات كلِّ نهار!

وإنّي لأرىٰ من لوعة العاطفة في هذه الأبيات الثلاثة. وممّا يختفي وراءها من ثورة الفكر والوجدان، ما هو حقيقٌ بأن يجمع القولَ المتلوّع الثائر، في

(١) ديوان المعرّي: ص ١٢٦ سقط الزند: ج ١ ص ٤٤١.

امتداد المأساة العلوية إلى مآسي أنصار الحقّ، الذين أُوذوا وجُلدوا واضطهدوا وشُرّدوا في المفاوز والفلوات، ليموتوا جوعاً وبرداً، ودُفنوا أحياء، وصُلبوا وأُحرقوا مع أبنائهم وإخوانهم، أَنَفةً منهم لأن يخونوا ضمائرهم فيتبرّأوا من عليٍّ أُسوةً بالعبيد، وينكروا شرف الخلق الإنساني الذي استشهد الإمام في سبيله!

ولكأنّي أُحسّ أنّ المأساة العلوية التي امتدّت عصوراً طوالاً، تحيا بهذه الأبيات الثلاثة مادّةً وروحاً.

لكأنّي أرىٰ سحابات السماء الغائمة القاتمة تجري بطيئةً كئيبة في رحابِ الفلاة الباردة، التي مات بها أبو ذرّ الغفاري طريداً شريداً جائعاً مذعوراً، بعد أن مات أولاده أمام عينيه جوعاً وعياء، وبعد أن رأىٰ زوجته تستعدّ للموت صامتةً واجمة، والقاسطون من بني أُميّة يغرقون في نعيم الأرض، ويتخمون ويسيئون!

لكأنّي أرىٰ بها شبَح مسلم بن عقيل، يأمر ابن زيادٍ به فيُصعَد إلى أعلى قصر الكوفة ثم تُضرَب عنقه، وتُلقى جثّته إلىٰ الأرض من شاهق القصر، بعد أن قضىٰ زمناً في عذابات الأبالسة؛ وأقلّها تقطيعُ شفاهه وإلقاء النار عليه وتعذيبه بالعطش وهو فردٌ وهم اُلوف!

لكأنّي أرىٰ بها هاني بن عروة، الشيخ الذي أبىٰ أن يبيت غشوماً ظلوماً، يساط وجهه كما تُساط الإبل حتّى تخفى آثاره ويختلط لحمه بدمه، ثم يُسجن مهاناً، ثم يقاد مكتوفاً إلى سوقٍ يباع فيه الغنم فيُقتل هناك قتلاً مريعا.

لكأنّي أرىٰ بها قصة ذلك الشيخ الجليل، الواهي القوي، عبدالله بن عفيف الأزدي، يسمع عبيدالله بن زياد يقول من على منبر الكوفة بعد مصرع الحسين وغيره من وُلْد الإمام: الحمد لله الذي أظهر الحقّ ونصَر أميرَ المؤمنين يزيدَ

وحزبَه، وقتَل الكذّاب بن الكذّاب وشيعته، فيتصدّى له قائلاً:

يا عدوّ الله؛ إنّ الكذّاب أنت وأبوك والذي ولّاك وأبوه. فما يطلع فجر اليوم التالي إلّا والشيخ الصالح مصلوبٌ في ساحة الكوفة.

لكأنّي أرىٰ بها حُجْرَ بن عديّ الكندي، العادل الشريف، يدفنه معاوية وزياد بن أبيه حيّاً مع نفرٍ من أصحابه؛ أبَوا إلّا الاستقامة مسلكا!

أجل ، إنّها العاطفة الكريمة يمْهَرُ بها شاعرُ المعرّة الطيّبين في مآسيهم، أو في المأساة الواحدة المتّصلة الحلقات لاتّصال الأسباب فيها، والنتائج. فإذا الفجر والشفق يصطبغان بلونها الرهيب؛ حتّى يحشر الناس أمام رَبّ العالمين.

أمّا جبران خليل جبران، الفنّان العربي المبدع، فقد ظلّ طوال حياته يبحث عن الوجوه الإنسانية الصافية، من خلال صفحات التاريخ، رغبةً منه في تجسيم مثاليّته الاجتماعية والإنسانية في أشخاصٍ من لحم ودم. وفي كبار الناس مثَلُ هذه الرغبة لا يُخلّونها ولا تخلّيهم.

وقد هرع بقلبه إلى نيتشه مرّةً وإلىٰ بوذا، وإلى وليم بلايك وأضرابه؛ ممّن رأىٰ أنّهم يجسّمون أشياء في نفسه يريد لها بقاءً أبديا.

وطالما هرع إلى الأُحدوثة الواهمة وإلى الأُسطورة، يرى فيها الكثير من أماني القلب والنفس، التي لم تكن لتكتمل في الواقع، فاكتملتْ بخيال أصحابها وأشواقهم.

غير أنّ ثلاثةً من عظماء الإنسانية ملأوا قلبه، فإذا هم يمثّلون الكمال الإنساني في أروع مظاهره وأصفىٰ صفاته؛ فاتّجه إليهم بقولٍ كثير، هو أشبه بالصلوات الحارّة تتصاعد من معبد الحياة إلى من اكتملتْ فيهم معانيها وسمت روحها. أمّا العظماء الثلاثة في قلب جبران، فالمسيح ومحمّد وعليّ! أمّا قوله في المسيح ومحمّد فكثير، وأمّا اقتباسه من روائعهما فمعروف. أمّا عليّ بن

أبي طالب، فماذا يرىٰ فيه؟

ينظر جبران إلى عليّ نظرته إلى الكائن الذي اتّصل بأسمى ما في الوجود من معاني الوجود، وتاق إلىٰ الكمال الروحي فأدركه واتّحد به؛ فإذا هو يلازم ما أسماه «الروح الكليّة» ويجاورها ويسامرها فلا يجفوها ولا تجفوه.

وهو يرىٰ أنّ عليّاً أوّل عربيّ بعَث في مسامع الدنيا أغـانيّ هـذه الروح الشاملة؛ حتّى لكأنّ قلبه ينهل منها فتذيعها شفتاه أناشيدَ سماويةً تلوَ أناشيد. فإذا هو مع الواقفين على قمّة الدنيا يرون ويحدّثون بما يَرون ويقولون؛ فإذا حديثهم وحيٌ وإذا قولُهم نجومُ سماء!

أمّا بلاغة عليٍّ فإنها النور ذو المناهج والطرق التي تاه عنها العرب فـلم يفهموها؛ ومنهم مَن آثروا عليها ظلماتِ أيّامهم يتيهون في شِعابها رجـوعاً وإلىٰ الجاهليّة، واتّصالاً بمَن تتمثل بهم الجاهلية من سماسرة المنافع وتـجّار الأعناق. ويرىٰ جبران أنّ المعجبين بمناهج البلاغة العـلوية هـم اثـنان: إمّـا صاحب عقلٍ سليم، وإمّا صاحب فطرة ذوّاقة كريمة. فأمّا التائهون عنها؛ فما سلمتْ أخلاقهم ولا صحّت بهم الفطرة.

أمّا رسالة عليّ في الناس فقدكانت كاملة وافية. غير أنّـه مـات قـبل أن تكتمل أهدافها وأغراضها. مات والابتسامة على شفتيه لامتلاء نفسه ووجدانه بما تطمئنّ إليه القلوب الكبيرة. وهو لو استوتْ قدماه في الأرض لَغيّر أشياء! وهو على كلّ حال نبيٌّ، شأنُه شأن جميع الأنبياء الذين يستشعرون الغربةَ بين الأهل، والوحدة بين الناس، والوحشـة فـي الوطـن، إذ يأتـون إلى قـوم ليس بقومهم في زمـنٍ ليس بـزمنهم، ويـحيون بـروحية، أنّـى لأُولئك النـاس أن يدركوها فيوالوا بإدراكهم هذا، وينتصروا لمن يحيا من أجلهم وفي سـبيلهم يموت شهيدا، وإليك ما يقوله جبران:

« في عقيدتي أنّ ابن أبي طالب كان أوّل عربيّ لازمَ الروحَ الكليّة وجاوَرَها وسامَرَها. وهو أوّل عربي تناولت شفتاه صدى أغانيها على مسمع قومٍ لم يسمعوا بها من ذي قبل؛ فتاهوا بين مناهج بلاغته وظُلُمات ماضيهم. فمَن أعجب بها كان إعجابه موثوقاً بالفطرة. ومَن خاصمه كان من أبناء الجاهلية.

« مات عليّ بن أبي طالب شهيدَ عظمته! مات والصلاة بين شفتيه! مرّت وفي قلبه الشوق إلى ربّه! ولم يعرف العربُ حقيقة مقامه ومقداره حتّى قام من جيرانهم الفرس أناسٌ يُدركون الفارق بين الجواهر والحصى».

« مات قبل أن يبلّغ العالمَ رسالتَه كاملةً وافية. غير أنني أتمثّله مبتسماً قبل أن يغمض عينيه عن هذه الأرض».

« مات شأن جميع الأنبياء الباصرين الذين يأتون إلى بلدٍ ليس ببلدهم، وإلى قومٍ ليس بقومهم في زمنٍ ليس بزمنهم، ولكن لربّك شأناً في ذلك وهو أعلم!»».

وهكذا، فإن الإمام عليّاً في نظر جبران نبيّ في غير قومه، وفي غير وطنه وزمانه. حكيمٌ في طليعة حكماء العصور، مات ولم يَعشُ العربُ إلى ضوئه بل عشا الفرسُ إليه، حتّى كانت أزمنةٌ طِوالٌ اهتدوا بعدها إلى مناهج بلاغته وعظمة شخصيّته! وهو، بذلك كلّه، يعيش في هيكل الفكر المطلق والروح المطلق، لا يختلي بذاته إلّا ليبعث في الناس كلاماً أبدياً لاتّصاله بينابيع المعرفة الصافية.

وطالما كان جبران يردّد اسم عليّ بن أبي طالب في مجالسه الخاصّة والعامّة وحين يخلو إلى نفسه. وطالما كان يعظّمه وينعته بما يليق به من حِسان النعوت. يُنبيك عن ذلك أقربُ الناس إليه، وأعني به ميخائيل نعيمة الذي

يقول في رسالةٍ منه إلى مؤلّف هذا الكتاب، في جملة ما يقول: «وأذكر أنّ جبران كان يجلّ الإمام كثيراً ويكاد يضعه في مرتبةٍ واحدة مع النبي».

* * *

أمّا ميخائيل نعيمة، الأديب الفذّ ونابغة الأُسلوب الصافي، فله في ابن أبي طالب رأيٌ، هو حلقةٌ ذهبية في سلسلة الآراء الجليلة التي أطلقها نوابغ الفكر والروح في عليّ.

فهو في نظره سيّد العرب علىٰ الإطلاق، في كلّ فكرٍ وكلّ خلق وكلّ بيان، بعد الرسول. أمّا لغة العرب، التي اتّحدث بها سلامةُ الفطرة الجاهلية برفعة المنطق الإسلامي وصفاء الروح النبويّ، فقد دانت له كما لم تدنْ لسواه. أمّا الحِكَم الزمنية والروحية، فإنّها لم تبلغ من النضج على يد بشرٍ مثلما بلغتْ منه على يديه، وذلك لِما يتوهّج بها من بوارق الإيمان الحيّ، ولِما هي عليه في شكلها من الجمال الفني الرائع. أمّا صفاء بصيرة الإمام فلا يعْدله صفاء بصيرة، حتّى لكأنّ الإمام على اتِّصالٍ بينابيع الحياة والحريّة هو أشبه باتِّصالِ النهرِ بينبوعه، ونَبتِ الأرضِ بماء السحاب. وليس لفكرِ ابنِ أبي طالب، ولروحه وبيانه حدودٌ من زمانٍ ومكان. فهي من العمق بحيث تتّحد بحقائقَ ثابتة، وأُصولٍ قائمة، في بناء الخير والجمال الفنّي الممتع. وهي من الأصالة بحيث تتّصل بأركان الوجود الفكري والروحي والجمالي اتّصالاً لا شكّ فيه.

ولمّا كان الإمام علىٰ مثل هذا الدنوّ من جواهر الأُمور، فإنّه يأخذ منها بلا نَصَب، أو أنّها هي التي تمدّه بروائع القول فيقذف بها «لآلئ بلغتْ بها الطبيعة حدّ الكمال، وكأنّه البحر يقذف بتلك اللآلئ دونما عنَتٍ أو عناء»[1].

---

(١) مقطع من رسالة خاصة للكاتب ستأتي لاحقاً .

وحين يقول ميخائيل نعيمة في صاحبِ فكرٍ وبيان: إنّ آثاره قد بلغت بها الطبيعة حدَّ الكمال، فإنّ لقوله من القيمة ما ليس لقولٍ آخر. ذلك لأنّ نعيمة في تفكيره ـ كما هو في أُسلوبه ـ لا يبالغ ولا يغلو، ولا ينطق لسانه إلّا بما يجيش به قلبه. فلكلّ كلمةٍ تخطّها يداه موضعٌ لا تجوز كلمةٌ غيرها فيه. ولكلّ رأيٍ بيديه معنى في فكره وقلبه واضحٌ، لا يغشاه إبهامٌ كثيرٌ أو قليل!

بعث ميخائيل نعيمة إلى المؤلّف، حين أخبره بأنّه عازمٌ على وضع كتاب عن الإمام، برسالةٍ شيّقة جاء فيها:

«عزيزي الأُستاذ جرداق»

«نِعمّا ما أقدمت عليه في وضع كتاب عن الإمام عليّ، حالَفَك التوفيق. تسألني رأيي في الإمام، كرّم الله وجهه، ورأيي أنه ـ من بعد النبيّ ـ سيّد العرب على الإطلاق بلاغةً وحكمة، وتفهّماً للدين، وتحمّساً للحقّ، وتسامياً عن الدنايا. فأنا ما عرفتُ في كلّ مَن قرأت لهم من العرب رجلاً دانت له اللغة مثلما دانت لابن أبي طالب، سواء في عظاته الدينية، وخطَبه الحماسية ورسائله التوجيهية، أو في تلك الشذور المقتضبة التي كان يطلقها من حين إلىٰ حين، مشحونةً بالحكم الزمنية والروحية، متوهّجة ببوارق الإيمان الحيّ ومدركةً من الجمال في البيان حدّ الإعجاز. فكأنّها اللآلئ بلغتْ بها الطبيعةُ حدّ الكمال. وكأنّه البحر يقذف بتلك اللآلىء دونما عنت أو عناء!

«ليس بين العرب مَن صفَت بصيرته صفاء بصيرة الإمام عليّ. ولا مَن أُوتي المقدرة في اقتناص الصور التي إنعكست على بصيرته وعَرضها في إطارٍ من الروعة، هو السحر الحلال. حتّى سجعه ـ وهو كثير ـ يسطو عليك بألوانه وبموسيقاه، ولا سطوَ القوافي التي تبدو كما لو أنّها هبطت على الشاعر من السماء. فهي ما اتّخذت مكانها في أواخر الأبيات إلّا لتقوم بمهمّة يستحيل

على غيرها القيام بها. إنّها هناك لتقول أشياء لا تستطيع كلماتٌ غيرها أن تقولها. فهي كالغَلَق في القنطرة!» ثم يقول:

«إنّ عليّاً لمن عمالقة الفكر والروح والبيان، في كل زمان ومكان!».

* * *

وهكذا تشدّ العصور بعضها إلىٰ بعض لتُجمع على حبِّ الإمام وإجلاله! وإنّه لعظيمٌ هذا الحبّ، وعظيمٌ هذا الإجلال، يلتقي فيها عبقريّ المعرّة وفنّان لبنان وأديب العرب، على هامةِ ألفِ عامٍ وإختلاف وجوهِ الأرض!

الأوروبيّون والإمام

ـ وعليٌّ هو ذلك البطل الموجَع المتألّم، والفارس الصوفي، والإمام الشهيد ذو الروح العميقة القرار التي يكمنُ في مطاويها سرُّ العذاب الإلهي

كارّا ديفو

في أوروبا مفكّرون وباحثون وقّفوا حياتهم على شؤون الشرق القديم ودرْس قضاياه. وخصّوا العربَ بالسهم الوافر من دراساتهم، والإسلام بالسهم الأوفر. وفي هؤلاء مَن تعمّقوا في هذه الدراسات حتّى لا يجاريهم فيها من يعنيه الأمر مباشرةً من المشارقة.

وفي هؤلاء الأوروبيّين مَن أتقنَ العربية كما لا يُتقنها أبناؤها الصرحاء المعاصرون. ونخصّ بالذكر الفرنسيين والألمان.

ولا نغالي إذا نحن قلنا إن هؤلاء المستشرقين هم الذين فتحوا الباب واسعاً علىٰ حضارات الشرق القديم والمتوسط، بعد أن ألقت عصورُ الانحطاط على معالمها ستاراً أسودَ كثيف السواد. ولا نغالي كذلك إذا قلنا إنّهم أسهموا الإسهام الأكبر في الكشف عن الكثير من الحقائق التاريخية في الماضي العربي. وذلك بفضل أساليبهم العلمية الخالصة في البحث والتدقيق والتحقيق. ثم بفضل ما أُوتوا من صبرٍ وجلَدٍ عظيمين ساعة يأخذون على عاتقهم دراسة موضوعٍ من موضوعات التاريخ. غير أنّا نستثني المُغرضين الماكرين الذين سخّروا إمكاناتهم العلمية، لغاياتٍ لا نجور عليهم إذا نعتْناها بأنّها تافهة، وأنزلوا

آثارَهم المنزلةَ الرخيصة، التي تقوم بتشويه الحقائق ومسخ الوقائع.

ففي هؤلاء المستشرقين، إذاً، كثرةٌ طاغيةٌ تتّصف بالعدل في الحكم وبالإنصاف الكثير، بالإضافة إلى تقييد البحث بالدليل والبرهان، وإلى التحقيق والتدقيق الوثيقين.

وفي هؤلاء المستشرقين قِلّةٌ ضئيلة لم تعدل ولم تُنصف. إمّا لغايةٍ مقصودةٍ من عمل الغرب، حين ينظر إلى الشرق نظرةً خاصّة. وإمّا لخطأ في النظر غير مقصود، يكون مردّه على ما نرجّح إلى عجز هؤلاء الأجانب، أبناء القرن العشرين، عن أن يُدركوا حقيقة أوضاع المشارقة القدماء، وحقيقة طباعهم ونفسياتهم وأجوائهم. فليست كلّ الحقائق الإنسانية بخاضعةٍ لكلِّ مقياس.

وقبل أن نواصل الكلام عن المستشرقين، وعن نظرتهم إلىٰ عليّ وإلى ماضي الشرق العربي في بعض وجوهه، لابدّ من أن نشير إلى نفرٍ من عباقرة أوروبا ـ من غير المستشرقين ـ لنحيّي فيهم النزعة الإنسانية الشريفة التي لا تتأثّر بحدودٍ تقوم بين شرقٍ وغرب، ولا تأبهُ للأضاليل التاريخية التي تقيم الحواجزَ بين شعبٍ وشعب، ونحيّي العبقرية التي تدوسُ كلَّ مصطَنَعٍ من الفواصل بين أبناء الإنسانية الواحدة وتضرب بجناحيها القويّين في كلّ سماء!

في طليعة هؤلاء العباقرة الأوروبيّين الذين أخلصوا للعفويّة في طبائعهم، وللوجدان والمنطق في أحكامهم: الشاعر الكونيّ العظيم غيتي، وكارليل، وجورج برناردشو، والشاعر الفرنسي لامارتين، وغوستاف لوبون، وولز، والشاعر الإيطالي كايتاني، والكثير غيرهم.

* * *

أمّا المستشرقون ـ ولنعد إليهم ـ فمن الطبيعيّ أن يكون عليّ في طليعة مَن

دارت عليه أبحاثهم. ومِن الطبيعي أن يقفوا عند شخصية الإمام الفذّ، ويُطيلوا الوقوف.

وليس بأقلّ طبيعيّة، كذلك، أن يقودهم البحثُ إلى إجلال عليٍّ وإلى حبّه وإيثاره، إلّا أُولئك النفر الذين تعصّبوا عليه أشدّ تعصّب، وعظّموا من شأن معاوية وبني أُميّة أشدّ تعظيم. تدفعهم إلىٰ هذا التعصّب على الإمام، وإلى تعظيم بني أُميّة، دوافعُ من المزاج الخاصّ الذي يؤثر الحيلةَ على الاستقامة، ويوالي الغدر على المسلك الصادق القويم. ودوافعُ أُخرىٰ من نسيج العصر الذي يريد العملَ السياسيّ والإداري خالياً من المعاني الخلقية الإنسانية المشرّفة. أمّا امتداح بني أُميّة، وفيهم أبو سفيان ومعاوية ويزيد ومروان بن الحكم وأضرابهم، فهو نتيجة محتومة يجب أن يبلغ إليها مَن يهاجم عليّاً.

ولنجتزئ الآن بعرضِ موقف أفذاذ الأوروبيين من الإمام عليّ عرضاً موجزاً. وهو لا شكّ صورةٌ لموقف القسم الأعظم فيهم من ابن أبي طالب، ويسلكون في صفّين: مُنصفٍ نترك له أن يقول، ومُنكرٍ نردّ عليه.

أمّا الفيلسوف الإنكليزي «كارليل» فإنّه ما يكاد يأتي على ذكر عليّ بن أبي طالب في إسلامياته، حتّى تهزّه الشخصية العلوية من أعماقه، وتُفيض عليه من قوّتها قوّة تدفعه لأن يرتفع من نطاق البحث العلمي الجافّ إلى أجواء الشعر، فإذا بقلمه يندى ويخضلّ من تلقاء ذاته ليتغنّى ببطولات عليّ، حتّى لَتشعر بأنّ صاحب هذا القلم إنّما هو من شيعة الإمام ومن أنصاره.

وأترك لك أن تتصوّركم هي عظيمة هذه الشخصية، شخصية إمامٍ عربي قضى منذ بضعة عشر قرناً، إذ تدفع مفكّراً إنكليزياً معاصراً لأن يقول فيه، في جملة ما يقول:

«أمّا عليّ، فلا يسعنا إلّا أن نحبّه ونتعشّقه. فإنّه فتى شريف القدر، عالي

النفس يفيض وجدانه رحمةً وبرّاً، ويتلظّى فؤاده نجدةً وحماسة. وكان أشجع من ليْث، ولكنّها شجاعة ممزوجة برقّةٍ ولطف، ورأفةٍ وحنان، جدير بها فرسان الصليب في القرون الوسطى. وقد قُتل بالكوفة غِيلة. وإنّما جنى ذلك على نفسه بشدّة عدله حتّى أنّه حسب كلّ إنسان عادلاً مثله. وقال قبل موته حينما أُومر في قاتله: **«إنْ أعشْ فالأمر لي وإن أمتْ فالأمر لكم. فإن آثرتم أن تقتصّوا فضربة بضربة. وإن تعفوا أقرب إلى التقوىٰ»**(١).

ويتقصّى الباحث الفرنسي البارون «كارّا ديفو» الأسبابَ والعلل في حوادث الإسلام. فيستجلي حقائق كثيرة بأُسلوبٍ متماسكٍ جذّاب. ويتحدّث عن بطولة عليّ، في حروب المسلمين وقريش حديثاً تملأه عاطفة الإعجاب وتُحييه الحماسة. يقول البارون كارّا ديفو:

وحارب عليٌّ بطلاً مغواراً إلى جانب النبيّ. وقام بمآثر معجزات. ففي موقعة بدر كان عليّ، وهو في العشرين من عمره، يشطر الفارس القرشيّ شطرين اثنين بضربةٍ واحدة من سيفه. وفي أُحُد تسلّح بسيف النبي ذي الفقار، فكان يشقّ المغافر بضربات سيفه ويخرق الدروع. وفي الهجوم علىٰ حصون اليهود في خيبر، قلقلَ عليّ باباً ضخماً من حديد. ثمّ رفعه فوق رأسه متّخذاً منه تُرساً مِجَنّاً. أمّا النبيّ، فكان يحبّه ويثق به ثقةً عظيمة. وقد قال ذات يوم، وهو يشير إلىٰ عليّ: **«مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه»**(٢).

ولئن كان بعض المتزمّتين من الباحثين يرون أنّ ترجمة عظيمٍ من العظماء ودراسة شخصيته لا يستوجبان أكثر من سرد الحوادث وحشْد

---

(١) «محمد المثل الأعلىٰ» تأليف كاريل وتعريب محمد السباعي: ص ٣٤.

(٢) «مفكرو الإسلام» للبارون كارا ديفو ـ باللغة الفرنسية ـ الجزء الخامس: ص ١ ـ ٢ «المقاطع المنقولة تعريب المؤلف».

الأرقام والإتيان بالحجّة والدليل، متعلّلين لهذا الجفاف بصفة «العلم» التـي لا تجيز الخروج من نطاق سرد الحوادث وحشد الأرقام إلى نطاقٍ تحيا به العاطفة ويخفق القلب، أقول: إذاكان بعض الباحثين يرون هـذا الرأي، فـإنّما يـصحّ رأيُهم في حالتين اثنتين ولا يصحّ في غيرهما: أمّا الحالة الأُولىٰ فحين يكون الباحثُ جافّاً من طبعه، قليل الحظّ من العاطفة والخيال، فيكون شأنه عند ذلك شأن معلّمي المدارس الذين يدرسون الحياة والأحياء بعقليّة مَن يدرس جماد الطبيعة، فلا يرىٰ فيه مجالاً لأكثر من تسجيل الحوادث وسرد الأرقام وإقامة الدليل والبرهان.

أمّا الحالة الثانية فحين يكون المترجَم له رجلاً عادياً لا يعني الباحثَ من أمره شيء أكثر من إرتباط اسمه بالحادثة التي يسوقها.

أمّا حين يكون المترجَم له كابن أبي طالب يصنع الحوادث ولا تصنعه، ويتّحد بما يصنعه اتّحادَ فكرٍ وعاطفةٍ وخيال، ويرتبط به ارتباطَ حياةٍ وموت؛ فمن الطبيعي عندذاك أن يثير في نفس دارسه ما يجوز نطاقَ البحث الجافّ إلى عالَم الأحاسيس الحيّة. فإذا الباحث يؤيّد أو يستنكر، يحبّ أو يكره، وهو بحالتيه الاثنتين منطقيّ وواقعيّ.

وليس في سِيَر العظماء واحدةٌ كسيرة ابن أبي طـالب تـحرّك المشـاعر وتوقظ الأحاسيس الحيّة في كيان مَن يتعرّض لها بدرسٍ أو بحث.

وبناءً علىٰ هذه الحقيقة الإنسانية، تجد أنّ دارسي شخصيّة الإمام لابدّ من أن يطغى عليهم هذا الشعور العميق بالحبّ والإعجاب والعطف، إلّا إذاكان لهم غرضٌ في غير ذلك. فإنّ المرء عندذاك يمكنه أن يجعل الصيفَ شتاء والنهارَ ليلاً بهيماً مدلهمّاً!

أمّا البارون كارّا ديفو، فإنّك تشعر بـالحماسة تـدبّ فـي عـروقه سـاعةَ

يتحدّث عن عليّ في أكثر أحواله. فإذا الباحث ينقلب على قلمه إلى شاعر. فنراه ساعة يتحدّث عن موقعة الجمل، يصف بطولة عليّ وصفاً مؤثراً مبدعاً[١]، ويروي من مآثره الشيء الكثير. ثمّ يتحدّث عن مروءات الإمام فيصفها بأنّها نادرة خارقة، وعن شهامته ومظاهرها التي لا تعَدّ. ويقول قولاً كريماً في شاعريته الفذّة وعواطفه الكريمة. أمّا مقتل عثمان، فيبرئ منه عليّاً بعد بحثٍ طويل، ويلقي المسؤولية فيه علىٰ أنسباء الخليفة القتيل، وعلىٰ أعوانه.

وبعد أن يُسهب في الحديث عن حبّ الشيعة للإمام عليّ، ثمّ عن إختلاف شخصيّته بين درجاتٍ من المثالية السامية والكمال الإنساني، وعن حبّ الأُوروبيّين له كذلك، خاصّاً بالذكر الفيلسوف الانكليزي «كارليل» الذي تقدّم ذكره، يقول هذا القول الذي يوجز رأيَه الشخصيّ في عليّ، ويدلّ على احترامٍ وحبٍّ عميقين:

«وعليٌّ هو ذلك البطل الموجَع المتألّم، والفارس الصوفيّ، والإمام الشهيد ذو الروح العميقة القرار التي يكمن في مطاويها سرُّ العذاب الإلهي»[٢].

وقبالةَ هذه الطائفة من المستشرقين المنصفين، نجد طائفة ثانية يعميها القصد المغرض، فإذا هي تجهد نفسها لتستنبط من حواشي التاريخ وذيول الحوادث ما يجعل شأن الإمام ـ في زعمها ـ ضئيلا. ويمثّل هذه الطائفة من المستشرقين «لامنس» الذي جعل همّه الأوّل من كلامه الكثير على عليّ والأُمويّين، تمجيدَ معاوية وبني أُميّة، واختلاقَ العلل التي يريد بها أن يجعل عليّاً في درجةٍ لا تسمو إلىٰ درجة معاوية!

(١) راجع « مفكرو الإسلام » ـ بالفرنسية ـ الجزء الخامس : ص ٥.
(٢) « مفكرو الإسلام » : ص ١٠.

وقبل أن نوجز موقف «لامنس» هذا من الإمام عليّ وقضايا الإسلام في عصره، لابدّ من أن نقول كلمةً في علمه كي لا نجعل على أنفسنا سبيلاً.

إنّ «لامنس» موسوعةٌ نادرة المثال من حيث ما يعرف وما يستوعب. فإنّ شيئاً كثيراً أو قليلاً من دقائق التاريخ العربي لا يفوته ولا يخفاه. فمادّته غزيرةٌ وعلمه واسعٌ لا يجاريه فيهما مستشرق آخر. وحافظته قويّة معجزة. وهو يرفق تصانيفه الإسلامية الكثيرة بإسنادٍ تهولك سعتُه وضخامته. حتّى لتدرك أنّه يعرف كلّ ماكتبه المؤرّخون من عربٍ ومستشرقين وما لم يكتبوه، وكلّ ما صنّفه القدماء والمحدثون وما لم يصنّفوه، في ما يخصّ الموضوعات الإسلامية.

هذه كلمة حقّ في المستشرق الواسع العلم. غير أنّ ما يعنينا الآن هو إظهار الغرض الذي أفسد هذا العلمَ الكثير. فإنّ «لامنس» لم يستخدم علمه في خدمة الحقيقة. ولم يلجأ إلىٰ إثبات الأسانيد الضخمة في مصنّفاته تجليةٌ للواقع، وإيضاحاً لِما خفيَ علىٰ سواه من أُمور الناس في الشرق العربي القديم. بل يؤسفنا أن نقول إنَّ هذا العالم أساء إلى علمه وسعة اطّلاعه ساعةَ جعل همّه في معظم الأحيان أن يعاكس ما أثبته التاريخ، وما يثبته العقل والمنطق وطبيعة الحوادث. بل إنّه ليعاكس العاطفة الموالية التي يستشعرها المرء إزاء أُولئك العظماء من المسلمين الأُوَل. ويحاول أن يخطّئ كلَّ عطفٍ يحسّه الإنسان على الجانب الإنسانيّ الخيّر في الطيّبين والخيّرين.

ويؤسفك من تحيّزه أكثرُ من هذا، يؤسفك فيه أنّ غرضه الواضح في الإساءة إلى عظماء الشرق قد أخرجه حتّى عن نطاق علمه. فإذا هو رأى أمراً ذا وجهين، أهملَ الأسانيد الكثيرة التي تؤيّد الوجه الصالح أو الصحيح، واعتمد الأسانيد النادرة التي تثبت ـ علىٰ زعمه ـ الوجهَ العابسَ أو المخطئ. ثمّ

إنّه يجفّ ويفترّ، ويقتضب أو يُهمل، ساعةَ تتضافر الأسانيد والدلائل علىٰ إبراز حسنةٍ من حسنات أُولئك العظماء. وينشط ويتحمّس، ويُسهب أيّما إسهاب، ساعةَ يجد عبارةً واحدة تشير إلىٰ ما يظنّ فيه الإساءة إليهم. وليست صفات العالم العادل المنصف هذه الصفات. بل إنّها إلىٰ الافتراء أقرب، وما أخطرَ الافتراء ساعة يُخرجه صاحبه بصيغةٍ توهم القارئ بأنّها صيغةٌ علمية خالصة.

والغريب في أبحاث «لامنس» هذه أنّ صاحبها ينفي عن الأسانيد الكثيرة التي لا تخدم غرضه في الإساءة، صفةَ الثبوت التاريخي. فيما هو يؤكّد هذه الصفة للأسانيد القليلة، المغالطة، إذ تخدم غايته ومرماه.

ويفضح «لامنس» اغراضه بما هو أوضح من ذلك. فهو قد يذكر خبراً معيّناً ليبدي ارتيابه في صحّته. ثمّ يذكر أخباراً أُخرى، ولا يبدي مثل هذا الارتياب في صحّتها. غير أنّه لا يلبث أن يعود ويستند في بحثه إلىٰ الخبر الذي ارتاب فيه، لأنّ هذا الخبر بالذات يخدم غايته. فيما يُهمل الأخبار التي لم يرتب في صحّتها، وهي بالتصديق والاعتماد أجدر!

على هذا الأُسلوب يوجّه «لامنس» قضايا الشرق العربي القديم وفيها قضيّة عليّ بن أبي طالب. وعلى هذا النحو يدرس محمّداً وعليّاً وأصحابهما من جهة؛ وأبا سفيان ومعاوية ومن إليهما من جهة ثانية. فأولئك يؤلّفون في أكثر مصنّفاته موضوعاً للافتراء. وهؤلاء يؤلّفون موضوعاً للتمجيد والتعظيم. وهو يبالغ في الحالتين. وإليك نموذجاً من آرائه:

لا يكاد «لامنس» يذكر عليّاً في مصنّفاته الكثيرة إلّا ليأخذ مأخذاً ويختلق مطعناً. فهو إمّا ذكرَ هذا العبقري الفذَّ نعَتَه من حيث الذكاء بأنّه

محدود(١). وأبىٰ أن يثق ببلاغة صاحب «نهج البلاغة» وبشاعريّته القويّة. ثمّ سخر، على أُسلوبٍ مخادع، بالروايات الثابتة التي تتحدّث عن شجاعته وفروسيّته(٢). والعجيب هو أن يتأتّى لباحثٍ أن يجرّد عليّاً من البلاغة والشاعرية والذكاء والفروسية، وهي الصفات التي تلازمه ملازمة الدفء للنار. بل إنّها الصفات التي لم ينكرها معاوية ابن أبي سفيان وعمرو بن العاص ـ العزيزان على قلب لامنس ـ وأنكرها «لامنس» نفسه!

ولو شاء المرء أن يعتمد الأُسلوب الذي اعتمده «لامنس» في إنكار هذه المزايا العلوية؛ لاستطاع بدون جهدٍ وعناء أن يُنكر وجودَ عليّ ومحمّد والمسيح وسقراط وشكسبير ونابوليون بونابرت، لا أن يُنكر فيهم صفاتٍ معيّنة وحسْب! فليس ما هو أسهل على المرء من أن يعاكس حقيقةً من الحقائق بصفحاتٍ يُثبتها في كتاب، ويسندها ببعض الأسانيد، مشيراً إلى بعض المراجع!

ولا يكتفي «لامنس» بمثل هذا الافتراء على ما أثبته كلّ تاريخ. بل إنّه يطعن في مسلك عليّ فإذا هو، في نظره، يسيء معاملة زوجه فاطمة(٣) التي قال عليّ بعد موتها: إنّ حزنه سرمد وليله مسهّد! ويبلغ به التحامُل علىٰ الإمام حدّاً يقول معه: إنّ النبيّ كان يهمل شأنه(٤) ويكره صحبته(٥).

ولا يجد «لامنس» للإمام عليّ حسنةً واحدة. بل يمعن في تجريده من مزاياه الطيّبة، حتّى في الحالات التي توجب على المرء أن يطأطئ رأسه

---

(١) لامنس: «معاوية الأوّل» ـ بالفرنسية ـ ص ٧٩، ٨٣. و «فاطمة» ـ بالفرنسية أيضاً: ص ٢٣، ٢٦، ٤٨.

(٢) فاطمة: ص ٢٩.

(٣) فاطمة: ص ٥٩، ٧٢.

(٤) فاطمة ص: ٥٢، ٥٦، ٥٧

(٥) فاطمة: ص ٥٧.

إعجاباً وإجلالاً. مثال ذلك أنّ هذا المستشرق يهاجم في عليٍّ زهدَه وتقشّفه وأُسلوبه الكريم في الحصول علىٰ العيش بالعمل وعرق الجبين، لا بالاستئثار والمخادعة. ويجد منقصةً في تصرّفِ عليّ ساعةَ كان يعمل بيده، بعد الهجرة إلىٰ المدينة، للحصول على القوت الضروري، ثمّ يأتي زوجَه فاطمةَ بتمرٍ ابتاعه بما ربح من عمله الشريف، قائلاً لها: كلي وأطعمي صبيانك[1].

رویٰ الإمام عليّ قال :

«جعتُ بالمدينة جوعاً شديداً فخرجتُ أطلب العمل في عوالي المدينة، فإذا أنا بامرأةٍ قد جمعت مَدَراً، فظننتُها تريد بَلّه، فأتيتُها، فعاطيتُها كلَّ دلوٍ بتمرة. فمددتُ ستّة عشر دلواً حتّى وهنت يدي. ثمّ أتيتُها فعدّت لي ستّ عشرة تمرة، فأتيتُ النبيّ فأخبرتُه، فأكل معي منها، وقال لي خيراً ودعا لي»[2].

ويستوقفنا أن يجد أحدُ الناس في مثل هذا العمل مأخذاً على الإمام عليّ فيتحدّث عنه بسخرية مبطّنة وباستخفاف.

واعجباه! أوَ تكون أخلاق العظماء أكمل من خلق عليّ بن أبي طالب ساعةَ يعمل بيده ليأكل ويطعم زوجه وبنيه، فلا يستأثر بمعاش الآخرين على غير بلاء؟

واعجباه! أوَ تكون صفات عظماء الإنسانية أجمل من صفة عليّ بن أبي طالب العظيم وهو يبادر دنياه بهذه البساطة، وبهذه العفويّة وبهذه الطبعيّة؟ إذ يقيم معاشه علىٰ أساسٍ من جهده فلا يستكبر ولا يستعلي بل يعمل بإرادة الحياة، وفي صفاء البصيرة ورضا الوجدان.

---

(١) فاطمة : ص ٥٧ .

(٢) مُسند أحمد بن حنبل : ج ١ ص ١٣٥ مجمع الزوائد للهيثمي : ج ٤ ص ٩٧ .

ولكنّ منطق الواقع يفرض على «لامنس» أن يأخذ على الإمام عليّ مثلَ هذا الشرف في العمل، ومثل هذا الصدق في مواجهة اُمور المعاش وشؤون الدنيا، وهو الذي لا يرىٰ خيراً إلّا في اُسلوب معاوية ويزيد وعمرو بن العاص ومَن إليهم في الاستعلاء والاستئثار وكسب الدنيا عن طريقٍ ملتوية خادعة! فمَن يمتدح اُسلوب معاوية في النظر إلى الاُمور؛ لا يمكنه أن يمتدح اُسلوب عليّ.

وليس أنصار عليّ بأسعدَ منه حظاً لدى «لامنس». فهو إذا ذكر المصلح العظيم أبا ذر الغفاريّ، أهمل الإشارة إلى معاني العظمة والخير والكفاح في سيرته، وأهمل الإشارة إلىٰ إساءات الاُمويين إليه. ثم طاب له أن ينعته بالمتعصّب[١] تارةً، وبالمتعصّب الفوضويّ ونصير عليّ[٢] تارةً اُخرىٰ!

أمّا الأنصار ـ وهم مسايرون لعليّ ـ فمن صفاتهم أنّهم يحسدون القرشيّين[٣]. وهم قومٌ تحكمهم نساؤهم[٤]. أمّا القرشيون الذين يحسدهم الأنصار فهم الاُمويون، لأنّهم أجدر بأن يُحسدوا. فغير الاُمويين من قريش، قليلو الذكاء[٥] ليس عندهم ما يُحسدون عليه!

* * *

أمّا حين يكون الأمر أمر بني اُميّة وأمر خصوم الإمام جميعاً، فإنّ «لامنس» ينقلب إلىٰ مؤمنٍ بمزاياهم «الطيّبة». فأبو سفيان بن حرب هو شيخ

---

(١) معاوية الأوّل : ص ٩٣.

(٢) المصدر السابق : ص ٢٣٨.

(٣) المصدر السابق : ص ١٩٠، ١٩٤، ٢٤٥.

(٤) المصدر السابق : ص ٣١٤، ٣١٥، ٣٣٧.

(٥) المصدر السابق : ص ٣٣٠، ٣٥٣، ٣٥٤.

مكّة الجليل[١] الذي يفوق بحلمه وتواضعه ابنَه المعظّم معاوية[٢]، وهو وزوجه هند آكلة الأكباد شاعران[٣] بل إنّ أبا سفيان من أشعر قريش!

أمّا معاوية بن أبي سفيان فهو العبقريّ الفذّ[٤] الحليم[٥] المضياف[٦] السياسي النابغ[٧] المصلح الاقتصادي والعمراني والعسكري[٨] والزوج الصالح[٩] والحاكم المنظّم الواعي والملك النموذجي[١٠] المحبّ للشعر والموسيقى[١١] بل الشاعر صاحب الذوق الفنّي الرفيع[١٢]. ثمّ إنّه المربّي الفاضل الذي ينشىء ابنَه يزيد علىٰ الحلم[١٣] والحسنات.

ولا يرى «لامنس» في معاوية نقيصةً واحدة، حتّى ليذهب به حلمه ـ الذي استعاره من معاوية على ما يبدو ـ إلىٰ تبرير جرائم الخليفة الأُمويّ الأوّل محتجّاً لتبريره هذا بحجّةٍ مضحكة، قائلاً:

«لم يكن معاوية بذلك الرجل الذي يرتكب جريمةً لا طائلَ فيها»[١٤]. أي أنّه لم يكن ليقتل أحداً إن لم يكن له في قتله نفع!

---

(١) معاوية الأول : ص ٧٩.
(٢) المصدر السابق : ص ٨٩.
(٣) المصدر السابق : ص ٢٥٥.
(٤) المصدر السابق : ص ٢٨١.
(٥) المصدر السابق : ص ٦٦، ١٠٨، ٤٤.
(٦) المصدر السابق : ص ١٠١.
(٧) المصدر السابق : ص ٢١٣، ٢٢٤ الخ.
(٨) المصدر السابق : ص ٤٦.
(٩) المصدر السابق : ص ٣١٤، ٣٢٨.
(١٠) المصدر السابق : ص ١٨٩، ٢١٣.
(١١) المصدر السابق: ص ٢٥٦، ٣٧٤.
(١٢) المصدر السابق : ص ٢٥٥.
(١٣) المصدر السابق : ص ٣٧٥، ٣٧٦.
(١٤) معاوية الأوّل : ص ١٥٣.

وأترك للقارئ أن يردّ علىٰ مثل هذا التبرير العجيب للجريمة!

ولا يختلف موقف «لامنس» من يزيد بن معاوية، وزياد بن أبيه، وعمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، عن موقفه هذا من جملة الأُمويّين وجملة أنصارهم! وأكتفي بأن أذكر لك أنّه يُسهب في الحديث عن «شجاعة» يزيد بن معاوية[١] ويوافق، بخاطر مطمئنّ، علىٰ نعته بـ«فتى العرب!» كما يوافق علىٰ وصفه بمعدن الحلم[٢].

وقد يزداد استغرابك إذا عرفتَ أنّ «لامنس» يتجنّب كلَّ ما يفضح أُسلوب الأُمويّين وأنصارهم في مخالفة الناس ومعاملة من لا يطأطئون أمامهم الرؤوس. فهو إذا اضطّر، بحُكم البحث وسياقه، إلى ذكرِ مجرمٍ من أُولئك المجرمين الذين استعملهم الأُمويون للتنكيل بمن يعارض سياستهم؛ اكتفى بأن يمرّ بجرائمه مروراً. هذا إذا لم ينعتْه ببعض ما يخفّف من النقمة عليه أو بما يخفي إساءاته.

من ذلك أنّه لا يرى غضاضةً في ستر العيوب الأخلاقية والإنسانية التي تميّز بها مجرم غليظ الطبع كبُسْر بن أرطأة، ذاك الذي إختاره معاوية ووجّهه علىٰ رأس جنودٍ جُفاة إلى جزيرة العرب، وأوصاه أن ينكّل بشيعةِ عليّ أشدّ تنكيل، ويقسو علىٰ أهل البادية أشدّ قسوة، وأن يلقي الويل والذعر والدمار في المدينة والطائف وسائر المدن التي لا تذعن لأمره. فمضى إلىٰ البادية يمعن في القسوة والغلظة والتنكيل والتقتيل. وأفسد في كلّ أرضٍ مرّ بها مبالغاً مشرفا. وبلغت به وحشيّته أن لقي في طريق عودته إلىٰ الشام صبيّين صغيرين لعبيدالله بن عباس عامل عليّ علىٰ اليمن، فذبحهما علىٰ غير خطأ منهما، وعلىٰ

(١) معاوية الأوّل: ص ٤٤٦، ٤٤٧.
(٢) المصدر السابق: ص ٣٧٥.

غير منفعةٍ له أو لسيّده من ذبحهما! ولكنّها الدناءة في بعض النفوس والخسّة في بعض الضمائر!

وهذا المجرم لا يجد «لامنس» في مؤلّفاته مبرراً لأن يذكره بما يسيء. إذ يكفيه أن يخدم بني أُميّة ويناهض علياً كي يصبح جديراً بالعفو لدى «لامنس» وبالغفران!

ولكنْ، كيف يمكن للامنس المسيحي المؤمن ـ كما يدلّ ظاهره ـ أن يهاجم عليّ بن أبي طالب»، أقرب الخلق إلىٰ المسيح بوداعته وزهده وتواضعه واستقامته وصلابته مع الحقّ، وعظمة أخلاقه وقوّة إيمانه وعمق إنسانيته وجلال مأساته» لو لم تكن غايته الأُولىٰ والأخيرة من مؤلّفاته الإساءة إلىٰ الروح الشرقية عامّة، والعربية خاصة، وفي طليعة مَن يمثّلونها الإمامُ عليّ؟

وكيف يمكن للامنس المسيحي المؤمن ـ كما يدلّ ظاهره ـ أن يمتدح معاوية ويزيد وبطانتهما، ويشيد بأُسلوبهما في الحصول علىٰ الولاية، لو لم يكن ذا نزعة مكيافيلية خالصة تدفعه لتعظيم أُولئك الذين يعملون بمبدأ «الغاية تبرّر الواسطة» مهما هشّمت الواسطةُ من ضحايا؟!

كيف يهاجم لامنس مَن يقول: **«أحببْ لغيرك ما تحبّ لنفسك، واكرهْ له ما تكره لها»**[1]. و **«عاتبْ أخاك بالإحسان إليه واردده بالإنعام عليه»**[2] و **«بئس الطعام الحرام، وظلم الضعيف أفحش الظلم»**[3] و **«لا يزهّدنّك بالمعروف من لا يشكر لك»**[4] و **«عودوا علىٰ مَن حرَمَكم بالفضل»**[5]؟! ثم كيف يسخر من أُسلوبه العظيم في المخالقة ومن

---

(١) نهج البلاغة: النص رقم ٣١ من وصيته للإمام الحسن (عليه السلام).

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٥٨ وفيه: واردد شرّه بالإنعام عليه.

(٣) نهج البلاغة: النص رقم ٣١ من وصيته للإمام الحسن (عليه السلام).

(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢٠٤.

(٥) جواهر المطالب: ج ١ ص ٣٣٠ وفيه: وعودوا بالفضل علىٰ من حرمكم.

دستوره الجليل في الولاية، ليعود ويمجّد «عبقرية» مَن يقول: «إنّ لله جنوداً من العسل»[1] المداف بالسم، والذي يشتري أهلَ الغدر والفسوق بأموال الناس، أو يأمر بسفك دماء المساكين والمستضعَفين إذا هم لم يوالوه ويخضعوا لإرادته في استخلاف ابنه الخليع، وإذا هم لم يسايروه في شتم أعظم الناس خلقاً، وأكرمهم نفساً وأغزرهم علماً، وأوسعهم عقلاً؟ كيف يهاجم ذاك ويسخر منه، ويمجّد هذا؛ مستخدماً كلَّ ما أُوتي من علمٍ وما وُهب من حماسة في سبيل هذا التمجيد، لو لم تكن غايته الأولىٰ والأخيرةً من مؤلّفاته الإساءة إلىٰ الروح العربية الصافية التي يمثّلها عليّ لا معاوية، ولو لم يكن مكيافيليّ النزعة؟

إنّ الأُسلوب الذي اعتمده هذا المستشرق في تهجّمه علىٰ عليّ بن أبي طالب، لا ينفع صاحبه إلّا في حالة واحدة، هي التهجّم علىٰ كلّ قيمةٍ في الخلق والضمير والعبقرية الموجّهة في تاريخ الإنسان القديم والحديث؛ وتعظيم كلّ قسوةٍ في الكبد وكلّ جفاء في الطبع وكلّ انحراف في الوجدان وكلّ أنانية معربدة فاسدة عريضة الفساد.

إنّه أُسلوبٌ أشبه ما يكون بالأُسلوب العسكريّ في ساحة الحرب: لا فضلَ إذ ذاك إلّا لصاحب الحيلة والبطش في سبيل الغلبة!

وماذا يقول «لامنس» في سقراط، لو طُرح عليه السؤال؟

هل يتعرّض لقضيّته بمثل الأُسلوب الذي تعرّض به لقضايا عليّ بن أبي طالب؟ وهل يجد أنّ سقراط، بسيرته الجليلة، موضوعٌ للذمّ والتهجّم؟ أم يرىٰ أنّ سيرته موضوع إعتزازٍ للإنسانية وتراثٌ عظيمٌ للخلق الإنساني؟ إنّه، إن فعل، كان منسجماً مع مكيافيليته! وإنّه إن لم يفعل، أظهر غايته صريحةً في

(١) الاختصاص للمفيد: ص ٨١ آمالي المفيد: ص ٥٠ المصنف، لعبد الرزاق: ج ٥ ص ٤٦٠ شرح نهج البلاغة: ج ٧ ص ١٦٠.

الإساءة إلىٰ الإمام عليّ!

وقبل أن نختم هذا الحديث، نرىٰ لزاماً علينا أن نردّد، هنا، ما قاله المستشرق الفرنسي الجليل «كازانوفا» الأُستاذ في كوليج دي فرانس، وأحد الذين أنصفوا الإمامَ في دراساتهم، يوم أصدر «لامنس» كتابه «معاوية الأوّل» الذي وضع فيه الإمامَ علياً موضعَ المقابلة مع معاوية وسائر الأُمويّين، فبالغ في التهجّم علىٰ عليّ وأنصاره، كما بالغ في تمجيد الأُمويّين وأنصارهم. قال كازانوفا ردّاً علىٰ لامنس:

«كانت نفسية الأُمويّين علىٰ الإطلاق مركّبة علىٰ الطمع في الغنى إلىٰ حدّ البشَم، وحبِّ الفتح بقصد النهب، والحرص علىٰ التسوّد للتمتّع بملذّات الدنيا.

لذلك حقّ لنا أن نعجب للامنس يتطوّع للدفاع عن أُولئك النهّابين ساخراً من عليٍّ الذي مكروا به وخدعوه.

وليس أغرب من هذه المباحث التي يُظهر فيها هذا المؤلّف المطّلع علىٰ تاريخ ذلك العصر اطّلاعاً حرِيّاً بالإعجاب، تشيّعَه لأُولئك علىٰ هؤلاء؛ والتي تتعاقب فيها المرافعات الدفاعية، والبيانات الاتهامية يزحم بعضها بعضاً»[1][2].

---

(١) ببعض التصرف عن «آراء غربية في مسائل شرقية» عن محمد وانتهاء العالم لكازانوفا.

(٢) الى هنا ينتهي اختصارنا لكتاب صوت العدالة الإنسانية فإن كان حسناً فمن عند الله وإن كان خطأً فمن عندي والحمدلله رب العالمين.

محتويات الكتاب

كلمة المجمع ٥

مقدمة التحقيق ٧

كلمة المؤلف ١١

المقدمة ٢٣

أرض المعجزات ٢٧

مَهد النبوّة ٢٩

صَوْت محَمّد ٣٥

الضمير العملاق ٤١

من الجّذور العلويّة ٥٥

النَّبيّ وأبو طالب ٥٧

النّبيّ وعليّ بن أبي طالب ٦٧

هذا أخي ٧١

صفة الإمام ٨١

الخُلق العظيم ٨٣

مع كل علم ١١١

التجربة القاسية ١١٩

الولاية من الجماعة ١٢٧

الحُرِيَّة وَيَنابيعُها ١٣٩
الحُريّة بين الفرد والجماعة ١٥٥
من أين لك هذا ؟ ١٦١
رفـع الحاجـة ١٧١
لا تعصبٌ وَلَا إطـلاق ١٩١
الحربُ والسّلم ٢٠١
لا ظالم ولا مظلُوم ٢١٩
دستُور الإمام في آلولاة ٢٢٧
الإمام عليٌّ عليه السلام ومبادئ الحُرّيّة ٢٣٧

بلاغة عليّ في خدمة الإنسان ٢٧٩
حدود العقل والقلب ٢٨١
الأُسلوب والعبقريّة الخطابية ٢٩٣
من روائع الإمام ٣٠٥

ملوك وتفاهات ٣٦٥
المؤامرة في الإسلام ٣٦٧
بيتا قريش ٣٧٩
معاوية وخلفاؤه ٣٨٩
كآبة الخيّرين ٤١١
أنصار الفريقين ٤٢٩
الذين قتلوا عثمان ٤٦١
وجهاء الزّمان ٤٧٩

التنكيل بالمعارضة ٤٩٣
الحقيقة عن مقتل عثمان ٥١٥
أقوال وردود ٥٢٩

المؤامرة الكبرىٰ ٥٤٧
المحرّضون على عثمان ٥٤٩
إعصار يلفّ الدولة ٥٦٥
اللهمّ اشهد ! ٥٨٩
مُعاوية وابن العاص ٦٠٣
الرّياح السّافيَات ٦٢٣
بينَ الخَطأ وَالصَّوَاب ٦٣٥
وشاءت الأَقدَار ٦٤٣
لا تَزجرُوهنَّ، إنَّهنَّ نَوائح! ٦٤٩

صور من التاريخ ٦٦٣
بعدَ الإمَام ٦٦٥
خطّان .... علويّ و سفيانيّ ٧٠٧
مع الثائرين ٧٣٣
أدب التمَرد ٧٥٩
أدبُ الوفاء الإنساني ٧٧٧
حبّ وإجلال ٧٩١
الأوروبيّون والإمام ٨٠٣
الفهرست ٨١٩